

أرنولد توينبي

تاريخ البشرية

نقله إلى العربية

الدكتور نقولا زياده

الأهلية للنشر و التوزيع

تاريخ النشر

جميع الحقوق محفوظة
الأهلية للنشر والتوزيع
بيروت - 2004

هاتف: 01/756116 فاكس: 01/754116
ص.ب.: 113 5433 - بيروت

أرنولد توينج

تاريخ الأخ بشرية

نقله إلى العربية
الكتورنة قولاً زياً

المحتويات

11	تصدير
18	1 - الغاز في الظواهر الطبيعية
23	2 - المحيط الحيوي
42	3 - نحل الإنسان
50	4 - الأويكوميين
63	5 - الثورات التكنولوجية
78	6 - شق نهرين دجلة والفرات وخلق المدينة السومرية
85	7 - شق النهرين التلي وخلق المدينة الفرعونية المصرية
94	8 - سومر وأكد نحو 3000 - 2230 ق.م
101	9 - مصر الفرعونية نحو 3000 - 2181 ق.م
109	10 - الألف المالمى نحو 2500 - 2000 ق.م
118	11 - اريكوميين المالم القديم نحو 2140 - 1730 ق.م
125	12 - تدجين الحصان ونشوء البعثة الفرعونية في السهوب الأوراسية
129	13 - العلاقات بين المدينتان الإغريقية نحو 1730 - 1250 ق.م
144	14 - انبعاث الشعوب في المالم القديم نحو 1250 - 950 ق.م
156	15 - ظهور مدينة أولمك في ميزور - أميركا
159	16 - المالم السومري - الأكيدي ومصر 950 - 745 ق.م
166	17 - المدينة السورية نحو 1191 - 745 ق.م
180	18 - المدينة الهلينية نحو 1050 - 750 ق.م
185	19 - المدينة الهندوية 1000 - 600 ق.م
189	20 - المدينة الصينية 1027 - 506 ق.م

- 192 21 - مدينة أمبركة الوسطى والأندلس 800 - 300 ق.م
- 196 22 - المجولة الأخيرة للعسكرية الآشورية 745 - 606 ق.م
- 207 23 - أعقاب العسكرية الآشورية 605 - 522 ق.م
- 217 24 - المدينة الهلنسية نحو 750 - 507 ق.م
- 229 25 - انطلاقات جديدة في الحياة الروحية نحو 600 - 480 ق.م
- 239 26 - الامبراطورية الفارسية الأولى نحو 550 - 330 ق.م
- 246 27 - المجابهة بين الامبراطورية الفارسية الأولى والعالم الهلنسي
- 252 28 - الإنجازات الحضارية للمدينة الهلنسية 478 - 338 ق.م
- 257 29 - النتائج السياسية لقضاء الاسكندر على الامبراطورية الفارسية الأولى
- 263 30 - تطور المدينة الهلنسية وانتشارها 334 - 221 ق.م
- 271 31 - الدول المتحاربة في الصين 506 - 221 ق.م
- 279 32 - الفلسفات المتنافسة في الصين 506 - 221 ق.م
- 285 33 - المدينة الهندية نحو 500 - 200 ق.م
- 289 34 - التماسك على السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط
- 304 35 - النشون والمهان الغربية: اليهود الامبراطورية في الصين 221 ق.م
- 315 36 - حوض البحر المتوسط وجنوب غرب آسيا والهند 221 ق.م
- 341 37 - الامبراطوريات الصينية والكوشانية والفريثية والرومانية 31 ق.م
- 358 38 - تفاعل الأدباء والفلسفات في أوكومين العالم القديم
- 377 39 - المدينتان الميزو - أميركية والأندية حول 400 ق.م - 300 م
- 382 40 - الجناح الغربي لأوكومين العالم القديم 220 - 395 م
- 394 41 - المدينة الهندية من حوالي 224 إلى 490 م
- 398 42 - خروج الهون من السهوب الأوراسية في القرنين الرابع والخامس
- 404 43 - الامبراطوريتان الرومانية والفارسية 395 - 628 م
- 416 44 - المسيحية الغربية 395 - 634 م
- 424 45 - قيام الكنيسة المسيحية وتقسما 312 - 657
- 435 46 - المدينة الهندية 490 - 647

439	47 - تمزق الصين السياسي وإتشار البوذية فيها 220 - 589م
448	48 - المدن، الميزو - أميركية والآلية حول 300 - 900
451	49 - محمد النبي والسياسي من حول سنة 570 إلى 632
457	50 - توسع الدولة الإسلامية 633 - 750
463	51 - إحياء الامبراطورية الرومانية الشرقية 628 - 726
468	52 - المسيحية الغربية 634 - 756
473	53 - آسيا الشرقية 589 - 763
477	54 - العالم الإسلامي 750 - 943
482	55 - مدينة البزنطيين 726 - 927/928
487	56 - المسيحية الغربية 756 - 911
491	57 - الاسكندرانيون 793 - 1000
496	58 - الهند وجنوب شرق آسيا 647 - 1202
500	59 - شرق آسيا 763 - 1126
506	60 - مدنات ميزو - أميركا والأنذر حول 900 - 1428
509	61 - العالم الإسلامي 943 - 1110
515	62 - عالم بزنطية 8/927 - 1071
521	63 - المسيحية الغربية 911 - 1099
528	64 - العالم الإسلامي 1110 - 1291
533	65 - عالم بزنطية 1071 - 1240
539	66 - المسيحية الغربية 1099 - 1321
548	67 - آسيا الشرقية 1126 - 1281
550	68 - المنول وخلفائهم
555	69 - العالم الإسلامي 1291 - 1555
563	70 - المسيحية الشرقية الأرثوذكسية 1240 - 1556
568	71 - المسيحية الغربية 1321 - 1563
580	72 - جنوب شرق آسيا 1190 - 1511

582	73 - شرق آسيا 1281 - 1644
586	74 - المدنية في ميزو - أميركا والألفز 1428 - 1519
589	75 - اندماج الأويكويين 1405 - 1652
597	76 - المدنية الغربية 1563 - 1763
604	77 - المسيحية الأرثوذكسية الشرقية 1556 - 1768
607	78 - العالم الإسلامي 1555 - 1768
612	79 - شرق آسيا 1644 - 1839
616	80 - المجال الحيوي 1763 - 1871
626	81 - المجال الحيوي 1871 - 1973
637	82 - نظرة إلى الماضي 1973

تصديير

في سنة ١٨٩٧ احتفل باليوبيل الماسي لاعتلاء الملكة فكتوريا عرش بريطانيا. وقد أعاد هذا الأمر إلى الفكر تاريخ الستين سنة التي خلت من قبل. وقد أدى هذا الاستعراض إلى نظرة إلى ذلك التاريخ بأكمله، وهي نظرة بدت واضحة بسيطة. فبين سنتي ١٨٣٩ (سنة اعتلاء الملكة العرش) و ١٨٩٧ أتمّ الغرب توطيد سيطرته على بقية أنحاء العالم. وقد كان ذلك إتماماً لمسيرة كانت قد بدأت قبل سنة ١٨٩٧ بأربعمئة سنة، لما عبر كولومبس المحيط الأطلسي، وغادر فاسكو دي غاما البرتغال ودخل حول رأس الرجاء الصالح، ووصل إلى الهند. ففي خلال هذه القرون الأربعة كانت الأقطار غير الغربية، باستثناء اثنين منها هما أفغانستان والحيشة (ألبانيا)، لها أنها قد وقعت تحت السيطرة الغربية أو أنها أنقضت استقلالها بأن تقبلت طوعاً إلى درجة معينة، أساليب الحضارة الغربية المزدهرة. كان بطرس الأكبر قد بدأ تحديث روسيا على الأسلوب الغربي سنة ١٦٩٤، وسار صانعو ثورة ميجي في اليابان على الدرب نفسه سنة ١٨٦٨. وفي سنة ١٨٩٧ كانت ست من الدول السبع الكبرى آنذاك دولاً غربية، وكانت الدولة السابعة، وهي روسيا، دولة كبيرة لأنها تمكنت من قبول الأساليب الغربية إلى درجة كبيرة خلال القرنين السابقين لذلك. أما اليابان فلم تكن قد بلغت مرتبة الدولة الكبيرة - ذلك بأنها لم تكن حرباً على روسيا وتقتصر فيها حتى ١٩٠٤-١٩٠٥.

وهكذا فإن ترسيخ السيطرة الغربية، مع أنه كان حديث العهد، ظهر وكأنه أمر كتب له البقاء. فقد بدا العالم، في سنة ١٨٩٧، وكأنه قد قبل أن يكون تصريف أموره في يد الغرب. ومن الواضح أن التاريخ بلغ نهاية مطافه في قيام الوحدة السياسية في كل من إيطاليا وألمانية سنة ١٨٧١. وإذا كان « التاريخ » مرادفاً في معناه لما حفلت به الحضارة الغربية في ماضيها الصاعب من اضطراب وسير حثيث (كما كان كثيرون قد قبلوا

ذلك سنة ١٨٩٧) فمعنى ذلك ان التاريخ قد تخلى عنه الناس راضين، وذلك في فترة لا تزال ذكرهما عالقة في الأذهان. وعلى ذلك فإن سنة ١٨٩٧ بدت وكأنها نقطة تاريخية بتخذها الملاحظ متطعاً لاقاء نظرة خلفية على المسيرة التاريخية ولتفحصها تفحصاً وثيداً وكلياً من نقطة من الزمن كان فيها للملاحظ نفسه قد خرج من تحيطه في التغير الدائم للتاريخ.

وبدا التاريخ، وقد استعرض في تلك اللحظة، وكأنه انتهى به المطاف الى حالة من الاستقرار أساسها سيطرة الغرب، وأن مخطط التاريخ، أخذاً بهذه النظرة، قد أصبح واضحاً. وقد بدا عندئذ كأن التاريخ تكون من أحداث سابقة معينة هي التي انتهت بسيطرة الغرب الحالية. وأما غيرها من الأحداث السالفة فلم تعد من صلب التاريخ. ومن ثم فمن الممكن تجاهلها. حقاً كان العالم كله كأنه قد ضم الى نطاق الغرب. ومن ثم فقد دخل مجال التاريخ. لكن أخذ العالم بالأساليب الغربية كان حديث العهد. والأقطار التي قبلت بالصيغة الغربية للحياة كانت تابعة أو على حال هامشية. وعلى سبيل المثال فقد أدخلت الهند في نطاق الغرب لأنها أصبحت، سنة ١٧٤٦ إحدى حليفتي المنافسة بين دولتين غربيين هما بريطانيا وفرنسة. وفي سنة ١٨٩٧ كان للهند مكانة في العالم على أنها جزء من الامبراطورية البريطانية. وقد أصبحت روسيا دولة كبرى بسبب ما كان لبطرس الأكبر من بصيرة. على ان روسيا مع الاعتراف بقوتها، لم تكن قد بلغت من الحضارة الغاية؛ فهي، من حيث الثقافة، لم تكن بعد عضواً من الدرجة الأولى في نادي الغرب. أما أخذ اليابان بالحضارة الغربية فقد كان أمراً عجيماً، لكنه كان قريباً.

أما وقد عرف التاريخ على أنه سلسلة من الأحداث التي أدت إلى سيطرة الغرب، فقد أصبح من الممكن تعديده بدقة. فالإسرائيليون القدامى وأحفادهم اليهود قد أسهوا ولا ريب، في التاريخ على الأقل الى سنة ٧٠ للميلاد. ذلك بأن تاريخهم كان مقدمة لتاريخ المسيحية - كاثوليكية وبروتستانتية على السواء. وهذه هي دين الغرب. وإسهام أغارقة العصر الهليني في التاريخ كان كذلك لا ريب فيه. فالفلسفة الاغريقية المتحدثة من العصر الهليني كانت قد استخدمت في صياغة اللاهوت المسيحي، ولم يقتصر الأمر على الفلسفة، بل ان ما كان عند الهلنيين من أدب وفنون مرئية وعمارة كانت، منذ النهضة، مصدراً روحياً لثقافة الغرب الحديثة.

كانت اليهودية والهلينية المصدرين الرئيسيين للحضارة الغربية. وقد تولدت هذه بسبب

ما كان بين اليهودية والهلينية من صدام، ولم يكن من المحتم على المؤرخ، عندما يحاول التعرف الى الماضي، ان يسير في تيار الماضي إلى أبعد من ذلك. ومع ذلك فإن رجال الآثار العرييون كانوا، خلال السنوات الستين من حكم الملكة فكتوريا، أي حتى سنة ١٨٩٧، يبعثون بمضغ حضارات سابقة وصياً لحضرة الاسراتيليين القدماء والهلبيين وعلى سبيل المثال حضارة مصر الفرعونية والحضارة الآشورية، والحضارة الميكانيكية في وقت أقرب عهداً. وقد كان تصور رجال الآثار هؤلاء لهذه الحضارات القديمة، الى ذلك الحين، شراً حياً وسهماً. ولكن هذه الحضارات النبوة كان يحق لها أيضاً أن تضم الى التاريخ، فيما اذا تبين انها كانت قد أضاعت شيئاً ما الى أصلي الحضارة العربية اليهودي والهليني.

وقد بدأ، في سنة ١٨٩٧، انه من اليسر ان نتابع التقدم الذي أصاب العالم الذي قبل الحضارة الغربية من أيام اليهودية، والهلينية الى ذلك الوقت. فاليهود والأغارقة اندمجوا في الامبراطورية الرومانية. وهذه كانت الرحم السياسي للمسيحية. وكانت الامبراطورية الرومانية قد اعتنقت المسيحية قبل سقوط الامبراطورية في ولاياتها الغربية. واعتناق البرابرة الذين فدحوا البلاد التي كانت تابعة للرومان في الغرب هو الذي أدى الى انتشار تدريجي للمسيحية الغربية، وهو الانتشار الذي كان قد بدأ في العقد الأخير من القرن الخامس من التاريخ المسيحي. ومنذ ذلك الحين كانت بقية أجزاء العالم تدخل في مجال التاريخ بالطريقة ذاتها وفي الوقت نفسه الذي كانت فيه هذه البقية تضم الى نطاق الغرب، هذا النطاق الذي كان يصح باستمرار.

هذه النظرة الاستعراضية للتاريخ كانت مقبولة في سنة ١٨٩٧، لأنه في ذلك التاريخ ظهر للعيان وكأن السيطرة العالمية التي بلغها الغرب هي دائمة البقاء. وفي سنة ١٩٧٣ كانت سيطرة الغرب تبدو وكأنها لم يسبق لها مثيل في انتشارها العالمي الواسع، إلا انه كان يبدو أيضاً وكأن هذه السيطرة هي عابرة على نحو ما كانت السيطرات السابقة، وهي التي لم تكن عالمية والتي عرقها المنول والمرتد، والهون والرومان والاعريق والفرس والآشوريون والأكديون. وإذا كان من المحتمل ان تكون سيطرة الغرب هامشية أيضاً، فإنه لا يمكن اعتبارها للغاية التي انتهى اليها التاريخ بأكمله. إذن فمجال التاريخ لا يمكن، بعد ذلك، ان يحصر ضمن حدود هي الحدود السابقة تاريخياً للحضارة الغربية. وعندما يحى هذا التحديد التحكمي، تتضح لنا الكمية الهائلة من التاريخ التي طرحت جانباً في سبيل

خلق صورة للتاريخ مبنية على البقية التي لم تطرح، وهي الصورة التي كانت ترمي، في سنة ١٨٩٧، إلى ضم كل شيء اعتبر مطابقاً للحالة التي بلغها شؤون البشر في تلك السنة.

والصورة التي عرضت سنة ١٨٩٧، كانت قد أخرجت من التاريخ تاريخ اليابان قبل ١٨٩٨، وتاريخ الصين قبل ١٨٣٩، وتاريخ الهند قبل ١٧٤٦، وتاريخ روسيا قبل ١٦٦٤. وكانت قد استنتج التاريخ الكامل للبوذية والهندوكية والإسلام، مع العلم، بأن هذه كانت في سنة ١٨٩٣ كما كانت في سنة ١٩٧٣، ثلاثة من الأديان الأربعة التي كان لها أكبر عدد من الأنواع، وإن البوذية والإسلام كانا دينين من الأديان الثلاثة التي تنطوي على دعوة عالمية. وقد كان مدى كل منهما متسعاً اتساع مدى المسيحية. والصورة التي رسمت سنة ١٨٩٧ كانت قد أخرجت أيضاً ثلاثة من الفروع الأربعة الرئيسة نفسها أي التنسورية وأهل الطليعة الواحدة والبروتوكسية الشرقية مع أنه، في سنة ١٨٩٧، كان أتباع الكنائس الأرثوذكسية الشرقية، مثل البروتستانت والكاثوليك (الغربيين)، من حيث عددهم وأهميتهم في ذلك التاريخ.

وكان ثمة نواح في الصورة أكثر إمعاناً في الغرابة. فاليهود قد ألفوا من التاريخ اعتباراً من سنة ٧٠٠ وهي السنة التي عدم فيها الرومان الهيكل في القدس، كما أُلقي الإغريق منذ سنة ٤٥١، وهي السنة التي صيغت فيها غزوات مجمع خلقيدونية على أيدي لاهوتيين مسيحيين يونانيين. (وقد أعيد اليونان إلى الخطيرة اعتباراً من سنة ١٨٢١ لأنهم في تلك السنة ثاروا ضد الإمبراطورية العثمانية رغبة منهم في أن يتقبلوا في عضوية المجتمع الغربي).

والطريقة التي عولج بها تاريخ الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي كانت الأمع في الغرابة. ففي ذلك القرن كانت الإمبراطورية الرومانية لا تزال قائمة في المشرق، وهو المكان الذي كان دوماً مركزاً للقتل في الناجيين البشرية والاقتصادية، لكنها كانت قد انهارت في ولاياتها الغربية التي كانت متفطرة نسبياً. ومع ذلك فإن مخطط التاريخ الذي كان سائلاً سنة ١٨٩٧ تجاهل، اعتباراً من سنة ٤٧٦ (وهي السنة التي خلع فيها آخر الأباطرة الرومان المناجرين في الجزء الغربي من الإمبراطورية) الإمبراطورية الرومانية مع أنها كانت لا تزال حية في المشرق ومع أنها استمرت في القيام بدور في الشؤون العامة إلى مختتم القرن الثاني عشر. وفي واقع الأمر فإن مخطط التاريخ الذي

كان مألوفاً سنة ١٨٩٧ تجاهل، في سنة ١٩٧٦م، العالم المتحضر القائم يومها والمتمدن من اليونان إلى الصين، ومن الصين إلى أميركا الوسطى والبيرو. وهذا المخطط، البالغ في العربية، ركز اهتمامه، اعتباراً من سنة ١٩٧٦م، على الدول الشيوعية التي دوشت الامبراطورية الرومانية في ولاياتها الغربية المتخلفة.

وقد انضح، في سنة ١٩٧٣، أنه لا يمكن أن يشطب أي جزء من هذه الكمية الضخمة من التاريخ الذي كان قد طرح جانباً باعتباره غير ذي موضوع. مثال ذلك أن حضارة أميركا الوسطى، التي بدأ وكأن كورتيز قد سحاً أثرها، بدت وكأنها قد أُنشئت تظهر ثانية خلال طلاء بال من الحضارة الغربية في مكسيك وغواتيمالا. وفيما يتعلق بتاريخ آسيا الشرقية فإن أي شخص يلقى نظرة على الصين واليابان سنة ١٩٧٣ كان لا بد له من القول بأن ما كان في هذين البلدين من التجارب التاريخية السابقة، عودة إلى العصر الحجري الحديث في شرق آسيا، لم تكن بأقل أهمية من تجارب الغرب المعاصر. ولم يكن في مقدور مؤرخ في سنة ١٩٧٣ أن يتخلى عن القسم الأكبر من التاريخ الذي كان على استمداد لطرحة جانباً سنة ١٨٩٧. كان عليه يومها أن يسترد ذلك كله وأن يعيد صياغته مع ما كان قد نُقِل، والذي أدى إلى ما كان عليه الغرب سنة ١٨٩٧، والذي كان مخطط التاريخ المألوف في سنة ١٨٩٧ قد احتفظ به دون غيره.

في سنة ١٩٧٣ أصبح المسح العام للتاريخ أمراً حتمياً، لكن هذا العمل كانت ترائقه مشاكل جسيمة من حيث الاختيار والعرض على السواء.

نأية حكاية، مهما كان الأمر الذي نتعامله لا بد من أن يرافقه اختيار. فالمعقل البشري لا يتمتع بالقدرة على إدراك جماع الأمور في نظرة شاملة واحدة. فالاختيار أمر لا مفر منه، وهو أيضاً أمر تحكيمي حتمياً، ويقدر ما تكون مادة الاختيار التي يطلب الاختيار منها أكبر، يكون النقاش حول تخير الباحث أشدّ على سبيل المثال فإن الاختيار من الأحداث التاريخية الذي بدأ مقبولاً سنة ١٨٩٧، قد شُهر غريباً سنة ١٩٧٣. ومي القصة التي أقدمها الآن تجتث أن أضفي على حضرة الغرب وسابقها الأهمية البالغة التي اعتادت الدراسات الغربية لتاريخ العالم أن تسيبها عليها. وإلى ذلك قد حاولت أن أنجب الوقوع في خطأ مقابل أي إعطاء الغرب وسابقاته أقل مما يستحق. وعلى كل فإن الصيني الذي يقرأ حكايتي هذه قد يحكم علي بأنني منحت الغرب مدى أوسع من

اللازم، فيما قد يكون حكم القاريء القريبي عليّ هو أنني بذلت من الجهد الكثير لصعظ الحصار التي تسمى كلاتا إليها، ووضعها في مكانها المناسب لها.

في هذه الحكاية التي وضعت سنة ١٩٧٣ كان تناول المراحل الأولى والأخيرة في تاريخ البشرية أقل صعوبة من تناول المراحل الواقعة بين هذه وتلك، ففي العصر الحجري القديم المبكر (وهو يكون خمسة عشر أو ستة عشر جزءاً من فترة تاريخ البشرية إلى الآن) كانت الحياة متسقة. فمع أن الاتصال بين الجماعات كان بطيئاً، فإن مسيرة التغير في حياة المجتمعات كانت بعد أبطأ. أما خلال القرون الخمسة الأخيرة فقد أصبح موطن الجنس البشري وحدة على المستويين التكنولوجي والاقتصادي وإن لم يبلغ ذلك على المستوى السياسي بعد، وذلك لأن الصراع في صير التغير قد سبقه تسارع في وسائل المواصلات. وفي المرحلة الواقعة بين هذه وتلك، وبخصوصاً في الأربعة آلاف ونصف أي حول ٣٠٠٠ ق.م. إلى ١٥٠٠ م، كان التغير أسرع من تطور وسائل المواصلات، ومن ثم فإن التباين بين نشاط الحياة الاقتصادية بلغ القفزة.

ولسنة فترات، حتى في هذه الحقبة ذاتها، كانت فيها أجزاء كبيرة من موطن الانسان مرتبطة بعضها ببعض الآخر، وقد أفدت من ذلك لتقديم نظرة شاملة إلى القاريء. فمن أمثلة الآثار الواضحة التي يضيءها المعالم القديم لماناء هذا التحول في الحياة الروحية الذي عرفه القرن السادس قبل الميلاد، وانتشار الحضارة الهلينية نتيجة حياة الاسكندر الكبير، والتوحيد السياسي للعالم القديم الذي تم على يد الملوك في القرن الثالث عشر للميلاد والذي لم ينتج منه سوى طرفي ذلك العالم. وقد كان هناك فترات عملاقة في التاريخ الأندلي التي تمثلها آثار تشافن وتيلموفاكو. وعلى كل فإن الغالب على الحقبة الممتدة من ٣٠٠٠ ق.م. إلى ١٥٠٠ م أنه كان لكل من المناطق التي تنقسم موطن الانسان سبلها الخاص بها. فالانزوال والتباين تغلبا على الاتصال والتمثل والحضارات الاقليمية تعايشت دون أن تتلاحم.

هذه حقيقة تاريخية لا يد من أن تنعكس على الرواية التاريخية. ولذلك فإن الكاتب يواجه مشكلة التحول عن عدد من سلسلة أحداث متعاصرة. وقد لجأت إلى حيل المشعوبير في الاحتفاظ بعدد من المطالبات في الهواء في وقت واحد، وسرت على خطة تلخص في أن أتناول تاريخ كل منطقة ثم أتدخل عنه بالتتابع، وقد ضحيت بمعالجة

مستمرة لمناطق معينة، وبذلك تمكنت من تقديم تلويخ لعالم ككل في شكل زمني منظم تقريباً.

وكل من الأسلوبين - أسلوب العرض الروائي وأسلوب التحليل والمقارنة - له موائده الواضحة ونقائصه. وقد كان هدفي من هذا الكتاب الذي أضعه بين أيدي القراء هو أن أقدم عرضاً موجزاً وواضحاً لتاريخ البشرية بأسلوب الحكاية.

١- انفاز في الظواهر الطبيعية

بعد أن يحل بالكائن البشري ثم يولد، قد يموت الطفل قبل أن يستيقظ فيه الوعي، وحتى القرن العشرين كانت نسبة متوفاة عالية إلى حد القسوة من الأطفال تموت قبل مرحلة الوعي في الحياة، إذ كانت وفيات الأطفال أمراً عادياً بشكل طبيعي، حتى في المجتمعات البشرية التي كانت تمتنع بقط نسي من الأمن والثراء، والتي كان لها أيضاً، ولو نسبياً، حظ من المعرفة والعناية الطبية.

وقد كانت وفيات الأطفال بين البشر قبل العصر الحديث على درجة من الجسامه نفسها التي كانت بين الأرانب، فضلاً عن ذلك فإن الطفل الذي لم يعيش طويلاً بحيث يحس بفجر الوعي، قد ينقصف عمره في أي من مراحل حياته إما عمداً أو بسبب حادثه ما أو مرض ما أو إصابة ما بحيث تمنع للمهارة والدعة الطبية والجراحية، التي يمكن الحصول عليها في الوقت والمكان المصين، عن شفاؤه من أي منها.

وعلى كل فإن طول المدة المحصلة للعمر قد زادت زيادة تدعو إلى الدهشة في المجتمعات التي تصل مبكرة إلى انضج في الناحيتين الطبية والاجتماعية. وحتى في المجتمعات المتأخرة سبياً بدأ هذا الطول بالزيادة. ففي آيسلندا هذه قد يستمر الوعي عند الكائن البشري سبعين أو ثمانين سنة قبل أن يضع الموت حداً له، أو قبل أن تغيبه الشبحوخة، حتى قبل الموت الطبيعي. وخلال هذه السنوات، السبعين أو الثمانين، من الوعي يدري الكائن البشري بالظواهر الطبيعية. وهذه الظواهر الطبيعية تصع أمامه عدداً من الألغاز، والأفكار النهائية لم يوضحها بعد ما وصلت إليه المعرفة وانتهت المصليان من تقدم - على ما في هذا التقدم من سرعة واتساع تمتع بهما في العصر الحديث.

لقد أمد العلماء حديثاً في الكشف عن التركيب الكيميائي للمادة وأشكالها التكوينية التي نتج عنها الأحوال الطبيعية التي تبعت الحياة في المدة وتوقف الوعي في الكائن

المحي. وهذا التقدم العلمي حمل إلينا معه اكتشافاً سلباً واحداً وهذا قد يلقى القبول بين أتباع الأديان الآلهية، لكنه يقابل بالرفض العنيف من العقائد التطبيقية، لأنه يتناقض مع هذه العقائد المتوصللة في النفس البشرية، رغم أنها لم تثبت بعد ولن يحتاج لها أن تثبت. فلم يعد بالإمكان اليوم الاعتقاد بأن الظواهر التي يعيها الكائن البشري قد وجدت بأمر من إله خالق هو على صورة الإنسان. فهذه الطريقة التقليدية لتفسير الظواهر كان قوامها اتخاذ الأعمال البشرية مقاساً للتفسير، وهو أمر لا مبرر له. إن البشر يصنعون من الموجود من « المواد الخام » المادة أدوات وآلات وشباباً وبيوتاً وغيرها من الأشياء المصنوعة. ويصنعون على هذه المصنوعات وظيفة وغطاءً، وهذا ليس أصلياً في طبيعة « المواد الخام ». فالوظيفة والنمط ليسا شيئاً عادياً، وهما من وجهة النظر المادية، مخلوقان من العدم. أما ما يقدم من تفسير لوجود الظواهر الطبيعية من حيث أنها ناتجة عن نشاط قوة خلاقة هي على صورة الإنسان، فقد قدرته على الاتباع، لأن وجود إله خالق هو على صورة الإنسان إنما هو فرضية لم يقدم دليل على إثباتها. إلا أن هذه الفرضية التطبيقية، التي لا سبيل إلى قبولها، لم يحل محلها دليل مقنع إلى الآن.

وما نستنتج به من ازدياد في معرفتنا للأحوال الطبيعية التي تبحث الحياة والوعي والقصد في البشر، لم يحمل معه فهماً جاداً لطبيعة الحياة والثبات منها (هذا إذا كان لمة غاية) والوعي. فهذه صيغ للوجود تختلف واحدها عن الأخرى، كما تختلف عن المادة المركبة عضواً والمتعلقة بها، على نحو ما ندلنا نخرجنا. فكل كائن بشري حي يحمله كائن بشري آخر أو يعرف عنه، بما في ذلك الكائن نفسه، إنما هو روح واع ذو قصد معين، وبميش في جسم مادي. ولم يحدث قط أن أيّاً من العناصر التي يتكون منها الكائن البشري الحي أمكن التعرف عليه منفصلاً عن البقية. فالعناصر تكون دوماً مرتبطة واحدها بالآخر، ومع ذلك فإن هذه الصلة الثابتة بينها ليس من سبيل إلى إدراكها.

لماذا تكون بعض أجزاء من الظواهر المادية مرتبطة مؤقتاً بالحياة (كما تكون هذه الأجزاء من الكائنات الحية من كل نوع) ومرتبطة أيضاً بالوعي (كما تكون في الكائنات البشرية) فيما تكون الأجزاء الأخرى (التي يبدو أنها تكون القسم الأكبر من جماع المادة في المنظومة الكونية) جامدة لا وعي لها دوماً وكيف تم في مر مجرى المكان - الزمان، وفي نقطة - لحظة معينة منه (أي في هذا المحيط الحيوي الواسع الذي يلف كرتنا الزائلة تغليفاً مؤقتاً) للحياة والوعي أن يرتبطا بالمادة؟ ولماذا نجهد الحياة

نفسها، وهي الجسم في مادة مركبة تركيباً عضوياً، في تخليد ذاتها، لو عندما تكون الحياة ممثلة بأحياء جنسية، وقتية، تحول لاستبدال ذاتها على صورتها الصحيحة؟ من الواضح ان الحفاظ على أي نوع من الكائنات الحية يكلف جهداً عظيماً. فهل هذا الجهد متأصل في طبيعة النوع وفي نسبه؟ فإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يكون هذا الجهد متأصلاً في طبيعة عناصر المادة العضوية، في حالتين: قبل أن تكون عضوية وبعد كونها كذلك، ما دام تشكيلها العضوي يكون، الى حد كبير، فصلاً قصيراً في تاريخها؟ وإذا كان الجهد ليس متأصلاً بل دافعاً، فما هي الوساطة التي تدخله، إذا نحن تخليدنا عن الفرضية التي تقبل فكرة تدخل إله خالق؟

وبعد، فلنقبل حقيقة التبدل الخلقي بالنسبة الى بناء الأحياء ووظائفها. ولنقبل أيضاً صحة الرأي الدارويني بأن التبدل الخلقي، المصحوب بالانتخاب الطبيعي لمدة كافية، يوضح، بشكل دقيق، التباين في الحياة الى أنواع مختلفة، وكذلك نجاح بعض الأنواع في البقاء وفشل أنواع أخرى. حتى لو قبلنا كل هذا فإن التبدلات الخلقية نفسها تظل دهن توضيح. فهل إن التبدلات الخلقية عرضية أو إنها مصممة أو إنها خردج على التصميم؟ أم ترى هذه الأسئلة الثلاثة هي في غير موضعها عندما نثار بالنسبة الى الظواهر التي لا تملك الوعي ولا القدرة على التصميم؟ ولنفرض أننا نسح لأنفسنا أن نعنى بالأنواع غير البشرية في حدود موصوفة بالبشرية فلماذا ستواجه أسئلة أخرى. إن تعرض نوع من الأنواع لأن تمر به تبدلات خلقية هو نزعة مقابلة لجهد النوع في الحفاظ على ذاته أو لاستبدالها على مثال. فهل الحفاظ على الذات المسألة هو غاية النوع، وهي ان التبدلات الخلقية لا تعدو كونها قصوراً في النوع عن تحقيق ذاته؟ أم هل ان النوع مهياً للتبدل، وما محاولته في الحفاظ على الذات المسألة إلا عتبة في سبيل هذا التبدل، وهي محاولة أساسها قوة الاستمرار؟

هذا التباين في الحياة الذي نراه في الأنواع المختلفة يعمل في طبيعته الخاصة بين بعض الأنواع المختلفة وبعضها الآخر، والتملحون بين غيرها من الأنواع. فأي من هذين الصنفين من العلاقات المتنافسة هو السنة الأسس للطبيعة؟ ليس في العلاقات التي تقوم فيما بين الأنواع اللاواعية سواء في ذلك التملحون أو التنافس، ما هو فعل صادر عن اختيار متعمد، ولكن الاختيار متعمد في الكائنات البشرية، وهو بالنسبة إلينا، مرتبط بالمحس البشري للفرق والتفاضل بين الصواب والخطأ وبين الخير والشر. فما هو مصدر هذه الأحكام

للطبيعة التي هي، على ما يبدو، ذاتية بالنسبة إلى الطبيعة البشرية لكنها غريبة بالنسبة إلى طبيعة الأنواع غير البشرية؟

وأخيراً فالكائن البشري الواعي والذي له مقصد معين والذي يملأه الحس بالتمييز بين الصواب والخطأ والذي يحمل (حتى ولو كان هذا متعلقاً للباحث الخلقي) على أن يفعل ما يبدو له صحيحاً - هذا الكائن البشري ما هو مكانه وأهميته في الكون؟ إن الكائن البشري يشعر كأنه مركز الكون، لأن وعيه بالذات هو، بالنسبة إليه، القطعة التي يرى منها المنظر الشامل الروحي وللادي للكون. وهو أيضاً أناني بمعنى أن الباحث الطبيعي عنده هو أن يتخذ من كل ما تبقى من الكون أداة لخدمة أغراضه. على أنه يدري، في الوقت ذاته، أنه فضلاً عن قصوره عن أن يكون مركز الكون حقاً، فهو نفسه زائل مستهلك، يضاف إلى ذلك أن ضميره ينبئ بأنه عندما يسلم نفسه للأنا، فإنه يقع في الخطأ، علقياً وعقلياً.

هذه هي بعض الأفكار التي تطرحها الظواهر الطبيعية أمام الكائن البشري الذي يعيها. قد يستمر العلم في تقدمه، وقد لا يستمر في ذلك. وفيما إذا كان العلم يسير قدماً أم أنه سبأسن ليس مسألة مقدرة عقلية في الإنسان. إذ يبدو أنه لا حد لمقدرة الإنسان العقلية في الاستزادة من المعرفة العلمية، وفي وضع هذه المعرفة في موضع التطبيق وللتقدم في التكنولوجيا. ذلك بأن مستقبل العلم أو التكنولوجيا يعتمد، بعض الاعتماد، على المجتمع أي فيما إذا كان هذا المجتمع سيستمر في تقدير هذه النشاطات هذا التقدير الكبير، وفيما إذا كان سيستمر في تقديم المكافأة للسخة على نحو ما جرى عليه في الأزمنة الحديثة. كما يعتمد ذلك المستقبل بعض الشيء أيضاً على موقف أصحاب القدرات العقلية المتأثرة أي فيما إذا كان هؤلاء الأشخاص سيستمررون بالعناية بالعلم والتكنولوجيا - ليس شئ ما يضمن هذا الأمر - ذلك بقى في مجالات النشاط البشري جمعاء تبدل الأنماط. فمن المعتقد أن يعود الدين أو الفن إلى مركز الصدارة من حيث اهتمام أصحاب العقول القادرة بهما، على ما كان عليه الحال في الماضي، في أماكن وأوقات مختلفة. وعلى كل فحتى لو أتيح للعلم أن يستمر في تقدمه بالمسيرة نفسها، فمن المنتظر أن لا تنقله اختراعاته المقبلة إلى حدود أبعد مما وصل إليه في الماضي والحاضر. قد نزداد معرفتنا عن الطريقة التي يسير فيها الكون الظاهر، لكن العلم لا يؤمل له أن

يسمح في المستقبل، أكثر مما نجح في الماضي، في تمكيننا من فهم السبب في أُل الكون
يسير على الطريقة التي يسير عليها لو حتى في واقع الأمر، لماذا الكون موجود.
وعلى كل فالكائن البشري يتعقّب عليه أن يعيش ويعمل، خلال حياته المنصطرية
(جسداً وعقلاً) في المحيط الحيوي. ومتطلبات العيش والعمل تفرض عليه أن يبرود نفسه
بأجوبة مؤقتة للأغراض التي تضعها الظواهر الطبيعية أمامه، هذا مفروض عليه حتى ولو هجز
عن الحصول على هذه الأجوبة من العلم، وحتى لو كان يعتقد بأن المعرفة العلمية هي
المعرفة الوحيدة الحقة. على أن هذا الاعتقاد ليس في حيز من التشكيك فيه. ومع ذلك
لأنه من الصحيح أن الأجوبة التي نخرج عنها خارج حدود العلم هي أعمال إيمان لا يمكن
التثبت منها. فهي ليست شرعاً عقلياً، إذا هي حدى ديني. ومن ثم يبدو من المحتمل أن
الحياة سترغم الكائنات البشرية في المستقبل، كما أرغمتها في الماضي، على أن تصبغ
أجوبتها، بالنسبة للقضايا النهائية، في عبارات حدسية دينية لا يمكن التثبت منها. وقد
يبدو للعاظر إلى الأمور نظرة سطحية أن التعابير الدينية المائلة إلى ما بعد عصر العلم
ستكون بعيدة جداً شامعاً عن تلك المائلة إلى ما قبل عصر العلم. وكل تعبير ديني
سابق كان يبدل بحيث يتناسب مع النظرة العقلية للعصر والكان حيث صيغ ذلك التعبير
بالتفان. ولكن الجوهر الذي هو ركيزة الدين هو، ولا ريب، ثابت ثابت جوهر الطبيعة
البشرية ذاتها. فلذلك، في الحقيقة، هو صفة ذاتية ومميزة للطبيعة البشرية. فهو الاستجابة
الحسية لتحدي شروض الظواهر الطبيعية. هذا هو التحدي الذي يواجه الكائن البشري
بسبب أنه يملك هذه القدرة البشرية الفريدة - قدرة الوعي.

٢- المحيط الحيوي

هذه الكلمة هي من وضع تبار دوشاروان، وهي كلمة جديدة اقتضاها وصولنا الى مرحلة جديدة في مسيرة اكتشافاتنا العلمية بسبب ما نملك من قوة مادية. والمحيط الحيوي يتكون من طبقة من الأرض الهابسة والماء والهواء وهي تطلق كرة (أو الكرة تقريباً) سيارنا الأرض. وهو الآن الموطن الوحيد - وسيظل، بقدر ما يمكننا أن نرى ذلك الآن، الموطن الوحيد الذي يمكننا الوصول اليه - لجميع أنواع الكائنات الحية المعروفة، بما في ذلك البشر.

والمحيط الحيوي محدود الحجم بشكل ثابت، ومن ثم فإنه يحتوي على قدر محدود من الموارد التي تعتمد عليها مختلف أنواع الكائنات الحية في الحفاظ على كيانها. بعض هذه الموارد متجدد، والبعض الآخر لا يمكن تعويضه، وأي نوع من الأحياء الذي يفرط في استهلاك الموارد المتجددة، أو يستنزف ما لا يمكن تعويضه من المولود، يقضي على نفسه بالانقراض. وحدد الأنواع المتقرضة التي علفت أثرها في الطبقات الجيولوجية هو كبير بشكل مذهل، إذا ما قورن بعدد الأنواع التي لا تزال موجودة.

والصفة البارزة للمحيط الحيوي هي صغر حجمه نسبياً، وضآلة الموارد التي يحتوي عليها، فمن حيث الحدود الأرضية فالمحيط الحيوي رقيق جداً، فحده الأعلى يقابل أقصى ارتفاع في الجو تظل فيه الطائرات، محمولة على الهواء، وحده الأدنى هو العنق الذي يسكن فيه المهندسون من التمددين أو التقب، وذلك تحت سطح الجزء الصلدة منه. فسخن المحيط الحيوي بين حدين الحدين، دقيق للغاية إذا قورن بطول نصف قطر الكرة التي يغلفها كالجلد الرقيق. والكرة هذه أبعد ما يمكن عن أن تكون أكبر السيارات الشمسية، وكذلك كونها أبعد هذه السيارات عن الشمس، هذه السيارات التي تدور حول الشمس في مدارات هي، في الحقيقة، اهليلجية وليست دائرية. فضلاً عن ذلك قشعنا إنما هي

واحدة من عدد لا يحد من الشمس التي تكون كوكبتا، وهذه نفسها إما هي واحدة من عدد من الكواكب التي لا يعرف عددها (فعدد الكواكب المعروف يتزايد مع كل اتساع في مجال الرؤية للمراقب التي نستعملها)، وهكذا فإن أبعادنا في محيط الحيوان بالمقارنة مع الأبعاد المعروفة للكون الطبيعي، هي دقيقة إلى درجة متناهية.

والحيث الحيوي ليس من عمر الكرة التي يطلقها الآن. إنه نثر - يمكن أن يسمى إما حالة أو قشرة - ظهر إلى الوجود بعد أن بردت قشرة الكرة التي يعلوها، بحيث تم لأجزاء من مركباتها الغازية الأصلية أن تصبح سائلاً ثم تتصلب. يكاد يكون من المؤكد أنه المحيط الحيوي الوحيد الموجود الآن في نظامنا الشمسي، ومن المحتمل أنه لم يوجد في نظامنا الشمسي محيط حيوي آخر، أو أنه يمكن أن يوجد في المستقبل. من المحتمل أن شمساً أخرى - ولعلها كثيرة - غير شمسا لها سيارات، وأن البعض من بين هذه السيارات الممكن وجودها، ما يدور، كما تدور أرواحنا حول شمس على بعد يمكنه من أن يكون على سطحه محيط حيوي، على نحو ما عندنا. ولكن فيما لو أمكن، في الحقيقة، وجود محيطات حيوية أخرى، فلا يمكن القول بأنها حتماً مواطن لكائنات حية، كما هي الحال في محيطا الحيوي. ففي المواطن المسكنة الحياة فيها، ليس من الضروري لهذه الحالة التي نبهنا أن تتحقق.

إن الشكل الطبيعي للسادة المركبة عضوية قد أصبح الآن معروفاً. ولكن، كما لاحظنا من قبل، نجد أن الوعي الطبيعي للحياة والوعي والقصد ليس هو الشيء ذاته كالحياة والوعي والقصد. نحن لا نعرف كيف أو لماذا وجدت الحياة والوعي والقصد حول سطح أرضنا. وعلى كل فإننا نعرف أنه بسبب التفاعل بين الأحياء والمادة غير العضوية، قد أعيد توزيع العناصر المادية مكانياً. كما أن هذه العناصر أعيد تركيبها كيميائياً. ونعرف أن إحدى النتائج التي ترتبت على تكون لأحياء « بيئية » كانت تزويد تضيق المحيط الحيوي بمصفاه للاشعاع المسلط عليه باستمرار من شمسا ومن مصادر أخرى خارجية. وبذلك أصبح هذا الإشعاع يدخل محيطا الحيوي الآن بطريقة من القوة ليست محتلة محسب، ولكنها صالحة لأعمال من الحياة العليا (إن تمييز « العليا » يقصد به ما كان من أشكال الحياة قديماً من المرح للعروف باسم الإنسان العاقل Homo Sapiens - وهو استعمال سيي وذاتي لكلمة « عليا ») .

ونحن نعرف أيضاً أن المادة التي يختبر عليها محيطا الحيوي كانت، ولا تزال، في

تبادل أو تدارر مستمر بين الأجزاء من هذه اللادة التي هي، في لحظة معينة، جامعة وحية. وأن بعض أقسام الجزء الحي، في تلك اللحظة لعينة بالذات هي نبات والبعض الآخر حيوان، وفي القسم الحيواني بعض النماذج غير البشرية والبعض الآخر بشري والمحيط الحيوي يوجد ويبقى حياً بواسطة تنظيم ذاتي وصيانة ذاتية دقيقين لتوازن القوى. وعناصر المحيط الحيوي يتكامل واحد على الآخر، والإنسان يعتمد في صاته بقية المحيط الحيوي كما يعتمد أي من عناصر المحيط الحيوي الخالية. وعندما يكون ثمة فعل تفكير فإن الكائن البشري يمكنه أن يميز نفسه عن بقية البشرية وعن بقية المحيط الحيوي، وعن بقية الكون الطبيعي والروحي. ومع ذلك فإن الطبيعة البشرية، بما في ذلك الوعي والضمير البشريان والكيان البشري أيضاً - هذه الطبيعة البشرية قائمة في المحيط الحيوي. وليس لدينا أي دليل على أن الكائنات البشرية، كأفراد، أو أن البشر بأكملهم، أمكنهم أن يوجدوا، أو أنهم وجدوا، خارج نطاق الحياة التي يوفرها المحيط الحيوي. وفيما لو فقد المحيط الحيوي إمكاناته في أن يكون موطن الحياة فإن البشرية، على حد ما نعرف، تتعرض للهلاك، الأمر الذي سيصيب حينئذ أشكال الحياة جميعاً.

يضاف إلى ذلك أن أقرب محيط حيوي محصل وجوده إلى محيطنا (مدا) إذا كان وجوده، إضافة إلى محيطنا، ممكناً في المنظومة الكونية (قد يكون على بعد مئات الملايين من السنين الضوئية من سيارنا. ففي جيلنا نحن نمكن عدد من البشر من أن يهبطوا على سطح قمر سيارنا، وبعد قضاء فترة قصيرة هناك، يمكن إعادتهم أحياء إلى الأرض في كل حالة تقريباً، وقد كان نصراً عظيماً للعلم المعتمد على التكنولوجيا، إلا أنه كان نصراً أكثر روعة للأنسب الاجتماعي، إذا اعتبرنا أنه، إلى الآن: كان نجاح الكائنات البشرية في تنظيم علاقاتها بعضها مع البعض الآخر أقل منه في سيطرتها على الجزء اللاشعري من الطبيعة. فهذا العمل البارز علمنا بضعة دروس ذات أهمية علمية في تقدير مستقبلنا واختيار سياستنا على الأرض.

إن القمر أقرب إلى الأرض من أي نجم آخر، وهو يتبع لسيارنا. ومع ذلك فإن إرسال بضعة رجال إلى القمر ليضع ساعات اقتضى عملاً مدبراً دقيقاً وتعاوناً بالغاً في الحماسة وقام به بضع مئات من آلاف الكائنات البشرية. واقتضى كذلك إنفاق كميات هائلة من الموارد المادية كما تطلب قسماً كبيراً من الشجاعة والمقدرة، وهي من أندر وأحسن ما تملكه البشرية. وحتى لو ثبت أن القمر غني في مولوده اللازمة للحياة البشرية

غنى الأمير كيتن، فإن استغلال هذه الموارد لن يكون مثمراً من الناحية الاقتصادية. فاستعمار أناس من الأرض للقمر استعماراً مستمراً لن يكون عملياً. فالأجسام البشرية لها تركيب طبيعي يمكنها من تحمل جذب الكتلة الأرضية والضغط اللين للغلاف الهوائي المحيط بالأرض، دون أن تشعر هذه الأجسام بأي إرهاق، وتحتاج هذه الأجسام إلى طعام بشكل مواد عضوية مختلفة، إما نباتية أو حيوانية، وقد كتبت هذه الأمور والضرورات بجاهزة في الأمير كيتن للأوروبيين لما وصلوهما عبر المحيط الأطلسي في القرن العاشر الميلادي من إسكتلندا وفي القرن الخامس عشر من إسبانيا. وكان التفاهم بالبشر الذين سبقوهم إلى الأمير كيتن واحتلوها دليلاً على أن تلك الأجزاء الأخرى من الأرض الهائلة لكثرت كانت مأهولة.

القمر لا يصلح موطناً لأي شكل من أشكال الحياة، والمادة القمرية الوحيدة التي يمكن أن تكون مصدراً للكائنات البشرية هي مادة جامدة، وهي مادة لم تكن قط مادة عضوية ولو مؤقتاً. ولكي يمكن الاستفادة من هذه المادة القمرية فإنه يتوجب أن يقوم بنقلها، من القمر إلى الأرض، أناس يتصرفون بحسبهم على القمر ويعملون هناك حيث تترض سبلهم أحوال صعبة للغاية. ولن يكون في ذلك ربح، كما كان في حمل التبغ من أميركا إلى أوروبا، واستغلال نباتات أخرى - مثل الذرة الصمراء والبطاطا - في أوروبا وآسيا. وهذه النباتات كان قد دجنها في أميركا أولئك الذين سبقوا الأوروبيين، والذين كانوا قد وصلوا أميركا من الجهة المقابلة.

مع أنه لا القمر ولا السيارات الشقيقة للأرض - وكلها أبعد عن الأرض من القمر - صالحة لأن تكون موطناً لسكان محيطنا الحيوي، فإنه من الجائز أن يكون للنفس غير شمسة - وبما تكون شمساً في كوكب أخرى - سيار قد يصلح لسكانها. ولكن حتى لو تمكنا من تعيين سيار آخر صالحة للنفس فيه، فإنه لن يكون من المفيد للمسافرين من محيطنا الحيوي الوصول إليه. ولنغرض هنا اكتشافنا كيف نتبع مساراً دون أن نتجذب في طريقنا إلى واحد من هذه الأقمار المتأججة النيران من الشمس الدائمة الحركة عبر الفضاء، فإن الرحلة قد تحتاج إلى مدة من السنوات. ومن ثم فإنه يصحتم علينا أن نصنع سفينة فضاء بحيث يتمكن المسافرون فيها من انجذاب لولاد يعيشون في السفينة، وينجبون هم الأولاد والأحفاد بدورهم، قبل أن تهبط مركبتنا وتنزل الجبل الثالث أو الرابع. وحتى إذا كان الجبل الواصل هناك يأمل في الحصول على هواء صالح للتنفس وماء مناسب

للشرب ولعلماء نافع للأكل وضغط جوي وجذب محتملين في هذه البقعة المطابقة لمخطط الميوي، فإن المركبة (وهي فلك نوح مصنوع على طريقة حديثة) التي نقلهم من محيط ميوي صالح للعيش إلى آخره يجب أن تخزن فيها حاجيات أجيال متتابعة بحيث تكفيهم لقرون - حاجيات من الهواء وللاء - يبدو أنه من غير المتوقع أن مثل هذه الرحلة يمكن أن تتم حقاً.

إذن فإن معرفتنا وتجربتنا الحاليين تشيران إلى القول الفصل بأن موطن سكان المحيط الميوي على سطح الأرض سيظل مقصوراً على هذه الكسوة التي ظهرت فيها الحياة، على الشكل الذي نعرفه. ومع أنه من المحتمل أن تكون هناك محيطات حيوية أخرى، صالحة لسكان محيطنا الميوي، فإنه من غير الممكن أن يكون باستطاعتنا الوصول إلى أي منها واستثماره، بحيث أن مثل هذا الاحتمال لا يمكن النظر إليه نظرة عاقلة. هذا الخيال للغرب هو، في الواقع طوباوي.

إذا كنا نستنتج أن محيطنا الميوي الحالي، الذي كان موطننا الوحيد حتى الآن، هو أيضاً الموطن الطبيعي الوحيد الذي يمكن أن يكون لنا، فمثل هذا الاستنتاج سيحملنا علم تركيز تفكيرنا وجهودنا على هذا المحيط الميوي: على التعرف إلى تاريخه، والتفكير بمستقبله، وإتخاذ بكل ما يستطيع العقل البشري أن يقوم به لتأكيد من أن هذا المحيط الميوي - والذي هو بالنسبة لنا هو المحيط الميوي - سيظل صالحاً للعيش إلى أن ينقصد هذه الخاصية في نهاية المطاف بسبب القوى الكونية الخارجة عن السيطرة البشرية.

إن القوة المادية التي نمتع بها البشرية قد تراجعت الآن إلى درجة قد تجعل المحيط الميوي غير صالح للسكن، وفي الواقع فإنها ستؤدي إلى هذه النتيجة الانحطاطية في فترة قصيرة من الزمن، هذا ما لم يتم سكان العالم الآن بمثل مشترك فوري وحازم لوقف التلوث والنهب اللذين يفرضهما على المحيط الميوي الطمع البشري للتصغير النظر. وفي الناحية الأخرى فإن قوى البشرية المادية لن تتوقف عن التأكيد من أن المحيط الميوي سيظل صالحاً للسكن ما دنا نحن نمتع من تدميره، ذلك أنه مع أن المحيط الميوي غير محدود، فهو لا يملك الاكتفاء الذاتي، والأرض الأم له تتولد فيها الحياة تولداً عذراً. فقد ظهرت الحياة في المحيط الميوي نتيجة تلقيح الأرض الأم من نبي: أتون إله القزوع أحياناً، قرص الشمس، وهو الشمس التي لا تقهر، والتي كانت لها طرفة العيون الكباريون يغلبون بها من عهد أورليان إلى أيام قسطنطين الكبير.

ومعبر المحيط الحيوي من الطاقة الطبيعية - وهو في الوقت ذاته مصدر الحياة ومصدر القوة الطبيعية للكائنات في الطبيعة الجامدة وهي الطبيعة التي سخرها الامثال الآن - لا شيء أسمى المحيط الحيوي بالذات. فهذه الطاقة الطبيعية كانت تشع، ولا تزال تعمل ذلك باستمرار، إلى المحيط الحيوي من شمسنا ومن غيرها من المصادر الكونية. ودور المحيط الحيوي في تقبل هذا الإشعاع الذي يأتيه من خارج حدوده لا يعدو أن يكون انتقائياً. لقد ذكر أن المحيط الحيوي يصفى الإشعاع الذي يأتيه فيسمح للأشعة المعطية للحياة ويزيل الفائض، لكن هذا الدور الخمر الذي يقوم به الإشعاع من المصادر الخارجية بالنسبة إلى المحيط الحيوي يستمر خيراً ما دامت المصفاة لا تطل عن القيام بعملها، وما دامت مصادر الإشعاع تبقى ثابتة، وشمسنا مثل كل شمس أخرى في الكون النجمي، يصيبها التبدل باستمرار. ومن المفهوم أن هذه التبدلات الكونية - سواء في شمسنا أو في نجوم غيرها - قد تبدل، في وقت ما في مستقبل، الإشعاع الذي يقبله محيطنا الحيوي بحيث يصبح ما هو الآن محيطاً حيويّاً مكافئاً غير صالح للعيش. وفيما إذا، أو عندما، يتعرض محيطنا الحيوي لثل هذه المصيبة، يبدو أنه من غير المحتمل أن قوى البشر المادية ستكون كبيرة بحيث تقوم تبدلاً مبرمجاً في فعل القوى الكونية.

ولنتظر الآن في الأجزاء المركب منها المحيط الحيوي وهي طبيعة العلاقة بينها. هناك ثلاثة أجزاء يتركب منها المحيط الحيوي: أولها مادة لم تصبح الحياة بعد إذ لم يصيبها بعد تركيب عضوي؛ ثانيها مادة عضوية حية؛ وثالثها مادة جامدة كانت في وقت من الأوقات حية وعضوية، وهي لا تزال تحفظ ببعض صفات القوى العضوية. نحن نعرف أن المحيط الحيوي أحدث عهداً من السيل الذي يقفله، ونحن نعرف أيضاً أن الحياة والوعي، في داخل المحيط الحيوي نفسه، لم يكونا موجودين للمدة ذاتها التي كانت المادة التي ارتبطا بها موجودة. والطيف من المادة التي هي الآن محيط حيوي كانت في وقت ما جامدة ولا واهية كلياً، على ما لا يزال عليه الجزء الأكبر من مادة الأرض الآن. ولا نعرف كيف أو لماذا أصبح جزء من الكيان اللذي للمحيط الحيوي في النهاية حياً كما لا نعرف كيف ولماذا أصبح جزء من هذه المادة الحية واعياً. ونستطيع أن نصوغ السؤال ذاته بالمعكس. كيف ولماذا أصبحت الحياة والوعي مجسمين؟ ولكن الجواب، حتى على هذه القضية المعكوسة لا يزال يتمتع علينا.

والجزء الذي كان من قبل عضواً من المحيط الحيوي ضخم إلى درجة مذهلة، وقد

رود البشرية ببعض أهم المولد التي صاغت الحياة البشرية. وقد أصبح من المعروف ان الرفوف المرجانية والجزر إنما نتجتها آلاف مؤلفة من الجيويينات التي أصابت كل منها إضافة بالغة في الصخر من الصخر الصناعي الصلب القديم. والعمل الذي قامت به هذه الجيويينات، عبر الحطب الطويلة، قد أنشأت إضافة محسوسة إلى الأرض المجردة من المحيط الحيوي التي تصلح لمعيشة الأشكال غير المألوفة من الحياة. وقد بنت هذه الأحياء الدقيقة، وهي كثيرة وكثيرة، مساحة إجمالية من الأرض الجزيرية أكبر مما بنته القوة الجاملة بفعل البراكين. وهذه كانت تباري الجيويينات التي تصنع المرجان في تكوين مادة صلبة تحت الماء حتى تصبح جزيرة تظهر فوق سطح الماء.

إنه من المعروف اليوم أن الفحم الحجري هو نتاج بقايا الأشجار التي كانت حية في وقت ما، وأن الثرية الخصبة تستمد جزءاً من غصنها عن طريق مرورها بأجسام الدود وعن طريق وجود أنواع من البكتيريا التي تزيد من مقدرة الثرية على تذويب النباتات؛ إلا أن الرجل العادي تأخذه الدهشة إذا ذكر له جيولوجي أن الصخر الكلسي، الذي تقع عليه العين الآن في الأفاق المشرقة لبعض سلاسل الجبال الحالية في المحيط الحيوي، إنما هو ترسبات قرون طويلة من القواقع والعظام التي غطفتها الحيوانات البحرية التي اعتفت في قيعان البحار؛ وأن تلك الترسبات الألفية من المادة التي كانت حية عضوية إنما تعوّجت - في وقت قريب من ألمانا بحساب الأوقات التي يأخذ بها الجيولوجيون - بسبب نقص في كثرة الأرض حتى نقصت هذه المادة واتخذت أشكالها المعوجة الحالية. وقد ازداد دهشة الرجل للباديء إذا قيل له إن الاحتياطي الكبير من الزيت المعدني المخزون في جوف الأرض قد يكون هو أيضاً من مادة كانت عضوية - أي إنه قد يكون أقرب إلى الفحم الحجري منه إلى الحديد أو حجر الفيريتيت: وهاتان المادتان لم تمرّا قط بمرحلة عضوية في تشكيل الجزيئات التي تكوّنها.

والحجم المدهل لكمية المادة العضوية سابقاً في المحيط الحيوي تستدعي انتباهنا إلى مراح مريعة في تاريخ الحياة (وهو الذي يسمى خطأ « التطور » وهي كلمة لا تعني التغير الأصيل بل تعني فقط « نشر » شيء كان دوماً موجوداً في حالة كاسية). فقد تباينت الحياة إلى أجناس وأنواع، وكل نوع يمثل في عدد من النماذج. وتعدد الأنواع والسادج كان الوضع الدافع لتقدم الحياة من الأحياء البسيطة والضعيفة نسبياً إلى تلك

المعددة والقوية نسبياً، ولكن ثمن هذا التقدم الفتي تم عن طريق الانقسام والتباين كان المتأصلة والصراع. فكل نوع وكل نموذج من كل نوع كان يخافس غيره في سبيل كسب تلك العناصر من الغيط الحيوي الحي منها والجماد على السواء التي كانت بالنسبة الى نوع معين والتي تملاجه مورد الفناء بمعنى انها كانت واسطة ناجمة للحفاظ على الحياة. وقد كانت المتأصلة في بعض الحالات غير مباشرة. فقد يبد نوع، أو نموذج من نوع آخر مثله، لا بالهجوم عليه أو استئصاله، بل بأن يستحوذ لنفسه على حصة الأسد من مورد غذاء هو، بالنسبة الى كلا المتنافسين، من ضرورات الحياة. فعندما تتنازع نماذج من أنواع غير بشرية، أي من الحيوانات، على الطعام أو الماء أو التزاوج فالحاسره على ما هو معروف عندها، يطلب مأوى من الرياح ويحصل على ذلك لقاء خضوعه. ومن المعروف ان الكائنات البشرية هي الحيوانات الوحيدة التي تقتل فيما بينها حتى الموت، وأنها تتخن قتلاً في نساء المدور، وأطفاله وشيوخه كما تفعل ذلك بالمقاتلة من الذكور. وهذه الصفة البشرية المميزة من الوحشية كانت تمارس في فينتام في اللحظة التي كنت أكتب فيها هذه الكلمات في لندن. وقد امتد الاستغلال بها (وهذا ثالث اللعنة بدون قصد) في أعمال، شبة صنعت خلال الخمسة آلاف سنة الأخيرة: مثلاً ذلك ملونة نارمر، ونقوش أباتوم، ونصب نارمن وأثار من تبعه من مضايحه الأثوريين، واللاحق الهوميرية الإغريقية، وعامود ترانجان في روما.

ومن هنا فإن تقدم الحياة كان، على غير ما فيه، طفلياً، أما في أسوأ حالاته فقد كان سلباً نهائياً. فمملكة الحيوانات كانت، بالنسبة الى مملكة النبات، طفيلية. فالحيوانات (على الأقل الحيوانات غير البحرية) ما كانت لتظهر إلى حيز الوجود لو لم تكن النباتات قد سقتها إلى الظهور. فكذلك بذلك مصدراً يزود الحيوانات بالهواء والطعام اللازمين لحياتها؛ وبعض أنواع حيوانات تحافظ على كيانها بقتل أنواع أخرى من الحيوانات وانقراضها، والاسنان أصبح من صنف آكلة اللحوم منذ الوقت الذي نزل فيه من ملجأه القائم في الأشجار وغامر على سطح الأرض قتلاً، أو مقتولاً. أما العرائس التي دامت ثمن تقدم الحياة فهي الأنواع التي انقرضت وتلاها، التي تمثل الأنواع الباقية المعرضة للتفتيل باستمرار. وقد دجن الانسان بضعة أنواع من الحيوانات (غير البشرية) وذلك ليستحوذ على نتائجها - كالحليب والعسل - وهي حية، ثم ليقتلها بقسوة يستعين بلحمها طعاماً، ويستخدمها وأوتارها وجلودها وفرائها خلمات لصنع الأدوات والثياب.

وقد سقطت الكائنات البشرية بعضها على البعض الآخر. فأكل لحوم البشر والاسترقاق عرفتهما مجتمعات متطورة - فكلا الأسرى للفاحشين عرفا في ميرو - أسيركا في الرمس السابق لوصولي كولوسوس، والرق عرفته المجتمعات اليونانية - الرومانية والإسلامية والعربية الحديثة. فالرقمقة هو كائن بشري لكنه يعمل كما لو كان حيواناً أليفاً عبر بشري؛ وخلال القرنين الماضيين ظهرت حركة لإلغاء استرقاق الكائنات البشرية. وهي هذه الحركة اعترف ضمناً بالشناعة التي عامل بها الإنسان الحيوانات غير البشرية. فضلاً عن ذلك فإن تحرير العبيد القانوني قد لا يؤدي إلى تحريرهم واقعياً، ذلك بأن المحرر قانونياً قد يستغل بطريقة فيها معنى العبودية. فالعصر الروماني من أهل القرن الرابع الميلادي الذي كان حراً اسماً، ومعاصره الروماني كان أقل حرية في الواقع من رقيق روماني من أهل القرن الأول للميلاد، الذي قد يكون واحداً أو مديراً لمزرعة للرقيق أو كاتباً (رقيقاً) في حاشية الامبراطور أو مملوكاً مسلماً (ولكن بالنسبة لهذا المملوك فإن استرقاقه الشرعي قد يفتح أمامه الطريق ليصبح سيد عدد من المحررين قانوناً أي المحترفين شرعاً، ولكن العقق يشملته هو أيضاً). والسود في الولايات المتحدة الذين حرروا قانوناً في سنة 1862 لا يزالون بشعرون إلى الآن، وقد مز على تحريرهم أكثر من قرن، بأن الغالبية البيضاء من مواطنيهم لا تزال تذكر عليهم حقوقهم المدنية الكاملة، وهم في شعورهم هذا على شيء كثير من الحق.

والشناعة التي يختص بها البشر والتي هي صائرة إلى الزوال بخطى وثيدة هي القتل عن طريق تقديم الضحايا البشرية بشكل طقسي. لقد أدين القتل عندما يكون الدافع إليه الطمع الشخصي أو الحقد. والقتل عقاباً للقتل أمر مستنكر باستمرار. ولم يقتصر الإلغاء على الشار النسوي الشخصي، بل تعدى ذلك إلى الإعدام الرسمي في بعض الدول المعاصرة. والقتل الطقسي حرم أيضاً في الحالات التي يكون فيها الإله الذي تقدم له الضحية البشرية مجسداً لأحد المصادر الطبيعية اللازمة للحفاظ على الحياة البشرية. على سبيل المثال المطر والغلات والأثمار. ومع ذلك فإننا نجد أنه منذ أن تنوع الإنسان على الطبيعة غير البشرية، لأن الآلهة التي عبدت بالتقوى والتعصب والقسوة أكثر من سواها هي الآلهة المجسدة للقوة البشرية المجتمعة للنظمية التي مكنت الإنسان من هذا الانتصار على الطبيعة غير البشرية.

إن الدول ذات السيادة كانت، خلال الخمسة آلاف سنة الماضية، أسى ما يعبد،

وهذه الآلهة هي التي طلبت قرابين كثيرة من الضحايا البشرية وثقتها. فالدول ذات السيادة تخارب واحديتها الأخرى، وتجند في سبيل ذلك خيار مواطنيها الشباب ليقتلوا مواطني الدولة العدو، وبذلك تعرضهم لخطر قتلهم أنفسهم على يد أولئك المفروض ان يكونوا مومنين لهم. وحتى الوقت الذي تم فيه ذاكرة الأحياء كانت الكائنات البشرية، باستثناء أقليات ضئيلة - مثل أعضاء جمعية الأصدقاء (الفريندز او الكويكرز) - تعتبر القتل والسقوط في الحركة أمراً حربياً بالقتال وليس أمراً مشروعاً محسوب. فالقتل في الحرب، مثل القتل لتفضية حكم بالاعدام، كل يتفادى عنه باعتباره ليس قتلاً، وهو أمر فيه من التناقض ما فيه.

فهل كان تقدم الحياة في المحيط الحيوي أمراً يستحق مثل هذا الشمن من الألم الشديد؟ هل الكائن البشري أشمن من الشجرة، وهل الشجرة أشمن من جرلومة الأميبا؟ إن تقدم الحياة أنتج سلسلة متصاعدة من الأنواع، هذا إذا قدرنا التصاعد بمعنى القوة. فالهشيرة هي أقوى الأنواع التي لوتقت الى الآن، لكن الهشيرة وحدها شر، فالكائنات البشرية فريدة في مقصودتها على الشر، لأنها الوحيدة التي تملك الوعي لما تفعل ولما تخافه بقصد. كان الشاعر ويليام بليك William Blake يرى أن المخلوقات الحية، حسب النظرة التقليدية، هي من صنع إله خالق على صورة الانسان، ومن ثم فقد هاله حقاً أن يخلق النمر. ولكن النمر، على عكس كل من الانسان والآله الخالق الفرضي، بريء. فالنمر الذي يرضي جوعه، عندما يقتل فريسة ويأكلها، لا يتألم من شزع الضمير. وفي الناحية الأخرى فإن الأمر الذي ليس له غاية ولا ضرورة والذي يبلغ الغاية في الانتم هو أن يكون إله قد خلق النمر ليعتري الحبل، وخلق للكائن البشري ليقتل النمر، وخلق الميكروب والفيروس ليحتفظ بنوعه عن طريق قتل الانسان بالجلطة.

ومن ثم فإن تقدم الحياة يبدو - من النظرة الأولى، شرّاً. شرٌّ من الناحية الموضوعية، حتى ولو اطرحنا جانباً الاعتقاد بأن هذا الشر خلقه إله قصداً، فيما لو أنه فعل ذلك منعمداً، لكان هو نفسه أعمى في الشر من أي كائن بشري كان في مقبوره ان يكون شريراً. وعلى كل هذا الحكم الأولي على آثار التقدم في الحياة يشهد على انه إضافة الى الشر الموجود في المحيط الحيوي، يوجد في هذا المحيط الحيوي ضمير هو الذي يدين ما هو شر ويكرمه.

والضمير مستقر في الانسان. وثورة الضمير البشري ضد الشر دليل على ان الانسان

قادر أيضاً على أن يكون خيراً. ونحن نعرف من التجربة أن الكائنات البشرية بإمكانها أن تنصرف لا أنانياً ولا مصلحاً وراء غاية، إلى حد أنها تضحي بنفسها في سبيل الآخرين. وهي لا تملك القدرة على الفعل فقط، ولكنها أحياناً تفعل ذلك. ونحن نعرف أيضاً أن التضحية بالنفس ليست فضيلة مقصورة على البشر. وليامت المعروف للتضحية بالنفس هو حب الأم لأطفالها، والأمهات من البشر لسن اوجهنات في التضحية بأنفسهن في هذا السبيل. فالتضحية بالنفس على أساس حب الأم لصفارها موجودة في أنواع أخرى من الثدييات، وفي الطيور أيضاً.

فضلاً عن ذلك فإن تلك الأنواع التي تحافظ على نفسها بطريقة التوالد تبقى من نماذجها الحية تعاوناً بين ممثلين للجنسين، وهو تعاون لا تجني الأفراد نفسها منه فائدة مباشرة، بل هو خدمة تقوم بها لمصلحة النوع. وإذا أخذنا على الأمر نظرة شاملة يمكننا أن نرى أن التفاعل بين مختلف أنواع الحياة لا يتخذ «وماً سبيل المنافسة والصراع». فبما تكون العلاقة بين المملكة النباتية والمملكة الحيوانية، من ناحية، علاقة مضيف مستغل وطفلي فتاك، نجد، من ناحية أخرى، أن الملكتين تنصرفان كثيرين يملكان في سبيل مصلحة عامه هي الحفاظ على المحيط الحيوي، صالحاً للعيش للنبات والحيوان على السواء. وهذا التفاعل التعاوني هو الذي يضمن، على سبيل المثال، توزيع الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون ودورتهما في حركة متواترة تجعل الحياة ممكنة.

وهكذا فإن تقدم الحياة في المحيط الحيوي يبدو أنه يكشف في نفسه عن نوعين لا أخلاقيتين ومتضادتين. وعندما يستعرض كائن بشري تاريخ المحيط الحيوي إلى الآن، يجد أنه انتج الشر والخير، والفجور والفضيلة، وهذه كلها، بطبيعة الحال، مفاهيم بشرية. فالكائن الذي يملك الوعي هو الوحيد الذي يمكنه التمييز بين الشر والخير، والذي يستطيع الاختيار في أن ينصرف تصرفاً فاجراً أو تصرفاً فاضلاً. فهذه المقاييس لا وجود لها في المخلوقات الحية غير البشرية، ولذلك فإن الأحكام البشرية هي التي تراها شريرة أو حميدة.

هل معنى هذا هو أن للمقاييس الخلقية يفرضها اعتباراً أمر بشري، وأن مثل هذا الأمر لا ارتباط له بحقائق الحياة وهو إذن طويلوي؟ لكنه كان يتوجب علينا أن نصل إلى هذه النتيجة لو أن الإنسان لا يعدو أن يكون مشاهداً ومرقياً ينظر إلى المحيط الحيوي ويقدره من الخارج. من المؤكد أن الإنسان هو مشاهد ومرقب. فهذان الدوران هما نتيجة قدرته على الوعي، وبالتالي قدرته وحاجته، اللتين لا يمكن التمسك منهما لاتقاء

احتمالات خلقية وإصدار أحكام خلقية. ولكن البشرية هي أيضاً فروع من شجرة الحياة؛ ونحن أحد منتوجات التقدم في الحياة. وهذا يعني أن ما عند الإنسان من مقاييس وأحكام خلقية هي ذاتية وملازمة للمخطط الحيوي. ومن ثم فهي كذلك بالنسبة للحقيقة الكلية التي يكون المخطط الحيوي جزءاً منها. وإذا فالحياة والوعي والخير والشر ليس أقل في حقيقتهم من المادة المقترة بهم بشكل غامض في إطار المخطط الحيوي. وإذا كنا نحسن أن المادة عنصر فطري من الحقيقة. فليس هناك سبب للقول بأن هذه المظاهر غير المادة للحقيقة ليست حصراً طرئاً كذلك.

وعلى كل حال ففي تقدم الحياة في المخطط الحيوي نجد أن الوعي ظهر في زمن حديث بالنسبة إلى ظهور الإنسان، وقد أدركنا، إدراكاً متأخراً ومفاجئاً، أن وجود الإنسان بهذا الآن صلاحية المخطط الحيوي للعيش لكل أشكال الحياة، بما في ذلك الحياة البشرية نفسها. فالي الوقت الحاضر أدت المنافسة والصراع، اللذان كانا وجهاً من وجوه تقدم الحياة إلى افتراض عدد من أنواع الكائنات الحية كما إلهيا بنماذج لا تعد أهداها من كل الأنواع بالوقت السابق لأوله وكان موتاً عنيفاً ومؤلماً. وقد دعمت البشرية ضريبة من الضحايا البشرية من إلهيا انشقة إلى أنها رجعت ضربات قاتلة لأنواع مزاحمة لها من الضواري وأنواعاً عدداً من أنواع النباتات، حتى أسماك القرش والكبوريا والفيروس لم يعد باستطاعتها أن تكون أعداداً خصومها من البشر. وعلى كل فإن القضاء على أنواع خاصة ونماذج فردية من بعض الأنواع لا يظهر أنه يحصل في طبيعته تهادياً لاستمرار الحياة بالذات، حتى يومنا هذا. فحتى الآن، كان فناء بعض الأنواع من الأحياء يتيح الفرصة لأنواع أخرى بأن تتوسع.

وقد كان الإنسان أبعد الأنواع مجاحاً في التحكم في أجزاء المخطط الحيوي الأخرى، الحية منها والمجتمعة على السواء. ففي غير وعيه وجد الإنسان نفسه تحت رحمة الطبيعة غير البشرية فحسم على أن يجعل من نفسه سيداً للطبيعة غير البشرية، وقد تقدم بتزودة نعر بلوغ هذا الهدف. ففي غضون العشرة آلاف السنة الماضية تحدى الإنسان الانتحاب الطبيعي واستعاض عنه بالانتخاب البشري، بقدر ما كان ذلك في متدوره، فشنج بقاء البهائم والحيوانات التي دجنها لحاجته الخاصة. وعمل على إبادة بعض الأنواع الأخرى التي وجدها بعيدة وصلوة، وقد سعى هذه الأنواع غير المرغوب فيها أعشاباً وحشرات، وباعطائه إياها هذه الأساء للزبرة قتل أنفورها بأنه عازم على بذل جهده لإبادةها. وبقدرة

ما نجح الانسان في الاستماعة بالانتخاب للبشري عن الانتخاب الطبيعي فقد أنقص عدد الأنواع الباقية.

على أنه في عصرون المرحلة الأولى من وجوده، وهي التي كانت الى الآن أطول مرحله، لم يترك الانسان على المحيط الحيوي طابعاً يقرّب في الأثر الطابع الذي تركته الكائنات الحية للمعيشة له من الأنواع الأخرى. إن أهرام الجيزة وأهرام تيوبهيرا كان والجهال التي بناها الانسان في تشولولو وسكاي تجعل الهياكل والكائناتيات وناملحات السحاب التي شادها فيما تلا من العصور تبدو شيئاً صغيراً. ولكن أضخم الآثار التي أقامها الانسان هي ضئيلة إذا قوربت بعمل الحيتات التي بنت الجزر المرجانية.

منذ فجر المدينة، قبل نحو خمسة آلاف سنة، وهي للانسان القدرة الفائقة التي آلت اليه في المحيط الحيوي. وقبل بدء الحقبة المسيحية كان قد اكتشف أن المحيط الحيوي هو خلاف « محدود » محيط بسيط يحيط به الكرة الأرضية. ومنذ القرن الخامس عشر والأوروبيون يستولون على أجزاء المحيط الحيوي الأرضية التي كانت من قبل قليلة السكان ويستوطنونها. ومع ذلك فإن البشرية كانت، حتى الجبل الحاضر، تنصرف كما لو أن الهزون من موارد المحيط الحيوي والتي هي غير قابلة للتعميش - مثل المعادن - غير قابل للتفاد، كما لو أن البحر والهواء غير قابلين للتلوّث.

وفي واقع الأمر فإن عناصر المحيط الحيوي كانت تبدو، حتى الى قبل خربة نصيرة، غير محدودة، إذا فُهمت بمقدرة الانسان على استهلاكها أو تلويثها. في حديثي (أنا مولود سنة ١٨٨٩) كان يعتبر من الوهم حتى أن يتخيل المرء أن الانسان قد يملك من القدرة ما يمكنه من تلويث كل الجو الملقط للمحيط الحيوي، مع انه في لندن، حيث تزعزعت ومانشستر وسانت لويس وفي عدد من المدن التي كانت تتضخم باستمرار - في هذه كان الدخان المتصاعد من إحرار الفحم الحجري في المنازل والمصانع ينتج الضباب الذي كان يحجب نور الشمس ويفتق به البشر أليماً طويلة. مثل هذا الخطر الذي كان يهدد نقاء الجو كان يصرف النظر عنه على أنه لا يزيد عن بزجاج محلي وعابر. أما احتمال تلويث البحر بسبب النشاطات البشرية فقد كان ينظر اليه على أنه وهم في عاية السخف

وفي حقيقة الأمر فإن البشرية كانت، الى الربع الثالث من القرن العشرين الميلادي، تقلل من أهمية التزايد الحديث في قدرتها على التأثير على المحيط الحيوي. وقد نتج هذا

التزايد عن تحولين جديدين: أولهما متابعة البحث العلمي لنظم الهادف، وتطبيق هذا على تقدم التكنولوجيا، وثانيهما تسخير الطاقة الطبيعية، الظاهرة أو المستترة الموجودة في العناصر الحامدة في المحيط الحيوي، في خدمة الأغراض البشرية. وعلم، سبيل المثال الطاقة المائية التي تجري دوماً في اتجاه سفلي نحو البحر، بعد أن تكون قد حملت من سطح البحر إلى الجو. فهذه القوة المائية الخطيرة بقوة الجذب، والتي كانت لا تستعمل من قبل إلا لطحن الحبوب، أصبحت منذ بدء الثورة الصناعية في بريطانيا، قبل مئتي سنة، تسخر لإدارة الآلات التي تقوم بصنع أصناف عدة من السلع المادية. وقد سمحت خدرة القوة المائية إلى درجة أكبر من الفاعلية لما حولت إلى قوة بخارية وقوة كهربائية. ومن الممكن توليد الكهرباء من القوة الطبيعية للشلالات الطبيعية أو المصطنعة، لكن الماء لا يمكن تحويله إلى بخار دون أن يسخن وذلك بإحراق الوقود والوقود استعمل لا في سبيل تحويل القوة المائية إلى قوة بخارية وقوة كهربائية فحسب، ولكن في سبيل الاستعانة بالوقود عن استعمال القوة المائية نفسها حتى في أكثر حالاتها فعالية. وفضلاً عن ذلك فإن الفحم الذي يمكن سد النقص في كميته من الحطب، قد استعاض عنه بوقود لا يمكن أن يورث: الفحم الحجري والنفط المعدني وفي النهاية البورانيوم.

البورانيوم، وهو أحدث المستقلات من الوقود ويطبق طاقة ذرية. ولكن الإنسان في محاولته تسخير هذه القوة الجبارة بدأ، منذ سنة ١٩٤٥، السير في مغامرة انتهت بشكل عميت لما حاول نصف الإله الأسطوري فيثون أن ينتصب مركبة الولد المقدس الشمس. فإن شبل مركبة هيليوس (الشمس) خرجت عن الخط للرسوم لها لا أحست بأن الأفعى أصبحت في أيدي كائن بشري ضعيف، فاندفعت خارج مسارها الصحيح، وقد كان من الممكن أن يتحول المحيط الحيوي إلى رماد لو أن زئبق لم ينقذه من الدمار، وذلك بضرب الكائن البشري الجعري، الذي حاول أن يكون بدلاً للشمس، بصاعقة قاصفة. وأسطورة فيثون هي قصة رمزية للخطر الذي عرض الإنسان نفسه له لما جرب اللعب بالطاقة الذرية، وسرى فيما إذا كان الإنسان سيتسكن من الألفاظ من هذه القوة المادية الهائلة دون الوقوع في شرها. إن قوتها لم يسبق لها مثيل في العظم، ولكن مثل ذلك يقال أيضاً عن الخطر الساب للناس، عما يعقبها من الإشعاع الفري. وها هو الإنسان قد تدخل الآن في الصيرفة التي كان المحيط الحيوي - وهو الأرض الأم الحباة - يلق بها الإشعاع الشمسي في حدود هي نقمة للحياة لا قتلة لها. وهذا

النجاح المذر بالشر للتكنولوجيا العلمية البشرية، إضافة إلى النتائج الأصغر للإنجازات السابقة التي قامت بها الثورة الصناعية هي التي تهدد بجعل المحيط الحيوي مكاناً غير صالح للعيش.

وهكذا فإننا نقف الآن عند نقطة حاسمة في تاريخ انخراط المحيط الحيوي وفي التاريخ الأنصر زمناً لواحد من متوجاته والدخلاء عليه أي البشرية. فلإنسان كان أول واحد من أبناء الأرض الأم الذي أصبح أم الحياة وانتزع من أيدي موجد الحياة، أي الشمس، الزخم الخفيف للقوة الشمسية. وقد أطلق الإنسان الآن الضال لهذه القوة، عاربه ودون قيد، وذلك للمرة الأولى منذ أن أصبح المحيط الحيوي مكاناً صالحاً للعيش. ولنا نفوي اليوم فيما إذا كان الإنسان سيكون مستعداً أو قادراً على أن يجنب نفسه وما يرافقه من الكائنات الحية، المصير المحتوم الذي انتهى إليه فيتون.

والإنسان هو أول نوع من الكائنات الحي في محيطنا الحيوي الذي اكتسب القوة التي تمكنه من تعطيل المحيط الحيوي، وبخطيئة يقضي على نفسه. والإنسان، باعتباره كائناً حياً يعاني من الاضطراب النفسي، خاضع لقانون لا يتبدل من قوانين الطبيعة، والذي تخضع له أيضاً كل الأشكال الأخرى من الحياة. فلإنسان، مثل كل مرافقه من الكائنات الحية من كل الألوكان، هو جزء لا يتجزأ من المحيط الحيوي، فإذا أصبح المحيط الحيوي غير صالح للعيش، فالإنسان يتضرر، كما تضرر كل الأنواع الأخرى.

كان باستطاعة المحيط الحيوي أن يحتضن الحياة لأنه كان مجتمعاً تتسق الحركة فيه بين الأجزاء الأصلية الخمسة لبعضها البعض. ولم يحدث قط، قبل ظهور الإنسان، أن أباً من أجزاء المحيط الحيوي الأصلية هذه - العضوية والمعضوية سابقاً وغير العضوية - اكتسب القوة التي تمكنه من الاخلال بهذا التوازن المضبوط بدقة، والذي كان ينظم تفاعل القوى بحيث أصبح المحيط الحيوي موثقاً للحياة. وأنواع الكائنات الحية السابقة للبشر، والتي كانت إما حاضرة من المحافظة على الانسجام مع الحياة أو أنها كانت معادية له، قد انقرضت بفعل هذا الاخلال، وبوقت طويل قبل أن يتاح لضعفها أو لعدوانها حتى من أن يقترب إلى حد تهدد التوازن الذي كانت تعتمد عليه حياتها وحياء الأنواع الأخرى جمعاء. فقد كان المحيط الحيوي أكثر من أي من مخلوقاته السابقة للبشرية.

والإنسان هو أول مخلوقات المحيط الحيوي الذي هو أقوى من ذلك المحيط نفسه. واكتساب الإنسان الوعي يمكنه من التخير في الأمور، ومن ثم من وضع الخطط

وتنفيداً بحيث تحول دون الطبيعة ودون إهلاكه كما أهلكت الأنواع الأخرى التي كانت مصدر إزعاج وخطر للمحيط الحيوي فإنه سيقتضي على نفسه كما سيقتضي على كل أشكال الحياة المضطربة الموجودة على سطح أم الحياة الأرض.

من هذه النقطة يمكن إذن أن نطلق للتقيام باستعراض رجعي، نصل فيه إلى هذا اليوم، لتاريخ الصدام بين الأرض الأم والإنسان، الذي هو أشد بؤساً وأكثر غموضاً من أبحاثها جسيماً. أما المصوص فيقوم على الحقيقة البهيمية وهي أن الإنسان هو وحده من سكان المحيط الحيوي الذي يقسم في مجال آخر أيضاً - مجال روحي، هو غير مادي وغير منظور. في المحيط الحيوي الإنسان كائن مضطرب نفسياً وهو ينصرف في عالم هو مادي ومحدود، وعلى هذا المستوى من انشغال البشري كان هدفه، منذ أن اكتسب الوعي، أن يسود بيئته غير البشرية، وقد كاد أن يتحقق في هذه المحاولة في يومنا هذا - ومن المحتمل أن يكون دماغه في ذلك. ولكن بيت الإنسان الآخر، العالم الروحي، هو أيضاً جزء أساسي من المهامة الكلية، وهو يختلف عن المحيط الحيوي في أنه غير مادي وغير محدود، وفي حياته هذه في العالم الروحي يجد الإنسان أن رسالته هي أن لا يبحث عن سيادة مادية لبشرته غير البشرية بل لسادة روحية على «...». وهاتان الصانقتان، والشكلان الأعليان للتباين اللذان يحفزانه إلى تلك الفاتحين قد وضع أمرهما في متون مشهورة. والتوجه الكلاسيكي الذي يدعو الإنسان إلى التحكم في المحيط الحيوي موجود في العدد ٢٨ من الأصحاح الأول من سفر التكوين:

« وباركهم الله وقال لهم أنمروا واكثروا وملأوا الأرض واضعواها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض ».

والترجمة صريح وقوي، ومثل ذلك نجد أن فرد عليه صريح وقوي. فقولنا « لا ندخلنا في التجربة ولكن نغنا من الشرير » يبدو كأنه جواب مباشر للترجمة الواردة في سفر التكوين. وقد سبق العهد الجديد إلى ذلك فأولنه تشخس Tao is Ching في قوله بأن إنجازات الإنسان التكنولوجية والتنظيمية إنما هي شرك لاصطياده:

كلما ازدادت الأسلحة المقاتلة،

نرمز الأرض كلها انقساماً في الظلام

وكلما ازداد عدد الصناعات المقاتلة،

تزداد الآلات المظلمة التي تخرع.

كلما كُودلدت القوانين التي تشرع،
يرداد عدد الصيوع وقطاع الطرق.
شد القوس الى النهاية،

وستسني لو أنك توقفت في الوقت المناسب.

وقد ينتهي الأمر الى القول بأنه مع وجود آلات مع الناس تقضي عملاً عشر مرات
او مئة مرة أقل، فإنهم لن يستصلوها... وقد يكون هناك بعد قلوب وعربات ولكن
أحداً لن يدعنها، وقد يكون هناك أسلحة للقتال ولكن لن يتدرب عليها أحد. وهذه
البذ المأهودة من ثاوتة تشتت لها ما يقابلها في إنجيل متى:

« ولماذا تهتمون باللباس. تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو ولا تعيب ولا تفزل. ولكن
أقول لكم إنه ولا سيلان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها ».

هذه تكون رداً على الدعوة التي نحملنا على وقف أنفسنا على تجميع القوة والثروة.
إنها تنفي الجو لدعوتنا الى التعلق بمثل أعلى متعاض لذلك تماماً.

« ودعا الجمع مع تلاميذه وقال لهم من أراد أن يأتي ورائي فليترك نفسه ويحمل
صلبه ويصبر. فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها، ومن يهلك نفسه من أجلي ومن
أجل الأنبيس فهو يخلصها، لأنه ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه، أو
ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه؟ لأن من استحي بي زبكلامي في هذا الجبل الفاسق
الخطيء فإن ابن الإنسان يستحي به متى جاء بمجد أبيه مع الملائكة القديسين »
(الانجيل) .

إذا فقد الكائن البشري روحه، فإنه يفقد إنسانيته، ذلك بأن جوهر الكيان البشري هو
إدراك الوجود روحي خلف المظاهر الطبيعية، والكائن الحي إنما يتصل بهذا الوجود
الروحي، بوصفه روحاً لا بوصفه حياً مضطرباً نفسياً، وقد يكون حتى نوازماً للوجود
الروحي على ما يعرف من تجربة التصوفة.

بسبب أنه يعيش في وقت واحد في المحيط الحيوي وفي العالم الروحي، فالإنسان،
كما دعاه السير توماس براون Sir Thomas Brown بدقة هو حقاً حيوان برماني، ومي
كل من الصيوع، حيث يشعر أنه منسجم مع الوضع، يكون له غاية خاصة، ولكنه لن
يتصكر من متاهة كل من الغاييتين أو أن يخدم كلا من السيدين، بإخلاص تام فلا بد
لواحدة من الغاييتين ولواحد من اللواحيين من أن يحظى بمكانة سامية، بل انه قد

يحظى بتلك مطلق إذا اتضح أن الاثنين (أي الغائبين أو الولاين) متباينان وغير قابلين للتوفيق فيما بينهما.

فأي الهديين يختار؟ كانت المناقشة حول هذه المسألة صريحة في الهند في زمن بوذا، حول منتصف الألف الأول قبل الميلاد. وقد كانت صريحة في زمن القديس فرنسيس الأسيري في القرن الثالث عشر للميلاد. وفي المائتين انتهى الأخذ بانتصارين متضادين إلى اختلاص المسيرة بين الأب وابنه. ولعل القضية كانت تتناقل بصراحة منذ فجر الوعي، ذلك بأن واحدة من الحقائق الألحمة التي يظهرها الوعي واضحة للمكانن الحلي وهي التكاثر الخلقي في الطبيعة البشرية. وعلى كل فإن الناس كانوا ينجبنون في أكثر الأوقات والأمكنة حتى يومنا هذا البحث على المكشوف في المسألة التي حملت بوذا والقديس فرنسيس، كلا بدوره على أن يقطع الصلات الطبيعية التي كانت تربطهما بأسرتيهما. وفي عصرنا فقط أصبح الاختيار أمراً لا مفر منه للبشرية ككل.

ففي عصرنا نجد أن سيادة الإنسان التامة على المحيط المحوري بأكمله تهدد بإحباط نوايا الإنسان وذلك بحطيم المحيط المحوري والقضاء على الحياة، بما في ذلك الحياة البشرية نفسها. ومنذ القرن الثالث عشر والإنسان الغربي بكرم علماً فرنسيسكو برناردوني، القديس الذي تخلى عن لونه من تجارة عائلية مرمجة جداً، والذي كرفىء على تمسكه بالفقر بأن ظهرت على جسمه العلامات (آثار المسير) التي ظهرت على جسم السيد المسيح. ولكن المثال الذي استعده الإنسان الغربي لم يكن مثال القديس فرنسيس، فالإنسان الغربي فخر أباه، بـيتر وبناردوني، التاجر الناجح الذي كان يتاجر بالأقمشة بالجملة. ومنذ بدء الثورة الصناعية جند الإنسان الحديث نفسه على نحو قللك عليه نفسه أكثر من أي من أسلافه في جميع الغاية التي وضعها نصب عينيه، أي الفصل الأول من سفر التكوين.

يظهر أن الإنسان لن يستطيع إنقاذ نفسه من الدمار الذي تسببه قوته المادية وطعمه الشيطانيان ما لم يسمح لنفسه بأن يتغير نفسه كلياً بحيث يحفره ذلك إلى أن يتخلى عن غايته الخالية، ويحقق مثل الأعلى المخالف لذلك تماماً. فووطته الخالية، والذي أرفع منه فيها، وضعت قلمه غدياً حاسماً. فهل باستطاعته أن يقبل، باعتباره إنساناً عادياً في مقدوره الخلقية، القواعد التي يدعو إليها ويطبقها القديسون، على أن تكون هي لهذا الإنسان القواعد الأساسية العملية للسلوك، (وهي القواعد التي اعتبرت إلى الآن مصائح

طوباوية تؤدي إلى الكمال»، صالحة للإنسان المادي المشغور؟ إن المناظرة حول هذه القضية التي طال عليها الزمن، والتي يبدو كأنها تكاد تبلغ نهاية تصميدها في يومنا هذا، هي الموضوع الذي يتناوله التأريخ للصدام بين البشرية والأرض الأم، وهو «La terre mère» الموضوع بين يديك.

٢- تحفّظ الانسان

ثمة على الأقل ثلاثة معان يمكن ان تستعمل لكلمة « تحفّظ » بالنسبة الى كلمة الانسان. فقد ضبط أسلافنا من العيش عليها على الأشجار الى الأرض، وهذا هو المعنى الطبيعي الجوهري للكلمة. وهم متحفّزون أيضاً، من حيث الأصل الجوهري، من أشكال من الحياة هي سابقة للبشر. وهناك من يرى أيضاً (مع ان هذه الفكرة موضع خلاف) انهم « تحفظوا » خلقياً لما استيقظ الوعي فيهم.

من المؤكّد انه ليس ثمة ما يبرر الاستعمال الثالث لكلمة « تحفّظ »، صحيح ان الكائن الواعي يمكن ان يكون شريراً، بينما لا يمكن للكائن غير الواعي ان يكون كذلك. لكن الصجر عن ان يكون الكائن شريراً لا يقابله بالضرورة ان يكون فاضلاً، والكائن الواعي يمكن ان يكون فاضلاً، إضافة الى احتمال ان يكون شريراً، والكائن غير الواعي يمكن ان يكون فاضلاً، أو شريراً. إذ بالنسبة الى الكائن غير الواعي ليس ثمة تمييز خطفي بين الشر والخير، ولا يمكن أن يوجد، فالأخلاق ظهرت في المحيط الجوهري لأول مرة مع الوعي، والوعي والأخلاق يتكوّنان، مجعّمين، غطاءً للوجود - النشط الروحي - لم يكن ممثلاً في المحيط الجوهري من قبل. ومن ثم فليس ثمة أساس للمقارنة بين الانسان وأسلافه غير الواعين من حيث النواحي الأخلاقية من الممكن للمقارنة بين الانسان وأسلافه على المستوى البيولوجي، وعلى هذا المستوى من الممكن التعرف الى اتصاله بهم وتنبع ذلك، ولكن ليس ثمة أساس مشترك بينه وبينهم على المستوى الخلقي لأن هذا المستوى موجود بالنسبة الى الكائنات الواعية فقط.

على المستوى الخلقي نجد أن أبرز ناحية وأكثرها إيهاماً في الطبيعة البشرية هي امتداد السلسلة الخلقية عبر الأسلاف. فمجال إمكانياته الخلقية بين القطبين المتطرفين للسلوك الشبطني والفلسفة هي ناحية من الحياة البشرية لا تقل غرابة عن البعد الخلقي ذاته.

والساحبان كالتأهما خاصتان بالإنسان من دون جميع المخلوقات الموجودة في المحيط الحيوي. أما وقد امتلك الإنسان القدرة على تحطيم المحيط الحيوي فليس لدينا ما يؤكد أنه لن يفترق هذا الجرم الانتحاري إتنا لا نستطيع أن نجرم أيضاً أنه لن يقد المحيط الحيوي من حالة الطبيعة التي يقوم فيها، حتى الآن، خلاف بين الحبة والصراع وهو خلاف لا ينتهي إلى نتيجة. من المقول أن الإنسان، بدل أن يحطم المحيط الحيوي أن يستعمل سلطته على المحيط الحيوي لتبديل الحالة الطبيعية هذه بحالة النعمة حيث تسود الحبة. إن شيئاً كهذا ينقل الحياة من جهنم إلى مجتمع قديم.

عندما نتناول كلمة تمدد بمعناها الحيوي فإنها تعابها بسؤال حول عمر الجنس البشري. من حيث الظاهر نمة فكرة مقبولة وهي أن الإنسان مجاهل لكل الأنواع الأخرى من الكائنات الحية التي لا تزال بالية، بل وفي الواقع فإنه مجاهل للحياة نفسها، لأنه مع أن التطور بدأ بالتيان، فإن الأنواع المختلفة التي أنتجها هذا التيان مرتبطة بعضها ببعض الآخر مثل أفضال شجرة واحدة وكلها تستمد من جذر مشترك. وإذا بحثنا في تاريخ تكوين الإنسان بشكل متميز، فإننا سنفرق جذراً التاريخ الذي تفرعت فيه فصيلة الأحياء الشبيهة بالإنسان عن غيرها من الفصائل في رتبة الحيوانات العليا من الثدييات. هذا الفرع في الطرق الحياتية يمر نقطة اللارجوع فبالنسبة للأحياء الشبيهة بالإنسان فقد قطعت عليها الطريق لأن تصبح من نوع الهيلوباتيد (hylobatidae) (مثل الغيون) أو من نوع البونفيدا (pongidae) (مثل الأوران - أو تانغ أو الشبازي أو الغوريلا). فلما تجاوز الأب الأول للأحياء الشبيهة بالإنسان نقطة الصراع هذه وتجاوزها باتجاه طريق الأحياء الشبيهة بالإنسان، لم يبق أمام هذه الأحياء إلا أحد احتمالين بدليين: أما أن تصبح بشرية أو أنها تميز عن البقاء. وفي واقع الأمر فإن الصف الوحيد الذي استمر في البقاء من فصيلة الأحياء الشبيهة بالإنسان هو الإنسان، والفرع الوحيد الذي استمر من الجنس البشري هو الإنسان العاقل (وهي تسمية فيها الكثير من المديح المبالغ فيه، وقد ألصقها بنفسه هذا النوع الوحيد للستر من الأحياء الشبيهة بالإنسان وفيها الكثير من حذاع النفس للساذج). فلذا حينما أن الإنسان قديم قدم الزم الذي أصبح فيه متقدراً على أجدادنا أن يصبحوا شيئاً آخر سوى بشر، هذا إذا أرادوا أن يستمروا في البقاء، فإن هذا يعني أن الإنسان قد نشأ على شكل متميز من أشكال الحياة، في الحقيقة

الوسطى، ومضى هذا هو أن الإنسان قد مر على وجوده حتى اليوم، بين عشرين مليوناً وعشرة وعشرين مليوناً من السنين.

هل من الممكن أن نعين تلويخ للبشرية بشكل أدق عن طريق واحدة أو أكثر من خصائص الإنسان التشريحية المميزة أو عاداته وأغراضه المميزة؟ هل يمكن القول بأن أجدادنا أصبحوا بشراً لما انحدروا من الأشجار إلى الأرض؟ أو لا اكتسبوا القدرة على المشي والركض متمسكين على روج واحد من الأطراف للحركة، وبذلك حرروا الروج الآخر لاستعمال الأدوات؟ أو لا تمت أذنتهم لا من حيث أنها أصبحت أكبر حجماً من بقية الأحياء الشبيهة بالإنسان فقط، بل أصبحت أكثر تنظيماً بمعنى أن عدد الأساليب البديلة التي يمكن حللها الدماغ أن تستعملها في الاتصال فيما بينها لزيادة كبيرة؟ أو هل بإمكاننا أن نؤرخ لتكون الطبيعة البشرية بالنسبة إلى الوقت الذي حفلت فيه إنجازات معينة مثل التجمعات أو مثل اللغة (أي نظام للأصوات يحمل في طياته معاني يفهمها جميع أعضاء الجماعة مغايرة لمجموعة من اللفظيات التي تدل على التأثير)؟ أو هل أن برزميوس جعل من أجدادنا بشراً إذ علمهم كيف يحتفظون بالنار مشتعلة وكيف يستعملونها في التدفئة والطبخ وذلك دون أن يحرقوا أصابعهم، وكيف يمكنهم أن يتعلموا بدل أن يرتصوا من هذه القوة التي بالإمكان أن تكون نافعة، لكن بإمكانها أن تكون أيضاً خطيرة ومخرقة؟

والجواب، بالتأكيد هو أن الحادثة التي تؤرخ لظهور الطبيعة البشرية في المحيط الجوهري ليست تطور حاصية تشريحية، ولا هي تحقيق إنجاز ما؛ الحادثة التاريخية هي استيفاء وهي الإنسان، وتاريخ هذه الحادثة يمكن أن يستخرج فقط من البقايا المادية التي خلفها أجدادنا (مثل العظام والأدوات). وليس هناك ولم يكن من الممكن أن يوجد، إدراك معاصر لهذه الفجوة، ومن ثم فلم يكن من الممكن أن تدون. فالكاثر البشري يدرك أنه مستعيط عندما يكون مستعيطاً فعلاً، ولكنه لا يستطيع أن يعي بنفسه إحساساً واضحاً إما أنه في سبيل البقطة أو في طريق الترم. وإذا فليس بإمكاننا أن نفعل شيئاً سوى أن نحس تاريخ بقطة الوعي في الإنسان في حدود تطوره التشريحي واكتسابه منجزات اجتماعية وتكنولوجية معينة.

وإذا أخذنا بالاستعانة من استمرارية أجدادنا بالبقاء بعد نزولهم من ملجأهم على الأشجار إلى الأرض الخطرة نسبياً، فقد نخش أنهم في ذلك الوقت كانوا قد أصبحوا

حيوانات اجتماعية لو انهم كانوا على الأقل في سبيل ان يصبحوا كذلك أثناء عملية تمييز مسكنهم. ذلك بأن الأحياء الشبيهة بالانسان إذا كانت متفرقة تكون معرضة، على سطح الأرض، لأن تصبح فريسة سهلة للمفترسة من الأحياء غير الشبيهة بالانسان، والتي لم يكن أجدادنا عندها قادرين على مقاومتها إن لم يتحدوا. ومن المؤكد ان الانسان قد أصبح حيواناً اجتماعياً قبل ان يخترع اللغة؛ ولكن لتتراجع اللغة قد يكون حادثاً أحدث عهداً من اكتسابه للتجمع؛ ذلك بأنه ثمة أمتاف أخرى من الحيوانات الاجتماعية (مثل الحشرات الاجتماعية) التي تتواصل فيما بينها بصورة مجدية للحفاظ على التعاون الاجتماعي اللازم دون ان يكون لها لغة صوتية. فالتحلل، على سبيل المثال، يبدو وكأنها توصل الأخبار والتعليمات واحداً الى الآخر بتفريع طبيعي، الأمر الذي يمكن ان نصفه بأنه رفض، فيما لو كان التحلل أحياء بشرية.

أما فيما يتعلق بتحرير الأيدي بحيث يمكن استعمالها لغير حاجة الحركة، واستكمال الدماغ فلنا ان نخمن ان تطور اليد والدماغ كانا متعاصرين وأنه في كل مرحلة، كان هناك تفاعل بينهما، الأمر الذي أعان على تطور كل منهما. ويجوز لنا ان نخمن أيضاً أن تطور هذين العضوين المتفاعلين معاً كان الوضع التشريحي الذي يسهل للانسان ان يستيقظ ويحي. فالانسان كان ولا شك واعياً لما تطلب على الخوف من النار، وهو الخوف الذي لا يزال يساور أنواعاً عدة من الحيوانات غير البشرية اللامدجنة. وما كان الانسان يخشى النار التي تشعل تلقائياً لما كان قد اكتشف كيف يحفظ بها مشتعلة، وأن يستعملها، وأخيراً أن يستعملها صناعياً.

وهل نستطيع ان نزوح لفجر الوعي في حدود الحقب الجيولوجية أو حتى، بشيء من القحة، في حدود سنوات قبل الميلاد؟ إن محاولة تأريخه تزداد صعوبة إذا علمنا - ويبدو ان هذا الشخير محقول - ان الأمر كان عملية تدريجية قد تبدو سريعة، إذا قسناها بحدود المقياس الزمني الجيولوجي ولكنها احتاجت دهوراً في حدود المقياس - الزمن بالنسبة الى التاريخ المدون (وهو تدوين لم يتجاوز قبله نحو خمسة آلاف سنة على ما نعرف الى الآن). ونحن وللقوم من ان الفزع الوحيد المستمر الى الآن من نوع الجنس البشري هو الانسان العاقل، على ما سعى هو نفسه، وأن هذا الانسان لم يكن الفرع الوحيد من الأحياء الشبيهة بالبشر الذي كان يتمتع بالوعي. فمن الآراء المقبولة ان الانسان النيتروثالي Neanderthal Man كان يتخلص من موته بطريقة شعائرية، بدل

ان يعتبر جثثهم كأنها أقفال. وإذا كان هذا الدليل مقتعاً فمعنى هذا ان الانسان النيدرتالي، كان يشترك مع الانسان العاقل في الفكرة القائلة بأن الطبيعة البشرية لها كرامة لا تتشرب بين بقية أشكال الحياة.

ويبدو أن الانسان النيدرتالي استمر بقاؤه الى فترة الانتقال من العصر الحجري القديم المبكر الى العصر الحجري القديم المتأخر أي الى قبل ما بين ٧٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ من السنين. بل ثمة دلائل تشير الى وجود مجتمعات مختلطة من الانسان النيدرتالي والانسان العاقل؛ وإذا وجدت هذه المجتمعات فمن المحتمل أن هذين الضربين من الأحياء البشرية كانا شبيهين الى حد انها تولدتا فيما بينهما، كما نتوالت جميع ضروب الانسان العاقل. وإذا كان الأمر كذلك فإن الانسان النيدرتالي والانسان العاقل يمكن اعتبارهما نوعين متفرعين من نوع واحد. وعلى كل حال فإن إنسان بكين Peking Man، الذي يخمن بأن تاريخه يعود الى نحو نصف مليون من السنين، يجب ان يعتبر أنه نوع مختلف؛ وإذا صح ان إنسان بكين كان يحدث في استسفال النار، فإن وعيه كان قد تقدم كثيراً. ولا بد ان يرفأ من الوعي كان لازماً كي يفكر لمي في ترفيق الحجارة ليصبح استعمالها كأدوات أكبر أثراً من استعمال الأشياء الطبيعية غير المحورة. وصنع الأدوات بواسطة ترفيق الحجارة يعزى الى الانسان الأسترالي البدائي - وهو حي شبيه بالبشر ويخمن تاريخه على انه كان قبل مليونين لو ثلاثة ملايين من السنين. وهذا الانسان الأسترالي البدائي يصنف على انه شبيه بالبشر لا على انه إنسان Homo، وليس من المؤكد أنه هو جد الانسان هنا. وقد أخرجت في سنة ١٩٧٢ مجموعة تشبه مجموعة الانسان العاقل كثيراً وكانت تحت طبقة من الرماد البركاني المقدر عمرها بنحو ٢,٦٠٠,٠٠٠ سنة.

وعنى هذا اننا نحتاج ان نقدري ان لمجموعة الانسان الأسترالي البدائي ومجموعة الانسان الشبيه بالانسان العاقل هما حديثان عفاهما يقولان بالتاريخ المعروف فيه أن أجدادنا المشتركين قد انتلفوا بشكل نهائي، عن أسلاف أبناء عمومنا من الهيدوبيدا والبونيدا. ومن الناحية الأخرى إذا كان العصر الحجري القديم المبكر معاصراً للانسان الأسترالي البدائي الذي تندر منذ زمن بعيد، فإن العصر الحجري القديم المبكر يقابل تسعة وخمسون جزءاً من مئة جزءاً من فترة الأحياء الشبيهة بالبشر، وربما يساوي أربعة عشر جزءاً من خمسة عشر جزءاً من فترة الانسان Homo بما في ذلك إنسان بكين والانسان

البيدروالي وكذلك الإنسان العاقل. هناك بقايا أثرية على أشكال من أدوات مرتفعة بطريق المصادفة هي قديمة قدم الإنسان الأسترالي البدائي، لكن أقدم الآثار التي سمعت خصيصاً لتستعمل كأدوات تعود إلى ما بين ٢٠.٠٠٠ و ٣٠.٠٠٠ سنة فقط؛ هذا لما كانت الرسوم المعائدة إلى العصر الحجري القديم للتأخر والموجودة على جدران الكهوف في فرنسا وإسبانيا هي أقدم البقايا المصنوعة قصداً.

والمفيدات التي لها شكل صوري والتي كانت السلف للكتابة للتجريدية لم تظهر، على ما نعرف، حتى الألف الخامس ق.م. وفي ذلك الوقت، على ما يعرف أيضاً، في سومر فقط. وبعد، فالقبايا المادية التي خطفتها المجتمعات البشرية القفرصة، والتي لا يدخل في عدادها وثائق مكتوبة، لما عرفت وترجمت أمثنا بمعلومات ولكنها نافضة عن حياة الشعب الذي خلف مثل هذه الآثار المادية غير المؤثقة عن وجوده. فالهيئة الأثرية السابقة للتدوين تبيننا عن التكنولوجيا، ولكن التكنولوجيا هذه لا تزيد عن كونها الوضع المساعد للعناصر غير المادية التي تتكون منها طريقة الإنسان في الحياة: شعوره وأفكاره، مؤسسه وأرائه ومثله العليا وهي مظاهر أكثر أهمية في الدلالة على طبيعة الإنسان من التكنولوجيا، ذلك بأنه من الخصائص الأنيبل والمميزة للإنسان هي أنه لا يعيش بالخير وحده، ومع أن الركائز المادية للتكنولوجيا يلقى شيئاً من الضوء على بعض نواحي الحياة البشرية غير المادية، فإن هذا الضوء قائم. فالاستدلال بما هو مادي على ما هو روحي، إنما هو، في أحسن حالاته، تخبط في الظلام. وعندما يكون كل ما بين أيدينا هو الشاهد المادي، فإن ذلك يترك بعض نواحي الحياة الروحية يكسها الغموض العام.

وهكذا فإن معلوماتنا عن الخمسة آلاف سنة الماضية من التاريخ - الخمسة آلاف سنة المؤثقة - هي أغزر وأشد وضوحاً منها عن المليون الأول أو نصف المليون الأول من السنين التي نلت فجر الوعي التاريخي الذي يحتمل حدوثه. فهل تتناسب أهمية هذه الفترة الأخيرة والأقصر زمناً من هاتين الفترتين مع درجة ما نعرفه عنها؟ يجب أن نكون حذرين في اختيار هذا الأمر قضية مقروغاً منها. إن الشيء الأقرب إلينا والأوضح يبدو الأكبر ولا شك، ومع ذلك فإن هذا المظهر قد لا يتفق مع الحقيقة. إن المساق الذي نسميه عصر ما قبل التاريخ - ونحن نعني العصر الذي سبق تدوين القبول التي وصلتنا والتي حلت رموزها وترجمت - كان (بقدر ما يمكن تتبع ذلك) يسير على نمط واحد، مصلداً عن أنه كان هائلاً في طوله، بالمقابلة مع مساق العصر الوثني الذي تلاه. ونحن إذا نظرنا إلى

الأمر على أساس خفية ما قبل التاريخ، وجدنا أن التاريخ للدون بكامله هو، في الواقع، تاريخ معاصر بالمعنى الحرفي، وهو كذلك بالمعنى اللغوي الذي ذهب إليه بنفون كرونشي Benedetto Croce من أن التاريخ كله تاريخ معاصر. إن المراقب الذي يسترخص الماضي من نقطة معينة زماناً ومكاناً، بالنسبة إليه، يظهر له هذا الماضي حقاً بشكل ذاتي

مهمل لنا إن مخلص إلى القول بأن هذه الخمسة آلاف سنة المعاصرة هي، في الواقع، الجزء الوحيد من التاريخ الذي يحسب له حساب؟ مثل هذا الاستنتاج منظر على التناقض، ويرفضه الواقع، لأن عصر ما قبل التاريخ كان قد شق له الطريق أكثر الأحداث أهمية إلى أبنائه، في التاريخ البشري، والحادثة الهامة هي ظهور فجر الوعي في المحيط الحيوي. وقد كان هذا الانجاز جسماً، والجهد الذي تطلبه ذلك كان منهكاً، بحيث أنه ليس ثمة أي شيء من الفجوة في أن يكون مليون أو نصف مليون من سني السبات قد مرت بعد ذلك، قبل أن يبدأ الإنسان بممارسة القدرة الروحية والمادية التي وفرتها له بقطة الوعي بطريقة فعالة. وإذا نحن نظرنا الآن إلى الماضي من اللحظة الحاضرة إلى الفجر (فجر الوعي)، وإذا اعتبرنا التاريخ البشري بأكمله، منذ الفجر، على أنه خفية واحدة، فربما وجدنا الانقياس العادي لهذه الخفية في السبات النسبي الذي عرفه العصر الحجري القديم المبكر وعندئذ فإن التسارع والمصنف والقنوع التي عرفتها الفترة التي تقعد من ٧٠,٠٠٠ إلى ٤٠,٠٠٠ سنة، والمتتدة من بدء الثروة الصناعية التي ظهرت في العصر الحجري القديم المتأخر إلى تسخير الطاقة الذرية - تلك الأمور لن تظهر على أنها كل ما يهم، بل على أنها الفصل الكبير الذي يؤدي إلى الفزوة.

وهذه الفزوة قد تكون إرادة ثمة للحياة عن طريق تعظيم المحيط الحيوي، بكل ما عند الإنسان من شر وجنون، بعد أن تمكن الشيطان المجسم في الإنسان من تسليح نفسه بالقوة التكنولوجية الكافية لذلك. والبدني لذلك هو في أن تكون الفزوة هذه عبراً من الحقبة الأولى في التاريخ البشري إلى حقبة ثانية، أو على الأرجح، إلى سلسلة طويلة من الحقبة المتتالية، ذلك لأن فترة للتعري سنة التي مرت منذ أن رقق الإنسان الأسترالي البدائي الأحجار ليحبل شكلها أسهل استعمالاً، لا تزيد عن طريقة عيون، فإذا ما قربلت بالأنف مليون لقدور أتمها بناية من عمر محيط الحيوي بحيث يظل مكاناً صالحاً للعيش، هذا إذا سمح الإنسان بذلك. ولستنا نستطيع التنبؤ بالمستقبل، ولكننا نستطيع أن نتكهن بأننا مقتروب من مفترق طرق خلقي هو الذي سيكون حاسماً، كما كان المفترق

الهرلوجي، قبل عشرين أو خمسة وعشرين مليوناً من السنين، حاسماً بين الطريقين - الطريق الذي أدى إلى الإنسان والطريق الذي انتهى إلى القردة الشبيهة بالإنسان. ومرة ثانية: قد يكون للبدلان يمد واحدتهما عن الآخر بعد القطب الواحد عن الآخر. والحكاية، هي ما نبقى من هذا الكتاب، تصل بالقصة إلى حافة توضيح هذه الأحجية التي لا يزال الظلام يلفها.

ع- الأويكوميين

أويكوميين تعبير إغريقي شاع استعماله في العصر الهليني من التاريخ الإغريقي بعدما اتسع العالم للهليني الإغريقي، أولاً غرباً ثم شرقاً، من مجاله الأصلي الذي كان يمتد عبر البحر الأيوني. وقد وصل استعماله غرباً إلى سواحل الأطلسي في أوروبا وشمال غرب إفريقيا وإلى بريطانية، أكبر جزيرة تقع عبر البحر بالنسبة إلى غرب أوروبا. واستمداده الشرقي الذي تلا ذلك وصل إلى أواسط آسيا وإلى الهند. وكان فتح الاسكندر الكبير للدرس وقضاؤه على الامبراطورية الفارسية الأولى هو الذي مهد السبيل للاستمداد الشرقي لذلك العالم. وفي الزمن الذي تلا عصر الاسكندر بالنسبة للتاريخ الهليني شاع استعمال كلمة أويكوميين، ومعناها الحرفي «الجزء المسكون» من العالم، ولكن الأغارقة الذين وضعوا الكلمة ونشروها حصروا معناها، صلياً، في الجزء المسكون من العالم الذي كانت تفهم فيه المجموعات المسماة «مصدنة». وقد كانت المجموعات المسماة في ذلك هي التي أطلقت على نف- ما كلمة «مصدنة» إلى يومنا هذا، حتى يومئذ، من جهرتنا المروعة والمهينة فيما اتفرقا من فظائع، أن اللدنة لم تصل بعد إلى تحقيق إنجاز واقعي، بل هي لا تعدو أن تكون محاولة أو لنأخذ.

حتى بموجب الاستعمال الأصلي للكلمة، التي تجاهل تحديدها الجارية الذين كانوا يعيشون على حافة المدن، فإن أويكوميين، على ما استعملت في العصر الإغريقي التالي للاسكندر، كانت تشمل فقط مجالات المدن التي كان الأغارقة أنفسهم قد سمعوا بوجودها على الأقل منذ أيام التورخ هيرودوتس في القرن الخامس ق.م. كان الأغارقة يدرسون، بشيء من الإبهام، بوجود مدينة تقوم في مكان قاص يقع وراء الريح الشمالية، وكانت لها اتصالات مع الدول - للذن الإغريقية التي كانت موجودة على ساحل البحر الأسود الشمالي، وهذه الاتصالات كانت تتم بواسطة طريق وريح تمتد عبر السهوب

الأوراسية التي كانت بدورها تكون المنطقة الفلنكية للمستعمرات الاغريقية البحرية. ولما أن نحن، رغم التسمية التي أطلقها الاغريق على هذه المجتمعات، بأن موطنها لم يكن وراء الريح الشمالية، بل إلى الشرق من السهوب، وأن هذا كان، في الحقيقة، المجتمع الصيني الذي عرفه الأهلقة والرومان في الزمن التالي للاسكندر باسم ميرس اوسيان.

لما تم تقسيم الأكبر من العالم الاغريقي الروماني ان يتوحد سياسياً في الامبراطورية الرومانية، كان الحرير يستورده العالم الاغريقي الروماني، برا وبحراً. ولكن الشعوب المسماة مشددة، والتي كانت تعيش في الطرفين لشرقي والغربي للعالم القديم كانت معرفة الواحد منها بوجود الآخر معرفة ضحلة فقط. وكان يقابل الاوكومين الاغريقي عند الصينيين قولهم « جميع ما هو تحت السماء ». ولكن بالنسبة للصينيين فإن تا تشون Ta Chin التي هي نسخة كبيرة للامبراطورية الصينية، والتي كانت تقع في الطرف الغربي للقارة، كانت شيئاً مبهماً بقدر ما كانت سيرس لو سيناى لو جماعة ما وراء الريح الشمالية، مبهمة بالنسبة إلى الأغارقة والرومان. وقد تم الوصل بين طرفي القارة الأبعدين في وقت متأخر فقط: أولاً بشكل مؤقت لما ضمت شواطئ السهوب الأوراسية كلها في القرن الثالث عشر في إطار امبراطورية المغول السريعة المطب؛ وبعد ذلك، بشكل دائم، لما تم لشعوب أوروبا الغربية ان تغمر المحيط قبيل نهاية القرن الخامس عشر. اما في ما يتعلق بمدنيات أميركا الوسطى والمنطقة الضيقة في الانديز من اميركا الجنوبية، فإنها لم تكن معروفة للعالم القديم حتى بعد ان ألقي كولوس مراسيه على الجهة الأميركية من المحيط الأطلسي. وبعد فلول مدنيات اميركا الوسطى والبيرو وصلت عصرها الذهبي وقت بدء التاريخ المسيحي. أما الفترة التكوينية السابقة لهذه الحضارات الأميركية الراهنة للمعها تكون قد بدأت - بالنسبة لأميركا الوسطى على كل حال - في فترة زمنية مبكرة تتفق مع بدء أي من مدنيات العالم القديم، باستثناء المدينة السومرية - الأكاذية والمدينة الفرعونية.

إذا نحن استعملنا التعبير أوكومين بالمعنى الحرفي الدال على مستوطن البشرية، فإننا نرى ان مدى الاوكومين هو أوسع بكثير من رقعة العالم المشددة الذي عرفه الاغريق (الرومان، ولكننا نرى أيضاً ان هذا الاوكومين الشامل هو، رغم كل ذلك، أصغر بكثير من المحيط الهادئ. والقسم الأكبر من سطح المحيط الهادئ يحتله البحر، والهواء الخلف للمحيط الهادئ يحتسب الجزء الأكبر من المحيط الهادئ نفسه. ومن المتفقد ان البحر

كان الموطأ الأصلي للحياة، وأنه لا يزال غنياً في الثبات والحيوان كليهما. ولكن منذ أن أصبح أسلاف الإنسان حيوانات برية، فإنهم لم يحتفظوا من البحر موطناً لهم على نحو ما فعل القرماء من الثدييات مثل الحوت والدلفين. والأحياء البشرية لم تصبح حيوانات برمائية على نحو ما تم لقرماء آخر مثل حبل البحر وكلب الماء. لقد اكتشفت الكائنات البشرية كيف تجتاز الأنهار والبحار في القوارب والسفن، وكيف تطفئ تحت سطح البحر، ولو أن القمط لم يكن لأعماق بعيدة ولا لمدة طويلة في المرة الواحدة. ولكن الكائنات البشرية بالنسبة إلى الماء هي عابرة فقط؛ فهي ليست من سكانه، هي في الواقع ليست أولئك مائة.

وفي القرن العشرين للسيلاد اخترع الإنسان الطائرة؛ لكن الإنسان سبق إلى الطيران في الهواء منذ وقت طويل، سبقته الحشرات والطيور والخفافيش، ولكن ليس باستطاعة الخفافيش أو الطائر أو الحشرة أو الكائن البشري أن يعيش في الهواء كما تعيش الأسماك والأنواع البحرية من الثدييات في الماء، وليس ثمة نوع من الكائنات الحية يمكن أن يكون في الهواء سوى عابر سبيل والذراع الممتد قد يعتمد على كونه يمحتمل في الهواء للحصول على رزقه، ولكنه لا يستغني عن أن يكون له موضع للتحرّك - إما أرضاً أو ماء، حتى السلول تركّز على أعمدة الخطراف وتبني عشوشها من الطين لتسكن من قرية صغارها. وأوكومين البشرية يقوم بأكمله على سطح الأرض من المحيط الهندي، مع أن سكان الأوكومين من البشر يجتازون سطح الماء المحيط الهندي، وهم الآن يجتازون الهواء المملأ له أيضاً، وذلك في نقلهم من نقطة إلى أخرى في الأوكومين؛ لكن الأوكومين لم يكن يوماً يشغل المساحة نفسها من سطح الأرض في المحيط الهندي، ومدى رفعة تبدلت في حدود سواحل الأرض اليابسة كثيراً على ما يبدو من الجفاف الشكّ الحالي لحي الساحل، أي في منطقة السافانا الأفريقية الواقعة بين طرف الصحراء من جهة والطرف الشمالي لغطاء الأمطار المدارية من جهة أخرى. بعض هذه التبدلات قد سببها جزئياً تغيرات جغرافية طبيعية ومناعية، وهي أشياء لم يكن للإنسان يد في إيجادها كما أنه لم يمكنه تعديلها. وهناك بعض هذه التبدلات للبيئة عن الفعل البشري المتعمد أو غير المقصود. والمواصل غير البشرية التي عينت شكل الأوكومين كانت إلى قبل نحو ١٠,٠٠٠ - ١٢,٠٠٠ سنة هي المنقلة على الفعل البشري.

وفي مساق تاريخ سيلاتنا الأرض كانت التبدلات الجغرافية الطبيعية والمناعية في تكويم

السيار جسيمة. من المرجح انها كانت غاية في التطرف والعنف في الحقب الأولى من وجود الأرض، قبل أن يظهر المحيط الحيوي على سطح الأرض. إن البقايا المتحجرة من النبات والحيوان في طبقات من القشرة الأرضية التي كانت على سطح الأرض قبل تاريخ ظهور الانسان قد أظهرت لنا أن مناطق هي اليوم معتدلة أو شبيهة بالباردة كانت من قبل ذات مناخ حار، وثمة تفسيرات متنوعة لهذه التبدلات المناخية الاقليمية: ثمة احتمال أن يكون محور الأرض قد انحرف أو مال وأن للنقطتين اللتين تبيان الآن القطبين على سطح الأرض كانتا في وقت من الأوقات على غط الاستواء أو قريبين منه؛ ولكن، إذا صح هذا فإنه من العسير أن ندرك كيف استطاعت الأرض أن تحافظ على انتظام حركتها في الدوران وعلى ملكها الاهليلجي، دون أن تلقي بها القطة المفترضة من وضعها خارج مساقها، وهناك احتمال بدليل بأن الفترات قد تكون انماقت عبر سطح الأرض، كما لو كانت طوقاً يسمح على سطح مستنقع، لا طبقات من الحجر ترتكز الى صخر. ونظرية انسياب الفترات، مثل نظرية لبيل القطبين هي موضع جدل، ولعلها لا يمكن التثبت منها، ولكنها تبدو وكأنها تكسب الأنصار، بشكل أو بآخر. وما يشع بها بأنها، على عكس النظرية البديلة، لا تفترض تبدل الجهات في الكرة بأكملها، بل تفترض تبدلاً في تكوين سطح الكرة فقط.

وعلى كل حال فإن الوجود الفاضل للصحيرات المدبرة في المناطق التي هي ليست مدارية الآن هي مشكلة « متعلقة » بحقية جيولوجية نسبت لظهور الأحياء الشبيهة بالبشر بملايين السنين. أما المظاهرة المناخية التي عاصرت ظهور الأحياء الشبيهة بالبشر في المحيط الحيوي فهي سلسلة الفترات الجليدية، التي كان يتخللها دويان الجليد، في الحقبة الأحدث، أي في غضون المليون سنة الأخيرة. وأحدث فترة جليدية (ولا شك أنه من الصريح بمكان المفروض بأن هذه ستكون آخر فترة جليدية بالمرّة) هي التي عقبها الذويان الحالي قبل ١٢,٠٠٠ أو ١٠,٠٠٠ سنة.

ويبدو أنه في الفترات الجليدية لم يثمر الجليد أكثر من جزء صغير من سطح اليابسة في المحيط الحيوي. والمساحات التي غمرها الجليد كانت تقع في الغالب على مقربة من المنطقتين القطبيتين، إضافة الى وقاع متباعدة غطها الجليد. وهذه كانت أقل بعداً من تلك عن خط الاستواء. وعلى كل فهذه التغطية من الجليد استت مؤقتاً بعض الأراضي الخصبة من الأوكومين (على سبيل المثال في سكاني وفي الجزء الجزري من المانرك،

وفي مدلوليان وفي كاتس) التي كانت غالبة في الانتاج منذ ان بدأ استغلالها. وفضلا عن ذلك فإن النسبة في التغطية المحلية للجليد كانت تتغير بين البحر واليابسة وذلك لمصلحة اليابسة، وترتب على ذلك أن كمية ضخمة من المياه تكومت في الغطاء الجليدي وعمدت في مكائنها، بحيث أن سطح البحر انخفض لتخفاضاً محسوساً حول الكرة جميعها. وظهرت فيمان البحار الضحلة جافة والبحار الضيقة ازدادت ضيقاً وبعض المضائق ظهرت فيها البرزخ، وأثر هذه لتغطية الجليدية المحلية كان ضيقاً إذا قيس بمعدل عمق البحر ونسبة البحر الى اليابسة في تكوين سطح السيار؛ ولكن هذا الأثر كان كبيراً بما أناحه من فرصة في توسيع مدى أوكومين الانسان في زمن كانت وسيلة الانسان الوحيدة للتنقل على الأرض هي قدماءه، وكانت فيه صناعة السفن وفن الملاحة لا يزالان في طفولتهما.

وحتى إذا أنظرنا في الاعتبار تيسير الهجرة الناشيء عن انخفاض موث في سطح البحر، فإن هؤلاء الأحياء الشبيهة بالبشر، التي جاءت في وقت مبكر، في توسيع رفعة الأوكومين يبدو مذهباً في عين إنسان اليوم. ويرجع السبب في هذا الى ما اخترعناه في المئة والخمسين سنة الأخيرة من سلسلة وسائل النقل الميكانيكية، بدءاً من السفن والطائرات الميكانيكية الى السيارات والطائرات. وشعر أن نجاح الأحياء الشبيهة بالبشر لا يظهر مثل هذه الدهشة عندما نقابل ذلك بنجاح الحيوانات الرثيمة من غير الأحياء الشبيهة بالبشر. فإن هذه قد استعمرت لأميركتين كما استعمرت آسيا بما في ذلك من أشباه جزر وجزر تقع عبر البحر. ومن القاحلة الأخرى فلم يتمكن أي من أصناف أسرة الأحياء الشبيهة بالبشر باستثناء الجنس البشري ولا أي نوع من الجنس البشري سوى الانسان العاقل، من الوصول الى الأميركيتين بحدراً من جنوب إفريقيا للداري، وهي المنطقة التي بدأ فيها التباين بين الأحياء الشبيهة بالبشر وأبناء عمومتهم من القردة الكبار. فجميع السكان البشريين الذين كانوا في الأميركيتين قبل كولومبوس متحضرين من ممثلي الانسان العاقل الذين وصلوا الى الأميركيتين براً من القارة، وذلك في غضون الفترة الجليدية الأخيرة. وقد وصل الأميركيون السابقون لكولومبوس من الزاوية الشمالية الشرقية لآسيا عبر طريق برزخ موقت هو الذي غمره فيما بعد مضيق بيرنغ. أما الأميركيون الذين يرجعون الى الفترة التالية لكولومبوس، والذين شقوا الطريق قبل النورسيين من الراوية الشمالية الغربية الأوروبية لآسيا، فهم الوحيدون الذين عبروا المحيط الأطلسي.

إذا كان الإنسان العاقل ظهر أول ما ظهر في شرق إفريقيا للدلرية، على نحو ما ظهر رمانه من الأحياء المشبهة بالبشر التي انقرضت الآن، فإنه في انتقله على الأنعام إلى نيرا دلعو، يكون قد اجتاز مسافة جغرافية طويلة. ومن ذلك فإن الزمن الذي احتاجه كان طويلاً. يضاف إلى ذلك أن الإنسان، مثل بقية أشكال الحيوان متقل، فهو ليس ملتصقاً بالأرض على نحو ما يلتصق أكثر النيات الذي ينمو في القهط الحيوي. على أن النباتات انتشرت انتشار الحيوانات رقعة، ولو أن أكثر النباتات تعتمد في انتشارها، على عمل الحشرات والرياح. وبعد أن يقال كل ما يمكن قوله، فإن المدى الذي انتشر فيه الإنسان في العصر الحجري أمر رائع. فقد وصل الإنسان نيرا دلقوغو وأستراليا أيضاً، في وقت مبكر يعود إلى حوالي ٦٠٠٠ ق.م. مع أن الطريق البري من آسيا إلى أستراليا كان يعترضه نحو خمسين كيلومتراً من الماء، بين بورنيو وسيليبس. هذا في الوقت الذي وصل سطح البحر إلى حده الأدنى. وأعجب ما حققه إنسان العصر الحجري كان استثمار بولينيزيا، بما في ذلك جزيرة الفصح Easter Island. وقد جاس الأوروبون الغربيون والمستعمرون منهم فيما وراء البحار في غضون الخمسة سنة الأخيرة سطح المحيط الهادي بأكمله، ومع ذلك فإنه باستثناء المناطق القطبية لم يعثروا إلا على القليل من الأماكن التي لم يكن قد استقر فيها الناس منذ عصر ما قبل الأوروبيين.

والإنسان غريب أمره بين الحيوانات العليا في أنه فقد فروته باستثناء بقع قليلة تغطي جزءاً صغيراً من جسمه. وكانت الكائنات البشرية بحاجة إلى أن تكسو نفسها بفراء صناعي لتتمكن من العيش في المناطق للدلرية حيث لا توجد سداة من أورل الشجر تفصل الجسم البشري العاري عن الشمس؛ وكذلك احتاجت الكائنات البشرية لباساً للعيش في المناطق الباردة أو المشبهة بالقطبية، حيث كانت معرضة للتصقيع. فالعربي البدوي المتقل والأسكيمو يستعملان الثياب السبكة - غالبوي يستعمل الثياب الصوفية والأسكيمو يلجأ إلى الجلود. واليوم يلجأ القوم إلى التكنولوجيا الحديثة لتوسيع مناطق الاستغلال، إن لم تكن مناطق العيش، إلى أقاصي الشمال في روسيا وكندا.

إن المناطق التي تغطيها الثلوج دوماً في غرينلاند وفي القارة الأوسع في القطب الجنوبي، لا تزال خارج حدود الأوكومين، ومن ذلك الحال بالنسبة إلى جهات في المناطق المدارية ذات الغابات الكثيفة والبلاد الجبلية للمنطقة بالثلوج والصحاري الجافة. ولكن الإنسان يبدو وكأنه يستطيع العيش في مناطق أكثر تنوعاً في المناخ من تلك التي

تعيش فيها الحيوانات العليا. إذا اجتزت واحداً من الأودية الضيقة العميقة التي يحدها في التربة البركانية الناعمة في إثيوبيا، فإنك تجد من السطح المعتدل في الهضبة إلى مستوى تعيش فيه القردة؛ ولكن قبل أن تصل القاع، فإنك تكون قد خلقت مساكن القردة ورايك. وتجدد إلى انخفاض حيث يكون الولدي حاراً أكثر مما تتحمله القردة ولكن ليس ثمة مكان مهما كان لارتفاعه، من الهضبة المعتدلة إلى أحواض الأنهار المنخفضة في إثيوبيا لا يستطيع الإنسان العيش فيه.

إن تشكيل الأوكومين لم يتبدل كثيراً منذ أن انحسرت موجة الجليد الأخيرة قبل ما بين ١٢,٠٠٠ و ١٠,٠٠٠ سنة. و سطح الأرض الهائلة الصالح للعيش يتكون من قارة واحدة كبيرة هي آسيا بما في ذلك آسيا جزرها والجزر الواقعة في البحر. وأهم أشباه الجزر الآسيوية هي أوروبا والجزيرة العربية والهند والهند الصينية. وكان من المحتمل أن تكون هذه الأسمدة أوسع الأوسع مساحة لو أنها امتدت باستمرار من اللابو إلى استراليا ونهوزيلاند؛ لكن في الواقع فإن الجزء المتوسط منها تفسخ، وسقط جزئياً في البحر. وأستراليا الآن مفصولة عن آسيا بالبحر الضيق الذي هو أرخبيل اندونيسيا - وهو من المضائق والجزر. وأكبر جزر آسيا الواقعة في البحر هي إندونيسيا والأميركيان وأبعد الجزر هي المنطقة القطبية الجنوبية. ويصل برزخ السويس إفريقيا بآسيا، ويصل برزخ بنما أميركا الجنوبية بأميركا الشمالية. وهناك البرزخان جملاً برمين اصطفايين لما غرقهما الإنسان بالقنايين الذين حفرهما فيهما، وأهم الممرات المائية الطبيعية هو مضيق ملقا الذي يزود المحيطين الأطلسي والهادي بطريق بحري يصل بينهما.

إن أفضل سبل المواصلات لنقل المسافرين من جزء من الأوكومين إلى جزء آخر هي في الواقع خارج نطاق الأوكومين، ذلك بأن أفضل العناصر توصيلاً هما الهواء والماء، وهذاان الممران تستطيع الكائنات البشرية أن يجتازهما، ولكنها لا تتغلب على العيش ليهما. وحتى الوقت الذي تم فيه اختراع القاطرات التي تسير بقوة البخار على السكك الحديدية، وذلك في القرن التاسع عشر، كان لنقل النهرى والبحري أسرع وأرخص من النقل البري. وقد كانت القوة العضلية البشرية والحيوانية هي القوة الحركية الوحيدة التي كان الإنسان يستطيع استخدامها في السفر والنقل برأ في العصر السابق للسكك الحديدية. أما بالنسبة للنقل المائي، في الناحية الثانية، فإن القوة العضلية البشرية، التي كانت تسير المردي والمجذاف، كانت، حتى قبل فجر المدنية، قد أضيف إليها تسخير قوة الريح

للشراع، وقوة الريح كانت القدرة الطبيعية الجامعة الأولى التي سخرها الإنسان وكانت أول ما تعلّى عنها أيضاً. لقد أصبحت فائضة عن الحاجة لما سخرت قوى طبيعية جامدة غيرها لإدارة الآلات.

وفي عصر النقل المائي كانت طرق المواصلات الرئيسة تمجدها تشكيلات صلب الماء في المحيط الحيوي. وقد كانت للممرات المائية أفضل الطرق البحرية مثلاً، إضافة إلى مضيق ملقا، المضائق الضيقة التي تصل البحر الأسود بالبحر الأبيض، ومضيق جبل طارق، ومضيق دوفر، ومجموعة المياه الضيقة التي تصل البحر البلطقي ببحر الشمال. والطرق المائية الداخلية النافذة كانت الأنهار البطيئة وقصاصة للملاحة. والمثل الكلاسيكي على ذلك هو نهر النيل شمالي الشلال الأول. ففي هذه المسافة المائية، كانت القوارب الشراعية تنحدر مع النهر بدفعها التيار، وتسير صعوداً ضد النهر باستعمال الشراع، إذ أن الريح الشمالية هي الريح المهيمنة في مصر إضافة إلى ذلك فإنه بعد التوغل في مصر لم يبق مستوطن بشري أو حقل أو حتى مقلع للحجارة بعيداً جداً كبيراً عن مجرى مائي يصلح للملاحة. وقد كانت وسائل المواصلات في مصر قبل اختراع السكة الحديدية، أفضل من مثيلاتها في أي قطر في مثل تلك المساحة.

في عصر النقل المائي كانت الأجزاء التي تصلح لأن تكون مفاتيح نقل على سطح الأرض في الأيوبيين هي التي وفرت سبل النقل من بحر إلى بحر آخر، أو من نهر صالح للملاحة إلى نهر آخر. وكانت مصر بالذات منطقة نقل، إذ أن النيل يفرغ مائه في البحر المتوسط، وثمة مسافتان قصيرتان للنقل البري من النيل إلى شاطئ البحر الأحمر: الأولى من الذراع الشرقي للنيل إلى السويس عبر وادي نوميلات والأخرى عبر وادي حسانات من قنطرة في مصر العليا إلى القصر القديمة (لوكس لسن). وحقيقة الأمر أن النقل برأ عبر برزخ السويس هو جزء من مجال للنقل البري يشمل مصر في الغرب والعراق في الشرق. ففي هذه المنطقة نجد في البحر المتوسط، وهو متجمع ماء خلعي للمحيط الأطلسي، والبحر الأحمر والخليج العربي، وهما متجمعان مائيان خلفيان للمحيط الهندي إما تفصل بينهما أضيق فسحة من اليابسة. فالجواز من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر عبر النيل يكرر نفسه في الجواز إلى الخليج العربي عبر نهر الفرات.

هذه التسهيلات الفريدة للمواصلات جعلت مصر وجنوب غرب آسيا الدولاب الجيوبوليتيكي للأيوبيين في العالم القديم. ومن التؤكد أنه ليس من قبيل المصادفة أن

كانت هذه المنطقة مهد أولى حضارات العصر الحجري الحديث، وبمهدا مهد أقدم مدينتين. وقد كان ثمة مجالان آخران للتقل كان لهما أهمية تاريخية بارزة: المجال النقلي بين الأنهار التي تصب في البحر البلطي والأنهار التي تصب في البحر الأسود، وبحر الأسود وبحر قزوين (البحر) في الجهة الراحدة، والمجال النقلي عبر سهل الصين الشمالية بين المجاري الدنيا لنهر باتنسي والنهر الأصفر ونهر ياي هو. وهو مجال أصبح ممراً مائياً لما حفرته القناة الكبيرة. وعلى كل فإن هذين المجالين النقلين - الصيني والروسي هما على هامش أبوكومين العالم القديم؛ فقد سبقهما في الأهمية التاريخية المجال النقلي الرئيس بين البحر المتوسط والمحيط الهندي.

في حدود هذا المجال الشامل الممتد من مصر إلى جنوب غرب آسيا، تركزت التجارة في منطقتين: أسفهما في شمال سورية بين انتحاة نهر الفرات والروبة الشمالية الشرقية للبحر المتوسط وإتاهما يقع في أفغانستان الحالية، عبر جزء من سلسلة جبال هندكوش التي تخترقها ممرات تصل حوضي سيحون (لوكس) وجيحون (جاكسارتس) العلويين بالحوض الأعلى لنهر السند (الاندس). وسورية الشمالية متصلة برا وبحرا بمصر، وبحرا بكل شواطئ البحر المتوسط وبلده الحلقية، والمحيط الأطلسي عن طريق مضيق جبل طارق. وتتصل سورية بأوروية براً عن طريق ممرات كيليكيا، وبحرا عبر مضيق الدردنيل والبوسفور، ومع الممرات الخزرية وحوض سيحون - جيحون (ما وراء النهر)، ومع الهند، وتتصل أيضاً اتحدلاً مع الفرات إلى الخليج العربي والمحيط الهندي، ومع المحيط الهندي مروراً بمضيق ملقا. وأفغانستان متصلة بأرض الرانديور، وشمال سورية عبر الممرات الخزرية ومع حوض التولفا اتحدلاً مع نهر جيحون وعبر السهوب الأوراسية. وتتصل أفغانستان بالصين بطريق سيكياتغ، ومع الهند بطريق الممرات التي تخترق سلسلة جبال سليمان.

قبل ما تولت استراتيجيات السكك الحديدية والطائرات ككت التسلية التي تتلائم في الممرتين وتتفرع عنهما تقيد من التقل المائي، النهري والبحري، حينما كان ذلك ممكناً عملياً. وعندما كان الناس والتاجر يضطرون إلى التقل برآه قبل استتراع الآلة، كان الإنسان يقع تحت رحمة الأرض، فقد كان من الممكن الدوران حول الجبال أو تسلقها. أما العابات، المحتلة منها والمملوءة على السواء فكانت عقبات بشكل خاص وأما السهوب فقد كانت صلة وصل ممتازة. وفي الحقيقة فإن مناطق السهوب الثلاث

المتصلة - الأوراسية والعربية والشمال افريقية أصبحت صلة وصل تكاد تعادل البحر دانه لما دجن الانسان الحيوانات الصالحة للخدمة: الحميم والحبل وفوق هذا كله الجمال، وأصبح بإمكان الكائنات البشرية ان تجتاز السهوب تقريباً بمثل السرعة التي تجتاز بها البحر، وذلك بمساعدة حيوانات الركوب وحيوانات الحمل وحيوانات الجر، لكن استعمال كلا العنصرين يقتضى تنظيماً ونظاماً. فالتقلقة، مثل السفينة، كالا لا بد لها من قائد، وكانت أوامره واجبة الطاعة.

وحتى لما سخرت السهوب، كما سخرت البحار والأنهار الصالحة للملاحة، سهلاً للمواصلات بين مختلف أجزاء الأوكومون، فإن وسائل التواصل البشرية ظلت ناقصة الى عصر الآلة. وحتى مع النقص في هذه الوسائل فقد قامت امبراطوريات عاشت طويلاً ناجحة، والأديان التي انتشر دعائها ليهتدوا البشرية بأجمعها قد كسبوا أتباعاً وحافظوا عليهم في رقعة أوسع مما حققته أية امبراطورية دنيوية. فالامبراطورية الفارسية الأولى والامبراطورية الصينية والامبراطورية الرومانية والخلافة العربية والأديان الثلاثة ذات الدعوة العالمية: البوذية والمسيحية والإسلام، إنما هي آثار شاهدة على انتصار قوة الإرادة البشرية على العوائق الطبيعية. ولكن الحدود التي بلغها النجاح تظهر أيضاً حدود المدى الذي كان ممكناً عملياً للمجتمعات البشرية أن تبلغه بدون مساعدة وسائل المواصلات الميكانيكية التي اخترعت منذ مطلع القرن التاسع عشر.

والشاهد الذي يدعو الى الانبهار أكثر من غيره على عجز وسائل النقل قبل بدء عصر الآلة هو اللغات المختلفة، التي كانت تستعمل محلياً في مختلف أنحاء الأوكومون، والتي لا يمكن تمييز صلة بين الواحد منها والآخرى. واللغة مقصورة بشرية عالمية، ولم يسمح بجماعة بشرية لا لغة لها. وإذا أخذنا هاتين الحقيقتين مما فإن ذلك يوحي إلينا أنه قبل ان ينتشر الانسان المائل على سطح الأرض في المحيط الهندي من شرق افريقية المداوية (إذا صح ان هذه هي المنطقة التي ظهر فيها هذا الصنف من النوع البشري لأول مرة) فإن البشرية ككل كانت ولا ريب في سبيل استعمال النطق، ولكنها لم تكن قد طورت هذه الامكانية بعد. وهذه الفرضية قد تفسر لنا كيف تم للمجتمعات البشرية جمعاء ان تكون لها لغات. ولكن اللغات، بخلاف الكائنات البشرية التي نتكلمها، ليس بينها قرابة واضحة، وبطبيعة الحال فإن الكائنات البشرية الوحيدة التي نعرفها من محفلاتها، الخارجة عن العظام والأدوات، ليست سوى الكائنات المعتلة للأعوار

البقية وحدها، ولما نعرف فيما لنا كانت أي أنواع أخرى من (النوع البشري) أو أي نوع من فصيلة الكائنات الشبيهة بالبشر، قد تعلقت الكلام، أو أن هذا الاجبار كان عاماً بالإنسان المثل، كما أنه لا سبيل لنا إلى الكشف عن ذلك.

واللغات المعروفة التي تتكلمها المجتمعات المختلفة التي هي من نوعها، انتشرت في مجالات متعددة في مدنها. فقد كان في غابات غرب إفريقيا للبلدية، قبل أن يدخلها المهاجرون من خارج المنطقة، لغات متعددة متقاربة في موارثها، إلا أنها على ما يبدو، لم تكن ذات صلة واحدة بالآخرى. وقد كان مجال استعمال كل من هذه اللغات صغيراً للغاية. فقد يجمع سكان قريتين لا يفصل بينهما سوى بضعة كيلومترات من الغابات، من التواصل معاً بشكل واضح عن طريق الكلام. وكانت اللغة الشائعة هي الإشارات. واللغات الهكبة الآن في غرب إفريقيا جاءت من الخارج: لغة الهوسا (الطوسا) على سبيل المثال، جاءت من سهوب شمال إفريقيا والفرنسية والانكليزية جاءت من الساحل.

وبالمقارنة مع اللغات الغابات فإن البحر قد حمل لغات فلايو إلى جزر الملديش في اتجاه شمال شرقي، وإلى مدغشقر في اتجاه جنوبي غربي، وكذلك حمل البحر اللغة البولينية إلى كل جزر أوقيانوسية، أي: إلى أستراليا بعيداً من القارة مثل جزيرة الفصح ونيوزيلاندا. والبحر المتوسط كان، في زمن مضى، عاملاً في نشر اللغات البونوية (الفينيقية) واليونانية واللاتينية في شواطئه. والمحيط الأطلسي نقل اللغات الأسبانية والبرتغالية والانكليزية والفرنسية من غرب أوروبا إلى الأمريكتين. والسهوب نقلت اللغات إلى أماكن بعيدة على نحو ما فعل البحر. واللغات الهندية - الأوروبية أولاً واللغات التركية فيما بعد، انتشرت السهوب الأوروبية وانتشرت وراء شواطئها في اتجاهات متعددة. وقد انتشرت اللغة العربية من الجزيرة العربية إلى شواطئ المحيط الأطلسي عبر السهوب الشمال افريقية.

والغبار الفات من طريق الوسائل غير البشرية نراه للعمل البشري المقصود الذي اتخذ شكل النشاط التوسيري الفني والاعتلال العسكري والتنظيم السياسي والتجارة. فالدولارات والقبائل الآرامية كانت حاجزة سياسياً وقد عصفت للأشوريين، ومع ذلك فقد انتشرت اللغة الآرامية في جنوب غرب آسيا، كما انتشرت الألفباء الآرامية شرقاً إلى مصر ولها ومنشورها، وذلك بسبب الاتصال الإداري للآرامية في الامبراطورية الآشورية والامبراطورية الفارسية الأولى، ولأن التسطرة والقبول استعمالوها في الطقوس الدينية.

ومن الجهة الثانية فإن نجاح اللغة اليونانية في التغلب على الآرامية في جنوب غرب آسيا وفي مصر يعود إلى قضاء الاسكندر الكبير عسكرياً على الامبراطورية الفارسية الأولى كما كان الاحتلال العسكري وسلطة نقل اللغات الرومانية إلى رومانية شرقاً وإلى شيلي هي الانغماء الجنوبي الغربي، وذلك من الوطن الأصلي الصغير للغة اللاتينية، وهو الوطن الذي كان يقوم أصلاً على شاطئ البحر الأيوني لنهر البير الانجليتي.

وقد قامت الأنظمة المختلفة بأدوار رئيسة في أوقات مختلفة من تاريخ الأيوكميون. وإذا كانت منطقة إريقية الاستوائية والمنطقة الجنوبية الشرقية من إفريقيا هي في الحقيقة مهد الأحياء الشبيهة بالبشر، ومن بينها الأمثال العاقلة من النوع البشري، بمعنى هذا أن شرق إفريقيا والأيوكميون كانوا أصلاً متطابقين في حدودهما. وقبل نهاية العصر الحجري القديم لتأخر اتسعت حدود الأيوكميون من شرق إفريقيا بحيث شملت القسم الأكبر من القارة، وكانت الأحياء البشرية تنتشر في الأميركيين. في هذه المرحلة كان الدور الرئيس، على ما يبدو، قد انتقل إلى التفرع الجنوبية من مناطق الجبل الأوروبية الشمالية، حيث كان صيادو العصر الحجري يجفون الصيد الوفير قبل موجة اللوبيان الخالية، ومع ذلك فقد تكون الظاهرة لأوروبا في هذا العصر وهو ناشئ عن النقص في ما لديها من المعلومات. وإذا أتيح خلفات إنسان العصر الحجري القديم المتأخر الموجودة في بقية العالم أن يكشف عنها الفجاء في النهاية، على نحو ما كشف الفجاء عنها في أوروبا إلى الآن، فقد تظهر الصورة عندها مختلفة عما هي عليه الآن.

ونحن أكثر تأكيداً من أن جنوب غرب آسيا والأجزاء الشمالية القصوى من وادي النيل، قامت بالدور الرئيس في العصر الحجري الحديث، وبأن سومر - وهي السهول الرسوبية في الجزء المنخفض من وادي الرافدين - كانت مهد أقدم المذنبات. هذا مع العلم بأنه، في ما سبق من العصر الحجري الحديث، لم يكن هذا الجزء من جنوب غرب آسيا صالحاً للعيش. وفي القرن الثالث عشر للميلاد، لما عاصرت هذه المنطقة الرسوبية أميراً قمرتها على الانتاج، انتقل الدور الرئيس في الأيوكميون، وإلى مدة قصيرة هي فترة جيلين، إلى منغوليا، ويعود ذلك إلى أن السهوب الأوراسية صالحة للتنقل، وإلى أن هؤلاء البدو الأوراسيين، الذين كانوا رعاء، كانت لهم القدرة على الحركة، وكانوا يستعملون بالشجاعة الماتقة والنظام. وقد تمكن هؤلاء وقد اتخذوا مؤقلاً تحت إمرة للنول، من إخضاع كل قلب القارة، ولم يسلم منهم إلا أشباه الجزر والجزر البعيدة عن الشاطئ.

ومن ثم فقد انتقل الدور الرئيس في الأويكوميون إلى أوروبا في القرن الخامس عشر، وذلك لما تمكن ملاحوها من السيادة على المحيط - وكان المحيط سبيلاً للتنقل أوسع من السهوب الأوروبية.

وفي القرن العشرين، بعد أن خسر غرب أوروبا سيطرته العالمية، بسبب أنه شح حريين طاحنتين بين الأشقاء، انتقل الدور الرئيس إلى الولايات المتحدة. ويظهر، عند كتابة هذه الصفحات، كأن السيادة الأميركية ستكون قصيرة الأجل، كما كانت السيادة المغولية. إن المستقبل لغز؛ لكن يبدو أنه من المحتمل أن القيادة قد تنتقل من أميركا إلى آسيا الشرقية في الفصل التالي من تاريخ الأويكوميون.

٥- الثورات التكنولوجية حول ٧٠,٠٠٠ / ١٠٠,٠٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م.

كل نوع من الكائنات الحية وكل نموذج من كل نوع يؤثر في المحيط الجيوي ويعدل فيه بسبب ما يفعله من جهد للاحتفاظ بحياته في الفترة القصيرة التي يعيشها. ومع ذلك فلم يكن لأي من الأنواع السابقة للأحياء الشبيهة بالإنسان من القوة ما يمكنه من السيطرة على المجال الجيوي أو تحطيمه. ومن الناحية الثانية فإنه لما قام واحد من الأحياء الشبيهة بالإنسان بترقيق حجر، ورغبة منه في جعله أداة أصلح، الأمر الذي لعله ثم قبل مليوني سنة، كان هذا الفعل التاريخي إبداعاً بأنه في يوم من الأيام سيسكن نوع ما من أحد أصناف العائلة المشابهة بالإنسان من الحيوانات الندية العليا من وضع المحيط الجيوي تحت رحمته، ولن يمكنني بالتأثير فيه وتبديله فقط. وقد تم للإنسان العاقل، في أيامنا هذه السيطرة على المحيط الجيوي.

وهذه القدرة التي تملكها عائلة الأحياء الشبيهة بالإنسان، والتي تمكن هذه العائلة من السيطرة على المحيط الجيوي، لم يتح لها أن تصبح أسراً واقعياً خلال هذين المليونين من السنين، التي صنعت فيها الأموات، إلا خلال السبعين أو الأربعين ألفاً الأخيرة من الستين. كان هناك ولا شك شيء من التقدم التكنولوجي خلال العصر الحجري القديم المبكر، ولكن التقدم في تلك الحقبة كان بطيئاً وضعيفاً، وكل من التجهيزات التكنولوجية للتأهية التي ظهرت كانت تنتشر انتشاراً عشوائياً في الأوكومون (وهذا لم يشمل، في العصر الحجري القديم المبكر، الأمريكيتين). وانتشار التجهيزات التكنولوجية العائلة إلى ذلك الرمز كان بطيئاً، ذلك بأن الضرب الجديد من الأدوات كان ينقله الناس بأنفسهم من مجتمع إلى آخر، ومن الواضح أنه في هذه المرحلة الاقتصادية التي كان قواها جمع الغذاء، لم يكن من الممكن للمجتمعات البشرية أن تكون ساكنها متقلبة، إذ أن كل فريق كان يعوزه حيز واسع يتجول فيه سعيًا وراء لقمة العيش.

يضاف الى ذلك أن الأحياء الشبيهة بالإنسان من أهل العصر الحجري القديم المبكر، بما في ذلك أكثر أنواعها نجاحاً في الإنسان العاقل، كانت ذات عقلية محافظة، وأنها كانت تفر من قبول شيء جديد، حتى ولو كان الصنف الجديد في متناولها. ومع ذلك فالمسبب في ان الانتشار كان متساقاً في الأويكومين بالنسبة الى الأدوات الجديدة، مع أن النقل كان بطيئاً، يعود الى ان التجديد لم يكن يحدث كثيراً. فقد كانت الفترات الزمنية بين التجديدات المتتالية طويلة، بحيث تتيح لكل تجديد أن ينتشر في الأويكومين، قبل ان يتبعه التجديد التالي.

وفي تاريخ التكنولوجيا نجد أن الثورة التي قامت في العصر الحجري القديم المتأخر وذلك قبل ٧٠,٠٠٠ / ٤٠,٠٠٠ سنة، كانت حدثاً حاسماً. ومن ذلك الوقت وإلى يوم الناس هذا، تسارعت التحسينات في الأدوات من كل الأصناف. ومع انه كان لمة لوقف محلي وموقت، وحتى في بعض الأحيان نكسات، فإن التسارع هو النزعة الأسس في تاريخ التكنولوجيا في هذه المرحلة الأخيرة.

وفي الفترة المتعددة من حول ٣٠٠٠ ق.م. الى ١٥٠٠ م انعكس الأمر بالنسبة الى سرعة الانتشار وسرعة التجديد في مقابل ذلك. فقد كانت مخترع ضروب جديدة من الأدوات، قبل ان يتاح للأصناف الموجودة ان تنتشر في أنحاء الأويكومين. وترتب على ذلك ان هذا الاتساق العالمي الذي كان صفة ملازمة للعصر الحجري القديم المبكر حل محله، في العصور التالية، التباين. فلم يكن للمخترعات الجديدة من الوقت ما يسمح لها بالانتقال من موطنها الأصلي الى أقاليم الأويكومين، قبل ان تتغلب عليها مخترعات أحدث في المنطقة، ولم تلتحق سرعة الانتشار سرعة الاختراع وتغلب عليها ثانية إلا بعد القرن الخامس عشر للميلاد إذ أن قدرة الأويكومين على التوصل لزيادات فجأة لما اخترعت شعوب غرب أوروبا شكلاً جديداً من السفن الشراعية التي كانت تتمكن من المكوث في البحر شهوراً متطاولة بحيث أنها وصلت الى كل شاطئ، بل وتمكنت من الدوران حول الأرض.

خلال الخمسة ستة الماضية أصبحت سرعة كل من الانتشار والاختراع أكبر بكثير جداً مما كانت عليه خلال المائتين الأولين من السنين التي مرت على صنع الأدوات؛ لكن العصر الحديث والعصر الحجري القديم المبكر يشتركان في صفة واحدة. ففيهما قصرت سرعة الاختراع عن سرعة الانتشار. وقد ترتب على ذلك،

في كلتا الحالتين، قيلم حالة من الانساق العلمي على درجة عالية، وذلك على المستوى التكنولوجي.

في العصر الحجري القديم التآخر انتقل الانسان العاقل من شمال شرق آسية إلى شمال غرب اميركا الشمالية، ومن هناك انتشر حتى وصل إلى الطرف الجنوبي لأميركا الجنوبية. هؤلاء المعمرون من العصر الحجري التآخر قتلوا صلتهم بأسية، باستثناء مكان شواطئ المحيط الهادي حيث تقوم اليوم ولايتا فوريفرون وروانطس ومنطقة كولمبيا البريطانية. وقد مرت فترة لعلها كانت عشرين ألف عام بين استعمار الأمريكيتين من شمال شرق آسية وبين الاستعمار الثاني من أوروبا، التي هي شبه جزيرة لآسية. وخلال هذه الفترة المعترضة تطور المجتمع والحضارة في الأمريكيتين تطوراً مستقلاً. ومراسل هذا التطور لا تتفق زمنياً مع تلك المراحل المعاصرة لها التي عرفتها آسية وملحقاتها. يضاف إلى ذلك أن الأسماء والتواريخ التقليدية لمراحل تاريخ العالم القديم، منذ نهاية العصر الحجري القديم التآخر، هي خاطئة هنا أيضاً إلى درجة معينة.

فعلى سبيل المثال نجد أن العصر الحجري القديم المبكر لم يتميز فقط بتقدمه في تقنية نشر الأدوات الحجرية وترقيتها. لقد تم له على الأقل ثلاثة اختراعات رائدة: لدجين الكلب، والرمي بالقوس، وتصوير الحيوانات والأحياء البشرية وصياغة نماذج لها. إن نجاح صيادي العصر الحجري القديم المبكر في تأنيس الكلاب بحيث أصبحت للإنسان خدماته الطبيعية، بعد أن كانت الخصم المزاحم له، كان أول نجاح للإنسان في أن يجعل الحيوانات غير البشرية تقوم على خدمته. ولما اخترع هذا الإنسان القوس سخر قوة طبيعية غير حيية، وهي مرونة الخشب لتمكين قوة عضلاته، وذلك بشد القوس، من أن تطلق سهماً إلى مسافة أبعد مما يمكن للذراع البشري من إطلاقه دون عون. أما في ما يتعلق بالتصوير وصياغة النماذج فهما أقدم الأعمال الفنية المنظورة المعروفة. فإن الذين صوروا على جدران الكهوف في فرنسة وإسبانية، أنادوا من السطوح الخشنة فجعلوها هيئة الحيوانات المصورة عليها تبدو وكأنها بارزة. وفي لينسكي فير، على شاطئ نهر الدانوب الأيمن، عند البرابطة الحديدية، خطا فنانون العصر الحجري القديم التآخر خطوة أبعد فصاعروا أشكالاً ثلاثية الأبعاد تماماً، ولعله كان للصور الكهفية غاية دينية أو على الأقل غاية سحرية. ومركز الطقوس في لينسكي فير كان بالتأكيد حرماً دينياً. فموقع لينسكي فير كان نقطة نهاية طبيعية لمسيرة جامعي الفؤاد والصيادين، وقد نستج من ذلك أن البشرية

مع أنها كانت مضطربة قبل اختراع الزراعة، إلى السير المستمر في سبيل الحصول على لقمة العيش، فقد كانت ثمة جماعات من أهل العصر الحجري القديم المتأخر انتحلت لها مناطقاً ثابتة كانت تزورها في أوقات منتظمة، قلت أو كثرت، وبغية منها، على الأرجح، في القيام بطقوس جماعية. ويبدو أن مثل هذه النقاط الطقسية (للعبادة) كانت أصل مراكز السكن الدائمة.

وهكذا فإن « الحجري القديم » هو اسم غير صالح لوصف النشاطات والإنجازات التي تمت على يد ما نسبته إسان للعصر الحجري القديم المتأخر، وبالأحرى فإن الحقبة التي بدأت بعد ابتداء الذوبان الحالي (المجلد) - أي لنقل قبل اثنتي عشرة أو عشرة آلاف سنة - لا يصبح تسميتها « بالحجري الحديث ». صحيح أن أقدم اختراع تكنولوجي في العصر الحجري الحديث هو اكتشاف الطرق التي تمكن بها للإنسان من شحن أدواته على الشكل الذي يريده، بدل أن يقتصر الصولان أو أي نوع من الحجارة القابل للانشقاق، إذ أن هذا اختراع لم يؤد فقط إلى صنع أدوات مناسبة تماماً لقضاء مآربه، بل إنه مكّن الصانع من أن يختاروا موادهم الخام من مجال أوسع لصنع أدواتهم. ومع ذلك فإن الإنجاز الذي كان فائتة عهد جديد لم يكن من شحن الأدوات. إنه كان تدجين بعض أصناف من النباتات والحيوان. يضاف إلى ذلك أن الاختراعات التي تمت في العصر الحجري الحديث مثل الفزل والمحاكاة وصنع الفخار بدلت في الحياة البشرية تبديلاً لا يقل عن اختراع الزراعة وتربية الحيوان.

ومن المؤكد أن الزراعة وتربية الحيوان كانتا أهم الاختراعات البشرية حتى يومنا هذا. ذلك أنهما لم يخسرا قيمتهما كأساس اقتصادي للحياة البشرية، حتى ولا في الأزمنة والأمكنة التي يبدو وكأنّ الحجارة والصناعة قد تغلبتا عليهما. وإذا نحن ألقينا نظرة نحو الماضي وجدنا أن الزراعة وتربية الحيوان كانتا وسيلتين مبركتين للتوفيق بين تطور قوة الإنسان التكنولوجية والحفاظ على سلامة المحيط الحيوي. وهذه السلامة هي الشرط اللازم لاستمرار كل أصناف الحياة بما في ذلك الحياة البشرية ذاتها. ولما كان الإنسان قد أصبح في تدجين أصناف من النباتات والحيوان، فإنه قد استعاض عن الانتخاب الطبيعي بالانتخاب البشري. وإذا خضنا لتجارب من أجل غايته الخاصة، فانه أقصر المحيط الحيوي في سبيل إهواء البشرية، وقد حلت مزروعات الإنسان وسباته وأغنامه وأبقاره محل العديد من الأصناف التي لا فائدة منها للإنسان أو أنها عدوة له، والتي حسبها الإنسان

و أعضائها و سلامة و ومن ثم فقد حكم عليها بالقضاء ما استطاع الى ذلك سبيلاً، وفي الوقت ذاته ضمن الانسان بقاء تلك النباتات والحيرانات التي اتحد بها نفسه. لقد تعلم ان يحتفظ بجزء من حصاده السنوي لتزويده بحاجته من البذر للعام التالي، وكان يحدد أغنامه وأبقاره بالاحتفاظ ببعض حملاته وعجوله أحياناً كل سنة. وفصلاً عن ذلك فإنه، إذ كان يلجأ الى مخير في التلقيح الحيواني، تمكن من تبديل بعض الأصناف المدججة بطريقة أسرع وبشكل جفري أكثر، مما لو ترك الأمر للطبيعة لتفريها يومئذها الخاصة.

وقد كان اختراع الفخار سبباً لتزويدنا بنيت منظور للتأين في الحضارة. ففي الفخار تبدل أنماط الشكل والتزيين بسرعة تكاد تشبه التبدل في الثياب؛ وقطع الفخار لا تبلى، فيما تهترىء الثياب، إلا في الحالات النادرة إذ تحفظ في الرمل الجاف أو في الحث المزول عن الهواء. ومن هنا كان تصنيف قطع الفخار طبقات في المكان الذي قطعه الانسان بالنسبة الى الزمن الذي مر بين اختراع الفخار واختراع الكتابة، هو أدق مقياس للزمن التاريخي، وهو أيضاً أضيق ما يدل على الحدود الجغرافية للحضارات المتميزة، ومؤشر لتمازج الحضارات أو انفصاها عن طريق انتشار الفنون وعن طريق الهجرة أو الفتح. ففي العالم القديم والأمريكيتين على السواء نجد ان تنوع أساليب الفخار هو مفتاح لتاريخ تطور الحضارات الاقليمية وتباينها في العصر السابق للمدنية - وحتى بعد ظهور المدنيات في الأمكنة التي لم يرافق هذا الظهور فيها اختراع الكتابة، أو حتى اذا اختعرت الكتابة لكنها أهملت في ما بعد، ولم تحل رموزها ابى الآن.

وقد خلقت حضارات العصر الحجري الحديث الاقليمية حضارة العصر الحجري القديم المتأخر في أكثر أقسام العالم القديم من الأوكرومين (في الأمريكتين، كما لاحظنا من قبل، اتخذت حضارة العصر الحجري القديم المتأخر، التي حصلها المستعمرون الآتون من شمال شرق آسيا، هي تطورها سبلها الخاصة بها). وقد تطورت حضارة العصر الحجري الحديث - هي العالم القديم - هي منطقة معينة، هي جنوب غرب آسيا بشكل تدريجي الى حضارة العصر النحاسي عبر دور انتقال سمي الحلكوليثي. وهو عصر استعمل فيه الحجر والنحاس متعاصرين باعتبارهما المادة الخام لصنع الأدوات. وفي واقع الأمر فإن الحجر ظل معتمداً لصنع بعض الأدوات - أعم الأنواع وأتقنها - لمدة طويلة حتى بعد ان استعمل النحاس والبرونز والحديد، كل بدوره، لصنع الأسلحة والحلي. ومن هنا فإن العصور التي سميت بأسماء المواد المختلفة التي استخدمت في صنع الأدوات كانت

تداخل فيما بينها زمنياً. فالمعصر الحجري الحديث لم يته حقاً إلا لما خلف الحديد الحجري نهائياً بوصفه للادة التي تصنع منها الآلات الزراعية والأوعية المنزلية غير المعهارة - وكان هذا في تواريخ مختلفة ومناطق مختلفة.

فيما أصبح تدجين النباتات والحيوانات الوحشية لحمة الحياة البشرية وسداها، فإن اختراع التمدين هو عنوان الروعة التكنولوجية للإنسان. فالتمدين هو نهاية سلسلة من الاكتشافات الفاجعة، ولم تكن نهاية هذه السلسلة بينة من قبل. فكل حلقة منها كانت بنت عمل عقلي مد. فقد وقع نظر إنسان المعصر الحجري الحديث، أول الأمر، على قطع من المعدن الخالص على سطح أرض الأوكومين. وقد تعامل مع هذه القطع المعدنية كما لو كانت حجارة، واكتشف أنها، على خلاف الحجارة العادية، هي طيبة. ثم اكتشف، فيما بعد، أنها، إذا أحسبت أصبحت مرنة موقنا. وإذا رغبت حرارتها إلى درجة عالية، تدوب. وهكذا فقد عمر الإنسان، في المعدن، على مادة خام حي، مثل الدلفان (الصلصال)، أكثر قبولاً للشكل من الحجر. وكان الاكتشاف التالي هو أن المعدن يعثر عليها، لا في حالتها الخالصة فحسب، ولكن كعناصر في ركاز (معدن خام)، وأنه إذا أحسبت الخامة المعدنية إلى درجة عالية بحيث ينوب محتواها المعدني، فإن المعدن الأصلي يمكن تخليصه من الشوائب. وكانت الخطوة الأخيرة هي أن الإنسان اكتشف أن أغني القرون من الركاز موجود تحت سطح الأرض، ثم جاء اختراع تقنية التعدين.

عند هذه الوقفة كان قد مر على استعمال التمدين في العالم القديم من الأوكومين نحو ستة آلاف سنة، ونحو ٢٨٠٠ سنة في البيرو على وجه الاحتفال. وقد كان له آثار ثورية على كل الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للحياة البشرية وعلى التفاعل بين الإنسان والمحيط الجيوي الذي هو المكان الوحيد لصالح لميشد. فقد رفع التمدين مستوى الحياة المادية للبشرية، لكن النقص الذي دفعه المجتمع لقاء الخبرة التمدنية ظهر في تقسيم العمل. أما من ناحية البيئة فقد كان للنسب الاستهلاك المستمر للمادة الخام التي هي في الوقت نفسه نادرة وغير قابلة للتجديد.

لقد كان الحداد والمعدن أقدم التخصصين في العمل. فقد كان على كل سهما أن يخصص كل وقته لصناعاته، بدل الامتنع في أن يكون صاحب كارات مختلفة، على نحو ما كان عليه صياد المعصر الحجري القديم أو مربّي الحيوانات في المعصر الحجري

الحدث فقد كان تقسيم العمل هذا نتيجة للتكنولوجيا، وترتب على ذلك، اجتماعياً، تبادل المستوجبات الناشئة عن تنوع الأعمال. وقد خلق هذا مشكلة لم تحل بعد، ولعلها غير قابلة للحل، وهي المشكلة الأخلاقية - فما هو البدأ الذي يمكن اتباعه في تقسيم مستوج المجتمع بكامله على الفئات المختلفة من المنتجين؟ فالتنوع بكامله هو سر عمل تعاوني يقوم به جميع المساهمين في المجتمع، لكن ما ينتجه كل واحد ليس متكافئاً في تأثيره أو قيمته. والتفاوت ظاهر، لكن هل من الممكن أن يتمكس ذلك في توزيع الحصص بحيث يرى فيه جميع الفرقاء أنه توزيع منصف؟ هل من اللازم أن تكون لمة محاولة لتوزيع منصف؟ أم هل أنه من الصحيح، أو على الأقل مما لا يمكن تجنبه، أن ينال حصة الأسد أولئك الذين يتمتعون بالقوة المراجعة؟

إن اختراع التمددين زرع بذور الثباين الطبقية والخصومة الطبقية. واسم العائلة و الحداد هو دليل على أنه في القرية المملوكية، كان هو يحتر أنه قروي من نوع يختلف عن الغالبية غير المتخصصة من سكان القرية. ولعله من الصحيح أن العصر الحجري القديم قد عرف مبادئ التخصص التكنولوجي - فأنسان العصر الحجري القديم عرف أن الأنواع المختلفة من الصوان كانت ذات قيم مختلفة بالنسبة إلى صنع أدواته؛ لكنه من غير المحتمل أن يكون أي عامل، قبل اختراع التمددين، قد أصبح متخصصاً متفرغاً، بحيث أنه يستطيع أن يحصل على قوت يومه من طريق المبادلة فقط، دون أن يكون له أية مشاركة مباشرة في العمل الأساسي الذي تقوم به الجماعة لتزويد نفسها بالمواد الغذائية.

والتبديل الثاني من التبدلات الحاسمة التي نشأت عن اختراع التمددين هو استعمال المواد الخام التي لا يمكن تمويدها والتجارة كذلك. إن تمريض الزرع عن محاصيله الزراعية وحيواناته كان مضموناً له، بسبب أن هذه كانت أشياء جيدة، والحياة قادرة على استغلال ذاتها طبيعياً، ما لم يحل بين «الطبيعة» وعملها. فكل ما كان يطلب من الإنسان، لضمان الاستمرار في النباتات والحيوانات للجنة، هو أن يكون له بعد نظر، وأن يصبط نفسه بعد في ذلك. فالتفلاح يجب أن يوفر القدر الكافي من حصاده وحملائه وعجوله لتزود نفسه، في العام التالي، بالذرة والحبوب على عدد مواشيه وأبقاره. ويتوجب عليه أيضاً أن يتورع عن التمدادي في استغلال الأرض الأم. يجب عليه أن يقاوم الرغبة الجامحة في اجتاحتها (الأرض الأم) عن طريق الزيادة في الزرع أو الرعي. وعلى شرط أن يكون للتفلاح بعد نظر وأن يضبط نفسه، تستمر «الطبيعة» في خصبها

لمصلحته. وفي الواقع فليس ثمة سبب يحول دون أن يستمر العمل في الزراعة وتربية المواشي، بعد أن اخترعنا، وذلك إلى أن يصبح المحيط الحيوي غير صالح للعيش فيه. وبالمقابلة فإن تاريخ التعدين هو تاريخ البحث المستمر عن مصادر جديدة للمعدن للاستعاضة بها عن المصادر التي كان قد تم اكتشافها وكانت قد استهلكته. فالمعادن، بما أنها مادة غير حية، لا تكمل النقص في ما يتطلبه الإنسان منها عن طريق الاستبدال، وهذا ينطبق على المواد التي كانت عضوية من قبل مثل الفحم الحجري. وفي وقتنا هذا بلغ استخراج المصادر الطبيعية التي لا تعرض درجة بالغة الخطورة، بحيث أننا أصبحنا على قاب قوسين من استهلاك كل الخزون منها التي تصل ألبينا اليه.

ولتمة انشائي، في الزراعة وهي تربية المواشي، بين قدرة الإنسان التكنولوجية وانتاجية الطبيعة. ولما مع اختراع التعدين فقد أصبحت مقدرة الإنسان التكنولوجية تتطلب من « الطبيعة » ما ليس باستطاعتها تلبية عبر الزمن الذي سيظل فيه المحيط الحيوي صالحاً للعيش فيه. وإذا نحن أخذنا المئذنة آلاف سنة الماضية من التاريخ البشري أساساً للألفي مليون من السنون التي تأمل البشرية في إمكان استمرار حياتها عبرها، فقد نصل إلى نتيجة هي أنه كان من الأفضل لأحفادنا لو أن التعدين لم يخترع قط، ولو أن الإنسان، وقد بلغ مستوى العصر الحجري الحديث في التكنولوجيا، لم يوفق إلى الوصول إلى مستوى أرفع في إنجازاته التكنولوجية. ولو أن نجاح الإنسان في تقنية صنع أدواته توقف قبل استعماله المعادن، لكانت أبعاد البشرية وثروتها للملايين الهولاء، ولا شك، جزءاً فقط مما هي عليه الآن. ومن الناحية الأخرى فإن بقاء البشرية واستمرارها كان أسهل، إذ لن نقع في خطر استهلاك المصادر التي لا تنمو. حقاً إن الحجر الصلب هو الآخر مثل المعدن، لا يمكن تعويضه لأنه ليس بقات حية ومن ثم فإنه لا يجدد نفسه؛ لكن، من الناحية الثانية، فإن الحجر، إذا قورن بقتل المعادن نفرة، وافر بحيث يبدو وكأنه لا يمكن أن يستهلك. كان من الأسهل والأقل إيلاًماً لأحفادنا من فعل العصر الحجري الحديث أن يظلوا في مستوى ما قبل المعدن، مما هو بالنسبة لأحفادنا في أن يعودوا إلى ذلك المستوى، فيما إذا بدا لهم أن هذا هو البديل الوحيد لقتالهم.

ولكن ابن اخترع الزراعة وتربية المشية والتعدين، في الأوكومين، للمرة الأولى؟ والكلمتان الاخيرتان من هذا السؤال هما جوهرية إذ ليس ما يؤكد لنا أن اختراعات الانسان تمت في مكان واحد وزمن واحد فقط. فأي اختراع يتم في زمن أو مكان معين

يمكس بالطبع لأن يقتبس في مكان آخر وفي وقت لاحق، وثمة سبيل غير مباشر للانتشار هو المعروف بـ "الخالق على الانتشار". فال رؤية اختراع أجنبي أو الأخبار عنه قد يدفع بالقوم لا إلى اقتباسه كما هو بل إلى خلق مقابل له على أسلوب خاص بهم، ومع ذلك فإنه من الممكن أن تنم اختراعات متطابقة تماماً في بضعة أماكن وأزمنة وتكون، مع ذلك، مستقلة. إن ذلك ممكن لأن الاختراعات هي من صنع الطبيعة البشرية، والطبيعة البشرية متشقة بمعنى أن لها صفات ووحية سيكولوجية فيزيولوجية معينة، والتي تشترك فيها كل النماذج للنوع الواحد، ولو أن هذه النماذج تنبع عن هذه الصفات المشتركة بطريقتها الفردية الخاصة بها، وكل اختراع قد يكون له أي من هذه البدائل الثلاثة الفارضية. وفي الكثير من الحالات ليس لدينا دليل لوضح لنا فيما إذا كان اختراع معين ظهر في مكان أو زمان معين، قد كان خلقاً مستقلاً أم أنه كان استجابة لحافز أم أنه اقتبس كما هو تماماً.

ونحسب أنه التزاماً بهذه الأوضاع التي ذكرناها، يمكننا القول بشيء من الثقة بأن الزراعة وتربية الماشية والتعدين وأيضاً تقنية قطع قطع كبيرة وثقيلة من الحجر ونظماً - هذه كلها قد اخترعت للمرة الأولى في جنوب غرب آسيا وهي رقعة النقل الرئيسة في الجزء المعروف بالعالم القديم من الأيوكوبين، وبإستطاعتنا حتى تحديد الرقعة في المنطقة بشكل أدق - إنها لا تشمل الجزيرة العربية، إلا في زلويتها الجنوبية. إذ أنه لما كانت الزراعة وتربية الماشية في طريق اختراعهما، كان الجزء الأكبر من الجزيرة العربية، بما في ذلك طرفها في أقصى الشمال، وهو بلدية الشام اليوم، قد أصبح جافاً بحيث لم يكن مسرحاً ملائماً لتدجين الثبات والحيوان. والزلوية الجنوبية من الجزيرة العربية هو الجزء الوحيد الذي ظل خصباً بسبب الأمطار الموسمية. وهذه الزاوية من اليمن عزلها عن غيرها تشق بقية الجزيرة العربية قبل اختراع السفن البحرية وتدجين الجمال العربي.

إن مهد الزراعة وتربية الماشية والتعدين في منطقة جنوب غرب آسيا لم تشمل العربين الذي حملهم نهراً دجلة والفرات في مجريهما الأدنى. إذ أنه قبل أن تشرح المياه عن هذا الفرين ويروي بحيث يصبح صالحاً لسكنى الناس فيه واستغلاله زراعياً، لم يكن يسمح للإنسان وحيواناته ونباتاته المدجنة التماس الملوى فيه - فقد كان متاحة من مجاري المياه التي تحترق الأمصاب - وهي كالمستنقعات (الأهواز) التي تغطي المنطقة الواقعة في محرى الفرات الأدنى اليوم. ومن الناحية الثانية، فإن المنطقة التي اخترعت فيها الزراعة

وترية المواشي والسمين لأول مرة كانت تشمل، إضافة إلى الجزيرة الفراتية (ميزوبوتاميا) وسورية ولبنان وفلسطين، جزءا على الأقل من جنوب آسيا الصغرى وعرب إيران وتركستان. والحبوب والحيوانات التي دجت في هذه المنطقة، خلال زمن العصر الحجري من تاريخها، كانت موجودة من قبل في حالتها البرية. أما في الأماكن الأخرى فإن هذه النباتات والحيوانات بالذات يبدو أنها نقلت من جنوب غرب آسيا إما بواسطة مستعمرين خرجوا من هذه المنطقة ذاتها أو عن طريق شعوب محلية أصلية، هي التي التبتت هذه الاستراعات. وهي، بالتبسيط، تم لها بدورها الانتقال من حياة العصر الحجري القديم إلى حياة العصر الحجري الحديث، وفي النهاية إلى حياة العصر الحلكوليثي فالعصر النحاسي فالعصر البرونزي.

وفي الوقت الذي يصنف فيه هذا الكتاب كانت مواضع قليلة من العصر الحجري الحديث في جنوب غرب آسيا ومصر قد تم الكشف عنها؛ وباستمرار أعمال التنقيب، يسر تصورنا لحالة العصر الحجري الحديث، في هذه المنطقة حيث ظهرت هذه الحياة لأول مرة، في التغير، كما كان يتغير دوماً في ضوء أعمال الكشف والتنقيب والحفر المتتالية. ومع ذلك فثمة بضع نقاط أصبحت واضحة أمامنا. وأماكن الاستقرار التي تم التنقيب عنها يترشح لبعدها بين حول سنة ١٠,٠٠٠ ق.م. (وهو التاريخ المقدر بالنسبة إلى أربعا في العصر السابق لاختراع الفخار) والألف الخامس ق.م. وفي أماكن غير أربعا يبدو أن الاستيطان بدأ في الألف السابع أو ثامن الألف السادس ق.م. ونعرف أيضاً أن الانتقال من جمع المواد الغذائية والصيد إلى الزراعة وتربية الماشية تم في واحات تغذيها الفيضانات أو في سهول فيضانية ذات ثروة خصبة حملتها الأنهار الصغيرة إلى السهول الواقعة عند أطراف الجبال التي تنحدر تلك الأنهار منها. وكل هذه الحفول المحتمل تطورها كانت تزدى بطريقة طبيعية. وهذه الأماكن، على كل، يختلف واحدنا عن الآخر في الارتفاع والمناخ. فأربعا تقع في وادٍ ينخفض عن سطح البحر ومناخها مداري وفي الناحية الثانية فإن شطال هيوك، الواقعة في هضبة آسيا الصغرى، وتبي سبالك في الهضبة الأيرانية تنطهما التلج جزءا من السنة.

وفي السهول الفيضانية وفي الواحات التي تغذيها الفيضانات، تعرض الطبيعة عن الإنهاك الذي يصيب الثروة بسبب استغلالها. ذلك بأننا نجد خصب الحقول بما تحمله من الطمي. مواتة أريحا وقوطة دمشق تحافظان على خصبهما بهذه العملية الطبيعية. على أن

هذه المنحة نادرة الوجود، ذلك بأن القسم الأكبر من منطقة جنوب غرب آسية، حيث اخترعت الزراعة، كانت ولا تزال، منطقة أمطار. وبعض الجماعات الزراعية في جنوب غرب آسية كانت تعتمد حتى في الحصول على مياه الشرب على الأمطار فقط. والمطر لا يحمل طمياً، ومن ثم فإن المنتوج في الزراعة التي تعتمد في ريعها على مياه المطر ينقص بسرعة. ولأسر السبل - عند الناس - أن ينظر إلى الثروة التي أصابها الانهاك مؤقتاً، كما لو كانت منجماً ثم استهلاك موارده؛ هذا فيما إذا كان الفلاح يعرف أنه على مقربة منه توجد أرض بكر يمكنه أن ينتقل إليها. حتى في العصر الحديث نجد أن المصريين الزراعيين الذين ذهبوا من أوروبا إلى اميركا الشمالية استمروا في الانجاء غرباً، كما نجد أن الفلاحين الروس زحفوا شرقاً، مع أن أسلافهم كتبوا قد اكتشفوا قبل وقت طويل تقنية تمكنهم من تجديد خصب التربة المروية بماء المطر دون مساعدة « الطبيعة ».

وقد تم اكتشاف هذه التقنية تدريجاً، ففي مناطق الغابات لجأ الناس إلى حرق الأشجار التي قطعت للحصول على أرض جديدة لاستنبات النباتات المدجنة، وبذلك حصلوا على تسميد صناعي (من الأشجار المحروقة) تمكنهم من القيام بزراعة بعلة مستقرة. فالرماد المسد يسر للزراع أن يغم منتوج موسم أو موسمين من الأرض الجديدة. وكان من الممكن لهذه العملية أن تستمر فيه لو سمح، بعد ذلك، للأشجار أن تنمو ثانية في الأرض الجديدة. وبهذه الطريقة، طريقة القطع والحرق، كان من الممكن لقطعة من الأرض أن تستغل مرة كل عشر سنوات. وإذا كان للزراع عشر قطع تحت تصرفه لاستغلالها، كان باستطاعته أن ينتقل في دائرة محددة. أما مشكلة الحصول على الحاجات الغذائية من الزراعة البعلية دون التثقل، حتى ولو محلياً، فقد حلت نهائياً لما لجأ الناس إلى تسميد الأرض المتروكة (البرر) بروث لاشية بدل انتظار نمو الأشجار كي تزود الأرض بالرماد من جديد؛ ولكن في الفترة السابقة إلى مثل هذا الاكتشاف، كان مضطراً إلى الانتقال إلى مناطق غير مستغلة في الأويكومين، على نحو ما يفعل الباحث عن المعادن باستمرار حتى يوم الناس هذا.

وفي الوقت ذاته انتشرت الزراعة وتربية للماشية، تلازمها فنون القزل والحياكة وصنع الفخار ويتبع ذلك فنون التعدين وقطع الحجارة الضخمة ونقلها من وطنها الأول في جنوب غرب آسية عبر الجزء الأكبر من العالم القديم. وقد تم هذا الانتشار إما عن طريق الهجرة أو عن طريق الاقتباس. وسنجد أن مختلف للدنيات الإقليمية في العالم القديم

تموا في أزمنة متباينة، من هذا الأسس المشترك العائد إلى العصر الحجري الحديث الذي امتدت أساليبه - في أزمنة متفاوتة أيضاً - إلى مدى بعيد عن موطنه الأصلي في جنوب غرب آسيا. وعلى كل حال فإن هذا الانتشار للحضارة السالفة للسلفية في العالم القديم، في شكله الأخير، لم يكن تاماً ولا كان متسقاً.

فقط ظلت استرالية، على سبيل المثال، حقيرة لفقة من جامعي الغذاء من الإنسان العاقل من السامقون للعصر الحجري الحديث، التي أتيح لها أن تجتاز الخط الجغرافي الفاصل بين منطقتين: الواحدة تعيش فيها النباتات والحيوانات القارية والأخرى تعيش فيها النباتات والحيوانات الاسترالية. وكان هؤلاء المستوطنون الأوائل من الأناس في استرالية مع كلابهم أول الثدييات غير ذات الجراب التي وصلت إلى تلك الديار، ولم يكن ثمة من يمكن أن يجاورهم من أهل العصر الحجري الحديث، وبذلك ظلوا يحيطون ملجأهم البعيد دون أن يتحداهم أحد، حتى « اكتشفت » استرالية في القرن الثامن عشر على أيدي الأوروبيين الغربيين المحدثين. لقد نجح ملاحو العصر الحجري الحديث في احتلال الأرخبيل البولنيزي، لكن نيوزيلاندا، التي كانت آمنة خليصة من الأرض، لم يصلوا إليها إلا قبل أن يدرِكهم التوسع العالمي الحديث لأوروبا الغربية بنحو مئة قرون فقط.

إن التباين في سبل الحياة التي عرفها العصر الحجري الحديث عبر الزمن الذي اجتازته في انتشارها من مصدرها الأصلي في جنوب غرب آسيا، تصوره لنا المقارنة بين التنوع الاقليمي لأشكال فخاريات العصر الحجري الحديث وتوزيعها وبين الأنساق السكنوي لأدوات العصر الحجري القديم. لقد أشرنا من قبل إلى أن القطع الفخارية هي مؤشرات منظورة لسبل العيش، ويبدو أن التباين في الأساليب المحلية لفخار العصر الحجري الحديث يعود، في غالبته، إلى روح المبادرة المحلية، فمما يدعو إلى التساؤل أن نتسكّن من العثور على إبحاء من أوصى المشرق قد يصل إلى بلغيا للبلطية التي أقيمت على سواحل شرقي البحر المتوسط والمحيط الأطلسي من كوروش، وفي الجزر القابعة عبر هذه السواحل، من جنوب إسبانية والبرتغال إلى الدانمرك ومن مملكة إلى متونينج.

يبدو أن المخلّيت (الحجارة الضخمة غير المشذبة) في أوروبا، مثل أهرام مصر الفرعونية، تستصمد مدة أطول من كل الأعمال المحلية التي صنعتها الإنسان. ويبدو أنها قد أقيمت (أي المخلّيت) خلال الألفين من السنين الواقعة بين 3500 و 1500 ق.م. وهي الفترة التي انتقلت فيها أوروبا الغربية من العصر الحجري الحديث عبر العصر

الحلوكليتي إلى العصر النحاسي فالعصر البرونزي. ومع أن الجائين الفن أقاموها كانوا لا يعرفون الكتابة، فإن هذه الأبنية بالذات، وما يرافقها من أعمال فنية منظورة، تشهد صامتة على أنها أقيمت لخدمة عبادة الأسلاف و « آلهة أم »، وهما شيان لهما مقابلان مشرقيان، ومع ذلك فإن الصلة بين المثلث في أوروبا الغربية والشرق أمر عامص جداً. وفي المقام الأول نجد أن المنطقة التي انتشرت عنها ديانة المثلث وتكنولوجياه على سواحل البحر المتوسط والمحيط الأطلسي في أوروبا الغربية كانت جنوب إسبانية والبرتغال - ولتقل في الطرف الأوروبي الأبعد ما يكون عن مصر والبحر الأبيض، وفي المقام الثاني نجد أن بعض الأعمال الشرقية التي تشبهها أنصاب المثلث في أوروبا الغربية، هي أحدث عهداً من هذه لا أقدم منها. والقبور الفخيرية في لوس ميلاس، الواقعة على شواطئ البحر المتوسط في جنوب إسبانية، يبدو أنها أقدم من نظيراتها في ميكاني بأكثر من ألفي سنة. ومع أن ستونهنج يكاد يكون أحدث عهداً من أهرام الأسرة الرابعة من فراغة مصر بنحو ألف سنة، فإن أبنية لقبور في لوس ميلاس الأقل ضخامة قد تكون أقدم بفضة قرون من البناء الذي هو نظير لها في هرم زوسر من الأسرة الثالثة الموجودة في سقارة.

والجائين في المراحل الأخيرة من حضارة قبل المدنية يبدو في كل أعمال التجدين الأصلية، فالكرم والزيتون واللبن والحور والكوز والبراق والتماح والإحاص وكذلك الأبقار والماعز والخراف تبدو وكأنها أصيلة في جنوب غرب آسية، وكأنها دجنت هناك في العصر الحجري الحديث؛ لكن الأرز والنباتات الجفيرة والأشجار الحمضية والموز، وكذلك الأبقار ذات السنام والفيلة والحمال، بنوعها العربية والأوسط آسيوية، دجنت في مناطق تقع خارج جنوب غرب آسية. على أساس ما نعرف يبدو أن هذا الحمل الكبير في التجدين قد تم بشكل مستقل تماماً، ولعلها لم تكن بإحياء من جنوب غرب آسية حتى ولو نتبجة للباحث الانتشاري. ولعل شجرة التنخيل لم تدجن إلا لما تم شق الأرض في سومر ومصر، المنطقتين الشديقتي الحرارة والرطوبة. وأقدم عصر لدينا قيود منه عن الجمال العربية المدججة هو الجزء الأخير من الألف الثاني ق.م. وأقدم دليل عن تدجين الحمل الأوسط آسيوي لا يبدو ٦٠٠ ق.م. هذا إذا صح أن اسم زوادشت تفسيره الصحيح هو « مع الجمال الذهبية ».

وبالنسبة للأمير كيتين فإن الحيوان المدجن الوحيد الذي حملة للمستعمرون من آسية

معهم هو الكلب، والحيوانات الأميركية الأصلية التي دجنوها هي اللاما والألبكا والنحل والخنزير الهندي. وفي الناحية الأخرى فإن عدد النباتات الأميركية الأصلية التي دجنت هناك يقابل عدد النباتات التي دجنت في العالم القديم. والأميركيان والعالم القديم لم يكدا يكون بينهما أية نباتات مدجنة مشتركة قبل وصول الناس من غرب أوروبا إلى الأميركيين.

ويبدو أن هذا يشير إلى أن الزراعة انتشرت في الأميركيين مستقلة تماماً، ونحن إذا قبلنا بهذه النتيجة فلنا أن نحسب أن انتشار البرونز (أي النحاس المزوج بالفصدير) في البرز جاء أيضاً مستقلاً عن أي إحياء من العالم القديم. أما قضية المدنات الأميركية السابقة لكولمبوس، وفيما لنا كانت خلقاً مستقلاً أم لا، فهي لا تزال موضع جدل عنيف. ولعل فئة من الباحثين يرفضون الرأي القائل بأن بعض عناصر المدنات الأميركية له أصل من العالم القديم؛ ولكن الرأي السائد الآن هو أن هذه العناصر التي جاءت من العالم القديم ذات أهمية ضئيلة، وأن المدنات الأميركية السابقة لكولمبوس كانت، من حيث الجوهر خلقاً مستقلاً ثم في المكان نفسه على أيدي المهاجرين من أهل العصر الحجري القديم المتأخر.

إن نجر أقدم المدنات في العالم القديم يؤرخ بحوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م. وفي هذا الوقت بالذات كانت الحضارات الأميركية السابقة لكولمبوس، والتي ازدهرت في ما بعد، أصبحت مدنات تضاهي مدنات العالم القديم. هذه كانت قد أخذت، على وجه التقريب، الخطوات الأولى في سبيل تدجين الفرة الصفراء، التي قبض لها أن تصبح فيما بعد الغذاء الزراعي الرئيسي. فقد عثر في كهف كوكسكاتلان قرب بوبلا في مرتفعات المكسيك، في أميركا الوسطى، على أكوام من الفرة الصفراء، هي طمي رسوبي يعود إلى حوالي سنة ٤٠٠٠ ق.م. وقد تكون هذه نوعاً من نبات الفرة البري أو لعلها من نبات طراً عليه شيء من التمثيل بسبب الخطوات الأولى في سبيل تدجينه. وكذلك وجدت أكوام في كهف بات في نيو مكسيكو داخل طمي رسوبي يعود تاريخه إلى حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م. وفي هذه تظهر عملية التدجين بشكل أوضح. وهكذا فإن نجر الحياة الزراعية في أميركا الوسطى كان مواكباً زمنياً لنجر المدنية في العالم القديم، وكان بذلك متأخراً نحو أربعة آلاف سنة عن بدء الزراعة في العالم القديم في جنوب غرب آسيا.

حضارات العالم القديم وحضارات أميركا قبل كولمبوس كانت تتطور وفق مسارات

منفصلة. وفي حدود العالم القديم بالذات دشن فجر للذنية عصراً كان فيه التباين الاقليمي يتزايد، وقد مر نحو من 4000 سنة قبل أن يقهر الأوروبيون الغربيون المحيط وبذلك دفعوا بالتأثير نحو التمازج ونحو الوحدة أيضاً الأمر الذي لم يكن له مجال في العصر الحجري القديم المبكر. وفي وقت تصنف هذا المؤلف نجد ان القوى المفرقة التي سادت الموقف، عبر العصور التي مرت بين الزمنين لا تزال تقاوم بصرامة، وليس ثمة ما يدل على ان الحركة التي تؤيد الوحدة يمكن ان تريح الحركة. ومع ذلك فإن الذي يمكن رؤيته الآن هو أن الشرط الذي لا يتم بقاء البشرية إلا به، هو توحيد الأوروبيين بجملة، وهذا ليس على المستوى التكنولوجي فحسب، بل على كل مستوى للحياة بجملة.

٦- شق غرين دجلة والفرات وخلق النخبة السومرية

أشرنا في الفصل السابق إلى أن اختراع الزراعة خلق مشكلة وهي كيف يمكن التوصل إلى تقنية تجعل من الزراع جماعة مستقرة، وذلك بعد أن كان هؤلاء الزراع قد تخطوا الحواجز القائمة في الواحات الصغيرة، والقبيلة السكان، الواقعة في جنوب غرب آسيا، وهي الواحات التي كانت تروى طبيعياً، والتي يبدو أن الانتقال من جمع الغذاء إلى إنتاجه قد تم فيها.

وأما في المناطق البائدة الاتساع في العالم القديم من الأوكيومين، حيث كان على الزارع أن يحدد على ماء المطر لريّ مزرعاته، فقد كان ثمة تقدم تدريجي على مراحل. فعالة الزراعة المنطقية حيث كان الحقل الذي أنهكه الاستغلال يهجر بالمرّة، حلت محلها، في المجال الأول، الزراعة التي تعتمد الدورة الزمنية. وقد تم ذلك عن طريق تسميد الأرض الموقوت بإحراق الأشجار، فأصبح من الممكن أن تستغل الفترة ثانية لكن بعد فترة زمنية تسمح للاشجار البرية المعينة بالنمو فيها لتعيد الأرض للتروكة فيما بعد.

وقد مر على الإنسان أجيال، بل لعلمها قرون، في المنطقة التي تعتمد على الأمطار، قبل أن يكشف كيفية غصيل قوت كاف من مجموعة من الحقول المتناوبة بحيث يمكن للزراع وعائلته أن يفسخوها من مكان سكن ثابت، ومن ثم يمكنهم أن يورثوا أحفادهم البيت والحقول مجتمعة. وهذا الانتقال بقطعة من الأرض الصالحة للاستغلال أصبح يعتبر ديسا بعد نوعاً من العبودية، وذلك في المجتمعات التي كانت تزود لجناها بامكانات اقتصادية بدئية. أما في الأصل فقد كان استقرار الزراع في تروى معينة مكاناً احتساعية طال انتظارها، إذ أنه بذلك حقق غاية تكنولوجية مر عليه زمن وهو إنتاجها.

بعض الذين هاجروا - بل لعل ذلك يشمل الغالبية منهم - من الواحات إلى منطقة الأمطار من الأوكيومين وتفرقوا في أنحائها فقلوا ذلك قبل أن يتعلموا الاستقرار في مكان

واحد دون الاعتماد على الري الطبيعي. وعلى كل فقد كان ثمة منطقة واحدة، تقع على مقربة من مهود الزراعة في ولسات جنوب غرب آسية تنتظر شقها وسحرها بتصفية مياهها وربها صناعياً لتزويد الرواد بمردود أكبر مما كان يحصل عليه في واحة الأجداد فضلاً عن أن يكون على مقياس لروسي أكبر بكثير. وهذه الأرض المرجوة كانت المستنقع - الغاب في حوض دجلة والفرات الأسفل. فقد كان هنا مروج في عابه الفوضى بين غريز غني بعناصر الخصب إلى ماء غني كذلك بالساد.

وقد كانت السيطرة على المستنقع - الغاب إنجازاً اجتماعياً أكبر منه إنجازاً تكنولوجياً. وفي الواقع فإن كل الإنجازات التكنولوجية التي تمت على يد البشرية، كانت إنجازات اجتماعية أيضاً. فالإنسان كائن اجتماعي، مما كان لأسلافنا من أهل ما قبل الإنسان أن يستمروا ويصبحوا بشراً لولا أنهم قد صلوا حيوانات اجتماعية قبل ذلك. ويبدو أن محدودية الإنسان الاجتماعية هي التي كانت تحد من تكنولوجيته غير المحدودة. فالاجتماعية هي الشرط اللازم لصنع حتى أبسط الأدوات واستعمالها. ولعل مستغلي الأرض في الواحات الصخرى في جنوب غرب آسية كانوا قد اكتشفوا كيف يمكن تحسين هبة الطبيعة المحلية للري بطريقة صناعية.

وكان على الإنسان، في سبيل استغلال هبة الرافدين من القرن، أن يطبق هذه الفطنة التي خلقها في الري الصناعي، على مقياس كبير كان يتطلب تعاوناً بين عدد من الناس أكبر بكثير من أي عدد من الناس تعاونوا في السابق، في أي مشروع كان. وهذا الفرق في مقياس التعاون لم يكن مساوياً للفرق في الدرجة فقط بل كل فرقاً في النوع. وقد كانت هذه ثورة اجتماعية ولم تكن ثورة تكنولوجية.

وقد خطط لتغلب الإنسان على القرن زعماء ذوو مخيلة وبعد نظر وضبط للنفس بحيث كانوا يعملون لمردود هو كبير في النهاية، لكن ليس آنياً. وما كانت خطط هؤلاء الزعماء لتعجزوا أحلاماً بعيدة عن التحقيق لو أنهم عجزوا عن إقناع عدد كبير من رجالهم من السير قدماً نحو أهداف لهم لم يتركوا كتبها. وقد كان للحمائم إيمان بزعمائها، ومثل هذا الإيمان بالزعماء كان قائماً على إيمان باللهة تتمتع بالقدرة والحكمة، الأمرين اللذين كانا يعتبران حقيقة بالنية إلى الزعماء وأقباهم. والأداة الجديدة الوحيدة التي لم يكن عنها غنى هي الكتابة. فقد كان الزعماء بحاجة إلى هذه الأداة لتنظيم الناس، وتقديم الماء والقراب بكميات ودرجات كانت أكبر من أن تدبر بدقة بالاعتماد

على تذكر ترتيبات وتعليمات شغوية دون قيود. وقد كان اختراع الكتابة السومرية رائعة من روائع البشرية الخالقة؛ لكن هذه الكتابة، وهي أقدم نظام معروف، كانت معقدة وملتبسة، ومن ثم فقد ظل استعمالها مقصوراً على فئة محدودة؛ ولكنها خدمت المجتمع ككل وفي الوقت ذاته ثبتت تقوى الكتاب على الغالبية الأمة.

وقد خلق السومريون، عن طريق فتح الغرين في حوض دجلة والفرات الأدنى، نوعاً جديداً من المجتمع البشري - هو المدنات الأكلمية، ونحن نعزو هذا الإنجاز إلى السومريين لأن الكتابة السومرية، وقد حلت وموزها، إنما تنقل إلينا لغة السومريين في ذلك الدور من تطورها؛ لكننا لا نستطيع الجزم بأن السومريين هم الذين اخترعوا الأساس الأول لهذه الكتابة، أو أنهم هم أقدم الطلائع من سكان المستنقع - الغاب الذي تحول فيما بعد إلى أرض سومر. والسومريون الذين روضوا المستنقع - الغاب ما كان من الممكن أن يكونوا ابتداءً، ذلك لأن هذه المناطق الوحشية لم تكن، قبل ترويضها قابلة لسكنى الكائنات البشرية. وبعض أقدم المستوطنات السومرية - مثل أور (المقير) أوروك (الوركاء) وأريدو (أبو شهرين) - إنما قامت على الطرف الجنوبي الغربي للمستنقع الكبير، في جوار بلاد العرب؛ لكن من المستبعد أن يكون السومريون قد جاءوا من بلاد العرب فنبس للفتهم أية قرابة مع عائلة اللغات السامية، وكل المجموع التي هاجرت من بلاد العرب إلى آسيا والفرطقة كانت سامية اللغة.

والمدنية السومرية هي أقدم المدنات الأكلمية التي نملك وثائق تتعلق بها وهي أيضاً الوحيدة التي من المؤكد أنها تطورت عن مجتمع أو مجتمعات ما قبل المدنية، والتي لم تنف عن أي مجتمع شبه بها كان قائماً قبل ذلك، بل ولم تكن نتيجة إيجاء من أي مجتمع من هذا النوع (ومن المحتمل أن تكون مدنية أميركا الوسطى قد نشأت مباشرة عن سابغات حضارية تعود إلى فترة ما قبل المدنية؛ لكن أصلها تلك المدنية ليست سمرها بها عانياً). وقد أظهر التقيب الأثري الحديث التطور التدريجي في ما يتعلق بتأهين متميز من المدنية السومرية: الكتابة والصلار الفضي (أي للمناطق بالهيكال).

ستطيع أن نتابع خلق الكتابة من الصور (أي التمثيل المنظور للناس والأشياء والأحداث والأفعال). والعمل الخلاق كان اختراع الرموز (أي الإشارات التقليدية التي لم تكن بالضرورة محقة، حتى ولو بشكل رمزي، ومع ذلك كان لها معانٍ مماثلة بالنسبة إلى جميع أعضاء المجتمع السومري للتعليم). والرحلة الأخيرة كانت اختراع القوانين (أي

الإشارات التقليدية التي تمثل الأصوات المستعملة في الكلام المحكي (ولم يصل السومريون إلى دور القويم الثام، فقد كانت كتابتهم جمعا غامضا واعتباطيا من القويم والرموز. والصعوبة بالنسبة للرموز هي أنها بالضرورة كبيرة العدد. أما فضيلة الرموز بالنسبة إلى القويم فهي أن الفكرة والإشارة يمكن أن يضم كل منهما إلى الآخر بشكلي دائم، فيما الصوت والإشارة كما في القويم يفقدان ما بينهما من صلة تقليدية أصيلة بتعبير الأصوات المستعملة في اللغة المحكية مع توالي الزمن، ومع ذلك فإن أفضلية القويم بالنسبة إلى الرموز هي أن الأولى محدودة في عددها. فكلما حدود لعدد الأصوات التي يمكن للصوت البشري أن ينطقها. وفي الواقع فإن كلا من اللغات البشرية تستعمل فقط عددا مختاراً من هذه الأخيرة البشرية.

وفي أقدم المراحل التي نملك عنها مستندات صورية أو مكتوبة، نجد أن المدنية السومرية تظهر صفات تشترك فيها مع أنواع من المجتمع التي تمثل هي أقدم نماذجها المعروفة.

لما استغل السومريون الغرين في الرماية، كانوا أول مجتمع في العالم القديم من الأوبكومين الذي كان في إنتاجه الفائض، فوق الحاجات السنوية الضرورية للاستمرار في العيش. وهذا الفائض لم يوزع بالتساوي على جميع المهيمنين من أفراد المجتمع الذين كانت لهم جهود مشتركة في ما أنتجه المجتمع بطرق مختلفة ودرجات متفاوتة. ولو أن هذا الفائض وزع على الجميع أجزاء متساوية، لكانت حصص الفرد الواحد منه ضعيفة للغاية؛ ذلك بأن الفائض كان ضعيفا بالنسبة إلى الناتج الكلي اللازم للاستمرار في العيش، ولو أن إنتاج أي فائض، مهما كانت كميته، كان انجماعا ثورويا جديدا. وفي الواقع فإن هذا الفائض احتفظ به لاستعمال فئة قليلة متميزة، وهي التي حررت طائفتها وولقتها من استعمالها في إنتاج الغذاء، الأمر الذي كان لا يزال يستأثر بكل الحياة العاملة للغالبية. ونفصيص هذا الفائض لأقلية في المجتمع كان الأساس الاقتصادي لتباين الطبقات. ولكن مع أن هذا الوضع كان العامل للمعن الذي مكّن للطبقة الحاكمة من التمتع بامتيازاتها، فقد كانت مثل هذه الامتيازات مكروهة بحيث لا يمكن للجمهور تحمله، لولا أن الجمهور كان واقفا من أن هذه الأقلية كانت تحصل على امتيازاتها لقاء الخدمات التي تقدمها للمجتمع بكامله، وهذه الخدمات كانت حقيقية، وكان لا بد منها فيما إذا كان المجتمع، الذي خلقه فتح الغرين، سيحتر في الأحوال المربكة، الناشئة عن ذلك ولو أنها

اصطناعية. وعلى كل حال فإن الأقلية الحاكمة استولت على الفائض الاقتصادي من الزراعة العربية، وعندما صرفت وقت الفراغ الذي حصلت عليه لا في للقيام بالخدمات العامة محسب، بل في التمتع بحياة الرخاء الخاصة.

والخدمة العامة التي توجب على الحكام القيام بها كانت إما خدمة ذات نواة مدنية بحيث كان ما سبقها من الجماعات القروية التي عرفها العصر الحجري الحديث تبدو قزمة في حجمها، كما أن هذه الجماعات الجديدة لم يكن لها مثل من حيث التقيد، وعلى عكس ما كان عليه الحال بالنسبة لمستغلي الأرض في العصر الحجري الحديث، فإن الفلاح السومري لم ينظم عمله الخاص به بنفسه. فقد كانت صيانة نظام الري شرطاً أساسياً لبقاء الجماعة بأكملها؛ وقد كانت السخرة العامة لصيانة السدود والقنوات جزءاً من واجبات الفلاح، كما كان استغلال حقوله الخاصة جزءاً من واجبه، وكانت عملياته جماعية تقع تحت إشراف السلطات العامة، إذ أن توزيع ما يلزمه من ماء الري اللازم في كميات معينة وفي فصول معينة كان يقتضي وجود قيادة واحدة تتمتع بقوة لا تقاوم.

ذكرنا أن سلطة الحكام البشيرة كان يؤيدها دعم من القوى الدينية. فإضافة إلى ما كان يقوم به الحكام من إدارة نظام الري الذي كان الأهم من بين المصالح العامة، إذ أنه كان الأساس للعيش والعمل في التمرين، كان هؤلاء الحكام يقومون بدور الوسيط بين الجماعة والآلهة. وقد كان الاحتفال الشائع بقدرة الآلهة وحكمتها هو القوة الروحانية التي تحفز المسمين في المدينة - الدولة السومرية على العمل المشترك، على رغم أعدادهم وتقسيم طبقات اجتماعية مختلفة، وقد كان الحكام يتفوقون جزءاً من ثروتهم وأوقات فراغهم في نواح من الرفاهية الخاصة: الخدمة الخاصة التي كان الانبعاث بتقديمونها، والأعمال المعنية التي أسست الآن تظهر إلى جانب الأدوات المعدنية. (وقد كانت الأدوات الحجرية التي يستعملها الفلاحون في استغلال الأرض، في الغالب، مصنوعات ينية).

وكان ثمة مظهر جديد آخر للمعنية السومرية وهو تجمع أقلية من العمال غير الزراعيين في المدن، وهذه الأقلية كانت أيضاً تعيش على الفائض من المنتوج الزراعي للغالبة. ولعل هذه المدن قامت أصلاً كمراكز للعبادة، حيث كانت الجماعة يلتجئ شملها في أوقات معينة للقيام بطقوس دينية، ولتظيم الأعمال العامة القائمة بالفائدة عليها، وكلا الأمرين كانا متلازمين. ولعل مراكز العبادة هذه كان يستقر فيها أصلاً فئة قليلة من

السكان، ولكنها تطورت بعد لتصبح مدناً، حيث تحيط المنازل بالمعابد، وحيث يترايد عدد الأتلية عبر الروايعية، وتتوزع الوظائف بين الكهان والإداريين المدنيين (ولم يكن الفريق الواحد يتميز عن الآخر في بلدى الأمر)، وكتلتهم ومرفقتهم وصنائعهم.

وكان التباين الطبقي، الذي عززته العزلة الطبقة الجغرافية بين الريف والمدينة، اول الشرور الاجتماعية التي هي لمن ولادة المدينة في سومر. والشر الفطري الثاني للمدينة كان الحرب. وكان الوضع الذي هباً للشهرين هو إنتاج الفائض. فالجماعة التي يحصل جميع الأشياء من أفرادها طوال يومهم على إنتاج الغذاء، ليس لديها وقت زائد عن حاجتها بحيث تمنحه، ولو جزئياً، للإداريين أو الكهان أو الصناع أو الجنود.

ما هو التجديد الجوهري في هذا النوع من المجتمع الذي أوجده السومريون؟ فائض في الإنتاج وتباين في الطبقات والكتابة والعمارة الضخمة والمستقرات للمدينة والحرب، كانت جميعها مظاهر جديدة ومميزة - ولكن التمييز الجوهري كان في صلة الآلهة ووظيفتها.

أن الديانة التي عرفتها المجتمعات البائدة السابقة لمصر الكتابة يمكن الحدس بشأنها من لنها المنظور: الصور الموجودة على جدران كهوف العصر الحجري القديم المتأخر، والأشكال ذات الأبعاد الثلاثة التي وجدت في لينسكي فير والتمثيل الصغيرة العائدة الى العصر الحجري التي تمثل الأم الحسبة. فنحن نستطيع فقط أن نخمن ما كان لها من طقوس وما أحاط بها من أساطير؛ لكن أقدم الوثائق التي يمكن قراءتها في كتابة السومريين ولغتهم تلمي فيضاً من النور على الديانة السومرية كما تنبر سهيل فهم نواح أخرى من الحياة السومرية. ففي هذه الوثائق تقع على مجسم (بانثيون) للآلهة السومرية، ونجد أن هذه الآلهة كانت قد بلغت الفصل الثاني في تاريخها.

ونجد أنه بعد ولادة المدينة السومرية كانت آلهتها لا تزال تحتل قوى الطبيعة تمثيلاً جزئياً، ونرى أن هذه كانت وظيفة الآلهة الوحيدة أصلاً، إلا أن بعض هذه الآلهة أصبح لها الآن دور مزدوج. فكل واحد منها أصبح يمثل أيضاً القوة البشرية الجماعية لمدينة - دولة سومرية معينة، وهذه الازدواجية في دور الإله السومري تعكس ثورة في العلاقة بين الإنسان والطبيعة. ففي الوقت الذي كانت فيه الآلهة السومرية تتخذ شكلها لأول مرة، كان الإنسان لا يزال تحت رحمة الطبيعة. ولكن خض القرنين للاستغلال واستقرار الاسان نتيجة للعمل المشترك نقل توازن القوى بين الإنسان والطبيعة الى مركز كان في مصلحة

الإنسان. والإنسان الذي أصبح الآن يقوم بعمله كحيوان اجتماعي صار بمقدوره فرض إرادته على مناطق من عالم الطبيعة كانت من قبل مستعصية عليه. وقد أهرس الإنسان معنى هذا الانتصار البشري الكبير بأن اتخذ له من قوته المشتركة شيئا يعيده، إلى جانب القوى غير البشرية التي كان من قبل يشعر بأنها قاهرة على كل شيء. فالسومريون الذين روعوا العربن أظهروا هذا التبدل في الأوضاع إذ جندوا آلهة الطبيعة التي ورثوها عن الأجداد لتصبح الخادمة للمساوية لدول ذات سيادة بشرية - أو لعلهم جندوها لتكون خدما ذات صيغة دينية لهذه الدول.

وقد استمرت الآلهة السومرية، بوصفها محطة لقوى الطبيعة، بالقيام بدورها كجزء من التراث الحضاري المشترك للمجتمع السيري ككل. أما كمسألة للدول فقد أصبحت هذه الآلهة متباعدة، وصارت تمثل جماعات سومرية قد تصادم مصالحها. فمن الناحية السياسية كان دور الآلهة يدعو إلى التفرقة، ولم يعد دورها موحدا. وهذا الدور الجديد، الذي اتخذته الآلهة في الوقت الذي تبيته أقدم المدونات السومرية التي بين أيدينا، كان تثير سوء بالنسبة لمستقبل المدنية السومرية. فالتماز التي جناها الإنسان من انتصار المجتمع البشري على الطبيعة قد تذهب هدرا فيما لو أنه استعمل قوته العظيمة المشتركة لا في سبيل السيطرة على الطبيعة غير البشرية واستغلالها فحسب، بل في سبيل الحرب المبيدة بين قوى بشرية محلية جيدة التنظيم قوية المدة.

٧- شق الفرعين النيل وخلق للمدينة الفرعونية المصرية

أعطى في الفصل السابق ما كان للسومريين من فضل إذ أنهم قد خلقوا مجسما من نوع جديد - وهو مدينة إقليمية - بسبب عدد من الأمور الجديدة توصلوا إليها أثناء قيامهم بعملية تصريف المياه من المستنقع - القاب الفرعني ورية، وهو المستنقع - العاب الذي كان موجودا في الحوض الأدنى لنهري دجلة والفرات. وإذا نحن أخذنا بالأسس نفسها للمصريين القراعنة الحق في أن يعطى لهم الفضل نفسه لأنهم غلقوا المدينة الثانية في القدم من المدنات الإقليمية إذ أنهم شقوا المستنقع - القاب في الحوض الأدنى للنيل وفي دلتاه.

وقد تم للمصريين بدورهم، على نحو ما تم للسومريين، أن يكون عندهم فائض في الإنتاج يفوق حاجتهم لجرد العيش والثراء. وكما حدث في سومر، وافق هذا الإنجاز في مصر تباهن طبقي وعمارة ضخمة واستغرقت مدني وحروب وتبادل جنوي في الديانة. على أن المصريين، على العكس من السومريين، لم يتم لهم هذا الانطلاق الجديد بدون مساعدة. فمع أنهم هم الآخرون أقاموا مدنيهم على الأسس التي وضعها أجدادهم من العصر الحجري والمصر الحليكويتي، فقد جاءهم إحياء من مجتمع كان قائما، وهو مجتمع شبه بنوع المجتمع الذي كانوا ينشئون. قصة إجماع بين علماء المصريات المعاصرين بأنه من الممكن تتبع الأثر السومري في المدينة المصرية الفرعونية. ولذا، على سبيل المثال، طريقة ختم الأشياء بأسطوانات محفور عليها صور، واستعمال الآجر في أسلوب البناء المفرغ وتقليد بناء السفن السومرية، وفي عدد من الأسس الفنية، وفي كتابة كانت فيها الرموز الفكرية تكملها القوائم دون أن تقل محلها.

وهذا الشكل من الكتابة كان عجيئاً. فليس من الممكن أن يخترع بناء مطابق تماما لما سبق ومستقلا للمرة الثانية، فيما تشير الدلائل على أن الأثر السومري المعاصر كان

موجودا في الوقت الذي كانت فيه الكتابة المصرية في دور التطور، إضافة إلى ذلك ما دلالات الأثرية تشير إلى أن الكتابة المصرية قد ظهرت فجأة، على عكس ما عرفناه من تطور الكتابة السومرية التدريجي من السابقة الصورية. فالتركيب السومري المكتوبة المصرية، إذا قرئ بظهورها المفاجيء، هو أقوى دليل منفرد يشير إلى أن التأثير السومري كان أحد العوامل التي أدت إلى ولادة المدنية المصرية الفرعونية.

ليس لدينا أي مؤشر إلى الطريق الذي انتقل عبره التأثير السومري إلى حوض النيل الأدنى. فقد عثر على الدليل في مصر العليا بالذات، وليس في الدلتا، لأن مناخ مصر العليا يمكن للمصنوعات البشرية أن تحافظ على نفسها، فيما بعد أن ماخ الدلتا وطبيعته جفافيتها مما عدوان لذلك. فالمنطق في عروض الدلتا ليس جافا على ما هو عليه في مصر العليا، مع أن المطر نادر في الدلتا، يستتاه زوايتها الشمالية الغربية. فضلا عن ذلك فإن البقايا المادية التي تعود إلى العصر الفرعوني مدفونة في الدلتا تحت طبقة رسوبية لا نعرف سمكها، وهي الطبقة الرسوبية التي تقوم فوقها مدن حديثة فوق الأماكن التي كانت تقوم عليها مدن العصر الفرعوني. ولهذا الأسباب فإن الدلتا لم تخرج بعد القيود الأثرية العائدة لتاريخها الفرعوني، على عكس ما حصلنا عليه من دلائل للمصر السابق للمدنية من التاريخ المصري في مصر العليا، في مواقع تعود إلى العصر الحجري الحديث وهي المواقع التي تكون في أماكن تشرف على الفرع، وهذه لها ما يماثلها في الدلتا في ميرما التي تشرف على الجزء الأعلى من الدلتا من الأوس المرتفعة إلى الغرب منها.

وهذه الضجة في القيود الأثرية بالنسبة للدلتا تبدأ في الوقت الذي جازف فيه سكان مصر العليا القفلس في المرتفعات القاتمة على جانبي النهر، وهاطوا إلى الفرع وبدأوا بشقه، على ما نظهر لنا القيود الأثرية من المنطقة نفسها. وبسبب فقدان أية معلومات أثرية، إيجابا أو سلبا، عن التاريخ المعاصر للدلتا فإن أية محاولة للبحث في الأحوال التي سبقت ولادة مدينة إقليمية في مصر الفرعونية هي ضرب من التخمين. وإن ما وصل إلينا من قيود أثرية في مصر العليا يترك في نفوسنا انطباعا بأن ظهور المدنية في مصر كان حدثا مفاجئا، إذا ما قوبل هذا بالظهور التدريجي للمدنية في سومر. فهل هذا الانطباع لا يعدو كونه فكرة عارضة لا تلبث أن تزول فيما لو تمكنا من العثور على أدلة أثرية من الدلتا عن الفترة التي سبقت ازدهار المدنية المصرية الفرعونية؟ أم هل يمكن مثل هذا التسفيه الأثري الناجح هناك أن يؤيد انطباعنا الحالي بأن الدلتا، على عكس مصر العليا،

كانت لا تزال، إلى درجة كبيرة، على حالها البدلي، أي مستقما - عابا، توحدت سياسيا مع مصر العليا؟

إذا صح الاحتمال الثاني من البدلين فقد تكون الدلتا حاجزا لا يمكن احترامه بالنسبة للاتصال البري بين سومر ومصر. وفي الوقت الذي كان الأثر السومري يتحسسه المصريون، وقد كانت هذه الفترة قصيرة، فإن هذا الأثر قدّم المصريين الضمير به حالا بعد توحيد مصر سياسيا. وإذا كان شق الدلتا قد تم في عصر المملكة القديمة الذي تلا ذلك التوحيد، فإن التأثير السومري ما كان له أن يصل مصر العليا برا عبر الدلتا، فلا بد أنه وصل مصر مباشرة عن طريق البحر. وفي هذه الحالة قد تكون السفن السومرية الكبرى قد وصلت موانئ مصر العليا الواقعة على البحر الأحمر، أو، رغبة في تقديم رأي آخر، لعل البحارة المصريين والسومريين قد التقوا على أحد السواحل الواقعة بين البلدين - إما، على سبيل المثال، في سواحل اليمن أو بلاد الصومال، وهي التي كانت تصدر البخور، أو على الشواطئ غير المعروفة تماما التي كان تصدر منها النحاس والتي عرفها السومريون باسم ماغان - وقد لفت النظر من قبل إلى أنه، قبل عصر السكك الحديدية، كانت الأسفار البحرية الطويلة أسرع وأيسر من الأسفار البرية الأقصر منها.

ومع ذلك فإن الفجوة في جودنا الأثرية بالنسبة للدلتا تترك لنا المجال لتخمين آخر هو، في الوقت ذاته، مشروح لكنه غير قابل للثبوت بشأنه. وهذا التخمين البديل هو القول بأن الدلتا هي التي لعبت الدور الرئيس بالنسبة إلى ظهور المدينة المصرية الفرعونية، لا مصر العليا. فلما أن تتصور الدلتا وقد بلغت، قبل نهاية الألف الرابع ق.م. المرحلة ذاتها التي بلغتها سومر - وهي مرحلة كان فيها الإنسان قد سيطر جزئياً على الغرين، والتي ظهرت فيها مدن في طور النشوء. وعلى أساس هذه الفرضية يكون التأثير السومري قد وصل الدلتا قبل أن يصل مصر العليا، وأنه انتقل لا عن طريق البحر بل عن الطريق البري عبر بلاد الشام.

وعلى كل فإن التأثير السومري على المدينة المصرية الفرعونية الناشئة لم تكن مدته قصيرة محض، بل لم يعد أن يكون أثراً، ذلك بأنه لم يبلغ حد نشر المدينة السومرية بالذات في مصر جاهزة دون تعديل. وعلى سبيل المثال فإن الكتابة المصرية مع كونها سومرية في تركيبها فهي مصرية متميزة في أسلوها، والهيروغليفات (الصور الهيروغليفية) هي خلق أصيل، وليست تقليدا لتطبيقاتها السومرية، وقد اختفت

الموضوعات السومرية من الفن المصري المنظور، كما أننا نجد أن المصريين لم يستمروا في استعمال الآجر لإقامة أبنيتهم الضخمة، على نحو ما فعل السومريون، فقد استعاضوا بالحجر عن الآجر في إقامة الأبنية الضخمة؛ فآثارهم المعمورة الضخمة بنيت من قطع الحجارة الكبيرة. والمعمورة في الأسلوب الفخم وعلى القياس الضخم هي إيجاز وطني لم يكن للمصريين مدبرين به لا للسومريين ولا لقهرهم من الأجانب. والزيهورات السومرية المبنية من الآجر لا تسمح لها حجمها فقط بأن تكون على مستوى الأهرام، فهذه لا تحيل لها إن من حيث المهارة في تصميمها أو من حيث الدقة في إقامتها.

وعجز السومريين عن مجالات فن العمارة المصرية لا يحكم على السومريين بأنهم دون المصريين خيالاً أو مهارة - إنه في الواقع مما يذكرنا بأن تحويل مستنقعات دجلة والفرات إلى مقر للمدينة كان عملاً أكبر وأقدم من العمل المائل واللاحق له أي تحويل المستنقع البلي، وترويض مصر العليا كان، نسبياً، عملاً يسيراً - فقد كان هنا نهر واحد فقط بحاجة إلى السيطرة عليه، وكان واديه ضيقاً، ومنطقة المستنق - الغالب في هذا القسم من حوض النيل كانت قريبة من الحروف العالية على كل من جانبيه، حيث كانت تقوم مواقع الأساطين التي استقر فيها أجداد مصر الفرعونية من أهل المصريين الحجري الحديث والحلوكوليثي، وقد كتبت لذلك الجزء الوحيد في مصر الذي كان نظيراً، من ناحية جغرافيته الطبيعية، لحوض دجلة والفرات. ويبدو أن لذلك ثم شقها تدريجياً فقط.

يضاف إلى ذلك أن مصر بكليةها، بما في ذلك لذلك، كان لها في متناول يدها بعض من المواد التي لا غنى عنها لخلق المدنية والاستقرار في صنمها. فهناك الكثير من أجود أنواع الصخر الصالح لبناء والتشييد، والمسافة بين المقلع وشاطئ النهر قصيرة، وحتى المسلة سهول نقلها متى وصلت سطح الماء لتحميل عليه. والمناجم الواقعة إلى الشرق من السوس - إذا صح أنها كانت مناجم نحاس - هي أيضاً يسهل الوصول منها بطريق البحر إلى مصر العليا، مع مسافة برية قصيرة عبر وادي الحمامات. وإذا لم تسد مناجم سيناء كل حاجات مصر من النحاس، فقد كان باستطاعة جزيرة قبرص أن تمنح ذلك، إذ إن موانئ كل من قبرص وبلاد الشام كانت في متناول أيدي الحكام في مصر العليا، بمجرد استيلائهم على لذلك وعلى موانئها الواقعة على البحر المتوسط. وقد كان باستطاعة مصر أن تستورد الأخشاب من لبنان عبر ميناء بيلوس (جبل) الفينيقية،

وقد استوردتها مملكتاً ولعل للمشاركة التجارية بين مصر وجبيل كانت متمصرة مع قيام مملكة مصر المتحدة. لقد كانت الطرق البحرية تنقل الأخشاب والنحاس إلى أبواب مصر، كما كان النيل، حتى الشلال الأول، يزود مصر بطريق مائي داخلي يمتد من الطرف الواحد من البلاد إلى الطرف الآخر. فضلاً عن ذلك، فإن هذا الطريق المائي، مع أنه كان نهراً فقط، كان يستعمل للنقل صعوداً وهبوطاً. فالنهر هنا يتجه من الجنوب إلى الشمال، فيما تغلب على مصر الرياح الشمالية كما أثبتنا في ذلك قبل.

وقد كانت سومر، بمقارنتها مع مصر العليا، تشكو من موقفات كبيرة بالنسبة إلى وسائل المواصلات وبالنسبة للحصول على المواد الخام، وإنه امر يدعو إلى العجب أن تظهر أقدم المدنات، القائمة اقتصادياً على ترويض المستنقعات، لا في مصر العليا، بل في الخوض الأدنى لدجلة والفرات. فالسومريون لم يسبقوا المصريين فقط في مفاسرتهم بل تفوقوا عليهم. فالسومريون جازفوا بمستقبلهم اعتماداً على استغلال مادة واحدة فقط من المواد الخام، وهي الفخين؛ وهم، بمثلهم هذا، أي بنزولهم إلى هذه البقعة وشقها، كانوا يخلفون وراءهم الموارد التي كانت لأجدادهم من حيث تزويدهم بالحجر، كما كانت تزودهم بالنحاس والأخشاب كذلك. وقد كان رأس المال الوحيد المحلي، في الأرض الجديدة التي ووضوها وأقاموا فيها وأخذوا باستغلالها، هو الثروة الحفصية. وقد أظهر السومريون حصانتهم في الأهمية التكنولوجية التي تمت على يدهم ففوصلوا إلى صنع أدوات زراعية من الصلصال (الدلفان، الطفل) للشوي إلى درجة تقرب المعادن صلبة وحده، ولكن هذا الاختراع لم ينجحهم من النحاس. لذلك اضطروا إلى جلب النحاس من الأماكن البعيدة - من حوض دجلة والفرات الأعلى. بل لعلهم جاءوا به من المناجم الواقعة في منقلب المياه المواجه للبحر الأسود، الذي هو ناشئ عن عتطت تقسيم المياه الذي يفصل الفرات عن أنهار نسية الصغرى الشرقية التي تصب في البحر الأسود من الجنوب. وكان على السومريين أن يأتوا بالأخشاب من جبال أمانوس. أما استيراد الحجر فقد كان أبعد من متناول البنايين السومريين؛ ومن ثم كان عليهم أن يبدلوا جهدهم لعمل أفضل ما يمكن من الحجر المصنوع من الطين المحلي. صحيح أنهم استوردوا الحجر لاستعماله مادة في التحت وصنع التماثيل، لكن استيراد الحجر الصالح للنحاس في سومر كادت كلفه أن تكون ككلفة استيراد الذهب أو الفضة.

لم يكن على السومريين أن يستوردوا النحاس والأخشاب محصب، بل كان عليهم أن

يدعموا أنسان هذه المستودعات من منتوجهم الخاص - مثلاً الحبوب (وهي مادة ذات حجم كبير من حيث النقل) والأقمشة التي كان الصوف اقدم مادة استعملت في صنعها في سومر. وقد كانت التجارة السومرية بالضرورة، أكثر نشاطاً من التجارة المصرية، وكان مجال نقلها أوسع بكثير، وقد سلوت قديماً عن طريق إقامة مستعمرات سومرية، فأنشور، على دجلة الأعلى، وتل مراك في الجزيرة (ميزوبوتاميا)، وهما اقدم المستوطنات، ويبدو انهما كانتا سومريتين لا ساميتين. وهذا التوسع التجاري إلى المشار العليا للنهر برا، كان يقابله توسع تجاري في الخليج العربي، بل لعله تجاوز ذلك إلى دلتا نهر السند، وحتى من المحتمل انه وصل إلى ساحل البحر الأحمر في مصر العليا؛ ولكن اهم عمل كبير في النقل والمخارجة كان توسع السومريين التجاري برا في الاتجاه الشمالي الغربي.

عندما كانت الأعشاب تقطع من جبال أمانوس كانت تنقل برا إلى شاطئ الفرات الغربي، كما كان النحاس المستورد من أرمينيا مادن ينقل برا (والمسافة اقصر من الأولى) إلى اجزاء دجلة والفرات العليا، وعندها كانت هذه الاحمال الضخمة توضع على أطواف تحملها اليها هبوطاً مع النهرين، فيه كان الركاب ينتقلون في قوافل مصنوعة من القصب مكسوة بالخجلد. وقد كان النقل مع الماء الهابط سرياً وسرياً، لان التيار في كل من دجلة والفرات كان أقوى من التيار في النيل في اسفل أجزائه مجراه. إلا أن السومريين، وللسبب ذاته، لم يكونوا يستطيعون استعمال الرافدين للسفر أو النقل صعباً مع المجرى، فحوض دجلة والفرات لا تسود فيه رياح جنوبية شرقية على نحو الرباع الشمالية التي تسود في مصر، والتي هي إحدى أثنى هبات الطبيعة لمصر. ومن ثم فقد كان على مستشري النحاس والأعشاب من السومريين أن ينتقلوا إلى الجهة الشمالية الغربية عبر الطريق البري بكثير من المعناء. والتجار السومريون، الذين كانوا يسبرون في أحقاب المستعمرين، كان عليهم أن ينقلوا مشاعهم للمصدر لدفع ثمن ما يستوردون، بالطريق الشاق نفسه.

وكان الحمار هو العنفة الوحيدة التي كانت لدى السومريين لما كانوا يشقون الطريق، وكان هذا هو الحمار الوحشي للدجن. وقد كان تدجينه، وهو أسرع دوات الأربع وأكثرها طواعية، لا يقل براعة عن صنع الأدوات الزراعية من الصلصال (الدلعان، الطعل). لم يكن لدى السومريين لا الحصان ولا الجملة، فقد دجن هذان في السهوب على أيدي أقوام أخرى وفي أرمية لاحقة.

وإذن فقد تفوق السومريون على تلاميذهم المصريين في فن خلق المدينة على المستوى الاقتصادي. وفي الناحية الثانية، فإن المصريين سبقوا سومريين في المجال السياسي. فعندما نزع السارة عن الفصل الأول من مسألة التاريخ السومري نجد المجتمع السومري مقسماً سياسياً بين عدد من المدن - الدول المحلية. وهذا التفتيح السياسي في العالم السومري كان متناقصاً مع وحدته على المستويات الحضارية والاقتصادية والجغرافية الطبيعية. كانت المدينة السومرية بحاجة، في سبيل بقائها، إلى سيطرة وإدارة فعالة للمياه في حوض دجلة والفرات الأسفل، ومثل هذه السيطرة ما كان لها أن تكون فعالة تماماً إلا إذا تم لها، قيادة موحدة. وهذه الموحدة السياسية، وهي التي لم يكن عنها غنى في نهاية المطاف، جاءت متأخرة، بالنسبة للتاريخ السومري، وبعد ما كانت قد كلفت الكثير من الحروب والألام التي سبقتها، وحتى لما تمت لم يكن إنجازها على أيدي السومريين أنفسهم. لقد فرضت عليهم، في النهاية، على أيدي جيرانهم الأكديين.

وفي الناحية الأخرى، فقد توحدت مصر العليا والدلتا سياسياً عند فجر المدينة المصرية الفرعونية. إن قسوة الحرب التي انتهت باحتلال الدلتا وضربها إلى مصر العليا، توضحها بشكل ساذج المناظر المحفورة على نقش نارمر. ولكن مصر كسبت، بهذا الثمن، وحدة سياسية ومن ثم سلاماً ونظاماً في الداخل. وهذه الهبات استمرت مدة تزيد عن الثلاثة آلاف سنة من التاريخ المصري الفرعوني، وذلك باستثناء فترات متوسطة « قليلة ونصيرة نسبياً كانت تعترض هذا التاريخ وعندها كانت تنفقد حالة الوحدة العادية والسلام الداخلي.

من الواضح أن توحيد مصر العليا والدلتا كان حدثاً فجائياً ومسرهماً، لكننا نجهد الخطوات التي سبقتها. وقد قسمت مملكة مصر الفرعونية للخدمة في جزئها، في ما تلا من المصير، إلى أقسام إدارية، وقد كانت هذه حقائق اجتماعية. وكان لسكان كل من هذه الأقسام وطنية محلية. لكن هذا ليس دليلاً على أن هذه الأقسام كانت موجودة كدويلات محلية ذات سيادة قبل أن يتم توحيد مصر السياسي، بحيث تكون مظهرات للمدن - الدول المحلية ذات السيادة في سومر. إن اليونان استعملوا لفظة « نومي » لهذه الوحدات التي قسمت البلاد إليها. والمعنى الحرفي للكلمة اليونانية هو « وحدات إدارية ». ولعله من المحتمل أن هذه « النومات » للمصرية، بل أن تكون معوقات سابقة لتوحيد، كانت تقسيمات مصطنعة على نحو ما نجد في الوحدات الإدارية في فرنسا اليوم، الغاية

من إيجادها ان تحل محل وحدات إدارية كانت قائمة في ما سبق من التطريح وأن تربل أثرها، الأمر الذي قد يمكن فيه خطر داهم بالنسبة للحفاظ على الوحدة السياسية فيما لو سمح لدكرها ولترابطة العاطفية بحوها أن تستمر.

وقد انعكس تاريخ المجتمع الاقتصادي والسياسي في مصر، كما في سومر، على التاريخ الديني. ونحن عندما نقابل التاريخين على المستوى الديني نجد ان تصيف المجتمع المصري الفرعوني إما هو نموذج للنوع ذاته أي السومري، على أنه في الوقت ذاته يبين الشخصية القردية للمدنية المصرية.

كانت الآلهة، في مصر وفي سومر على السواء، تمثل قوى الطبيعة التي كانت تصنع الانسان تحت رحمته، لكن في مصر أضيف الى عبادة الطبيعة عبادة القوى البشرية الجماعية. وقد وجدت هذه الديانة الجديدة التعبير نفسه الذي عرفته سومر. فقد وجدت بعض آلهة الطبيعة، في سومر ومصر الفرعونية على السواء، لتمثل قوة الانسان وقوة الطبيعة في وقت واحد، وما يرس هذه الاضافة إلى وظائف الآلهة، هو ان هذه الآلهة، مع أنها كانت مشتركة بين المجتمع بكامله، سواء في ذلك آلهة الطبيعة والطبيعة ذاتها، أصبحت مرتبطة بأماكن معينة حيث أصبح للمزار المحلي اعتبار عالمي. وحتى الإله الشمس المصري رع - وهو إله كوني عسى أعلى مستوى - كان له موطن خاص في هليوبوليس، على ضفة النيل الشرقية قرب رأس الدلتا.

وحورس، وهو الابن الصغر للاله أوزيريس، إله الحياة النباتية المسكوني، نولاه حكام المدينيتين التوأم، نحن - نخب (هيراكوبوليس) في اعماق مصر العليا. وقد كان هؤلاء هم الذين وحدوا مصر عند ابتداء تاريخ المدنية الفرعونية حوالي سنة ٣١٠٠ ق.م. وقد لصحوا الدلتا تحت رعاية حورس. ونخرج من هذا الحادث السياسي الرائع، أن أصبح للاسطورة التي روت قتال حورس مع قريبه الشرير ست، وانتصار الأول على الثاني، معنى تاريخي إضافي. فقد كانت هذه الأسطورة أصلاً رمزاً لأمر يتجدد في سياق الطبيعة - موت الحياة النباتية وعودتها إلى الحياة سنوياً، وخصوصاً المحبوب التي كان إنسان العصر الحجري الحديث قد دجنها وقد أصبح الحصاد شرطاً لبقاء الانسان، مد أن انتقل من مرحلة جمع الموارد الغذائية إلى مرحلة إنتاجها - وقد قتل ست الشرير أخاه أوزيريس، روح الحياة النباتية، ولم يكشف بذلك بل قطع جسده إرباً ونثرها أشلاء؛ لكن إيريس، اخت أوزيريس وزوجته المخلصة، وجدت هذه الأشلاء وجمعتها، معاد أوزيريس

إلى الحياة ثانية، وسلم مملكته إلى ابنه الوفي حورس، وكان هذا قد انتقم لقتل أوربريس بان تغلب على ست القتاتل. وبعد أن ضمت مصر العليا والدلتا إليها، صارت هذه الأسطورة المنتزعة من الطبيعة رولية لإحياء ذكرى هذا الحادث السياسي التاريخي. كان المركز الأساسي لعبادة ست في الزلوية الشمالية الشرقية للدلتا، في الطرف الغربي من مصر المقابل لنخن - نخب. ومن ثم فقد أصبح اتصال حورس على ست يمثل انضمام مصر العليا على مصر السفلى، أي لاتحاد التاجين الذي تلا ذلك.

دشن توحيد مصر السياسي عهد المدينة المصرية الفرعونية واستمر يتحكم في تاريخها لمدة ثلاثة آلاف سنة. وقد كان هذا مظهرًا للتعاون البشري الحضاري لم يسبق له مثيل، وعبادة هذا التعاون اتخذ شكلًا جديدًا. فمؤحد مصر ومن خلفه من بعده الذين كانوا يلبسون تاج مصر المزدوج كانت تقدم لهم العبادة على أنهم « تجسد » للقوة الساحقة التي كانت مركزة في التاجين الموحدين الآن فوق رأس الفرعون. والفرعون (في العبرية تعني هذه الكلمة المصرية القصر الملكي القائم في العاصمة النهائية للمملكة المتحدة، ثمفس) كان إلهًا بشريًا حيا - وهو قائم بلحمه جنبًا إلى جنب مع الآلهة الأقدم التي كانت حياتها زهاء، وكانت تظهر في التماثيل المنحوتة عليها الطقوس الدينية الحية فقط.

ان توحيد مصر العليا والدلتا السياسي على يد نارمر ظهر له اعبرًا نظير في وادي دجلة والفرات في توحيد سومر مع أكد على يد لوجالزغيري؛ ولكن إتمام هذا التوحيد لم ينجز إلا بعد أن كانت المدينة السومرية قد بلغت سبعة قرون من العمر. وقد قبل التوحيد، دون حماسة، على أنه أهون الشرين، إذا غورن باليابل أي باستمرار الفوضى الدولية المبررة؛ ومن ثم فلا لوجالزغيري ولا سرجون، الذي انتزع من يد الأول الامبراطورية التي كان قد صممها، كوفيء بالتأليه. ومع ان بعضا من خلفائهما - مثلاً نارامسن (نحو ٢٢٩١ - ٢٢٥٥ ق.م) وشلفي (حول ٢٠٩٥ - ٢٠٤٨ ق.م) غامر وادعى الألوهية، فأنهم لم يسنوا قاعدة لذلك. ففي سومر وأكد كان إله البشري الحي هو الأمر المستثنى لا القاعدة.

٨- سومر والكد: نحو ٢٠٠٠ - ٢٢٢٠ ق.م.

سمية المدينة السومرية بهذا الاسم أمر مطابق للواقع لأن شق الفرع في وادي دجلة والفرات الأدنى والاستيطان فيه - وهو إنجاز قامت به قوة بشرية جماعية هي التي ولدت هذه المدنية - كان عمل شعب واحد، هو الشعب السومري، الذي كانت له لغة وديانة وحضارة مشتركة. وعلى كل ظم يمكن للقوة البشرية الجماعية للشعب السومري، في أول الأمر، وحدة سياسية تجمع شملها في دولة مسكونة تتحكم في المجال الغربي الذي كان السومريون قد استلوكوه. والعمل الرائد قامت به خلاص سومرية مختلفة، مستقلة واحدها عن الأخرى سياسياً، وقد تولت امر شق الفرع في نقاط مختلفة. ونستدل على هذا من التركيب السياسي للعالم السومري الذي نجده في أقدم الوثائق المدونة بالكتابة السومرية، التي تعود إلى الوقت الذي دونت فيه هذه الوثائق التي حلت رموزها والممكن قراءتها. ففي فجر تاريخ المدنية السومرية كانت سومر قطعة مسهاء مكونة من مدن - دول محلية ذات سيادة، والوحدة الثقافية التي عرفها العالم السومري لم تكن بعد قد وازتها وحدة على المستوى السياسي.

ويبدو أن هذه المدن - الدول تعايشت، خلال القرون الخمسة أو الستة الأولى من تاريخ المدنية السومرية (حول ٣٠٠٠ - ٢٥٠٠ ق.م.)، دون أن تتصادم فيما بينها. وما لا ريب فيه هو أن الفرع كان قد شق ثمرجهاء وأن الحفول المروية والمروج المائية التي صمها مؤسسو كل من هذه المدن كانت، إلى مدة طويلة، لا تعود كونها واحدة نعلها عر غيرها من أراضي المدن مساحات من المستنقع البكر، وأن هذه المساحات كانت، في جملتها، أوسع بكثير من الواحات جمعاء. وفي خلال الفصول المبكرة من تاريخ المدنية السومرية، كان للمدى الذي تمتد فيه المستنقعات البكر الواقعة على الأرض التي كانت كل مدينة قد شقتها لنفسها، وهي التي كان بإمكان كل مدينة أن تنصرف

بها، يبدو كأنه لا نهاية له. يضاف إلى ذلك أن كل مدينة كان بإمكانها أن تتحكم بالمياه في مدامها الخاص بها، دون أن تتدخل في الأعمال المماثلة التي كانت الجماعات الأخرى تقوم بها في الوقت ذاته في الأراضي الأخرى.

وقد جاءت اللحظة الخطرة سياسياً لما أخذت أملاك المدن - الدول المحلية هي الاتساع بحيث أنها أزلت المناطق العازلة من المستنقع وأصبحت هذه المدن - الدول مجاورة مباشرة الواحدة منها للأخرى. وهذا الاستكمال نفوذ الإنسان التكنولوجي على الطبيعة في سومر خلق مشاكل سياسية على مستوى العلاقات البشرية. ولم يستجب السومريون لهذا الصعدي الاجتماعي فوراً، بل لجأوا إلى الطريقة الأساسية للتوحيد. السكوني على نحو ما تم في مصر لما ظهرت المشكلة الاجتماعية ذاتها هناك. فلما اقتربت قطع الفسيفساء السياسية، التي كانت معزولة قبلاً، واندثرت من الأخرى لم تتجم بعضها ببعض الآخر حالاً ولم تكون مملكة واحدة على نحو ما حدث في مصر بل استمرت المدن - الدول، حتى بعد تماسها واندثتها بالأخرى، في الحفاظ على استقلالها وسيادتها المحلية.

وقد كانت إنتاجية شهرين دجلة والفرات في هذه المرحلة كبيرة بحيث أن جزءاً منه كان يكفي أعضاء « المؤسسة » في مدينة - دولة سومرية أن يعيشوا - ويموتوا - برفاهية. والحفر الأثري في القبور الملكية للأسرة الأولى لمدينة - دولة واحدة، فوراً أظهر لنا أن الملك كان يملك من الصناعات عدداً يمكنهم من أن يصنعوا الحلى الدقيقة للملكة. كما أنه كان يسير معه لا الثيران التي تجر العربلة للملكة فحسب، بل جماعة من الأنعام من الجنسين خدمته في حيلة أخرى افتراضية، وهؤلاء إما أنهم كانوا يقتلون، أو أنهم كانوا يتشعرون تطوعاً، في نهاية الطقوس الجنائزية للملك. وهذه الدرجة المتباينة في نظرتها من الجانبين الطبقي التي نجدها في أور في هذا الفصل المبكر من تلويح المدينة السومرية، كانت، على ما يبدو، اسماً مألوفاً للأحوال الاجتماعية في كل أنحاء العالم السومري المعاصر.

عندما نصل إلى الدور التالي في التلويح السومري، وهو الذي يبدأ في منتصف الألف الثالث ق.م. نجد أن الصفة البارزة هناك لم تكن الحفاظ على الوضع المميز الذي كان « المؤسسة »، في كل من المدن - الدول، بل كان صداماً فيما بين هذه المدن - الدول. ونمط نقش نافير لايتام ملك لاغاش (تلر) يصور انتصار هذه المدينة على جارتها أوما (جوما)؟ ويرينا هذا النقش أن الحروب بين دول سومر قد بلغت درجة كبيرة من

التظيم، وأنها كانت نسبياً ضلوبة ومدمرة ولم يكن جتود إيتام فقط مرودين بالحدود (لعلها كانت معدنية) وللتروس الشحنة بكثرة، بل كانوا قد دربوا على القتال في صفوف من الكتائب، وقد أظهرهم نقش إيتام وقد صفوا متكاتفين متراسي الصفوف فيما نبرز أسلحتهم من الصفوف الأمامية غير التروس المتلاصقة، وكانت جثث القتلى من العدو المهزوم مطروحة تحت أقدام الجيش الظافر وقائده. ولعل ملوك المدن - الدول السومرية كانوا يتطلعون الآن ضحايا بشرية على مقاس أوسع من الدين يقابلون في المعارك، وقد كانت ضحايا الحروب خيرة المحاربين من شباب الجماعات.

كان النزاع بين لاغاش وأوما في أيام إيتام يدور حول امتلاك قناة تقع على تخوم الدولتين، وهذه القناة المروقة كانت تروي أرضاً مجاورة وتصرف مياهها، ومن لم فقد كانت إنتاجية تلك الأرض تعتمد على هذه القناة، وامتلاك القناة يحمل معه التمتع بإنتاج تلك الأرض. ويهدي إيتام أنه كان المتصر في الحرب التي دارت رحاها حول القناة التي تمنح الحياة. وحتى لو كان هذا الظفر حقيقياً فانا نتصور أنه كان انفصلوا باهظ الثمن. وعلى كل يبدو أن التوازن الاجتماعي الداخلي المتقلقل في لاغاش قد اضطرب. ذلك بأن الفلاحين السومريين كانوا يتقبلون امتيازات و المؤسسة ، على اعتبار أن الغالبية التي لا تتمتع بأية امتيازات تفسر في اعتقادها بأن الأقلية ذات الامتيازات إنما كانت تقوم بخدمات اجتماعية بشكل فعال، وأن هذه الخدمات الاجتماعية كانت مما لا يستغنى عنه بالنسبة إلى مصلحة الجماعة كليا. ويبدو أن هذا الاعتقاد أصابته هزة في أيام الملك اوروكاجينا ملك لاغاش (حوالي ٢٣٧٨ - ٢٣٧١ ق. م.) الذي استطاع ان يتحدى سلطة الكهنة.

إذا كان اوروكاجينا حاول القيام بثورة اجتماعية فقد أحبط مسعاه عندما نقلب عليه لوزالغيري الذي كان قد وطد سلطانه على مدينتين - دولتين هما أوما وأوروك، وأخذ لوزالغيري يوسع سلطانه لا يضم لاغاش فقط بل يضم كل المدن - الدول السومرية الأخرى، وقد اتسمت إمبراطوريته حتى خلع تطلق سومر إذ امتدت من البحر إلى البحر ، أي من رأس الخليج العربي حتى شواطئ المتوسط في شمال بلاد الشام.

وقد وسع لوزالغيري (حوالي ٢٣٧١ - ٢٣٤٧ ق. م.) إمبراطوريته بحد السيف، ومع ذلك فإن حروبه التوسعية كانت أقل شرا على البلاد من الحروب الأهلية المستمرة الشاملة، التي كان السومريون أنفسهم يقومون فريسة لشرها. وفي الواقع فإن التوحيد

السياسي المعروض عليهم كان العلاج الوحيد لهذه الآفة الاجتماعية. ذلك بأن شبكة الأقنية التي كانت قائمة في الخوض الأدنى لدجلة والفرات، الطبيعي منها والاصطناعي، كانت وحدة لا تقبل التقسيم، وما لم تقم سلطة واحدة، قادرة على تنظيم المياه وتوزيعها - والمياه كانت عصب الحياة - فإن إدارة هذه المياه لا يمكن أن تكون لا فعالة ولا سليمة. ومن المحتمل أن يكون هذا سبباً لإثارة الحرب بين الدول المحلية المستقلة، ذلك بأن هذه كان لا بد من أن تتنافس وتتنازع فيما بينها، إذ تحاول كل منها أن يكون لها القسط الأكبر من السيطرة على الماء لمصلحتها. فعمل لوفالزغيري في توحيد سومر سياسياً، ثم في توسيع إمبراطوريته إلى الشمال الغربي، جعل قيام سلطة واحدة تشرف على مياه دجلة والفرات أمراً ممكناً للمرة الأولى؛ كما أن هذا العمل مكن حاكم سومر من أن يستولي على مصدر الأخشاب اللازمة لسومر وهو جبل أمانوس. ولعل الشيء نفسه تم بالنسبة إلى مصادر النحاس، التي هي أبعد مسافة.

وعلى كل فإن الثمار التي غرسها لوفالزغيري في بناء الأمبراطورية لم يجنها هو نفسه، ولا حتى أي إمبراطور آخر من الأمة السومرية - ذلك بأن الأمبراطورية التي ضم لوفالزغيري اجزائها واحدها إلى الآخر انتزعتها من يديه ضابط أكدي سامي اللغة اسمه سرجون الذي يبدو أنه بدأ حياته حاكماً لكيش (لأختر)؛ وقد انسحب سرجون من كيش وأنشأ لنفسه مدينة في أباد. وللكان لم يهتد الباحثون إلى تعينه بعد، لكن يظهر أنه كان على مقربة من الموقع الذي أقيمت عليه بابل فيما بعد، وقد كان اختيار المكان موفقاً، ذلك بأن موقعه حيث هو في الطرف الشمالي الغربي للفرات، حيث يقترب مجرى دجلة ومجرى الفرات واحدهما من الآخر على أقرب نقطة، يمر للمستولي عليه إمكان السيطرة على كل الشبكة المائية من الطرف الواحد إلى الآخر من الفرعين حتى مصب الرافدين.

لعل استيلاء سرجون على أمبراطورية لوفالزغيري لم يكن البروز الأول لأحد المتكلمين بلغة سامية في التاريخ المكدون. فمن المحتمل أن سكان بيلوس كانوا يتكلمون لغة سامية لما بدأت صلاتهم التجارية والحضارية مع مصر الفرعونية لأول مرة، وقد تم هذا نحو ما بين ٦٠٠، ٧٠٠ سنة قبل أيام سرجون. وعلى كل فإن إمبراطورية سرجون السومرية الأكدمية كانت أول دولة كبرى استعمل حكامها لغة سامية، فأكد التي أنشأها سرجون، والتي كانت أغاد عاصمتها الأمبراطورية، كانت تقوم عبر نهري دجلة والفرات إلى

الشمال من سومر، وكانت تمتد شمالاً في غرب إلى النقاط التي كان يستهيها العربون عندها. ولما نعرف فيما إذا كان توطن شعب سامي اللغة في هذا الموقع الاستراتيجي كان من عمل سرجون، ثم أن الأكديين كانوا قد اتساحوا في هذا الجزء من حوض دجلة والفرات في وقت سابق لذلك. وعلى كل فاته من الممكن أن مفترض أن الشعوب الأكديين، ومثلهم الكنعانيين، الذين كانوا أقدم من استوطن سورية وفلسطين من الشعوب المتكلمة بالسامية، كانوا قد جعلوا من الجزيرة العربية؛ ذلك بأن الموجات المتعاقبة من الشعوب المتكلمة بالسامية، كالفرجة العمورية والموجة العبرية الآرامية الكلدانية والموجة العربية، والتي اتدمعت عبر شطآن السهوب العربية إلى الهلال الخصيب - هذه الموجات جاءت من تلك المنطقة (أي الجزيرة العربية).

ولغات الأسرة السامية تربطها واحتكاكها بالآخرى روابط متينة، والأسرة السامية بالذات لها صلات بعيدة مع مجموعات من اللغات في الشمال الأفريقي - كاللغة المصرية القديمة (المتطرفة اليوم باللغة القبطية) واللغات الكوشية - في شمال شرق إفريقية (مثل البجا والدناقل والفلا والصومال) واللهجات البربرية في شمال غرب إفريقية. ويعود الفضل إلى ما في السهوب من تسهيل للتواصل في انتشار اللغات السامية أكثر من غيرها، باستثناء اللغات الهندية - الأوروبية والتركية. واللغة العربية، التي كانت آخر لغة سامية حملها اتساح الشعوب من الجزيرة العربية، شائعة اليوم عبر جنوب اسية الغربي والشمال الأفريقي من موطنها جبال زغروس وشواطئ الخليج العربي الشرقية إلى شواطئ الأطلسي في شمال إفريقية. واللغة السريانية، وهي لاصيغة الحديثة للغة الآرامية، لا تزال تستعمل في بعض أماكن على سفرة من دمشق، واللغة العبرية تستعمل الآن في بعض أجزاء من فلسطين.

لقد حكم سرجون من نحو ٢٣٧١-٢٣١٦ ق.م.، والأسرة التي أسسها استمرت حتى حوالي سنة ٢٢٣٠. والاسباطورية التي انتزعها سرجون من لورغزغري والتي أورثها احماده هي، بالنسبة للتاريخ السومري الأكدي، نظيرة للمملكة القديمة في تاريخ مصر العبرية؛ لكن المملكة القديمة كان تتفوق على إمبراطورية سومر وأكد من ناحيتين إنها قامت عند فجر تاريخ المدنية المصرية للفرعونية، التي كانت لحظة ميمونة في التاريخ، وإن مؤسسها لم يكونوا غرباء عن البلد، فقد كان للكان الذي نشأوا فيه، وهو المدينتان الثرمان، ينج - ينج، يقع تماماً داخل الحدود الجنوبية لمصر، وقد كان يحكمها حماة

مستعزمات مصر الجنوبية. ولعلهم يسبب هذا الدور الذي كانوا يقومون به، قد تمرموا بالبراعة الحربية الفائقة التي ظهرت أخيراً في الحرب بين الأخوة التي مكنتهم من مرض الوحدة السياسية على العالم المصري. وعلى العكس من ذلك فإن أكده، وعاصمتها أعاد، كانت تقع تماماً على طول الحدود الشمالية الغربية لسومر، وقد كان الأكديون متطلعين شبه برابرة، وكان سرجون وأحفاده، مثل لوغالوغيري، سلف سرجون، وجبال حرب، فيما بعثت مصر بنحو ألف سنة من السلام، منذ أن قامت المملكة القديمة في مصر الفرعونية.

وقد روي أن سرجون قاد بنفسه حملة عسكرية إلى شرق آسيا الصغرى لتسبب لاستيلاء مستوطنة من التجار - من المحتمل أنهم كانوا أكديين - الذين كانوا يلقون معاملة سيئة على أيدي أهل البلاد. وقد تكون قصة هذه الحملة السرجونية أسطورية، ولعلها قصة سابقة تاريخياً لاستيطان تجار آشوريين مستوطن من وجودهم هناك من القرن العشرين إلى أواخر القرن التاسع عشر ق.م. في ضاحية المدينة كانش، حيث اكتشفت محفوظاتهم. وعلى كل فإن حملة نارام سن السرجوني إلى جبال زغروس لا ربه في أرمها، إن الحفر النافر على حجر نارام سن يؤيدها - وهي وثيقة متطورة لا نقل في شراستها عن الحفر النافر على حجر نارام سن الموجود في إينانوما.

وحملة نارام سن، مع أنها كانت ضاربة وقد انتهت بالفوز على ما يظهر، فقد كانت على الأرجح عملية هجومية - دفاعية، على ما يبدو من نتائجها؛ وإذا كان عمله دفاعياً فهو لم يكن يدافع عن أكد فحسب، بل كان يقطع عن سومر وعن المدينة السومرية. فقد أسرت هذه المدينة الأكديين الذين قهروها، ونسوها بكليتها تقريباً، بما في ذلك كتابتها وحتى ديانتها. فأكثر الآلهة الأكديّة كانت آلهة سومرية تخفيها غلالة رقيقة من الأسماء السامية، واللغة الأكديّة دونت في حروف سومرية، مع أن هذه كانت آلة غير ملائمة للتعبير عن لغة من الأسرة السامية، من حيث أن جذر الكلمة السامية ليس سلكاً يتنظم مقاطع، بل مجموعة من ثلاثة حروف صامتة.

ولما أخذ الأكديون بلباب المدينة السومرية كانت هذه قد طورت ظاهريتها البارزتين. وكانت إحدى هاتين الظاهرتين التقوى الدينية، وكلفت الأخرى المهارة التجارية، وقد عبر عن التقوى الدينية بكثير من الحبيوة في الأشكال الصغيرة للمتعبدين، وهي التي كانت صرباً هاماً من الفن المنظور السومري الأكدي. فإن التعبّد تنقل يده المطربان وعيناه

المحاطتان إلى الشاطئ إلى الآن الحنف العميق الذي يلقه في صلاته. وأثار المهارة التجارية السومرية الأكديّة هي هذه الآلاف من ألواح الأجر المدوّنة عليها المعاملات التجارية المتنوعة. كان الآثمة أكبر أصحاب الأملاك ومديرو هياكلها قد يكونون رواداً في تنظيم الأساليب السومرية للمقيام بالأعمال التجارية على نطاق واسع، إلا أن القطاع العام للاقتصاد السومري كان يعادله القطاع الخاص. فقد كان السومريون بمصرفون إلى أعمالهم بكلّيتهم كما كانوا يبنون جدرانهم. وقد ضلّض الأكديون السومريون في حقلي النشاط المذكورين، وتخلّطوا روحهم.

قضى على الأسرة السرجونية الفوتيان الجليليون، أي البرابرة القادمون من الجهة الشمالية الشرقية، نحو سنة ٢٢٣٠ ق.م. وقد وقعت سومر وأكد تحت حكم الفوتيان من نحو ٢٢٣٠ إلى حوالي ٢١٢٠ ق.م. ولتلاء فترة سيطرة الفوتيان تسبّل العموريون المفككون بالسلبية إلى أكد من الجهة الجنوبية الغربية، وانتشروا مدينة بابل تبعاً لذلك. وقد قضى على الفوتيان أو لعلهم أخرجوا من البلاد في آخر المطاف، وذلك لأن الأكديين والسومريين كانوا يكرهونهم. أما العموريون الذين انتهكوا حرمة الأراضي الأكديّة فقد استمروا هناك، وكان أن قاموا بدور رئيس في التاريخ السومري الأكدي في ما بعد.

٩- مصر الفرعونية، نحو ٢٠٠٠-٢٨١ ق.م.

منذ أن انهلج فجر أقدم المدنات الألفية في سومر، نحو نهاية الألف الرابع ق.م، ظهر واعتنى عدد من المجتمعات من هذا النوع. وثمة مدنات أخرى لا تزال حية، مع أن أقدم هذه المدنات الحية، وأعني المدينة الصينية، هي أحدث عهداً من سابقتها السومرية والمصرية الفرعونية، بما لا يقل عن ١٥٠٠ من السنين. وقد ميزت المدينة المصرية الفرعونية نفسها، في عصرها الأول أي « المملكة القديمة » (نحو ٢٦٨١-٢١٠٠ ق.م)، عن غيرها من المدنات الإقليمية باستقرارها النسبي. ففي هذه الفترة الزمنية التي قامت قرابة ألف سنة، كانت المملكة القديمة أكثر استقراراً من أي نظام ظهر في تاريخ مصر ذاتها أو في أية منطقة أخرى، وقد عاشت بعض إنجازات المملكة القديمة حتى بعد زوال تلك المملكة. فأسلوب الفن المنظور المسير ونظام الكتابة كما أوجدها المصريون القراءنة عند بروز مصر القديمة، والديانة التي ورثوها، حافظت على شخصيتها إلى القرن الثالث الميلادي باعتبارها أشياء مستمرة، ولم تزل قائمة حتى القرن الخامس. لا شك أنها تعرضت لتغيرات وتعديلات خلال هذه الثلاثة آلاف ونصف الألف من السنين؛ ولكن استمرار التقليد الحضاري المصري الفرعوسي ظل على حاله خلال هذه الفترة الزمنية. أما في ما يتعلق بتنظيم المياه في حوض مجرى النيل الأدنى، إلى الشمال من الشمال الأول، فقد حوفظ عليه إلى يوم الناس هذا. وهذا التنظيم هو الذي مكّن للمصريين من قلب المستنقع - الغاب السابق - من أرض ماحلة قاسية إلى حقول ومراع خصبة.

مارس سومر القديمة، وهي مساحة من الأرض في حوض الفرات الأدنى، لم تسلم من العودة إلى حالتها الطبيعية الأولى؛ وفي كل الجزء الغربي في جنوب شرق دولة العراق الحالية، نجد أن أساليب السيطرة على الماء التي أنشأها السومريون قبل خمسة أو

سنة الألف سنة، يجب أن يبدأ بها من جديد. فيما لم يسمح ورثة الملكية القديمة في مصر الفرعونية قط لأساليب السيطرة على المبدأ التي بدأها أسلافهم بأن تحرب في أي جزء من أجزاء مصر. وقد أكد هيرودوتس، المؤرخ اليوناني الذي عاش في القرن الخامس ق.م.، أن مصر « هبة النيل ». فكان أدراكه بفكر بالطغي الذي كان النهر يلقي به، والذي ظل يجلده بريادة سنوية حتى تم إنشاء سد أسوان سنة ١٩٠٢. إلا أنه يكون أقرب إلى التصواب القول بأن مصر هي الهبة التي قدمها المصريون، سكان البلاد في الزمن السابق للأسر وزمان الأسر الأولى، إلى الأجيال المتعاقبة. وهبة النيل لم ترد عن تزويد المواد الخام التي جلبت المستنقع - الغلب الفربي في جنة هريية. أما تطوير الأراضي البرية أصلاً إلى الأرض المصرية الخصبة، فقد تم إنجازها بسبب ما كان للمصريين أنفسهم من نشاط اجتماعي وجد ومهارة وقادرة إدارية.

لقد كان الإنجاز الرئيس للمصريين الفراعنة تنظيم حكومة مركزية فعالة لمصر بأكملها من الشلال الأول إلى البحر. فقد تم توحيد مصر سياسياً وإدارياً عند بدء تاريخ المدينة المصرية الفرعونية. وقد كان هذا العامل السياسي المعين لاستمرار زراعة الري في مصر، وقد استمرت على هذا المثال إلى يوم الناس هذا، مع أنه تخللها فترات أصابها فيها نكسات عادت أثنائها مصر إلى الانقسام خلال العصر الفرعوني. وبمسي علماء المصريات هذه النكسات « فترات معترضة »، لأنهم يرون، وهم على حق، أن الوحدة الفاعلة كانت النظام السياسي المعادي في مصر منذ اليوم الأول الذي قام فيه الفرعون الذي وحد مصر. وهذا الإجماع السياسي الطب والمشر، الذي هو فريد في قدمه، مكن له، ولا شك، نظام المواصلات المصري الداخلي الممتاز، والذي ظل كذلك مرهبا حتى اختراع السكة الحديدية قبل قرن ونصف القرن من الزمان.

والقدرة البشرية الجماعية التي كانت مركزة تحت تصرف حاكم فعال يحكم مصر بأكملها، كانت تنتج من لولزم الحياة المادية فائضا كبيرا لم يسبق له مثيل، ويزيد كثيرا عن الحاجات الأساسية، هذا إذا استخدمت هذه القدرة بمهارة وتنظيم، في سبيل استغلال إمكانات العرين المصري المروض للإنتاج الزراعي. وهذه القدرة الجماعية نفسها، عندما كانت تستخدم في الأعمال المعمارية الضخمة، التي لم تكن منتجة بالمعنى المادي، وخصوصا عندما يضم إلى هذه القدرة الجماعية جزء من الوقت الذي وعمره الشعب من العمل الرئيس لإنتاج الغذاء - عندما يجتمع هذان قوتيهما يمكنان الفرعون من إشباع رغبة

خاصة به وبحلقة داخلية من أتباعه ذوي الامتيازات. وهذه الرغبة كانت موضع الاهتمام الأول عند كل مصري في كل مراتب الحياة طيلة العصر الفرعوني.

كان للمصريين توق لضمانة الحياة الأبدية لأنفسهم بعد الموت؛ وقد تأهبوا هذه الغاية التي تلي الوفاة بجهد يفوق جهدهم في ملاحقة أي غاية قد تتحقق في مدى الحياة البشرية. فقد كانوا ملادين في تفكيرهم. كانوا يتلذذون بالأشياء المادية - الطعام وحيازة الأشياء - التي يمكن الحصول عليها في هذه الحياة. وقد تصوروا الخلود بعد الموت في إطار من التمتع بالطيبات من النوع نفسه. وما دامت الحياة قبل الموت قصيرة، وبما أن الحياة بعد الموت قد تكون أبدية، فقد انفقوا من المال والجهد على القبر أكثر مما انفقوا على البيت، وعلى تحنيط الجثة أكثر منه على تزيين الجسم الحي. وعلى هذا فبدلاً من أن يخشوا فكرة الموت، كانوا يسرون بانتظارها عقلاً عن طريق الإعداد لدور من الحياة أطول وأكثر أصمية - إذ كانوا يعتقدون أن هذا الدور يبدن الموت طريقه لهم، فيما لو أعدوا أنفسهم بالعمل اللازم له مسبقاً.

ولم تكن عقائد المصريين بالحياة بعد الموت وحدوية كما أنها لم تكن منسجمة واحداً مع الأخرى. فالحفاظة الطهيمة على الجثة المحنطة في قبر ضخم، كان يتفق مع عقيدة ترى أن مثل هذا العمل يمكن لجزء من الروح أن يصاحب الجثة. وكانوا يعتقدون أيضاً بأن الفرعون، على كل حال، منضم إلى بقية الآلهة بجزء آخر من روحه. بل إنهم كانوا يقبلون عقيدة بدائية مسجبة وهي أن الفرعون سبيلهم في الواقع رفاته من الآلهة وبذلك يستولي على قوتهم. وثمة عقيدة ثالثة كانت تقول بأن لوزيريس - روح الحياة البائبة الذي مات ثم بعث حياً - سيسكن لمباده من أن يحققوا مثل هذا التحول، وإنه عندها يدخلهم إلى الجنة الخضراء في الغرب، حيث يعيشون معه في سعادة دائمة إلى الأبد. وأسطورة اوزيريس المصرية كبيرة الشبه بأسطورة أدونيس الكنعانية وأسطورة أتيس في أسية الصغرى؛ ولكن إذا كانت أسطورة اوزيريس قد جاءت مصر من الخارج فلا شك أنها توغلت في صميم حياة المصريين الدينية في مرحلة مبكرة من تاريخ المدينة المصرية المعرونية. وخلال هذا المساق الطويل لهذا التاريخ كانت عبادة لوزيريس ترداد شعبية، وانتهى بها الأمر إلى أنه صار لها محتوى أخلاقي. فقد أصبحت العقيدة عندهم أن الموت سيبتعه حساب، ولا يقبل في جنة اوزيريس إلا تلك الأرواح التي ترجع أفعالها الحيرة على أعمالها الشريرة في ميزان القضاة الذين يقومون بذلك في ما بعد الموت.

وفي الوقت ذاته أدت العقيدة القتالة بأن الخلود يمكن تحقيقه، إذا دفن الميت في قبر ضخم، إلى اختراع أسلوب ضخم في البناء بالحجر. وقد أشرنا من قبل إلى تطور المهارات عند الحفوة والمعماريين والمبنيين في مصر الفرعونية، وقد كشف المقاب عن بناء يعود إلى زمن الأسرة الأولى؛ لكن الإنجازات المعمارية الضخمة على مقياس كبير جاءت مجأة على نحو ما جاء توحيد مصر السياسي وخلق الكتابة الهيروغليفية من قبله. وقد بني أقدم هرم حجري في مقبرة للملك زوسر (نحو ٢٦٦٨-٢٦٤٧ ق.م.) على يد وزيره امحوتب. وقد كان هذا تجرئة فقط. فقد قطعت الحجارة على قياس الأحجار، وجمعت بعضها إلى بعضها الآخر على نحو ما كان يجمع الحجر. وبفضل ذلك فقد كان هناك أكثر من تغيير واحد في المخططة أثناء العمل. والأثر الطموح الذي بني كان أكبر من المحاولات الأولى المتواضعة التي أدخلت في حساب صنعها.

إن امحوتب لم يذكره الأحفاد فحسب، بل قد نال احترامهم، وحتى وصل إلى حد التأليه. وقد كان الرجل حرماً بهذا الاحترام الدائم، ذلك لأنه، في حقيقة الأمر، كان أب المعمار الحجري الضخم في مصر. فبعد مدة لم تتجاوز نصف القرن إلا قليلاً، كان الملك سنوفرو (نحو ٢٦١٣-٢٥٩٠ ق.م.)، وهو الذي أنشأ الأسرة الرابعة، بني حرماً (أو لعله بني هرمين) من الحجارة الكبيرة في دهشوره لم تَلْ ذلك بسرعة مذهلة إن بني كومبسى (خوفو نحو ٢٥٨٩-٢٥٦٧ ق.م.) هرم المجيزة الأكبر، وكفرون (خفرع نحو ٢٥٥٨-٢٥٣٤ ق.م.) الهرم الثاني في المجيزة ثم مكيرينوس (منكوره) الهرم الثالث في المجيزة.

وإذا دهر الحفر تماماً مع فن المعمار. فقد وافقت براعة البناء في الحجر لتشييد هذه الأبنية الضخمة مهارة الحفار في الحجر لصنع التماثيل لتخليد الصفات المسمرة للشخصية. فالتماثيل الرائعة التي تمثل خوفو وخفرع لا تزال حية بعد ما مرت خمسة وأربعون قرناً على الحياة الزائلة التي عاشها جسامها. فالتقاطيع، كما أظهرها النحات، جليدة. ويبدو هؤلاء المراعنة وكثرتهم كانوا يتصرفون بسلطانهم القوي دون أي جهد، على نحو يتناسب مع تصرف الآلهة التي كانوا يدعون أنهم هي ومع ذلك فإن المرعون من المملكة القديمة قد يكون إنساناً وقيماً. فقد أمر منكوره (نحو ٢٥٢٣-٢٤٩٦ ق.م.) بأن يحث تماثيل زوجته قرب تمثاله، وكان ذراع كل منهما يلتف حول خصر الآخر ومن الواضح أنه حتى العلاقة بين الفرعون وزوجه كانت علاقة حب وتقدير متبادلين،

والإنسانية في هذه العلاقة تبدو أكثر وضوحاً في التماثيل التي تعود إلى أيام المملكة القديمة للرجال وزوجاتهم، حتى من غير فئة الفرعة، حيث كانوا يجلسون جنباً إلى جنب في الوصع نفسه وهو وضع الضم المتبادل.

وهذا التمثيل الثلاثي الأبعاد للأزواج هو واحد من أمانات الفن في المملكة القديمة. ويوحى إلينا هذا في الزواج، في ذلك العهد من لتاريخ المصري، كان مؤسسة ترضي الحاجات العاطفية للشريكين. فإذا صحح هذا فقد كان مؤسسة ثابتة، ولعل ثباتها كان أحد العوامل التي دعمت ثبات المملكة القديمة ذاتها.

ومع ذلك فحتى المملكة القديمة المصرية كانت عرضة للموت، وقد تعرضت، في مساق تاريخها الطويل، إلى الإجهاد والتوتر. ففي نصف الألف الأول من تاريخها، كانت مركزية الحكومة تزداد باضطراب، كما كلاً تركيز السلطات بيد الفرعون بيزابيد أيضاً. وقد كانت نخن - نخب، موطن موحد في مصر الأصليين، قرية بشكل مزيج من أقصى أطراف مصر العليا. وبعد توحيد التاجين، نقلت العاصمة مع مجرى النهر، أولاً إلى تبنيس (على مسافة قصيرة من أيلدوس) ثم إلى ممفيس، وهي مدينة جديدة، تقع شمالي الدلتا، وقد كانت أكثر المواقع ملائمة كعاصمة للمملكة المتحدة. وبلغ استبداد الملكية الفرعونية المطلق غايته في زمن الأسرة الرابعة (نحو ٢٦١٣ - ٢٤٩٥ ق. م.)، إلا أن الجور الذي يضيفه خوفو على هذه السلطة المطلقة المفومة قد يكون فيه شيء من الخداع، إذ أن استبداده لم يمر دون تحد في واقع الأمر. ذلك بأن ثأليه حامل التاج المزودج لم يكن الشكل الوحيد للتعبير عن توحيد مصر على المستوى الديني. فقد كان على الفرعون أن يأخذ في الحسبان جمهرة من الآلهة اللاشريعة التي كانت تعبد في مصر قبل أن يؤله الفرعون الأول.

إن توحيد مصر السياسي أثار مسائل عدة حول الآلهة القديمة التي كانت تمثل قوى الطبيعة المحلية في كل مكان، أما وقد أصبحت المزارات المحلية لهذه الآلهة تقع ضمن إطار واحد، فإن الآلهة نفسها أصبحت الآن أعضاء في جمعية مقدسة واحدة. مماذا كانت العلاقات النسبية والطبقية في الوظائف بينها؟ قد تم تنظيم هذه العلاقات في ترتيب لاهوتي وضع في هليوبوليس، مدينة إله الشمس رع. ويبدو أن هذا التنظيم الهليوبوليسي للألوهية، بأنها مجمع تسعة آلهة لا بشرية برئاسة رع، متضارب مع معتقد الأسرة الرابعة القائل بأن الألوهية كانت تجسداً في الفرعون.

والانتقال من الأسرة الرابعة إلى الأسرة الخامسة (نحو ٢٤٩٤ - ٢٣٤٦ ق.م) لا يظهر انقطاعاً في سلسلة النسب، بل تحولاً في اللاهوت الفرعوني الذي كان، في الواقع، تازلاً من قبل الحكومة في ممفيس لكهنتوت هليوبوليس. وهذا التبدل في ميران القوى يتمكس من قبل المعمار الفرعوني. ففراغت الأسرتين الخامسة والسادسة لم يحاولوا أن ينامسوا أسلافهم في بناء أهرام ضخمة، بل بدلاً من ذلك أقاموا الهياكل تكرماً للمعبود الأعلى رتبة في المجموع الهليوبوليسي، أي إله الشمس رع. لقد كان الفرعون دوماً ينظر إليه على أنه أحد الآلهة، لكنه بدأ من قيام الأسرة الخامسة أصبحت الوهنة تستمد من كونه ابناً لرع، ولم تكن أم الفرعون - المرأة تلد نتيجة لفعل جنسي مع أبيه - الرجل، بل نتيجة فعل غير طبيعي يقوم به الآله.

كانت الأسرة الرابعة قد وصلت بالمدنية المصرية الفرعونية إلى القمة في إنجازاتها في كل الميادين، والأسرة الخامسة كانت تعقلاً لتحول لاهوتي، وشهدت الأسرة السادسة (نحو ٢٣٤٥ - ٢١٨١ ق.م) انحطاط انتهى بالسقوط. وببني الثاني، الذي لم يكن آخر فرعون من الأسرة السادسة وحسب بل آخر فرعون في المملكة القديمة ذاتها، حكم مدة أطول من أي ملك حفظت لنا للقبور سني حكمه. فقد تولى العرش حوالي أربع وتسعين سنة (نحو ٢٢٧٨ - ٢١٨٤ ق.م). تولى العرش طفلاً، وعاش ليرى بأمر عينه التفسخ يتسارع في الدولة التي ضمهها لفرعون الأول من الأسرة الأولى بعضها إلى البعض الآخر.

ويمكن تبين ثلاثة أسباب لانحطاط المملكة القديمة وسقوطها نهائياً. فالسبب السياسي المباشر هو التبدل التدريجي في موظفي التاج. فبعدما كانوا موظفون محلين وادعويين أصبحوا أمراء يتولون مناصبهم على أساس حق وراثي، وليس بتعيين يمكن إلغاؤه. وقد استولى هؤلاء على فرق الجيش المصرية الوطنية، وعجزت الخطوة التي اتخذتها الحكومة الفرعونية ضد ذلك - أي استخدام المرتزقة النوبيين - عن إنقاذ سلطة الفرعون العسكرية العليا. والسبب الثاني لانحطاط المملكة القديمة وسقوطها كان العبء المالي المتراكم بسبب ما شاده الفرعون من المدفن والهياكل.

ولم يشأ العبء بسبب بناء هذه الآثار بالذات. فقد كانت حقول مصر تنتج فائضاً، والبلد، بحمله السماد، كان يحول دون القيام بالأعمال الزراعية في فترة الفيضان السري. فالفائض من متزوج السنة الحالية، جنباً إلى جنب مع العطلة السنوية الإجبارية

من العمل في الزراعة، كان يتيح للقوى البشرية الموسمية ان تتحرر من العمل بينما كانت تطعم كفاية لتقوم ببناء هذه الآثار الكبيرة؛ ولكن الذي فرض هذا العبء المتراكم كان وقف الأرض واسترجعها للمحافظة، باستمراره على انطقوس التي كان يتوقف عليها خلود كل من الزراعة المخلدين. ومعنى هذا، من الناحية العملية هو الانعاق الذي ليس له مردود اقتصادي على جميع من الكهنة كان يتزايد باستمرار. وهؤلاء كانوا، على عكس العمال الموسميون الذين يقومون ببناء هذه الآثار، طفيليين يعيشون على حساب إنتاجية مصر.

والسبب الثالث الذي انتهى بالملكية القديمة الى السقوط هو الشك المتزايد، ومن ثم التملص الذي عم عامة الشعب. فان التباين الطبقي بين الغالبية التي لا امتيازات لها و المؤسسة صاحبة الامتيازات في عصر الملكية القديمة كان أكبر مما كان عليه الحال حتى في عصر المدن - الدول المتخصرة في سومر، وفي الامبراطورية السرجونية التي عبقها. فتجنبد العمال لتشبيد الأعمال الفرعونية الضخمة ما كان ليحقق لو أنه كان قسراً كلياً. ولنا أن نخمن بأن العمال المجددين كانوا يعتقدون أنهم كانوا يقومون بالعمل في سبيل شيء هو أكبر أهمية وقمة، من الناحية الاجتماعية والدينية، من مجرد تعظيم شخصي للفرعون. ولنا أن نخمن أيضاً أنهم لما قسموا هذا الإيمان المفترض كان رد الفعل العاطفي عندهم على مقياس الجبال التي كان هذا الإيمان قادراً على زحزحتها.

استقينا معلوماتنا عن تفكك المجتمع المصري الفرعوني الذي تلا وفاة الفرعون الهوري بهبي الثاني من أعمال أدبية يبدو أنها صفت في عصر الملكية المتوسطة (نحو ٢٠٤٠ - ١٧٣٠ ق. م.). وإذا كان هذا هو في الواقع تاريخ الدليل الذي بين أيدينا، فهذا الدليل لم يكن معاصراً لتلك الأحداث، ومع ذلك فإنه يترك في نفوسنا الانطباع بأنه يضع بين أيدينا صورة صادقة للاضطرابات الاجتماعية التي بصورها لنا عبر الماضي. ويبدو لنا ان هذه الفترة المتعترضة الأولى في تاريخ مصر الفرعونية شهدت ثورة اجتماعية لم يقض عليها في المهد، على نحو ما تم ثورة لوروكاغيا المجهضة في لاغاش. مصورة الثورة المصرية التي تركت طابعها على ذاكرة الشعب كانت انطباعاً يمثل ثورة عارمة احتلت فيها الموزين وانتقلت الأدوار. فقد نهب الفقراء الأغنياء؛ وأصبح السادة السابقون عبيداً لعبيدهم السابقين، وتخلي القوم عن خدمة الطقوس الجنائزية الفرعونية القديمة. فالطقوس والقرعنة والاهرام والهياكل وكل ما عرخته للملكة القديمة من الأجهزة

الفرعونية النفيلة المبيد شوهت سمعته وسخر منه ورفض. وهذه الثورة هي أقدم ثورة اجتماعية شاملة مملكت قيودا عنها.

ثمة ما يشير إلى أن الأسرة السادسة الفرعونية قد قضى عليها هجوم بربري من الجهة الشمالية الشرقية، كما قضى هجوم بربري آخر على الأسرة السرجونية في عالم سومر وأكد قبل ذلك بنصف قرن! لكن الدليل الظاهر على هجوم بربري على مصر خلال الفترة المتروكة الأولى ليس حاسماً، على عكس الدليل الذي لا يتسرب إليه الشك في أن الفوتيان احتلوا سومر وأكد. وعلى كل فليس ثمة ريب في أن المتحكمين المحليين (حكام الولايات) مجحوا في أن يتحولوا من كونهم موظفين ووكلاء يخدمون الفرعون، إلى أمراء سادة في الواقع. والدليل على هذا ليس منتزعا من أخبار عبر الماضي، ذلك بأن فراعنة الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ ق.م.)، الذين جاوزوا بعد توحيد مصر السياسي ثانية في مطلع عصر المملكة الوسطى، وجدوا أنه يترتب عليهم أن يخطوا بحذر وبكثير من البطء لتحقيق هدفهم في إعادة حكم المقاطعات التي وضعهم السابق، بعدما كان هؤلاء مسيطرين في الواقع لمدة لا تقل عن مئتي سنة.

١٠- الأفق العالمي نحو ٢٥٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م.

إن سقوط الامبراطورية السرجونية في سومر وأكد وسقوط الملكية القديمة المصرية الفرعونية يبدو أقل مدعاةً للدهشة من إقامة نظام سياسي موحد في كل من البلدين بعد فترة فراغ إداري دامت ما يزيد عن القرن في سومر (نحو ٢٢٣٠ - ٢١٢٠ ق.م.)، ونحو قرن ونصف القرن في مصر (نحو ٢١٨١ - ٢٠٤٠ ق.م.). وعودة العاقبة إليهما كان أمراً واقعاً، ذلك بأن سقوط النظام السياسي الموحد في كليهما، رافقه تفكك ظاهري في المدينة. والذي تلا ذلك دل على أن هاتين المدينتين الأقليميتين كانتا أقوى وأثقل على التكيف مما بدا عليهما لما نزل بهما الانهيار الأول. وبعد عودة الحياة إليهما عاشت المدينة السومرية الأكديّة ٢٢٠٠ سنة، والمدينة المصرية الفرعونية استمرت الزمن نفسه، بل وأطول منه. وعلى كلّ، عندما تمت لهما العودة الجديدة، لم يكتب لهما أن تكونا المدينتين الوحيدتين الأقليميتين في الأوكومون. فقد ظهر غيرهما إلى جانبهما. وكان قد تم ظهور مدينة إقليمية جديدة في آسيا الصغرى وقبرص، بسبب التوسع التجاري للمجتمع السومري الأكدي إلى الجهة الشمالية الغربية، والمدينة الجديدة التي ظهرت معاصرة لها في كريت قد تكون نقلت الأبحاء لا من سومر وأكد فحسب، بل من مصر أيضاً.

والمدينة الجديدة في آسيا الصغرى كانت تدور في فلك المدينة السومرية الأكديّة بسبب أنها نقلت عنها عناصر هامة بما في ذلك لكتابة وبعض الآلهة. والكتابة التي نقلت لم تستعمل لكتابة اللغة الأكديّة فحسب، بل لتدوين اللغات الوطنية كذلك، ومجمع الآلهة الوطني حافظ على كيانه إلى جانب الآلهة الأكديّة المستوردة.

إن حرر البحر المتوسط والبرّ القارّي كانت قد إستوطنت في العصر الحجري الحديث.

وقد كان ثمة تفاوت في الزمن بالنسبة إلى استيطان الجزر. ولكن ما لبث الناس أن حذفوا الملاحة البحرية حتى أصبحت الجزر المشرقية أماكن ملائمة للاستيطان وعلى سبيل المثال فإن ساحل النحاس في قبرص أصبحت عنصراً اقتصادياً هاماً لمصر وسومر، كما كانت العبابات في جبال لبنان وأمانوس عنصراً هاماً في اقتصاد وادي دجلة والفرات الأدنى وولدي مصر الأدنى في الوقت الذي كانت فيه هذه المناطق تنتقل من العصر الحجري الحديث إلى العصر الحثلي، ثم إلى العصر النحاسي والبرونزي. والمدن التي ظهرت هي قبرص وكريت وجزر الأرخيل خلال النصف الثاني من الألف الثالث ق.م. جاءها الإبحار ولا ريب، من سومر ومصر. إلا أن الإصالة في مدن الجزر كانت تتناسب مع المسافة التي تفصلها عن المناطق التي جاءها منها الحافز. فبينما نرى أن دين الصغرى القابضة الحضاري لسومر وأكد واضح، نجد أن دين المدينة الكريتية لسومر وأكد ولحمز أقل بروزاً من التميز الذي يبدو في مظاهر تلك المدينة نفسها. وقد سقى علماء الآثار المحدثون، وهم العلماء الذين أخرجوا المدينة الكريتية إلى النور، هذه المدينة «المنيوية»، وهم يشيرون بذلك إلى الملك الكريتي الأسطوري مينوس، ملك البحار. وقد خلقت المدينة المنيوية فناً يسم بالطبيعة، وهو فن لم يكن له نظير معاصر إلا في مدينة حوض السند، وهي المنطقة الجميلة جغرافياً عن كريت. وعنت المدينة المنيوية أيضاً باستثمار فن الملاحة البحرية التي كانت مدينة له بوجودها.

كان السبع المادة الخام التي لا مثيل لها لصنع نصل حاد، وذلك في العصر السابق لاستعمال المعدن. والسبع مادة زجاجية ناتجة عن الصخر البركاني. والسبع نادر ندرة القصدير الذي لا غنى عنه لتحويل النحاس إلى برونز، وثمة منسبات منه في جزيرة ميلوس، القريبة من كل من كريت وجزر الأرخيل، كما توجد ترسبات منه أيضاً في جزر ليباري البركانية الواقعة في البحر القبراني، في الجهة البعيدة من مضيق مسينا. وبالنسبة إلى الفلاحين القادمين من البحر الأبيض، وملاحو جزر الأرخيل الذين غلبهم على أمرهم منافسهم ملاحو البحر الأبيض بالنسبة إلى السيطرة على السبع الموجود في ميلوس - كانوا، على ما يبدو، الرواد في ما يتعلق باكتشاف السبع في جزر ليباري واستغلاله. وقد لحق للفلاحون المنيويون جيرانهم ملاحو جزر الأرخيل إلى المياه العربية، وهناك تاجروا على مقياس أوسع، وكان لديهم سلع أكثر تنوعاً. وهكذا فلم تدخل شواطئ، بلاد اليونان فحسب، بل دخلت شواطئ إيطاليا الجنوبية الغربية وصقلية أيضاً

مجال المدينة المعروفة إلى ذلك الوقت، مع أن كريت كانت لا تزال أبعد نقطة عنها حيث كانت مدينة اقلية مزدهرة قائمة في ذلك حين.

توجد الى الشرق من سومر، حيث يوجد الغرين الذي رسمه دجلة والفرات، ترسيبات عربية أصغر من تلك التي خلقتها أنهار كلرخاه ودين وقارون. وهنا في عيلام، قامت مدينة يمكن ان تصنف على أنها تابعة للمدينة السومرية الأكديّة، أو أنها حقيقة تقع في منطقة نهرها. وكان العيلاميون قد أوجدوا، كما أوجد المصريون من قبل، كتابة خاصة بهم، وهي التي كانت تشبه الكتابة السومرية في بنائها لكنها كانت تتألف من أشكال اعترضت مستقلة، وكانت ذات أسلوب مميز لها. إلا أن العيلاميين اختلفوا أنفسهم، خلال النصف الثاني من الألف الثالث ق.م. باستعمال الكتابة السومرية لفهمهم، على ما نحو ما فعل الأكديون في بادئ الأمر. ولما ضمت عيلام إلى إمبراطورية سومر وأكد، بعد تأسيسها ثانية في أيام أسرة اور الثالثة، نحو سنة ٢١١٣ ق.م.، قيس العيلاميون حتى اللغة الأكديّة - وكان هذا في المعاملات التجارية كما كان في المعاملات السياسية. وكان العيلاميون، في القرن الثالث عشر ق.م.، قد استعادوا استقلالهم اللغوي، لكنهم لم يعودوا الى استعمال كتابتهم الأصلية التي لم تكن سومرية أصلاً.

والمدينة العيلامية - أو المنطقة العيلامية التي كانت تقع في حيز نفوذ المدينة السومرية الأكديّة - كانت على كل حال مجتمعة صمياً. ومع ذلك فإن العيلاميين اعتدوا على العالم السومري - الأكدي سياسياً في الألف الثاني ق.م. واستطاعوا الحفاظ على شخصيتهم المميزة المدة الكافية للتمكن للفهم، التي عكّست شتعل الكتابة السومرية، كي تصبح واحدة من اللغات الرسمية في الإمبراطورية الفارسية الأولى.

لم يكن ثمة دليل اتري، حتى إلى قبل مدة قصيرة، على وجود مفتحة تعود الى الألف الثالث ق.م. في المنطقة الواقعة بين عيلام وحوض السند. أما الآن فتنة مدينة - تعود في تاريخها الى الفترة الواقعة بين ٢٩٠٠ و ١٩٠٠، على ما أظهرته الحفريات العلمية - يعمل فيها المنقبون في شرهيسوختا وهو مكان في سجنان الإيرانية، يقع تماماً داخل إيران على الحدود الإيرانية الأفغانية، التي كانت (المحدود) في وقت من الأوقات تتاحم أسفل مجرى نهر هلمند قبل أن يمتد مجراه إلى المجرى الحالي، وكان السكان يعرفون الزراعة وتربية الحيوان والتعدين (النحاس) وصنع الفخار والحياكة والصباغة. ويعزو المنقبون أن مدينة شرهيسوختا كانت مستقلة عن المدينة السومرية الأكديّة، إلا أنه هناك دلالة على

أنها كانت تتلعب مع سومر، وأيضاً مع المناطق التي تكون اليوم أفغانستان وتركستان. وسقط في ظلام حول هذه القضية إلى أن يتقدم التنقيب هناك وتنتشر تقارير أوفى. فمن لا يعرف أصول مدينة شرجونغا ولا خصائصها فيما إذا كان لها أي خصائص تميزها.

وقد يلقي التنقيب في شرجونغا ضوءاً على ظهور المدينة الكبرى التي قامت في حوض السند في النصف الثاني للألف لثالث ق.م. وهو الوقت الذي تمثلت فيه المدينة السومرية الأكاديمية المدنية الصالحة، وقامت فيه مدينة في أسية الصخرى كانت تدور في تلك المدينة السومرية الأكاديمية.

إن المنطقة التي كشفت فيها الآثار المادية للمدينة السندية تبلغ المسافة بينها وبين سومر، عبر البر، ضعف المسافة بين هذه الأخيرة وبين أي من مصر أو أسية الصخرى؛ فليس من المستغرب إذن أنه لم يتم بعد دليل على أن صانعي المدينة السندية استوحوا أي تأثير مثبتي من سومر. ويمتد أصل المدينة السندية مبهماً إلى أن تحمل رموز كتابتها وتفسر هذه الكتابة.

على أن المدينة الإقليمية في حوض السند، مثل مدينة مجرى النيل الأدنى، تبدو وكأنها قد ظهرت فجأة وأنها ظهرت ثمة التمس. وإذا كانت المدينة السومرية قد امتد شعاعها في اتجاه جنوبي شرقي، بطريق البحر، كما امتد شمالاً في غرب براء، فلا يمكننا أن نستبعد إمكان ولادة المدينة السندية بمحافظ ثقافي من سومر، إذا أخذنا في الاعتبار أن الطريق البحري من شمال الخليج العربي إلى ذلك السند هو أقل من نصف المسافة البحرية بين نقطة الانبعاث نفسها وساحل البحر الأحمر في مصر العليا. يضاف إلى ذلك أننا نعرف أن مدينة السند كان لها اتصال مع المدينة السومرية، ولو أن الأولى لم تخلق إلا بعد أصلاً من الثانية، ذلك بأن اهتماماً متقوًش عليها كتابة سندية قد عثر عليها في سومر في طبقات متأخرة أقدم من الأسرة السرجونية. وهذا دليل على أن المدينة السندية كانت قد أصبحت مرآة قائماً في وقت مبكر يعود إلى سنة ٢٥٠٠ ق.م.

نعرف من تاريخ وجود المدينة السندية في حوض السند أن اللغة التي تعبر عنها الكتابة التي لم تحمل رموزها بعد ليست مستكربة أولية لأن المهاجمين الذين حملوا هذه اللغة الهندية - الأوروبية إلى شبه القارة الهندية لم يصلوا تلك المنطقة إلا بعد ما لا يقل عن ألف سنة بعد سنة ٢٥٠٠ ق.م. لكننا لا نعرف فيما إذا كانت لغة نقوش المدينة

السندية هي واحدة من أسرة اللغات الدرافيدية، التي سبقت السنسكريتية الأولى، أو أنها لغة من لغات الأسرة الأسترية - الآسيوية، التي يبدو أنها وصلت شبه القارة قبل كل من اللغة السنسكريتية الأولى أو اللغة الدرافيدية.

وكتابة المدينة السندية لم تكن الصيغة المميزة الوحيدة لهذه المدينة. إن الفن المطور فيها كان طبعاً إذا قورن بالفن التقليدي في سومر وأكد أو في مصره على ما أظهرته منسحات الفن السندي التي استخرجت من بين الأنقاض. وفن العمارة في المدينة الهندية، سواء في ذلك ما هو عام منه وما هو يتي، يترك في النفس الانطباع أنه عمل مجتمع ذي عقلية نفعية. فالتمديدات المائية والمجاري والحمامات والأحواض في الموائى ذات مستوى شبيه بمستوى ما كان في الإمبراطورية الرومانية، بل في الواقع نكاد نحصل المستوى الغربي الحديث. والزراعة المروية التي كانت أساس اقتصاد المدينة السندية لم تكن، بطبيعة الحال، خاصة بها؛ كما أن معرفة تقنية الغزل والنسيج والصباغة أو استعمال دواليب الخراف لم تكن خاصة بها كذلك. وعلى كل فإن شجيرة القطن، التي كانت تزود سكان السند بالمادة اللازمة للمنسوجات الخفيفة، قد يكون تدجينها ثم على أيدي هؤلاء القوم بشكل مستقل، ولعلهم كانوا هم أيضاً المدججين الأصليين للبقري ذي السنام (الديباني أو الزبو).

رثمة مظهر آخر يميز المدينة السندية عن نظيرتها في حوض دجلة والفرات وحوض النيل الأدنى وهو اتساع رقعتها الجغرافية. فالمدينتان السنديتان الرئيسيتان اللتان اكتشفتا حتى الآن هما موهنجودارو في السند وهرابا في البنجاب، والمسافة بينهما ٦٤٠ كيلومتراً، وهذه المسافة لا تقل عن المسافة بين أسوان والقاهرة. ومجال المدينة السندية لم يقصر على حوض السند بالذات. فقد امتدت إلى بلوستان شرقاً وإلى غوجرات غرباً. أما في الشمال فقد شملت على الأقل المجاري العليا لحوض جومنا - غنجر. وأعمال التنقيب الأثري المستمرة في الاتجاه الشرقي، تكشف لنا عن بقايا متزايدة للمدينة السندية، ولم تمكن بعد من التأكد من حدودها الشرقية.

وهكذا يبين ما كان عدد اللغويات الإقليمية يتزايد، كانت الزراعة وتربية الحيوانات تنتشر في العالم القديم من الأيوكمين من موطنها الأصلي في جنوب غرب آسيا، إلى ما وراء حدود هذه المدينتان الإقليميتين التي كانت قائمة في سنة ٢٥٠٠ ق.م. ولعل الزراعة كانت، على أي حال، معروفة في أميركا الوسطى في ذلك الوقت أيضاً، إلا أنها، على

وجه التأكيد لم تنتشر هناك من العالم القديم، بل اخترعت في العالم الجديد بطريقة مستقلة والتفكير التي اعطيت لأقدم النماذج من الفترة التي وجدت في هذه المنطقة تتراوح بين النصف الأول من الألف الرابع وستة ٢٥٠٠ ق.م. وإذا كانت عرائس الذرة التي عثر عليها في ترسبات كهف كوكسكاتلان، والتي يرجع تاريخها إلى نحو سنة ٤٠٠٠ ق.م. على ما ذكر قبل، هي برية وليست مدجنة ولو قليلا، فمعنى هذا أن البنية البرية التي ولدت منها الفترة المدجنة أصبحت معروفة. وعلى كل فإن الجماعات القروية التي كانت تعتمد على الزراعة في سب حاجتها لم تكن قد ظهرت سنة ٢٠٠٠ ق.م. في الاميركتين بينما نجد أن حضارة العصر الحجري مع ما كان عندها من نباتات وحيوانات مدجنة، كانت قد انتشرت في العالم القديم من جنوب غرب آسيا غربا عبر الشواطئ الفارسية والمحورية في حوض البحر المتوسط إلى المناطق الأفريقية والأوروبية الواقعة خلف البحر المتوسط. وقد كانت طريقة الحياة هذه قد عثت سنة ٢٥٠٠ ق.م. غربا حتى الشواطئ الشرقية لشمال المحيط الأطلسي، بما في ذلك الجزر الواقعة عبره وجنوب أسرج، التي كانت، في الواقع واحدة من هذه الجزر، إذ أن الوصول إليها لم يكن ممكناً إلا عبر الماء الخاضع.

حافة شمال المحيط الأطلسي من العالم القديم في الأويكومين يكاد بعدها عن جنوب غرب آسيا يكون ضعف بعد هذه المنطقة الأخيرة عن حوض السند؛ أما الأجزاء الدنيا من حوض النهر الأصفر في الصين فبعدها عن جنوب آسيا أكبر من بعد هذه المنطقة عن حافة شمال المحيط الأطلسي. وأقدم حضارة من العصر الحجري الحديث التي عثر على آثار لها في حوض النهر الأصفر هي حضارة يانغ - شاو. وقد سميت كذلك نسبة إلى قرية في هوبان الحالية وهي القرية التي اُعتبرت موقعا نموذجيا لتلك الحضارة. لكن يبدو أن هذه الحضارة قد بدأت قبل ذلك، واستمرت وقتا أطول من ذلك، في ما يسمى اليوم كانسو، وهي أقصى ولاية في شمال غرب الصين الأصلية. والقضائر الملون الخاص بهذه الحضارة وهو مظهرها المميز لها، يشبه فخار تروبولي الملون من حضارة العصر الحجري الحديث التي كانت قد قامت في لوكرايا لقرية، قبل انقضاء الألف الثالث ق.م.. وقد لا يكون هذا التشبه مجرد مصادفة، فقد يكون دليلا على اتصال تاريخي. فكانسو واورايا تقعان على الطرفين الأبعدين للسهوب الأوراسية - والسهوب، كالبهر، سبيل للتواصل. فقد يكون رواد من أهل العصر الحجري الحديث وصلوا شطآن السهوب

الأوراسية الجنوبية في منطقة عبر قزوين، ولعلهم ساروا عبر السهوب شمالاً في غرب إلى أوكرانيا، وشمالاً في شرق إلى كاتسو في الوقت نفسه. وقد تكون حضارة العصر الحجريّ اليانغ شاوية قد قامت هناك، أي في شمال غرب ما يسمى الصين الآن، في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م.

وهكذا فقد يكون التوصل الذي تقوم به السهوب الأوراسية قد سهل انتشار الزراعة وتربية المواشي من جنوب غرب آسيا إلى الصين في العصر الحجريّ الحديث، وفي العصر الحلكوليثي الذي تلاه سهلت السهوب بلا ريب انتشار لغات الأسرة الهندية الأوروبية. واللغات الهندية الأوروبية التي قد تكون نشأت أصلاً في شرق أوروبا، على حافة السهوب الأوراسية، كان انتشارها أوسع من انتشار اللغات السامية. فاللغات الهندية الأوروبية يتكلم بها اليوم من البنغال وسيبيريا الشرقية في أقصى الشرق وحتى شواطئ المحيط الهادي في الأمريكتين في أقصى الغرب، وكذلك في أستراليا ونيوزيلندا، وبعيداً في إفريقيا الجنوبية، وإن كان المتكلمون بها هنا هم أقلية ضئيلة من السكان. وليس من المصادفة أن المتكلمين باللغات الهندية الأوروبية، مثل الناطقين باللغات السامية، خرجوا من السهوب أو عبرها في المرحلة الأولى من هجراتهم. فالوصول الموجود في السهوب كان القوة الدافعة الأولى لهذا الانتشار الواسع عبر العادي للغات هاتين الأسرتين.

وأقدم القيود الوثائقية لأي من اللغات الهندية الأوروبية هي الوثائق الحية. وقد كانت مملكة خطي (وهو الاسم العبري للحثيين) قائمة في شرق آسيا الصغرى، وكانت تدون ولاتها قبل نهاية القرن السابع حشر ق.م.، بلغة حكمائها الهندية الأوروبية، وبكتابة مقتبسة عن الكتابة السومرية. ويقدر بأن اللغة الهندية الأوروبية، التي كانت قد توطدت في خطي في ذلك الوقت، ولغة لوفيان الهندية الأوروبية التي هي وثيقة الصلة بالأولى، والتي وطدت نفسها في غرب آسيا الصغرى، قد حصلها مهاجرون جاؤوا في وقت مبكر نحو سنة ٢٣٠٠ ق.م.

وثمة لغة هندية أوروبية أخرى، هي اليونانية، التي يقدر دخولها إلى بلاد اليونان القارية نحو سنة ١٩٠٠ ق.م.. وقد ظهر، حوالي هذا الوقت نوع مميز من العمار (مسمى خطأ الحزب الميثاني) في بلاد اليونان القارية وفي منطقة طروادة. ويوجد في بلاد اليونان دليلاً على تدمير معاصر لذلك، وقد كان قوياً بحيث أنه أدى إلى نكسة في الحضارة الإقليمية. وإذا نحن وضعنا هذه التفت من الدلائل الأثرية، جنباً إلى جنبه، فقد يرى في

ذلك وصول مهاجرين برابرة الى بلاد اليونان. وإذا صح الدليل، فمعنى ذلك أن هؤلاء المهاجرين هم الذين حملوا اللغة اليونانية معهم، ذلك بأن حل رموز الوثائق المدونة بالكتابة « المستقيمة ب » يدل على أن اللغة اليونانية كانت تستعمل في بلاد اليونان قبل أن تدهمها الموجة الثالثة من الهجمات البربرية، التي لم تبدأ إلا نحو سنة ١٢٠٠ ق.م.

واللغة اليونانية ولغة لوفيان - الخثية كلتاهما لعتان هنديتان أوروبيةتان من اللغة المعروفة باسم « كنتم »، إذ أن الصوت « ك » الأصلي فيها استمر بنفسه، بدلاً من أن يتقلب، في بعض حالات الكلام الصوتية الى صوت « س »، كما حدث في لغة اللغات المعروفة باسم « سام »، بسبب هذا الانحراف الجديد. واللغات من لغة « كنتم » موجودة في أقصى طرفي العالم الناطق باللغات الهندية الأوروبية. واللغات الهندية الأوروبية التي وطدت نفسها في أوروبا الغربية - الإيطالية والقلنية والتهوتونية - هي لغات « كنتمية » مثل اليونانية ومثل اللوفيان - الخثية. إلا أن لغة صلبة أوروبية « كنتمية » أخرى كان يتكلمها التوخاروي (الذين يسمون بوه - نشي باللغة الصينية)، وهذا الشعب ظل حتى القرن الثاني ق.م. يقطن مكاناً قصياً الى الشرق، في جزء من السهوب الأوراسية الذي يجاور الآن الطرف الغربي لصور الصين الكبير.

ليس لدينا أية معلومات عن الجهة التي وصل منها هؤلاء اللغويون، الذين حملوا معهم اللغتين الهنديتين الأوروبيةتين - الخثية واللوفانية، إلى آسيا الصغرى. يمكن أن يكونوا قد خرجوا من السهوب عند طرفها الغربي ووصلوا آسيا الصغرى بطريق جنوب أوروبا ومن ثم عبر المضائق التي تصل البحر الأسود بالبحر الأبيض. هذا الطريق الغربي هو الطريق الأنسب. ومن المؤكد أن اللغة اليونانية نقلت من السهوب إلى بلاد اليونان عبر طريق يسير إلى الغرب من البحر الأسود. وفي المقابل، وهو ممكن ولو أنه أقل احتمالاً، قد يكون الناطقون بالخثية واللوفانية، اللغتين الهنديتين الأوروبيةتين، خرجوا من السهوب عند شاطئها الجنوبي، حيث تقع تركستان اليوم ودخلوا آسيا الصغرى من الشرق، بعد ما اجتازوا شمال إيران.

وقد افترض أيضاً أن الخثيين على أي حال، إن لم يكن اللوفياتيون أيضاً، من اليهود الأوروبيين قد وصلوا من السهوب بامتيازهم سلسلة جبال القفقاس. هذا الفرص هو غير واقعي. نفع أن طريقاً ما عبر القفقاس قد يكون قصيراً نسبياً، فإن القفقاس بالذات تكون حاجزاً لا يقهر بالنسبة إلى شعب مهاجر. وقد نجحت الجيوش أحياناً في شق طريقها

بالقوة بين الطرف الجنوبي الشرقي للقفقاس وبحر قزوين، ومع ذلك علم بسجح شعب هندي أوروبي في الاستقرار في القفقاس، أو حتى عند أقدام الجبال، باستثناء الآلان الذين أعطوا اسمهم لـ بحر داري آل عبر منتصف السلسلة القفقاسية. وفي يوم الناس هذا تقطع جبال القفقاس كلها باستمرار من شاطئ بحر قزوين الغربي إلى الشاطئ الشرقي للبحر الأسود، شعوب تنطق بلغات غير اللغات الهندية لأوروبية. وهناك الآن شعوب تنطق بالتركية وأخرى تنطق بالهندية الأوروبية على جانبي سلسلة جبال القفقاس؛ لكن المنطقة القفقاسية، التي يتكلم سكانها لغات غير التركية وغير الهندية الأوروبية، لا تزال تعزل الشعوب الشمالية عن الجنوبية، أي الناطقة باللغة التركية وتتكلم باللغة الهندية الأوروبية، الواحد عن الآخر.

ما الذي دفع بالشعوب الهندية الأوروبية إلى الانطلاق من السهوب الأوراسية في سلسلة من الهجرات التي أدت في النهاية إلى لغات هذه الأسرة في أنحاء المعمور؟ إنه من المهم أن نسمي الصغرى هي المنطقة التي لد فيها أقدم دليل على استعمال لغة هندية أوروبية؛ إذ أن أقرب منطقة إلى السهوب الأوراسية التي كانت المدنية قد وطدت نفسها فيها، قبل نهاية الألف الثالث ق.م، هي آسيا الصغرى. والجزء الأخير من ذلك الألف بالذات هو الزمن الذي أخذت فيه الشعوب المتكلمة باللغة الهندية الأوروبية بالهجرة، على ما هو مفترض. ويبدو كما لو أن حبر المنتطيس الذي جذبهم هو الثراء النسبي لمدينة مجاورة، كان مجالها في تناول البرابرة لنهبه. لا شك في أن مدينة آسيا الصغرى انتشر تأثيرها خارج حدودها بالذات، وأن البرابرة الذين بهرهم برقى الحضارة التي كانت توفر على الإنتاج مما كان عندهم انجذبوا نحو هذه الثمرة الفاضحة، كما تنجذب الفراشة نحو لهيب الشمعة.

والقدر الذي تجلبه الفراشة على نفسها هو تشبه موثق للنقمة التي عُمل بالبرابرة الذين يهاجمون المجتمعات الثرية التي لا تملك القوة الحربية قصد احتلال جيرانهم البرابرة. نطمع البرابرة المهاجمين هو بمحد ذاته يهدم نفسه، ذلك بأن للثنين إذا لم تقض عليهم حجة معاكسة، كما قضى على الفورتان الذين فتحوا سومر وأكد، فإنهم يستمرون في الحياة كي يشاركوا الفنين هزموهم الفاقة التي أوقعوها بالهزومين. ومن سخيرة القدر أن هذه كانت النتيجة التي تلت فتح البرابرة لبلاد اليونان، وهم الذين يحتمل أن يكونوا قد ادخلوا إليها اللغة اليونانية نحو سنة ١٩٠٠ ق.م.

١١- أوروكومين العالم القديم نحو ٢١٤٠ - ١٧٢٠ ق.م.

كان البرابرة لغوتيان الذين هاجموا سومر وأكد قد نظفوا على السرجونيين الأكديين وحلوا محلهم. وقد كان من المنتظر أن يكون قادة الثورة الوطنية، التي أفضت الغوتيان أو طردتهم، بعد ما يزيد عن القرن قليلاً من السيطرة الغوتيانة (نحو ٢٢٣٠ - ٢١٢٠ ق.م.)، من الأكديين الذين كانوا ضحية الغوتيان. لكن في الواقع فإن محرر أكد، وسومر كذلك، لم يكن أكدياً بل سومرياً. لقد كان لوتوكيغال حاكم اورك (الوركاء حكم نحو ٢١٢٠ - ٢١١٣ ق.م.) لكن لم يكن لا لوتوكيغال ولا مدينه - الدولة لمرّة انتصاره، إذ أنّ الصولجان انتقل إلى مدينة - دولة سومرية أخرى هي أور. فإمبراطورية سومر وأكد التي أنشأها الفايح السومري لوفالزغيري، والتي كان قد انتزعها من يد لوفالزغيري سرجون الأكدي ملئت أعاد، أعاد بناءها الآن سومري آخر هو أور - نامو ملك أور (حكم نحو ٢١١٣ - ٢٠٩٦).

وس سبب أن سومر كانت مهد المدنية السومرية الأكديية وليس أكد، فقد كان من المنتظر أن تكون إمبراطورية سومرية أكديية، تتمركز حول مدينة - دولة سومرية، أقوى أساساً من الإمبراطورية الأكديية شبه البربرية التي حكمها السرجونيون. والواقع هو أنّ الإمبراطورية السومرية الأكديية التي أعاد بناءها أور - نامو، وأسرة أور الثالثة التي أنشأها بنفسه، دامت ما يزيد عن القرن قليلاً (نحو ٢١١٣ - ٢٠٠٦)؛ وفي خلال هذه الفترة من السيطرة السامية السومرية، تمكنت أكد من بسط لفتها على سومر، وأصبحت سومر ثنائية اللغة أولاً، ثم صارت تتكلم اللغة الأكديية بلا استثناء. ومع أنّ اللغة السومرية لم يسدل عليها ستار النسيان نهائياً في العالم السومري الأكدي إلا حين سقوط آشور وتدميرها في ٦١٢ - ٦٠٩ ق.م، فقد ظلت لغة كلاسيكية، فقط، من حيث أنها كانت الأداة التي حفظت المعرفة التقليدية للمدينة السومرية الأكديية.

نفسى على أسرة أور الثالثة ثورة قام بها اتباعها ايلاميون. فقد نهوا مدينة أور - وهي
 بكية لم تقم لأور بعدها قائمة - وتوزع الأمباطورية فيما بينها عدد من الدول الخليفة
 المحلية المتنازعة، ولم تستعد عيلام استقلالها فحسب، بل فرضت أسرة عيلامية على لارسا
 (سنكرة) المدينة - الدولة السومرية. وقد اتخذت المدينة - الدولة السومرية إيسين
 (بحريات) لقب إمبراطورية سومر وأكد، دون أن تتمكن من إعادة بناء الإمبراطورية
 والتمها. والمثلد - الدول المحلية الأخرى التي خلفت إمبراطورية أسرة أور الثالثة المزاللة كانت
 أشنونا (الواقعة شرقي دجلة، في شمال غربي عيلام) وأشور (على شاطئ دجلة،
 شمال أشنونا) وبابل (على شاطئ الفرات في أكد) وماري (نل الحريري على
 شاطئ الفرات في مجرى الأوسط شمال شرقي بابل) وكرشميش (جرابلس على
 شاطئ انحناء الفرات الغربية) ومخند (حلب) وقطنا (الواقعة جنوبي حلب في
 وادي العاصي). وكل هذه الدول الخليفة لإمبراطورية أسرة أور الثالثة، باستثناء قطنا
 ومخند وعيلام، أعاد إليها وحدتها حمورابي ملك بابل (حكم من ١٧٩٢ - ١٧٥٠)،
 إذ قام بتسبع حملات سنوية متوالية شنها ضدها بين السنة الثلاثين والسنة الثامنة والثلاثين
 من حكمه؛ ولكن إعادة البناء الثانية هذه كانت أسرع إلى الزوال من إعادة البناء الأولى
 التي تمت على يد أور - ناسو السومري.

كان مصدر الخطر على إمبراطورية حمورابي. على نحو ما كانت عليه الحال في
 إمبراطورية نارام سن قبل ذلك بنحو خمسة قرون، سكان الجبال في غوتيوم. وقد جرب
 حمورابي تفادي هذا الخطر القاتم في غوتيوم، كما جربه نارام سن من قبل، بالمبادرة
 بالهجوم؛ وقد كانت هذه الخطوة، للمرة الثانية، لا نفع فيها. إذ لم تقض سوى عشر
 سنوات على إتمام حمورابي لفتوحه، وفي السنة الثامنة من حكم عبقفته المباشر
 مسو - ألونا (أي في سنة ١٧٤٣ ق.م.) انتفض البرابرة الكاشيون من غوتيوم وقاموا
 بأول اعتداء لهم على بابل، وهو الاعتداء الذي وصلت أخطاره مدونة (يبدو أنهم أزعوا
 قيام الحكم البابلي نحو سنة ١٧٣٢ ق.م.) وخلال حكم مسو - ألونا انفصلت أشور
 وماري وكرشميش وحتى البلاد البحرية في المستنقعات الواقعة على رأس الخليج
 العربي - عن بابل. وفي سنة ١٥٩٥ ق.م. جاء دور بابل لتسرب الكأس التي شربتها
 أور، فقد نهبها المهاجمون، الذين لم يكتفوا هذه المرة عيلاميين، بل كانوا من الحثيين
 بغورهم الملك مورشيلىش الأول. لقد جاء الحثيون وذهبوا؛ لكن الكاشيين هم الذين جوا

الشمري. قصي الحثيون على أسرة بابل الأولى، ولكن الكاشيين استولوا بابل ووجدوا كل سومر وأكد، باستثناء الأرض البحرية، تحت سلطة بربرية دامت حتى نحو سنة ١١٦٩، أي ما يكاد يساوي أربعة أضعاف الزمن الذي عاشته سلطة الفوتيان البربرية الذين جازوا البلاد في أعقاب الحكم السرجوني.

وهكذا فقد كان توحيد إمبراطورية سومر وأكد السرجونية سياسياً للمرة الثانية جبهة. ففي فترة تمتد ٣٧٠ سنة (٢١١٣-١٧٤٣ ق.م.) كان ثمة وحدة فعالة لمدة ١٣٠ سنة فقط، مقابل ٢٤٠ سنة من الخلاف والتزاع والموضى السياسية. على أنه في هذه الفترة التي امتدت عبر ٣٧٠ سنة حصل تطوران، في غير الميدان السياسي، وسارا بنجاح حيث، كان أحد هذين انتشار اللغة الأكديّة. فهذه اللغة لم تأسر السومريين محسب، بل تمدتهم إلى المصوريين الذين كانوا قد انساحوا في أكد، في الوقت ذاته الذي جاء فيه الفوتيان، وانشأوا الأسرة البابلية الأولى نحو سنة ١٨٩٤ ق.م. (وقد انتقل المصوريون ولا ريب إلى التكلم بالأكديّة لأن لفهم الأصليّة كانت سامية مثل الأكديّة). والتطور الثاني كان التوسع الآشوري التجاري شمالا في غرب، وقد أظهرت القبول التي تعود إلى مستوطنة آشورية كانت تقوم خارج أسوار دولة كانش الوطنية، في شرق آسيا الصغرى، مدى النشاط الذي كانت تتمتع به هذه التجارة في القرنين العشرين والخامس عشر ق.م. وقبل انقضاء هذه الفترة كان التجار الآشوريون قد وسعوا نشاطهم بحيث وصلوا إلى مدينة خطوشاش (بوغاز كاله).

أما في مصر فقد اختلفت النتيجة التي نشأت عن سقوط المملكة القديمة عن ذلك. فلم يكن في مصر فتح أو احتلال بربريّ أخذ البلاد بأجمعها. كان هناك ثورة اجتماعية أهلية، وترتب على ذلك أن المملكة القديمة انهالت وتقسمتها حكومات محلية. وقد حالت هذه الفوضى دون الاستمرار في تنظيم مياه النيل لمصلحة مصر بأجمعها؛ ولما كانت حياة الناس في مصر، بل بقاؤهم، تعتمد أصلا على الحصول على الماء للري، فقد اقتضت الجماعات المحلية في ما بينها للإشراف على الماء، كما حصل فعلا في سومر قبل أن يفرض لوعالزخيري وخلفاؤه السرجونيون وحدة سياسية على سومر وأكد.

ولم تكن هذه الحالة إلا يمكن تحمله سواء في مصر أو في سومر. وفي وقت مبكر يعود إلى نحو سنة ٢١٦٠ ق.م. كانت قد قامت محاولة لإعادة بناء المملكة المرحونة المتحدة وذلك على يد أسرة جديدة كان مركزها هيراكليوبوليس، وهي مدينة تقع في

الجزء الشمالي من مصر العليا إلى الجنوب من ممفيس، عاصمة للمملكة القديمة وقد أثبت الحكم الهيراكليوبوليسي عجزه، لكن الحاجة الملحة لإعادة مصر إلى وحدتها تم على يد الأسرة الحادية عشرة (نحو ٢١١٣ - ١٩٩١) التي كانت طيبة (اوبت) مستقرها الأصلي. وطيبة هذه كانت في جنوب مصر العليا، ومع ذلك فلم تكن بعيدة عن المدينة التوأم بيجن - نجيب، التي انجذبت الموحدين الأوائل لمصر. والبلد الذي يعتمد على الإشراف على الماء في سبيل حصول السكان على الحد الأدنى من الحاجات، يمكن لقوة تتركز في أعلى النهر أن تتفوق على منافساتها في الجرى الأدنى للنهر. فليس من المستغرب أن يختلب الأطباء على سكان هيراكليوبوليس. والرجل الطبي الذي وحد مصر كان منشوحوب الثاني (نحو ٢٠٦٠ - ٢٠١٠ ق.م). وقد حقق هذه في توحيد البلاد نحو سنة ٢٠٤٠، ودامت المملكة المتوسطة التي أنشأها نحو ثلاثة قرون تقريباً.

وهذه الفترة كانت ثلاثة اضطراب الفترة الزمنية لإمبراطورية سومر وأكد التي أعادها نارام - سن إلى الوجود، لكنها بلغت فقط ثلث الفترة الزمنية التي عاشتها مملكة مصر القديمة. ومع أن الحياة في أيام المملكة المتوسطة كانت نسبياً حياة أمن وازدهار، إذا ما قورنت بما كانت عليه الأحوال في الفترة المتعرجة الأولى في تاريخ مصر (نحو ٢١٨١ - ٢٠٤٠ ق.م)، فإن فراعنة المملكة المتوسطة كانوا في جهاد مستمر لتثبيت سلطانهم. ويبدو أن أنتمحات الأول (١٩٩١ - ١٩٦٢)، مؤسس الأسرة الثانية عشرة، كان وزيراً قبل أن يصبح فرعوناً، كما يبدو وكأنه قد مات اغتيالاً. هذا ما يقرأ بين السطور في الوصية المزعوم أنه تركها لخليفته سيزومستريس (سنوسرات) الأول (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق.م).

كان على فراعنة المملكة الوسطى أن يضعوا حداً لسلطة الأمراء المحليين، وقد كانت هذه مهمة بطيئة وعسيرة. يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الفراعنة، على عكس أسلافهم في عصر المملكة القديمة، وشعوا إمبراطوريتهم في اتجاهين: أولهما صعيداً مع وادي النيل إلى التربة ما وراء الشلال الأول، والثاني في اتجاه شمالي شرقي إلى فلسطين، بل لعلمهم وصلوا حتى دمشق شمالاً. وثمة دليل على وجود تأثير مصري من عهد المملكة المتوسطة حتى في شمال سورية - في لوجلوت (رأس الشمر) على الساحل ومي الأكيخ في الداخل. ولسنا ندري فيما إذا كان توسع المملكة المتوسطة في آسية تقي أية مقاومة،

ولكننا نعرف أن توسعها في التوبة قابل شيء من ذلك. والآثار الخاصة بالأسرة الثانية عشرة ليست أهراماً ولا هياكل، وإنما هي حصون. وقد شاد سيزوستريس (سوسرات) الثالث (حكم ١٨٧٨-١٨٤٣ ق.م.) ثمانية حصون منيعة بين وادي حلفاء، تحت الشلال الثاني، وسنحه عوقه، وهي، مثل أهرام الأسرة الرابعة أمة في فن المصار، لكنها صممت من أجل غاية مختلفة. فالهرم كان يبنى ليضمن للفرعون الخلود بعد الموت، أما حصون سيزوستريس الثالث فقد أقيمت لتضمن له السيطرة، في حياته، على أرض استولى عليها بصعوبة.

كان حكم متوحوشب الثاني، موحد مصر، معاصراً للنصف الثاني من الفترة الزمنية لأسرة اور الثالثة (نحو ٢١١٣-٢٠٠٦ ق.م.). والمحفوظات التي كشف عنها التنقيب في ماري (تل الحريري) تغطي فترة التنين وخمسين سنة، ١٨١٧-١٧٦٥ ق.م.، وخلال هذه الفترة كانت ماري على اتصال بكل الدول المحلية في العالم السومري الآكدي، بما في ذلك ما كان منها غربي الفرات. ومع ذلك ليس في المحفوظات أي قيد يدل على وجود المصريين في سورية، وبالمقابل ليس في قبور مملكة مصر الوسطى أية إشارة إلى إحياء إمبراطورية سومر وأكد الذي تم على يدي أور - ناسو أو على يد حمورابي بعد ذلك. صحيح أن الأسرة الثانية عشرة، التي بلغت مملكة مصر الوسطى القمة في عهدها، لم تحتل العرش إلا بعد سقوط أور بخمسة عشرة سنة، وانتهى أمرها بعد أربع سنوات فقط من تولي حمورابي، وقبل خمس وعشرين سنة من تاريخ الحملة الأولى من الحملات الستية الفتح التي قادها حمورابي والتي أدت إلى إعادة بناء إمبراطورية أور - ناسو. ومع ذلك فإنه أمر يدعو إلى العجب أن كلا من هذين العالمين ظل يساهل واحدهما الآخر في الوقت الذي كانا فيه قريبين جداً واحدهما من الآخر.

والمرجح أن المدينة السندية كانت خلال هذه الفرون الثلاثة، من نحو ٢١٤٠-١٧٣٠ ق.م.، لا تزال قائمة، وأن المدينة المنيوة في كريت كانت مزدهرة. لقد أشرنا من قبل إلى أن الإشارة الوحيدة، التي نملك حتى الآن، حول زمينة المدينة السندية هي الكشف عن أختام منقوش عليها بالكتابة السندية، والتي عُثِرَ عليها في طبقات موثق تاريخها من البقايا المأذمة من للمدينة السومرية الأكديّة. وأقدم هذه الطبقات التي تحتوي على أختام سندية هي من زمن ما قبل المرجونيين، لكن النهاية الزمنية لوجود هذه الأختام السندية

في سورر وأكد ليس مؤكداً. والدليل الأثري الذي حصلنا عليه من مراكز المدينة السددة نفسها يشير إلى أن هذه المدينة كانت نهايتها مفاجئة ومدمرة.

وإذا كان الأمر كذلك فمن الجائز أن يكون القوم الذين دمروها هم أنفسهم البرابرة الذين حملوا إلى الهند اللغة الهندية الأوروبية، وهي اللغة التي دوت بها الآداب العديدة، وهي اللغة التي عرمت في ما بعد باسم السنسكريتية بعد إحيائها لتصبح لغة كلاسيكية. وقد كانت اللغة الدرافيدية واللغة الأوسترية - الأسهرية شائعتين في شبه القارة الهندية في الوقت الذي سبق هجوم القوم الذين كانوا يتكلمون باللغة السنسكريتية الأولى، والذين تجاوزوا البلاد من الشمال الغربي. وثمة لغة كانت شائعة في بعض أجزاء بلوخستان في القرن الحالي تسمى براهوي، وهي لغة من العائلة الدرافيدية. أما تاريخ وصول اللغة السنسكريتية الأولى إلى الهند فليس مؤكداً شأنه في ذلك شأن التاريخ الذي دمرت فيه المدينة السددة. ويبدو أن الكاشيين، الذين انتفضوا على بابل من النهضة الإيرانية في القرن الثامن عشر ق.م. كان بينهم فئة كانت تستعمل اللغة السنسكريتية الأولى، إذا اعتبرنا وجود سورباش، إله الشمس الفيدي، في مجمع الآلهة الكاشي أساساً لذلك. وقد كان هناك آلهة فيديفة في مجمع مملكة ميتاني في ميزوبوتاميا (الجزيرة) في القرن الخامس عشر قبل الميلاد؛ لكن هذه الآثار التي علمها المتكلمون باللغة السنسكريتية الأولى في بلاد بابل وفي الجزيرة في تلك الأزمنة لا تدلنا على الزمن الذي غرّب فيه آثارهم المدينة السددة.

وبلغت المدينة المنيوة في كرمث غابة تدهلرها في الربع الأول من الألف الثاني ق.م. ففي المدة من نحو ٢٠٠٠ - ١٧٠٠ ق.م. بنيت القصور الأولى: كنوسوس وفايستوس وابلزبادة ومليا وبلاكاشور ولم تكن هذه القصور محصنة. وقد يستدل من ذلك أن هذه لم تكن عواصم لهذا العدد من الدول المستقلة المحلية ذات السيادة. وقد يستدل أيضاً على أنه في هذا العصر أحس الكريتيون بأنهم في مأمن من هجوم بحري. ومع ذلك فهذه المجموعة الأولى من القصور المنيوة دمرت بين سنة ١٧٥٠ و ١٧٠٠ ق.م. وليس ثمة دليل مؤكد على أن هذا التدمير الكلي كان من صنع الإنسان، فقد يكون سببه زلزال، إلا أن المصادفة في أن يقع هنا في وقت قريب من زمن الهجوم الكاشي على بابل، ومن وقت هجوم الهكسوس على مصر قد تحملنا على القول بأن تدمير القصور الكريتية قد يكون فعل اعتداء هاجموا البلاد يومها.

في الربع الأول من الألف الثاني ق.م. كانت مرحلة يانغ - شاو من حصار مصر الحجري الحديث الإقليمية قد خلفتها مرحلة لونغ - شان. ولم يكن هذا في أسلوب المختار فقط من حيث استبدال الحرف الأسود بالحرف الملون. إن شعوب لونغ - شان كان عددا من الحيوانات المدجنة تنوع أكبر، وكانت على الأقل واحدة من مستوطناتهم مدينة بها أسوار من التراب المهد. على أن حضارة العصر الحجري الحديث الأرقى التي عرفت في أسية الشرقية لم تكن قد وصلت بعد إلى مدينة من النوع ذاته الذي كان معروفا إلى الغرب من تلك المنطقة، في حوض السند وحوض البحر الإيجي وما بينهما.

١٢- تدجين الحصان ونشوء البداوة الرعوية في السهوب الأوراسية

بدأ البرابرة الكاشيون انحدرهم الأول من الطرف الغربي للهضبة الإيرانية نحو بلاد بابل سنة ١٧٤٣ ق.م.، واستمروا في الاعتداء حتى احتلوا مدينة بابل، التي كان الحيثيون الناطقون بلغة هندية أوروبية قد نهبوها سنة ١٥٩٥ ق.م. ويبدو أنَّ المملكة المتوسطة المصرية قد لاقت نهايتها على طريقة مماثلة نتجت عن اعتداء نوريحي قام به البرابرة المعروفون باسم الهكسوس الذين انتسحوا في الزاوية الشمالية الشرقية لعدك النيل نحو سنة ١٧٣٠ أو ١٧٢٠ ق.م. وانتهى بهم الأمر إلى احتلال ممفس في سنة ١٦٧٤ ق.م.، وبذلك قضوا على الأسرة الثالثة عشرة. وإذا نحن نظرنا إلى الأسماء الشخصية التي اتخذها الهكسوس، بدا لنا أنَّ الهكسوس كانوا يستعملون لغة سامية؛ وإذا كانت لغتهم الأصلية لغة سامية غريبة فمعنى هذا أنهم لم يكونوا من أقارب الكاشيين. إلا أن معاصرة هجوم الهكسوس على مصر والهجوم الكاشي على بلاد بابل والتخريب الثام لمجموعة من الهياكل الأولى في كريت، كل هذا يحصلنا على القول بأن هذه التحركات قد تكون كلها نتيجة ضغط جاء من الخلف بالنسبة إلى هذه الجماعات.

نفس المؤكد أن التحرك الهكسوسي نحو مصر جاء بسبب تحركات مكثفة من الحوريين الذين جازوا حديثاً من مرتفعات تركية الشرقية، إلى الجزيرة وبلاد الشام. إلا أنه، كما ذكر قبل، ثمة دليل لغوي يحصلنا على القول بأن المهاجمين الذين انتشأوا لمملكة ميتاني في الجزيرة في القرن الثامن عشر ق.م.، ومثلهم الكاشيين الذين فرضوا سلطانهم على بلاد بابل في الوقت نفسه - كان بين هاتين الجماعتين من المهاجمين فترات ممن يتكلمون اللغة السنسكريتية. هذا الدليل اللغوي يحصلنا على القول بأنه، إضافة إلى الضغوط المحلية، كان هناك عامل أساسي أدى إلى هذه التحركات، وقد يكون هذا تفجراً سكانياً بين شعب كان يتكلم اللغة السنسكريتية الأولية بدأ من المنطقة الحلقية لجنوب غرب آسيا.

وهذه المنطقة الخلقية هي السهوب الأوراسية، فهي التي يمكن الوصول إليها من المكان الذي يحتمل أن تكون اللغات الهندية الأوروبية قد نشأت فيه أصلاً، أي مكان ما في شرق أوروبا، فيما تجاور شطآنه الجنوبية جنوب غرب آسيا في تركستان. وإذا كانت السهوب قد عبرت تفجراً سكانياً، فعمل هذا جاء في أعقاب تدمير الحصان، الأمر الذي مهد الطريق للبداوة الرعوية. لقد عثر في طروادة على عظام الخيل في أسفل طبقة من المدينة (طروادة) السادسة، والتي يرجع تاريخها إلى نحو سنة ١٨٠٠ ق.م. ومن الناحية الأخرى لم يكن السومريون الأكثيون في عصر أسرة بابل الأولى، ولا المصريون في عصر المملكة المتوسطة، يملكون الخيول. وبدل هذا على أن الحصان قد دجن في السهوب الأوراسية قبل سنة ١٨٠٠ ق.م. بوقت قصير، كما يدل على أن اختراع آلة حربية جديدة - الفربة التي تجرها الخيول - ونشرها، يفسر عنف الهجمات على سومر وأكد وعلى مصر في القرن الثامن عشر ق.م. كما يوضح سر نجاح المهاجمين.

والبداوة الرعوية، مثل الحياة المدنية، هي أسلوب في الحياة غير زراعي، إلا أنه طفيلي يعيش على الزراعة، وما كان له أن يوجد إلا على مقربة من السكان الزراعيين وبالمشاركة معهم، إذ أن هؤلاء السكان ينتجون فائضاً من الطعام يزيد عن حاجاتهم الضرورية. وسكان المدن يتعاونون الطعام من العاملين في الزراعة مقابل مصنوعاتهم وخدماتهم، والبدو الرعاة هم بحاجة إلى شراء منتجات الجماعات المستقرة مقابل الحيوانات والجلود. ومع أن البدو الرعاة أنفسهم قد تخلوا عن الزراعة فإن أسلوب حياتهم الجديد كان ممكناً فقط في تكامل مع جيران كانوا قد استمروا في العمل الزراعي. فإذا انتظم هذا الأسر صدها تكون البداوة الرعوية أكثر الطرق إنتاجاً لاستغلال المراعي الجافة دون إتلافها، وقد تعطي زراعة هذا النوع من الأراضي مردوداً أكبر في المدى القصير، لكن في هذه الحالة يكون منتوج كل سنة أصراً فيه الكثير من الشوك، وجزء الاقدام على حرق الأرض وانتلاخ العشب تحويل المراعي إلى صحراء، والبدل لهذا هو استعمال المراعي للصيد والقص، كما كان سكان أميركا الأصليون يصنعون في مراعي أميركا الشمالية إلى القرن التاسع عشر، لما جاءها المستوطنون من أوروبا قصصوا على الثور الأميركي (بيسون) واستبدلوه «بمملكة الأبقار» القصيرة العمر. فالبداوة الرعوية هي تربية الوسائل البشرية التي يمكن استخدامها في المراعي لاستغلال الطبيعة دون أن يؤدي ذلك إلى العقم.

ونحنم على البدوي الراعي، إذا أرد المراعي الحلقه أن تعمل أكبر عدد من

الحيوانات، ان يتخلل بها من لرض معشوشية الى أخرى في مجال ذي موسم منتظمة. ولن يتمكن من تسيير قطعانه ومواشيه في تنقلاتها المديدة دون الاستعانة بالأعوان من غير البشر مثل الخيل والجمال. وإذا كان لا بد من التخطيط للتقليل بعناية وتنظيمه بدقة، نجما لما قد يحل به من مصائب، توجب على الراعي البدوي ان يكون هو وأعوانه من الحيوانات ومواشيه عاضداً لنظام شديد. ففن المواقبات في التقليل عند الجماعة البدوية الرعوية يشبه الفن اللازم في العمليات العسكرية. وبالنتيجة فال البداوة الرعوية تؤدي بالبدن ممارسوها بشكل ذاتي إلى شن الحروب المتحركة، ولو أنهم في العادة يقومون بالدورة السنوية دون أن يصطدموا لا بقوام بدوية أخرى، ولا بحيرانهم البدو المستترين وشركا لهم في التجارة.

وقد مكن تدجين الحصان للإنسان أن يحصل على عون غير بشري هو الذي فتح للبداوة الرعوية المجال لتصبح عملية؛ لكن الحصان الأصلي الذي دجن كان حيواناً ضعيفاً، فلم يكن يستطيع حمل رجل. وكانت لربعة من الخيول لازمة لجر عربة ذات دولابين مصنوعة من أحف المواد. وقد مر ألف من السنين من إنجاب الخيل حتى أمكن إنتاج حصان يستطيع أن يحمل حتى الفارس الخفيف السلاح. ومرت بضعة قرون أخرى حتى أنتج الحصان الكبير، الذي ينقل أسلحة ويحمل قارساً مذججاً بالسلاح من الرأس إلى القدم. على أن البدوي الراعي كان، من قول الأمر، يشر الرعب عسكرياً في المرات القليلة التي كان يخرج فيها من السهوب التي هي موطنه العادي. ولعل الهجمات التي دالت بلاد بابل ومصر وبلائها، وقد يكون ذال كرويت من ذلك نصيب أيضاً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ق.م. إنما هي آثار غير مباشرة للفتور البدوي الذي عبقه سلسلة من التفجرات، التي انتشرت في السهوب الأوراسية حتى القرن الثامن عشر للبلاد، وفي السهوب البرية الشمالية إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى.

بعد أن الذين صنعوا البداوة الرعوية في السهوب الأوراسية كانوا هم المتكلمين باللغة السنسكريتية الأولى، وهم الذين تركوا، فيما وراء الحدود الجنوبية للمهوب آثاراً مؤقته في بلاد بابل وفي الجزيرة، كما تركوا آثاراً باقية في الهند. على أن البداوة الرعوية لم نكد أن تصنع حتى انتهى احتكاك شعب ولحد لها. فالسهوب الأوراسية استوطنتها على توالي الأيام شعوب تتكلم اللغة السنسكريتية الأولى والإيرانية والتركية والمغولية والفية (لغة المجرين). ولما دجن الجمل ذو السام الواحد في السهوب البرية قبل انتهاء الألف

الثاني ق.م.، ولما تقلص الحصان هناك قبل بدء التاريخ الميلادي اتسع مجال البداوة الرعوية فشمّل بلاد العرب، ومن بلاد العرب انتقلت البدو الرعوية إلى شمال إفريقيا. وقد صعد البدو الرعاة للتاريخ منذ القرن الثامن عشر ق.م. حتى زمن لا يزال الكثيرون من الأحياء يذكرونه.

١٢- العلاقات بين المدنات الإقليمية نحو ١٧٢٠-١٢٥٠ ق.م.

عشنا في الفصل السابق، أن تدجين الحصان مهد الطريق لاصطناع أسلوب البداوة الرحوية في الحيلة في زمن مبكر في الألف الثاني ق.م.، وأن تدفقا من البدو الأوراسيين المتكلمين بالسكريدية الأولية وجد طريقه إلى جنوب غرب آسيا في القرن الثامن عشر ق.م. وإذا كان مثل هذا التدفق قد حدث فقد كان قصير الأمد، وقد ترك هؤلاء البدو الأوراسيون أثرا ضئيلا في السكان المستقرين الذين وصل هؤلاء المهاجمون إلى مواطنهم. ومن ناحية أخرى، إذا كان هذا التدفق البدوي هو القوة التي دفعت بالخوريين إلى الجزيرة وبلاد الشام، وللهكسوس إلى مصر، فإن الأثر غير المباشر لهذا التدفق البدوي على العلاقات بين المدنات الإقليمية كان هائلا، ذلك لا انسحاب الشعوب هذا حمل المدنات الإقليمية في المشرق على إقامة علاقات في ما بينها. وقد كانت هذه العلاقات فعالة وجوهرة على مقياس لم يسبق له مثيل.

المدنية السمرية، وهي أولى النماذج لأنواع الإقليمية، لم تنفرد بمقالها النموذج الوحيد مدة طويلة. فالمدنية الفرعونية كانت قد ظهرت في مصر عند منقلب الألف الرابع إلى الألف الثالث ق.م.، وظهرت كذلك مدنات إقليمية أخرى في النصف الثاني من الألف الثالث في آسيا الصغرى وكريت وحوض السند ومع ذلك فإن الحالة الوحيدة التي قامت فيها صلات وثيقة بين مدنتين إقليمتين حتى القرن الثامن عشر ق.م. كانت تتمثل في الدّين الحصارى للمدنية السمرية الأكديّة على لمدينة التي قامت في آسيا الصغرى. وقد كانت مدينة آسيا الصغرى في الواقع، تلور في غلك المدنية السمرية الأكديّة، لكن هذه الدرجة من التبعية كانت أمراً استثنائياً. والتأثير السومري على مصر في بحر المدنية المصرية كان حافزاً، وهو الذي قد يفسر جزئياً قيام المدنية المصرية بشكل يبدو وكأنه كان محلياً، وقد كان التأثير السومري هنا قصير الأجل. وخلال القرون الإنسي

عشر أو الثلاثة عشر الأولى من تاريخ المدينة الفرعونية كانت هذه المدينة تشق طريقها الخاص بها، وتطورت في خطوط متميزة خاصة بها.

وقد أشرنا إلى أن كلا من المدينتين الفرعونية والسومرية الأكديتين تبدو وكأنها قد تعاملت وجود الأخرى، حتى في الربع الأول من الألف الثالث ق.م. حتما كانت رعاياها منساقين، أو لعلهما كانتا حتى متشابهتين، والعلاقة بين المدينتين السومرية الأكديتين ومدية السند كانت حتى أضعف من ذلك. إن الاختتام السندية التي عثر عليها في طبقات الآثار المادية التي خلفتها المدينة السومرية الأكديتين تشير إلى وجود علاقة تجارية بين المجتمعين السندي والسومري في وقت مبكر يعود إلى نحو سنة ٢٥٠٠ ق.م.، لكن البقايا المادية لمدينة السند لم يظهر فيها بعد أي أثر يدل على تأثير سومري، وليس في حوض السند نظائر لما تركته المدينة السومرية من آثار على مصر في العهد السابق لقيام الأسر وفي عصر الأسر الأولى. هذه الندرة في الاتصال بين المدينتين الإقليميتين في المشرق حتى القرن الثامن عشر ق.م.، يعادلها بشكل واضح تعدد وتقارب في هذه الاتصالات في ما بين القرن الثامن عشر والقرن الثالث عشر ق.م.

كانت المدينة المصرية هي التي قامت بدور الأول في المجالات العسكرية السياسية في المشرق خلال هذه القرون الخمسة. ويعود القضاء على العزلة التي كانت قائمة بين المدينتين الإقليميتين المشرقية على الصوم إلى العمل الذي قامت به مصر، وقد يبدو هذا غريبا لأن المدينة المصرية كانت من قبل أقل تطلعا إلى الخارج، وأقل رغبة في التوسع، من المدينة السومرية الأكديتين. ومع ذلك فانا نرى أن الانطواء الذاتي التقليدي للمجتمع المصري ولد فيه كرها عدوانيا للأجانب، لا تمكن المهاجمون البرابرة، لأول مرة في تاريخ المجتمع المصري، من إقحام أنفسهم في ملكه. وقد دفع هذا الفكر للأجنبي المصريين إلى طرد المعدن الأجانب نولا، ثم إلى تعقبهم، بعد طردهم بحملة صدهم إلى عقر دارهم في فلسطين ومصر حيث كانت القاعدة الأصلية للعمليات العسكرية.

وقد كانت هذه المنطقة قد انجذبت منذ زمن طويل، إلى منطقة النفوذ الحضارية المرتبطة بالمدينة السومرية الأكديتين، وترتب على ذلك أن الشبهة في رد العمل المصري، السياسي والحربي، ضد الاعتداء الأجنبي جعلت مصر تتصل بحضارة أجنبية كانت تجابهها عسكرياً.

في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر ق.م. خضع البابليون للسلطان الذي فرضه

عليهم الكاشيون البرابرة، كما أن الأشوريين، الذين اغتصموا أول قرصة سحت لهم لرع البر البابلي، تقبلوا على ما يبدو سيادة الميتانيين البرابرة. وقد عمل البابليون الحكيم الكاشي نحو ستة قرون. ولعل السيطرة الميتانية على آشور دامت نحو ثلاثة قرون ونصف القرن، قبل أن يصفبها للشعب المستعبد في ثورة عارمة. وقد بدأ إنسباح الهكسوس في مصر نحو سنة ١٧٢٠ لو ١٧٢٠ ق.م. وبلغ حقه سنة ١٦٧٤ ق.م.، لما احتل الهكسوس مغيص. والآن، ولأول مرة منذ أن توحد التاجان، عادت مصر للمرة الثانية إلى الانقسام السياسي: مملكة شمالية ومملكة جنوبية، ولكن في هذه الفترة للفترة المعارضة الثانية، كانت المملكة الشمالية دخیلة غربية الأصل، بينما كانت الملكتان في الفترة المعارضة الأولى - المملكة الهيركلوية والمملكة الطيبة اصلتين. وقد تمثل الهكسوس المدنية الأسمى التي كانت موجودة عند رعاباهم من المصريين، لكن هذا لم يفسد حقد المصريين عليهم. وقد أعمدت الوحدة السياسية إلى مصر، في القرن السادس عشر ق.م. كما كان قد تم مثل ذلك في القرن الحادي والعشرين ق.م. وذلك بأن احتلت المملكة الجنوبية، وعاصمتها طيبة، المملكة الشمالية.

طرد الهكسوس من مصر نحو سنة ١٥٦٧ ق.م. وقد كان المهر الطيب هو أحسن (اموسيس) (حكم من نحو ١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق.م.) والأسرة الثامنة عشرة التي أسسها أحسس، حكمت من نحو ١٥٧٥ - ١٣٠٨ ق.م. والفترة الزمنية الكاملة للمملكة الحديثة، من بدء الأسرة الثامنة عشرة إلى سقوط الأسرة العشرين، كانت خمسة قرون على وجه التقريب (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م.). وقد كانت هذه الفترة نصف الفترة الزمنية للمملكة القديمة، لكنها كانت ضعف الفترة الزمنية للمملكة المتوسطة تقريباً. وفضلاً عن ذلك فقد كانت المملكة الحديثة إمبراطورية عالمية. لقد أشرنا من قبل إلى أن سيزوستريس الثالث، من ملوك المملكة المتوسطة، كان قد وسع حدود أملاكه في الجنوب بحيث وصلت إلى سمه، فوق الشلال الثاني على النيل، واتخذ في كرمه فوق الشلال الثالث، مركزاً تجارياً. وبعد تأسيس المملكة الحديثة نقل تحوتس (طتميس) الأول (حكم من نحو ١٥٢٨ - ١٥١٠ ق.م.) وهو الخليفة الثاني لأحمس، حدوده الجنوبية إلى نبتا تحت الشلال الرابع. فأصبح الآن وادي النيل بأكمله، من الشلال الأول إلى الشلال الرابع، ملحقاً بالمدينة القهرونية. ويدعي تحوتس الأول، في نقش يعود إلى السنة الأولى من حكمه، أن ملكه امتد في الجهة الشمالية الشرقية إلى الفرات.

كان سكان وادي النيل فوق الشلال الأول يراية، وقد كانت علاقتهم الثقافية، تحت السيطرة المصرية في اتجاه واحد. فقد تقبل الكاشيون اللغينة المصرية دون أن يكون لهم يد في تقديم مقابل حضاري ذي قيمة. والحكم المصري، في المناطق المسماة الآن السونة والجزء الشمالي من السودان النيلي، كان، على المستوى السياسي، قويا باستمرار إلى أن انتهى أمر المملكة الحديثة سنة ١٠٨٧ ق.م. وعلى العكس من ذلك فإن مدى السلطة السياسية المصرية ودرجتها في فلسطين وسورية كانت، في العشرة داتها، متأرجحتين؛ لكن التأثير الحضاري في ما بين المصريين ورعاياهم الآسيويين كان متبادلا، وكانت نتيجته تراكمية. وقد تلقى المصريون من التأثير الحضاري من الآسيويين أكثر مما نفحروهم به.

لسنا ندري فيما إذا شملت مملكة الهكسوس التي قامت في الدلتا البلاد الآسيوية التي كانوا قد جاؤوا منها. لكن من الواضح أن المصريين، بعدما قضوا على حكم الهكسوس، وقادوا حملاتهم إلى فلسطين وسورية، وجدوا المنطقة قد تقسمتها إمارات صغيرة متعددة. وقد أقام المصريون حاميات في نقاط استراتيجية، وعينوا مقيمين مصريين. وقد كان ضبط هؤلاء الحكومات الدول التابعة يتوقف على مدى النشاط الذي تبذره الحكومة الإمبراطورية في طيبة لهؤلاء المقيمين، هذا إذا اعتست بذلك. إلا أنه يبدو أن الحكومة الإمبراطورية لم تكن تفرض حكما مباشرا على أي جزء من أملاكها الآسيوية، على نحو ما فعلته بالنسبة لأملاكها في وادي النيل فوق الشلال الأول. ولعل الأكثر الحضاري الآسيوي على الحياة المصرية في عصر المملكة الحديثة جاء بمضمون نتيجة الجهد الذي بذله المهاجرون من الولايات الآسيوية إلى مصر نفسها. وقد كان بعض هؤلاء المهاجرين اسرى حرب، وجاء آخرون عن طيبة خاطر في سبيل البحث في مجالات اقتصادية مربحة. والمهاجرون من كلا النوعين، حصلوا معهم عياداتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وقد وجد المصريون هذه الأشياء جذابة. والكثرة للأجانب الذي كان الرد المصري على المفتح العسكري الآسيوي لمصر، لم يره الانسياع الآسيوي السلمي إلى مصر.

فُرِصت السيطرة السياسية المصرية لأول مرة في أيام تحوتمس الأول. ويبدو أنها كانت ممتدة في أيام الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ - ١٤٦٩ ق.م.) إذ أن شريكها في الحكم، تحوتمس الثالث، حبل بينه وبين تسلمه السلطة في حياتها. وهذا الملك هو نفسه الذي قاد، بعد وفاتها مباشرة، سلسلة من اثنتي عشرة حملة متتالية، بين السنة الثامنة

والمصريين والسنة الثالثة والثلاثين من حكمه (أي من ١٤٦٩ - ١٤٥٨ ق. م.) وقد وصل، في آخر هذه الحملات، إلى القرط. ووجد هناك نصبا كان قد أقامه تحتمس الأول، وأقام لنفسه نصبا آخر قرب الأول، واجتاز القرط مقاتلا، وأجبر ملكة ميثاني في الجزيرة على الاعتراف بسيادته. وقد بلغت اليادة المصرية في فلسطين وسورية غايتها في الفترة الممتدة من هذه السنة، ١٤٥٨، حتى تسلم اخناتون العرش. ونُسف الحكم المصري في تلك المنطقة أيام حكم أخناتون (نحو ١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق. م.) ولم يعد إلى ما كان عليه قبل قط.

وكان اخناتون ثوريا. ولم تكن ثورته الأولى في تاريخ مصر. فقد كانت هناك ثورة مزدوجة في الفترة المتعرجة التي جاءت بين انحلال المملكة القديمة وقهاام المملكة المتوسطة. ففي أيام الأسرة السادسة نجح المشرفون على الأفضية في أن يصبحوا امراء ورأئين مستقلين محلين بدل أن يظلوا الموظفين الذين يمينهم الفرعون، ولم يعودوا إلى وضعهم السابق بحيث يكونون خاضعين لحكومة مركزية منتظمة إلا تدريجاً وذلك في أيام الأسرة الثانية عشرة. وقد كان ثمة فترة من الفراغ السياسي، الذي عقب القضاء على الأسرة السادسة مباشرة، وهي فترة استمرت إحدى وعشرين سنة (نحو ٢١٨١ - ٢١٦٠) قامت خلالها ثورة اجتماعية عنيفة. وكانت هناك ثورتان مصريتان السابقتان مختلفتين نوعا. ففي الحالة الأولى نجحت المؤسسة في أن تزيح نير الفرعون، وفي الحالة الثانية ثارت الجماهير ضد المؤسسة نفسها. ولكن ثورتي الفترة المعرصة الأولى كانتا مشتركتين في أمر واحد. فقد كانتا ثورتين من الأسفل إلى الأعلى، وإن كانتا على مسعورين مختلفين وعلى دوجتين مختلفتين. أما ثورة أخناتون فقد جاءت من فوق.

كان صدام أخناتون الكبير مع الجناح الكهنوتي من المؤسسة. فقد تعاضم أخناتون، كما فعل سلفه الأسبق خوفو من الأسرة الرابعة، مع الكهنة حول قضية لاهوتية، ولكن الكهنة كانوا يرمها قد أصبحوا أقوى نقوذا. فقد كان خصوم خوفو من رجال الكهنوت هم كهنة هيليوبوليس، مدينة رع المقدسة. ومنذ أن صارت طيبة العاصمة السياسية لمصر الموحدة من جديد، أصبح رع، ورئيس المجمع الديني للمصري، مطابقا تماماً لآمون، وهذا كان إلها محليا في طيبة في وقت مبكر يعود على الأقل إلى حكم أئمنس الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة. وكان تحتمس الثالث قد نظم كهنة آلهة مصر المحلية جمعا في مؤسسة مصرية تحت رئاسة الكاهن الأعلى لآمون - رع.

كان أختاتون يضع سلطة الفرعون المطلقة الرسمية عمليا على محك التحدي لأكثر سلطة في العالم لمصري عدا سلطة الفرعون نفسه. ولعل أختاتون كان باستطاعته ان يتغلب على الكهنة لو أنه حصل على تأييد الشعب، ولعله كان يمكنه ان ينجح في هذا لو أنه تحدى الكاهن الأعلى آمون - رع نهاية عن الإله اوزيريس؛ ذلك بأن اوزيريس هو واهب الخلود، والمخلود كان أسعى غايات لمصريين. وعلى كل فان أختاتون لم يكن يتأصل في سبيل الخلود، بل في سبيل الوحيانية؛ ومثل الوحيانية لم تجعل الحرارة تنبع في قلوب الشعب، إضافة الى أنها اعتبرت خطرا بهذه المصالح الثابتة للكهنة. وكان إله أختاتون الأوحده، وهو درع الشمس (أتون)، مجرد إله رجل واحد ومع ان الرجل الوحيد هذا كان فرعونا، فلم تكن حتى قوة الفرعون من العرجة بحيث تتغلب على مؤسسة كهنوتية كانت تعلم مجعها دينا قدامه التقاليد.

فلم يكن من المستغرب أن يفضل أختاتون في أن يستبدل آمون - رع وبغية الجمع التقليدي بأتون، إلا أنه من المجدد بالاعتصام أن ثورة أختاتون، على كل حال، تركت أثرا دائما. فقد أعيد إلى آمون - رع اعتباره، إلا أنه تبدل مظهره بحيث أصبح يشبه الإله الأوحده الذي حاول أختاتون إبدال آمون - رع به، ولكن دون جدوى. وقد نظم أختاتون ترميزية لأتون باعتباره واهب الحياة لكل المخلوقات في الكون؛ والفراتيم التي نظمت لآمون - رع في الفترة التي عرفت ذلك تحمل لنا الإله القديم في هيئة الإله الجديد الذي لم يتم نموه.

ونقل أختاتون العاصمة إلى مدينة جفينة، وكان قد سبقه إلى ذلك كهرون. فقد رحل فراعنة المنطقة القديمة من نخن - نجب نزولا من النهر أولا إلى نخس ثم إلى ممفيس. ومؤسس الأسرة الثالثة عشرة رحل من طيبة إلى إز - نوي، وهي مدينة جديدة لا بعد كثيرا من ممفيس صغرها مع النهر. ولما وعده مؤسس الأسرة الثامنة عشرة الطيبى عصر ثانيا، عدلت طيبة إلى مكانتها كعاصمة. ورحل أختاتون إلى أختاتون (نال المسارة الحالية) التي كان قد بناها في نقطة متوسطة تقريبا بين طيبة وممفيس. وعجرت هذه المدينة الجديدة بعد وفاة أختاتون، وعادت العاصمة إلى طيبة. ولم تكن طيبة قريبة إلى الحد الجنوبي للعالم لمصري بحيث يشكل ذلك إزعاجاً للحكم، إذ أن الامبراطورية كانت قد انتصت حدودها إلى نياتا في أعالي النيل. ومع ذلك فلم تنس طيبة طويلا بهذا العهد الذي استعاضته، وهو كونها العاصمة الوحيدة للمنطقة الحديثة. فقد نقلت العاصمة

الحربية إلى الشمال، وقد كانت أبعد شمالا بكثير من موقع اختاتون، وذلك لمقابلة الضغط من المناطق الشمالية الشرقية الذي بدت آثاره حتى في لجام اختاتون. وقد حكم الحمدي الضحور حور محب (الحاكم الفعلي من نحو ١٣٤٩-١٣١٩ ق.م) الإمبراطورية من ممفيس. وتبل أن تلفظ للمملكة الحديثة أنفاسها انتقلت العاصمة الحربية إلى مكان أبعد في اتجاه شمالي شرقي هو تنيس في الزاوية الشمالية الشرقية من الدلتا، في الموقع الذي كانت تقوم فيه عاصمة الهكسوس أفريس أو على مقربة منه.

كان اختاتون ثكرا في مجالي الأدب والفن المتطور كما كان كذلك في مجالي الدين والسياسة، وترك طابعه في هذين المجالين أيضا. فقد أخذ نفسه باستعمال لغة زمنية الحية في الأدب وحذف عن الكتابة القديمة، واستمر هذا التجديد بعده حصورا حتى أصبحت هذه اللغة الحية بالذات، أي لغة القرن الرابع عشر ق.م. بدورها لغة ميتة. وفي مجال الفن كان يدعم الطبيعة والصدق في تمثيل الحياة بما في ذلك تمثيل الشخصية التي هي عادة المظهر.

لعل اختاتون انجس تفوق الطبيعة من الموبين. توجد على جدران القبور المصرية التي تعود إلى المملكة الحديثة صور تمثل سنوين يحملون ما يبدو كأنه مصنوعات ميكانيكية لا متوبة، وهذا دليل على أن صلات تجارية وحضارية كانت قائمة بين مصر والعالم الإيجي في ذلك الوقت. كان اختاتون نفسه جبرته إلى العمل، فضلا عن ذلك فقد استوحى زمانه ومكانه. فالإمبراطورية التي ورث عرشها كانت مسكونية - ولم يكن هذا بالطبع بالملول الجغرافي للكلمة أي أنها كانت تسمى الأوكسين ماكنس، بل بالملول الحضاري إذ كانت تدخل في تركيبها نماذج طيبة من مختلف الحضارات البشرية. فقد كانت هذه أول إمبراطورية مسكونية بهذا المعنى. وليس من قبيل المصادفة أن يكون أحد ملوكها أول موحد حفظ لنا التلويع عبره ذلك بأن توحيد اختاتون كان فكرة للمسكونية، التي عبر عنها بالرمز الديني. فلم تصور آتون إلها محليا، بل رب الكون كله، وقد دلت على أن توتون حاضر في كل مكان بأن بنى له الهياكل في سورية وفي النوبة كما شادها في مصر.

ولم يكن للإمبراطورية المصرية المسكونية نظير في المشرق خلال القرون الأولى من وجودها. فقد كانت بلاد بابل الواقعة تحت حكم الكاشيين البربرية، عابرة سياسيا. وعلى كل فلم تكن من الناحية الحضارية في سيرة شبانها. وقد كان هذا العصر هو

العصر الذي دونت فيه الموضوعات الملحمية، التي ورثت عن السومريين في القوالب الكلاسيكية باللغة الأكديّة: مثل غلغامش في بحثه عن شجرة الحياة؛ هبوط عشتار (أنانا) إلى العالم السفلي، قهر الإله الشاب مردوخ للقوضى، وترؤسه لمجمع الآلهة السورية - الأكديّة جزء له على إعادة النظم إلى الكون. وقد تدلّول الناس هذه القصائد الأكديّة حينما نطق باللغة الأكديّة، وقد كانت يومها قد أصبحت لغة العلاقات الدبلوماسية في المشرق، بما في ذلك الإمبراطورية المصرية. وقد كان من الإدارات التي لا غنى عنها للحكومة المصرية في هذا الوقت مكتب للمحفوظات حيث كان الكتاب يكتبون اللغة الأكديّة بالخط السومري على ألواح الآجر. إذ بهذه الوسيلة كانت الحكومة المصرية تتواصل مع الدول الناصرة لها في سورية ولبنان وفلسطين. فقد كانت سيطرة مصر العسكرية السياسية تقابلها السيطرة الحضارية للغة الأكديّة.

ولم يتح لمصر أن تسلم من التحدي على المستويين السياسي والعسكري. لقد ظل الحثيون هادئين منذ غزا مرشيليش الأول بابل في سنة ١٥٩٥ ق.م. ولكنهم عادوا إلى شنّ الحروب بقيادة شيلولوما (حكم نحو ١٣٧٥ - ١٣٣٥ ق.م.) وكان ذلك في أيام أمعاتون. وقد أخضع شيلولوما كيزوولدا، جارة خطمي في الجهة الجنوبية من أسية الصغرى، وسحق ميتاني ونجح في أن يحصل دول سورية الشمالية التي كانت تابعة لمصر على نقل ولائها إليه، وذلك أما بالتزود إليها أو بإرسالها على ذلك. ونجح خطيفة شيلولوما الثاني مرشيليش الثالث (نحو ١٣٣٤ - ١٣٠٦ ق.م.) في احتلال ارزاوا في غرب أسية الصغرى وضمها إلى دولته، وهي التي كانت إلى ذلك الوقت مساوية لخطمي. وقد تمّ ذلك قبل نهاية القرن الرابع عشر ق.م. وفي بداية القرن الثالث عشر ق.م. وكانت خطمي قد أصبحت دولة على مستوى مصر، ومن ثم فقد اقتتل رمسيس الثاني (حكم ١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م.) وحفيد شيلولوما، موا تاليش (حكم نحو ١٣١٦ - ١٢٨٢ ق.م.) في سبيل السيطرة على بلاد الشام. ولم يمكن انتصار الحثيون حاسماً في معركة قلاش التي جرت نحو ١٢٨٦ / ٥ ق.م. فرّت الدولتان المتقاتلتان عنهما أنه لم يعد في وسعهما أن تستمر في الحرب في ما بينهما. وذلك بسبب أنهما كانا معرضين لأعداء مشتركين: كانت قوتهم تنزله باستمرار. ومن ثم فقد اتفقتا على عقد صلح مصلحة الفريقين سنة ١٢٧٠ ق.م. اقتسما بموجبه بلاد الشام في ما بينهما إلا أن نيهما إلى واقع الحال جاء متأخراً. ففي الشرق كانت آشور مصير الخطر، وفي

العرب كان المعتدون هم الليكانيون وجموع أخرى من شعوب البحر الفلقة السريعة التقل.

كان الأشوريون، في القرنين العشرين والتاسع عشر ق.م. تجارا نشيطين في المدى البعيد، وذلك قبل أن يظفي عليهم طوفان الانسحاق اشهي الميثاني. وفي ايام آشور أبالت (حكم ١٣٦٥ - ١٣٣٠ ؟ او ١٣٥٦ - ١٣٢٠ ق.م.) عاد الأشوريون إلى الظهور في دور خطير جديد كمحاربين معتصمين. وقد قاد أدد - نيراري الأول (حكم ١٣٠٧ - ١٢٧٥) وشلنصر الأول (حكم ١٢٧٤ - ١٢٤٥) جيوشهما غربا إلى كركميش عبر الجزيرة. وقد احتل توكليتي - نيترا (حكم ١٢٤٤ - ١٢٠٨ أو ١٢٣٤ - ١١٩٧ او ١٢٣٠ - ١١٩٨ ق.م.) بلاد بابل احتلالا مؤقتا. على أنه قبل أن يتاح للأشوريين أن يجتازوا الفراع الهنئ لتهر الفرات ردهم على أعقابهم انسحاق شعوب جديدة، إلى موقف دفاعي. وهذا الانسحاق كان قد بدأ قبل نهاية القرن الثالث عشر ق.م.

فالمدينة المنيرة، في حوض البحر الإيجي، لم تهض من كبوتها التي دمرت فيها القصور الكريشة نحو ١٧٥٠ - ١٧٠٠ ق.م. فحسبه بل بلغت القصة خلال ربع الألف التالي - في الفترتين المبيتين المبنوة للوسطلة الثالثة والمنيرة للفترة الأولى. ولا شك أن الهجوم البربري، الذي لف البر اليوناني نحو سنة ١٩٠٠ ق.م. والذي يعود إليه إدخال اللغة اليونانية هناك، أنشأ ولادة مدينة إقليمية هناك. أما كريت، التي سلمت من هذا الهجوم، فقد سبقت البر الأصلي بعيدا في غضون القرون الثلاثة التالية، بحيث أن البر الأصلي تلقى، وبشكل فجائي، فتون المدينة المنيرة في وقت متأخر من القرن السابع عشر أو وقت مبكر من القرن السادس عشر ق.م.

وقد بدا وكأن البر الأصلي، بسبب نلفه القوي والبعيد المدى لهفه المدينة، كان على وشك أن يستوعبه العالم المينوي ثقافيا، على نحو ما استوعبت سوسر أكد في الألف الثالث ق.م. وعلى كل فقد أكد البر الأصلي اليوناني على وجود شخصية حضارية ذاتية متميزة على نحو ما فعلت آسية الصغرى لما تلقحت بالتأثير الحضاري السومري الأكدي. وقد تطورت المدينة الميكانيكية القارية - سميت بهذا الاسم لأن ميكاني كانت ألح بقمة فيها - جنباً إلى جنب مع المدينة المنيرة في الفترة المبنوة للفترة الأولى، وفي نحو ١٤٨٠ - ١٤٥٠ ق.م. قضت عليها.

كانت المدينة المينوية قد نجت من كلوثة طبيعية عظيمة، وهي الانفجار الكبير الذي حدث في الجزيرة البركانية تيرا (ستوروني) نحو ١٥٠٠ ق.م. وقبل الانفجار كانت تيرا نفسها قد عجزها زلزال. وقد وصل ثمر الانفجار (لا الزلزال الذي سبق) إلى سواحل كريت الشمالية أو الشرقية. لكن لشكبة التي حلت بكريت في ما بعد، نحو ١٤٨٠ - ١٤٥٠ ق.م. كانت أشد فتكا؛ وتشير الدلائل الأثرية إلى أن هذه الشكبة الثانية كانت من صبح البشر. وقد سلم كورنثس، وهو القصر الرئيس في كريت في هذه المرة، بينما دمرت كل القصور الموجودة في الجزيرة. وترتب على ذلك أن ظهرت في كنوسس، حالا بعد ذلك، حضارة محلية هي المعروفة باسم المينوية المتأخرة الثانية، التي لم تسهم فيها بقية جزيرة كريت. وقد كانت هذه الحضارة الكنوسسية المحلية عسكرية النزعة، وحكما مبني على ما عثر عليه من الأسلحة؛ وقد كان فخلوها ميكانيا في أسلوبه. ويبدو من الدليل الأثري أن جماعة من المهاجمين من ميكاني احتلوا كنوسس، نحو ١٤٨٠ - ١٤٥٠ ق.م. واتخذوها قاعدة لعمليات عسكرية لمهاجمة مراكز المدينة الأخرى ودمروها.

كانت هذه الشكبة الأولى في سلسلة من الشكبات البشرية المصنع التي حلت بسكان حوض البحر الإيجي في غضون القرون الثلاثة التالية. فقد دمر قصر كنوسس بميد ١٤٥٠ ق.م. - ولعل هذا ثم على أيدي موجة ثانية من المهاجمين القاريين من ميكاني. ودمر القصر الميكاني في طيبة حوالي الوقت ذاته أو لعله بعد ذلك - نتيجة لقتال داخلي، هذا ربما إذا كان هناك دوة من الحفيدة في الأسطورة التي عاشت حتى العصر الهليني للتراث اليوناني. وعلى رغم هذه الشكبات كلها، فإن المدينة الميكانية المزدهرة في القرن الرابع عشر ق.م. ولعله بسبب احتلال كنوسس نحو ١٤٨٠ - ١٤٥٠ ق.م. كان أن اخترعت كتابة مقطعية صوتية - التي تعرف باسم الخط - ب، هـ، تقليدا للكتابة المعروفة باسم الخط - أ. وكانت الأولى تستعمل لتدوين حبيبة اللغة اليومية المسئلة للمعصر الميكاني، بينما كانت الثانية قد اخترعها المينويون قلا لتدوين لغتهم، وهي اللغة التي لم تحمل رمورها بعد. وقد بلغ الصناع الميكانيون المستوى الذي كان عند معطيهم المينويين. والميكانيون الذين بنوا القبور الشبيهة بغير النحل نافسوا نظرائهم من المصريين في للهاجرة والدقة في فن البناء. وقد كانت للميكانيين تجارة واسعة في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م. مع الشرق، بحيث وصلت تجارتهم إلى أوغلايت (رأس شمرا)

الواقعة في أقصى طرف إلى الساحل السوري الشمالي، ووصلت إلى مصر جنوباً، وغرباً بدت صقلية. وقد كان هؤلاء الميكانيون على استملاك للتجارة والغزو، والاختيار كان متوقفاً على أي التشاطين كان أوفر ربحاً.

اشتدت النزعة العسكرية في ميكاني ضراوة في القرن الثالث عشر ق.م. فالتقصير الميكاني في الجهة الشرقية من بلاد اليونان في ميكاني نفسها، وفي ثيرنس بمنطقة أرغوليد، والأكروبوليس في أثينا، على سبيل المثال - ريدت تحصيناتها قوة، وبذل جهد كبير لصيانة الماء اللازم للمدافعين فيما إذا حوصرت القلعة. وقد أصاب الشاطئ الشرقي للبحر الإيوني أيضاً، في القرن نفسه، نكبات بشرية متعددة: فقد دمر المهاجمون مدينة طروادة السابعة نحو سنة ١٢٦٠ ق.م. كما كانت الإمبراطورية الحثية، الواقعة إلى الجنوب من ذلك، تعاني الاضطراب للتزايد. فقد كان أبهر على الحثيين أن يقضوا على منافسهم إمبراطورية أرزاولا من أن يسيطروا على البلاد سيطرة فعلية. وقد تمخض الفوار المهليون والتدخلون للميكانيون الحكم الحثي في غرب آسيا الصغرى. وقد كانت الإمبراطورية الحثية والإملوات الميكاني في بلاد اليونان الفارية وفي كريت مزودة بالآلة الإدارية الدقيقة والكتابة. لكننا نخمن، بناء على ما حدث في ما بعد، أن الطبقة المتعلمة، في آسيا الصغرى وفي بلاد اليونان كانت أقلية ضئيلة، وأن البيروقراطية كانت عبئاً ثقيلاً لم تتحمله الأسس الاقتصادية للدولة دون أن يسببها من ذلك جهوداً كبيراً.

ومعنى هذا أن المنطقة الواقعة إلى الغرب من مصر ومن العالم السومري الأكدي كانت، في القرن الثالث عشر ق.م، تصبغ عن اضطراب. والوضع المعاصر في الهند كان يلفه الغموض. فليس لدينا أي دليل أثري يمكنه من تعيين الزمن الذي قضى فيه المهاجمون المتكثرون باللغة العسكرية الأولى على المدينة السندية. فلما كان هؤلاء قد تدفروا من السهوب الأوراسية في القرن الثامن عشر ق.م، فلمعهم وصلوا إلى الهند بالسرعة نفسها التي وصلوا بها إلى بلاد بابل والجزيرة إلا أنه من الممكن أنهم احتاجوا إلى بضعة قرون إضافية حتى اكتشفوا طريقهم من حوض لوكسي - جاكسارتس (ام دلريا - وسرداريا، بلاد ما وراء النهر) إلى حوض الهند عبر جبال هندوكوش.

وظهرت مدينة إقليمية في الصين - سبت شانغ (اوين) باسم الأسرة المؤسسة - وذلك نحو سنة ١٥٠٠ ق.م. واقتبست بعض عناصرها من المرحلة السابقة (أي مرحلة الفخار الأسود اللوينغ - شاني) وهي حضارة العصر الحجري الحديث الإقليمية؛ ولم يرافق ظهور

المدينة في الصين تبدل في الموقع، على نحو ما حدث في الهلال الخصيب في جنوب غرب آسيا أو في مصر. ففي الصين، كما كانت الحال في المشرق، كانت حصارة العصر الحجري الحديث الإقليمية تعتمد على الأمطار لري المزروعات. إذا أنها كانت قائمة في منطقة مرتفعة نسبياً ومكونة من تربة رسوبية تسفيها الرياح، وهي التربة التي كانت قد ترسبت في كانتسو وفي حوض واي، واند النهر الأصفر وفي مكان أبعد شرقاً في مجال لتقسيم المياه بين النهر الأصفر، من جهة، ونهري هان وهواي من جهة ثانية. وهذا هو المكان نفسه الذي قامت فيه مدينة شانغ التي خلفت حضارة العصر الحجري الحديث اللونغ شانغ. وبناء هذه المدينة لم يشقوا التربة الغرينية المترسبة في قيعان الأودية للزراعة والاستقرار. ولم يصبح ضبط الماء على المستوى السومري والمصري ظاهرة بارزة في الاقتصاد الصيني إلا بعد مرور نحو ألف سنة على ظهور أقدم مدينة في الصين.

فمن هذه الناحية كانت الفجوة بين هذه المدينة وبين سابقتها أي حضارة العصر الحجري الحديث في حوض النهر الأصفر أقل مما كان بين المدينة السومرية وسابقتها أي حضارتي العصر الحجري الحديث في ما بين النهرين وإيران. إلا أنه كان هناك انطلاق جديد ينطبق على المكتائين وتصح المقارنة فيه. ذلك بأن الانتقال من حضارة العصر الحجري إلى المدينة في الصين، لازمه كما حدث في سومر قبل، تباين واضح في الثروة والامتيازات بين الحكام والمحكومين. فالقابر الملكية في شيانغ، وهي آخر مدنية اتخذت حاصمة لأسرة شانغ، تشبه قبور الأسرة الأولى في أور، مع أن هذه أقدم من تلك بما يزيد عن الألف من السنين. فقبور شانغ، هي الأخرى، فخمة، ومحتويات القبر، التي تضم بينها ضحايا بشرية، فيها طابع السخاء. ففي سومر يسر تزيين الثروة الجماعية، الناسء من شق الغرين للزراعة، لأقلية مسيطرة أن تعيش - وإن تموت - برغاسة. أما في الصين فقد مرض هذا التبدل للثمر للأحقاد على الجماعة دون أن يصاحبه أي زيادة في جماع الموارد الاقتصادية للجماعة.

وقد ظهرت في الصين عند فجر المدينة: تجديدات تذكرنا بتلك التي رافقت ظهور المدية الماعجية، على ما يبدو، في كل من حوض السند وفي مصر، على أن المدينة هنا أيضاً قد تمت ولادتها بحافز من الخارج، على عكس التطور الذاتي الظاهر في المدينة السومرية.

وأحد هذه التجديدات المفاجئة كان استعمال المركبات التي تجرها الخيول، ولا بد أن

هذا قد وصل إلى الصين في عصر شائع من السهوب الأوراسية في القرن الثامن عشر ق.م. أو بعد ذلك. والتجديد الثاني هو استعمال الكتابة. واختراع كتابة عصر شائع في الصين، والتي اشتقت منها بالتأكيد الحروف الصينية الكلاسيكية، لا بد أنه كان نتيجة إبداع متأثر من النموذج السومري، على نحو ما حدث من اختراع الكتابة الهيروغليفية المصرية. وقد يكون التأثير هذا بعيداً وغير مباشر. والحروف الصينية، مثل الهيروغليفيات المصرية، لها أسلوب مميز خاص بها، لكن تركيب الكتابة بالذات هو سومري. وهذا التركيب - وهو استعمال غير منطقي، كما أنه تنقصه الرشاقة لصور فكرية فونيمات مصفوفة واحدها إلى جانب الأخرى - أعرب من أن يعقل أنه اختراع ثم مستقلاً في ثلاث مناسبات. وثالث هذه التجديدات المفاجئة الذي عده في الصين عند فجر المدينة هو استعمال البرونز لصنع الأدوات والأسلحة والأوعية المستعملة في طقوس التضحية؛ وهذا الفن لا بد أنه وصل إلى الصين من الغرب أيضاً. والبرونزيات الشائفة، مثل الكتابة الشائفة، لها أسلوب خاص بها كان قد أصبح صينياً متميزاً؛ فالأوعية البرونزية دقيقة المنح، والتقنية التي تبرزها هي على درجة عالية من المهارة. ومن الممكن أن هذه الأوعية كان لها طرز بدائية من الخشب صنعت في العصر الحجري الحديث وقد ضاعت آثارها بالمرّة. لكن هذه الفرضية (وهي ليست أكثر من ذلك) قد تفسر ما يبدو أنه ظهور مفاجيء للإسلوب الفني وحده، إلا أن الاكتساب المفاجيء للتقنية المعدنية يظل بحاجة إلى تفسير.

يوجد في البرونز الشائفي محتوى عالٍ من القصدير - سبعة عشر بالمئة - وأقرب مصادر النحاس إلى حوض النهر الأصفر هي الملايو واليونان؛ لكن تقنية مزج النحاس بالقصدير وصب التشوج المركب لا يمكن أن تكون قد وصلت إلى حوض النهر الأصفر من الجنوب. فإن أقدم صناعة للبرونز في جنوب شرق آسيا - وهي المسماة دونغ سون، باسم مكان في شمال فيتنام - لا تعدو لنصف الثاني من الألف الأول ق.م. ومع ذلك فمن الممكن أن يكون المعدنان قد استوردا من الجنوب إلى حوض النهر الأصفر، حتى ولو أن تقنية العمل فيهما قد جاءت من مكان آخر. وقد تكون منطقة آسيا المدارية مصدر المعدنين بالنسبة إلى الصين الشائفية، لأن المدينة الشائفة فيها عنصر أساسي من أصل مداري، إضافة إلى العناصر التي ورثتها مما سبقها من حضارة العصر الحجري الحديث في شمال الصين، وإضافة كذلك إلى المتأخر الأخرى التي كانت قد وصلت

شمال الصين من الغرب عبر السهوب الأوراسية. فقد كان صينيو العصر الشانغي يزرعون الأرز كما كانوا يزرعون القمح والقمح؛ وكان عندهم الجاموس المائي كما كان عندهم الأبقار العادية؛ وواحد من نوعي الخنزير المروقيين عندهم كان من أصل جنوبي.

ولا بد أن الجاموس المائي ونبته الأرز قد تم تدجينهما أصلاً في منطقة مستنقعية مدارية. والجماعة التي دجنتها كانت ولا ريب على مستوى حضاري مساو لمستوى أهل العصر الحجري الحديث، وهم لولئك الذين سبق وجود حضارة من مستوى حضارة العصر الحجري الحديث السابق للعصر الشانغي في أي مكان في المنطقة المدارية في اسبة إلى الجنوب من حوض النهر الأصفر. والمدينة الإقليمية التي كانت، على بعداء، الأقرب إلى حوض النهر الأصفر جغرافياً هي المدينة المستنقعية. ولكن حوض السند وحوض النهر الأصفر تفصل بينهما لا مجرد المسافة بحسب بل هناك أيضاً سلسلة حواجز جبلية. يضاف إلى ذلك أنه ليس ثمة من دليل على أن المدينة الهندية امتدت شرقاً وجنوباً إلى الأجزاء الهندية التي نجد اليوم فيها أن الأرز هو المنتج الزراعي الأساسي لا القمح.

وهكذا فإن مصدر العناصر المدارية في المدينة الشانغية لا يزال لغزاً. نقول الرواية الصينية إن المنطقة الواقعة إلى الجنوب من حوض النهر الأصفر والتي أصبحت جزءاً من الصين، وبالأولى ما أصبح الآن فيتنام، لها وصلاتها المدنية لما أصبحت (أي أصبحت صينية). وقد تم جزء من هذا عن طريق تحمل شعبها الأصلي، والجزء الآخر جاء عن طريق انسحاب المستوطنين الصينيين من الشمال إلى المنطقة. ولا يمكن صرف النظر عن هذه الرواية مجرد اعتبار أنها تمكس تحاملاً حضارياً صينياً، ذلك أنها تلقى تأييداً في الوجود المستمر لمناطق صغيرة حتى القرن التاسع عشر م. يقطنها مواطنون متفردون بدائيون حضارياً في الأجزاء الجبلية للصعبة المرتقى في الجزء الجنوبي من حوض ينغسي نانغ. كما أنه لا يزال هناك شعوب بغالية تعيش في صحافة التخنوم بين الحد الجنوبي للصين الحالية وجيران الصين في جنوب شرق آسيا. ولا بد لنا بعد من العمل على الكشف عن المنطقة التي دجنت فيها نبتة الأرز والجاموس المائي أصلاً.

في الوقت الذي كانت المدينة الشانغية تظهر في حوض النهر الأصفر في الصين، كانت أميركا الوسطى تبدأ المرحلة «التكوينية» في الحضارة. ونستطيع نحن أن معادل هذا بالعصر الحجري الحديث في العالم القديم، إذا اعتبرنا أن اختراع الزراعة لا اختراع

نقبة صقل الأدوات الحجرية، هو الانجاز المميز للعصر الحجري الحديث. ففي نحو سنة ١٥٠٠ ق.م. كانت شعوب اميركا الوسطى قد انتقلت من « العصر البائد »، وهو العصر الذي كانوا فيه يعتمدون على جمع الأغذية والصيد لتحصيل قوتهم، إلى عصر جديد يسمى « التكويني » الذي اعتمدوا فيه على الزراعة لتوفير حاجات المعيشة. ولا يكاد يساورنا شك في أن تدجين الذرة الصفراء قد تم على يد الإنسان العاقل الأميركي الذي كان يقطن للبلاد قبل وصول كولمبس. والذرة الصفراء لم تكن معروفة في العالم القديم إلا لما استوردتها من أميركا الأوروبيون الذين وصلوا العالم الجديد لما هبوا اشبهط الأطلسي. ومع ذلك فإنه كان هناك تأخر زمني بين تدجين هذه متعة للطعام وبين إقامة نظام اقتصادي بحيث تصبح فيه زراعة هذه التينة الوسيلة الأساسية للبقاء، الأمر الذي لم يكن له نظير في تاريخ العالم القديم الاقتصادي. ففي العالم القديم جاء الانتقال من جمع الأغذية إلى الاعتماد على الزراعة كوسيلة أساسية للعيش، على ما يبدو، بعيد نجاح التدجين. وليس ثمة ما يدل على وجود تأخر زمني. وقد كان التأخر الزمني في اميركا الوسطى نحو ١٠٠٠ سنة، ومن الممكن أنه وصل حتى ٢٥٠٠ سنة. وهذا الفرق في السير في هذه المرحلة، هو الذي يوضح لنا السبب في التأخر الاقتصادي والتكنولوجي في المذنبات الأميركية السابقة لكولمبس، والذي لا يزال بحاجة إلى تفسير.

١٤- انسياب الشعوب في العالم القديم نحو ١٢٥٠ - ٩٥٠ ق.م.

إن كل المدنات الإقليمية في العالم القديم، من الليونة والمكانية في حوض البحر الابيض، إلى الشاتنية في وادي النهر الأصفر، تعرضت، في غضون القرون الثلاثة المسعدة من ١٢٥٠ إلى ٩٥٠ ق.م، إلى هجوم عنيف قامت به شعوب همجية نسبياً؛ وقد أدت هذه الاضطرابات إلى تشلات هامة في السكان. وحتى المهاجمون الذين كانوا قد ردوا على أعتابهم انتهى بهم المطاف إلى الاستيلاء عن طريق التسلسل السلمي على الأرض التي فشلوا في الحصول عليها بقوة السلاح. وترتب على ذلك في النهاية تبدل واسع النطاق في خارطة المدنات الإقليمية للعالم القديم. فقد أضعف هذا الأمر المدنات الأقدم منها ودمرت بعض من المدنات الأحدث، كما ظهرت بضع مدنات جديدة في الصدوع الجغرافية التي تنفتحت عنها الأنقض. وقد كان لانسياب الشعوب هذا أثر ثوري أكبر من ذلك الذي حدث في القرن الثامن عشر ق.م.

ونحن نملك دليلاً وثائقياً مصرها ممتدراً لانسياب الذي تم بين ١٢٥٠ و ٩٥٠ ق.م. وهذا الدليل فريد من نوعه، وهو يلقي الضوء على مسيرة انسياب الشعوب ونتائجها في مناطق أخرى. والدليل الأثري من المنطقة الابجية ينسجم تماماً مع الدليل المصري الوثائقي؛ نهر معاصر له مثله في ذلك مثل الدليل المصري، ولكنه يختلف عن هذا الأخير في أنه صامت. فالدليل المصري يضع بين أيدينا معلومات عن توليف تحت فيها حمرات الشعوب، وعن أسماء الشعوب للهجرة، وهي أمور لا يمكن استخراجها من تسلسل الفخار الرمزي؛ ومن آثار الحراب الذي أحدثه الإنسان في المنطقة الابجية. والصورة الذي يلقيه الدليل المصري على انسياب الشعوب في المناطق الأبعد إلى الشرق يثير لنا الطريق لكنه ليس واضحاً كلياً.

مسح سنة ١٢٢٠ ق.م. هاجم الليبيون (ليو) مصر من الغرب، وفي صحتهم

امشوش وغيرهم من الشعوب البربرية، كما كانوا قد تقروا بخمسة شعوب بحرية، واستطاعوا الوصول إلى الزاوية الشمالية الغربية من الدلتا قبل أن يصدعهم أو يهرمهم المروعون مرتفتاح (حكم نحو ١٢٢٤-١٢١٤ ق.م.)، ولم تكن هذه غزوة، بل ولا حملة حربية؛ لقد كانت محاولة للهجرة، ذلك بأن القدامين حملوا معهم بسائهم وأولادهم وأتاعهم وأموالهم المنقولة. وقد كان أحد الشعوب [البحرية] الخمسة المتهورة هو شعب لوكا الذين من المؤكد أنه جاء من جنوب غرب آسيا الصغرى؛ وكان الإغاثيون شعباً آخر من هذه الشعوب، الذي لعله جاء من بلاد اليونان القارية أو من كريت حيث كانت جماعة واحدة على الأقل من المهاجرين الإغاثيين قد استوطنت هناك. والشعوب الثلاثة الأخرى المتهورة من شعوب البحار كانت الشكشيل والشردن والتورش. وهذه الشعوب الثلاثة ظهرت، بعد نحو خمسمئة سنة، من جديد بأسماء المغلي والسرديني والترينوري (الأترسكيين)، فيما يظهر امشوش من جديد باسم للاكسي (أو الماخسي) في ما يسمى اليوم البلاد التونسية. لكن هذه المواقف الغربية لهذه الشعوب كما تبدو في الألف الأخير ق.م. قد لا تكون هي المواطن ذاتها التي هاجروا منها في سنة ١٢٢٠ ق.م. فهذه المواقف التي انتهوا إليها قد تكون الملاجئ التي اتخذها هؤلاء المهاجرون بعد ما فشلوا في الاستيطان في مصر.

وقد نقش مرتفتاح، في وقت لاحق، أخبار إنجازاته العسكرية، ولكنه لم يكتب بل ذكر انتصاره الساحق على الليبيين، بل ذكر أن «عطي» كانت تتمتع بالطم وأن أرض كنعان قد تعرضت للنهب واحتلت بعض أجزائها وأن إسرائيل قد دمرت. ويستفاد من ذكر هذه الأمور أن الإمبراطورية الحثية لم يكن قد قضى عليها بعد في أيام مرتفتاح، كما أنها لم تحاول أن تتخطى الحدود بين منطقة نفوذها ومنطقة نفوذ المصريين التي اتفق عليها في سنة ١٢٧٠ ق.م. وذكر إسرائيل يدل على أن الهجرة من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب كانت قد بدأت. وهذه الهجرة لم تحمل فقط قبائل إسرائيل ويهودا إلى أرض كنعان، بل حملت أيضاً جماعة من المتكلمين باللغات السامية وهم الكلدانيون، إلى الجزء الجنوبي العربي من سومر، وجماعة أخرى مثلهم: وهم الآراميون شمالاً إلى الطرف الشمالي من وادي الخلق الكبير، فيما هو اليوم تركية، وشرقاً إلى حدود آشور الغربية وحسباً في شرق إلى البلاد الواقعة بين ضفة دجلة الشرقية والنحدر العربي للهضبة الإيرانية.

وقد صد رعمسيس الثالث (حكم نحو ١١٩٨-١١٧٦ ق.م.) هجمات أخرى على مصر من الغرب، وذلك نحو ستي ١١٩٤ و ١١٨٨. ولكن الليبيين والمكسيين والقبائل الأخرى معهم) لم يتقوا بالشعوب البحرية في هاتين المناسبتين. ذلك بأن الشعوب البحرية، هاجمت مصر مستقلة هذه المرة وجاءتها من الجهة الشمالية الشرقية. وللمرة الثانية لم يكونوا يقصدون الفوز، بل الهجرة. وقد بدؤوا تحركاتهم من نقطة في الأرييل الإيجي (الذي لعله لم يكن موطنهم الأصلي) وساروا، برا وبحرا في وقت واحد، عبر آسيا الصغرى وبلاد الشام وسواحلها، ففوضوا على الإمبراطورية لحية، ولم يكتفوا بتخريب الجزء الأصلي منها أي عطي بل إنهم غيروا أروا في غرب آسيا الصغرى، وكودي (كيليكيا الشرقية ؟) وكركيش الواقعة على الكونغ الغربي للغرات، والأشيا (قبرص) كذلك. وبعد ذلك اتحدوا لهم محطة جديدة في عمور - وهي المنطقة التي سميت باسم العموريين الذين خرجوا من الجزيرة العربية نحو سنة ٢٠٠٠ ق.م. وهذه المنطقة يرجح أنها كانت تقع في الجزء الجنوبي من الأملاك السورية التابعة للإمبراطورية الحثية، التي كان قد قضى عليها الآن. ومن هنا تقدمت الشعوب البحرية ٤ برا وبحرا في وقت واحد، كما غلت من قبل.

يظهر ان رعمسيس الثالث اعتمد اعتمادا بسيطا بالدفاع عن أملاك مصر في فلسطين وجنوب سورية. ويبدو أن المهاجرين الإسرائيليين والآراميين كانوا قد استقروا هناك في ذلك الوقت. وقد ركز رعمسيس الثالث اهتمامه على مقاومة اسطول « شعوب البحر » وأبلى مصر في السنة الثامنة من حكمه (أي سنة ١١٩١ ق.م.) إذ انتصر في معركة بحرية على مفرقة من الزاوية الشمالية الشرقية للثلاث. إلا أن هذه النكبة البحرية لم تحل دون « شعوب البحر » والاعتقال من عمور برا والاستقرار نهائيا على الساحل الذي كان جزءا من أملاك مصر الآسيوية. وقد ظهر التشكل بين « شعوب البحر » في سنة ١١٩١ ق.م. كما كانوا قد ظهوروا في سنة ١٢٢٠ ق.م. لكن بقية أعضاء التحالف لم يكمروا أنفسهم في الرتين. ففي سنة ١١٩١ ق.م. كان حلفاء التشكل هم الدانو (داناوي) والتجكر (تويكروي) والبلست (الفلسطينيين) والوش (لم يتعرف عليهم بعد). ويبدو وكأن الدانو استقروا في كيليكيا الشرقية والتجكر في دورا، الواقعة جنوبي جبل الكرمل. فيما أنشأ البلست خمس دول - مدن في الطرف الجنوبي من فلسطين الساحلية.

وقد حفظت القبيود المصرية اسمي القتالدين الليبيين اللغين قادا تحالف الشعوب المهاجرة. وقد رد أولها مرتفتاح نحو سنة ١٢٢٠ ق.م. لما القلاد الآخر فقد صدد رعمسيس الثالث نحو سنة ١١٨٨ ق.م. إلا أن لسا أشهر من ذلك هو موسى، وهو بحسب الرواية الإسرائيلية، الذي قاد الإسرائيليين في تنقلهم من مصر إلى عبر الأردن الأمر الذي كان منطلقا لاحتلال بعض البلاد السورية [الفلسطينية] التي استولوا عليها في ما بعد، لكن القبيود المصرية لا تثبت تاريخية موسى. وثمة على الأقل مصريان يسميان موسى يظهران في القبيود المصرية العائدة إلى القرن الثالث عشر ق.م. ويبدو أن الاسم، بهذا الشكل الذي يظهر به، هو اختصار لاسم الهي مركب آخر هو موسى أو سه، ويكون عندها الجزء الأول من المركب هو اسم إله. والأمثلة المعروفة على هذا هي احمسي (اسوزيس) وتحتمس (تحتمس) ورامس (رعمسيس). وبحسب الرواية الإسرائيلية فإن موسى ربي في مصر وكان موحدا. وإذا كان في هذه الرواية شيء ذو قيمة فإن الأغلب احتمالا هو أن اسم موسى الكامل هو أتون - موسى، لأن عبادة أتون هي الدين التوحيدي الوحيد الذي له قيد في التاريخ المصري الفرعوني.

من المؤكد أنه بعد أن حلت اللغة على ذكرى الفرعون امنتون، ما كان من الممكن أن يعطى اسم مركب مع اسم قرص الشمس لأي مواطن مصري، دون أن يتعرض مثل هذا الشخص للمعقوبة. على أن الرواية الإسرائيلية تمثل موسى وكأنه قد قضى بعض الوقت، قبل أن يقود الإسرائيليين في غروجهم من مصر، في أرض كانت خارج سيطرة الحكومة المصرية. ومعنى هذا أنه إذا كانت ديانة امنتون قد اتيج لها أن تستمر، فإن ذلك كان في أرض ليست مصرية، ولكنها كانت مصرية سابقا. وتظهر الرواية الإسرائيلية أن موسى قد عقد اتفاقا، بعد الخروج، بين إسرائيل وإله اسمه يهوه. وقيل أن اسم هذا الإله لم يكن معروفا عند الإسرائيليين. وقد فسر اسمه (يهوه) تفسيرا مبديا بأنه يعني الحياة، أو الواهب الحياة، وهناك كتابا من صفات أتون.

وهذه الاعتبارات توحي بأن موسى قد يكون شخصا حقيقيا، مثل نظيره الليبيين واللدس قد يكونان معاصرين له وهما ملوكي ومشر، اثنتان وجودهما تاريخيا. وحتى لو أنه لم يقود الإسرائيليين خارج مصر قلعله كانت له خلفية حضارية مصرية. فتاريخية موسى لا تكديها الأسطورية قواضحة في العناصر الواردة في الرواية التي نقص تاريخ حياته. فبعض الشخصيات الشهيرة التي لا يرقى الشك إلى تاريخها أصبحت توهم

أبطالاً فولكلوريين أسطوريين. وعلى سبيل المثال فليس من ريب في تلوين قصة كورش الثاني، مؤسس الإمبراطورية الأخمينية، ومع ذلك فإن القصة الأسطورية المتعلقة بسجاة بطل بإعجوبة في مقلوبته من عظم كبير كان يهدد حياته، انصقت بقصة حياة كورش الثاني الطفل، على نحو ما انصقت بطقول موسى.

أنقذ المصريون بلادهم من فتح واحتلال بالقوة على أيدي مهاجرين برابرة، لكن الثمن كان غالياً. فقد أجهدت مصر وانقسمت البلاد نحو ١٠٨٧ ق.م. إلى دولتين (وهذا دليل ساطع على ضعف مصر) وقد استمرت طيلة عاصمة لواحدة منهما، فيما كانت تنسب، الواقعة في الزاوية الشمالية الشرقية للدلتا، عاصمة الثانية، ويبدو أن هذه أصبحت عاصمة للحمل العسكري المصري منذ أيام رمسيس الثاني نحو سنة ١٢٩٠ ق.م. ولما أرسلت حكومة طيبة وبنشون (دين آمون) نحو سنة ١٩٠٩ ق.م. إلى جيل (بيلوس) ليشاع الأخشاب من هناك، عومل باحتقار. حتى في هذه المدينة التي كانت شريكاً تجارياً لمصر لمدة نحو ألفي سنة. فقد رفض ملك جيل أن يقطع الأخشاب من جبل لبنان ليوساؤون، إلى أن تلقى ثمنها من الحكومة المصرية في تنيس. (لقد كانت الحكومتان المصريتان على وفاق في علاقتهما الواحدة بالأخرى).

وعلى كل فقد كانت النتيجة الأهم لصعد المصريين للهجوم الحربي الذي قام به الليبيون وشعوب البحر هي قيام حكم ليبي في مصر في نهاية الأمر؛ وقد تم هذا بطريقة تدريجية فواسها : الانسحاب السلمي ٤. فقد قامت أسرة جديدة (الأسرة الثانية والعشرون) نحو سنة ٩٤٥ ق.م. وليس فراعنتها الفاج المزروع وتسموا زعماء المشوش. ولا نعرف فيما إذا كان هؤلاء هم أحفاد أسرى الحرب الذين أسروا في السنوات ١٢٢٠ و ١١٩٤ و ١١٨٨ ق.م. أم أنهم كانوا سل الليبيين الذين دخلوا مصر سلمياً فيما بعد، وبموافقة المصريين أنفسهم. وعلى كل حال فإنه يبدو وكأن تسلل المشوش للحكومة الفرعونية نحو سنة ٩٤٥ ق.م. كان سلمياً وأن الأمر قد تم الاتفاق عليه بين الجندية الليبية والكهنة المصرية. فقد احترام الليبيون الاستقلال الذاتي لأربع دول هياكل - لا لطيفة فقط، وهي التي كانت تحت حكم الكاهن الأعلى لآمون - رع منذ نحو سنة ١٠٨٧ ق.م. بل أيضاً لهليوبوليس ومفيس وليتوبوليس؛ وقد تركت تحت حكم الكهنة المحليين للأكلية رع وقناح وحوروس.

وهكذا فقد استسلمت مصر في النهاية إلى انتصاح الشعوب البربرية. فالليبيون الذين

كان المصريون قد دحروهم ثلاث مرات على الأقل انتهى بهم الأمر إلى إنشاء طبقة عسكرية في مصر، وبالإشتراك مع الكهنة المصرية لوطنية، وذلك لما ظهروا في مصر وهم مدججون بالسلاح. وقد دون تلويزخ انساح الشعوب في مصر في فيود معاصرة له. أما في عبر ذلك من الامكنة، وذلك باستثناء ما يمكن أن يؤخذ من المعلومات المصرية الوثقة التي قد تشير إلى مناطق خارج مصر، فإن الدليل المعاصر هو أثري، أما دليها الأدبي فهو رجعي الرواية إذ أنه مستمد من روايات كانت قد مرت عليها، في بعض الحالات، أجيال عدة قبلها دوت. وفي المنطقة الإيجية ثمة تناقضات في عدد من الأمور بين الدليل الأثري والرواية، وهذا ينقص من قيمة الرواية، لكنه لا يضع بين أيدينا المعلومات الإيجية الصحيحة. وتاريخ انساح الشعوب في حوض البحر الإيجي بين نحو ١٢٥٠ و ٩٥٠ ق.م. يجابهنا بالكثير من الأحاجي التي لم يستطع الدليل الأثري أن يعيها إلى الآن.

لدينا الدليل الأثري على أن الضواحي الواقعة خارج القصر الحصين في ميكاني قد تعرضت لهجوم قبل نهاية القرن الثالث عشر ق.م. ونهب كل المقصور الميكانية، باستثناء الأكروبوليس في أثينا، نحو سنة ١٢٠٠ ق.م. وقد نهب قصر ميكاني للمرة الثانية نحو سنة ١١٥٠ ق.م. ومن ناحية ثانية، فليس ثمة دليل أثري على حدوث تخریب مماثل في كريت أو تساليا، وقد غبت أميكيا الشرقية والجزر الإيجية تماماً كما غبت الجزر الأيونية أيضاً. وقد أصبحت الزاوية الشمالية الغربية من البيلوبونيز، متخلوذة للجزر، ملاذا للاجئين الذين حملوا حضارة أجدادهم الميكانية معهم. ويشير الدليل الأثري أيضاً إلى أن موجات متعاقبة من اللاجئين الميكانيين احتلت قبرص خلال القرن الثاني عشر ق.م. وليس ثمة تناقض بين هذا الدليل الأثري الإيجي والدليل المصري الوثق المعاصر له؛ ذلك بأن رعمسيس الثالث لما ذكر أن هجرة د شعوب البحر ١ - وهي الهجرة التي أوقفها هو - قد بدأت من الجزر الإيجية لا يقول بأن الجزر نفسها قد عبرت، إلا أنه يقول بأن قبرص كانت واحدة من البلاد التي دمرها المهاجرون وهم في طريقهم إلى مصر.

كان الميكانيون قد دمروا الحضارة المينوية، والآن جاء دور مدينة الميكانيين بالغات لتتال حطها من التدمير. وبعد النكبة التي حلت نحو سنة ١٢٠٠ ق.م. فقد حوض البحر الإيجي أفضايقته. وقد نشأت كتابة مقطعية مستوحاة من واحدة من الكتابات الإيجية المخطية، إن لم تكن مشتقة منها أصلاً، واستعملت في قبرص لكتابة اللغة

اليونانية؛ وهي التي يبدو أن المهاجرين اليونان الميكانيين قد ادخلوها إلى قبرص في القرن الثاني عشر ق.م. وهذه الكتابة استمرت حتى بعد إدخال الحروف الهجائية البسيطة، وظلت تستعمل حينا إلى جنب مع هذه حتى القرن الثالث ق.م. أما في كريت وبلاد اليونان القارية فقد دخلت الكتابات الإيجية غياهب النسيان. وقد اكتشفت النقوش في آجر الأسر، وحلت رموز النقوش المدونة بالخط ب B تيمناً لذلك في القرون العشرين للميلاد. على أن الألفبائية لم تكن الخاصة الحضارة الوحيدة التي فقدتها بلاد اليونان لما سقطت المدينة الميكانية، إذ أن فن العمارة أعمل أيضا. ولم تصح المصاييح بعد ذلك، وكان ثمة فقر عام. واعتفى للذهب وتخلي الناس عن زي اللباس الأبيض الذي كان الميكانيون قد نقلوه عن المينويين. وإذا نحن أخذنا في الاعتبار عدد الأماكن التي نعرف انها استوطنت في القرنين الثالث عشر والثاني عشر ق.م. على التوالي، وجدنا أنه كان هناك هبوط كبير جدا في عدد السكان في المنطقة التي كانت المدينة الميكانية منتشرة فيها بشكل عام، ولو أنه كان هناك وادلت محلية في مناطق استقر فيها اللاجئون.

ليس ثمة دليل قاطع على أن المناطق التي دمرت، والتي هرب منها اللاجئون، قد احتلها المدبرون انفسهم. فإذا كان هؤلاء هم « شعوب البحر » فقد استمروا في سيرهم لنهب مناطق أخرى إلى الشرق والجنوب. على ما يبدو من شهادة الوثائق المصرية. ويبدو أن الجزء الجنوبي من البلو، بوز (ميسينا ولاكونيا) قد أفر من أهله تقريبا خلال القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق.م. ولكن حتى نحو سنة ١٠٥٠ ق.م. كان السكان الباقون في المناطق المعسرة، لا يزالون يحفظون بالمدينة الميكانية على صورة منقطة. وفي هذا الوقت بالذات أخذت مبنية جديدة، ذات أسلوب مميز خاص بها، تظهر في المنطقة التي كانت من قبل تقع تحت نفوذ المدينة الميكانية التي تحمي عليها الآن.

ثمة دليل أثري على أن استعمار أيونيا (وهي الجزء المتوسط من ساحل أسية الصغرى العربي) على أيدي سكان جاؤوا من بلاد اليونان بدأ في القرن العاشر ق.م. ولكن ليس هناك دليل أثري على وصول الشعب الذي كان يتكلم اللهجة الشمالية الغربية من اللغة اليونانية والذي عرف في زمن لاحق باسم الدوريين. والدليل على هجرتهم هو حارطة اللهجات للعالم المناطق باللغة اليونانية في الألف الأخير ق.م. ونجد على هذه الحارطة أن المنطقة التي يقطعها الناطقون باللهجة الشمالية الغربية تمتد امتداداً قريبا من ابيروس في الشمال الغربي إلى الدوديكانيز وإلى الزلوة الجنوبية الغربية من أسية الصغرى القارية في

المحبوب الشرقي. وقد كانت ثمة لهجة مختلفة، هي الأركادية - القبرصية، تستعمل الآن على جانبي منطقة اللهجة الدورية. وهذه اللهجة الدورية لا بد أن يكون قد جاء بها إلى قبرص اللاجئون الميكانيون اليونان الذين استقروا هناك. ولا بد أنها احتفظ بها في أركاديا لأن هذا الجزء، وهو قلب البلوبونيز، كان معقلا طبعيا لفلث. وفي الواقع فإن اللهجة الأركادية - القبرصية من اليونانية التي تعود إلى الألف الأخير ق.م. وثيقة الصلة باللهجة اليونانية من العصر الميكاني والتي تحتوي عليها الكتابة المعروفة بالخط ب B.

ليس من المعك أن يكون الانتشار الجنوبي الشرقي للناطقين باللهجة اليونانية الشمالية الغربية قد تم في وقت متأخر عن القرن العاشر ق.م. والدليل الأقوي على استمرار الأسلوب الميكاني للحضارة المادية في المنطقة التي دمرت محو سنة ١٢٠٠ ق.م. لا يحول دون احتمال وقوع الهجرة المساة باللهجة الدورية في وقت مبكر يعود إلى القرن الثاني عشر. فالهائجمون البرابرة يمكن أن يحوا آثار سهرهم بالقباس الحضارة المادية التي كانت لضحاياهم القمدين.

وقد بلغ التدمير الذي تم بسبب اتساح الشعوب بين نحو ١٢٥٠ و ٩٥٠ ق.م. حدّه الأقصى في حوض البحر الإيجي. ثمة عدد من الحالات المعروفة التي يحدث فيها أن تستبدل جماعة اللغائية كتابة بأخرى، لكن انعدام الألفبائية بالذات في حوض البحر الإيجي نحو سنة ١٢٠٠ ق.م. هو بعد ذلك حدث فريد، وهو يدلنا على عنف النكبة التي أدت إليه. وقد كان حظ مدينة آسية الصغرى أفضل. فمع أن الإمبراطورية الحثية قد قضى عليها، كما قضى على الامبراطوريات الميكانية، إلا أن الدول التي غطتها استمرت في شمال سورية وهي المنطقة التي انتزعتها الحثيون من أبدي المصريين؛ وهؤلاء اللاجئون الحثيون استمروا في استعمال الكتابة الهيروغليفية الفونيتية، التي كانت قد اخترعت في آسية الصغرى قبل اتساح الشعوب، مع أنهم تخلوا عن استعمال الكتابة السومرية في كتابة اللغة الهندية الأوروبية الحثية واللغة الأكديّة.

لقد كان للقضاء على الإمبراطورية الحثية نتيجة باقية وكان لها أهمية عالمية مدد قض ذلك على الحظر الذي كان مفروضا على انتشار تقنية إنتاج الحديد المطاوع الذي كان كالبرونز في قسوته. ويبدو أن هذه المبرقة كانت قد اكتشفت في آسية الصغرى. ولما وصل اليونان إلى البحر الأسود عزوا هذا الاختراع إلى شعب أسطوري، هو الخاليس، والذي عيّنوا موطنه على شاطئ آسية الصغرى الشمالي. وهذه المنطقة لم

تدخل في نطاق الإمبراطورية الحثية، ولكن الحثيين تمكنوا من احتكار الاختراع والحفاظ عليه لأنفسهم على أنه سر تمين للدولة. وقد كان ملوك الحثيين يهدون، بين العية والقبية، مصوغات حديدية على أنها هدايا مختارة تقدم إلى الحكام الأجانب؛ ولكن الحديد ظل يهتم به، خارج الإمبراطورية الحثية وحتى سقوطها، على أنه واحد من المعادن الثمينة.

ففي واقع الأمر نجد أن تقنية صنع الأسلحة والأدوات من الحديد المطاوع هي أكثر تعقيدا وأصعب نسبيا في حقلها من تقنية لطحات المساوية لها في الصلابة من البرونز. والدافع إلى استعمال الحديد يعود إلى سر الحصول على الحديد الخام من كل مكان تقريبا (طبعاً باستثناء أماكن معينة مثل المناطق الرسوبية في حوض دجلة والفرات الأدنى). فالحصول على النحاس الخام، إذا قبل بالحصول على الحديد الخام هو نادر؛ وأندر منه الحصول على القصدير. ولما كان البرونز هو مزيج من النحاس والقصدير فالأحوال التي تمكن المرء من إنتاجه هي أصلاً إمكان نقل الكتل للمدنية مسافات طويلة. ومن ثم فهناك لفظة لاستعمال الحديد بدل البرونز في الأماكن والأزمنة حيث تتعطل وسائل المواصلات.

وقد حدث هذا بعد سلسلة التكتلات التي أصابت العالم الإيجي في القرن الثاني عشر ق.م.، ومن ثم فلم يكن من الغرابة في شيء أن يبدأ استعمال الحديد لصنع الأدوات والأسلحة في أثينا نحو سنة ١٠٥٠ ق.م. وأثينا تقع على مقربة من آسيا الصغرى. وقد استمر استعمال الحديد هنا، على أنه للمدن الصناعي الأول، لمدة القرنين التاليين، ولكن إذ بدأت بعد ذلك وسائل الاتصال بالتحسن عاد البرونز إلى السوق لبعض الأغراض، لكنه كان يستعمل جنباً إلى جنب مع الحديد. وفي الجهة الثانية فإن الحديد لم يأخذ محل النحاس كمادة للأدوات إلا نحو القرن السابع ق.م. فقد صعد المصريون و شعوب البحر، ولم يصب حياتهم الاضطراب التام، وقد أصبح المصريون محافظين نتيجة رد الفعل على الثورة التي تلت سقوط المملكة القديمة. وقد كانت كمية الحجارة التي قطعت في مصر الفرعونية أكبر من أية كمية قطعت في أي مكان آخر وفي أية فترة تلت ذلك. ومع ذلك فإن أكثر ما قطعه المصريون من الحجارة تم قطعه بأدوات مصنوعة من النحاس غير المروج بأي معدن آخر. ذلك بأنهم لم يتقبلوا حتى البرونز بيسر. وقد كان حوض البحر الأصفر بعيداً عن المراكز الشرقية للمدنيات القديمة، ومع ذلك فإن الصينيين كانوا

قد حدثوا في صنع البرونز نحو القرن الخامس عشر ق.م. وقد أصبحت مهارتهم كصائمين للبرونز كبيرة. وكانت المصادر التي يحصلون منها على الحديد والقصدير دوماً في متناول أيديهم. وهذا يفسر بعض الشيء السبب في أن الحديد لم يتخط على البرونز باعتباره المادة الأساسية لصنع الأدوات والأسلحة حتى نحو القرن الرابع ق.م.

تظهر خارطة اللهجات في آسيا الصغرى في الألف الأخير ق.م. منطقة مفحمة للغة تركية - فريجية تمتد تقريبا من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، على نحو ما كانت تمتد المنطقة اليونانية «الدورية»، في حوض البحر الإيجي. وتكرر هنا ما حدث من قبل وهو أن اللغات التي كانت متشرة قبلا، وهي اللوقانية والمخية في هذه الحالة، استمرت على جانبي المنطقة: المخية في شمال سورية واللوقانية في غرب آسيا الصغرى (أي في ليكيا وكاريا وليديا). ولم يكن الفريجيون، على وجه التأكيد، مماثلين «لشعوب البحر». وقد دخلوا آسيا الصغرى من تراكيا، لا من الأرخبيل الإيجي، وملأوا فراغا كانت «شعوب البحر» قد امتلأته. لكن الدليل الأقوي لم يبين لنا تاريخ هجرتهم، كما أنه لم يبين لنا تاريخ هجرة اليونان المتكلمين بالدورية.

ويبدو أن تحركات الكلدانيين والآراميين كانت قد تمت قبل ذلك بمدة. لقد كان الآراميون في فلسطين قبل نهاية حكم الفرعون مرنبتاح أي قبل ١٢١٤ ق.م. ومن الجهة الثانية فإن ضغط الآراميين على الجزيرة وشمال سورية لا يبدو أنه كان شديداً في أيام الملك تغلت - فلسر الأول الآشوري (حكم نحو ١١١٤ - ١٠٧٦ ق.م.)، إذا تذكرنا أنه نجح في مسيرته غربا حتى وصل إلى شاطئ البحر المتوسط. وأشور لم يمسا أذى من انسيحاق الشعوب نحو ١٢٥٠ - ٩٥٠ ق.م. على نحو ما أصابها من انسيحاق الشعوب في القرن الثامن عشر ق.م. فقد وقعت في هذه الفترة تحت سيطرة ميثاني، أما في فترة ١٢٥٠ - ٩٥٠ ق.م. فقط حافظت على استقلالها. ولم «تسمر» شعوب البحر، في هجرتها الأخيرة التي انتهت سنة ١٢٩١ ق.م. نهر الفرات؛ كما أن نهر الفرات وسلسلتي جبال طوروس وقيتطوروس كانت حواجز قوية في طريق الفريجين في سيرهم باتجاه آشور.

تاريخ الهد بين سنتي ١٢٥٠ و ٩٥٠ ق.م. غير معروف. فقد يكون المهاجمون الذين كانوا يتكلمون اللغة السنسكريتية الأولية قد دخلوا حوض السند ودمروا المدينة السنديّة قبل ذلك بربيع الألف من السنين. والمرئي البديل هو أن لا يكون هؤلاء قد

وصلوا حوض السند إلا نحو سنة ١٢٥٠ ق.م. وعلى هذا فإذا كان هذا هو تاريخ وصولهم هناك، فقد تكون هجرتهم نتيجة لرحلتهم على أيدي مهاجرين انقصروا عليهم من السهوب الأوروبية من الخلف.

ففى على أسرة شائع في حوض النهر الأصفر أتباعهم التشو وقاموا مكانهم في سنة ١١٢٢ ق.م. إذا نحن قبلنا التأريخ المعترف به رسمياً، أو في سنة ١٠٢٧ ق.م. إذا اتبعنا حساباً آخر قد يكون أقرب إلى الصواب. وقد هاجم التشو سهل شمال الصين من حوض الواي، وهو وقد للنهر الأصفر، أي من الجهة التي يُعتقد أنها فوصلت للصين، في ما سبق من الزمن، بعض عناصر الحضارة من المناطق الواقعة إلى الغرب وذلك عن طريق السهوب الأوروبية. ولكن الدليل الأثري لا يشير إلى أن التشو حملوا معهم أية مجوهرات حضارية، والتبديل السياسي من شائع إلى تشو لا يبدو أنه أحدث صدها في لاستمرار الحضاري، على نحو ما حدث في بلاد اليونان نتيجة للقضاء على الإمارات الميكائية. ويبدو أن التشو كانوا صينيون، أو على الأقل أنهم قد أصبحوا صينيين تماماً حضارياً، قبل أن يحلوا محل شائع. ففنا الكتابة وصنع البرونز لم يبقا بعد تبديل الحكم فحسب، بل استمر في التقدم.

فضلا عن ذلك فإن تبديل الأسرة لا يبدو أنه أدى إلى تبديل هام حالي في التركيب السياسي للمجتمع الصيني. والدليل الأثري الذي يوضح النظام الشائني لا يشمل مصنوعات فحسب، بل وثائق أيضاً أي نقوشاً على عظام الموتى. فالذي كشف عنه النقيب في التيانغ، التي كانت بحسب الرواية التقليدية، العاصمة الخامسة من خمس عواصم متتابعة لأسرة شائع، يشير إلى أن هذه الأسرة كانت الدولة النافذة في حوض النهر الأصفر في فترة التيانغ. ولم يكشف بعد مكان معاصر يمكن أن يكون مركزاً لدولة قد تنافسها على منزلتها. وقد ظن أن تشينغ - تشو، الواقعة على نحو مئة ميل إلى الجنوب، كانت من قبل عاصمة لدولة شائع نفسها. وعلى كل فإن نقوش وعظام الموتى، تظهر أن شائع كلاً يقض مضاجعها الخوف من الأعداء - وقد أظهرت الحوادث أن هذا الخوف كان في محله.

لنا نستطيع أن نتيقن من الدليل الأثري لا مدى ما كان يقع تحت عمود شائع مباشرة، ولا مدى نفوذهم السياسي؛ إلا أنه من الواضح أن الدولة الشائنية لم تكن إمبراطورية مزودة بإدارة للولايات تحت إشراف فعال للسلطة المركزية على نحو ما بدت

عليه الإمبراطورية الصينية في تطوراتها المختلفة بعد توحيد الصين سياسياً في سنة ٢٢١ ق.م. على يد تشين شيه هوانغ - تي. ولقب « شيه هوانغ - تي » (الإمبراطور الأول) الذي تسمى به الملك تشنغ، وهو ملك الدولة المحلية تشن، الذي انتصر في محاربه، كان احتياراً موقفاً، ذلك بأنه لم تقم من قبل في الصين إمبراطورية مركزية تصمم كل المنطقة التي كانت تحت نفوذ المدينة الصينية المضاري. ولم تكن المملكة الشانغية من ذلك النوع. ومن البين أنها كانت أقرب إلى النظام الذي خلفها مباشرة أي نظام نشر، على ما صورته الرواية الصينية في ما بعد، في نظرتها التي تركزت إلى الزمن السابق.

وحتى في أيامها الأولى، وقبل أن تحمل بها النكبة (سنة ٧٧١ ق.م.) التي اضعفتها تدريجاً وبشكل عضال، لم تحكم أسرة تشو حكماً مباشراً سوى جزء صغير من البلاد. فقد كان حكمها، غالباً، لا يعدو كونه سيادة على عدد من الأتباع المستقلين استقلالاً ذاتياً، وكان عددهم سبعة أو تسعين تابعاً. وقد كان حكم تشو ضعيفاً، حتى في عهده، إذا ما قورن بالنظام الموحدوي الذي فرضه شيه هوانغ - تي على العالم الصيني بدءاً تقارب الثمانمائة سنة. ومن الجهة الثانية فإن حكم تشو كان الراجح حكماً قوياً، إذا ما قورن بحكم شانغ الذي سبقه. فقد حكمت أسرة تشو العالم الصيني المعاصر لها، حتى ولو أن الحكم كان غير مباشر. ويبدو أن أسرة شانغ، التي تغلبت عليها أسرة تشو، كانت تسيطر على جيرانها بالمفارات التي لم تؤد إلى إقامة أية علاقات قائمة على مؤسسات بين الدولة المسيطرة والمجتمعات شبه المستقلة التي تقع في متاولها، والتي كانت تثير الرعب بين أبنائها، لكنها كانت تخشاهما أيضاً.

٥١- ظهور مدنية أولئك ، في ميزو - اميركا

إن اسباح الشعوب (بين نحو ١٢٥٠ و ٩٥٠ ق.م) الذي كانت له آثار مزعجة، كالتي ذكرنا، في العالم القديم من حوض البحر المتوسط، في الجهة الواحدة، إلى حوض النهر الأصفر في الجهة الأخرى، لم يؤثر على الأميركيين؛ إلا أن حدثا واحدا قد وقع، في الفترة ذاتها، على الأقل في منطقة صغيرة من اميركا الوسطى. فبحر سنة ١٢٥٠ ق.م. انتهت مرحلة التكوين الحضاري إلى ظهور مدنية هناك. ومرحلة التكون هذه، في دورها القديم والمتوسط في العالم الجديد هي نظير مرحلة العصر الحجري الحديث في العالم القديم. والموقع الذي ظهرت فيه المدينة هناك يسمى اليوم سان لورنزو، ويقع في مرتفع من الأرض مكسو بالغابات، ويشرف على وادي كولزا كولكوس، وهو النهر الذي يحمل مياه الجهة الشمالية من بروز تيوباتيك إلى خليج المكسيك. وهذا هو أقدم موقع اكتشف حتى الآن لأقدم مدنية معروفة في الأميركيين - وهي المدنية التي أطلق عليها مكسيكوها الميثون - أولئك .

لم تكن مدنية أولئك في سان لورنزو قد وصلت دور الألفبائية بعد، لكنها أنتجت أصحالا ضخمة في البناء والنحت. ففي مجال البناء أقيم مركز لإقامة الشعائر الدينية، وقد دسح عن طريق توسيع الأرض ومناظرها وهندستها من جديد على مقياس واسع. وأصالح النحت المتميزة في سان لورنزو، وفي المواقع التي نلت ذلك، هي رؤوس بشرية صممت نححت في حجارة بالونية نقلت إلى سان لورنزو من مكان يبعد خمسين ميلا. وهذه الآثار المادية الباقية هي الأدلة لظاهرة على وجود سلطة بشرية كان بإمكانها أن تسيء المهارة والقوى البشرية على هذا المقياس العظيم في سبيل تحقيق هدف ديسي. وقد اتخذت لإله الأولئك الرئيس تماثيل مهولة هي هجين بين كائن بشري وغر، [من النوع الأميركي الاستوائي المنقط]. وعبادة هذا الإله كانت، ولا شك، القوة الروحية التي

دفعت الأولك الى تحقيق هذه الإنجازات اللادية. ولنا أن نخمن ان مثل هذه الإنجازات كانت في بعضها على الأقل، نتيجة عمل تطوعي قام به المؤمنون، إلا أنه يجوز لنا ان نحس أيضاً أن هذه الإنجازات كانت في جزء منها نتيجة السحرة الذي قام بها غير المؤمنين من كانوا قد غلبوا على أسرهم في الحروب؛ ذلك بأن سان لورنزو والأولكية دمرت بمع يدل على ما كان يضمه للمدعون من استياء وغضب.

بلغت مدينة اولمك الذروة في سان لورنزو بين نحو سنة ١١٥٠ و ٩٠٠ ق.م. قبل ان يقضى عليها بنصف في هذا الموقع. ولكن في مواقع أخرى، هي أقرب إلى ساحل خليج المكسيك، فقد ازدهرت مدينة اولمك بين نحو ٨٠٠ و ٤٠٠ ق.م. ولم نزل هناك قبل أن تترك آثارها في حضارة عدد من الأجزاء الأخرى من أميركا الوسطى.

وقد تناولنا في الفصل الحادي والعشرين [تحت] المراحل الأخيرة من مدينة اولمك كما فعلنا مثل ذلك أيضا بنظيرتها مدينة تشان، في الأنديز. وعلى كل فلنلاحظ هنا بعض صفات غريبة في آثار مدينة اولمك على ما اكتشفت في سان لورنزو. ففي المقام الأول ان مدينة تظهر إلى الوجود بعد ٢٥٠ سنة فقط من وصول الحضارة المحلية مرحلة التكون، هو أمر يدعو إلى الغرابة، كما يدعو إلى الغرابة وجود فرجة زمنية بينها ألف سنة على الأقل، وقد تصل الى ٢٥٠٠ سنة، بين تدجين الذرة الصفراء في أميركا الوسطى، وبين الوقت الذي تم فيه إنتاج هذا النبات الدجين بحيث استعصى به عن جمع الغذاء والصيد كمصدر ثابت للحصول على المواد الغذائية هناك. وقد تم هذا الانتقال نحو سنة ١٥٠٠ ق.م. وفي المقام الثاني، من الغرابة، هو ان الموقع في سان لورنزو لا يبدو أنه كان مركزاً لإقامة الشعائر فقط، بل مكاناً لاستيطان دائم، ولعل عدد السكان به قد بلغ نحو الألف. وفي المقام الثالث هو أن مدينة اولمك في سان لورنزو كانت قد بلغت القمة في الفن والتكنولوجيا، بين نحو ١١٥٠ و ٩٠٠ ق.م. واستمرت على هذا المستوى في المواقع المتأخرة التي وجدت فيها.

وفي الوقت ذاته كانت الحضارة التكوينية التي ظهرت في أميركا الوسطى نحو سنة ١٥٠٠ ق.م. آخذة في الانتشار وبخاصة نحو الجنوب. وفي سنة ٨٠٠ ق.م. كانت مدينة اولمك تظهر في الأراضي المنخفضة في ساحل المكسيك. كما كانت مدينة تشان واحدة في الظهور في البيرو. وفي ذلك الوقت كانت الحضارة التكوينية، لايميركا الوسطى - مما هي ذلك فن صنع الفخار وزرع الذرة الصفراء - قد انتشرت في الأجزاء

الرئيسية من الأميركتين - من أميركا الوسطى إلى البيرو، وهذان المكانان ذاتان. ويغلب القول على أن زرع الذرة الصفراء قد انتشر من أميركا الوسطى إلى الأجزاء الرئيسية من الأميركتين الواقعة على الجنوب من أميركا الوسطى - بما في ذلك البيرو والأجزاء المتوسطة من أميركا وكولومبيا والأكوادور الحاليين. فالدلائل تشير إلى أن أميركا الوسطى كانت المنطقة التي دجست فيها الذرة الصفراء أصلاً. وعلى كل فمهما كان الزمن الذي وصلت فيه الذرة الصفراء إلى السواحل الشمالية من البيرو من أميركا الوسطى، فمن المؤكد أن سكان البيرو كانوا يومها قد اخترعوا الروعة لأنفسهم، وذلك باستغلال عن أميركا الوسطى وعن العالم القديم. وثمة نوعان من النباتات المحلية التي دجنها سكان البيرو، وهما البطاطا (البطاطس) والكوينو، وهما من الممكن إنفاجهما في مرتفعات البيرو العالية، وحتى في المنحدرات الجبلية المدرجة صناعاً التي تعلو فوق الهضبة. فالزراعة لم تظفر بعد في مثل هذه الارتفاعات في أي مكان من الأويكومين.

١٦- العالم السومري - الأكدي ومصر نحو سنة ٩٥٠-٧١٥ ق.م.

كانت المدينة السومرية - الأكديّة والمدينة المصرية قد قامت بالقدر الأكبر من إنجازاتها الخلاقة الكبيرة في كل مجالات النشاط الإنساني، قبل نهاية الألف الثالث ق.م. وكانت قد فقدنا، في سنة ٢٠٠٠ ق.م. المسز السابق لهما، وهو انهما كانتا من قبل المدينيتين الوحيدتين في الأوريكومين. فقد ظهرت مدينات إقليمية أخرى الى جانبهما، وحدث في الوقت ذاته ان تعرضت كل منهما، وهما أقدم مدينيتين في العالم لنكبة قضت عليهما. وعلى كل فقد استجمعت كلتاهما قواهما، قبل بدء الألف الثالث ق.م. وهذه القدرة على استجماع القوى، نتج عنها قوة وقدرة على المقاومة مكنت المدينة السومرية الأكديّة من البقاء حتى بعد بدء التاريخ الميلادي، كما مكنت المدينة المصرية الفرعونية ان تستمر حتى القرن الخامس الميلادي.

عرضنا في الفصل الثالث عشر وصفا للدور الذي قامت به المدينتان الأوليتان في تنمية العلاقات بين كل المدينات الإقليمية في المشرق. ففي عصر المملكة الحديثة أقامت المدينة الفرعونية إمبراطورية عالمية التزعة وهي التي أصبحت بؤنة لصير الحضارات. وفي العصر ذاته أصبحت اللغة الأكديّة، التي احتوتها الكتابة السومرية، وسيلة لأعضاء صيغة كلاسيكية على الآثار الأدبية السومرية الأصل. وقد أصبحت هذه الآثار، في هذه الصيغة، جزءا من التراث الحضاري لمناطق كانت تقع خارج حدود العالم السومري الأكدي - وعلى سبيل المثال سورية وآسية الصغرى - وصارت اللغة الأكديّة، في الوقت ذاته وسيلة المراسلات الدبلوماسية ليس فقط بين الدول ذات السيادة في المشرق، بما في ذلك مصر، بل بين الحكومة المصرية والدول التي كانت تدور في فلكها في مملكة مصر ولبان.

صممت سومر وأكد بسبب الفشل السريع الذي تعرضت له الإمبراطورية التي أعادها

حمورابي إلى الوجود (١٧٦١ - ١٧٣٥ ق.م.) والتي كانت العالم السومري الأكدي بكامله، بما في ذلك آشور وماري وكركميش. وأنهكت مصر وتلقت إلى المستوى معه من العصر السياسي بسبب الجهد الذي بذلته في صد هجمات الليبين وشعوب البحر من ستي ١٢٢٠ و ١١٨٨ ق.م. ومع ذلك فقد ظل لكل من هذين المجتمعين الهيرين ولاية بعيدة هي التي احتفظت بحيويتها. إن آشور، كما ذكر، مع أنه كان قد تغلب عليها الانسحاب الشعبي المبني في القرن الثامن عشر ق.م.، عادت إلى الظهور في القرن الرابع عشر ق.م. كدولة محاربة. ومع أن آشور اضطرت إلى اتخاذ موقف دفاعي، للمرة الثانية، أثناء الانسحاب الشعبي الطويل الأمد، نحو ١٢٥٠ - ٩٥٠ ق.م. فقد نجحت في الحفاظ على هويتها السياسية واستقلالها. وعادت آشور إلى الاعتناء على جيرانها (من نحو ٩٣٢ - ٧٤٥ ق.م.) لكنها لم تكن قد بلغت درجة الحماسة الطائفة والعنف الوحشي، وهما الأمران اللذان أدبا بها إلى الانتحاء في نهاية المرحلة الثالثة من تاريخها، وهي المرحلة التي بدأت لما تولى نكتل قصر العرش سنة ٧٤٥ ق.م.

لم تعد مصر ولا للندية السومرية الأكديّة، في الفترة المتعددة من ٩٣٢ إلى ٧٤٥ ق.م.، مصرا رئيسا للخلق الحضاري، ولا حتى عاملا رئيسا في التواصل الحضاري. ففي هذه الفترة قامت المدينتان الإقليميتان الحديثة التي ولدت نتيجة لأثر انسحاب للشعوب، بهذين الدورين - أي الخلق والتواصل الحضاريين. وهذه الحضارات الحديثة كانت السورية واليونانية الهلنكية والهندية الفيدية والصينية. مع أن الصين عرفت استمرارية حضارية بين عصر تشو وعصر شانغ الذي سبقه، أكبر من الاستمرارية التي كانت بين المدينتان الحديثة (التي قامت إلى الغرب من الصين) ونظائرها من المدينتان السابقتين لها. ومع ذلك فإن أقدم مدنيّين إقليميّين لم تكونا قد استغنتا كل مقدراتهما على الخلق الحضاري. فقد كان لهما بعد من المجاذبة ما يستهوي الأنصار المؤيدين. فقد نفذت المدينة المصرية، بعد سنة ٩٥٠ ق.م.، إلى منطقة حضارية جديدة في النيل الأعلى بين الشلالين الثالث والرابع. وفي الفترة تنسها نفذت المدينة السومرية الأكديّة إلى منطقة حصارية مماثلة تقع إلى الشمال من المهاجر الجبلي الذي يفصل بحيرة تان، ورافدي نهر الفرات الأعلى عن سهول آشور والجزيرة وعن الحوض الأعلى لدجلة.

كان الحكم اللهي الذي أقامته الأسرة الثانية والعشرون (نحو سنة ٩٤٥ - ٧٣٠ ق.م.) بعيداً عن الأحداث الهامة، ومثل ذلك يقال عن الحكم الكاشي في بلاد بابل

وعن الحكم الوطني الذي حلف الكاشيون نحو سنة ١٦٦٩ ق.م. والأعمال الوحيدة التي قام بها الفرعاعة اللييون كانت غزوات عرضية إلى فلسطين والتي لم تسمر عن أية نتيجة. ومع ذلك فقد كان هذا هو العصر الذي أصبحت فيه بنتاه التي كانت حصاراً على حدود المملكة المصرية الحديثة، العاصمة السياسية والحضارية لدولة كنان مكاتهما، مع أنهم لم يكونوا مصريين دماً، قد تغلبوا الدعاية المصرية الفرعونية بحماسة، كما قبلوا بقية عناصر الحضارة الفرعونية. وثمة منطقة خصبة الثروة تمتد على ضفتي النيل، فوق بنتاه ونحتها، لا تزال تتجاوب مع الري فتعطي غلات غنية.

وأصبحت مملكة بنو الكوشية، بسبب هذا الثراء البرواني، نحو سنة ٧٣٠ ق.م. كثيرة السكان وقوية بحيث أثارت مي نفوس حكامها الرغبة في محاولة إعادة توحيد العالم المصري بأكمله، بما في ذلك الدلتا بالغات، تحت نفوذ الملوك الكاشيين من لاسي الناج لثدوج.

كانت المنطقة الحضارية الجديدة التي نفذ إليها العالم السومري الأكدي بعد سنة ٩٥٠ ق.م. هي أورارتو، وقد أشرنا إلى موقعها الجغرافي في ما سبق. ومن هذه المنطقة بالغات النحدر المنحدر من الجوربون إلى الهلال الخصيب مع اتساح الشعوب التي جاء في القرن الثامن عشر ق.م. والأورارتيون (أو المخلدي) الذين عرفوا في الألف الأخير ق.م. هم أحفاد الجوربون الذين ظلوا في موطنهم الأصلي. وقد اتحدت الدولات الأورارتمية الجوربية في القرن التاسع ق.م. وكونت مملكة واتخذت عاصمة لها توشبا الواقعة على الشاطئ الشرقي لبحيرة فان. ولعلنا نؤمن أن هذا التوحيد السياسي كان الباعث عليه الخوف من الاعتداء الآشوري. وفي الواقع فقد هاجم شلما نصر الثالث أورارتو في السنة الأولى من ملكه (حكم نحو ٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م.). وكانت آشور الأكثر تنظيمًا واستعدادًا من الناحية العسكرية، ومع ذلك فلم يتمكن الآشوريون من احتلال أورارتو. وكانت أورارتو لا تزال باقية على الخلطة السياسية لنحوب غرب آسيا في سنة ٦١٢ ق.م. وهي السنة التي سقطت فيها نينوى، عاصمة آشور.

والجغرافية الطبيعية تفسر لنا لماذا لم تخضع أورارتو للدولة التي تمكنت، قبل زوالها، من التوسع جنوباً في غرب حتى مصر، وجنوباً في شرق حتى عيلام. إن أورارتو محفل طبيعي. إن المسافة إلى توشبا حتى من آشور، وهي أقدم عواصم الآشوريين وأبعدهما جنوباً، هي أقصر قليلاً من المسافة بين آشور وبابل، على نحو ما تظهر الخارطة. ولكن إذا

نحن أردنا السير برا من آشور إلى بابل، استطعنا ذلك على أقصر خط بين المكانين، إلا أن السير على خط مستقيم من آشور إلى توشا متعذر تماماً.

فالجيش الآشوري الذي كان يقصد توشا لم يكن بإمكانه أن يصعد في الوادي الأعلى لنهر الزاب الكبير ذلك لأن هذا هو معقل طبيعي مثله مثل حوص بحيرة فان بالذات. كما أنه يتعذر عليه أن يجتاز سلسلة الجبال المرتفعة التي تكون سطح تجمع المياه الجنوبي لحوض بحيرة فان. ومن ثم فإن المهاجمين الآشوريين لأورارتو كان عليهم أن يتجهوا من الجزيرة إلى وادي دجلة أولاً، لا شمالاً بل شمالاً في غرب عبر الجبال الأقل إغافة. وبعدما كان عليهم أن يتجهوا شمالاً في شرق لينصلقوا المسر المطوّل الشديد الانحدار الذي يؤدي عبر بليس، إلى الزاوية الجنوبية الغربية لبحيرة فان. والطريق الذي يجاري شاطئه البحيرة الجنوبي كان يحتمل أن يكون أقصر طريق إلى توشا. إلا أن هذا الطريق شاق طبيعياً، حتى في أيامنا هذه، وكان الخطر فيه كبيراً بحيث يصعب استعماله عندما يجابه المهاجم مقاومة عسكرية. وعند الزاوية الجنوبية الغربية لبحيرة فان لدى المهاجم الآشوري واحداً من خيارين عمليين وهما: إما أن يدور بالشواطئ الشمالية والشرقية للبحيرة أو أن يسير في دورة أطول عبر الريف المكشوف نسبياً في الوادي الجنوبي للفرات الأعلى (المسمى هنا مرات سو). وهذا يفسر لنا لماذا ندر أن تصل الجيوش الآشورية إلى توشا ولماذا فشلت دوماً في البقاء هناك. ومن الجهة الثانية كان باستطاعة جيوش أورارتو - وقد كانت الجبال تسهرها والشعوب المتجاورة التي كانت تشارك الأورارتيين تفرضهم من الخضوع لآشور، ترحب بها - هذه الجيوش كان باستطاعتها أن تقاوم محاولات الآشوريين في أن يجتازوا الجبال، سواء شمالاً في شرق نحو إيران أم شمالاً في غرب نحو آسيا الصغرى.

ومن ثم فإن أورارتو كانت، من الناحية الحربية، أكبر حصون آشور فعالية وثباتاً في الألف الأخير قبل الميلاد. أما في الجهة الثانية فإن الأورارتيين قسموا في القرن التاسع ق.م، حصاراً الآشوريين طوعاً، في الوقت ذاته الذي ذلقوا الأسرى من الاعتداء الآشوري. وقد نقشوا نقشهم بلغتهم الحورية لكن في الصورة الآشورية للشكل الأكدي للكتابة السومرية. لقد كانت آشور وريثة الحضارة السومرية الأكديّة، وهذا التراث العني القدم أضفى على آشور ثوباً حضارياً جديداً على رغم أنها كانت هي منفردة بذاتها ومع ذلك فإن الأورارتيين لم يكونوا مجرد متقيلين عاديين سلبيين لحضارة عرية عنهم.

قد يروا معلمهم في واحد من الفتون العظمى على الأقل - فن البناء بالحجر - إذ أن النايي الأورارتيت تفوقوا على معلمهم وكادوا أن يصلوا إلى المستوى المصري - ليس في الضحامة ولكن في الدقة.

وبالنسبة إلى الآشوري المعندي فلم يكن يتبع الخط الأضعف في المقاومة بالسير في اتجاه شمالي أو شرقي، بل بالسير في اتجاه غربي عبر الجزيرة الفراتية إلى سورية، أو في اتجاه جنوبي نحو بلاد بابل. وقد كان الوضع في القوى الحربية البابليين والآشوريين قد انعكس تماماً منذ القرن الثامن عشر ق.م، لما تمكن حمورابي من إخضاع آشور. ومنذ القرن الرابع عشر ق.م. أصبح البابليون عاجزين عن مجاراة الآشوريين عسكرياً، ولكن الآشوريين رغم حملاتهم المتعددة ضد بلاد بابل، وحتى احتلالهم لها احتلالاً مؤقتاً كما حدث في أيام الملك الآشوري توكلتي نيرتا الأول (كانوا يعاملون بابل ببعض الاحترام والكماسة باعتبارها موطن المدينة المشتركة للبلدين. وظل الأمر كذلك إلى أيام نفلت فسر الثالث (تولى العرش سنة ٧٤٥ ق.م.) الذي توصل إلى الحرب الآشورية إلى المرحلة النهائية المفجعة.

وقد كان الجبال الذي قامت فيه آشور باعتبارها بين سنتي ٩٣٢ و ٧٤٥ ق.م.، هو المناطق الواقعة غربيها. ففي الفترة الواقعة بين سنتي ٩٣٢ و ٨٥٩ ق.م. احتلت آشور الجماعات الآرامية التي كانت قد أقامت لنفسها كيانات شرقي الفرات وحتى مداخل موطن الآشوريين. وفي سنتي ٨٥٨ و ٨٥٦ ق.م. استولى شلما نصر الثالث على بيت عديني، الدولة الآرامية التي كانت تعتمد انحناءة الفرات الغربية، وبذلك ضمن لأشور مداخلها إلى سورية. إلا أن الخطر المشترك الذي أحاق بالديويلات السورية حملها على أن تنحي خصوماتها جانباً، مؤقتاً. وقد كسر شلما نصر الثالث في سنة ٨٥٣ ق.م. في معركة فرفر على نهر العاصي إلى الشمال من مدينة حمص، إذ انتصر عليه التحالف السوري. وقد كرر حملاته في ٨٤٩ و ٨٤٨ و ٨٤٥ ق.م. إلى أن تمكن، بمسبب انفصام عرى التحالف السوري، من احتلال دمشق سنة ٨٤١ ق.م. ومرض السيادة الآشورية على أحلاف دمشق السابقين. وعلى كل فقد لقي شلما نصر الثالث، في سنة ٨٣١ ق.م. صدمة في اورارتو. ففي سنة ٨٢٧ ق.م. قامت عليه ثورة داخلية جمدها كما جمدت حليفته شمشي - أدد الخامس، إلى سنة ٨٢٢ ق.م. وقد نجح الأورارتيون، لا توجدوا في دولة منافسة قوية تحت إمرة ملكهم لوجيشتنس الأول (٧٨٥ - ٧٥٣

ق م .) في أن يراحموا الآشوريين للسيطرة على شمال سورية وشرق كيليكييا. وكانت هذه المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية الهائلة تحت النفوذ الأورلوتي لا النفوذ الآشوري.

وكان معنى هذا أن الخطوة التي بدأها شلما نصر الثالث لجعل آشور الدولة السيدة في المشرق قد باءت بالفشل. ولكن، حتى مع هذا، فإن القوة الحربية التي كان باستطاعة آشور أن تعدها في المنطقة، بين سنتي ٩٣٤ و ٨٥٣ ق.م، كانت مدعاة للإعجاب. والأساس الاقتصادي الذي تركز إليه كان منطقة زراعية غنية في موطن الآشوريين تقع بين شاطئ دجلة الأيسر والنهاية الجنوبية الغربية لسلسلة جبال زغروس. وهذا الجزء الخصب لأشور كان أكبر مساحة من الأرض الزراعية حول هنتا، التي كانت المركز الاقتصادي لقوة كوش الحربية، إلا أنها كانت أصغر بكثير من المنطقة الصالحة للاستغلال في بلاد بابل. وعلى العكس من كل من بابل وكوش، كانت آشور تعتمد، على العموم، لا على الري بل على الأمطار للحصول على الماء اللازم لزروعاتها. وقد كانت بعض المواقع التي تعود إلى العصر الحجري الحديث والتي قامت فيها زراعة تعتمد على الأمطار، قبل أن يشق الفرعين في الوادي الأدنى لدجلة والفرات تقع في الجزء الذي أصبح في ما بعد بلاد الآشوريين. وهذه الحقيقة التاريخية تثير السؤال التالي: هل كان انتقال مركز القوة في حوض دجلة والفرات صعباً - من سومر إلى أكد أولاً، ثم من أكد إلى آشور - يعود سببه، ولو جزئياً، إلى تدهور في نظام الري الذي يعود إليه الفضل أصلاً في استصلاح الحقول الخصبة من أراضي المستنقعات والصحارى الساقطة؟

من الممكن أن يعود تدمير أنظمة الري إلى الإنسان أو إلى الطبيعة. فقد ثولفها عن العمل المنازعات التي تقوم بين الجماعات المحلية، أو الفئوس الخارجية. وفي الجهة الثانية قد يؤدي عمل الطبيعة إلى أن تصبح الحقول التي ينشغلها الإنسان مجربة، إما عن طريق ترسب الأملاح التي تحملها مياه الري، أو عن طريق امتصاص الملح من طبقات التراب السفلى. وهذا العمل المؤذي للطبيعة قد أبطل، ولو جزئياً، بعض منشآت الري الحديثة - مثلاً في البنجاب والمكسيك. أما عمل الإنسان للضار فهناك أدلة كثيرة عليه في تاريخ سومر وأكد منذ البداية.

كانت الطبيعة أكرم في وادي النيل منها في وادي دجلة والفرات. عند كان فيضان النيل يرسب في مصر كل سنة طبقة طازجة من التربة الخصبة، ولم يكن باستطاعة الطبيعة أو الإنسان أن يمنع هذه الهبة - وقد استمر ذلك إلى سنة ١٩٠٢ لما بنى السد

الأول في اسوان. فهل من الممكن أن يعود السبب في سقوط سومر وأكد وتدمير آشور إلى أن الري في الروادي الأدنى لدجلة والفرات كان مصطفاً، ومن ثم معرضاً للتلف؟ من المؤكد أن نظام الري في العراق توقف تماماً في الوقت الذي تم فيه هجوم المغول على تلك البلاد سنة ١٢٥٨ م، ولم تبدأ الأعمال الجديدة لإصلاحه إلا في أعقاب الحرب العالمية الأولى. ولكن هل من الممكن أن يكون الخراب المفاجيء الذي تم على يد الإنسان سنة ١٢٥٨ م قد سبقه جدد تدريجي لتربة العراق بسبب قوى طبيعية؟ ليس لدينا من المعلومات ما يمكننا من الإجابة على هذا السؤال مباشرة، إلا أن الإجابة غير المباشرة عنه وارده في أن بلاد البابليين ظلت بعد سقوط آشور، خصبة بما فيه الكفاية لتزود سلسلة طويلة من الإمبراطوريات بمرتكز اقتصادي، بدءاً بدولة الكلدانيين التي خلفت آشور، وختاماً بالخلافة العباسية التي كانت أراضيها الخصبة خارج حدود بلاد البابليين أقل مما كانت داخل الحدود.

١٧- المدنية السورية نحو ١١٩١- ٧٤٥ ق.م.

كل حضارة بشرية من تلك التي أتت لها أن تكون، استمرت تؤثر في ما تبعها من سائر الحضارات البشرية. وقد يكون أثر اختصارات المفردة فعلا بعد. والأثر المستمر للمدنيات المسمومة الأكديّة والفرعونية المصرية يوضح هذه النقطة. وعلى كل فإن أثر الحضارات المفردة غير مباشر. ومن بين المدن التي كتب لها البقاء ثمة واحدة، وهي المدينة الصينية، التي ظهرت نحو منتصف الألف الثاني ق.م. وأخرى، وهي المدينة الهندية، ولعلها هي التي دمرت مدينة السند السابقة وحلت محلها، وذلك في التاريخ نفسه تقريبا. ومن المدن الحديثة التي قلت على انقراض الحراب الذي خلفه انسحاب الشعوب نحو ١٢٥٠- ٩٥٠ ق.م. فإن واحدة منها، وهي الهلنسية قد انقرضت الآن، لكن معاصرتها التي قامت في سورية، بلوسع معنى جغرافي للتسمية، لا تزال تمثلها إلى اليوم جماعتان: اليهود والسامريون.

إن اليهود لم يستروا في البقاء فحسب، بل لقد انتجوا أدبا وحفظوه، على نحو ما تم للصينيين والهنود. ويحتفد أن أقدم أجزاء هذا الأدب قد دونت في القرن العاشر ق.م. ومجموعة هذا الأدب اليهودي هي، بدون جدال، أضخم مصادرنا وأشهرها للتاريخ الديني والاجتماعي والسياسي لاليهودا واسرائيل فحسب، ولكن للمدنية السورية بكاملها. وقد ظهرت مؤرخا دلالات مختلفة عن الأسفار اليهودية (وهي التي يسميها المسيحيون العهد القديم) وذلك عن طريق علم الآثار، لكن هذه الدلالات، رغم أنها موصحة، فهي قليلة وغير مترابطة. أما الأسفار فهي نسيجا ظرفية وشاملة. والباحث في تاريخ المدنية السورية يجد نفسه، بدون هذه الأسفار، وكأنه يتحسس طريقه في الظلام على أن هذا المصدر الذي لا غنى عنه يؤدي إلى الضلال لو أنه قبل على علاته، وذلك لسببين: إن الأسفار تروي القصة من زلوية جماعتين فقط من الجماعات التي تنظمها

المدنية السورية، كما أنها لا تزوي حتى هذه القصة المخترعة في صيغتها الأصلية. عند الوقت الذي دوت فيه أقدم كتب العهد القديم، مرت بالدين اليهودي تبدلات كانت، إذا أعدت بمشاكلها التراكمي، ثورية. وقد عطلت المتون المرة بعد المرة بحيث نتفق مع الفكرة القائلة بأن هذه التبدلات لم تكن تجديدات بل كانت عودة إلى الإيمان والطقس الأصليين.

وهكذا فإن الأسفار، على النحو الذي هو بين أيدينا، تعطي ليهودا وإسرائيل صورة بعيدة عن واقع الحياة، وبالتعبئة، تعطي مثل هذه الصورة لغيرهم. ومن الممكن تصحيح هذه الصورة جزئياً فقط عن طريق فحص الدلائل الداخلية للأسفار اليهودية، ومقابلتها بجمايع المعلومات التي يزودها بها التنقيب الأثري، وهي معلومات ضئيلة لكنها أخذت في التزايد. واللفة التي استمرت في البقاء والتي تحكر رواية قصة ما هي موضع جدل - هذه اللفة يكون لها نفوق كبير على الفغات التي انقرضت دون أن تترك حتى صيغة مناظرة لتلك القصة بحيث يمكنها أن تدحض الأولى. فلو كان ثمة أسفار غنيمة أو فلسطينية لكانت اختلفت بشكل درامي عن الأسفار اليهودية.

وهذه الأسفار التي بين أيدينا الآن تحتوي على عدد من الأفكار التي ما كان معاصرو إسرائيل ويهودا في سورية ليتقبلوها لا في الوقت الذي استقرت فيه هاتان الجساعتان هناك ولا في الزمن الذي تلا ذلك. وهذه الأفكار يتقبلها الآن اما اليهود الأرثوذكس وإما أتباع واحد من الدينين اللذين ورنّا اليهودية أي المسيحية والإسلام. والفكرة الأولى هي أن إله اليهود يهوه هو قائم وهو الإله الحق الأرحم وهو خالق الكون وسيدّه. والفكرة الثانية هي أن يهوه اختار الإسرائيليين ليكونوا، بمعنى خاص، شعبه الخاص. وقد أكد يهوه هذا الاعتبار بواسطة عهد، أو سلسلة من العهود، مع الإسرائيليين. وأنهم هم وأبائهم الأبعدون كانوا، من وجهة نظرهم، موحدين من أيام إبراهيم (ربما في القرن الثامن عشر ق.م.)، مع أن يهوه لم يظهر بنفسه لهم إلا في أيام موسى (ربما في القرن الثالث عشر ق.م.).

لا تاريخ المدنية السورية، ولا تاريخ البشرية والكون يمكن أن يفسره مؤرخ مي حدود هذه الأفكار، إلا إذا كان المؤرخ أورثوذكسيا في اتبعه لولاحد من الأديان المذكورة. إلا أن المؤرخ غير المتدين يتحتم عليه أيضاً أن يستعمل العهد القديم على أنه مصدره الرئيس لتاريخ المدنية السورية. ولن تسلّم لا الصيغة اللادينية ولا الصيغة الأرثوذكسية لهذه الفترة

من جدل عيف حولها - وهذا الأمر مدعاة للأسف - لأن هذا الفصل من تاريخ سورية كان له أثر عميق على التاريخ اللاحق لنصف الجنس البشري تقريبا.

إن مثل هذا التحذير هو تمهيد ضروري لوصف تاريخ المدينة السورية الذي يقدمه مؤرخ غير متدين؛ إنه لا يستطيع أن يقبل الأفكار الاوثودوكسية، ويجب عليه أن يبذل جهده ليظهر في مسيرة الأحداث نظرة موضوعية، ويجب عليه أن يعرض صبيته الخاصة للقصة دون جدل عتف.

لقد نكثت سورية، بسبب انسحاب الشعوب نحو ١٢٥٠ - ٩٥٠ ق.م. بدرجة القسوة نفسها التي نكثت بها أمية الصغرى وحوض البحر الإيجي. فالكارثة من حيث الدمار المادي والتبدل في تركيب السكان لم تكن هناك أخف منها هنا. وعلى كل فقد عادت الحياة إلى سورية من الخراب المشترك الذي ألم بالجميع بأسرع مما حدث في نينك للمنطقين. فقد كانت المدينة ضربت جنونا أصحق في سورية قبل أن يصيبها انسحاب الشعوب. إذ أن كلتا المدينتين السومرية الأكديّة والمصرية كان قد مر عليهما قرابة ألفين من السنين وهما تصبران إلى سورية، وكانت هاتان المدينتان الأجنبيتان مغتلبتين إلى حد أنها لم تمكنا سورية من خلق مدينة أصيلة خاصة بها، حتى فقدت كل من مصر وبلاد بابل الكثير من الحيوية. إلا أن سورية كانت، حتى قبل الثوران الذي عم المشرق نحو سنة ١٢٥٠ ق.م، قد بدأت تظهر قدرتها الوطنية على المطلق. فقد خطت خطواتها الأولى لاكتراع حروف الهجاء، وقد أصبحت هذه الآن بأشكالها المختلفة كتابة العالم بأكملها، باستثناء امية الشرقية.

نحو سنة ١٥٠٠ ق.م، أو حتى قبل ذلك، كانت قد حفرت نقوش، على الصخور القائمة في المناجم المصرية الموجودة في الجهة الغربية من شبه جزيرة سيناء في ما يسمى الكتابة السينائية؛ وهناك نقوش بالكتابة فاتها عشر عليها في جنوب سورية. وقد قامت محاولات لحل رموز هذه النون على افتراض أن الكتابة الفينيقية وأن اللغة سامية. ولم تنل أي من هذه المحاولات لحل الرموز قبولا عاما بعد، ولكن إذا ثبت أن هذه الكتابة هي الفينيقية، فقد ثبت أيضاً أن هذه هي الأصل المشترك للألفبائية الفينيقية والألفبائية السامية الجنوبية التي عرفت في الزلوية الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية (اليمن).

وتبدو بعض الحروف في الكتابة السينائية وكأنها موحى بها من الهيروغليفيّة المصرية. وفي الثلث الأول من القرن الرابع عشر ق.م. صنف فينيقيو أوغاريت (رأس شمرا)

الواقعة على مقربة من الطرف الشمالي للساحل السوري، أعمالاً أدبية بلغتهم واستعملوا
 « القباء » مؤلفه من بعض حروف انتفيت من المجموعة السومرية الأكديّة الضخمة من
 الرموز والفونيم. وهذه التجربة الفينيقية الأولى لاختراع كتابة ألفبائية لم تنو على مقاومة
 انسياب الشعوب (نحو ١٢٥٠ - ٩٥٠). وأقدم النقوش المعروفة المدونة بالألفبائية
 الفينيقية التي اخترعت في ما بعد، والتي اشتقت منها كل الصيغ الألفبائية المعروفة اليوم،
 قد لا تسبق القرن الحادي عشر ق.م. وهذه الألفبائية الفينيقية الثانية التي فُصّل لها
 النجاح، قد أوحى بها المهر وغلبيّة للمصرية، كما جدر من أسماء عدد من الحروف ومن
 أشكالها الأصليّة. وقد استعار الفينيقيون، في ألفبائهم التاريخية، وفي أفعالهم السابقة
 المجهضة، حروفاً من كتابة كانت مزيجاً من رموز وفونيمات مقطعية. لكنهم، في كل
 مرة، كانوا يجعلون هذه الحروف صالحة للتعبير عن مجموعة من الأصوات التي شملت
 كل الحروف الصامتة الموجودة في لغتهم الخاصة بهم في اللغة السامية الكنعانية.

يمكننا أن نرى السبب في أن مخترعي الألفباء كانوا من المتكلمين بالسامية الذين
 رسخوا استقلالهم الحضاري عن اللدنيين القدميين، الدنية السومرية والدنية المصرية، وهما
 اللتان كانتا قد سيطرتا على الشعوب المتكلمة بالسامية من سكان الهلال الخصيب من
 قبل. إن الشعب المتكلم بالسامية الذي أصبح « ألفبائياً » أولاً هم الأكديون، وقد فرض
 عليهم موقعهم الجغرافي أن يقتبسوا الكتابة السومرية وأن يستعملوها على الطريقة
 السومرية. إلا أن الكتابة المكونة من مزيج من الرموز والفونيم لا يتفق تركيبها مع تركيب
 لغة سامية. فجدل الكلمة السامية يتكون من ثلاثة حروف صامتة، وهي التي تحتفظ
 بهويتها وترتيبها خلال ما يطرا عليها من تعديل في المعنى الذي ينشأ من وضع بادئة أو
 لاحقة للكلمة، أو بإضافة حروف علة أو حذفها. فتركيب أية لغة سامية يقتضي اختراع
 كتابة بحيث تمثل الحروف كل الحروف الصامتة في اللغة والتي يكون مجسوم الحروف
 فيها محدوداً بالعدد الذي تحتاجه هذه المجموعة المحدودة من الحروف الصامتة لتصويرها.

لسنا نعرف أي لغة كان يتكلمها سكان للتاور في جبل الكرمل في العصر الحجري
 القديم، أو مؤسسو أريحا من أهل العصر الحجري الحديث. لكن لم تترك أية لغة سابقة
 للغة السامية أي أثر في بلاد الشام. وكل الهجرات للشعوب غير المتكلمة
 بالسامية - الحوريين في القرن الثامن عشر ق.م. والفلسطينيين واللاجئين الحثيين في القرن
 الثاني عشر قبل الميلاد - وأزنها دخول جماعات جديدة ضخمة من المتكلمين

بالسبابة - على سبيل المثال كان هناك العموريون الذين وصلوا في أواخر الألف الثالث ق.م. والعبرانيون والآراميون الذين جاؤوا في القرن الثالث عشر ق.م. - والكنعانية، التي كانت أقدم لغة سامية في بلاد الشام، كانت تتقلد بالمدوى. فقد تقبلها المهاجرون الذين لم تكن لهم الأم عندهم لغة سامية - مثل الفلسطينيين - كما تقبلتها الشعوب التي كانت لغتها سامية لكنها لم تكن كنعانية. فالعموريون، وبعدهم العبرانيون (في مؤاب وعمون وإسرائيل ويهوذا وأدوم) أصبحوا جميعا يتكلمون الكنعانية، مع أن المفروض أن العبرانيين كانوا أصلاً يتكلمون لغة سامية مختلفة ولكنها قريبة من اللغة التي تكلمها الآراميون الذين دخلوا بلاد الشام في زمن انسحاق الشعوب ذاته. والآراميون وحدهم، وهم الذين استوطنوا في اواسط بلاد الشام وشمالها وفي الجزيرة الفراتية، لم يقبلوا اللغة الكنعانية. وقد فهموا الألفباء بسرعة - ويفسر تاريخ تقدم نقوش لامية معروفة نحو سنة ٨٥٠ ق.م. - لكنهم لم يستعملوها لكتابة اللغة الكنعانية، وهي التي اختلعت الألفباء أصلاً لاستعمالها. لقد فهموا الألفباء لاستعمالها لغتهم الآرامية السامية الخاصة بهم.

وهكذا فإن إحدى الصفات المشتركة للمدنية التي ظهرت في بلاد الشام بعد انسحاق الشعوب (نحو ١٢٥٠ - ٩٥٠ ق.م.) كانت استعمال الألفباء لكتابة اللغات السامية المحلية. ومن بين هذه اللغات الوطنية استغلت اللغة الكنعانية بسيطرتها في الفترة الواقعة نحو ٩٥٠ - ٧٥٠ ق.م. وكانت ثمة صفة أخرى مشتركة للمدنية السورية هي ديانتها. فقد أصبحت بلاد الشام بلداً زراعية قبل القرون الأخيرة من الألف الثاني ق.م. بوقت طويل، وأصبح المهاجرون من البدو والرحالة زراعاً بسرعة حين استقروا في الأرض السورية. والأعياد الخاصة بالمنة الطقسية اليهودية يفترض فيها الآن أنها تحيي ذكرى أحداث (صحيحة كانت أم أسطورية) في تاريخ الإسرائيليين؛ إلا أن هذه الأعياد تحمل في طياتها أنها كانت أصلاً احتفالات لمواسم تتكرر سنوياً، وكانت مرتبطة بحياة جماعة زراعية وعملية.

كانت الزراعة أصلاً نشاطاً دينياً كما كانت نشاطاً اقتصادياً. فالعمارة الرئيسة للديانة الزراعية هي أن ترعى خصب التينات والخيرات المدخنة ومثلها خصب الكائنات البشرية التي كانت تحصل على قوتها بالعيش في تكامل مع أصناف الحياة الأخرى هذه. وفي أكثر المجتمعات الزراعية للوجود حول العالم نجد أن أحد الوصفات لإثارة الخصب كانت من السحر المرتبط بالجنس. وقد كان هذا الأمر لا يزال استعماله شائعاً في بلاد

الشام في الألف الأخير ق.م.. وثمة تعبير آخر عن الديانة الزراعية، التي شاركت فيه بلاد الشام مناطق أخرى في المشرق، هو الأسطورة والطقس المتعلقان بالإله الذي يموت عند الحصاد لكنه يعود إلى الحياة عندما تطلع نباتات السنة التالية براعمها والإله الذي كان يموت ليبعث ثانية كان يسمى تموز في سومر وأكده وأتيس في آسية الصغرى، وأوربريس في مصر الفرعونية، وأدوناي (سيدي) في بلاد الشام، واسمه الآخر بعل (وبعاه أيضا المسد) وذلك في أوغاريت القرن الرابع عشر ق.م.. ولا بد أن أسطورة الإله الذي يموت وقصة الطقوس المرتبطة بذلك كان لهما أصل مشترك. فأوجه الشبه بين الصيغ الإقليمية المتعددة متقاربة إلى حد لا يسمح لها بأن تكون وليدة المصادفة.

كان تقديم الضحايا البشرية، في كل الدننيات وحتى يومنا هذا، يتم عن طريق الحرب. ومنذ أن اخترع الطيران لم تعد ضحايا العميات الحربية تقتصر على الجنود الذين يسقطون في ميدان المعركة وعلى سكان المدن المسيئين الذين يقتلون بسبب الهجوم الصاعق. لكن كثيرا من الشعوب التي كانت تقهر بالحروب التي تشنها، كانت، والأمم يبدو غير منطقي، تصاب بصدمة بسبب الضحايا التي يجهر عليها في أيام السلم، سواء كانت الضحايا خدما للملك الذين كانوا يحملون على مرافقته إلى عالم الموتى القسي، أم كانت بواكير أبناء مؤمن متحمس كان يأمل أن يحمل إليها ما أن يستجيب لصلاته، بسبب أنه قدم لهذا الإله أتمن ما يمكن من التضحية. ويبدو أنه ليس ثمة ما يدل على أن أي من شكلي التضحية البشرية اللاسرية هذه قد عرف في مصر الفرعونية، كما أن قتل لعدم الملك المتوفى قد تخلى القوم عنه في سومر بعد الأسرة الأولى في أور. ويبدو أن عملية حرق الأطفال أحياء كانت سرا خلاصا لبلاد الشام والجلاليات التي كانت تابعة لها في ما وراء البحار، وذلك في الألف الأخير ق.م. في العالم القديم. فقد قدم ملك ميشع الموابي أحد أبنائه لما كانت عاصمة مملكته يحاصرها حلف من أعدائه نحو سنة ٨٥٠ ق.م. وقد قدم ملك يهودا أحاز ابنه ليهوه نحو سنة ٧٢٥ ق.م. في ظروف مشابهة لتلك، وقد فعل ذلك أحد خلفائه واسمه منسى (حكم ٦٨٧-٦٤٢ ق.م.).

وقد شاركت بلاد الشام، في الألف نفسه، ظاهرة دينية مع بعض المناطق المشرقية الأخرى، وهي وجود النذير. (ان الكلمة اليونانية بروفيتس Prophetes التي تترجم بها الكلمة الكنعانية نبي، تعني النذير لا للتنبؤ، مع أن رسالة النذير قد تكون إرشادا). وقد كان النذير أسلا يتكلم وهو في حالة وجد. وأقدم مثل مدون بالنسبة إلى بلاد الشام

كان ذلك الذي شاعده وينامون المصري في جبيل (بيلوس) نحو سنة ١٠٦٠ ق م. .
 ميمما كان ملك جبيل (بيلوس) يقدم الضحية أصابت أحد رجاله حالة وجد، وبمما
 كان في هذه الحالة السيكولوجية تلفظ بأمر يتعلق بونامون، كان من نتيجته أن تبدل
 حقد هذا الأخير. وقد تلقف شاوول، في اليوم الأول من حياته السياسية، وذلك قبل
 نهاية القرن الحادي عشر ق.م. فة من التوتر للصايين بالبحرانة، ولم يتمكن من التخلص
 من هذه الحالة النفسية التي أصابته في تلك المناسبة. وقد كانت هذه الحالات النفسية
 تلازم شاوول بين الفينة والفينة في ما تبقى من عمره.

وهذه الظواهر التي عرفتها بلاد الشام كان لها نظائر في العالم الإغريقي، والنذير
 الذي كان في حاشية ملك جبيل (بيلوس) هو نظير للببنا التي كانت تنطق بالوحي
 في دلفي وللعرافات التي قامت بمثل هذه الأدوار في المدن - الدول الهلينية الأخرى. وفي
 النذر التي كانت تجعل وهي في هذين برافقه توقيع موسيقى، والتي أصابت شاوول
 بمشوها، تشبه فة هلينية من البابوسيين. وقد يكون المصدر المشترك لهذه الأمثلة من
 المظاهر النفسية التي عرفتها بلاد الشام والعالم الإيجي هو أواسط آسيا المصرية. فقد
 كان المؤمنون من أتباع الآلهة سيبيل، وهي أم أنيس وزوجته، يمارسون هناك الارشاد
 الجماعي في حالة هذين مصحوب بالموسيقى، وذلك في العصر السابق للمسيحية.

كانت بلاد الشام يتمسكها سياس عدد من الإمارات الصغيرة لما ضمت إلى
 الإمبراطورية المصرية في القرن الخامس عشر ق.م. . وقد كان أول أثر لانسحاق الشعوب
 نحو ١٢٥٠ - ٩٥٠ هو حل هذا التوازن السياسي البطحي الذي وجد هناك تحت
 حكم دولة أجنبية. وفشلت عندها السيطرة السياسية المصرية في الجنوب والسيطرة الحثية
 التي كانت قد حلت محل السيطرة المصرية في الشمال، وعادت بلاد الشام إلى تمرق
 سياسي بحيث أن هذا تجاوز الانقسام الذي كان سائدا في العصر السابق لأيام النتائج
 المصري تضمن الثالث. والمهاجرون الذين استقروا في بلاد الشام أثناء انسحاق الشعوب
 لم يؤسسوا دولا وطنية وحسوبة هناك. فالفلسطينيون، على سبيل المثال، أقاموا خمس
 دول - مدن مستقلة في الجزء الجنوبي من الأراضي الساحلية، والإسرائيليون، الذين احتلوا
 المرتفعات، كانوا مكونين من قبائل كانت تربط بينها عبادة إلههم القومي يهوه، لكنهم
 كانت معزولة جغرافيا وأحدتها عن الأخرى بالمناطق التي لم تحتل، والتي حاصط مبها
 الكنعانيون على استقلالهم. وقد استمرت الدول - المدن الفينيقية القديمة في الجزء الأوسط

من الساحل وكانت حالتها أقل قلقاً. وقد كانت سلسلة جبال لبنان التي لم تكن قد عرفت بعد من أخراجها تمحيصهم من لهاجيين.

أما في شمال بلاد الشام فقد أنشأ اللاجئون اختيون عدداً من الإمارات المحلية المستقلة. والوحدة السياسية الحثية لم تقم لها قائمة بعد سقوط الإمبراطورية الحثية في أسيه الصغرى. وهكذا فإن المدينة السورية بدأت مسيرتها المدنية في حالة تفرق سياسي. وبهذا أعطت الشعوب للمهاجرة بالاستقرار، قامت في القرنين الحادي عشر والعاشر ق.م. محاولتان متالفتان، من الجنوب، لتوحيد بلاد الشام سياسياً، لكن المحاولتين باءتا بالفشل.

في القرن الحادي عشر ق.م. قهر الفلسطينيون القبائل الإسرائيلية الفخمة في الأراضي الواقعة إلى الشرق منهم. وقد كان الفلسطينيون مزودين بالسلاح قروباً جديداً، كما أن دولاتهم الخمس عملت متحدة لكن نقص القوى البشرية عندهم جعل سيطرتهم على الإسرائيليين المقهورين صعبة، ولذلك فإنهم حاولوا أن يجردهم من سلاحهم مادياً وادياً. وقد كان الرمز الذي يمثل عبادة بهوه عند الإسرائيليين بعامه، والوعاء المادي الذي يحتضن القوة التي كان من المعتقد أن تظهر على أيدي هذا الإله، كان صنوقاً ينقل من مكان إلى آخر (وهو تابوت العهد)، الذي كان بقية من المرحلة البدوية من حياة الإسرائيليين. وقد أسر الفلسطينيون التابوت وحملوه إلى بلادهم، إلا أن وجوده بينهم أنزل بالمدن الفلسطينية مصائب كبرى، بحيث إن الفلسطينيين أخرجوه من ديارهم. وقد جرد الفلسطينيون الإسرائيليين من سلاحهم مادياً بأن حرموهم من الحنادين. وسمحوا لهم بأن يحتفظوا بالأدوات الزراعية للمدينة (إذ لو أنهم جردوهم من هذه الوسائل التي تمكنهم من استغلال أراضيهم الصخرية، لما تمكنوا من الحصول على الضرائب المفروضة والتي كانت حية). لكنهم فرضوا على الإسرائيليين أن يشجعوا أدواتهم عند الحنادين الفلسطينيين، وذلك كي يضمنوا أن لا يكون في إسرائيل حنادون يستطيعون أن يصنعوا أسلحة من الأدوات. وقد ردت القبائل الإسرائيلية على ذلك بأن وضعت نفسها تحت قيادة مرحلة بامرة ملك، وكان هذا الملك هو شاول، من قبيلة بنيامين. وكان هذا، بالنسبة للإسرائيليين، تجديداً سياسياً أثار جدلاً كبيراً، ولم يوصلهم إلى التحرير السريع. وقد سقط شاول في أرض المعركة. وانتهى الأمر بالفلسطينيين إلى أنه غلبوا وأجلوا عن الأرض الإسرائيلية على يد داوود، الذي كان من قبيلة يهوذا وكان قائداً لشردمة من المخربين. وقد حافظ الفلسطينيون على استقلالهم إلى سنة ٧٣٤ ق.م.، لما احتل الملك

تمت ملبر الثاني الآشوري بلادهم. وهكذا فقد اضاعوا فرصة توحيد سورية سياسيا تحت حكم فلسطيني.

تمكنت قبيلة يهودا من توحيد جنوب سورية مؤقتا بقيادة داوود، باستثناء بلاد الفلسطينيين، بحيث وصلوا شمالا في الفلنل الى الطرف الشمالي لسلسلة لبنان الشرقية (اشوليان) وإلى شمالي دمشق. وأدى انتصار داوود الخامس على الفلسطينيين الى الحصول على ولاء كل القبائل الإسرائيلية (ذلك بأن الإسرائيليين بقبولهم شارول ملكا عليهم، كانوا قد قبلوا بتوحيدهم السياسي في ملكية). وقد كسب داوود أيضا، بسبب انتصاره الخامس على الفلسطينيين، صداقة صور. (ولم يكن الفنيقيون يحبون جيرانهم المهاجرين الفلطين الى الجنوب اي الفلسطينيين). وتغلب داوود على بقية العبرانيين والأدوميين والمزابيين والصمونيين، كما احتل أيضا إمارتين آراميتين هما دمشق وزرباح، الأمر الذي اكسبه صداقة حمص، وهي أقصى إمارة أقامها المهاجرون الحثيون في شمال سورية.

ترك داوود إمبراطوريته لابنه سليمان. وقد امتد حكم الإثنين، الأب والأبن، من نحو سنة ١٠٠٠ الى سنة ٩٢٢ ق.م. لكن هذه الإمبراطورية التي أقامتها قبيلة يهودا كانت، مثل إمبراطورية الفلسطينيين السابقة، سريعة الزوال. فقد كانت يهودا (القدس) صغيرة رقت، ومتأخرة حضاريا، وغير مناسبة من حيث موقعها الجغرافي، بحيث تتمكن من الحفاظ على ما احتله داوود. فثارت دمشق وأدوم وعمرزنا في حيلة سليمان، وبعد وفاته انشقت القبائل الشمالية وانضمت مملكتها الخاصة بها (إسرائيل). وقد كانت مملكة إسرائيل أقوى من مملكة يهودا، لكنها لم تكن لها من القوة ما يحول دون استقلال عمون ومواب. وكل ما تبقى من إمبراطورية داوود وسليمان، إضافة الى أرض قبيلة يهودا بالذات، هو الجزء الواقع في أقصى الجنوب من أرض قبيلة بنيامين، ومدينة القدس الكنعانية، التي كان داوود قد احتلها واتخذها عاصمة لمملكته.

والنتيجة المباشرة الهامة لإقامة إمبراطورية على يد داوود كانت ضم الجيوب الكنعانية التي كانت قد حافظت على استقلالها داخل أراضي القبائل الإسرائيلية، إلى يهودا وإسرائيل ومزجها سياسيا وحضاريا. وقد كانت بين هذه الجيوب وأهمها حصاريا القدس، المدينة اليهودية السابقة التي أصبحت عاصمة يهودا، وأهمها اقتصاديا سهل مرج ابن عامر، الذي أصبح المستودع الاقتصادي لمملكة إسرائيل. والكنعانيون الذين حافظوا على

وجودهم داخل سورية لعلهم اتحدوا مع إسرائيل ضد الفلسطينيين، لو لعل دلوود قد نفلب عليهم بالقوة العسكرية التي أنشأها. وعلى كل حال فإن استيلاء دلوود على السكان الكنعانيين واتفاقه مع المدن - الدول الفينيقية الكنعانية المستقلة، أدتا إلى تمثل تام بين القبائل اليهودية والقبائل الإسرائيلية. فتمت القرن العاشر ق.م. أصبحت يهودا وإسرائيل جزءاً أصيلاً من المجتمع الذي ظهر عقب اتساح الشعوب والذي كان في طريقه لأن تكون له صيغة خاصة في سورية.

كان كل من إمبراطورية الفلسطينيين وإمبراطورية يهودا ظاهراً عابراً؛ أما الإنجازات الحضارية والاقتصادية التي تمت على أيدي الكنعانيين فقد كانت ثابتة. ففيما كان الفلسطينيون ويهودا يقيمون إمبراطورية ويخسرونها كان الفينيقيون يخترعون الألفباء. كما كانوا أيضاً يطورون فناً تجارياً مولداً مصري الأسلوب بعامه، لإنتاج مصنوعات للتصدير. فقد قدم أحيرام ملك صور إلى سليمان المساعدة الفنية والتكنولوجية التي كان بحاجة إليها لبناء هيكل ضخم ليهوه في القدس. واشترك الملكان في تأسيس تجارة بحرية في المحيط الهندي، كانت ميناء سليمان على رأس خليج العقبة منطلقها. وكان الجمل العربي قد دجن قبل ذلك، وتم هذا الإنجاز التاريخي بعد دخول المبرانيين والأراميين إلى سورية. لكن ثمة ما يدل على أن حملة يدوية قام بها جيشاؤون من الجزيرة العربية إلى سورية، وقد ورد ذكرها في وثائق تعود إلى وقت مبكر في القرن الحادي عشر ق.م. إن تدجين الجمل جعل بدو السهوب العربية أشد خطراً على جيرانهم الحضريين من ذي قبل، إلا أن هذا الإنجاز في التدجين جعل اجتياز السهوب نفسها أسهل على الناس. وقد كان أحد آثار هذا الشيء أن انتشر أثر المدينة السورية، عبر بلاد العرب إلى المرتفعات الخصبة الواقعة في الزاوية الجنوبية من شبه الجزيرة.

ضم اليمن حضارياً إلى سورية يؤكد العمل المشترك الذي قام به أحيرام وسليمان لنفتح الطريق البحري عبر البحر الأحمر إلى المحيط الهندي. لستنا متري فيما إذا كانت ملكة سبأ قد زارت سليمان حقاً وحتى فيما لو كانت القصة الشهيرة ليست تاريخياً مؤكداً، فإن القرن العاشر ق.م. هو الزمن المقبول لبدا العلاقات التجارية بين سورية واليمن. ويبدو من الواضح أن البحر الأحمر أصبح الآن بحيرة سورية بعدما كان بحيرة مصرية لتحو القفي سنة.

إن انقسام إمبراطورية سليمان لم يمنع الدول التي خلفتها من الاتجار في ما بينها وقد

كانت دولتا دمشق وإسرائيل متساويتين في لقوة، وكانت الحرب سجالا حول أرض تقع عبر الأردن، وكانت موضع الخلاف. ولم تكن الحروب حاسمة، ولكن الجبهة الذي نتج عن تناوب الانتصارات الموقرة كان إقامة علاقات تجارية قائمة. فإذا قبض لدمشق أن تكون لها اليد العليا فإنها كانت تفرض على إسرائيل أن تخصص حيا في عاصمتها السامرة للتجار الفلسطينيين، وإذا أتيح لإسرائيل بالتالي أن تنتصر على دمشق، كانت تجبر دمشق على تخصيص حي فيها للتجار الأسرائيليين. ومع ذلك فإن انقسام امبراطورية سليمان أدى إلى أن أصبح طريق صور إلى رأس خليج العقبة معرضا للخطر، ولعل هذا هو أحد الأسباب التي حملت الفتيهين على البحث عن مجال آخر لتوسيعهم البحري في الخوض القريب للبحر المتوسط.

قبل نهاية القرن العاشر ق.م. كانت إسرائيل وبهودا قد أخذتا أنفسهما يروض أدب مكتوب باللغة الكنعانية وقد دؤن بالكتابة الفينيقية. والكتابات اليهودية الدينية تتكون من أنواع مختلفة. فهناك الأسطورة والقصص الشعبي والتاريخ والتشريع والأمثال الحكمية وأخبار الأنبياء. ويبدو أن الأخبار التاريخية عن دلوود وسليمان معتمدة على قيود رسمية كانت تقريبا معاصرة للأحداث. وقد تكون آثار نبي من الأنبياء قد دونها تلاميذه، وليس بالضرورة أن يكون النبي نفسه قد فعل ذلك. وقد ينال أحد كتاب هذا النوع منزلة كبيرة، مثل أشعيا - وعندها قد تضاف إليه زيادات متتالية يقوم بها مؤلفون متتابعون مجهولون، فيما يستعملون اسم النبي الأصلي. فالأجزاء التاريخية من التوراة (الأسفار الخمسة الأولى) وكتب الأنبياء هي أعمال أدبية إسرائيلية ويهودية أصيلة. لكن حتى الوثائق الموثوق بها التي تحوي آثار الأنبياء والتي هي أصلا شخصية وفردية، ثبت أنها تحوي إشارات إلى الأدب السابق للإسرائيلي، وقد اتضح هذا إذ ظهر بعض هذا الأدب إلى الوجود.

إن بعض الأساطير الواردة في التوراة - مثل قصة الطوفان - هي ذات أصل سوري، وقد انتقلت عن طريق الأكديين والكنعانيين. والشريعة المسماة شريعة موسى إنما هي نسخة من مدونة القانون السومري الأكدي، وقد اكتشفت مؤخرا السبع البابلية والأشورية والمحلية منها. والنسخة البابلية هي القانون الذي جمعه حمورابي. وقد ظهر من اكتشاف النصوص الأدبية الفينيقية للمدونة بالكتابة الأوغاريتية التي تعود إلى القرن الرابع عشر ق.م. أن الزمير إنما وضعت على غط الترنيمة الكنعانية الأقدم عهدا، وإن المصطلح

(الإصحاحات) الثامن والتاسع من سفر الأمثال إنما هي ذات أصل كنعاني. وأمثال غيرها في هذا السفر هي نص يكاد يكون حرفياً للحكم الواردة في نصالح ايسوب، وهو كتاب مصري لعله صنف في القرن الرابع عشر ق.م. وقد وضع تحت تأثير أدب مصري من النوع نفسه، ولكنه أقدم عهداً. ولنا أن نخمن أن الأمثال المصرية هذه وصلت إلى الإسرائيليين بواسطة الفينيقيين.

ومعنى هذا أنه كان تبادل أدبي، كما كان ثمة تبادل تجاري بين الدول السوربة في الفترة التي تلت عصر سليمان. وقد كان مضمون جزء من الأدب الذي عبر الحدود السياسية دينياً، ولا بد أن هذا أدى إلى اتساق في الصلوات التي استعملت في عبادة الآلهة المحلية. لقد كان لكل جماعة محلية إلهها الخاص الذي كان المواطنون يشعرون بأنهم مدينون له بالولاء الأول. لكن هذا الولاء لم يكن بالضرورة على وجه الحصر. فكل جماعة كانت تؤمن بقوة آلهة الجيران، على نحو ما كانت تعقد بقوة إلهها الخاص بها. وقد كان ثمة اعتقاد عام بأن كل إله محلي كان أقوى من الآلهة الأخرى جميعها، وذلك في حدود ملك الإله المحلي الخاص به. ففي أواسط القرن التاسع ق.م.، إذ كانت إسرائيل ويهوذا وأدوم تحاصر ميثع ملك مؤاب في عاصمة ملكه، قدم ميثع ابنه الأكبر ضحية على أسوار المدينة لإله المؤابيين شمش، وعندها قتل الحلفاء الحصار وانسحبوا. لم يكن المهاجمون ممن يعبدون شمش ولكنهم كانوا يمتدنون على ملك شمش، ولم يعتقدوا بأن إلههم الخاص بهم يستطيع أن يحميهم إذا كان شمش، بسبب العمل الذي قام به ميثع، قد يقدم لمساعدة ميثع.

كانت إحدى الوسائل التي تمكّن للآلهة الأجنبية من الدخول إلى حضي الإله المحلي هي الزواج بين أعضاء البيت الملكي وأميرات أجنبيات. هذه المعاهدات السياسية المتصلة بالزواج كانت تمهد للعلاقات الودية بين الدول. فقد تزوج سليمان عدداً من النساء الأجنبية أملاً في دعم إمبراطوريته، التي كانت في طريق الإنهيار. وقد كان من الحقوق للكرمة أن تأتي الزوجات الأجنبية بآلهتهن الخاصة بهن، أن يرتقن الآلهة غريب من كهنة الآلهة الأجنبية واتباعها. وقد لام عيلاد يهوه في يهوذا وإسرائيل سليمان بعد وفاته لأنه أدخل آلهة زوجاته الأجنبية، إلا أن معاصريه من هؤلاء العيلاد لم يثوروا عليه. لكن أحاب ملك إسرائيل (حكم نحو ٨٦٩-٨٥٠ ق.م.) لقي المشاعب لما أدخل إلى السامرة إله زوجته ايزابل الصيدونية بعل (الرب) مع آتياه بعل وكهنته. ومع أن العمل

الذي اتبعه أصحاب كاك عرقا دولتا مقبولا، فقد قاومه النبي الإسرائيلي المقيم عبر الأردن إيليا، وذلك نبيلة عن يهوه. وتمكن خليفة إيليا الذي اختاره بنفسه وهو أليشع أن يدبر ثورة ضد الملك يهورام ابن أختاب بين أفراد لجيش الإسرائيلي الذي كان معسكرا في جلعاد، على الحدود بين إسرائيل ودمشق. فقد أرسل أليشع أحد تلاميذه ليجمع ياهو، القائد المحلي، ملكا. ولما أصبح وجود ياهو شرعا سار إلى يزرعيل، حيث كان يهورام يتعاني من جراحه، وقتل ياهو يهورام نفسه والملكة الأم إيزابل وجميع الأفراد الباقين من أسرة الملك السابق أختاب وحاشيته وبعض لزورل من أسرة داوود الملكية من يهودا وجسيم الإسرائيليين الذين كانوا يبدون بل الصيدوني.

إن نصبة أسرة أختاب على أيدي ياهو، وهي التي أثارها أليشع، هي مثل على قوة الأنبياء السوريين. وقد كان هؤلاء الأنبياء يرحسون للملك. وكانت التنبؤات التي نصيبهم تعبر دلالة على أنهم يتلقون رسالة إلهية. ومن ثم فإن الملك الذي كان يتحدى نبيا منهم كان يجازف في احتمال أن يثير الرأي العام ضده. ولم يكن الأنبياء، من جهة ثانية، يخشون القيام بعمل سياسي. وقد نظم أليشع ثورة في دمشق قبل أن يدبر ثورة في إسرائيل. وأول نبي سوري حفظ لنا التاريخ اسمه - وهو الذي قابله ويتامون في جيبيل نحو سنة ١٠٦٠ ق.م. - تدخل في قضية ويتامون. لقد فشل اغتصاب وإيزابل في السيطرة على أنبياء يهوه وعمل لأنهما كانا يحتفظان بجماعات منهم على حساب الدولة. إن الملك السوري، أي ملك، لم يكن يستطيع أن يضمن أن يكون كل نبي حي تحت السلطة الملكية.

إن نبي جيبيل المذكور، والذي عاش في القرن الحادي عشر ق.م. هو النبي السوري الوحيد الذي وصلتنا أخباره، وذلك خارج أنبياء إسرائيل ويهودا، وباستثناء الأنبياء الصيدونيين الذين كانوا في حاشية إسرائيل، وهذه ثرة في معرفتنا لتاريخ المدينة السورية. فلا شك أن الأنبياء قد استمروا بالظهور، بعد القرن الحادي عشر ق.م. بين الجماعات السورية الأخرى، خارج إسرائيل ويهودا. فالأنبياء، مثل التجار والعرائس الملكية وآلهة هذه العرائس، كان باستطاعتهم أن يجتازوا الحدود السياسية. فقد عمل إيليا في أرس الصيدونيين في صرقند، ولو أنه كان يمتع في أن يعمل الأنبياء الصيدونيون في إسرائيل ودخل أليشع إلى دمشق. وكان عاموس من يهودا لكنه عمل في إسرائيل.

من الظاهر أن القضية بين إيليا وأختاب كانت دينية. هل كان ليهوه - في

إسرائيل - فقط التقدم على بقية الآلة الأجنبية لم أن يعيد وحده حصراً؟ ولكن كتابات انبياء القرون الثامن عشر ق.م. تشير إلى أن قضايا اقتصادية واجتماعية كانت تثار في هذه الأحاديث الدينية. كانت إحدى النتائج المترتبة على تزايد الاتصالات النشطة بين دول العالم السوري، وعلى عدد من المستويات المختلفة، أن ظهرت توترات وانفعالات في الحياة الداخلية لهذه الدول السورية التي كانت «متخلفة» اقتصادياً واجتماعياً. ففي مثل هذه الدول - ولتأخذ مملكة إسرائيل نموذجاً على ذلك - جازمت «المؤسسة» المحلية أن تفقد طريقة الفينيقيين في الحياة، وهي حياة كانت تتخلب فيها التجارة على الزراعة، وكانت سلطة المال تفوق على الحقوق المعترف بها، فكانت النتيجة في بلد مثل إسرائيل، تبديلاً كاد أن يكون ثورياً في توزيع الثروة بحيث وقع الحيف على الكثرة الفقيرة من السكان. ويبدو هذا واضحاً في ما كتبه النبي عاموس الذي كان يحمل في النصف الأول من القرن الثامن ق.م.

في أيام عاموس ازدادت حدة الأزمة الاجتماعية في العالم السوري بسبب الإنجاز الثاني الكبير الذي حققه الفينيقيون. كان الفينيقيون قد اخترعوا حروف «هجاء» (الالفباء) في القرن الحادي عشر. وفي الفترة التي سبقت فيها الهجوم الآشوري بين سنتي ٨٢٧ و ٧٤٥ ق.م.، أقام الفينيقيون علاقات تجارية مع سردينية وشمال إفريقيا وجنوب إسبانية، وبدأوا بإنشاء مستعمرات في الحوض الغربي للبحر المتوسط. ولعل هذا الإنجاز الاقتصادي كان مما أدى إلى اضطراب اجتماعي في الدولات الفينيقية بالذات؛ وكتابات عاموس هي دلالة واضحة على تأثير ذلك في إسرائيل. ولعل الشرور الاجتماعية التي كان عاموس ينكرها على الناس قد كانت مما أنكره إيليا على انعام وإيزابل. ولعله مما يلفت النظر هو أن إيليا كان من سكان عبر الأردن - وهي منطقة لم تكن للزراعة قد تغلبت فيها على حياة الراعي البدوي. ففي القرن التاسع ق.م. كان من الممكن أن تصطبغ الحياة في الصامرة وبيروجيل وجلا تشيبا (أي من جلعاد)، هذا دون الحوض في حياة صور وصيدون.

إن انبياء إسرائيل الذين وصلنا أقوالهم مدونة كانوا معنيين بالديانة وقضايا العدل الاجتماعي الداخلية والعلاقات الدولية. وهذه الأمور جميعها (ثما هي ثلاثة مظاهر لقضية أساسية واحدة).

١٨- المدنية الهلينية نحو ١٠٥٠-٧٥٠ ق.م.

خلال العرون الثلاثة المنتهية بنحو سنة ٧٥٠ ق.م. كان السوربون قد اخترعوا الألفباء، وكانوا قد اكتشفوا سواحل الحوض الغربي للبحر المتوسط واستعمروها، وكانوا قد انتجوا أعمالاً أدبية ذات قيمة بما هي ذلك أقدم ما دون من أقوال نبي. وإذا كان الصرانيون والآراميون كانوا أميين أيام استقرارهم في سورية، فإنهم لم يطلبوا أن يفسوا الكتابة الجديدة التي كانت كتابة السكان الكنعانيين الذين استقروا في ما بينهم. وليس ثمة ما يدل على أن الكنعانيين لم يستمروا في الكتابة باللغة الأكديّة والخط السومري إلى أن أخذوا أنفسهم بالكتابة بلغتهم مستعملين الخط الجديد، الذي اخترعوه لأنفسهم. وعلى النقيض من ذلك فإن الإغريق، على ما يبدو، توقفوا عن استعمال الخط ب B بعد النكبة التي أصابهم نحو سنة ١٢٠٠ ق.م.؛ وهم لم يقتبسوا الألفباء من الفينيقيين إلا نحو سنة ٧٥٠ ق.م.. وهكذا فإن الإغريق قد تأخروا نحو قرنين عن المبرانيين والآراميين في اقتباس الألفباء. فقد ظل الأعراف أميين ما يقرب من ٤٥٠ سنة.

وهذه السنوات الأربعمئة والخمسون تمثل، بالنسبة إلى حوض البحر الإيجي، عصرًا مظلمًا من ناحيتين: لم تنتج له قيود مكتوبة، والمضارة للمادية كانت في انخفاض إذا ما قورنت بما سبقها من نتائج العصر المينوي الميكاني وما تلاها في العصر الهليني. ومع ذلك فإن الأعراف كانوا، خلال هذه المصير المفترضة المظلمة، يلمسون طريقهم نحو ما يمكن أن يعد من أعظم إنجازاتهم المقبلة. فتطور أسلوب الفخار السابق للأسلوب الهندسي والأسلوب الهندسي نفسه، كاتا مقدمة للفنون الهلينية المتطورة على اختلاف أنواعها وتطور الشعر الملحمي الإغريقي المروي كان مقدمة لإنتاج جماع الأدب الإغريقي الهليني والأدب اللاتيني الذي كان نتيجة وحي من الأول. إن تطور شكل المدينة - الدولة على أنها الشكل السياسي في العالم الإيجي في هذا العصر المظلم، لم يكن إنجازاً خاصاً

بالإعريق. فقد ظهرت للندن - الدول في سومر قبل ذلك بنحو ألفي سنة، وقد كانت على الأقل واحدة من المدن - الدول الفيتيقية أي جيبيل، قديمة كقدم نيور وأرورك وأور. وعلى كل فإن الشكل الخاص من المدينة - الدولة الذي طوره الأغارقة في حوض البحر الإيجي بعد سقوط إمارات العصر الميكاني، أصبح تدريجاً النموذج المعترف به لحوض البحر المتوسط بكامله، وكذلك في مناطق تقع شرقي نهر الفرات.

إن حل رموز الوثائق المدونة بالخط ب أظهرت لنا الفرجة في الأنظمة السياسية الإغريقية بين العصر الميكاني والعصر الهليني. إن الإمارات الإغريقية الميكاني كانت نماذج مصغرة لامبراطورية سومر وأكد ومصر الفرعونية. وكانت إدارتها تقوم على تسلسل وظالفي تشرف عليه مؤسسة مهنية تعرف الكتابة. لكن هذه المدن - الدول لم تكن لا كبيرة ولا غنية بما فيه الكفاية لتحمل بيسر عبء هذه البنية الإدارية الصلابة، ومن ثم فإن النقص في الوظائف العليا كان أحد أسباب سقوطها. والندن - الدول التي قامت من بين انقاضها كانت أقدر على مواجهة الواقع الاقتصادي الإقليمي. فالمدينة - الدولة الهلينية النموذجية كانت، واستمرت على ذلك عبر التاريخ الإغريقي الروماني، جماعة زراعية صغيرة. وقد كانت أراضيها يحددها نصف قطر يمكن اجتيازها مشياً في نصف يوم من السوفى أو القلعة، اللذين كانا نواتها. وهذه الجماعة كادت أن تكون، من الناحية الاقتصادية، مكتفية ذاتياً. وكانت تجارتها، التي لا بد من امتدادها خارج حدودها، على أدنى حد، وكانت حكومتها الداخلية بسيطة. ولم تكن ثمة مرتبات لوظائف العامة أصلاً، نترتب على ذلك أن النفوذ السياسي كان جكراً على للوسرين من أصحاب الأراضي.

إن الفرق بين الإمارة الميكاني والمدينة - الدولة الهلينية القديمة هو أمر بارز تماماً، إلا أنه ليس ثمة ما يدل على انقطاع مقصود عن الماضي بالنسبة إلى المسعى السياسي. وتشو الإدارة العامة الإغريقية في العصر الميكاني كأنها تقليد راجع للإدارة البابلية والحثية والمصرية الفرعونية؛ فيما تبدو الإدارة العامة الإغريقية في العصر الهليني وكأنها تطوير غير راجع للسياسة الإقليمية النموذج للأحوال الاقتصادية للمنطقة. ومن جهة ثانية فإن الأحذ بالأسلوب السابق للنموذج الهندسي للفخار يبدو وكأنه انطلاق جديد مقصود. فإن الأحذ بالنماذج الزخرفية المجردة كان انقطاعاً تاماً عن التقليد المينوي للميكاني الذي كان الموضوع الغالب فيه هو رسم التيات والحيوانات. وقد بدأ هذا الأسلوب السابق للهندسي

فجأة نحو سنة ١٠٥٠ ق.م. وفي مكان واحد هو أثينا. وانتشر من أثينا بسرعة، مع العلم بأنه كان ثمة فجوة من بلاد الإغريق قد تطورت فيها أنواع من الأسلوب السابق للهندي، ثم الهندي في ما بعد، وكان ذلك على ما يظهر، مستقلاً. وقد رافق الأخذ المجهاني بالأسلوب السابق للهندي في الفخار في أثينا نحو سنة ١٠٥٠ ق.م. الاستعاضة المفاجئة كذلك، بالحرق عن التدفئة، على اعتبار أن ذلك هو القاعدة القياسية للتخلص من الموتى. وفي التاريخ نفسه استبدل البرونز بالحديد على أنه المعدن المقبول لصنع الأدوات والأسلحة. وهذا التماثل في التبدل الفجائي في التكنولوجيا والفن هو أمر بارز تماماً. مهمل يدل هذا على تبدل في السكان أو أنه كان تبدلاً في الزبي فقط؟ إن معرفتنا الأثرية تزودنا إلى الآن، بجواب قاطع لهذا السؤال الذي يدور حوله نقاش حاد.

إن خلق هذا الأسلوب الجديد - الأسلوب السابق للهندي - في زعفرقة الفخار كان يمكننا بسبب تجديد تكنولوجي وهو استعمال فراش متعددة مرتبطة بدوائر. ولعل هذا لم يكن اختراعاً أثينياً، بل لعل الأثينيين تعلموه من الفهرسة في وقت عاد فيه الاتصال بين قبرص وحوض البحر الإيجي. وعلى كل فإن الناحية التكنولوجية في الثورة السابقة للهندي في الفن الفخاري ليست هي أهم ما في الأمر. فقد كان ثمة ثورة جمالية هي أكبر شأنًا. فإن صناعات الزهريات ومزخرفتها من الأثينيين الذين استعملوا الأسلوب السابق للهندي كانوا يواصلون بين زعفرقة الزهريّة وشكلها. فقد كان الاتساق من الأمور التي يعنون بها عند وضع تصميم للنموذج؛ وقد كانوا يتوصلون إلى الأثر الفني من طريق التعبير الأنيق للأفكار البسيطة. وهذه الهيئات الثلاث المميزة للفن الإغريقي السابق للهندي والهندي، انتشرت على أنها صفات خاصة بالفن الهليني في أنواعه المختلفة وغير المراحل التالية للتاريخ الهليني، باستثناء المرحلة الأخيرة. ويتضح الاهتمام بالانسان في سوتف الفنان من استخدام صور الإنسان والحيوان في زعفرقة الزهريات الهندسية الأسلوب في الدور الأخير منه. ففي ذلك الزمان كان أثر الأعمال الفنية السورية، والتي كانت مزخرفة بصور الناس والحيوانات، قد أخذ يتحدى الأسلوب التجريدي الذي كان قد مر عليه ثلاثة قرون وهو الأصل المتبع في حوض البحر الإيجي. ومن البين أن الرسامين للزهريات الذي أخذوا بالأسلوب الهندي كانوا يترددون في أن يعرضوا الاتساق في صنع النماذج للمخطوط، وذلك عن طريق استعمال صور الأشياء الحية بنفس النظر عن شكلها؛ ولما قبلوا بذلك أخيراً، فأنهم هندسوا هذه الأشكال يجعلها تنسق مع

الساذج التي استعملت فيها. إن رسم الأشكال الجامدة التي لا حياة فيها هو دليل على اهتمام الفنان بالانساق؛ إنه ليس دليلاً على العجز لدى الفنان.

لقد كان ثمة انقطاع في الفن المتطور وفي نظم السيلسية بين العصر المظلم التالي للعصر الميكاني وبين الماضي الميكاني في حوض البحر الإيجي، ويميلو كأن العاصوري ومصور المهرية قد انفصلا عن هذا الماضي الميكاني عمداً. والشاعر الرأبة كان أيضاً يعي الماضي الميكاني؛ لكن الذي كان يعي به لا الانقطاع عنه بل الاحتفاظ به على أنه الجبال الذي ينظم فيه شعراء ما يمكن أن يفهم ذلك دون أن يعرض هذا الشعر لأن يكون غير مفهوم فلتسمع كان يتغير تغيراً بطيئاً، ولكنه تغير مستمر من جبل إلى جبل. ففي الأجيال التي كان واحدها تلو الآخر كان المستمعون للشاعر يتطلبون كلا الأمرين: القديم والمفهوم، وكان على الشاعر أن يفي بالمطلين معاً. والعالم الذي كان يستحضره كان مزيجاً خيالياً من سلسلة من العوالم الحقيقية. فقد انتقلت لدى الشاعر المراحل التالية للحياة الميكاني في صورة موحدة خداعة، وقد مزج بين هذا التعبير المفضل جزئياً للماضي الميكاني وبين مظاهر الحياة في الأجيال المتعاقبة للعصر الميكاني المظلم. وقد كان الفعل دالاً على الأمانة، وكان الفاعل يجب أن يتصف بالقدرة الخاصة كي ينتج من هذه المادة المتغيرة في خواصها، عملاً فنياً متسقاً يمكن أن يجد فيه المستمعون شيئاً مقنعاً ومقبولاً.

وقد كان المطلوب من قدرات الشاعر الفنية والتكنولوجية شيئاً ضخماً، وكان مما يزيد في صعوبة المهمة مشكلة تقنية دقيقة وهي نظم الشعر في وزن محكم. ولقد حل الشعراء هذه المشكلة التقنية عن طريق وضع مجموعة كبيرة من صيغ البحور الشعرية وحفظها. فقد كان هناك صيغة لاسم كل من أبطال الملحمة، مزودة مع النعوت المتعددة لكل بطل، وكل هذا مع العناية بحالات الإعراب الخمس التي يتعرض لها الاسم في اللغة الإغريقية. وهذه الوسيلة التقنية مكنت الشاعر من عرض شخصياته المسرحية في شعر سداسي التفاعل صحيح، وفي عدد كبير من تنوع الأوضاع. وكان الشعر يرتجل في كل تأدية، لكن أكثر الصيغ التي كان الشعر ينظم بها كانت مهيلة مسبقاً. ولا ريب في أن صيغاً جديدة كانت تصنع بين التينة والفينة أثناء القيام بالتأدية، وكانت هذه تصاف إلى جماع ما كان عند جماعة القائمين بالعمل. لا أن صنع الصيغة كان أندر من صنع قصائد مروية على صيغ وعنها ذاكرة الشاعر، وكان الشاعر قد نظمها قلادة أدبية.

إن التطور التدريجي الذي تم عند الإغريق الهلنيين في الشعر المروي والفن المتطور والنظم السياسية في القرون الثلاثة المتتالية نحو سنة ٧٥٠ ق.م. يبدو وكأنه لا أهمية له إذا قورن بالإجازات التي تمت في الفترة ذاتها على أيدي معاصري الهلنيين من السوريين إن أهمية الإجازات الإغريقية التي تمت في فترة العهد المظلم مما تلا العصر الميكاني، يمكن أن يدرك مداهما فقط على أساس النظرة الخلفية عندما ننظر إلى ما تلاها. ففي أواسط القرن الثامن ق.م.، وقبل أن تقضي آشور بأكنتها الحربية وفي حملتها الأخيرة والمباشرة على السوريين، وضع هؤلاء بين أيدي الهلنيين حافزا ثوريا مفاجئا لما نقلوا إليهم الألفباء الفينيقية. وقد تلا هذه الهبة نقل الفن التجاري الفينيقي - وهو معدن نحس حوله الهلنيون والأترسكيون إلى ذهب.

١٩- المدينة الهندوية ١٠٠٠-٦٠٠ ق.م.

ذكرنا من قبل أن معرفتنا عن مدنية السند مستمدة أصلاً من المصنوعات البشرية التي كشف عنها التنقيب الأثري، وأن تأريخها يعتمد على ما عثر عليه من مصنوعات المدنية السندية في المراق في طبقات من البقايا الخاصة بالمدينة السومرية الأكديّة والمعروف تأريخها. وبسبب الأمر كذلك إلى أن تحمل رموز كتابة المدينة السندية. ومعنى هذا أن أحدث تاريخ يد لنا على أن المدينة السندية كانت لا تزال قائمة هو نحو سنة ١٥٠٠ ق.م.، إلا أن هذا التاريخ الختامي ليس له ما يؤكد، وليس لدينا ما يؤكد لنا التاريخ الأول الذي بدأت فيه المدينة الهندية (أي الهندية) وهي المدينة التي جاءت في أعقاب السندية. وتاريخ الهند السياسي، قبل الجزء الأخير من القرن السادس ق.م. ليس مدوناً، والمؤثق منه في حياة البوذا سدهارنا غوناما (لعل ذلك كان نحو ٥٦٧-٤٨٧ ق.م.) لا يمدد كونه مصادفة بالنسبة إلى حياة بوذا، وذلك لأن الأمر كله نعتمه الأسطورة. والفترة التي لعلها امتدت ألف سنة، بين سقوط لمدينة السندية ومصر النور البوذي، ليس ثمة ما يملأها إلا القليل من المصنوعات البشرية التي عثر عليها في الآثار. والدليل الأثري لهذا الألف من التاريخ العثماني للهند يكاد يكون محصوراً في تسلسل ضئيل من البقايا الفخارية.

وفي مقابل ذلك نجد أن الدلائل على الفترة السابقة لبوذا هي تلويخ المدينة الهندية هي كثيرة ومفيدة في مجال التاريخ الديني. والمدنية هي أكبر التجارب والشاغل البشري أهمية، والكتب المقدسة للهندية لا يمكن وضع تلويخ لها. فقد وضعت وانتقلت عبر الرماز شفويا لمدة من الزمن لا سبيل إلى تحديد طولها قبل أن تدون. إلا أن انتقالها الشعري عبر هذه المدة يبدو وكأنه كان صحيحاً، لأنه كان من المعتقد أن فعالية الأدعية كانت تعتمد على أن تعاد كلماتها إعادة صحيحة. يضاف إلى ذلك أننا نستطيع أن

تلمس الترتيب الذي لحقت فيه أنواع الأدب الديني الهندي واحدها الآخر، مع أننا لا نستطيع أن نتأكد من الزمن الذي استغرقه هذا التطور، ومن ثم فليس باستطاعتنا أن نحس الزمن الذي وضعت فيه أقدم هذه الأنواع.

وأقدم هذه الأنواع هو الفيدا: وهي مجموعة من الترانيم الروحية والرقى التي كانت تقرأ في الأضحية التي كانت أفعالا وشعارات طقسية كما كانت صيغا سرورية. والسور الذي يتلو ذلك هو مجموعة من الأبحاث حول التصارين الدعائية والمسامة براهمانا. وهذان النوعان وهما الأقدم من الأدب الهندي، ليسا متميزين، إذ أنه ثمة ما يوازيهما في الأدب الديني، المروي وللدون، عند الجماعات القديمة.

في هذه المرحلة كان اهتمام الهنوديين منصبا قبل كل شيء على إقناع الآلهة أو إرغامها على الاستجابة إلى رغبات الذين يحيدوها. والآلهة الهندوية، مثل الآلهة الحثية واليونانية والأسكندنافية، كانت تحشر في مجمع. ولعل المجموعات الخاصة بالشعوب المتكلمة باللغات الهندية الأوروبية، مشتقة، في غائمة اللطاف، من النموذج السومري. فعبادة فريق من الآلهة، على أساس الطقوس الصحيح، هي، بالنسبة إلى عدد من الشعوب، غائمة تلويخهم الديني، كما قد نكون بداهته. لكن الهنوديين ذهبوا، في مجموعات الأوانياكا والأوباشادا، إلى محاولة اكتساب سر الكون، وهي حال ينتقل الكائن البشري فيها إلى الوعي. فقد تساءلوا عن طبيعة الحقيقة النهائية، وعن طبيعة النفس البشرية، ومن ثم عن العلاقة بين النفس والحقيقة النهائية. وقد انتهوا إلى أن النفس (اتمان) هي مطابقة تماماً للحقيقة النهائية (براهمان) في الكون وما وراءه، وأنه من الممكن التوصل إلى الحسد بهذه المطابقة عن طريق الفحص الداخلي للمشاعر الإنسانية. وهذا الحسد نفسه ثلاث كلمات متكررة، ثلث تولد أسي: أي ذلك ما هو أنت، أو أنت ذلك - أنت هي النفس البشرية وذلك هي الحقيقة النهائية.

والدور الثاني في الديانة الهندوية هو نتيجة مستغربة للدور الأول. ففي الدور الأول كان الهندويون مهتمين بالناحية الخارجية للديانة، وفي الدور الثاني انتقلوا من الطقوس إلى التأمل، وقد قطعوا شوطا بعيداً في اكتشافهم للبعد البيكي للكون.

بماكانا أن تتبع تطور الديانة الهندوية في مراحلها المتتالية عبر ما تركه كل من هذه المراحل من أدب مقدس للختلف. وتطور تركيب المجتمع الهندي يمكن استنتاجه من مصادر ليست معاصرة له. فالرؤساء الهندوية الاجتماعية المميزة هي الطبقة؛ وكلمة

فرا، وهي الكلمة السنسكريتية التي ترجمت حديثا بكلمة طبقة، معناها أصلا : اللون . وهذا معناه ان الطبقة هذه تعود جذورها الى محاولة قام بها المهاجسون للبلاد التي قهروها، والذين كانوا يختلفون عن المهاجرين في لون بشرتهم، كما كانوا يختلفون عنهم في سلوكهم وعاداتهم. وقد كان النظام المصري هذا صلوا، ولنا أن بحسب أن السبب في ذلك يعود إلى أن أهل البلاد كانوا أكبر عددا من المهاجرين، كما كان أولئك يتصرفون على هؤلاء مدينة. فأهل البلاد كانوا ورة المدنية السندية، والمهاجسون الآريون كانوا : براية ٩.

وهذه المحاولة التي كان قوامها الحفاظ على عزلة الفاتحين عزلة عنصرية صارمة عن المغلوبين، كان لها أثر على التركيب الطبقي الداخلي للجماعة الآرية المتسلطة. فقد انقسم الآريون، كما حدث لشعوب أخرى في أماكن مختلفة متعددة في أجزاء العالم، إلى ثلاث طبقات هي: المحاربون والكهنة والعامة، وقد كانت هذه الطبقات وراثية عند الآريين، كما كانت عند شعوب أخرى. لكن الآريين بعد أن أقاموا أنفسهم الطبقة الحاكمة في الهند، أصبح الانقسام الطبقي الداخلي عندهم لا يقل صرامة عن الفصل بين الآريين وأهل البلاد. وقد انتزع الكهنة (البرهمنيين) مع الوقت مع المحاربين (الكشاثريين) ما كانوا يتمتعون به من كونهم أرفع الطبقات - وهو عمل فيه براعة، إذا تذكرنا ان الثورة والنفوذ السياسي بقيا في أيدي طبقة المحاربين. وهكذا لقد أصبح الانقسام الطبقي بين الجماعة الآرية للسيطرة صارما كما كان في الطبقة بين الآريين وابناء البلاد. ومن ثم فقد انقسم المجتمع الهندي إلى أربع طبقات، وليس إلى طبقتين التين، بتصدرها الكهنة لا المحاربين. وقد تقسمت كل من هذه الطبقات الأربع في ما بعد إلى طبقات تحتية، وذلك تبعا لتضخم المجتمع الهندي نفسه عن طريق الفتح الجديدة، أو بسبب تملل أهل البلاد عن طريق دمجهم في واحدة من هذه الطبقات الأربع الأساسية.

بما أن الآريين كانوا قد حيطوا الهند أصلا من سهوب الأوراسية، فإن الموطيء الأول الذي استقروا به في الهند كان في حوض السند. والدلالة الجغرافية التي نحصل عليها من أدب الفيدا، يقدر ما فيه من دلالة، يشير إلى أن هذا كان موطن الآريين في الوقت الذي وضع فيه هذا الأدب. وفي أيام يودا كان قلب العالم الهندي قد أصبح الجزء الأوسط من حوض جمنا - الكشتر. وفي القرن الثاني للميلاد كان العالم الهندي قد امتد

جنوبا الى شبه الجزيرة الهندية وجنوبا في شرق إلى ما هو الآن فيتنام الجنوبية واندونيسيا. وليس ثمة قيود لهذا التوسع المتابع للمدنية الهندوية ولكن ثمة شيء واحد باد للعيان أنه كلما زاد هذا التوسع، كان التمثيل يكبر، إذا قورن ذلك بالفتح والاستعمار واللمعة العسكرية وهي لغة الآريين، وما اشتق منه، لم تنتشر قط حتى في شبه القارة الهندية جمعاء. والمدنية الهندوية، مؤسساتها الخاصة بها، مثل نظام الطبقات واستعمال العسكرية كلمة مقدسة، انتشرت في رقعة أوسع. ولما تجاهل بوذا نظام الطبقات، ولمحى الاعتقاد القائل بأن النفس هي مطابقة للحقيقة النهائية، ولدت في المدنية الهندوية ديانة تبخيرية هي التي أوقعت آسية بأجمعها في أسرها.

٢٠- المدنية الصينية ١٠٢٧-٥٠٦ ق.م.

لعل العالم الصيني كان، خلال الربع الأول من الألف سنة التي حكمت فيها أسرة تشو، أكثر استقراراً مما كان عليه في أيام شانغ. ومن المؤكد أنه كان أكثر استقراراً مما كان عليه في القرون الخمسة التي انتهت في سنة ٢٢١ ق.م. وهي السنة التي تم فيها توحيد الصين سياسياً وبشكل فعال على يد شي هوانغ - في من أسرة تشين. ويبدو أنه خلال الربع الأول من الألف سنة التي حكمت فيها أسرة تشو، كان إشرافها المقتلقل على اتباعها الأمراء، البالغ عددهم سبعين أو ثمانين، فديلاً بقدر ما كانت الأحوال تسمح بذلك. فقد كان نحو ثلثي هؤلاء الأنباغ من أسرة تشو، ولعل جميع فروع الأسرة كانت تشعر بالاداجة إلى التضامن معا للحفاظ على سيطرتها على الشانغ وغيرها من الجماعات التي لم تكن تشوية ولكن كانت أسرة تشو قد قهرتها. إلا أن الباحث على هذا الولاء لأسرة تشو قد تأكل مع مرور الزمن. وبعد التكية التي اصابت الأسرة سنة ٧٧١ ق.م. خرج هؤلاء الأنباغ عن الطوق.

كان عدد هؤلاء الأنباغ، في هذا الوقت [سنة ٧٧١ ق.م.]، قد زاد بحيث أصبح ثلاثة، وذلك بسبب تقسيم القطائع تدريجياً. وترتب على فقدان السلطة والنفوذ في أسرة تشو أن أخذ هؤلاء الأنباغ، الذين كانوا موجودين أساساً فقط، ينصرون وكانهم أصحاب سيادة في الواقع، إلى حد أنهم كانوا يشنون الحروب واحدهم ضد الآخر. وهذه الحروب بين الدول بلغت قبل نهاية القرن الثامن ق.م. واستمرت عبر القرون الخمسة التالية. واستمر القتال والحروب خلال هذه الفترة من التاريخ الصيني يميزها عن فترتي السلام مسياً، سواء في ذلك الفترة التي سبقتها والفترة التي تلتها. إلا أن المصف الأول من فترة القرون الخمسة الواقعة بين فترتي السلام يختلف اختلافاً بئناً عن نصمها الثاني.

خلال القرنين التشرين في سنة ٥٠٦ ق.م. كانت الحروب مستمرة. وبسبب ان الدول الظافرة كانت تضم الدول المفقورة إليها، فقد تقص عدد الدويلات المحلية من نحو ثلاثمئة الى أقل من عشرين، بما في ذلك ما تبقى من رقعة الأرض المحيطة بلويانغ التي بقيت تحت السلطة المباشرة لأسرة تشو التي كانت صاحبة السيطرة رسمياً. ومع ذلك فقد ظلت الحياة، في هذه الفترة من الحروب الأهلية، وباستثناء أقلية ضئيلة من السكان، مستقرة. وفي هذه المرحلة كان القاتلون من الجماعة الأرستقراطية. وكانوا يقاتلون وهم في المركبات، وقد كانت الظروف والتغيرات التي تعرضوا لها بسبب أعمالهم هذه تحفف من حدتها روح الفروسية التي كانت تتحكم في مسيرة القتال. والفلاحون، وهم الطبقة الاجتماعية الأخرى إلى جانب النبلاء، لم يكونوا يعد قد فرض عليهم التجنيد لخدمة العلم. ولما كانت الفرص التي تسمح لهم بالوصول إلى المستوى الاجتماعي الذي يجعل الحياة قلقه، فقد كانوا يشعرون بالكثير من الطمأنينة في اقامتهم في الأرض التي كانت تدر عليهم ما يكفيهم ويكفي ساداتهم المقاتلين. وقد كان تركيب المجتمع الصيني يقوم إلى هذا الوقت، على معطيات تقليدية. والمذنبه الوحيدة كانت، إلى ذلك الوقت، هي الممارسة العسكرية بين النبلاء، ولم تكن الممارسة الاقتصادية قد ظهرت. وبشكل خاص فإن الأرض لم تصبح بعد مفاعاً يتاجر به.

وخلال القرنين الخامس والرابع ق.م. أصبح المجتمع الصيني متحركاً، وفقدت الحياة الصينية عنصر الاطمئنان، لا بالنسبة إلى النبلاء فحسب، بل بالنسبة إلى الشعب بأجمعه. وقد عاش كونفوشيوس (نحو ٥٥١ - ٤٧٩ ق.م.) بحيث لدرك بده هذا التبدل. وقد كانت فلسفته والمعاليم التي لجأ إليها لنقل فلسفته إلى أعزوة التلاميذ أقدم ردود الفعل الروحية التي أثارها التبدل الاجتماعي في الصين.

كان أهم فرق بين الصين في عهد شانغ والصين في العصر الكونفوشي مرتناً جغرافياً. ففي عصر شانغ كانت رقعة العالم الصيني تقتصر على الحوض الأدنى للنهر الأصفر في سهل الصين الشمالية مضافاً إلى ذلك حوض رانده الأمين نهر واي ٥ في الأراضي الواقعة في ما وراء البحرات ٤. وفي سنة ٥٠٠ ق.م. كان العالم الصيني قد امتد جنوباً وشمالاً ففي الجنوب شمل حوضي نهري هوانج وهان والتخفيضات الواقعة في حوض نهر بالنفسى الأدنى. إن السكان الأصليين في هذا الامتداد الجنوبي لم يكونوا جزءاً أصيلاً من المجتمع الصيني، لكنهم كانوا قريبين من الصينيين عتصرياً. ولغة الأم عندهم كانت وثيقة

الصلة باللغة الصينية، وكانوا قد اخفوا انفسهم بقتباس اساليب الحياة الصينية بسبب انخراطهم المتزايد في سياسة العالم الصيني الواقعية. واعتداد العالم الصيني المعاصر ربما شمالاً وشمالاً في حرب حمل الصينيين على الاحتكام المباشر مع البدو الرعاة الأوراسيين، وقد وجد الصينيون انفسهم هنا وجها لوجه مع غرباء لا يستطيعون التمثل. فالبدو هؤلاء لم يكونوا يتكلمون لغة لا صينية فحسب، بل كانت لهم طريقة عيش ليست صينية. وفي الوقت الذي اصطلح فيه الفلاحون الصينيون بالبدو الأوراسيين، كانت طرق الحياة في المجتمعين المتصارين قد انحلت شكلها المحدد.

٢٦- مدينة اميركة الوسطى والأنديز ٨٠٠-٤٠٠ ق.م.

إن تاريخ مدينة اولك في أميركة الوسطى، على ما عرفت في أقدم موقع معروف لها في سان لورونزو، قد أشر إليها في الفصل الخامس عشر من هذا الكتاب. ولما تعرضت هذه المدينة إلى توابل عنيفة بحيث امتحت سان لورونزو من الوجود، استمر وجودها في مكانين قرب إلى شاطئ خليج المكسيك في لايتا وهي جزيرة تقوم في مستنقع، وفي ترس زابورتس الواقعة في فسخة من الأرض في غابة مدلرية. وفي هذين المكانين تعود الآثار المصارية في سان لورونزو الضخم ونظما إلى الظهور.

دمرت لايتا، كما دمرت سان لورونزو من قبله بشكل عنيف. فمن الواضح أن الأولك كانوا فاتحين عنيفين بحيث أنهم كفروا بطيرون، في نهاية الأمر، ضربات همجية توجه ضدهم. وعلى عكس ما كان عليه الأمر في سان لورونزو، فإن مركز الطقوس في كل من لايتا وترس زابورتس لم يكن مرتبطاً ارتباطاً دائماً بمكان تجمع سكانه، إلا أنه في ترس زابورتس، التي استمر وجودها بعد دمار لايتا، عثر على أقدم نموذج معروف للكتابة في أميركا الوسطى. وهي صور رمزية نافرة مثل النوع الذي حفره، في أرمات لاحقة، المايا في غواتيمالا وبوكاتان. وبعض هذه الصور الرمزية النافرة بما في ذلك ما عثر عليه في ترس زابورتس، هي تاريخية. وقد حلت القيم العددية لهذه الصور، لكن ليس من المؤكد أن كل الصور الرمزية النافرة في أميركة الوسطى هي ذات قيمة تفويجية. بعضها قد لا تعني ارقاماً بل وموزا لوفونيم. وهذه لا تزال تنتظر حل رموزها.

وأقدم ما نمره من المدينة الأندية كان، على وجه التقريب، معاصراً لدور لايتا وترس زابورتس من مدينة اولك. وقد تطورت هذه المدينة الأندية من الدور التكويني في الحصار الأميركية في شافن، في اتجاه الطرف الشمالي الغربي للمرتفعات الوسطى للعالم الأندى. والإشارات الظاهرة لمدينة شافن هي آثار معمارية ونحت على نحو ضخم. ومن الواضح

أنها، مثل مظاهرها الأولمبية، هي المظاهر الخارجية لديانة ما. والرمز الموضوعي البارز لمدينة شام، مثل مدينة أولمك، هو هولة بين النهر الأميركي الاستوائي المرقط بعمور، (وقد يكون يوما في الليرو) والكائن البشري. وتشترك المدينتان في هذا الموضوع السوري العمي، كما لد المدينتين اثبقتا (ويظهر ان ذلك كان مستقلا في الوحدة عن الأخرى) من الدور التكويني للحضارة الأولمبية الأميركية التي كانت شائعة أيضا في الميزو وميزو - اميركا والمناطق المعرضة بينهما في اميركا الوسطى والمختوية. وعلى كل فإن المناطق المعرضة لم تتج مدبات محلية خاصة بها. ومدينة أولمك وشافن لم تكونا مستقلتين، واحدهما عن الأخرى جغرافيا فحسب؛ بل إن أساليبهما كانت تختلف في المدينة الواحدة عنها في الأخرى، ومثل ذلك يقال في إنجازاتهما.

فقد اخترع الأولمك كتابة كانت تحمل في طياتها، ولا شك، توارخ بل لعلها كانت تحتوي على أفكار وكلمات. ولكننا لا نجد اية اشارة يختلف في تفسيرها والتي قد يستدل منها على انها قد تكون حتى أبسط انواع الكتابة التي يمكن ان تكون قد اخترعت في أي مكان أو أي وقت سابق للبرازيل العالم الأندني. وفي الناحية الأخرى كانت الشعوب الأندية، في عصر شافن، قد حدثت استعمال معدن واحد على الأقل، هو الذهب، بينما يبدو أن شعوب ميزو - اميركا لم تخرج التمدن اختراعا مستقلا. فقد تعلمت هذه الصناعة من العالم الأندني في دور لاحق من تارخ ميزو - اميركا.

وفي حدود ما نعرف فإن مدينة شافن ومدينة أولمك لم يتم بينهما أي اتصال قط، ولكن كلا منهما انتشرت من موطنها إلى أجزاء أخرى من عالمها، مع أن أبا منهما لم تنتشر انتشارا واسعا حتى في حدود عالمها الخاص بها. فمدينة أولمك انتشرت غربا إلى هضبة المكسيك، وجنوبا إلى السهل الساحلي للمحيط الهادي المرتفعات الواقعة في ما يسمى الآن غواتيمالا. ومدينة شافن انتشرت جنوبا في غرب من المرتفعات الأندية إلى السهل الساحلي للمحيط الهادي المجاور لها، ومن هناك في اتجاه جنوبي شرقي من واحد من أحواض انهار ساحل المحيط الهادي إلى الخوض الآخر. وقد تم انتشار مدينة أولمك، جزئيا على الأقل، عن طريق الفتح العسكري. ويبدو أن انتشار مدينة شام كان سلميا.

وقد كان انتشار كل من هاتين المدينتين، حتى ضمن هذه الحدود، إنجازا هاما - كما كان، في واقع الأمر، الانتشار المبكر والأوسع للحضارة الأميركية للتكونية. وثمة سبب واحد يجرى إليه قيام مدينتان في ميزو - اميركا والمناطق الأندية من اميركا وهو الوجود

التكامل، في امركة بأجمعها، في هذه المناطق بشكل خاص، لأشكال من الأرض طليعية متجاورة، إلا أنها تختلف عن بعضها اختلافا تاما في السطح والارتفاع والمناخ إن مناخ ميزو - امركة هو مداري في المرتفعات الساحلية على المحيط الأطلسي والهادي كليهما، إلا أنه معتدل في المرتفعات. وعلى جهة المحيط الأطلسي، حول شاطئ خليج المكسيك وفي المنخفضات الممتدة إلى الداخل، تقع شبه جزيرة يوكاتان المعشوش والتي تجاورها جنوبا الغابات المدارية في شمال غواتيمالا، وفي ولايتي نيكاراغوا وبنما (في المكسيك) إلى الغرب والشمال الغربي. وهذه المنطقة الساحلية الضيقة من الغابات المدارية تجاورها في الشمال منطقة صحراوية خفيفة تهزلها عن المنطقة الساحلية الخضراء في تكساس، والصحراء الميزو - امركة هذه تمتد من الساحل إلى الساحل عبر المرتفعات المعرضة بينهما، باستثناء رقعة ضيقة من الأرض الصالحة للزراعة تقع في أقصى الغرب من المنطقة التي تغطيها سلسلة الجبال من جهة الشرق. والجزء المرتفع من هذه الصحراء يجاور المرتفعات الصالحة للزراعة التي تمتد جنوبا من جنوب المكسيك إلى داخل امركة الوسطى.

والفروق في المنطقة الأندية هي بعد أكثر تطرفا، فالهضبة والجبال التي ترتفع عنها هي بعد أعلى من تلك. والأودية العميقة في المرتفعات اشد عملة بطبيعتها واحدا عن الآخر، منها في نظائرها الميزو - امركية والسهل الساحلي في البيرو، هو معتدل وذلك بسبب تيار هومبولت البارد الذي يتجه شمالا في سوازة الشاطئ، والذي يجعل من الساحل منطقة تكاد تكون ممدومة المطر. وقد ترتب على هذا أن السهل الساحلي هو صحراء رملية تتخللها، على أبعاد، أشرطة من المناطق النباتية تقع في مجاري الأنهار التي تنحدر من الأنديز إلى الشاطئ - واكثرها قصيرة وذات كمية محدودة من المياه الجارية. وأودية الأنهار هذه يمكن أن تستغل بشكل مكثف بواسطة الري. ومن الناحية الأخرى، فإن الأجزاء الصحراوية التي لا تصلح للاستغلال من ساحل المحيط الهادي تزود الصيادين وجامعي المحار بحاجتهم من الغذاء.

هذه البيئات الطبيعية المتنوعة على ما هي عليه من تجاوز في المكان اتاحت للجماعات البشرية العرصة لاكتشاف طرق متباينة تحول فيها الطبيعة غير البشرية إلى المصلحة البشرية. وهذه العناصر الاقتصادية المتنوعة أدت إلى قيام طرق مختلفة في الحياة وقد انتهى ذلك إلى قيام علاقات تجارية وحضارية بين جماعات متباينة واحدها عن الأخرى؛

على ان الوصول من الوحدة الى الأخرى لم يكن بعيداً وقد كانت هذه العلاقات حايوا حضارياً هاماً. ولكنها كانت، على كل حال، صعبة طبيعياً. ومن ثم فقد كان تاريخ المدينة المسابقة لكونمبوسه في كل من ميزو - اميركا والعالم الأندى، تناوباً بين فترات يعيش فيها سكان كل من الأقسام الطبيعية للمنطقة معزولين نسبياً، وبين فترات أخرى كانت فيها المدينة التي تنشأ في قسم واحد تنتشر الى غيره. ومدينتها الأولك وشافن هما أقدم الأمثلة المعروفة للانتشار الحضارى. وكان تكرار الانتشار في العالم الأندى أدى الى انتشار اوسع من الانتشار المائل لها في الميزو - اميركا، وهذا امر لائق، اذا اخذنا في الاعتبار بأن الحواجز الطبيعية التي تعوق التساوق الحضارى والاتحاد السياسى هي أقوى في العالم الأندى.

٢٢- الجولة الاخيرة للمسكرية الآشورية ٧٤٥-٦٠٥ ق.م.

بعد أن تحلصت آشور من غزوها لثلاثي عادت الى المظهر في القرن الرابع عشر ق.م. كدولة عربية. وخلال القرون الأربعة التي تلت ذلك كانت قوتها العسكرية تصرف في حملات لم يكن القصد منها احتلالاً دائماً، كما أنها لم تحقق شيئاً من هذا. وقد كانت، على الأقل خلال المراحل المتأخرة من اتساح السكان (نحو ١٢٥٠-٩٥٠ ق.م.)، تتعرض في جانبها العربي، لضغط الآراميين الذين استقروا في ما كان من قبل بلاد ميثاني، في ما بين النهرين (الجزيرة). ولم تبدأ حروب آشور الفوسية الا حول ٩٣٢ ق.م. وكان الآراميون المستوطنون في الجزيرة لول فريسة لها. وقد مر بنا أن آشور انتصرت على الآراميين في الجزيرة وضمتهم اليها بين ٩٣٢ و ٨٥٩ ق.م. وبعد ذلك، في أيام شلمانصر الثالث، احتلت موطن، قدم لها على شاطئ الفرات العربي عند تقوسه غرباً، ووطدت النفس على احتلال سورية وضمتها الى أملاكها. وقد انتهت هذه المرحلة الثانية من محاولة بناء إمبراطورية بالمثل. وللمرة الثانية كانت البلاد التي احتلتها آشور غرباً حتى سنة ٧٤٥ ق.م. مفضوعة على الجزيرة. وكان شمال سورية، وهو منقلب رئيس في شبكة المواصلات في العالم القديم، تحت سيطرة إمبراطورية لورلرتو الحورية، منافسة آشور.

كان أسلوب الآشوريين في بناء الإمبراطورية أشد قسوة وأكثر تخريباً من أسلوب المصريين. لقد كان تخمس الثالث وخلفاؤه يكتفون بأن يقرضوا سيادتهم على الدول التي احتلوا بلادها. وقد سمحوا لهذه الدول بأن يستمر وجودها تحت نفوذهم. إلا أن الآشوريين سبوا محبة السكان من الدول المفتوحة ونقلوهم الى بقعة ثابتة من الأملاك الآشورية. وقد كان بين الذين نقلوهم مهرة العمال كما كان بينهم كبار رجال السياسة والمجتمعي. وقد ترك الفلاحون الأميون في أماكنهم، إلا أن قتلت من الذين نقلوا من

مناطق أخرى استكروا في ما بينهم، وأزيلت حدود الدول المغلوبة وأراضيها. وأعيد توزيع المنطقة التي ضمت بحيث أصبحت خاضعة لسياسة تحتل بالهاتفي (ولايات) ذات حدود مصطنعة، يشرف على إدارتها موظفون آشوريون إشرافاً مباشراً. وكان الرمس من الأخذ بهذه الخطوات الجبرية مجتمعة تجزئة الجماعات المختلفة ببلادها ومحو ذكرى أيام الاستقلال من نفوس المواطنين السابقين. وقد كانت هذه السياسة الآشورية ناجحة إلى درجة كبيرة. وعلى سبيل المثال فإن دمشق التي ضمت سنة ٧٢٢ ق.م وإسرائيل التي ضمت سنة ٧٢٢ ق.م. لم تعد إليهما حيثما الأولي أبداً، مع أن سكان كل من الدولتين كانوا يهتمون بروعي وطني حي، قبل أن يخضعوا لأشور على نحو ما يظهر من الحروب التي تبادل الطرفان شنها واحدهما ضد الآخر.

وعلى كل حال فإن الآشوريين انفسهم ورعاياهم الغربيين عنهم، أصبحوا فريسة النشاط الآشوري الذي بذل لبناء الإمبراطورية. فقد نقص السكان في موطن الآشوريين الأصلي، بسبب الذين سقطوا قتلى في الحروب، وبسبب ما فرضته إقامة المستعمرات والحاميات الآشورية في البلاد المفتوحة من تزييف في القوى البشرية (وهو نوع من نقل السكان في الاتجاه المعاكس). والكثرة التي حدثت في أرض الوطن الآشوري خلقت عن طريق استيراد أقوام غريبة، حتى أن سكان الدولة الآشورية أصبحوا شبه آراميين. يضاف إلى ذلك أن التوتر الاجتماعي الذي فرضه على الشعب الآشوري تجنيده المستمر للحملات العسكرية البعيدة، والتي كانت تزايد، فأثار اضطرابات سياسية داخلية.

توفي شلمانصر الثالث سنة ٨٢٤ ق.م. أثناء ثورة امتدت من سنة ٨٢٧ إلى سنة ٨٢٢ ق.م. وفي هذه الموقعة من الشوران قامت للند الآشورية - آشور ونينوى وإربل - بالإضافة إلى بعض الولايات، بالثورة. وفي سنة ٧٤٦ ق.م. ثارت كلغو (كاله) التي كانت العاصمة يومها، وقتل لذلك آشور نيراري الخامس، واستولى على العرش الآشوري في سنة ٧٤٥ ق.م. رجل مجهول الأصل، اتخذ تظليته هلمر الثالث اسماً له. وكان خليفته المباشرة شلمانصر الخامس الذي خلفه على العرش، في سنة ٧٢٢، ملك من أسرة مختلفة، الذي كان اسمه أو لعله اتخذ لنفسه اسماً مشهوراً هو سرجون - الذي كان اسم مؤسس أسرة أغاد قبل ذلك بما يزيد عن ستة عشر قرناً. وليس ثمة ما يدل على قيام ثورة عنيفة في هذه المناسبة، لكن عدنا وثيقة من يهودا بأن سحراب (ابن سرجون) قد اغتاله لثان من أبنائه، وأن ابناً آخر من أبنائه، وهو

أسرحدون، قد غاضى غمار حرب أهلية ليضمن لنفسه وراثته العرش. وقد اقتتل اثنان من أحفاد سرجون في ما بينهما (٦٥٤ - ٦٥٢ ق.م). هما آشور بانينال وأخوه شمش شوم - اوكين، الذي كان قد نصب ملكا على بابل. وفي هذا القتال غاد هذا الأخير، وهو امير من الدم للملكي الآشوري، حلقا من جماعات الرعايا المعصاة. وبعد آشور بانينال في سنة ٦٢٦ ق.م. كان الملوك يتلوون على العرش الآشوري بالفوة الى سنة ٦٠٥ ق.م. حين زالت الحقبة الباقية من آشور.

وفي هذه الجولة الأخيرة للعسكرية الآشورية حاول تغلبت - فيلسر الثالث وبخلافه حتى آشور بانينال بالقدرة، ان يفتحوا ويصموا الى امبراطوريتهم، ما استطاعت ان تصل اليه أيديهم من الأوكيومين. وقد أصبحت مقاومة لورلنو في الشمال ومقاومة القبائل الكلدانية والآرامية في بابل معاصم. وقد انتصروا اكثر من مرة على هؤلاء الخصوم، إلا أنهم لم يتمكنوا من القضاء عليهم. وفي الوقت ذاته زاد الصدام بين آشور وخصومها من الجهران تمقيدا تفجر سكتاني قومه العرب الذين جاؤوا من الجزيرة وشعبان من البدو والرعاة (لعلمهم كانوا من الكلدانيين بالإنجليزية) هما الكرميون والسكيثيون الذين خرجوا من السهوب الأوروبية. وقد جاء هؤلاء جميعهم في وقت واحد.

كان العمل الأول الذي قام به تغلبت - فيلسر الثالث لإعادة النشاط والفرسح للإمبراطورية الآشورية هو مهاجمة لورلنو. ففي سنة ٧٧٤ ق.م. هاجم الولايات التابعة لأورارتو في الشرق، وفي السنة التالية هاجم الولايات التابعة لها في الغرب. وقد تمكن من الانتصار على الملك سردوريس الثاني انتصاراً ساحقاً في الحملة الثانية. وبين سنتي ٧٤٢ و ٧٤٠ ق.م. اخضع تغلبت - فيلسر الثالث لربلا (على مقربة من حلب) التي كانت أقوى دولة في شمال سورية. وادى سقوطها الى اختراع عدد من الدول الأخرى في سورية وكيليكيا الشرقية بالسيادة الآشورية اعترافاً مؤقتاً. وقد وصل تغلبت - فيلسر الثالث نرشا، عاصمة لورلنو، في سنة ٧٢٥ وحاصرها إلا أنه عجز عن احتلالها، ولم يستطع ان يحتل لها من بلاد لورلنو احتلالاً دائماً. وتربط على احتلال شمال سورية ثانية (ولعل ذلك تم في أيام شلمنصر الخامس بين ٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م) فرض السيادة الآشورية على حوام من الإمارات في شرق آسيا الصغرى، الواقعة الى الشمال من سلسلة جبال طوروس وإلى الغرب من أعالي القرات. وقد عزل حفا لورلنو عن كيليكيا وسورية عزلاً فعالاً. لكن الجهد الذي صرف في سبل الحفاظ على السلطة الآشورية في الولايات

البحينة كان شديد الأثر. يضاف الى ذلك أن هذا الأمر قرض على لشور الدخول في حروب مع القرصيين (المسكي) القاطنين الى القرب من حدها الشمالي الغربي الجديد، وأدى الى تقارب بين هؤلاء الخصوم الجدد وبين اورلوتو.

وفي سنة ٧١٤ ق.م. سار سرجون في الاتجاه للعاكس أي شمالاً في شرق دون أن يلقي مقاومة، وتخطى سلسلة جبال زغروس ثم دلف حول شاطئ بحيرة اورمية الشرقي وشاطئ بحيرة فان الشمالي. وقد عاد سالماً من هذا المسار العائلي عبر حوض دجلة الأعلى، لكنه، مثل تغلبت - فيلسر الثالث، فشل في الحصول على موطنه قدم ثابت في اورارتو، وابتمد عن توشيا. وكانت مملكة اورلوتو لا تزال قائمة في سنة ٦٠٥ ق.م. لما تم القضاء على آشور في معركة كركيش على أيدي البابليين (الكلدانيين) والمصريين.

عزل تغلبت - فيلسر الثالث سورية عن مصر في سنة ٧٢٤ ق.م. لما هاجم فلسطين (بلاد الفلسطينيين) واحتل غزة. ولم يكن لمة دولة مستقلة في سورية في سنة ٦٧٥ ق.م. سوى جزيرتين فينيقيين هما كرواد وصور وثلاث إمارات برية هي جبيل وعسقلان ويهوذا. وقد حاصر الآشوريون صور سنة ٦٧٣ ق.م.، وفي سنة ٦٧٥ ق.م. هاجم اسرحدون مصر (وكان هذا المشروع في تخطيط سنحاريب سنة ٧٠٠ ق.م. لما هاجم مملكة يهوذا لكنه لم يظفها).

كان من التسهل على الآشوريين أن يتغلبوا على منافسيهم القريبين (الكوشيين) في سبيل الاستيلاء على مصر. فقد كان ملوك نيت قد هاجموا مصر سنة ٧٣٠ ق.م.، ولبسوا العاج المزودج اعتزلوا من سنة ٧١١ ق.م. وفي سنة ٦٦١ ق.م. تغلبوا عن الكفاح، ذلك بأن حكمهم لمصر كان محفوفاً. ولما جاء الآشوريون الى الدلتا وساندوا حركة المقاومة التي قادها الأمراء المحليون هناك لم يكن نبأ في مستوى هذا التحالف. وتبعهم الآشوريون جنوباً سنة ٦٦٣ ق.م. ونهبوا طيبة. إلا أن آشور بانبيال ولي، في تلك السنة أحد أمراء الدلتا للمصريين بساما تيجوس (بسامتك) الأول حكم كل ما كان تحت سلطة آشور من أراضي مصر. ولقب بساما تيجوس نفسه الفرعون في سنة ٦٦١ / ٦٦٠ ق.م.، وفي سنة ٦٥٥ ق.م. ركز سلطته في طيبة. وبين سنتي ٦٥٧

و ٦٥١ ق.م. لتخرج الحملات الآشورية من مصر، وقد وافق آشور بانبيال على ذلك ضمًا. فقد كانت مصر أبعد عن نيتوى منها عن نيتا. واقتتلت التجارة الآشورية، كما اقتتلت الكوشيين، أن احتلال مصر باستمرار بقواتهم الخاصة كان قضية عسكرية ليس من

السير عليهم أن يحلوا. وكان الرابحون في غارة المطاف، من هذا التصادم بين قوتين أجنبيتين بعيدتين على أرض مصر، هم المصريون أنفسهم. وقد ظلت مصر قرناً وربع القرن أي إلى سنة ٥٢٥ ق.م. مستقلة سياسياً.

كان احتلال آشور العسكري لمصر، جهداً لا طائل تحته بالنسبة إلى قوتها ولم ينج عن خروجها من مصر أي تهديد لأمتها، كما أنه لم يؤدِّ مقامها في جنوب غرب آسيا. لكنَّ الاختيار المبرر للسياسة الأشرورية جاء من علاقتها مع بابل.

نستد أن احتل حمورابي للصومري البابلي الذي قام ببناء إمبراطورته، آشور احتلالاً مؤقتاً، قبل إتمام تغلبت - فيلسر الثالث بما يزيد عن ألف سنة، كان ثمة تبدل في تناسب القوى بين الدولتين الرئيسيتين في العالم السومري الأكدي. إذ أنه منذ القرن الرابع عشر ق.م. كان التفوق في جنوب أرض الرافدين (بابل) بسبب استقرار القبائل الكلدانية في الجنوب الغربي وبعض القبائل الآرامية في الجنوب الشرقي. وهؤلاء المفتحمون على أطراف بابل لا هم انخرجوا، كما أصاب الفوتيان، ولا هم تغلبوا في السكان كما حدث للكاشيين. لقد ظلوا أجناب يحدوهم الشعور بالعصبية القبلية والروح الحرة الخاصة بهم.

ولم يرحب سكان بابل المستقرون الفلاحون منهم وسكان المدن على السواء، بوجود هؤلاء الذين كانوا أصلاً بدوا رعاة من بلاد العرب. وقد كان من المنتظر أن يسهل مثل هذا الأمر، أي وجود هؤلاء البدو التفارب بين سكان بابل وأشور. فأشور كانت جماعة مستقرة وكانت تشترك مع بابل في مدينة مستقرة من مصر سومري أكدي. وأشور كانت الحادي الطبيعي لبابل. إذ أنها كانت المصالح عن حدود العالم السومري الأكدي ضد سكان الجبال في زغروس. وعلى كل حال فقد كان لا بد من استكمال شروط فيما إذا كان ثمة مجال لاتفاق بين بابل وأشور هما: أن يكون تصرف الأشروريين نحو البابليين بارها لبقاً، وأن لا يسمح للقبائل المتينة في بابل أن تخرج عن الطوق. ماذا أتبع للقبائل أن تسيطر على المدن البابلية وعلى بابل بالذات قبل غيرها - فإن الأشروريين يجدون أنفسهم أمام مأزق حرج، إذ يرتب عليهم واحد من أمرين، إما أن يقبلوا بخسارة سيطرتهم على بابل، أو أن يسترجعوا سيطرتهم على بابل بالقوة، وفي ذلك خطر الإساءة إلى بابل مادياً، وجرح كبرياء البابليين. وعندما قد يحمل البابليون على الاتحاق مع القبائل الجامعة ضد الأشروريين بسبب موقفهم من إعادة فرض القانون والنظام.

فصلى تغلبت - فيلسر موسم الحملات العسكرية الأولى في سنة ٧٤٥ ق.م. في

تأديب القبائل مع موافقة « المؤسسة » البابلية. لكن في سنة ٧٣٤ ق.م. خرج الأمر من يد « المؤسسة » البابلية، وعندما استولى زعيم القبيلة الكلدانية، بت - إموكاسي، على العرش. وفي سنة ٧٣١ ق.م. وهي السنة التي تلت سقوط دمشق اجتاحت تغلبت - ميلسر الثالث بابل وقضى على رجال القبائل هناك، لكن الفراغ السياسي في بابل لم يملأ وقد ملأ تغلبت - ميلسر الثالث هذا الفراغ بنفسه إذ « قبض على يدي بعل » - أي تولى السلطة على بابل - في سنة ٧٢٩ ومرة ثانية في سنة ٧٢٨ ق.م. لكن في سنة ٧٢١ ق.م. - وهي السنة التي تلت سقوط السامرة - احتذى زعيم القبيلة الكلدانية بت - ياكين، مروداخ - بلدان (مردوك - إله لبلدان) حلف تغلبت - ميلسر الثالث بعدما ضمن القبائل الآرامية في بابل ومعهم الميلايين. وقد قتل سرجون في التغلب على هذا التحالف في سنة ٧٢٠ ق.م. ومن ثم فقد حكم مروداخ - بلدان في بابل اثنتي عشرة سنة. وقد تمكن سرجون من طرده سنة ٧١٠ ق.م. وفي سنة ٧٠٩ ق.م. أعاد يدي بعل، بدوره إلا أن سرجون ترك مروداخ - بلدان مالكا للأرض التابعة لقبيلته الكلدانية.

وهكذا كان البابليون خصوما للكلدانيين وأصدقاء للأشوريين، وظل كذلك إلى سنة ٧٠٣ ق.م. حين عاد مروداخ - بلدان إلى احتلال بابل ثانية. وقد أعانه على ذلك الميلايون للمرة الثانية. وقد طرده الآشوريون للمرة الثانية في السنة ذاتها. ثم تمكن الآشوريون من الانتصار على القبائل، لكنهم لم يهكوا من أعضائها. ونقل سحاريب، في ٦٩٤ ق.م. سفنا وبحارة فيجئيين إلى الميناء البابلي، إلا أن قبيلة بت - ياكين نجت من حملتين، بريئة وبحرية، وذلك بمون من الميلايين. ونتج عن ذلك أن انتقل حكم بابل إلى حاكم بابلي هو حليف للكلدانيين. ثم احتل سحاريب بابل ثانية سنة ٧٨٩ ق.م. ونهبها، وهذه الوحشية المرقاة أكدت الشغل الذي قام به البابليون. وقد ذكرنا من قبل أنه حتى ملك بابل الآشوري، شمش - شوم - أوكين، شن في سنوات ٦٥٢-٦٤٨ ق.م. حربا ضد أخيه آشور - بانبيال ملك آشور، وكان على رأس تحالف شمل ليس الكلدانيين والآراميين البابليين فحسب بل الميلايين والعرب والمصريين وبعض الإمارات السورية. ويبدو أن الهزيمة الساحقة التي أنزلها آشور بانبيال بميلام سنة ٦٥٥ ق.م. لم تكن حاسمة. فقد دمر آشور بانبيال مملكة عيلام بين سنتي ٦٤٦ و ٦٣٩ ق.م. لكنه لم يقص على الأمة العيلامية. إلا أن الراهبون من سقوط عيلام لم يكونوا الآشوريين؛ لقد كان الراهبون للشوب الإيرانية في الأرض الداخلية للمصافة لميلام.

معيد وفاة آشور - بابل، وهي سنة ٦٢٦ ق.م. وقعت بابل تحت سلطان نابوبولاصر الكلداني ولم يكن يستنى لخل هذه الحركة الخاصة لأشور أن تلقى عوناً من عيلام، فقد كانت عيلام منهكة. إلا أن نابوبولاصر لقي حليفاً شرقياً أقوى وأشد رغبة هو ميديا. ذلك أن الخطر الآشوري أوجد في إيران في القرن السابع ق.م. الأثر السياسي وأساسه الصداك، كالذي لوجده مثل هذا الخطر في لورلرتو في القرن التاسع ق.م. وقد كانت القبائل الميديّة قد أنشأت مملكة متحدة، ولعلّ مظهر عيلام وهي محطمة هو الذي حصل القبائل على اتخاذ هذه الخطوة. ولما ردّ نابوبولاصر، بعد ما قام بالمبادرة الأولى ضدّ آشور، عن مدينة آشور سنة ٦١٥ ق.م. تدخل كياكسارس، ملك ميديا، لمصلحة البابليين، فاحتل آشور ودمرها، سنة ٦١٤ ق.م.. واذا تقدم السكيتيون لمساعدة الميديين والبابليين، تمكن هؤلاء من احتلال نهري وتدميرها سنة ٦١٢ ق.م.. وهكذا امتحت أول وأخر عاصمة لأشور كلية. وقد صعد الآشوريون لأخر مرة في حران - وهي موقع قديم للحضارة السومرية - الأكديّة في ما بين النهرين. فقد تقدم الفرعون نفو الثاني، وهو ابن ساما تيمحوسى الأول الفرعون الذي كان نابعا لأشور بابل، والذي كان تولي الحكم بعد أبيه، إلى نصرة الآشوريين؛ إلا أن الهزيمة الساحقة التي لحقها نبوخذنصر، ابن نابوبولاصر، بنفو الثاني في معركة كركيش سنة ٦٠٥ ق.م. كان إيذاناً بزوال آشور.

لم يكن الوريث الحقيقيون للإمبراطورية الآشورية الدولة الوريثة للإمبراطورية المحطمة؛ بل كان هؤلاء النسخة الآرامية للألقاب النيقية واللغة الآرامية التي كانت تلك الألقاب ألقابها. فالكتابة بالالفباء واللغة الآرامية على ورق البردي كانت أبسر وأسرع مجازاً من الضغط على لوح من الطين باللغة الأكديّة وبالشكل الأكدي للكتابة المطورة عن الكتابة السومرية. وثمة نقش بارز من قصر سنحاريب في نينوى يصور كاتبين يقفان واحدهما جنب الآخر الواحد ينقش على لوح من طين بالفلن المحدثي، والآخر يكتب بالآرامية على لغة من ورق البردي مستخدماً القلم لذلك. فقد أصبح هذا الخطوة للرجة الطليعية.

كان ثمة قبائل وعروة من الجزيرة العربية والسهوب الآرامية قد أخذت تشتبك في الحصرات بين آشور وجاراتها وذلك قبل نهاية القرن الثامن ق.م. ففي السنة التي احتل فيها الآشوريون دمشق (٧٢٢ ق.م.) قاتلوا العرب أيضاً. وفي سنة ٧١٠ ق.م. قاد الآشوريون حملة هجومية في الجزيرة العربية، وتوغلوا في الجزيرة، حسب الرواية الآشورية، بحيث أن السبأين، وكانت مملكتهم في الزاوية الجنوبية الغربية، دعموا الجزيرة

لهم. وفي سنة ٧٠٣ ق.م. كان عرب يقاتلون مع حلف مرادوخ - بلذان الذي كان موجها صد آشور. وقد كان ثمة حملة آشورية أخرى في الجزيرة العربية سنة ٦٧٦ ق.م.. ويظهر اليدو الأوراسيون لأول مرة في القيود الأشورية في سنة ٧٠٧ ق.م. حيث يروى ان الكمرين انتصروا على ملك لوررتو لرغشيش الثاني.

ان التفجر السكاني من السهوب الأوراسية حمل بدوها غربا في موجتين اتخذت كل منها مجرى خاصاً بها. لقد تعقب السكثيون الكمرين وانتهى الامر بالجماعتين ان هاجرتا غربا، الى شمالي بحر قزوين (الخزر) والبحر الاسود وجنوبيهما. ففي الجنوب وصل الميون الى ساحل اسية الصغرى الغربي؛ وفي الشمال وصل الأوردياسي (الأترزوي) الى منطقة القوقاز في هنغاريا وإلى حوض نهر ماريجا في تراشيا. ويبدو ان الكمرين لم يلقوا من النجاح أكثر مما لقيه الأشوريون في الاستقرار في أورارتو، إلا انهم تركوا اسمهم على شرق اسية الصغرى - وعلى غرب اسية الصغرى أيضاً. هذا فيما اذا كان السباردي، وهم الذين اعطوا اسمهم (سباردا) للولاية الفارسية هناك في ما بعد، هم أحلاف الكمرين. اما السكثيون، وهم خصوم الكمرين، فقد أصبحوا حلفاء الأشوريين. ولعل هذه المصالحة توضح، جزئياً، استمرار الامبراطورية الأشورية الى القرن السابع ق.م. كما توضح سقوطها بين سنتي ٦١٢ و ٦٠٥ ق.م.. وفي سنة ٦١٢ ق.م. انضم السكثيون الى الميديين والبابليين في هجوم ناجح ضد نبوخذ نصر.

كان بدو الجزيرة العربية في القرنين الثامن والسابع ق.م. يستعملون الإبل، إذ كانوا قد أصبحوا على هذه الحال في القرن الحادي عشر ق.م.، في واحدة من آخر موجة من انسياح السكان بين ١٢٥٠ و ٩٥٠ ق.م.. إن اليدو الأوراسيون كانوا في الانسياح السكاني في القرن الثامن عشر ق.م. يستعملون المركبات، ولم يكونوا يركبون الحيوانات، ذلك بان الحيوان الذي دجنوه لاستعماله في التنقل لم يكن الجمل، بل كان الحصان، ولم يكن هذا الحصان، في ذلك الدور من إنزاله، قد أصبح حيواناً كبيراً ولقوا به حيث يحمل نفل رجل. وخلال الألف سنة التي تلي القرن الثامن عشر قبل الميلاد تم انسال الحصان الركوب. وقد كان في الجيش الأشوري في الانطلاقة العسكرية الأشورية الأخيرة (٧٤٥ - ٦٠٥ ق.م.) فرسان، كما كان فيه قادة للمركبات، كما كان الكمريون والسكثيون فرسانا يتمتعون الجياد. ولنا نعرف تاريخ تدجين الجمل دي الساميين (البكتري، من أسية الوسطى) فالآثار الأشورية تظهر فيها صور للجمل العربي فقط.

وأقدم إشارة إلى أن الجمل الآتي من اسية الوسطى قد دجس بتضمنها اسم السبي القادم من شمال شرق إيران، زارتهوسترا (زرادشت)، لذا صح أن اسمه يعني « مع الإبل الذهبية ».

إن الإشارة إلى الهجوم الذي قام به البدو الأوراسيون إلى جنوب غرب آسية في القرنين الثامن والسابع ق.م. هي إشارة متعاصرة مع الأحداث، وهي ترد في المصادر اليهودية واليونانية كما ترد في المصادر الآشورية. أما الإشارة إلى هجرة هؤلاء البدو الأوراسيين في صحبات استري، فهي متأخرة عن تلك الأحداث. فقد ذكر هيرودوتس بأنهم كانوا شمالي بحر قزوين (الخزر) والبحر الأسود. وهيرودوتس دون أخباره في القرن الخامس قبل الميلاد. ووجودهم في حوض نهر السند تتضمنه الأوصاف والأسماء التي تعود إلى بعض الشعوب التي قابلها الاسكندر هناك بين سنتي ٣٢٧ و ٣٢٥ ق.م. فهل هاجم البدو الأوراسيون الصين، أيضاً، في القرن الثامن قبل الميلاد؟

ألمنا من قبل إلى أن أسرة تشو أصابها كارثة في سنة ٧٧١ ق.م. في الصين. فقد هاجم الأسرة في تلك السنة برابرة، ولقيت على أيديهم أنكساراً ساحقاً، بحيث انها اضطرت إلى نقل عاصمتها من حوض نهر واي، راند النهر الأصفر، إلى لوبانغ في السهل الشرقي. وحوض نهرواي هو منطقة الدفاع الصينية، في الجهة الشمالية الغربية، عن الحضارة، ضد البرابرة. وطالما كان التشو يقومون بالدفاع عن هذه المنطقة، فإن خدماتهم للعالم الصيني بمجمله كانت كبيرة القيمة. فلما عجزوا عن القيام بدور المدافع، انحطت قوتهم وتدنى مقامهم. وقد جاء في أعقابهم، للقيام بدور المدافع في حوض واي، تشين. وللأسرة الثانية ثرت عليهم للقيام بهذا الدور، إن سيطروا على العالم الصيني بأكمله. وعلى كل لبس لدينا ما يدل تماماً على أن البرابرة الذين أجلاوا التشو من حوض واي سنة ٧٧١ ق.م. هم بدو وعاة أوراسيون. فلملهم كانوا برابرة محلين مستغربين. والأمر الذي يدل دلالة قاطعة على قيام اتصال مباشر بين الصين والبدو الأوراسيين يعود إلى وثيقة من القرن الرابع قبل الميلاد تقول إن « ين »، وهي أقصى دولة صينية في الجهة الشمالية الشرقية في ذلك الزمن، قلعت البدو إذ نظمت قوة فرسان على الطريقة البدوية. وليس لدينا أي دليل على أن البرابرة الذين انتصروا على التشو، في سنة ٧٧١ ق.م. كانوا حاساً من البدو الفرسان الذين هاجموا جنوب غرب آسية وجنوب شرق أوروبا قبل نهاية القرن الثامن.

ان القيود التي وصلتنا عن البدو الذين هاجموا جنوب غرب اسية في القرون الثامن والسابع قبل الميلاد، تصورههم بأنهم كانوا متوحشين مخربين لا اكثر ولا اقل وليس في هذا الأمر غرابة، اذا اعتبرنا ان هذه القيود دونتها الفئات المستقرة التي كانت فريسة الهجوم البدوي. وعلى كل مانه من المحتمل ان البدو، في هذه المناسبة، قد اعطوا بعض الشعوب المستقرة التي اعتدوا عليها، مجموعة مميزة من العقائد والممارسات (الشعائر).

كان في كلي العالمين، الاغريقي والهندي، في القرن السادس ق.م. فئة من البشر كانت تعتقد بان الموت ليس نهاية وجود الحي. كانوا يرون ان الروح تسخر حبة بأن تنقسم في كائن حي آخر، وهو قد يكون من النوع ذاته او لرجع او ادنى. وفيما اذا كان النقص التالي سيكون تربة او تدنية، فالأمر يتوقف على التصرف الخلفي للروح في التقمصات السابقة. وقد يكون عدد الولادات الجديدة لا نهاية له، وقد كان هذا ينظر اليه على انه اكبر معنى من الميثاق المتعاقبة المعترضة. والمؤمن بالتقمص كانت الغاية عنده، على بعبارة عن فكرة الخلود، هي ان يبلغ سلسلة الولادات الجديدة نهايتها، وكان يؤمن بأن مثل هذا كان يمكن تحقيقه عن طريق العيش بتقشف وفضيلة.

ان التشابه بين صيغتي الاعتقاد بالتقمص عند الاغريق والهنود وما يترتب على ذلك من النتائج، قريب الى حد انه يصعب القول بأنه كان عرضيا. ويبدو أنه كان نتيجة اتصال تاريخي. وقد تكون العقيدة قد انتقلت من الهند الى بلاد الاغريق او من بلاد الاغريق الى الهند، او لعلها وصلت الى كل من بلاد الاغريق والهند من مصدر خارج عن كلي المنطقتين. ولعل الوسيط المحتمل للنقل المباشر في كل من الاتجاهين كان الامبراطورية الفارسية التي ضمت اجزائها، بعضها الى البعض الآخر، في القرن السادس قبل الميلاد، والتي ضمت كلا من الطرف الغربي من الهند والطرف الشرقي من عالم الاغريق. وقد رافق قيام الامبراطورية الفارسية تحسن في وسائل الاتصال في هذه الرقعة الواسعة التي شملتها الامبراطورية. وعلى كل فان صانعي الامبراطورية الفارسية وسادتها من الابرار لم يشاركوا الهنود والاعريق عقيدتهم في التقمص، وهم (الابرايرون) الذين كان موطنهم في الألف الأخير قبل الميلاد يقع بين العالمين الهندي والاغريقي. ولذلك يتوجب علينا ان نغني بالبحث عن احتمال بديل. فالاعتقاد بالتناسخ قد يكون جاء الهنود والاعريق من البدو الأوراسيين الذين هاجموا مناطقهم على التوالي في القرن السابع قبل الميلاد.

ان الاعتقاد بإمكان الروح مغادرة الجسم والعودة اليه لا يزال قائما الى يوم الناس هذا في شمال آسيا. مروج الشامان [في سيبيريا] تدخل ثانية الجسم الذي تكون قد خرجت منه؛ انها لن تدخل جسما مختلفا قد يكون من نوع آخر. ومع ذلك فان عقيدة الشامان [الشامانية] هي الحالة الأساسية المؤقتة للاعتقاد بالتناسخ. وهكذا فانه من المحتمل، ولو انه لا سبيل للتدليل على ذلك، بان العقيدة المتحركة عند الفيشاهوريين والأورينيين الأغارقة، وعند معاصريهم الهنود قد تكون ذات أصل بدوي لوراسي.

٢٢- اعقاب العسكرية الاشورية ٦٠٥- ٥٢٢ ق.م.

لو أن الامبراطورية الاشورية استمرت قائمة، لعلها كانت دمجت جنوب غرب اسية ومصر في وحدة سياسية، وكان من الممكن ان تؤدي الى قيام وحدة اجتماعية ودينية ايضا. وعندها لعله كان يتاح لهذا البناء الإمبراطوري أن يؤمن سلاما لمنطقة كانت قلب الاويكرومين، ولو أن مثل هذا يمكن ان يكون باعث للنش. وعلى كل، فان وحشية العسكرية الاشورية حكمت على الإمبراطورية الاشورية بالموث المبكر. لقد نضبت بسببها موارد أشور البشرية، المحدودة اصلا، وأفادت حركات مقاومة عنيفة تألفت كلها عليها، فأصبحت اكبر مما تستطيع القوة الاشورية الأعنة في الانهيار من مقاومتها. والحراب الذي اسفر عن عرض الحكم الاشوري وحى تفويضه في ما بعد، زاد في حدته هجمات الكمرتين والسكيتيين. وهذه المصيبة المزدوجة خلقت بعض الضحايا خاترة القوي، وحتى اولئك الذين قاموا بنجاح انتهى الأمر بهم إلى أن أصابهم الزهن في قواهم على درجات متناهية. والنتيجة المباشرة لذلك كانت قيام توازن متعرب في القوي بين الدول التي خلفت الامبراطورية الاشورية. والحلفاء للتصرون اعتلّفوا في ما بينهم بعد انتصارهم المشترك الساحق على خصمهم العام. فقد اقتتلوا على توزيع الأسلاب، ونشني الضعفاء منهم أن يصبحوا هم، بدورهم، فريسة للأقوي.

كانت المناطق التي اصابها الزهن هي بلاد ما بين النهرين وسورية جساء (باستثناء صور وجنوب فلسطين) وأورارتو وشرق آسية الصغرى ووسطها. أما الدول التي استمرت قائمة فهي ميديا وبابل ومصر وليديا.

كانت ميديا، بين هذه الدول الأربع، اقولها وأكثرها ثقة بالنفس - ولكن حتى ميديا لم تكن من المنعة بالدرجة التي يدت فيها، كما ظهر ذلك في السهولة التي استطاعت بها واحدة من الولايات التابعة لها، وهي بريسيس (فارس) ان تضم الامبراطورية الميديّة

اليها نحو سنة ٥٥٠ ق.م. وفي الوقت ذاته فإن ميديا كانت، خلال الستين سنة التي بدأت بتدمير بينوى سنة ٦١٢ ق.م، أكثر اعتدلة من أي من ورتة آشور. كان الميديون، إذا قبلوا بالبابليين والسوريين والمصريين، متأخرين اقتصاديا وحضاريا، وكان تأخرهم هذا دوما واقفا لهم، إذ يسر لهم الانتعاش السريع، وعلى كل حال فإن الضرر الذي لحق بهم بسبب الآشوريين، كانوا قد عوضوا عنه بأكثر من فائدة بسبب الوحدة السامية التي فرضتها الأحوال على قبائلهم بسبب الخطر الآشوري.

كانت أولى الإنجازات التي تمت على يد ميديا، بعد سنة ٦١٢ ق.م. خدمة مشتركة قدمتها للحاليم المستقر. فقد قضت على البدو الذين هاجموا جنوب غرب آسية أو أخرجتهم من هناك أو أخضعتهم لنفوذها. وقد تم ذلك جزئيا بالقباسهم عن البدو عذتهم وتخطيطهم العسكريين. وقد حمل هذا الميديين على ضم لورلرنو وشرق آسية الصغرى ووسطها. وأورلرنو، خسرت الآن استقلالها على أيدي الميديين بعدما كان الآشوريون قد هاجموها، وتلاهم الكسريون دون أن يستتبع ذلك احتلال دائم. وهذا التوسع الميدي في اتجاه غربي جر ميديا إلى الاصطدام مع ليديا، التي كانت تتوسع من الجهة الغربية في اتجاه المناطق المهجورة من آسية الصغرى. وبعد جولة من الحرب الشرسة اتفقت ميديا وليديا، سنة ٥٨٥ ق.م، على اعتبار الجري الأدنى لنهر هاليس (قزل إرشق) الحد الفاصل بين دولتيهما. وقد تم هذا الاتفاق بناء على وساطة بابل وكهلوكيا، وهذه دولة وريثة للإمبراطورية الآشورية في جنوب شرق آسية الصغرى.

كان الجري الأدنى لنهر هاليس يمر البلاد التي كانت تكون مملكة فريجيا من قبل. وقد كانت هذه أقوى دولة في آسية الصغرى قبل أن يقضي عليها المهاجمون الكسريون، وأصاب ليديا بعض الشر أيضا. فنحو سنة ٦٦٣ ق.م. كانت قد تغلبت على الكسريين - وذلك بمساعدة الآشوريين، بحسب رواية آشور بانيبال. إلا أن الكسريين احتلوا عاصمة ليديا، مدينة سارديس في سنة ٦٥٢ ق.م. احتلالا مؤقتا. وفي سنة ٦٤٦ ق.م. احتلت سارديس ثانية، وكان ذلك على أيدي التير، وهم شعب جاء من ترافيا وهاجم آسية الصغرى. ولعل هذا كان سبب الضغط الذي وقع عليهم من الشرط الآخر من الكسريين والسكثيين الذين كانوا ينساحون غربا إلى شمالي بحر قزوين (الخزر) والبحر الأسود. إلا أن ليديا، على عكس ما أصاب فريجيا، استطاعت أن تلتقط أنفاسها، وبذلك اتاح لها أن تقوم بدور فعال في الصراع نحو تقسيم الرقعة التي كانت تابعة

للإمبراطورية الآشورية. وقيل أن تصطلم ليدبا يبديا في القرن السادس قبل الميلاد، كانت الأولى قد أرسلت، في تاريخ سابق لسنة ٦٥٢ ق.م، قوات من جيشها إلى مصر لمساعدة ساما تيوخس الأول في طرد الآشوريين من مصر.

كان الكلدانيون، الذين سيطروا على بابل، يتمتعون بكثير من القوة، في مقاومتهم لأشور. وقد وجد فهم كل من الشعين، المصري والسوري، قوة وعظما على نحو ما كان للآشوريين، ولذلك لما تمكن الكلدانيون من فرض أنفسهم بقوة السلاح، على الجزء السوري من أملاك الآشوريين السابقة. وقد كان الكلدانيون، إذ توجهوا غربا، اسودا مزيجرة، اما لما توجهوا شرقا وشمالا، في تجاه مهديا، فقد كانوا حملانا مرتجفة. كان موطن الآشوريين الأصلي قد تقاسمت مهديا وبابل وكان نهر دجلة الحد الفاصل بينهما. أما في المناطق الأبعد جنوبا فان بابل لم تستعد حدودها التاريخية، بما في ذلك الأرض البابلية الى الشرق من نهر دجلة، فحسب بل إنها استحوذت أيضاً على الجزء المنخفض من عيلام، بما في ذلك مدينة سوسة. وترتب على هذا التقسيم ان اضطرت بابل الى الاضطلاع بالقضاء على الجيش الآشوري في حران، في شمال ما بين النهرين، الأمر الذي أتمته بين سنتي ٦٠٩ و ٦٠٥ ق.م، وذلك على رغم الدعم العسكري الذي قدمته مصر للآشوريين في وقتهم الأخيرة. وتلا ذلك، على كل، أن وقعت حران في أيدي الميديين الذين احتفظوا بها حتى أتم الفرسيون القضاء عليهم نحو سنة ٥٥٠ ق.م. ويبدو أن احتلال الميديين لحران كان عرقاً لاتفاق سابق بين الميديين والبابليين حول توزيع الأسلاب الآشورية. وعلى كل فان مثل هذا العمل كانه بالنسبة للبابليين، مظلمة كما كان خطراً. وقد اضطر البابليون، بسبب عجزهم عن طرد الميديين من حران، إلى الاعتراف بأنهم لم يكونوا حقا لحلفائهم السابقين. وكانت الحامية الميديّة في حران خطراً يهدد، وعلى مسافة قريبة، خطوط التواصلات البابلية مع املاكهم في سورية، عبر مجرى العرات.

كانت الولايات الآشورية السابقة في سورية موضع نزاع بين البابليين والمصريين في السنوات ٦٠٩ - ٦٠٥ ق.م.. وقد تقرّر قدر سورية لما تنكسر المصريون في معركة كركميش سنة ٦٠٥ ق.م. فمغامرة نخو الثاني (حكم ٦١٠ - ٥٩٥ ق.م) في الشمال انتهت بالفشل. إلا أن هذا كان فصلا بالغ الشؤم في الفترة التي انتزعت مصر استقلالها ثانية. فقد كانت هذه الفترة، بالنسبة لمصر على وجه العموم، فترة اجارات.

والقرن السابع قبل الميلاد هو الزمن الذي أخذ فيه المصريون أنفسهم بصنع ادواتهم من الحديد بدل النحاس. وكانت على وجه التأكيد، للقرن الذي دخلت فيه مصر في علاقات واسعة للفرقيين مع اليونان. ولجنود الذين بعث بهم غيخس، ملك ليديا، لمساعدة بساميا تبخوس الأول في طرد الآشوريين كانوا مرتزقة من الإغريق والكرين. وقد انزل بساميا تبخوس هؤلاء الجنود في قضائين، كل في واحد من الزاويتين الشماليتين للدلتا، لم جاء التجار في أعقاب الموت وقامت مستوطنة يونانية تجارية في نوكراتيس، على فرع مربوط من النيل، على مقربة من سايس، عاصمة بساميا تبخوس.

سمح لليونان، هادى الأمر، أن يمارسوا التجارة حيث شأؤوا في مصر، ولكن حوالي سنتي ٥٦٦ - ٥٦٥ ق.م. أجبروا على التمرکز في نوكراتيس، وذلك نزولا عند رغبة قومية شعبية عارمة. لكن مصر استمرت في استخدام جنود مرتزقة من اليونان، فيما استمر التجار اليونان على مبادلة الحمر وزيت الزيتون اليونانيون بالحبوب المصرية.

ورغبة منه في التمييز عن خدلاؤه العسكري في سورية، أخذ نخبو الثاني بحفر ترعة تصل أقصى فرع من النيل لجهة الشرق، برأس خليج السويس، عبر وادي توميلاتا وقد أرسل، من الساحل المصري على البحر الأحمر، بعثة بحرية فينيقية، وهي التي تمكنت من الدوران حول أفريقيا.

بين سنة ٦٥١ ق.م.، إذ طردت الحامية الآشورية من مصر، وسنة ٥٢٥ ق.م.، لما احتل الأمبراطور الفارسي كسبي مصر، لم تقع مصر تحت احتلال عسكري أجنبي. وقد حمت الحامية اليونانية التي أقامها بساميا تبخوس الأول في الزاوية الشمالية الشرقية من الدلتا مصر من السكيثين. وانكسار نخبو الثاني في كركميش وعسارته سورية لم يتبعها احتلال البابليين لمصر.

ومع ذلك فإن المصريين لم يكونوا واثقين من أنفسهم تماما في الفترة بين سنتي ٦٥١ و ٥٢٥ ق.م. لقد تضمنت نقوشهم بأنفسهم بسبب الانكسار السابق، وحر هذا في معوسهم إذا ما قوبلت حالتهم بالجد الذي عرفوه في فترات مبكرة من تاريخهم، ففي عصر دولة سايس كان المصريون يهيئون السمع إلى ذكريات فترة أقدم وأكثر العترات مجدا، وهي فترة المملكة القديمة. وكان ثمة إحياء لما درس من أسلوب الفن المنظور والبروتوكول الذي عُرف في زمن المملكة القديمة. وظهر بالذكر أنه في هابل المعاصرة كان آخر الملوك الذين حكموا في فترة استعادة الاستقلال، وهو ناهونيدس (ناهونائيد

حكم من ٥٥٦ إلى ٥٣٩ ق.م.) كان أيضاً معنياً بالعلوم من الأمور. والاهتمام بالقديم مؤشر لنوع من التهيب. وقد كان البابليون، في الحصر اللاحق لأشور، مثل المصريين يشعرون بالكبرياء بسبب قدم مدينتهم، كما كانوا يشعرون بالخروج بحر ذلك. وفي سنة ٦٠٠ ق.م. كان لا يزال أمام المدينة المرمونة المصرية مسيرة ألف سنة أخرى، وكان أمام المدينة الأكلمة - السومرية ستة قرون من المسيرة. إلا أن كلا المدينتين كانتا تحسان بخلجات الموت؛ وفي واقع الأمر فإن المستقبل كان يمتد أمام مدينتي كانت يحدث عهداً ينحو أثني سنة من المدينتين كليهما.

يبدو أن نبوخذ نصر (حكم ٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م.) ابن نابوبولاصر مؤسس الإمبراطورية البابلية الجديدة [الكلدانية] لم يهاجم مصر. ومن الجهة الأخرى فإنه لم يكتف بالاستيلاء على كل الولايات السورية التي كانت تابعة لأشور، بل أنه اخضع دولتين سوريتين كانتا قد انفلتتا من النهر الآشوري. فقد أجبر نبوخذ نصر صور على التسليم بعد حصار دام ثلاث عشرة سنة (٥٨٦ - ٥٧٣ ق.م.). وقد حاصر القدس واستولى عليها ثلاث مرات في ٥٩٧ و ٥٨٧ و ٥٨٢ ق.م. وكان كل احتلال يقعه إجملاء السكان على الطريقة الآشورية. وحسب رواية النبي اليهودي لرميا المعاصر للاحداث فقد أجلي نبوخذ نصر ٤,٦٠٠ شخصا. وهذا العدد يتفق مع الرقم الرسمي الآشوري (٢٧,٢٩٠) لعدد الأشخاص الذين أجليوا في سنة ٧٢١ ق.م. من المملكة الشمالية، وهي الأكبر مساحة والأكثر ثروة. وثمة أرقام أخرى أكبر من الرقم الذي أورده ارميا، عن عدد الذين أجليوا سنة ٥٩٧ وأعيدو سنة ٥٣٩ ق م وهذه الأرقام وردت في مصادر متأخرة، لكنها غير مقننة.

كان الهدف من إجملاء مؤسسة الجماعة هو تخصيص هوية الجماعة، وقد كانت هذه السياسة ناجحة في أكثر الحالات. فعلى سبيل المثال إن إجملاء ٢٧,٢٩٠ شخصا من المملكة الشمالية في فلسطين سنة ٧٢١ ق.م. كان له هذا الأثر. إلا أن اليهود كانوا متميزين في اكتشاف السبل والوسائل للاحتفاظ بهويتهم وللجوء إليها في ظل المعاملة التي لقروها. فالتسنوات بين ٥٩٧ و ٥٨٢ ق.م. شهدت نهاية للملكة الجنوبية وبدء تاريخ اليهود واليهودية. وقد كانت للمملكة الجنوبية، مثل المملكة الشمالية [في فلسطين]، تمتع بعرة استقلال لبضعة قرون في الألف الأخير قبل الميلاد شأنها في ذلك شأن عدد من الدول السورية. واليهود، على عكس فلولانهم في المملكة الجنوبية، كانوا، في حقيقة

الأمر، الشعب للفرس الذي ادعوه. وكى نفهم كيف تم لهم هذا الإنجاز يتحتم علينا أن نعود المتهتمى في التعرف إلى تاريخ المملكة الجنوبية منذ نحو سنة ٩٢٢ ق.م. ، وهو التاريخ الذي انقسمت فيه امبراطورية الحروب داوود، بعدما كانت تشمل جزءا من جنوب سورية. وفي فصول لاحقة سنبحث رد الفعل اليهودي لتحدي إجلال السكان.

فإذا نظرنا إلى تاريخ المملكة الجنوبية، بين سنتي ٩٢٢ و ٥٨٧ ق.م.، نلاحظنا مظاهر المميزة في هذا التاريخ. فلو أننا تمكنت أسرة داوود من التمسك بالعرش الجنوبي باستمرار مدة تجاوزت اربعة قرون، لاحتلوا من نحو سنة ١٠٠٠ ق.م. لما استولى داوود على العرش. وهذا الحكم المستمر لأسرة واحدة تمكن مقارنته بالحكم غير المستمر للدولتين المجاورتين لها أي المملكة الشمالية ومملكة دمشق. ففي كل من هاتين الدولتين ما أكثر ما انتزع التاج بالسلاب عن يديهم. إن سيرة داوود كانت شبيهة بسيرة ريزون الآرامي وبربعام ملك المملكة الشمالية [في فلسطين]. إن داوود أيضا انتزع التاج عن رأس حامله السابق ليضعه على رأسه هو؛ ومع ذلك فإن خلفاءه في المملكة الجنوبية احتفظوا بولاء من تبقى من رعيتهم بعد انهيار امبراطورية داوود التي لم تعمر طويلا.

إن من تبقى من السكان شمل قبيلة يهودا ومدينة القدس الكنعانية الأصل والطرف الجنوبي للمنطقة التي كانت مساكن قبيلة بنيامين. ويبدو عجيبا، في مثل هذه الأحوال، أن تمنح الأسرة الداوودية وعاصمتها نوعا من التقديس في تقدير اليهود.

ومن المستغرب أيضا أن تنجو المملكة الجنوبية أيضا من احتلال آشور لها، إذا أخذنا في الاعتبار أن الملك حزقيا (حكم ٧١٥ - ٦٨٧ / ٦ ق.م) كان ضالعا في الخلف الكلداني مبروداخ - بلادان للوجه ضد آشور. وقد عاشت المملكة الجنوبية ١٣٤ سنة بعد المملكة الشمالية و ١٤٥ سنة بعد مملكة دمشق. وفي أيام الملك حوربا (حكم نحو ٦٣٧ - ٦٠٩ ق.م) أسهمت المملكة الجنوبية في التكاليف على اقتسام الأسلاب التي شأت عن احتلال الامبراطورية الآشورية. وقد تمكن حوزيا من إحياء مملكة داوود احياء مؤقتا، وهي الدولة التي كانت قد تقسمت، قبل ذلك بثلاثة قرون، بسبب الانقلاب الذي قام به ريزون في دمشق وانقلاب بربعام في المملكة الشمالية. وقد فقد حوربا حياته، وانتهى امر مملكته، سنة ٦٠٩ ق.م. لما حاول التصديع بشيء من التسرع، لحملة الفرعون نحو الثاني، حليف الآشوريين، في طريقها من النيل إلى الفرات. وأصبحت

المملكة الجنوبية بعد ذلك تابعة لمصر لولا، ثم بعد ٦٠٥ ق.م. ليابل. ومع ذلك فإن المملكة الداوودية تجاوزت حتى هذا الاندحار. ذلك بأنه لم يقض عليها الا في سنة ٨٧٥ ق.م.

وهذا الاستمرار المستغرب للمملكة الجنوبية اتاح الفرصة لظهور سلسلة طويلة من الانبياء اليهود. فأنعماء، مستشار الملك حوزيا، ولرميا، خصم الملك يهوياكيم، كانا معنيين بالدرجة الأولى بالسياسة الخارجية. وقد نصح كلا هذين النبيين الملك بأن يتجنب تحدي القوة الامبراطورية التي كانت قائمة وقتها؛ وقد اثبتت الأحداث بأن نظرة إرميا، الذي عاش بعد القضاء على المملكة، كانت صائبة.

لم يكن الأنبياء ظاهرة خاصة باليهود؛ فعلى نحو ما ذكر قبلًا كانوا ظاهرة من حياة المجتمع السوري إجمالاً. ولم تكن بواحي الحياة الدينية الأخرى في المملكة الجنوبية خاصة بهذه الدولة السورية. فقد كان للمملكة الجنوبية، مثل المملكة الشمالية، ومثل بقية الفئات السورية، إله قومي خاص بها. لكن عبادة الإله القومي كانت تسير جنباً إلى جنب مع طقوس دينية أخرى. إلا أن هذه للدلالة، بالنسبة إلى مجتمع المملكة الجنوبية، قد احتفظ بها حتى في الشكل المتفجع من الأسفار اليهودية. فوصف الهيكل في القدس على نحو ما أعده سليمان وكما وجدته حزقيا وحوزيا، قد ينطبق في الغالب على بيت إيل في المملكة الشمالية وعلى هياكل ملوكهم في عموث وشموش مي موآب وريمون في دمشق. فلما قدم الملكان أحاز ومنسي، من ملوك المملكة الجنوبية، لبيتهما قربلانا حياً تقرباً من يهو، ليستمع إلى طلباتهما، كانا يتومان بطقس ديني سوري عام. ولما اكتم حزقيا وحوزيا على امتيازات الإله القومي، كانا يمتعلان تملأ ما فعله إيليا واليشع وجسو من قبل. ولما دمر حوزيا مدينته يربقام في بيت إيل، وذبح جميع كهنة يهو في بيت إيل وغيرها من أماكن العبادة في بلاد المملكة الشمالية، كان هذا انتقاماً سياسياً لاحقاً لخروج بريعام على رحبعام، جد حوزيا من بيت داوود.

وقد كانت البدعة الأصلية التي قام بها حوزيا هي طمس كل أماكن للعبادة المحلية لا في البلاد التي استعلاها فحسب، ولكن حتى داخل الحدود السابقة للمملكة الجنوبية. فقد أصدر قراراً بأن يهو هو الإله الوحيد الذي يعبد في مملكته، وأن عبادته لا يمكن أن تتم إلا في القدس، المدينة الكنعانية سابقاً. ويعمله هذا فقد جعل حوزيا مملكته دولة - مدينة؛ بما كان معاصروه من الاغريق يمكن أن يسموه سينولزم. بمعنى أنه لم يكن

تجسماً، بالمعنى الحرفي، لكل السكان في مكان واحد، بل كان يُشترط على أن مكاناً واحداً فقط كان اللّوْضَح للشروع لكل أعمال الدولة، والمدنية والدينية على السواء. وقد عَضِدَ حوربا ثبوته للدينونة بأن أصدر، في السنة الثامنة عشرة من حكمه، بَشْراً قانونياً كان يحمل في طياته بعض الملامحة لسفر التثنية على ما هو معروف اليوم. ونسجعة لاستمرار المملكة المنورية فترة طويلة وبسبب أعمال الملك حوزبا في القرن السابع قبل الميلاد، فإن الذين كانوا قد أُجْلُوا عن المملكة المنورية في سنوات ٥٩٧ و ٥٨٧ و ٥٨٢ ق.م. كانوا مهينين سيكولوجياً، لا نفوا أكثر من سبقهم من المنفيين، للمحافظة على هويتهم الجماعية في أحوال قاسية.

لبل أن ينقضي للقرن السادس قبل الميلاد كانت حظوظ خلفاء الإمبراطورية الأشورية قد تبدلت بسبب القيام السريع لأمبراطورية جديدة، على أيدي بناء إمبراطورية جديدة، بحيث بدت الإمبراطورية الأشورية إلى جانبها قزعة من حيث أبعادها، كما أنها أظهرت عيب الأشوريين بسبب اعتدالها النسبي. وقد أشرنا إلى أن الذين أُلْجُوا من تدمير آشور بالنيبال لمملكة عيلام هم الإيرانيين الجليلين الذين كانوا يقطنون ما وراء عيلام. وقد انتفعوا بذلك مباشرة وهم الذين كانوا في المنطقة للمروعة اليوم باسم فارس ولورستان، وقورش الثاني، مؤسس الأسرة الأخمينية، وهو الذي أنشأ الإمبراطورية الفارسية الأولى، لقب نفسه ملك أنشان، التي يدر أنها كانت مدينة أو قضاء يقع في مكان ما من وادي نهر كارها (خواسيس) فوق النقطة التي ينحدر فيها النهر من مرتفعات لورستان إلى أراضي شوزستان المنخفضة.

نحو سنة ٥٥٠ ق.م. نصب قورش الثاني نفسه مكان أشتياخس، ملك ميديا، واستولى على إمبراطورية بأكملها، وكان هذا بلا شك بالتعاون مع جماعة من « المؤسدة » الجديدة. ونحو سنة ٥٤٧ ق.م. تغلب قورش على إمبراطورية ليديا وضمها إلى أملاكه؛ وفي سنة ٥٣٩ انتصر على الإمبراطورية البابلية الجديدة [الكلدانية] وضمها إلى سلطته، بما في ذلك البلاد الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات. ولعله قام بعد هذا بالاستيلاء على البلاد الواقعة إلى الجهة الشمالية الشرقية من ميديا وضمها إلى أملاكه (والبلاد المذكورة أخيراً هي للمروعة اليوم باسم خراسان وأواسط آسية واعدستان) وهي المنطقة التي كان يقطعها قوم مستقرون من الناطقين باللغة الإيرانية. وقد قتل قورش الثاني في محاولته للتغلب على الساغتي، وهم جماعة من البدو الرعاة كانوا يعيشون

إلى الشرق من بحر قزوين (الخزر) ويتكلمون اللغة الإيرانية. إلا أن هذا الغش لم يرقب محاولة الفرس في بناء الإمبراطورية. ففي سنة ٥٢٥ ق.م. نجح قمبيز، ابن قورش الثاني وخليفته، باحتلال مصر.

نومى قمبيز في ظروف غامضة، وخلفه على العرش إمبراطور ادعى أنه أخو قمبيز واسمه سميرديس (بارديا). وسواء أكان سميرديس حقيقياً أو مزوراً، فقد قتل على يد دارا الأول، يمثل صرع آخر من التدوحة الأحمنية. وتصنف هذا الإمبراطور الأخير، الذي كان يدعي أنه ابن قورش الثاني، كانت لهقلنا بتهام ثورة عارمة في الولايات الواقعة إلى الشرق من نهر الفرات (لقد ظنّت مصر وليبيا هاتين). وكان أشدّ العصاة مقاومة البابليون والميديون والأرس (وهم الذين كانوا قد استقروا حديثاً في الجزء الغربي من مملكة أورارتو) وكذلك، وهنا وجه القرابة، القبائل الفارسية الفاطنة في أقصى المناطق الشرقية.

وفي نقش بهستون الواقع على الطريق الممتد من بابل في اتجاه شمالي شرقي، يدعي دارا أنه أخضع جميع أولئك الثوار في سنة واحدة (٥٢٢ ق.م.). ولعل إخضاع العصاة احتاج إلى أكثر من اثني عشر شهراً لكن الخبر صحيح. وانتصار دارا يعود إلى الطاقة الهائلة التي بذلها هو وجنوده، ولكنه يعود أيضاً إلى رغبة عامة في السلام والأمن وهي التي كانت تولد نفوس الشعوب التي كانت قد عانت الكثير من تمّت الآشوريين والبدو.

كان دارا الأول المؤسس الثاني للإمبراطورية الفارسية، وقد وسع حدودها أيضاً، فقد أخضع الساساني في الجهة الشمالية الشرقية، وهم الذين تغلبوا على قورش الثاني وقتلوه. وفي الشرق تغلب على حوض الهند وضمه إلى إمبراطوريته. وتمكن من احتلال موطى قدم في الاتجاه الشمالي الغربي على الجهة الأوروبية من مضيق المردنييل. وقد كان هذا الموطى يحد من الضفة الجنوبية لبحر الفاتوب الأدنى جنوباً في غرب إلى جبل أولمبس. حادت هذه الممتلكات الأوروبية نتيجة ثانوية لحملة تصف بشيء من العرونة ضد البدو السكيثيين المقيمين في السهوب الواقعة شمالي البحر الأسود (وهنا كاد دارا الأول أن يلقى حتفه على نحو ما أصاب قورش الثاني). وفي سنة ٤٩٠ ق.م. أرسل دارا حملة بحرية إلى بلاد اليونان الأوروبية، ولكنها باءت بالفشل. وعلى كل فاد دارا الأول كاد، على وجه العموم، بقاء إمبراطورية ناجحاً، بقدر ما كان قورش الثاني. ولما توفي

دارا الأول سنة ١٨٦٦ ق.م. كانت الامبراطورية الفارسية الأولى تمتد من الشرق الى الغرب، من نهر ييز، واعد نهر الهند، الى الموطىء الشرقي لسلطة جهال يدوس؛ أما من الشمال الى الجنوب فكانت تمتد من الموطىء الجنوبي لجلال القفقاس الى شمالي الشلال الأول على نهر النيل. وقد كانت هذه أوسع امبراطورية قامت، كما كانت أقل الامبراطوريات ظالما.

٢٤- المدينة الهلنسية نحو ٧٥٠-٥٠٧ ق.م.

كانت المصائب التي أصابت حوض البحر الأبيض، أثناء انصباح الشعوب نحو ١٢٥٠-٩٥٠ ق.م.، أكبر من تلك التي أصيب بها أي من المناطق الأخرى التي تأثرت بهذا الانسحاب. فقد سقطت المدينتان المبنيتان والميكانيكية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد؛ وتناقص السكان في بلادهما السابقة؛ وزالت الألفبائية منها. وكان ظهور المدينة الجديدة، الهلنسية، منذ القرن الحادي عشر وما تلاه تدريجيا إلى حد أن الشاعر هزرو، الذي عاش نحو ٧٠٠ ق.م.، لم يدرك معني هذا الازدهار، مع أن ذلك كان إبان ازدهار هذه المدينة الهلنسية ومع العلم أن شعره بالذات كان أحد المنجزات الكبرى المبكرة لهذه المدينة الهلنسية.

وعلى رغم هذا التعمامي المقصود من هزرو، فقد كان الأغارقة في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد سمعي الحظ، كما كانوا قد جرت بهم الحظ في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ففي ذينك القرنين كان العالم الهلنسي، باستثناء المستوطنات الأغريقية على الساحل الغربي القاري لأسية الصغرى، بعيدا عن متناول المدى الموسمي للمجوش الآشورية والجماعات البدوية الأوراسية الغازية. هذه المصائب ألقت بسورية، وقضت على باكورة المدينة فيها، في الوقت الذي كان فيه انتعاش العالم الإغريقي قد تم. وفي القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد جاء المدينة الهلنسية الواسع من التقدم الحضاري الذي كانت المدينة السورية قد احتلت تحفته منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد وهو الزمن الذي كانت كل المظاهر تدل على أن العالم الإغريقي كان لا يزال يعط في سباته.

وقد ترتب على حسن حظ العالم الهلنسي أن نجا من الهجمات المدمرة الخارجية وأن حظي بتجمع سكاني وهو الذي استمر إلى القرن الثاني قبل الميلاد. وفي نحو سنة ٧٥٠ ق.م. وقع الهلينيون تحت الذين الأول لسورية. فقد وصلتهم، نحو هذا الوقت، الألفباء

الميتية. لقد كانت هذه الكتابة أصلح لتدوين اللغة اليونانية، أو أية لغة أخرى، من الخط « ب » المقطعي، الذي كان قد وضع، في القرن الخامس عشر على الأرجح، تقليدا للخط « أ » الميوني. ولما طُوِّر الأغارقة الألفباء لحاجة لغتهم الخاصة، باستعمالهم بعض الحروف الميتية الصامتة لتكوين حروف علة، فإنهم وجدوا تحت تصرفهم كتابة كانت من البساطة بحيث يمكن للرجل العادي أن يكتبها ويقرأها، فيما إذا فُورنت بالخط « ب » الذي كان قد أصبح سها مسيا، شأنه شأن الخط « أ » ومثل الكتابات السومرية - الأكديّة والمصرية والعسنية، التي كانت أدوات باطنية كان يقدّر على الانتفاع بها حلقة صغيرة من أهل الاختصاص فقط.

لقد كان تقبل الأغارقة للألفباء الفينيقية وتطورها ذا نتائج مذهلة بالنسبة للأدب والفكر الهلنيين. ففي فترة القرون الأربعة ونصف القرن، التي سادت فيها الأمية، كان كل انشاد لأية ملحمة شعرية عبارة عن خلق جديد، يقوم به الشدّد بداهة يرالفه إبداع غني لأصاليب عروضية كان الشدّد يحفظها عن ظاهر قلب ويستعيدا عند الحاجة. لعل كانت الألفباء والأوديسة آخر نسخة للانشاد الهليني للعصر السابق للعمل الفني الأدبي، أم كانا الثمرات الأولى لاقتباس الكتابة الجديدة؟ هذا إضافة إلى كونهما أطول وأعظم نجاح أدبي! يبدو أنه من المؤكد أن مثل هذه النصوص الطويلة، وهي لا تمت للطقوس الدينية بصلة، ما كان لها أن تتخذ هذا الشكل النهائي لولا أنها دونت بعيد الانشاد الأول لها. فالملاحمة، على خلاف النصّ الديني، نوع من الأدب يصعب نقله بالرواية والحفظ كلمة فكلّمة؛ ذلك بأن فاعلية للملاحمة لا تعتمد على إعادة الدققة لجماع الكلمات بشكلها الخاص. على النقيض من ذلك فإن استجابة السامعين للملاحمة الشعرية إنما تعتمد على مخزون عقلي صيني لأصاليب عروضية قصيرة، بحيث ينتج عن ذلك عمل فني جديد في كلّ مرة يعرض فيها ذلك الأثر الأدبي.

وتدوين الملاحمة بمصنّ كلا الأمرين: حفظ القصيدة وموت النوع. فلم تلبث الألفباء والأوديسة أن درّنا، حتى أخذ المؤلفون الأغارقة في اختراع سلسلة من الأنواع الجديدة: الشعر الرثائي والغنائي، والثر القصصي، والحوار؛ وقد كانت هذه الأنواع تستعمل للتعبير والفتاش كما استعملت للتسلية. فما كاد القرن السادس أن ينتهي حتى كان الكتاب الأغارقة يذوّبون نظرات علمية. وقد بدأوا يكتبون الرواية التمثيلية - وقد استعمل الحوار السبيلي، في نهاية المطاف، واسطة للجدل الفلسفي.

وقد نبع نقيل الأغارقة للالقباء الفينيقية وتطويرها، وهو الأمر الذي كانت له هذه الآثار الأدبية، اقتباسهم دوافع أجنبية للفن المتطور. ففي نهاية القرن الثامن كان الأسلوب الهندسي المتبع في ورشة الأواني الفخارية قد أصبح في المجال أمام أسلوب جديد، جاء من بلاد المشرق، كان أساسه الاستعاضة عن الأشكال المجردة برسم أشكال المخلوقات الحية - الطيور، الزواحف، أو كونهما حقيقية أو خيالية، ثم الكائنات البشرية كذلك. وقد كان مصدر الوحي لهذا الأسلوب الزخرفي الجديد للأواني الفخارية الفن التجاري، المنسقي للعاصر له. والمحاولات الأخيرة الأولى في تصوير الجسم البشري في أبعاده الثلاثة كانت مستوحاة من نماذج مصرية.

وما كان نقيل الأغارقة للأكثر الفنية من المشرق في القرن السابع قبل الميلاد، وتقبلهم للالقباء الفينيقية قبل ذلك من القرن الثامن قبل الميلاد لئلا لو أنهم لم يستمدوا الصالح من المشرق، ذلك الاتصال الذي تعمق في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وقد كان هذا الاتصال، في الغالب الأعم، بحريا، وكان ولا بدّ اتصالا تجاريا؛ فالأغارقة ما كانوا يستوردوا البضائع المشرقية بالبحر. ففي واقع الأمر كان ثمة مركز تجاري إغريقي يروي قد أقام، ربما في القرن التاسع قبل الميلاد، في المينا، عند مصب نهر العاصي، في الطرف الشمالي من الساحل السوري. فمنذ القرن الثامن قبل الميلاد كانت الحاجة الاقتصادية الماسة، بالنسبة إلى الأغارقة، هي الحصول على المواد الغذائية للعدد المتزايد من الأنواء الجائعة في ذلك الحين. وقد كان ثمة سبيل واحد لزيادة المواد الغذائية لمنطقة لم تكن بطبيعتها غنية بالموارد الطبيعية هو استيراد الحبوب من مناطق خارج العالم الهليني مقابل المنتجات الهلينية؛ أما أهول السبل فقد كان نقلها تمقيدا. وذلك بتوسيع رقعة العالم الهليني عن طريق فتح واستعمار البلاد التي تقطنها شعوب كانت ضعيفة بحيث لا سبيل لها لمقاومة الاعتداء الهليني.

في العقود الأخيرة من القرن الثامن قبل الميلاد أخذ الأغارقة بالتوسع عبر البحار غربا، في ما وراء مضيق تورنتو، على السواحل الجنوبية والغربية لإيطالية، والسواحل الشرقية الشمالية لجزيرة صقلية. وفي القرن السابع قبل الميلاد أخذ الأغارقة أيضا بالتوسع في سواحل البحار الضيقة التي توصل حوض البحر الأبيض بالبحر الأسود. ولعل التجار الأغارقة سبقوا للمستوطنين الأغارقة ولرشدوهم إلى المواقع التي استولوا عليها؛ إلا أن الجاليات الإغريقية الهلينية المبكرة كانت نسخا طبق الأصل للجماعات الإغريقية المعاصرة

التي أنشأتها. لقد كانت تلك، مثل هذه دولا - مدينة تعتمد أصلا على الزراعة في الحصول على حاجتها من الحاجات الميائية: تنتج المواد اللازمة لمعيش المنتج، لا للتصدير إلى الخارج. ولم يكن للأغارقة منافسون في المنافذ البحرية إلى البحر الأسود. وقد ذكر من قبل أن إقامة دول - مدينة إفريقية على الساحل الغربي لاسية الصغرى وفي الجزر القريبة، قد جعل من البحر الأيوني بحيرة إفريقية. وفي الجهة الثانية، فقد لقي الأغارقة، في الحوض الغربي للبحر المتوسط، منافسة قوية على أيدي الفينيقيين والأترسكيين (ويبدو أن هؤلاء كانوا شعبا، مثل الفينيقيين والأغارقة، أصله من شرق البحر المتوسط، ولو أن هذا لم يثبت قطعاً بعد).

وعندما ننظر إلى المنافسة في سبيل السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط، يتضح لنا أن الفينيقيين كانوا ذوي الأغارقة عددا، لا ديموغرافيا فحسب، بل أيضا بسبب الاعتناء الأشوري عليهم في بلادهم الآشورية الأم. إن الجولة العسكرية الأشورية الأخيرة، والتي كانت أكثر عنفا من سابقتها، بدأت سنة ٧٤٥ ق.م، وجاء هذا بسنوات قليلة بعد التاريخ الذي بدأ فيه الأغارقة إقامة مملكتهم في الغرب. وعلى كل حال، فقد كان للفينيقيين والأترسكيين نوع من التفوق الهام على الأغارقة، وقد اتخذوا خطوات مقصودة ومؤثرة لمقاومة التفوق الممدي للأغارقة، وابتمادهم عن المصيبة الأشورية.

فقد اتحد الفينيقيون مراكز ذات قيمة استراتيجية، وبذلك سبقوا الهلنيين، بحيث تمكنوا من وقف التوسع الهليني غربا في حدود معينة. فاستولى الفينيقيون على شواطئ مضيق جبل طارق، الذي كان يسيطر على الطريق البحري الموصل بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي. وإضافة إلى ذلك فقد كثرتا سيطرتهم أيضا على كلا الشاطئين الواقعين بين النقطة الشمالية الشرقية من إفريقية الشمالية الغربية والطرف الغربي من جزيرة صقلية، إضافة إلى أنهم سيطروا على ساحل سردينية الجنوبي. وكان الأترسكيون يملكون الاحتياط الممدي في جزيرة إلبا وفي البر الإيطالي المصافي لها. وقد كانت هذه من المعام الاقتصادية الرئيسة في حوض البحر المتوسط الغربي، لكن أقرب نقطة تمكن الأغارقة من الاستيلاء عليها كانت كومي، وكانت على بعد كبير إلى الجنوب على ساحل إيطاليا الغربي. ولعل هذه كانت أقدم مستعمرة إفريقية قارية في الغرب، إلا أن إقامتها جاءت متأخرة بحيث أنها عجزت عن سبق الأترسكيين في توطيئ جماعة معددة

مي بوبولوبيا. وقبل أن يتقضي القرن السادس كان الأتروسكيون قد احتلوا المناطق الريفية (كاسابيا) الواقعة ما وراء كومي.

قابل المستعمرون الفينيقيون والأتروسكيون الأعداد الأكبر من الأغارقة عن طريق الوحدة السياسية ففي أواخر القرن السادس قبل الميلاد كانت كل المستعمرات الفينيقية قد وضعت نفسها تحت القيادة الموحدة لأقواها، وهي قرطاجة؛ وقبل ذلك كان المستعمرون الفينيقيون قد التزموا بوحدة الهدف مع الدول - المدينة الأترسكية. ومن ثم فإن الأغارقة الأسبوريين لما حاولوا الحصول على ملجأ في الغرب، هربا من الحكم الهلندي أولا ثم من الحكم الفارسي في ما بعد، باؤوا بالفخية. وقبل سنة ٥٠٠ ق.م. توقف الاستعمار اليوناني في المحوض الغربي للبحر المتوسط. وعند هذا التاريخ كانت الأجزاء الوحيدة التي استطاع الأغارقة احتلالها، هي الريفيرا الفرنسية وكورسا برافا، التي تقع على شواطئ البحر المتوسط الأوروبية في المنطقة الواقعة إلى الشمال الغربي من كومي. وكانت المستوطنات الإغريقية هنا تحت القيادة الموحدة لواحدة منها هي سيليا (مرسيليا) التي يمر لها موقعها، عند مصب نهر الرون، الاتصال مع قلب القارة الأوروبية، وكذلك الاتصال بمناجم القصدير في كورنوال [في جنوب انكلترا] وذلك عبر مسيرة برية قصيرة، بحيث كان من الممكن تجنب مضيق جبل طارق الذي كان يصعب على السفن الإغريقية اجتازه بسبب وجود المستعمرين الفينيقين هناك تحت قيادة قرطاجة. وعلى كل فإن تجارة المسهلين مع الداخل إلى الشمال تعرضت للتوقف نحو سنة ٥٠٠ ق.م. وذلك بسبب اضطراب قام بين الشعوب القاطنة هناك.

إن التوسع في المجال المحيوي الهليني، في القرن السابع قبل الميلاد، عن طريق إقامة دول - مدينة إغريقية التي كانت تعتمد في حياتها على الزراعة، بدءاً من حيث الأهمية الاقتصادية، توسع على نطاق واسع في المجال التجاري للمعالم الهليني. إن عالية الدول - المدن الهلينية، في بلاد الإغريق الأصلية وفي ما وراء البحار، ظلت أصلاً جماعات صغيرة، مكتفية ذاتياً اقتصادياً، لكن أقلية منها اتخذت نفسها بإنتاج مواد متخصصة للتصدير مقابل استيراد البضائع المتخمة في الخارج. وهذا مكن لهذه الدول - المدن أن تعيش من التجارة مع الشعوب التي لم تتمكن من احتلال بلادها واستعمارها. وقد كانت إحدى هذه الصادرات المتخصصة الجنود المرتزة. وقد أشرنا من

قبل الى اسير مصر لهؤلاء في القرن السابع قبل الميلاد. وفي القرن السادس قبل الميلاد كان أحد أبناء مينيلون، وهو أخ للشاعر الكليوس، من المرتزقة في جيش ميونحنصر. والمجاعات الإغريقية المتأخرة اقتصاديا كالمكانها ان تصدّر المرتزقة، وقد عملت ذلك. وثمة جماعات، وهي اصغر عددا، كانت متقدمة اقتصاديا فكانت تصدر زيت الزيتون والخمور في أوعية مزخرفة بشكل جميل بحيث كانت هي بالوقت ادوات لها قيمتها الخاصة. ومع ان هذه الأنية كانت هشة، فإنها، على كل، كانت أقوى على البقاء من السوائل التي كانت تحويها.

في القرن السابع قبل الميلاد كان الأغارقة يحصلون على فائض المنفوج من المهرب في سلفين - مصر وأوكرانيا. وقد أشرنا من قبل الى التجارة الإغريقية مع مصر، اما التجارة مع اوكرانيا فقد أصبحت ممكنة لما توقف انسيحاح السكيثيين البدو الرعاة في السهوب الواقعة شمالي البحر الأسود. لقد كان البدو السكيثيون، من بين البدو الأوراسيون، فريدين في حصالتهنم الاقتصادية إذ أنهم فرضوا على السكان الزراعيين في أوكرانيا ان يدفعوا الضريبة المطلوبة حيويها، وذلك بدل ان يحمروا الرعاة هناك عن طريق اقتناص العبيد. والمستعمرات الإغريقية على الشواطئ الشمالية والغربية للبحر الأسود كانت عدة، ولكنها كانت، في غالبيتها، مراكز تجارية صغيرة، ولم تكن مستوطنات زراعية على غرار تلك التي قامت حول البحار الضيقة في الغرب.

وشجع التجارة اليونانية في ما بعد اختراع سك النقود، الأمر الموزو الى ملك ليديا أليانس (حكم نحو ٦٠٨ - ٥٥٨ ق. م.). لقد كان من المألوف، قبل ذلك بزمان طويل - في واقع الأمر لعل ذلك بدأ مع نشوء الحياة المدنية في سومر - أن تستعمل سبائك الذهب أو فضبان الفضة أو قطع النحاس وسائل للتبادل المصرفي. وابتداع أليانس لم يكن اختراع عملة معدنية، بل كان يتم بختن قطع من المعدن بختن معين وإصدار مثل هذه القطع المتخومة من قبل الدولة. ولم تكن النقود أسهل تايالا من السبائك فقط؛ اذا كانت السلطة التي تصدر النقود ذات اعتبار اقتصادي سليم، فان نقودها كانت تحمل محمل الثقة، دون الحاجة الى وزنها كلما انتقلت من يد الى أخرى. ولم تلبث ان اخترعت النقود حتى شاع استعمالها. وانتشرت دور الصرب في كثير من المدن اليونانية حالا. ولما سك دارا الأول وعلاقؤه نقودا ذهبية، انتشر الاختراع الجديد عبر الإمبراطورية الفارسية. ومع ذلك، استمرت الفالية عبر التجارة

من السكان ربما طويلا وهي تلجأ الى المقايضة في التبادل التجاري المحدود في الأسواق المحلية، وذلك حتى في المشرق.

أن توسيع المجال المحلي للأغارقة، نتج توسيع مجالهم التجاري، اللذين رافقهما ثورة في النشاطات الاقتصادية لأقلية من الدول - المدن الأغريقية كانت بالنسبة لها مغامرة اقتصادية - كل هذا أحدث تبدلات هامة في توازن القوى في العالم الهليني. في العصر المظلم وهو الزمن الذي كانت فيه المدينة الهلينية تبرز الى الوجود، كانت أثينا هي الدولة - المدينة الهلينية الحفلة - وهي القلعة الميكانيكية الوحيدة التي لم تتعرض للسلب في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وقد حافظت أثينا على مركزها التميز عبر عصري الرخوة السابقة للهندسية والرخوة الهندسية، إلا انتهاء منذ نحو ٧٥٠ ق.م. إلى ما بعد بدء القرن السادس قبل الميلاد، فقدت أثينا مركزها القيادي مؤقتا. ولم يكن لأثينا دور لا في حركة الاستعمار، ولا في الدور الأول للثورة الاقتصادية التي تلت ذلك.

إن التي صنعت هذه الثورة [الاقتصادية] كانت هي الدول - المدن الواقعة على الساحل الغربي لأسية الصغرى والبحيرة عنه قليلا (مثل ميلتوس وكورس) وحول مضيق كورنث (مثل كورنث بالذات وسيكرون وسينلوا). وقد انتهى الطاف بالمدن اليونانية التي تمثلت بالأثينا والأوديسة في منطقة ايونيا. وفي العصر الذي تلا ذلك لم يكن أي من الشعراء الموزونين أو الغنائيين أثينيين، والأساليب الجديدة لرخوة الأثنية التي عكبت الأسلوب الهندسي وجدت في رودس وكورنث وسبارطة، لا في أثينا. وحتى في القرن السادس قبل الميلاد، إذ كانت أثينا تسير نحو المقدمة ثانية - أولا اقتصاديا ثم سياسيا ايضا - لم يكن أماء العلوم الطبيعية الأغارقة اثينيين؛ فقد كان بينهم اثنان من ميلتوس (طاليس وأنكسندر) وهرقليطس الأنسي. وقد تم على أيدي هؤلاء الأغارقة الأسبريون اضمحلال الانجازات الهلينية للتفكير. لقد كان أسلافهم ينظرون الى سير الحياة في طبيعتها على أنها تعبيرات تشبيهية لما يسبق الحقيقة. وعلماء الطبيعة الأيونيون من أهل القرن السادس قبل الميلاد أعنفوا على عائقهم تفسير الظواهر الموضوعية بحدود مجردة. ولم يغم أي مواطن أثيني بدور متميز في تطوير العلم الهليني، لا في البدء ولا حتى في أية مرحلة تالية

وقد شهد ربع الألف من السنين الذي بدأ نحو سنة ٧٥٠ ق.م. تفجرا عظيما للطاقة الإغريقية في عدد من المجالات المختلفة، لكن هذا التفجر كانت له جوانبه المظلمة كما

كانت له الجوانب المثيرة. فقد حذر الكثير من هذه الطاقة في النزاع المدني بين دولة - مدينة وأخرى، وفي النزاع بين الطبقات الاجتماعية والأحزاب السياسية المتنافسة. وهي الحفنة من التاريخ الإغريقي الممتدة من نحو ٧٥٠ ق.م. والتي استمرت حتى أوقف الرومان الدول الإغريقية عن التناحر في ما بينها، لتفرض الأغارقة هي القسوة ضد بعضهم البعض على نحو لا يقل عما كانوا عليه في العصر الميكاني. وفي الدول الإغريقية التي مرّت بها لورات اقتصادية في القرن السابع قبل الميلاد كان النزاع الداخلي عنيفا وحادا بحيث أن هذه الدول انتهى الأمر بها إلى قيام حكومات دكتاتورية مؤقتة. وقد كان هذا هو الجلاء الذي أصابها لأنها فشلت في الانتقال سلميا من شكل حكومة ملكي أو أرستقراطي إلى شكل تكون فيه الحرية، لا شرف المختار، للزهد لتولي الشؤون السياسية.

كانت القضية البارزة في سوء المعاملة التي لقيها الإغريقون على أيدي الأغارقة، في هذه الحقبة، احتلال عسكي البلاد في احروب الأقصى البابونيز (نحو سنة ٧٥٠ - ٧١٥ ق.م.) على أيدي واحدة من الدول - المدن المحلية، وهي إسبارطة. فقد كانت هذه دولة - مدينة محصورة بجزء، وقد كانت استغلالها لجهرائها الأغارقة مقلابا لاحتلال الدول - المدن الإغريقية البحرية، مثل كورنث وخلقيس، للسكان من غير الأغارقة في إيطاليا وصقلية.

لقد أزعج الإسبارطيون بعض الدول - المدن المجاورة بأن الاحتلال يحفظ لها الحكم الذاتي لقاء تمهّدها بأن تقدم إلى إسبارطة عوناً عسكرياً في حال قيام حرب. وقد تقبلت هذه الجماعات عسارنها لسيادتها على هذه الشروط؛ لكن الإسبارطيون أخذوا هؤلاء السكان، وأتزلوهم منزلة الأتقان. وأعرض على هؤلاء الأتقان أن يدفعوا الضرائب حيناً من غلة أراضيهم للمواطنين الإسبارطيين كي يعنى هؤلاء من العمل في الزراعة، وبذلك يمكنون من قضاء وقتهم كله في شغل الحروب والتدريب العسكري. وهكذا مان إسبارطة، باستغلالها السكان الأغارقة المستعبدين، والذين كان عددهم اصماف عدد سكان المواطنين الإسبارطيين أنفسهم، تمكنت من أن تيسر لهذه الأقلية المتميزة مساواة ديمقراطية في الحقوق السياسية في ما بين أفرادها، دون أن تلغي الملكية ومجلسها الأرستقراطي، وحتى دون أن تقع تحت نير الدكتاتورية. دستور إسبارطة الديمقراطية - وهو الأقدم في العالم الهليني - دُشن في تاريخ يقع في الجزء المتأخر من القرن السابع قبل الميلاد.

كان تركيز الإمبراطور على التعريب العسكري والنظام قد جعل منهم أقوى جود في العالم الهليني. وقد حاولوا بإحدى الأُمُر أن يستولوا قوتهم العسكرية في احتلال بلاد إغريقية أخرى، كي يتزولوا أغلقة آخرين منزلة الأتقان، إلا أنهم تنهوا، نحو سنة ٥٥٠ ق.م.، إلى أن قولهم البشرية، مع ما كانت عليه من المشجاعة والغيرة، لم تكن كافية عدديا للإبقاء على الأتقان الحاليين خاضعين، فضلا عن زيادة عددهم في الوقت ذاته عن طريق نفوذ جديدة. ومن ثم فقد تخلى الإمبراطور عن سيادة الفتح، واستعاضوا عنها بسياسة التحالف. فأيدوا القضاء على الدكتاتوريات في المدن المتقدمة اقتصاديا الواقعة حول مضيق كورنث، وتحالفوا مع الأنظمة القائمة على الثروة، التي جاءت في أعقاب القضاء على الدكتاتوريات هناك.

ونحو سنة ٥١١ ق.م. جرب الإمبراطور توسيع مجال التحالف عن طريق القضاء على الدكتاتورية التي كانت لا تزال تتمتع بالسلطان في أثينا وجمهوا في المحاولة الثانية؛ لكن النتيجة في أثينا لم تلت كما جاءت في مقدونيا وكورنث وسكيون. ففي أثينا فشلت الأوليغارشية التي تسلمت الحكم من الدكتاتور للطرود، في الصمود أمام حركة أكثر واديكالية. ولما جربت إمبراطورية التدخل للمرة الثالثة لديهم أصدقاتها المحافظين، كسرت على يد ثورة شعبية.

وهكذا نجحت أثينا من السيطرة الإمبراطورية، وعندما (حوالي سنة ٥٠٧ ق.م.) أقام الأثينيون نظاما ديموقراطيا. وقد ساروا في ذلك على مثل الإمبراطوري، لكن في هذا الدور كان ثمة فرق أساسي بين البنية الاجتماعية للدولة الأثينية وتلك التي كانت في إمبراطورية. ففي البلاد الإمبراطورية كانت غالبية السكان من الأتقان، أما في أثينا فلم يكن ثمة أتقان. كان ثمة بعض العبيد وكان هناك عدد متزايد من الأحرار الأجانب الذين لم يعتبروا مواطنين [لا يحق لهم التصويت أو الانتخاب]، لكن غالبية السكان كانت من المواطنين [الذين يحق لهم التصويت والانتخاب]. ففي سنة ٤٨٠ ق.م. لما تناوت إمبراطورية وأثينا موقعا لصدة الحملة الفارسية، كان في أثينا نحو ٢٠,٠٠٠ مواطن، أما إمبراطورية فكان فيها نحو ٨,٠٠٠ مواطن فقط. كان عدد سكان الأملاك الإمبراطورية أكبر من عدد سكان أثينا، ولكن فيما كانت غالبية السكان في أملاك إمبراطورية دخرا اقتصاديا لإمبراطورية، فقد كانت هذه الغالبية مسؤولية سياسية وعسكرية ايضا، إذ انها كانت تتألف من أتقان لم يتقبلوا وضعهم.

في السنوات الخامسة (٥١١ - ٥٠٧ ق.م.) كان التعامل الإمبراطري مع أثينا قد اتحد انعطافاً كان في طبيعته مزعجاً وغير متظر بالنسبة للإمبراطورين. وسبب ذلك يعود إلى أن أثينا كانت، خلال القرن السادس قبل الميلاد، قد بدأت تعيق من الحسارة في القيادة التي سببت بها موتاً. وكان التوتر الاجتماعي في أثينا في ذلك القرن حاداً على نحو ما كان عليه في المملكة الشمالية - في فلسطين - في القرن الثامن قبل الميلاد. وقد بدأ وكان أثينا كانت على وشك أن تصبح بلاداً تكون الغالبية السكانية فيها من الأفنان، على نحو ما آلت إليه لملوك إسبارطة. وقد انتقد أثينا من مثل هذا النقد الإصلاحات التي أدخلها (في سنة ٥٩٠ ق.م.) السياسي وجعل الأعمال صولون لكن إصلاحات صولون التي قبلتها أثينا طواعية لم تكن جذرية بما فيه الكفاية بحيث تحول دون قيام طغاية في المدينة، وهو بيسستراتس، الذي أتم العمل الذي بدأه صولون؛ وكان من الضروري أن تدخل إسبارطة عندئذ لتنفذ أثينا من الدكتاتورية لما أثبت هذه دورها. وعلى كل فإن المفضل في إعادة الأرواح إلى أثينا يجب أن يعزى إلى صولون لا إلى بيسستراتس. فقد بدأ صولون صناعة إنتاج زيت الزيتون في أثينا من أجل التصدير، كما شجع تطوير الصناعات. ومنح المواطنة الأثينية إلى كل تقني أجنبي إذا كان مستعداً لأن يلقي بحظه إلى جانب المدينة التي اختارها، وكان عليه أن يقدم ضماناً على ذلك بأن يتنقل مع أسرته إليها؛ أو إذا كان قد نفي من مدينته - الدولة الأصلية. وكانت الصناعة الرئيسية التي كانت تقدمها أثينا هي صناعة الأنية وزخرفتها، وهي الأنية التي كانت تـ «تـ» لـ للزيت والخمر. ونحو سنة ٥٥٠ ق.م. كانت للصناعات الفخارية الأثينية قد سيطرت على السوق العالمية وحلت محل مصنوعات كورنث وإسبارطة.

كانت إيجينا، وهي إحدى حليفات إسبارطة، قد تضررت اقتصادياً من جراء منافسة أثينا لها. فعند هذه الجزيرة، التي كانت ثرى من أثينا، كانت تعيش على التجارة. وكان للايجيين دور رئيس في المستوطنة البينيبيلية في نيوكراتيس بمصر. وكان الخصام بين إيجينا وأثينا عيقاً إلى حد أن كليومينس الأول، ملك إسبارطة، وجد صعوبة كبيرة في دفع إيجينا عن شئ الحرب على أثينا.

وهكذا بقي للفترة الممتدة من نحو ٧٥٠ إلى ٥٥٠ ق.م. كان الصراع عينا بين المدن - الدول الهلنستية على التسوية الدولي والداخلي. ومع ذلك ففي هذه الفترة بالذات كان الأعارة، على رغم الخلافات السياسية والاقتصادية المتزايدة، قد سرى مبهم الوعي

يوحنا منهم الحصارية وتضامنهم، وهذا الوعي تمثل في عدد من المؤسسات الباناهليبية.

«الهلينون» وهو الاسم الجديد للأغارقة أنفسهم، كان يعني «سكان هلاس».

«هلاس» كان اسما لمقاطعة صغيرة في وسط بلاد اليونان كان يقوم فيها معبد لأرميس في أنتيلا على مقربة من ترموبولي، كما كان فيها معبد للإلهة الأرض والإلهين أبولو وديونيسوس في دلفي وهو مكان الموحى الذي كان ينتسج بالاحترام كما كان كثيرا ما يستوحى. وقد أصبح هذان المعبدان يذوران من قبل اثنتي عشرة دولة إغريقية متجاورة (أمفكتوبية). وهذا المجمع الأمفكتوبي (مجلس الحول) يجمع في أن يقيم لنفسه مكانة كبيرة في عالم الإغريق جملة، بحيث أن الدول الناطقة التي لم تكن أعضاء أصيلة في هذه الأمفكتوبية (المجلس) نجحت في الحصول على الحق في أن تمثل فيه.

وهذا التوسع في الأمفكتوبية (المجلس) كان يصاحبه توسع في استعمال كلمتي «هلاس» و «هلينون» بحيث أصبح هذان الإسمان يمثلان، على التوالي، المنطقة بكاملها وجميع الذين كانوا من أتباع هذه المدينة الحديثة التي قامت في حوض البحر الأيوني في القرن الحادي عشر قبل الميلاد والتي كانت آخذة في الانتشار والتوسع من هناك إلى القرن الثامن قبل الميلاد.

إضافة إلى الأمفكتوبية الهلينية (مجلس الحول الهليني) كان هناك للمؤسسات الباناهليبية أربع احتفالات دورية في دلفي وكورنث ونيسا في الما وراء البيلونيسي، وكان أقدمها وأكثرها إجلالا احتفال أوليسيا في الجهة الغربية من البيلونيسي. وقد كانت أوليسيا، على نحو ما كانت عليه لافنا وثرسي زاينوس الأولمبيتان المعاصرتان لها، مركزاً للقيام بالطقوس الدينية، ولم يكن حوله مستوطنة مدنية ثابتة. وهذه الاحتفالات كانت مناسبات للتفاني الباناهليبي، ولم تكن هذه رياضية حصراً؛ فقد كان هناك مناسبات في الشعر والموسيقى كذلك.

وفي رافع الأسر فإن هذه المؤسسات الباناهليبية كانت سبل للوحدة الثقافية ومعناها التي كان الإسمان «هلاس» و «هلينون» يبركان عنها. وعلى كل حال فإن جوهر هذه الوحدة لم يكن تنظيمياً بل كان سيكولوجياً. فقد كان الأساس السيكولوجي للهلينية، هو وجهة نظر مشتركة، وآمال ومثل مشتركة ومعاناة مشتركة وعادات وأداب مشتركة. وعلى سبيل المثال فإن الشعر الذي كان ينظم في مدينة - دولة هلينية معينة باللهجة المحلية كان يصبح، بسرعة، ملكاً مشتركاً لجميع الهلينيين. فاللهجتان الهومريتان،

الثلاث استوفيتا شكلهما النهائي في مكان ما من اليونيا، شاعت ثلاثتهما في انحاء العالم الهليني، وأُعيد الشعراء أنفسهم ينظم الشعر باللهجة الهوميرية وعلى العروض الهوميري - على نحو ما فعل الشاعر البيوتي هزيرود - الذي كانت لغات الأمم عنده لهجات إغريقية مختلفة. وهكذا فإن اللهجات الإغريقية أصبحت أكثر من مجرد لغات محكية محلية، فقد أصبحت آلات لأنواع مخصصة من الأدب الهلنكي. إن الروابط الفكرية والعاطفية والروحية للهلينة أمور لا يمكن لمسها، إلا أن هذه الروابط هي التي ربطت بين الهلنيين وذلك لأنها تجرّدت عن التحيزات الاقتصادية والسياسية.

٢٥- انطلاقات جديدة في الحياة الروحية نحو ٦٠٠-٤٨٠ ق.م.

في فترة زمنية لا تتجاوز المئة والعشرين من السنين - أي مدة أربعة أجيال أو خمسة - ظهر خمسة من كبار الحكماء في أويكوميون العالم القديم. كان ألدن هؤلاء الخمسة زرواستر (زرادشت) الأيراني. وزمانه ومكانه ليسا معروفين تماماً، لكن يبدو من الممكن أن أفعاله تمت في السنوات المبكرة من القرن السادس قبل الميلاد، وأن مجال نشاطه كان في حوض نهري (كسوس - جاكسانس) سيحون و جيحون (في مناطق كان يقطن فيها شعب مستقر إلا أنه كان يتعرض لهجوم يقوم به بدو السهوب الأوراسية. وكان الحكميم الثاني هو أشعيا الثاني (أو المتأخر)، فقد اختفى اسمه - إما أنه أخفاه هو بنفسه أو لعل الذي أخفاه هو محرر كتاباته، وذلك بالصاق ما كتبه بكتاب النبي أشعيا من سبط يهوذا الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد. إلا أن أشعيا الثاني (أو المتأخر) يحمي فورش الثاني على أنه الملك الذي مسحه يهوذا وهو المؤسس الأول للإمبراطورية الفارسية الأولى، وفورش الثاني هو الذي تغلب على الإمبراطورية البابلية الجديدة، وسمح لليهود الذين كانوا قد نقلوا إلى بابل بالعودة إلى أرض المملكة الجنوبية [في فلسطين]، وكان ذلك في سنة ٥٣٩ ق.م.. وليس ثمة أي إشارة في كتابات أشعيا الثاني (أو المتأخر) إلى المكان الذي كتبت فيه. وكلا المكاتب - بابل وأرض المملكة الجنوبية - هما إمكانتان محتملتان.

ورس البودا يكاد يكون غير معيّن مثل زمن زرواستر. فعلمه كان يعيش نحو ٥٦٧-٤٨٧ ق.م. ولعله من الممكن أن البودا سدهارتا عوثاما، وقد ولد في كايلافاستو، وهي مدينة - دولة صغيرة تقع في حدود مملكة نيبال الحالية، وأن مجال نشاطه كان ببهار الحالية. وقد كان كوتغوشيويس اصغر سناً من معاصره البودا، إذا صح أن رمه التقليدي (٥٥٦-٤٧٩ ق.م.) هو دقيق على وجه التقريب. وكان موطنه في

العصر في ولاية لو، وهي واحدة من أصغر الولايات وأضعفها، التي انتهت إليها أمر أملاك أسرة تشو لا كانت قد انحلت في أيام كونفوشيوس. وكان فيثاغورس معاصراً للبودا على وجه التقريب. فقد ولد في جزيرة ساموس القريبة من الشاطئ الأيوني، إلا أن مجال عمله كان المستعمرات الإغريقية في جنوب إيطاليا، وقد استقر في المدينة - الدولة كروتون.

إن هؤلاء الحكماء من أهل القرن السادس قبل الميلاد، مع إمكان استثناء فيثاغورس، لا يزالون حتى يومنا هذا يؤثرون في الإنسانية، إما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، أكثر من أي كائن بشري حي. فالبودا يؤثر مباشرة في أكثر من نصف أهل الجبل الحالي، وكونفوشيوس يمتد أثره إلى أكثر من الثلث. وتأثير أشعيا الثاني (أو المتأخر) يشمل المسيحيين إضافة إلى اليهود. إن التأثير المباشر الحالي لزروراستر محدود في الهارمين، وهم اليوم جماعة صغيرة عدا، إلا أنهم، مثل اليهود، يقومون بدور في العالم الحاضر أكبر من نسبتهم العددية. وعلى كل حال فإن زرواستر يؤثر، في يومنا هذا، بطريقة غير مباشرة في اليهود والمسيحيين والمسلمين ذلك بأنه نتيجة للفرق بين الفرس واليهود في عصر الإمبراطورية الفارسية الأولى، منذ أن ضمت إليها الإمبراطورية البابلية الجديدة في سنة ٥٣٩ ق.م.، وإلى حين القضاء عليها سنة ٣٣٠ ق.م.، وجدت الأفكار الزرواسترية الروحية القوية - مثل الخلود ويوم اللعنة وفعل الله بواسطة الروح القدس - طريقها إلى اليهودية، ومنها إلى الديانتين الأخريين - المسيحية والإسلام.

لعله كان ثمة بعض سنوات في القرن السادس قبل الميلاد حين كان جميع هؤلاء الحكماء يعيشون متجاهلين، لكنه من غير المحتمل أن يكون أي اثنين منهم قد التقيا؛ والأمر الذي هو بعيد عن الاحتمال أن أيا منهم عرف بوجود الآخرين. إن العقائد والأهداف والمساكنات على ما نعرفها عند اثنين منها - اليرفا وفيثاغورس - متشابهة إلى حد كبير بحيث يكاد يعرض علينا القول بأنهما اشتقا الوسي من مصدر مشترك، إلا أنه ليس أقل مدعاة إلى القول بأن لا اليرفا في بيهار ولا فيثاغورس في إيطاليا كان باستطاعته أن يتبادل الاتصال مع معاصره حول هذه المجموعة من المبادئ المشتركة التي كان يشاركه شأنها، عبر هذه المسافة الجغرافية الطويلة.

وبسبب أهمية المعاصرة لهؤلاء الحكماء الخمسة، فقد أطلق كارل جاسبر على الفترة التي تنظم حياتهم العصر المحوري، أي العصر الذي تَفَصَّل عليه تاريخ البشرية. فقد كان

ظهورهم، في حقيقة الأمر، منعطفا عاما من حيث أنهم، كما تشير إلى ذلك من قبل، استمروا في التأثير على البشرية إلى يوم الناس هذا، ومن حيث أنهم يشتمون في التأثير في الأحفاد، بالمثل الذي قدموه، حتى ولو أن حكمتهم فقدت قيمتها كوصايا، ولو أن تعاليمهم فقدت أهميتها كقانون إيمان. وعلى كل فإن كنا نتوي أن ننظر إلى تاريخ العالم في حدود العصر المحوري - وهذا، بعد ذلك، رأي ثالث - فإنه يحتمل عليها أن نوسع إطاره الزمني في كلتا الجهتين.

لقد كان اسماء الثاني (المتأخر) نذيراً من المدرسة السورية؛ وعندما شهادة عن نذير سوري التقى به ويناموس في بيلوس (جبل) نحو سنة ١٠٦٠ ق.م. - أي قبل اسماء الثاني (المتأخر) بنحو خمسمئة سنة. ولا سبيل إلى فهم اسماء هذا إذا لم نتعرف إلى أنه كان يتبع سبيل التقليد السوري سيرا واعيا. وقد وعى ذلك هو أو محرره فأشار إلى هذا الأمر لما أحقق كتاباته بالكتاب الذي وضعه أشهر النبهاء قبيلة يهودا. وواضح أن زرواستر هو نذير من النموذج السوري، مع أنه ليس ثمة دليل، بالنسبة إليه، على أنه تأثر بأي شعب، سوريا كان أو ليرانيا. ولا شك في أنه لما يؤذي إلى الضلال هو أن يحدد زمن محوري دون اعتبار هذين المصطلحين وهما زرواستر واسماء الثاني (المتأخر). ومن هنا فإن الزمن المحوري يتسع من فترة تمتد نحو مئة وعشرين سنة إلى فترة تمتد عبر نحو سبعة عشر قرناً بدءاً من سنة ١٠٦٠ ق.م. وحتى سنة ٦٣٢ م، وهي سنة انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى. والقرون السبعة عشر هذه تغطي نحواً من ثلث الامتداد الزمني، إلى اليوم، لسوء الحظ، التي اسمياها هـ مدييات هـ ومع ذلك فإن سبعة عشر قرناً هي طريقة عين إذا ما قيست بالزمن، إلى اليوم، الذي مؤ على البشرية، وبالتالي، على الأحياء قبل البشرية.

مع أن الحكماء الخمسة الذين ظهوروا في القرن السادس قبل الميلاد قد وجدوا مستقلين واحدهم عن الآخر، فإننا نتلمس بعض الصفات التي يشترك فيها الخمسة جميعهم، ولو أن مثل هذه ليست صفات خاصة بهم وحدهم.

إن أبعد الخصائص المشتركة شأوا هي أن يصل الكائن الإنساني الفرد إلى علاقة شخصية مع الحقيقة الروحية النهائية، في الكون وفي ما وراء الكون، الذي يجد فيه المرء نفسه. فالأصل في هذه العلاقة أنها لم تكن فردية وشخصية، بل جماعية وعلى مستوى المؤسسة. فالجماعات السابقة للمدنية كانت قد اقترنت من الحقيقة المطلقة عبر قوى

طبيعية غير مشروعة كانت في هذه المرحلة، تضع الإنسان تحت رحمتها. بعد انجازات المدينة نقل الإنسان نقطة تقربه من الحقيقة المطلقة. فبدلاً من تأليه الطبيعة غير الإنسانية أخذ الإنسان يفسه بتأليه القوة الجماعية للجماعة البشرية. وتنظيم القوة البشرية الجماعية على نطاق واسع أمالت الميزان بشكل واضح لمصلحة الإنسان في صراع هذا الإنسان مع الطبيعة غير البشرية في طريق السيطرة. وهكذا فإن الإنسان، إذ غير هدف العبادة كان متسجماً مع نفسه في أنه كان دوماً بعد القوة، في أي من الأشكال التي كان يجد القوة فيه أشدَّ عفاً. وس الناحية الروحية فإن استبدال الطبيعة غير البشرية بالقوة الجماعية البشرية حلى أنها هدف العبادة كان ردة. فالإنسان كان يبتعد عن الهدف، بدلاً من الاقتراب منه، لما نقل ولاده الروحي.

لكل من هؤلاء الحكماء الخمسة خرج عن تراثه في غرضه الروحي للجماعة التي ولد فيها وترعرع. فإنه يتحديه التقليد، وقضى كلا المبدأين - عبادة الطبيعة وعبادة الإنسان، وتزود على هذه الحجة الحقيقة والمصلحة، في سبيل أن ينال رؤيا مباشرة للحقيقة الروحية وهي عارية. والقضية ظاهرة بالنسبة للأنبياء. فالذي يعتقد ويصر على أن ما ينطق به مسوحي مباشرة من إلهه، وليس عن طريق وساطة اجتماعية. فكونفوشيوس، معتمداً مستوى عاطفياً أدنى، كان يعتقد ويصر على أنه كان يحيد الحياة إلى القانون الخلفي الذي يمين التصرف الاجتماعي والذي فرضه « السماء » على مؤسسي المذنبات الصينية. ويبدو أن السماء (تين)، كانت الصورة القائمة عنها أنها إله شخصي - أي شبيه بالإنسان؛ ومن الممكن أن هذا الاسم الصيني للحقيقة الروحية المطلقة قد فقد، في أيام كونفوشيوس، معنى الشخصية ولعله أصبح يتصور على أنه روح أو قانون فولي الشخصي أو أنه لا شخصي. ومن المؤكد أن البوذا لم يتصور الحقيقة الروحية المطلقة على أنها شبيهة بالإنسان. ولم يصنفها لا مع جميع أعضاء المجتمع الهندي التقليدي ولا مع واحد فقط من هؤلاء الأعضاء. فبالنسبة للبوذا كانت الحقيقة المطلقة التي كانت العاية من بحثه هي حال النقاء (النرفانا)، وقد كان عليه أن يصل، في الواقع فإنه وصل، إلى الورع عن طريق الجهد الروحي الخاص، دون احتمال الحصول على عون من قبل حقيقة مطلقة شبيهة بالإنسان الأمر الذي كان هدفه.

والصفة المشتركة الثانية للحكماء الخمسة هي أنهم دنوا وأتقنوا الخيال التي وجدوا أنفسهم فيها، وحاولوا تبديلها. وثورتهم الروحية التي تولدت اختلعت وأحدثتها عن

الأخرى اختلافا كبيرا في قوتها. فالبوذا الذي كان اسمي الحسنة، كان ابسا أكثرهم تطرما. فالذي جرب البوذا تعمله هو الحياة نفسها التي وجدها. فقد وجد أن كل كائن حساس كان يصيبه الألم؛ كما أنه وجد أيضا أن كل كائن حي هو طماع، وقد كان يرى أنه إذا كان لكائن حي أن ينجح في تطهير نفسه من طمعه، فإن هذا يمكنه من تحرير نفسه من حال الحياة المؤلمة التي يجد كل كائن حي طماع نفسه داخلها فيها. وقد دان فيثاغورس أيضا الحياة على نحو ما تخبرها. وهو أيضا جرب أن يختار الحياة على نخط البوذا نفسه، إلا أنه لم يكن مستعدا للسير في هذا المسار الصعب، على نحو ما اعتمد الرودا من حماسة واقتناع. وقد حاول زرواستر أن يقلب الصيغة التقليدية للدين الذي كان سائدا في مجتمعه، كما اهتم اشعيا الثاني (المتأخر) بأن يعدل هذه الصيغة. وكونفوشيوس جرب أن يرفع من مستوى التصرف الاجتماعي الذي كان قائما في الصين في أيامه.

وكل من هؤلاء الحكماء الحسنة اهتم بأن يقرؤوا الناس الذين يتعامل معهم في الطريق الجديد الذي اكتشفه ذلك الحكيم نفسه. وقد دون زرواستر وأشعيا الثاني (المتأخر) رسالتهما كتابة. (وقد كانت الرسائل، بحسب معتقدهما، رسائل من الله أرسلت إلى البشر عبر النبي، على أنه رسول من الله). وثلاثهم زرواستر (غاتا) وإضافات أعضا الثاني (المتأخر) إلى كتاب اشعيا الأصلي، يبدو أنها أعمال موثقة من صنع هذين الحكيمين. ولما كانت كتابات تتنوع بصفة تقليدية، التي يفرض فيها أن بعضها أحداث أثقاها البوذا وكونفوشيوس وأن بعضها الآخر محاورات بين كل منهما وبين حواريه. ولا فوري إلى أي حد تتفق هذه المدونات المزعومة مع الكلمات الأصلية التي تقو بها المعلم، كما أننا، بالمقابل، لسنا واثقين من صحة الأقوال المزعومة إلى فيثاغورس.

اهتم أربعة من هؤلاء الحكماء الحسنة، في استقطاب تلاميذ لهم، أو على الأقل قلوبهم. وقد ترتب على ذلك قيام مجتمعات جديدة، ذلك بأن العلاقات بين الكائنات البشرية لا بد من إخضاعها إلى مؤسسات إذا كان المرجو لها أن تستمر إلى أكثر من جيل واحد، وأن تضم من الناس عددا أكبر من المند الصغير الذي يمكن اعتباره الحد الأقصى لجماعة أسسها التعرف الشخصي فقط. وقد نشأ البوذا فرقة رهبانية (ساما) بدعمها مريدون علمانيون؛ ونشأ كونفوشيوس مدرسة فلسفية؛ ونشأ فيثاغورس جمعية كانت أكثر من مدرسة، ولو أنها لم تكن بفرقة رهبانية نظامية؛ وقد اكتفى اشعيا الثاني

(المتأخر)، على ما تخمن، بأن ينشر رسالته بين الجماعة اليهودية القلقة. وفي الجهة الثانية فقد أصبح ررواستر صاحب دين جديد؛ ومثل هذه التفتة بالنسبة إلى التتوير البوذي، كانت شيئا رائعا. فالبوذا كان يعتقد بأنه على كل أن يصل إلى النور عن طريق جهوده الخاصة وأنه إذا حصل على ذلك ومتى تم له ذلك، أصبح حرا في الانطلاق نحو النورانا. ومع ذلك فقد أجل البوذا انطلاقه هو بالوقت، وظل طواعية في الخيال التي ممتزج فيها الحياة بالأمم، وذلك كي يري الكائنات الحساسة الأخرى طريق الخروج الذي اعتدى إليه.

ترفع البوذا عن السياسة وعن الحياة الاجتماعية في ما عدا حلقة تلاميذه. لقد كان ولي عهد المملكة وكان زوجا ولها أيضا. لقد تنازل عن وراثته لعرش أبيه، وانفصل عن زوجته وابنه، وذلك كي ينقطع إلى البحث عن السبيل المؤدي إلى الانعتال من آلام الحياة. وبعد ما بان النور للبوذا، ولما أصبح معلما مترحلا اعترف به الملوك المهليون على أنه مساوي لهم منزلة اجتماعية، فلا هو تخشى معاشرتهم ولا سعى إليها أيضا. فهو لم يعن بدفع وتطوير طريقته الرهبانية عن طريق رعاية ملكية. وقد لفتت البوذية الرعاية للملكية في شخص الإمبراطور آشوكا، بعد أكثر من قرن من وفاة البوذا. وفي الجهة الثانية فإن زرواستر سعى للحصول على رعاية ملكية، وقد لقيها. وسعى كونفوشيوس للحصول على موظف ملكي، ولم يثر على أي شيء. وقد كان في هذا زجرة شخصية هي التي حملت هذا الموظف اللدني المعامل عن العمل على خلق عمل جديد لنفسه كعمل للأخلاقي. وأشعياه الثاني (المتأخر) لم يكن بحاجة إلى من يرعاه، وكل ما كان بحاجة - وقد ناله - هو أن تقبل رسالته لشماحة اليهودية.

كان البوذا، بين الحكماء الخمسة، غير عادي في ترضعه عن السياسة. وكان كونفوشيوس يرحب بممثل سياسي لو أن ذلك أتبع له. وقد نغم على أتباعه أن ينتظروا قرابة ٢٥٠ سنة بعد وفاة معلمهم حتى تصبح الفلسفة الكونفوشية جوارزا للتعبير في وظيفة عامة. وكان زرواستر، على الوجه للؤكد، يرى أن رعاية الحكام كانت شرطا أساسيا لنجاح مهمته. ولم يتمكن فيثاغورس ولا تلاميذه من تجنب دخول المعترك السياسي. ففي العالم الهليني في القرن السادس قبل الميلاد، كان لا بد لأي أخوة من الفلاسفة من أن تكون لها سيطرة في إحدى المدن - الدول إذا كانت تريد نجب وقوعها ضحية. وقد سعى الفيثاغوريون لئلا هذه السيطرة لكنهم بقوا بالقشل. أما بالنسبة إلى

أشعيا الثاني (المتأخر) فقد أطلق العنان للكثير من الآمال السياسية العريضة. فقد حثنا قورش الثاني على أنه الملك الذي مسح بهوه، لأن قورش كان يسمح لليهود الذين أُجِّلوا، والذين كانوا في بابل، بالعودة إلى أرض المملكة الجنوبية (في فلسطين)؛ إلا أنه يأمل بأن يتلو ذلك قيام إمبراطورية عالمية يكون فيها بهوه لا قورش، الإمبراطور، ويكون فيها اليهود، لا القُرس، الشعب الإمبراطوري.

والشيء الجديد الذي انطلق منه أشعيا الثاني (المتأخر) كان على المستوى الروحي لا السياسي. فقد كان موحدا وقد تصارع مع قضية الألم. لقد كان أشعيا الثاني (المتأخر)، دون شك، أول موحّد يهودي، وأقدم الموحدين في أي مكان منذ المحاولة التوحيدية الفاشلة التي قام بها أنتانتون قبل ذلك بشمانيه قرون. لم يكن أشعيا الثاني (المتأخر) يعتقد بأن بهوه هو الهدف الشرعي الوحيد للمعبدة بالنسبة لليهود فقط، أو أن بهوه كان أكثر برا وأقوى من آلهة الشعوب الأخرى. لقد كان يعتقد بأن بهوه هو الإله الوحيد، وأن الآلهة الأخرى لا وجود لها. فقد كان تصور أشعيا الثاني (المتأخر) وموقفه من الألم على التقيض من موقف البروتا. لم يبحث أشعيا الثاني (المتأخر) عن سبيل للطمس من الألم؛ لقد قبل الألم على أنه تجربة قد تنتج ثمارا روحية إيجابية. ولسنا ندري فيما إذا كان « الحلام الفلكم » هو، كما يبدو ذلك واضحا، على أنه شخصية تاريخية مجهولة الاسم، أم أنه تجسيد للجماعة اليهودية. والثاني من هذين التفسيرين المحتملين لهذا الشخص الغمز هو الأكثر اعتناء؛ فهو أقرب إلى تقليد النبوة الذي كان أشعيا الثاني (المتأخر) يلتصق به.

وعني كل فائه من الواضح بأن أشعيا الثاني (المتأخر) كان يعتقد بأن الألم، إذا تحمله المرء بالصبر، يمكن أن يكون تجربة خلاقة لجميع المعينين بذلك، بما في ذلك لتألم نفسه في تحليل مأساته الخاصة به. ولعل كتابات أشعيا الثاني (المتأخر) هي الأقدم التي يمكن العثور فيها على هذا الموقف من الألم.

كان زرواستر يرى أن العالم هو أرض المعركة بين الخير والشر، وفي نهاية المطاف سينتصرون الخير من كسب المعركة؛ وفي الوقت الحاضر فإن واجب الإنسان أن يكون مقاتلا فعالا إلى جانب الإله الصالح ضد الخصم الشرير لهذا الإله الصالح. ولعل رؤيا زرواستر وحكمته يمكن أن الوضوح التاريخي الذي كان في المكان والزمان اللذين عاش النبي فيهما ففي المنطقة الحدودية الواقعة بين الهندو الرعاة الأوراسيين وجيرانهم المستقرين،

كان ثمة خيال مستمر في هذه المنطقة الحدودية وكان التفرق المستمر يأمل في أن يكسب في نهاية المطاف نصرا حاسما. وفي هذه الحروب التاريخية كان زرواستر، ولا شك، خصصا عينا للعبور.

وكان كونفوشيوس مصلحا أخلاقيا وكان ينظر إلى نفسه، بصدق وإخلاص ولا شك، على أنه محافظ أمين. والجماعة التي ولد فيها كانت قد تخلت عن إطارها التقليدي وعسرت طريقة سلوكها. وقد انتهت نهته نحو إحياء مؤسسات الآباء الثمينة التي كانت في خطر الإهمال، لكن علاجه كان في الواقع مجديدا. فعلى سبيل المثال نجد أنه أخذ كلمة تشن تسو التي كانت تعني « الرجل الشريف المتمدن »، بالمعنى المطلق على الأساب، أي « ابن السيد »، على أنها تعني، في الحقيقة « رجلا شريفا »، بمعنى الرجل الذي يعيش على مستوى أخلاقي رفيع. ومثل هذا التفسير لم يكن إحياء لمعنى قديم؛ لقد كان إضافة معنى جديد. و « تصفية الأسماء » التي قام بها كونفوشيوس منحت المجتمع الصيني مثاقيل جديدة.

انتهج البوذا سبيلا غايته القضاء على النزعة الفردية والطمع وهما خصلتان فطريتان في كل كائن بشري. كان يرى أن الروح الإنساني يستطيع التغلب على الطبيعة؛ وقد كان له من الشجاعة ما يمكنه من نقل هذه الرؤيا إلى فعل؛ ولما تم له ذلك ورأى أن الفعل انتهى به إلى التفرق الذاتي، حملته تامله مع الناس على توضيح السبيل للكانات الحساسة التي يهايمها. وقد بلغ البوذا تنوره لما رأى أن ممارسة التقشف الجسماني المتطرف ليس هو السبيل إلى التنوير. ومن ثم فقد سلك سبيلا وسطا بحيث، أنه كان يبدو نقشا بالنسبة إلى الناس المذنبين، يشا كان، في نظر القساوسة المتطرفين المعاصرين له، سلوكا متحلا. وقد ثبت صحة هذا السبيل الوسط الذي اختطه البوذا، بالمقابلة بين ما أصاب البوذية والمجانية - وهو من أسسه فخرطاماء المعاصر للبوذا، والذي حرره اتباعه باسم « الحينا » (أي المنصور) أو للمعلمين (أي البطل العظيم).

لقد أشرنا من قبل إلى أن البوذا وقيناغوروس كانا يشتركان في عقيدة وهدف. وعقيدتهما المشتركة هي أن الموت ليس نهاية الحياة، بل إنه يهيم عادة ولادة ثانية، وأن هذه السلسلة من الوفاة بعد الأخرى والولادة الثانية بعد الأخرى، تستمر إلى ما لا نهاية له، ما لم يتخذ إجراء صارم لكسر هذا الطوق المحزن. وكسر هذا الطوق كان الهدف المشترك الذي رمى إليه كل من هذين الحكيمين. والربط بين هذه العقيدة وهذا الهدف

أمر غريب؛ مثل هذه العقيدة، دون ارتباط يمثل هذا الهدف، أمر شائع. والفكرة القائلة بأن التواتر هو أساس الإيقاع في الكون تظهرها الظهرة الطبيعية للألوة: توالي النهار والليل؛ وتوالي الفصول في سلسلة معينة سنويا؛ واستبدال جيل من الأحياء بآخر. والاعتقاد بأن دور الليل تعتمد على الولادة الثانية يعبر عنها الناس بهادة تسمية الأطلعال باسماء الجلود.

إن الاعتقاد الخاص بالولادة الثانية، على أنه شيء تميز عن الاعتقاد العام بالتكرار، بدأ في العالم الهندي على أنه من تعاليم فيثاغورس وتلاميذه، ثم انتشر انتشارا واسعا بالرغم من التكية السياسية التي تلقنتها الأنحة الفيثاغورية. وفي الهند يبدو أن الاعتقاد بالولادة الثانية كان أمرا عاديا بالنسبة إلى كلا الفريقين، البوذا وخصومه. فقد كان هذا الاعتقاد المشترك في أس الخلاف في الرأي حول مسألة فيما إذا كان ثمة شيء اسمه الروح أم أنه ليس موجودا. فخصوم البوذا لم يعتقدوا قط بأن الروح حقيقة، بل بأن هذه الحقيقة هي مطابقة تماما للحقيقة المطلقة (تات توبام آسي). أما لبوذا فكان يرى أن الذي يولد ثانية لم يكن الروح بل هو سيج وحق من حالات بسكية متباعدة ولا يرتبطها واحدها إلى الآخر، من ولادة ثانية إلى ولادة ثالثة، سوى قوة الطمع الديناميكية. فإذا أمكن إزالة الطمع، فإن هذا الحطام النفسي البسكي يبيد. هنا ما قال به البوذا؛ ومثل هذا يفتح الطريق للخروج إلى حال «الفناء» (الترفانا)، حيث يزول الألم.

ومن المحتمل أن البوذا وخصومه لم يكونوا على كبير خلاف الواحد مع الآخر على نحو ما حسبهما كلا الفريقين اللذين أيدا الخلاف. فقد صدر من خصوم البوذا مقولة هي: «الروح منطبقة تماما مع الحقيقة المطلقة». والبوذا كان يوصي: «أخرج إلى الفناء بتهدد الحطام النفسي البسكي الذي يسميه خصومي الروح»؛ ولعله من الممكن أن رؤيا البوذا، مثل رؤيا خصومه، حول طبيعة الحقيقة الروحية المطلقة لم تختلف واحدتها عن الأخرى اختلافا لا يمكن التوفيق بينهما.

ثمة بقدرة النفس البشرية على التغلب على الطمع؛ واعتقاد بقدرة الأمم الخلاقة إذا احتل بصير؛ ودعوة بالنفاذ إلى «الفناء» والاعتقاد بوجود إله واحد فقط؛ والدعوة إلى الوقوف إلى جانب الخير محارب الشر. ويسبب هذه الاعتقادات التي أعلنها الحكماء الخمسة الكبار، والرؤيا التي أعطوها، في القرن السادس قبل الميلاد، فإن رؤيا الحقيقة المطلقة والرؤيا التي تعين السلوك البشري تبلت بشكل لا يمكن الرجوع عنه.

لقد ولد حكماء القرن السادس (قبل الميلاد) الخمسة وعاشوا وعملوا في أحوال
اقلية غريبة مختلفة. ولعلنا له دلائل ان أحدا من هؤلاء الخمسة لم يكن ورثا لأقدم
مدنيتين، وهما السومرية - الأكادية والمصرية الفرعونية. فقد كانت هاتان المدينتان لا
تزالان حينئذ في القرن السادس قبل الميلاد ولكن الروى الجديدة والوصايا الجديدة جاءت
من مناطق كانت مدنيتها، في ذلك الوقت، أقل تأثرا ولكنها كانت أكبر ديناميكية.

٢٦- الامبراطورية الفارسية الأولى ٥٥٠- ٣٣٠ ق.م.

إن العسكرية الأشورية، وعصوياً في مرحلتها الأخيرة (٧٤٥- ٦٠٥ ق.م)، كانت شراً كبيراً على فرائسها بما في ذلك الأشوريين أنفسهم. وقد زاد الخراب عنفاً هجوم البدو الأوراسيين. وكان الأثر المباشر لسقوط الإمبراطورية الأشورية أن أصبح المشرق مقسماً سياسياً فاقداً لأمنه. والدليل على حاجة هذه المنطقة القسمة « المعذبة » للسلم والنظام هو السرعة التي تم توحيداً سياسياً على يد بنات الإمبراطورية من الفرس في حدود ربع قرن نحو ٥٥٠- ٢٥٠ ق.م. وقد منحت الإمبراطورية الفارسية المشرق راحة كان بحاجة مؤلمة إليها. وقد كانت حروبها الاحتلالية أقل وحشية من حروب الأشوريين؛ وكان التنظيم الإداري للبلاد الواسعة المحتلة أقل ظلماً. وعلى عكس الأشوريين كان الفرس يقنعون بأن يكون الشعور بوجودهم في أدنى الحدود اللازمة لحمل سيادتهم فعالة. فقد سمحوا للإدارة المحلية القائمة بأن تكون ماعلة؛ وقد كان دور حكام الولاية الإشراف على الإدارة المحلية لا أن يستولوا عليها. وقوت ذلك كله، كان الفرس يعنون عناية خاصة باحترام أديان شعوبهم ورجالهم - وهي سياسة منفتحة كان من نتائجها قبول الحكم الفارسي، باستثناء حالات نادرة لكنها مضايقة حيث تكون إحدى الجماعات الخاضعة تمزقها الخلافات الدينية بحيث كان يصعب على السلطات الفارسية أن تحافظ على الحياد.

وتسارع الحكومة الأمبراطورية الفارسية نحو الأديان الأجنبية كان الأكثر تشرعفاً وروعة، إذا نحن عرفنا أن « درا » الأول وعلى الأقل خليفته « إسكرسيس » (أحشويرش)، يندران، مي النقوش التي خلفها بالذات، أنهما قد قبلتا ديناً قريباً من دين زرواستر - وقد كانت الماجرة لا التسامح روح زرواستر. وعلى هذا النحو كان زرواستر قد رمس الديانة التقليدية للشعوب الناطقة بالإيرانية، واستبدالها بوحدة جديدة. وقد كان زرواستر يعتقد

أنه مكلف بالمعونة إلى الإيمان بالله واحد صالح، هو أهورا مزدا الذي كان قد مسح ولاده كاملا. لنا نصري للذي الذي ذهب إليه دارا الأول وأكسر كسيس في التزامهما بدمانة زرواستر. إلهما لا يقران إلهما كانا من اتباع زرواستر وفي واقع الحال فإنهما لا يشيران إلى اسمه. ويبدو أن النبي نفسه قد ولد قبل دارا الأول بنحو فرد من الزمان، وأن مجال نشر دعوتهم كان في الجزء الشمالي الشرقي من المنطقة التي تغطيها شعوب سيطرة منطقة بالإيرانية (وهي اليوم غرغان وآسية الوسطى وباكستان الأفغانية).

كانت هذه المنطقة قد ضمت إلى الإمبراطورية الفارسية على يد فوروش الثاني، ولعل ذلك كان في زمن متأخر من سنة ٥٢٩ ق.م. وكان والد دارا حاكم غرسان (غارنيا) الفارسي سنة ٥٢٢ ق.م. في الحال دارا نفسه سميردس الذي لهله كان كادبا أو حقيقيا ونصب نفسه مكانه. وقد لا يكون فرع دارا من البيت الأخميني قد أصبح أعضاؤه اشباه معتقون لديانة زرواستر حتى سنة ٥٣٩ ق.م. ولنا نعلم فيما إذا كان الشعب العارسي والطب الميدي وكذلك الأخمينيون قد تقبلوا حتى جرعة مخففة من الزرواسترية. ومن الواضح أن دارا الأول لم يكن صديقا للساميين - وهم كهنة الشعب الميدي الوريثون، وهم الذين قبلوا، في البداية، ديانة زرواستر في صيغة ما كان المؤسس لقبها.

إن التسامح للفنمي والسياسي الذي اتبعه الأباطرة الفرس حمل شعوب سورية على تقبل الحكم الفارسي، وهم الذين قاموا بدمشق محتليهم الآشوريين أولا ثم المحتلين البابليين. لقد كان الفرس في أمم الفينيقيين والساميين واليهود محرومين.

إن إدخال الفينيقيين في الإمبراطورية الفارسية أعطى التجار الفينيقيين مجالا أرحبا قارئا واسعا، فيما منحهم، في البحر المتوسط دعما فارسيا في حراحتهم لمصالحهم من الأغارقة. إن الأغارقة الآشوريين كانوا قد عضوا للفرس، مظهر في ذلك مثل الفينيقيين لكنهم كانوا رعايا مشاكسين، فيما كانت المدن - الدول الفينيقية تسير مع الفرس وتكسب رعايتهم. وقد أعطيت ثلاث من هذه المدن - لرواد وصور وصيدا (صيدون) إمبراطوريات محلية صغيرة عاصمة بها. لم يكن ثمة ما يثري الفينيقيين بمصالح الفرس، ومن ثم ظم يمكن ثمة ما يثري الفرس من أن تتدخل المدن - الدول الفينيقية الاستعمارية في شؤون سورية. ولم يحاول الفرس أن يدخلوا الفينيقيين الذين في إمبراطوريتهم، كما لم للفينيقيين السوريين. على العكس من ذلك فإن الفرس عاقبوا حلفاء ضد الأعارقة مع قرطاجة لما وجمعت للمدن - الدول الفينيقية المستعمرة، نحو نهاية القرن السادس قبل

الميلاد، جبهتها تحت قيادة قرطاجة. وقد كانت المساعدة اليهودية البهائية حليلة طبيعية للفرس، ذلك بأن هؤلاء اليهود القديسين لم يسمحوا لليهود لأنهم أجلبهم عن بلادهم. ومن ثم فقد كانوا أقلية محلية محبة للفرس، وبهذا كانت لهم قيمة بالنسبة للفرس في بابل حيث لم تكن الغالبية الوطنية من السكان تتقبل الفرس، على رغم أن قورش الثاني قام بعمل ليقبّلهم جدا يشير إلى أنه كان ينوي أن يحترم كبرياء البابليين لما أعاد بهد البعل. ولد مسيح قورش الثاني لأي عدد من اليهود المبعوثين الراغبين في العودة إلى أرض المملكة المجرية [في فلسطين] أن يخلطوا ذلك، وأن يهدوا بناء الهيكل في القدس. وقد حفر على مرسوم قورش الثاني في سجلات [كفتا] (همدان)، وقد أكد هذا الأول. وسمح إمبراطور سبوس الأول (سنة ٤٤٥ ق.م.) أو إركسرسيس الثاني (سنة ٣٨٤ ق.م.) لكبير خدمه بحيا أن يقبض عن سوره، عاصمة الإمبراطورية الفارسية، وكذلك بإعادة تحصين مدينة القدس. وعيّن هذا الأول وإركسرسيس كلاهما جزءا من الضريبة الإمبراطورية لليهود، وأعطاهم اللواتي البتاليه لتطبيق الممارس العامة في القدس، وهي الممارس التي كانت قد سمح بها.

أفاد الآراميون من الإمبراطورية الفارسية على نحو ما أفاد عنها اليهود والفينيقيون. فانتشار الكتابة الآرامية واللغة الآرامية التي كان قد بدأ في أيام الحكم الآشوري، صار يغطي أوسع في ظل الحكم الفارسي. بقي سوربة كانت اللغة الكتابية تحمل محلها اللغة الآرامية تدريجيا. وقد استمرت اللغة الكتابية في سوربة كلغة للطقوس الدينية فقط، بينما عاشت كلغة للحياة اليومية في عالم المستعمرات الفينيقية في جنوب البحر المتوسط الغربي. وفي الشرق استمر انتشار اللغة الآرامية جنبا إلى جنب مع الانتباه الآرامية. وكانت هذه كتابة ابرر استعمالا من الكتابة السامرية. وقد انتشر الفرس لأنفسهم كتابة البهائية مكونة من حروف مختارة من المجموعة السومرية الأكادية، على نحو ما فعل فينيقيو لوجزيت قبل ذلك بمسحة قرون أو شتى من الزمان. وقد نقش دنا الأول أخبار أصله على صخر بهتون الثلاثي اللغة مستعملا نسخة فارسية بالألفباء الفارسية السامرية، جنبا إلى جنب مع نسختين بالعمالية والأكادية، مستعملا الصور السومرية القبيحة التقليدية. وعلى كل فإن الكتابة الفارسية السامرية كان حفظها مثل خط الكتابة الأوغاريتية. فقد جاتها الخط في أن تحفظ بنفسها أمام ألفباء مستخرجة من كتابة كانت شائعة في فينيقية في زمن مبكر من الألف الأول قبل الميلاد، ومؤلفة من حروف أبسط

وأوضح وبحو سنة ٢٣٠ ق.م. كانت أكثر الأوراق الرسمية الخاصة بالامبراطورية الفارسية تكتب باللغة والكتابة الآرامية؛ إلا أنه من المحتمل أن هذه الوثائق كانت تقرأ بالفارسية - مجموعة الحروف المكونة للكلمة آرامية كانت تقرأ كما لو أنها كانت كلمة آرامية تعادل كلمة فارسية.

ومن ثم فإن شعوب سلوية الرئيسة كانت واضحة بأن تكون رعايا فارس باستثناء الميديون، فأقارب الفرس، الذين أطلقوا عليهم كانوا أقل معاداة إذ ثاروا سنة ٥٢٢ ق.م. لقد تذكروا أنهم هم أنفسهم كانوا من قبل شعبا إمبراطوريا، وأن الفرس كانوا خاضعين لهم. وعلى كل حال فإن الفرس أعادوا الميديين إلى الحضيرة على أنهم شركاء في إمبراطورية ميديّة - فارسيّة، وهي التي كانت توسع وأعظم من الامبراطورية الميديّة السابقة. ولعلّ العيلاميين كانوا يشعرون بالفرح لأن عاصمتهم الوطنية سوسة، ارتفعت درجاتها إلى مستوى عاصمة إمبراطورية. والشعوب الشمالية الشرقية الناطقة باللغة الإيرانية ظهرت ولاها للامبراطورية الفارسية إذ استمر أفرادها ثلاث سنوات في مقاومة الأغارقة المقدونيين الذين احتلوا الإمبراطورية الفارسية. والبدو السكثيون الشرقيون (الساكاذو والهنس المراس) الذين كانوا قد قاوموا غورشي الثاني، يبدو وكأنهم أصبحوا مولين للإمبراطورية الفارسية بعد ما أنضمهم دارا الأول. ففي حملة اكسر كسبس إلى بلاد الإغريق في أوروبا سنة ٤٨٠ ق.م. أعطى هؤلاء مراكز شقة وفي ٣٣٠ - ٣٢٨ ق.م. أعانوا جيرانهم المظفرين في مقاومتهم للإسكندر الكبير.

كان ثمة ثلاثة شعوب لم تنقبل الحكم الفارسي وهي البابليون والمصريون والأغارقة الآشوريون. فالبابليون ثاروا لا مرة واحدة بل مرتين في سنة ٥٢٢ ق.م. ثم ثاروا مرة أخرى في سنة ٤٨٤ ق.م. لكن في هذه المرة أخضع الفرس الثورة بشكل حاسم، بحيث أن البابليين منذ ذلك الحين، لزموا حدهم إلى أن حروهم الإسكندر. فالفرس لم يكونوا في وضع يسمح لهم بأن يتفقت البابليون من قبضتهم. فقد كانت بابل أمراء ودار حضاة للإمبراطورية الفارسية، وإلى ذلك كانت العقدة الرئيسة لشبكة المواصلات البرية الداخلية للإمبراطورية. وفي الجهة الثانية فإن احتلال مصر كان، بالنسبة للإمبراطورية الفارسية أمرا فيه إسرائف، كما كان لسابقتها الإمبراطورية الآشورية؛ فقد كانت مصر حتى أبعد عن فارس منها عن آشور؛ وفي حال الثورة ضد سيد آسيوي قاري كانت مصر تعتمد على الحصول على الحن من الأغارقة بحرا. ومع أن مصر ظلت هادئة سنة

٥٢٢ ق.م. فانها ثلثت قبل نهاية حكم دارا الأول، وقد استقلت بين سنتي ٤٦٤ و ٤٥٥ ق.م. وللأسرة الثانية من سنة ٤٠٤ أو ٣٩٥ إلى ٣٤٣ ق.م. وأعيد احتلال مصر من قبل الفرس قبل القضاء على الإمبراطورية الفارسية بنحو اثني عشرة سنة.

وحتى لو أن جميع وعاما الإمبراطورية الفارسية كانوا موالين مثل الفينيقيين واليهود، فإن مجرد حجم الإمبراطورية كان يجعل الاتصالات قضية مزعجة لحكومة الإمبراطورية. وقد حسنت الاتصالات البرية ببناء طرق رئيسة وتنظيم تديلات من الخيل لرجال البريد الرسمي، لكن دارا الأول رأى أنه من الضروري أن يربط أطراف إمبراطوريته بالطرق المائية. ولذلك فقد أرسل بحارا من كارياء، هو سكيلاكس، بدئا من أنفسهم ولاية في شرق الإمبراطورية إلى أقرب طريق مائي صالح للملاحة في حوض نهر السند، ومعه التعليمات بأن يبحر إلى الشاطئ المصري على البحر الأحمر عبر نهر السند والمحيط الهندي. ولما أتم سكيلاكس مهمته ضم دارا الأول حوض السند إلى إمبراطوريته. واما بعد هذا، أو استباقا له، أتم حفر القناة التي كان الفرعون نخب الثاني قد بدأها، وذلك من أقصى فرع النيل في الدقا شرقا إلى رأس خليج السويس. وجرب أكسرركسيس أن يكرر عمل نخب الثاني الكبير وهو القديون حول إفريقية. ولكن فرقة أكسرركسيس البحرية التي لم تبدأ من البحر الأحمر، بل من البحر المتوسط، عادت أدراجها. والتفكير البحري الذي كان عند دارا الأول وأكسرركسيس لم يره خلفاؤها.

كان عمر الإمبراطورية الفارسية الأولى قصيرا، لكن سياستها في التسامح الديني كان لها أثر دائم. وقد أخذت هذه السياسة الاتجاه نحو التوفيق بين العقائد الدينية المختلفة، وهو الاتجاه الذي بعث الآشوريون والبابليون في سياسة إجلاء السكان. كان باستطاعة فاتح ما أن يجلي « المؤسسات » البشرية من البلد المقترح، لكنه لا يمكنه أن يجلي أكنسته. فالفلاحون من أبناء البلد الذين يظلون فيه، يمشرون في عبادتها، ويترتب على الأجانب القادمين أن يحسبوا حساب هذه الآلهة. قيادة يهوه في بيت إيل، للعبد الفيني الرئيس في المملكة الشمالية [في فلسطين] التي قضى عليها، حمل شرقا إلى بابل وجنوبا إلى جزيرة الفيلة (إلفنتين)، الحصن الحدودي على مهبط الشلال الأول على النيل، حيث كان الإلهان إيشم بيت إيل وعنت بيت إيل يعبدان في القرن الخامس قبل الميلاد. جبا إلى جيب مع يهوه، من قبل حامية يهودية كانت في خدمة الفرس. وأفراد الحامية كانوا قد جنّدوا من أحفاد اليهود الذين كانوا قد هربوا إلى مصر تجنبا لاجلاتهم إلى بابل على يد نبوخذنصر.

وكانت الجماعة اليهودية في جزيرة النيلة على اتصال ودي مع سبلاط رئيس منطقة السامرة، التي كانت تضم القدس أثناء الحكم الفارسي قبل بعثة نحميا. وكان سبلاط من أحفاد شمعون أنجلي إلى بابل، إذا نحن حكمنا عليه باسمه (سبلاط)؛ لكن إذا حكمنا عليه باسمي ولديه (دلاية وشمالاية)، فقد كان الأب وابناه من عباد يهو، ولم يَكُونوا من عبدة القصر. (إن السامريين اليوم هم بالضيعة موحدون وعباد يهو، الذين لا يقرّون أية كتابة دينية بعد التوراة على أنها مقدسة، ولا يعترفون بأية رواية دينية غير مدونة). وعلى كل حال سبلاط تخاضع مع نحميا لما وصل هذا المشكل للجماعة اليهودية البابلية إلى القدس في سنة أوصلها الإمبراطور الفارسي

كان الفرس يظنون إلى عباد يهو في بابل وجزيرة العيلة والسامرة نظرة معاهدة. لكن في أيام نحميا وأيام عزرا، كان اليهود البابليون قد طوروا برنامجاً دينياً مبني على التفرقة المنصرمة، دينياً واجتماعياً، عن باقي الجماعات، وقد نجحوا في فرض مناهجهم هذا، على أهل الأرض، (أي المفلحين الذين لم يهجرُوا عن البلاد). لقد ثلثي التفاصيل السكاني والديني بالزواج المختلط. وخصوصاً بين الأسر الرئيسية، التي كان مجال علاقاتها الاجتماعية أوسع من مدى علاقات الفلاحين. وكان للزواج المختلط أثر إنساني في إزالة الحواجز الاجتماعية بين الجماعات، بعد ما دفعت هذه استقلالها ثمناً للعداوة التقليدية، واحتلتها نحو الأخرى. وقد منع نحميا وعزرا الزواج المختلط وفرض الحرمان الديني على أعضاء الجماعة اليهود في أرض المملكة الجنوبية بسبب أنهم اقترفوا ما اعتبرته الجماعة اليهودية البابلية جرماً لا يُغتفر.

في أيام نحميا وعزرا كان أحفاد المجلين في بابل قد حافظوا على هويتهم الاجتماعية لمدة لا تقل عن ١٥٠ سنة، أو لمدة ٢٠٠ سنة فيما إذا كان رأيهم لرتاكرسيس كان الثاني لا الأول من إباطرة الفرس الأخمينيين الذي تسمى بهذا الاسم. لقد كان مثل هذا الصبر هذا؛ فقد كانت هذه المجموعة من المجلين التي نجحت في أن تسير في عكس التيار القائم في المشرق والذي كان يتجه بقوة نحو تجاوز القبيلة التقليدية والاعتراف بأخوة الإنسان. فقد قاوم اليهود المجلون في بابل هذا التيار بنجاح في ما بينهم، وتمكنوا من تسير وجهته في أرض المملكة الجنوبية السيقة أيضاً، ولكن ذلك كان ثمنه إحياء العداوة التقليدية بين يهود الجنوب [من فلسطين] وجيرانهم - بما في ذلك أولئك الحيران الذين كانوا عباد يهو على شاكلة يهود الجنوب يهود بابل.

كيف تمكن يهود بابل من الحفاظ على هويتهم الجماعية في الظروف الماكسة لذلك في المنفى؟ لقد توصلوا إلى هذا الإنجاز الفريد بإيجاد مؤسسة قديمة هي الكنيس. لقد جعل الملك حوريا ركتا من أركان الإيمان اليهودي أن عبادة يهوه لا يجوز أن تتم شرعا في أي مكان آخر إلا في الهيكل في القدس. وتدمير الهيكل وإجلاء « المؤسسة » اليهودية إلى بابل جرّدا الكهنة الروائيين من دورهم، إلى أن يعاد بناء الهيكل وتداشن العبادة به من جديد. وقد كان الكنيس « المؤسسة » الجديدة التي ملأت الفراغ، ولولا هذه المؤسسة الجديدة لكان أحفاد المجلدين من الجنوب [جنوب فلسطين] إلى بابل، والبالغ عددهم ٤,٦٠٠، قد فقدوا هويتهم الجماعية نهائيا، على نحو ما أصاب المجلدين إلى يديا من الشمال [شمال فلسطين] والبالغ عددهم ٢٧,٢٩٠. فقد كان « الكنيس » اجتماعا أسبوعيا - انتهى به الأمر إلى الاجتماع في مكان دائم - حيث كان ما يملكه المجلدون بما يمكن نقله (كتب الشريعة - التوراة - وكتب الأنبياء) يقرأ ويبحث فيه. فتجديد حزقيا وحوزيا كان ثوريا قبل الإجلاء، أصبح الأمر الشرعي بعد تلك الحادثة. وأصبحت التوراة الآن تتبع بهذافيرها، وأكرم الأنبياء بعد مماتهم، وذلك على أيدي المجلدين وأحفادهم. وهذه الوصفة الملكية للحفاظ على الهوية الجماعية للفتنة اليهودية في بابل، والتي أنت أكلها في بابل، فرضت الآن على الجماعة اليهودية في جنوب فلسطين بموافقة الحكومة الإمبراطورية الفارسية.

وإذ مكنت الحكومة الإمبراطورية الفارسية لنحميا وعزرا القيام بهذا العمل الخامس، فإنها كانت، من غير قصد، تشجع عكس سياسة التسامح العامة التي كانت لها. وهذه الموافقة الاستثنائية لحرق واحد من أهم قوانين الحكومة الفارسية الخاصة بها، كان عملا سلبيا من أعمال الدولة. ومن سخرية القدر أن هذا العمل السلبى كان مدفوعا بعواقب هامة أكبر من أي عمل بناء كانت الحكومة الفارسية قد التزمت به.

٢٧- المجابهة بين الإمبراطورية الفارسية الأولى والعالم الهليني

إن المؤسسة الجديدة - الفارسية في الإمبراطورية الفارسية الأولى، والمواطنة المعاصرة لها في المدن - الدول الإغريقية، كان لكل منهما نظام سياسي مفرد به، والفئة كانت ثقيلة العبء لأنها كانت تكريماً طوعاً ناعياً من الداخل. فالولاء السياسي الميدي والفارسي كان يتركز في شخص الإمبراطور الأخميني؛ والولاء الإغريقي كان يتركز حول نهرمد مقدس، هو المدن - الدول ذات السيادة ولما اصطدم هذان الولايان واحدهما بالآخر أصبح التعاضل السلمي الدائم بين الفريقين أمراً لا يمكن تحقيقه - فكان لا بدّ لواحد من الفريقين في نهاية الأمر، من القضاء على الآخر واحتلال مكانه. ولما ثار رعايا الإمبراطورية الفارسية من الأغارقة الآسيويين في سنة ٤٩٩ ق.م. وتلقوا العون العسكري من دولتين إغريقيتين أوروبيتين، أثينا وقرنت، بدا وكأن الإمبراطورية الفارسية أصبح من المتوقع عليها أن تحتل العالم الهليني بكامله وتلحقه بامتلاكها. ولقد كانت الإمبراطورية الفارسية أوسع بناءً سياسياً أقيم، وكان سكانها أكبر من سكان أي من سابقتها. وكان يحصرها من الأغارقة مؤرخين بين مئات من المدن - الدول ذات السيادة، وكان كثير من هذه في حالة حرب دائمة، واحتلتها مع الأخرى. وخلال فترة المواجهة الفارسية الإغريقية كان هناك فقط مدنتان قصيرتان - سثنان (٤٨٠ - ٤٧٩)، وثمانى سنوات (٣٣٧ - ٣٣٠) أقامت فيهما بعض الدول الإغريقية جبهة موحدة ضد الإمبراطورية الفارسية. وفي الأولى من هاتين للنسبتين، صدّ الأغارقة حملة فارسية قوية على بلاد اليونان الأوروبية؛ وفي الثانية هاجم الأغارقة أنفسهم الإمبراطورية الفارسية واحتلوا. وخلال العسكرة الطويلة بين هاتين المدنتين من التعاون السياسي الإغريقي، نالت الإمبراطورية الفارسية الأولى، بسبب الخلاف السياسي الإغريقي، مهلة، ومن ثم أتت لها الوقت الكافي لأن تتيج ثلثاً خالدة على المستويين الديني والثقافي.

نحو سنة ٥٤٦ ق.م. اذ كانت المدن - الدول الإغريقية الآسيوية القارئة قد خضعت لأول مرة لفارس، كانت كلها، باستثناء ملتيوس، قد خضعت من قبل للبداء، وهي التي كانت فارس قد ضمتها إليها. وعلى كل فقد كن الليديون جيران الأعارة المعروفين لديهم، وكانوا قد تقبلوا قيسا من المدينة الهلنية. وفي الجهة الثانية كان الفرس، بظفر الأعارة، أجناب غريين. والتوسع التجاري في الداخل، الذي نعم به الأعارة الآسيويون، بسبب دمجه في الإمبراطورية الفارسية، لم يحملهم على تفنل النهر في أسياهم الساسين.

لقد احتاج الفرس إلى ست سنوات (٤٩٩ - ٤٩٤ ق.م.) لإعتماد ثورة الأعارة الآسيويين، وهذه علمت الفرس درسا بأنهم لم يكونوا قد خسروا بعد حدود ثابتة في الجهة الشمالية الغربية. فحوض البحر الأيحي كان بحيرة إغريقية؛ وما كان للفرس أن يحتفظوا بشاطئه الشرقي ما لم يحتلوا شاطئه الغربي أيضاً، ومعنى هذا التزامهم بضم ما تبقى من العالم الهلني. لقد أشرنا من قبل إلى أنه قبل قيام الرعايا الأعارة الآسيويين بالثورة ضد دارا الأول في سنة ٤٩٩ ق.م. كان هذا قد أقام رأس جسر أوروي بين مجرى الدانوب الأدنى وجبل أولمبوس. وقد كان هذا يحتوي على مملكة إغريقية واحدة، هي مقدونية، إضافة إلى المراكز التجارية الاستعمارية الإغريقية الواقعة على السواحل الأوروية بين دلتا الدانوب وجبل أولمبوس. وقد كان رأس الجسر هذا أكبر خطراً على بقية الأعارة الأورويين مما كان على السكيثيين. وكان دارا قد أرسل أيضاً فرقة بحرية لاستكشاف الجزء الاستعماري من العالم الهلني الواقع إلى الغرب من مضيق اوترانتو.

في سنة ٤٩٠ ق.م. أرسل دارا حملة تأديبية بحراً لمعابة لوترها وأثينا. وقد غلب الأرثيون على أمرهم وأجلوا عن بلادهم، لكن الأثينيين تمكثوا وقها متفردين من صد الفرس. وفي سني ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م. قام ابن دارا الأول وخليفته، إكسركسيس، بحملة برية ضد الأعارة الأورويين، أتيا نحوهم من الشمال. وكانت تقريباً كل المدن - الدول الإغريقية الأوروية الواقعة إلى الشرق من مضيق أوترانتو، باستثناء أثينا وإسبارطة مع حلفاء إسبارطة، قد اعترفت بسلطان الإمبراطور الفارسي. وأرعوس، التي كانت صاندة لإسبارطة والتي كانت إسبارطة قد كسرتها، الأمر الذي ترك مرارة في نفسها، وقفت على الحيلاد. في سنة ٤٨٠ ق.م. احتلت أثينا ونهبت. إلا أن السكان كانوا قد أهدوا، كما أن أساطيل المدن - الدول لإغريقية الحاربة ظلت سليمة. وفي سنة

٤٨٠ ق م دبت هذه معركة فاصلة ضد الأرمادا الفارسية في سلاميس، وهذه نلانا انتصار إغريقي حاسم مثل ذلك في معركة برية في ملاتيا في بيوتيا، ثم تلا ذلك انتصار إغريقي بحري على مقربة من ميكللي، على الشاطئ الغربي لآسية الصغرى. عندها نار الأغارقة الآسيويون ثانية، وخسرت الإمبراطورية الفارسية املاكها الأوروبية، بما في ذلك مملكة مقدونية الإغريقية. ولما تم الصلح نهائيا بين أثينا والإمبراطورية الفارسية سنة ٤٤٩ ق.م، كانت فارس قد فشلت في استعادة الأغارقة الآسيويين الفارين، كما كانت أثينا قد فشلت في انتزاع قبرص ومصر من الإمبراطورية الفارسية. وعلى كل فقد تمكنت فارس من فرض سلطتها ثانية (سنة ٣٨٦ ق.م) على الأغارقة الآسيويين الفارين، وذلك بالعواطف مع إسارطة. وفي ذلك الوقت عاد الأغارقة الأوروبيون إلى الحروب الداخلية المألوفة بما يمرر الأمور لفارس.

لقد عصى الأغارقة عن العرس الذي مز بهم في سنتي ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م. ففي هاتين السنتين تمكنت أقلية من الأغارقة من الأقلية التي لم تخضع بعد من كسر الإمبراطورية الفارسية بسبب وقوفها مجمعة. وفي سنة ٤٨٠ ق.م. نجحت كذلك أقلية من الأغارقة المستعمرين الغربيين التحدث سوقنا في كسر الإمبراطورية القرطاجية. وقد كانت هاتان الإمبراطوريتان مصدر خطر لاستقلال الدول الإغريقية وذلك بسبب التوحيد السياسي الذي تم في كل منهما على مقياس واسع، وقد انتصر الأغارقة على كل منهما لأنهم اتحدوا اتحادا جزئيا في آخر لحظة. وكان على الأغارقة أن يمتدوا بالحقبة الواضحة وهي، أنه في السياسة، الاتحاد قوة. كان عليهم أن يجعلوا اتحادهم السياسي شيئا دائما وبانهيلينا. كان العالم الهليني قد أصبح وحدة اقتصادية وذلك نتيجة للثورة التجارية والصناعية في القرن السابع قبل الميلاد. ولا سبيل لتعايش الوحدة الاقتصادية والتفرقة السياسية مدة طويلة دون نكبة ومع ذلك فلم يكبد الخطر الآتي من فارس ومن قرطاجة أن ينتهي أمره، حتى تخاصم الأغارقة ثانية. فالإمارة الإغريقية الصقلية التي تركزت مد نحو سنة ٤٨٤ ق.م. حول سيراكيوز والتي، بتحالفها مع أكراغاس، تغلبت على قرطاجة سنة ٤٨٠ ق.م. آلت إلى التمزق سنة ٤٦٦ ق.م. وفي الوقت ذاته فإن الحلف الإغريقي الأوروبي الفلوري، الذي تمكن في ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م. من التغلب على فارس، انقسم، في سنة ٤٧٨ ق.م. إلى عصبتين متنافستين، الواحدة قديمة مؤلفة من إسارطة

وحلفائها البلوبونيزيون، والأخرى حديثة: حلف ديلوس المؤلف من أثينا والمدن - الدول الإغريقية التي كانت قد حررت من الحكم الفارسي.

في سنة ٤٥٩ ق.م. دخلت أثينا في حرب ضد حلفاء إسبارطة في بلاد اليونان، وبكابتة لا تزال في حرب مع فارس. وقد كانت أثينا قد التزمت التزاماً أقوى وبكثير من المفارقة - سنة ٤٦٠ ق.م. - في نزاعها الداخلي مع فارس إذ أرسلت أسطولاً لنصرة مصر في ثورتها ضد فارس. وفي سنة ٤٥٤ ق.م. دمّرت الحملة الأثينية بعد أن خضع الثوار المصريون لحملة فارسية مضادة. وكانت أثينا خلال ذلك، قد فرضت سلطتها (سنة ٤٥٧ ق.م.) على كل الدول في أواسط بلاد اليونان في أوروبا باستثناء طيبة. وفي سنة ٤٤٧ ق.م. فقدت أثينا سيطرتها عليها. لقد حتل الأثينيون أنفسهم ما لا طائفة به، وبعد ما تصالحوا مع فارس سنة ٤٤٩ ق.م. كان عليهم أن يعقدوا صلحاً مع إسبارطة وحلفائها وذلك سنة ٤٤٥ ق.م.

بعد سنة ٤٧٨ ق.م. قام الأثينيون بتطوير حلف ديلوس إلى إمبراطورية أثينية. وعاشت هذه الإمبراطورية أربعين سنة بعد ٤٤٥ ق.م. وهي سنة عقد الصلح مع إسبارطة. وقد كانت صورة مكبرة لإمبراطورية إسبارطة التي كانت تشغل الحسنيين الجنوبيين من البلوبونيز. وقد كان أثينا حينها هم سكان المدن - الدول الإغريقية التابعة لهم والتي كانت تجمع منها الضرائب. في سنة ٤٦١ ق.م. كان المواطنون الأثينيون كجماعة قد منحوا أنفسهم ديمتورا كانت فيه العناصر الديمقراطية بارزة على نحو ما كان للأسبارطيين. وأصبحت الديمقراطية الأثينية الآن تمشي، على نحو ما كان يحدث في الديمقراطية الأسبارطية، على الضرائب التي يدفعها الرعايا الإغريق، والذين كانوا أكبر عدداً بكثير من الأقلية السيدة. ومع أن أثينا كان لها مجموعة مواطنين أكبر عدداً من أية مدينة - دولة إغريقية معاصرة لها، فإن معاملتي الصلح (٤٤٩ - ٤٤٥ ق.م.) أظهرنا نقطة الضعف في أثينا وهي التباين بين قوتها البشرية ومطامعها. ومع ذلك فإن الأثينيين صوتوا (سنة ٤٥١ ق.م.) في الواقع على تقليص عدد المواطنين الذين يحق لهم الانتخاب وذلك بإسقاط هذا الحق عن كل مواطن يكون أحد أبويه غير مولود في أثينا. وهذا القرار الذي يشبه أعمال عزاء طيق سنة ٤٤٥ / ٤ ق.م. - والقرلو كان إيداناً باستثناء الإمبراطورية الأثينية. وقد كان القرلو معاكساً لأعمال صولون السياسية الباعثة. فان

مبولود وشع (سنة ٥٩٠ ق.م). نطق المواطنون الأثينية إذ أنه أعاد المدينى الأثينيين الذين عجزوا عن وفاة ديونسيوس، ومن ثم يعموا عيلا خارج البلاد، كما أنه، على ما أشرنا إليه من قبل، منح المواطنة الأثينية للصناع الأجانب الذين هاجروا الى أثينا.

في سنة ٤٣١ ق.م. جرت أثينا واسبرطة الى حرب ثانية في ما بينهما، وهي التي كانت ذات عواقب وعظمة لكليهما. فقد انتهى امر الإمبراطورية الأثينية سنة ٤٠٥ ق.م. وقامت سكانها إمبراطورية إسبارطية وقضى عليها هي الاخرى سنة ٣٧١ ق.م. وبين ٣٥٩ و ٣٣٨ ق.م. وقعت كل المدن - الدول الإغريقية في المقارة الأوربية، باستثناء إسبارطة، تدريجيا تحت حكم جارهم في الشمال، الملك فيليب الثاني المقدوني، وأجبرت، في النهاية، ان تنضم كلها الى عصبة جديدة هي التي اتخذت من كورنث عاصمة لها، وكان فيليب رئيسها. وعصبة كورنث كان بين الأعمال المدعوة إليها مهاجمة الإمبراطورية الفارسية بقوتها المتحدة. وقد كان ثمة فكة طليعية من الجيش قد وصلت آسية لما اغتيل فيليب (سنة ٣٣٦ ق.م). وهو بعد في زهوة عمره وقد بلغ لقمة في حياته. في سنة ٣٣٤ ق.م. اجتاز الاسكندر ابن فيليب مضيق الدردنيل! وفي سنة ٣٣٠ ق.م. كان قد قضى على الإمبراطورية الفارسية! وتوفي سنة ٣٢٢ ق.م.

لقد كان المقدونيون أغارقة، لكنهم لم يصبحوا هيلينيين - أي أنهم لم يكونوا مواطنين في المدن - الدول، ومن ثم ظلموا غرباء بالنسبة الى أسلوب الحياة الذي عرفته المدينة - الدولة. لقد كان أثر نظام المدينة - الدولة وعقليتها على مستوى العلاقات الدولية مدعاة للفرس، وهذا هو الذي أتاح لفيليب الثاني الفرصة. فالفشل المستمر الذي سبب به المدن - الدول دوليا (أثينا واسبارطة وطيبة) تمهيدته عبقرية فيليب الشخصية فنالت مقدونية بذلك حظها. وعلى كل فإن أسلوب الحياة في المدينة - الدولة، على رغم تفرقها دوليا ونحزباتها داخلها، كان لها دافع حضاري مؤثر، وهو موضوع الفصل التالي. إن الأعرافة المقدونيين لم يهتموا لهذا التأثير الحضاري؛ فقد كانوا، في حياتهم الخاصة، لا يحضرون للنظام، ومن ثم فانهم لم يتقبلوا لتسلم القيادة التي فرضت عليهم بسبب الإمداد السياسي الذي متي به جيوشهم أغارقة الجنوب.

كان فيليب الثاني، مثل مواطنيه المقدونيين، لا يخضع لنظام في حياته الخاصة، إلا أن فيليب لم يكن، في حياته العلنية، مقدونيا تماما. لقد كان صيورا داهية مثل ثيرستركليس، وهو الأثيني الذي أنقذ بلاد اليونان في سنتي ٤٨٠-٤٧٩ ق.م. ومثل

الفرعون بسامتيخوس الأول الذي نُخرج الآشوريين من مصر بالتحابل. ولو أنه أتبع
لفيليب أو ابنه الاسكتندر أن يحقروا طويلا كما عثر بسامتيخوس، فإن تاريخ العالم
الهليني التالي، أو حتى تاريخ الأويكومين بكامله، كان يمكن أن يكون أقل تعاسة.

٢٨- الانجازات الحضارية للمفنية الهلينية ٤٧٨- ٣٢٨ ق.م.

في الفترة الواقعة بين سنتي ٤٧٨ و ٣٢٨ ق.م. عبط العالم الهلني سياسيا إلى الحضض، كما أنه بلغ سنت حضارته، وثمة على الأقل ثلاثة أنبيين هم الذين كن لهم ضليع في نعرته السياسي، فضلا عن أنهم أضافوا الكثير إلى مجده الحضاري. وهؤلاء الثلاثة هم الكاتب التمثيلي سوفوكليس (٤٩٥- ٤٠٦ ق.م.) والسياسي بركليس (نحو ٤٩٠- ٤٢٩ ق.م.) والفيلسوف سقراط (٤٦٩- ٣٩٩ ق.م.).

إن اسم بركليس محترم بسبب ارتباطه بقيمة ما بلغته أثينا في فن البناء والفن المنطور الهلنيين. وقد نلخ في مواطنه الرغبة في تزيين الأكرودبوليس في أثينا بأعمال فنية رائعة في جمالياتها. بعد عقد الصليح مع فارس سنة ٤٤٩ ومع إسارطة سنة ٤٤٥ ق.م. وكان بركليس أيضا هو الذي حمل الأثينيين على تحويل هذه الأعمال - وبهذا التحويل، إنما شجعهم بركليس على عمل ذي مردود لأنفسهم - والتحويل كان عن طريق تحويل الجزية السنوية التي كانت تجمع من دحايا أثينا من الإغريق إلى هذا الغرض. لقد كان الهدف الأصلي من جمع الجزية هو الدفاع المشترك، لاثنتين أثينا. كانت المبالغ لجمع لدفع مرثبات البحارة الأثينيين. ولما وضمت حودة السلام حدا للمسلحات البحرية الأثينية، كان من الواجب أن تعاد الأموال إلى أصحابها، بدل أن تخصص للأثينيين أنفسهم لدفعها مغايل واجباتهم المدنية الحديثة كحجاريز وعثالين وبنائين. فالتعديل في هذا المال كان عملا به غشا، والمجال الوحيد الصحيح لإغناقه كان القوة الأثينية المسلحة.

إن كلا من سوفوكليس وسقراط أثار قضية الضمير في حال طلبت منها الدولة من مواطنيها ما القيام بعمل لا يمكن قبوله أخلاقيا. وقد أثار سوفوكليس هذه القضية في إحدى تمثيلياته؛ وأثارها سقراط بأن حمل الدولة على إصدار الحكم بالموت عليه إكراما لصميره. ويقال أنه سوفوكليس كوفىء على تمثيلياته بأنه أنتخبر ولحدا من الجبرالات الذين

عهد اليهم بالقضاء على محاولة قامت بها ساموس، حليمة أثينا، (٤٤٠ ق.م)
للحصول من البحر الأثيني ومن الغرباء هذه المهمة قبلها مؤلف لتيجور، وأشد من
ذلك غرامة هو أن يتطوع سقراط (سنة ٤٣٢ ق.م) في الحملة الأثينية التي أرسلت
مدد حليف آخر ثائر على أثينا هي بوتيديا. من الواضح أنه، في نظر كل من سقراط
وسقراطيس، كانت الدولة التي يتسب المواطنون اليها تخير إليها في نظره، ومن ثم فهي
أي نزاع مع الدول الأخرى كان يمتح على المواطنين المنقسمين لها أن يخدموها ، حقاً
باطلاً ، حتى ولو أنه، في مواقف أخرى قد يحسون بأن الضمير أولى أن يحسب
حسابه من الولاء.

عشية الحرب الأثينية البلوونسية الثانية، شقر الكورنثيون بأثينا على أنها مدينة
طافية . وقد روي أن سياساً أثينياً أخبر مواطنيه أن أثينا يجب أن لا تحجم عن ارتكاب
الفظائع إذا كانت ترغب في الحفاظ على إمبراطورتها. وبعد سقوط الإمبراطورية الأثينية
هدم خصومها المنتصرون أسوارها الطويلة ، التي كانت تفصل أثينا مع موانئها، والتي
جعلتها في مأمن من الهجوم البري. وقد رحب بهذا العمل في طول العالم الهليني
وعرضه، على أنه عمل تحرير. ومع ذلك فإن المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث - وهو الضابط
البحري الأثيني الذي كان منفياً واسمه ثوسيديس - يروي أن سياساً أثينياً آخر، هو
بركليس، يصف أثينا على أنها مصدر تهذيب حلاص . والوصفان، وكلاهما لأثينا في
القرن الخامس، لهما ما يبرهما.

إن أثينا القرن الخامس كانت، في حقيقة الأمر، حلاص الهلاص ، بمعنى أن أثينا
كانت قد قامت بمثل هذا الدور في العصر السابق للهندي وفي العصر الهندي من
التاريخ الهليني. وللمرة الثانية كان النشاط الحضاري للعالم الهليني قد تركز في هذه
النقطة الجغرافية الخاصة. فالنحات الأثيني فيدياس، الذي كان معاصراً لبركليس، كلف لا
يصنع تماثيل الإلهة أثينا ليهيكلها الجديد على الأكروبوليس في أثينا فقط، بل أيضاً يصنع
تماثيل لزمس في أوليمبيا. وقد كان هذا اعترافاً واعياً بالمكانة الحضارية المتارة لأثينا؛ ذلك
بأن أوليمبيا مع أنها كانت مركزاً دينياً بتيبولينا، كانت تقع داخل حدود الحلف
البلوونسي الذي كانت إمبراطرة على رأسه. وتجعل أوليمبيا احتفاء بصفة الفرس سنة
٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م. كان، إلى درجة ما، سابقة بلوونسية للتجميل المعاصر لأثينا.

وبالطبع لم يكن، حتى في القرن الخامس قبل الميلاد، ثمة احتكار حضاري أثيني

لأنجازات الحضارة الهلينية. فلم يكن البارثون في أثينا قد لقي ما يستلزمه في هيكل رمزي في أوليمبيا، بل إن الهياكل التي بنيت، حتى قبل ذلك في مصر نفسه، في الملوك - الدول الإغريقية الصقلية أكراماس وسليوس، فاقته اتساعاً وحجماً. وقد كان أبرز من كلف بنظم القصائد من قبل المتصرين (بما في ذلك بعض المتصرين الأثينيين) هو الشاعر بندلر من طيبة (نحو ٥٢٢ - ٤٤٢ ق.م). وإليها، المدينة الإغريقية في إيطاليا، كانت مركز الحركة الفلسفية الإغريقية الأحادية، التي كانت يمثلها بارمينيدس (نحو ٥١٥ - ٤٤٥ ق.م) وزينون (نحو ٤٩٠ - ٤٢٠ ق.م). والعودة إلى التعددية التي كانت مرتبطة بمقدمة الولادة الثانية القيساريونية كانت من صنع الفيلسوف - الطبيب - إبيدوقليس (نحو ٤٩٢ - ٤٣٢ ق.م). إبان الحرب الأثينية الهلنوبونسية الثانية (نحو ٤٣١ - ٤٠٤ ق.م) كان جماعة سمامم خصوصهم السفسطائيين قد اتخذوا من اللغة وسيلة للوصول إلى عجايب عقلية، خلقة كانت أو غير ذلك، وكانت تسميتهم بقصد بها النيل منهم. وقد كان أحد لوائل هؤلاء السفسطائيين هو جورجياس (نحو ٤٨٠ - ٣٩٥ ق.م) من ليونيني وهي مدينة - دولة إغريقية في صقلية. ولم يلبث السفسطائيون أن انتشروا في العالم اليوناني، وكثيرون منهم انتهى بهم المطاف إلى أثينا، لأن أثينا كانت، يومها، أقوى مدينة - دولة هيلينية. ومع ذلك لم يكن أي من مشاهير السفسطائيين من مواليد أثينا - اللهم إلا إذا قلنا بالتهمة التي ألصقتها أرسطوأناسي بقراط بقصد التشيع عليه.

إن الفضل الأول المميز لأثينا على الحضارة الهلينية في القرن الخامس قبل الميلاد جاء

في الفن التشيلي والفلسفة وزخرفة الأواني.

كانت الدراما الأثينية في القرن الخامس قبل الميلاد، التراجيدي منها والكوميدي على حد سواء، تختلف عن شعر اللوحة الهوميرية والشعر للأساوي والمناثي اللاحق بالعصر الهوميري، في أن الأول كان طقساً دينياً، إلا أنه، على عكس الشعر الهوميري، كان شخصياً وفردياً على نحو ما كان عليه الشعر للأساوي والمناثي. وقد كان هذا تنجاساً، فيه كثير من الغرابة، باعتبار أن الطقس الأصلي فيه كان فيه جنس فاضح ونشوة، وأنه لم يتخلص قط من جذوره. ولم يكن القصد الأصلي من هذا الطقس للتخلل إثارة الجنس؛ لقد رسم أصلاً من أجل إثارة الإحساس في الكائنات الحية وفي النباتات والحيوانات المدججة، عن طريق السحر التعاطفي. وعلى كل فقد كان ثمة نتائج أخرى لذلك الطقس

الذي هو التهلكة المنسوب إلى باخوس الذي عرفه العالم الهليني، والعبادة التهلكية للإلهة سبيل في آسية الصغرى، وانتشار الليثات والرقص الديني، وهوج جماعة الأبياء الذين أثلروا في الملك شاوول في سورية في القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

فالدراميون الأثينيون قد قاموا بعمل أكبر من المؤلف لما استطاعوا أن يتزعموا من هذه المادة الدينية البدائية، التي لم تكن توحى بالكثير، ولما عرضت فيها مشاكل الحياة البشرية ومواقفها في تفاعل كان يقوم به كورس وفريق من الممثلين كانت أدوارهم على المسرح فردية كما كان يمثلها في الحياة العامة أنبياء فلسطين في القرن الثامن قبل الميلاد. وثمة أعمال أربعة من درامسي أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد - وهم كتاب التراجيديات أعيل (٥٢٥ - ٤٥٦ ق.م) وسوفوكليس (٤٩٥ - ٤٠٦ ق.م) وهوربيدس (٤٨٠ - ٤٠٦ ق.م) والكاتب الكوميدي لوستفانس (نحو ٤٤٩ - ٣٨٠ ق.م) - وهؤلاء تبدو في شعرهم الدرامي الأنحية والنعوج المبشري. لقد طوروا هذا النوع من الفن بحيث جعلوا منه وسيلة لشرح للمشاكل السياسية الجدلالية الآنية، ولسير الأغوار الروحية للطبيعة البشرية.

لم تكن أثينا القرن الخامس قبل الميلاد الموطن الأم للفلسفة الهلينية. لقد ولدت هذه في أيونيا في القرن السادس قبل الميلاد. لكن سقراط أعطى هذا النشاط العقلي انطلاقاً جديدة لما نقل، عامداً متعمداً مجال بحثه من الكون الطبيعي إلى الطبيعة البشرية. ولد كانت حياة سقراط وموقعه الموحين الرئيسيين لتلميذه أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) مع أن أفلاطون كان أيضاً من تلاميذ الفيلسوف الكروتوني (أصلاً من جزيرة ساموس) ثياغورس، وقد وجد أفلاطون في الدراسي السيراتوسي أيبخارموس نموذجاً لهيج المحاور الذي اتبعه في صياغة أصلاته الفلسفية. وقد كان الفضل الأكثر أصالة، والأكثر جدلية، لأفلاطون على الفكر الفلسفي الهليني، هو نظرية المعرفة، التي كانت، في الوقت ذاته، نظرية في بنية الكون. وقد جمع أفلاطون بين الثقة الفيثاغورية في النظرة الرياضية والينابريقيات وحدهش الشاعر من حيث حدود الفكر المنطقي وقدرة الشاعر على أن يخلق على أجنحة الأسطورة.

كان أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) الساجيري (مناجيوس كانت مدينة - دولة مسنمرة إغريقية صغيرة على ساحل خلقيديس) تلميذاً لأفلاطون وأصبح في ما بعد أحد نقاده. كان أرسطو مواطناً موقناً في أثينا، كما كان باستطاعته أن يشعر أنه من أهل

مقدونية، لما قبل دعوة من الملك فيليب ليكون، لبعض الوقت، مؤدبا لابن فيليب، الإسكندر. لم يكن لأرسطو لا شعرا ولا رياضيا؛ وإذا اخذنا بمستوى أفلاطون فقد كان أرسطو شحما عاديا، ولعله كان أولى به أن يظل على الأرض. ورغم ذلك كان أرسطو مفكرا جبارا من درجة أفلاطون؛ وفي حياته التي كانت تقصر من عمر أفلاطون بشائي عشرة سنة، تمكن أرسطو من القيام بحوث في المنطق ونظرية المعرفة والميتافيزيقا التي دخلت مجالات الفلسفة الهلنستية المتأخرة وسيطرت على الفكر الغربي المسيحي من القرن الثاني عشر إلى القرن السابع عشر للميلاد. وكان لأرسطو أيضا باحثا أصيلا في تقصيه الحقائق ومنظما ماهرا لما توصل اليه تلاميذه في حقول السياسة والعلوم الطبيعية. وفي السلسلة الذهبية للفلاسفة الهلنستيين يفوق لعان أسماء سقراط وأفلاطون وأرسطو أسلافهم، وعلمائهم، وألح الأسماء الثلاثة هو اسم سقراط.

لقد تمكن صانعو الفخار ومنزغفرو الآنية من أهل أثينا (في القرن الخامس قبل الميلاد) من المحافظة على السوق التي كانوا قد انتزعوها من غيرهم في القرن السادس قبل الميلاد أي من منافسهم الكورنثيون والأسياطيين، بما في ذلك السوق الأثرسكية المربحة. ولم يلق التفوق الأثيني في السوق الإيطالية أي تهديد حتى القرن الرابع قبل الميلاد، لما دهمها الانحاج الكبير الذي قام في أثينا وكان تقليدا للإسلوب الأثيني الرائج يومها. وكان الأقدس من صانعي الآنية يضعون اسماءهم على الأشياء التي يصنعونها، ومعنى هذا أن هذه المصنوعات كانت تعتبر أعمالا فنية من قبل صانعيها انفسهم ومن قبل عملائهم (زبائنهم). والآثار الباقية إلى الآن من تلك الآنية تفقد تفديراً كبيراً حتى اليوم. ومن الجهة الثانية يبدو ان معاصري صانعي الآنية الأثينيين كانوا أقل حساسية، من الناحية الجمالية، لما في هذا النوع من الفن الأثيني من جمال، على رغم أهمية الدور الاقتصادي العادي لها كصناعة للتصدير إذ كانت مربحة لأثينا في ميزان المدفوعات، أو لعل الأمر كان بسبب هذا الدور الاقتصادي.

٢٩- النتائج السياسية لقضاء الاسكندر على الامبراطورية

الفارسية الأولى

كان نيلب الثاني ملك مقدونية قد تمكن خلال الفترة من ٣٥٩ الى ٣٢٥ ق.م.، من وضع كل الدول الإغريقية الأوروبية الواقعة الى الشرق من مضيق اوترانتو تحت سلطته، باستثناء إبيروس وإسبارطة وبيزنطية. وخلال عشر سنوات، من ٣٢٤-٣٢٥ تمكن ابنه وخليفته الاسكندر من احتلال الامبراطورية الفارسية كلها، بما في ذلك كل البلاد التي كانت قد احتلتها في حوض الهند، دون ان يفقد الاشراف على البلاد التي ورثها عن ابيه. ولدت سنتين (٣٢٤-٣٢٣ ق.م.) كان الاسكندر يسيطر ببطء ثامة على كل هذه الجزء الأوسط من الأوكومين في العالم القديم. وفي سنة ٣٢٤ ق.م. أكد سلطته على بلاد اليونان لما أصبح أمره إلى المدن - الدول العاجلة لمسبة كورنث بالساح لمواطنيهم المنفيين بوجوب العودة. لقد كان الاسكندر يخطط لاحتلال ما تبقى من الأوكومين، بدءاً من بلاد العرب. (ولم يكن لا هو ولا أي من معاصريه يدري مدى الجزء المأهول من بر الكرة الأرضية). إلا أن الاسكندر توفي سنة ٣٢٣ ق.م. قبل أوانه وعلى عبر انتظار وفجأة، ومن ثم فإن إنجلترا السياسي الواقعي كان، مع شخصاته، سلباً. لقد عاش حتى تمكن من القضاء على الإمبراطورية الفارسية، إلا انه لم يعمر طويلاً بحيث يستطيع تأسيس الإمبراطورية العالمية التي كان يأمل فيها. لقد وسع رقعة العالم الهليني بأن ضم إليه أملاك الامبراطورية الفارسية مادياً. لكن، حين وافته، أصابت هذا العالم الهليني الموسع نكسة أعادته الى الفوضى التي كانت تعم العالم الهليني الأصغر،

السابق للإسكندر، والذي كان يعيشها قبل سنة ٣٢٨ ق.م.، وهي السنة التي أنشأ فيها فيليب الثاني القمصنة الكورنثية.

كان موت الإسكندر إيفاناً يبدء النزاع لتقطيع ملكه غير القابل للدوام. ندول جنوب بلاد اليونان، بما في ذلك إسبرطة، حملت السلاح حالاً ضد مقدونية. وقد أزعج الجميع، عدا فيثوليد، على التلطم سنة ٣٢٢ ق.م.، ولكن في سنة ٣٢١ ق.م. شرّ كبار القادة العسكريين في الجيش المقدوني حروباً واحدهم ضد الآخر. وقد استمرت حروب خلافة الأسكندر أربعين سنة (٣٢١ - ٢٨١ ق.م.)، والحصل السياسي الوجودي الذي قام به فيليب الثاني والإسكندر لم يلبث أن أصبح أثراً بعد عون. وقد أُلغى الوريثة المتنافسون على خصوماتهم من السلطك لذهبية التي كانت الحكومة الإمبراطورية الفارسية تنزعها من رعاياها وتكتفها لمدة قرنين من الزمان، لقد ألغى هذا الكثر في المنافسة على منح الجنود المقدونيين مكافآت تشجيعية سخيفة، وكان الجنود المقدونيون يحززون بمرتوفة أمارقة من غير المقدونيين نجح المتنافسون في استخدامهم. وقد وجدت مرتبات الجنود طريقها، بسرعة، إلى العالم الهليني الموسع، وغرتب على ذلك تضخم نقدي أصبحت، على أساسه، الأجور الحقيقية للعاملين المقدونيين في مراكز التجارة والصناعة الهلينية منخفضة.

إن الحروب التي قامت بين خلفاء الإسكندر كانت أقل وحشية من الحروب التي شنتها المدن - للدول الإغريقية واحداثها ضد الأخرى قبل أن يفرض عليها فيليب الثاني السلم في سنة ٣٣٨ ق.م.، لقد كان موطنو المدن - الدول المؤلفة يقتتلون في ما بينهم بحقد عميق. وقد كان خلفاء الإسكندر أيضاً يؤلفهم ورعاياهم - أو أنهم أنفسهم - إلا أنهم لم ينظروا إلى هذا التآليه نظرة جديدة، وعلى كل فقد كان النهب غايتهم الرئيسية. كانت المدن - الدول الهلينية، التي زالت عنها صفة السيادة في الواقع، هي المطلب في لعبة حرب الخلفاء، وكان عصب الحرب هو الجندي المحترف لا المال الذي كان يدفع للجنود. ومن ثم فبدلاً من قتل الجنود التابعين للخصم، كان المنتصر يدعوهم إلى تبديل الجهة (أي الانضمام إليه)، وبدلاً من نهب المدن كانت هذه د تحز ١١ الأمر الذي كان يعني انتزاع السيطرة على المدن من أحد أمراء الحرب، ولكن الأمر صيغ بلهجة ملطفة. بين سنة ٣٣٥ ق.م.، لا دمر الاسكندر طيبة وباع أهلها رقيقاً،

وسنة ٢٢٣ ق.م.، لما عامل اتتيغونوس دوسون، الرصني على مقدونية وحملهاؤه مدينة سنجبا بالقسموة ذاتها، لم تدمر مدينة إغريقية بأيمدي الإغريق. (في العترة ذاتها مهبت اكرعاس و مدن اعرقية أخرى غيرها واقعة الى الغرب من مضيق اوترانتو، ويبيع سكانها ريفقا، على أيد غير إغريقية).

ومع ذلك فإن حروب الخلقاء والحروب التي تكررت بين خلفاء الخلقاء بعد ذلك، وضعت العالم الهليني الواقع الى الشرق من مضيق اوترانتو في حال علهاء. وبالنسبة الى غالبية السكان في البلاد التي كانت من قبل تابعة للإمبراطورية الفارسية السابقة، كان الانتقال من الحكم الفارسي الى الحكم الإغريقي انتقالا الى الأسوأ. اذ الحكم الفارسي منح رعاياه فترة الرفاهة التي كانوا بحاجة اليها ليعود اليهم نشاطهم بعد ما كابدوا من آثار مصيبة العسكرية الأشورية. وعلى العكس من الإمبراطورية الأشورية كانت الإمبراطورية الفارسية قليلة الترابط، وفي أيامها الأخيرة كانت مفككة وكان يصورها النظام. كانت مصر قد انفصلت عنها، وكان الحكام الإقليميون قد ثاروا، وكانت القبائل الجبلية قد خرجت عن سيطرة الحكومة الامبراطورية. والثير الفارسي كان خفيفا إذا قورن بالنهر الإغريقي الذي حل الآن محله. في العام الهليني بعد الإسكندر، مثله قبل الاسكندر، كانت الحروب موزنة، لأنها كانت حروبا ليس فيها معارك قاصلة.

إن البلد الذي أصابه من الضرر أكثر من غيره بسبب الفتوحات المقدونية الواسعة كان مقدونية نفسها. إن الإسلوب الذي لجأ اليه فيليب الثاني في احتلاله لبلاد اليونان، والذي احتل به الإسكندر الامبراطورية الفارسية، كان تجريد المشاة من الفلاحين المقدونيين لذهبهم الفرسان من الأرستقراطية المقدونية. (اسشر. الفرسان في أن يكونوا الدراع الرئيس للجيش المقدوني؛ إلا أن هذا السلاح لم يكن أفراده من العدد بحيث يمكنهم ان ينجحوا في المعرعة، ويحتفظوا بها، دون تعاون الفريق الفلاحي). ولما هاجم الاسكندر الإمبراطورية الفارسية كان عليه أن يترك نصفه نصف الجيش المقدوني في اوروبا للحفاظ على الأغارقة الجنوبيين ولصد البرابرة الشماليين. وكانت مقدونية قد مضت معين الرجال فيها بحيث أنها لم تتمكن من تلبية طلبات الإسكندر المستمرة. وبعد ذلك كان كل من خلفاء الإسكندر يحتفظ على الأقل بفريق من الحرس من الجنود المقدونيين ليكونوا نواة للجيش الخاص الذي كان يحصل بواسطته على حصته من أسلاب البلاد من مملكة فيليب والإسكندر ويحافظ عليه. في ٢٨٠-٢٧٩ ق.م.، أي مباشرة بعد

انتهاء الحروب بين خلفاء الاسكندر، هاجم مهاجرون كلتيون من حوض الدانوب مقدونية، وقد جعلت هذه نفسها، بعد ما تخلصت من هؤلاء المهاجمين البرابرة، حاجزة على الحصول على القوى البشرية للقتال في جبهتين ضد البرابرة الشماليين الذي كانوا لا يزالون يتبعون طريق الحرب ضد الأغارقة الجنوبيين الذين تخلصوا من السيطرة المقدونية والذين كانوا الآن يقومون بالاعتداء عليها.

كان أشد خصوم مقدونية بين الأغارقة الجنوبيين الاتحاد البتولي. وكان هذا واحدا من المدن الاغريقية المثارة على مقدونية، ولم يستسلم لها في سنة ٣٢٢ ق.م. وفي نحو سنة ٣٠٠ ق.م. أنتم الأيتوليون سلطاتهم السياسي في دلفي، وهو العهد الباتهلبي الذي حافظ على أهميته التي كانت له قبل قيام الاسكندر. وقد تمكنت البتوليا، تدريجا، من ضم المناطق (الكثرتات) الواقعة شمالها وشرقها. ولما حلت سنة ٢٢٥ ق.م. كانت قد توسعت عبر بلاد اليونان القارية من الساحل الى الساحل، وفي سنة ٣٢٦ ق.م. وهي فترة قصيرة كان فيها توسعها على انشطه، تقدمت البتوليا حتى بلغت حدود مقدونية الجنوبية. وقد تصرف الأيتوليون سياسيا على النحو الذي عرف عن الرومان في ما بعد، لمنحوا المواطنة البتولية الى جميع الشعوب التي ضموها الى كيانهم السياسي.

أخذ الاتحاد الإحاثي بالتوسع في سنة ٢٥٦ ق.م. وذلك على امتداد الشاطئ الهلونييسي من خليج كورنث، لكن البلاد التي ضمه كانت أقل ترابطا من تلك التي كانت تابعة لأيتوليا، ولم تكن صنوا لأيتوليا من الناحية العسكرية. يضاف الى ذلك أن الاتحاد الإحاثي كان له منافس عنيد هو إسبارطة، وهي قوة بلوونسية قديمة وقد ظلت مستعصية ولو أن الطيبين كانوا قد انتزعوا بعض أراضها في سنة ٣٦٩ ق.م. كما اقتطع ليليب الثاني نيسا آخر منها في سنة ٣٢٨ ق.م.

كانت الدولتان الرئيسيتان اللتان خلفتا الإمبراطورية الفارسية هما اللتان انشأهما اثنان من قواد الاسكندر، بطليموس وسلوقس. وقد امتلك بطليموس مصر والنصف الجنوبي من سورية؛ وكانت حصنة سلوقس القسم الأكبر، الذي كان ينقص كثيرا عن الكل، مما تبنى من إرث الامبراطورية الفارسية الآسيوي. وفي شمال غرب آسيا الصغرى أقامت يثيا دولتها المستقلة تحت زعامة أسرة محلية؛ وكيلدوكيا، البحرية والمداخلة وشمال مديا (اتروبانين والفرجيان) أقامت دولا مستقلة تحت زعامة أسر إيرانية. وقد اضطر سلوقس، في سنة ٣٠٢ ق.م. الى التنازل عن المناطق الشرقية من إيران الى بلان جديد من بناء

الإمبراطوريات، وهو تشاندرا غوبتا موريا الهندي الذي كان قد حالفه النجاح سنة ٣٢٢ ق.م. أكثر مما حالف الدول الإغريقية الجنوبية. فقد نجح تشاندراغوبتا في طرد الحاميات المقدونية من حوض نهر السند، ثم إنه وسع ممتلكاته بحيث بلغت مساحتها ما كان لسلوقس، وذلك عن طريق احتلال إمبراطورية ماغاد في حوض نهر الكنج - جمنا.

كانت الإمبراطورية السلوقية متعبة بحيث لا يمكن ضبطها وربطها. في آخر حروب الخلافة (سنة ٢٨١ ق.م.) كان سلوقس المتصر لسماء وكان قد عبر الحدود لثبة في طريقه إلى مقدونية حين اغتيل. لكن المتصرين الحقيقيين كانوا قبيلة من المهاجرين الفلبيين الذين استقروا في قلب آسيا الصغرى، والذين قاموا بالغزو، طولاً وعرضاً، خلال نصف القرن التالي إلى أن ألحقهم عند حلقهم دولة كانت قد أنشئت سنة ٢٨١ ق.م. في برغامون في غرب آسيا الصغرى على يد جندي كان قد انضم له الحظ إذ استولى على جزء من الكنوز الفارسية القديمة التي كانت قد عثرت في القلعة هناك. وفي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد كانت مساحة الإمبراطورية السلوقية قد تقلصت كثيراً، إذ انفصل عنها حاكم ولاية حوض اكسس - جاكارتس (صيخون - جيهون) الإغريقي، كما أن احتلال البارثي، وهم قوم بدو رعاة أصلهم من تركستان الحالية، لغربها في الوقت ذاته، زاد في هذا التقلص.

إن أعنف مظهر في الحروب التي شنت في الإرث الاسكندري المزعزع (بين ٣٢١ و ٢٢١ ق.م.) هو أنها لم يكن فيها انتصار حسم. فمقدونية لم تتمكن من احتلال جنوب بلاد اليونان. وجنوب بلاد اليونان لم يتمكن من أن يقصي النفوذ المقدوني عن المعمرات الإغريقية الثلاثة: ديمترياس وحلفيس واكروبوليس كورنث. لقد حذر الإغاثيون كورنث من مقدونية سنة ٢٤٣ ق.م.، لكنهم تنازلوا عن اكروبوليس كورنث لمقدونية سنة ٢٢٥ ق.م. مقابل تدخل مقدونية عسكرياً ضد إمبراطورية مساعدة للاتحاد الإغاثي. وفي سنة ٢٢٢ ق.م. أنزل المقدونيون والإغاثيون هزيمة كبيرة بالإسارطين، وقد وقعت إمبراطورية تحت احتلال أجنبي لأول مرة في تاريخها؛ لكن إمبراطورية لم تلبث أن استردت استقلالها وعادت لها أهميتها كقوة عسكرية. وفي الوقت ذاته كانت السيطرة البحرية على الأرخبيل الإيجي قد انتزعت من يد ديمتريوس بوليكرتس على يد بطليموس الثاني ثم انتقلت من إمبراطورية البطالسة إلى مقدونية بسبب الانتصارات البحرية المقدونيين قرب جزيرة قوص نحو سنة ٢٥٧ ق.م. وقرب جزيرة اثندروس نحو سنة ٢٤٦ ق.م.

وفي سنة ٢٢١ ق.م. قامت الحرب الرابعة بين البطالسة والسلوقيين لامتلاك جنوب سورية، وانتهت بأن ظلت هذه المنطقة للتكالب عليها تامة لإمبراطورية البطالسة.

كان أهم حدث وقع في سنة ٢٢١ ق.م. في أويسكومين العالم القديم توحيد الصين على يدي دولة تشن التي افتتحت بلاد الدولة السادسة في منافستها، وضممتها الى أملاكها. وهذا التوحيد السياسي للصين كان حاسما ونهايا. وقد استمر على ما هو عليه إلا جزئيا وفي فترات موقفة؛ وفي العقد الثامن من القرن الحالي تقوم الصين المرحدة بدور رئيس في القضايا العالمية. لكن في سنة ٢٢١ ق.م. كانت بقية أويسكومين العالم القديم، من الهند وغربا على حوض البحر المتوسط الغربي، على وشك الدخول في زمن الصراع العنيف، الذي لم يتخلص منه حوض البحر المتوسط الا في سنة ٣١ ق.م.، اما الهند فلم تخرج منه إلا في سنة ٤٨ م.

٣٠- تطور المدنية الهلينية وانتشارها ٣٣٤-٢٢١ ق.م.

لم تكن سنة ٣٣٤ ق.م.، وهي السنة التي أجتاز فيها الاسكندر الدردنيل، بالطبع، نقطة ابتداء في تطور المدنية الهلينية وانتشارها. فقد كانت، في ذلك الوقت، قد مرت عليها أربعة قرون ويزيد وهي تنمو وتنتشر. لقد بلغت العملية في القرن الثامن قبل الميلاد، لما تفتتت براعم المدنية الهلينية ازهارا، بعد فترة حضانة طويلة. لكن لما هاجم الأخارقة الإمبراطورية الفارسية وقضوا عليها، أخذوا انفسهم ينشر مدنيتهم على مقياس واسع وبشكل واضح؛ فقد كانوا يواجهون خيارات في سياسات مختلفة للتعامل مع رعاياهم الأجانب. وكانوا يوسعون المجالات في حياتهم ويدلون المجالات فيها، فجأة وبشكل جذري، بحيث أنهم أصبحوا بحاجة الى فلسفات جديدة يمكنها ان ترشدتهم وتدعمهم وهم يطلون ارضا مجهولة بالنسبة اليهم، اجتماعيا وخلقيا.

وخلال القرون الأربعة التي سبقت انهاء الاسكندر شرقا كانت أجيال مبكرة من الهلنيين قد مهدت السبيل لهم في تلك الأنحاء. لقد ترددوا كثيرا على سورية ومصر نجارا، وكانوا قد خدموا مرتزقة في مصر وبابل وفي الإمبراطورية الفارسية، وكانوا حملوا مهجرين الى أماكن قصية حتى بلاد الهند شمالا في شرق، وإلى ما وراء (نهر اكسوس، جيحون). وكانت نفوذ المدن - الدول الإغريقية، بما قبل الإسكندر، قد انتشرت في أسواق الإمبراطورية الفارسية مزاحمة للنفوذ الإمبراطورية ذاتها. وفي هذه الجهات كانت المستوطنات الإغريقية تجارية، لا زراعية، وكانت مقصورة على الميا (بوربيديون) في سورية ونيوكراتيس في دلتا النيل. لكن الأخارقة استعمروا، بالقوة، بالأسلوب ذاته، المضائق المؤدية الى البحر الأسود، وكانوا قد أقاموا مراكز تجارية حول جزء كبير من سواحل البحر الأسود. وفي سنة ٣٣٤ ق.م. كان أهل صقلية الذين ظلوا في داخل الجزيرة قد أخذوا انفسهم بالتكلم باللغة اليونانية والعيش في مدن - دول على

النسق الهلنسي، كما أن الأترسكيين والايولين وغيرهما من الشعوب غير الإغريقية في إيطاليا كانوا قد اقتبسوا طراز الحياة الهلنكية على درجات متفاوتة.

أما وفد اكتسح الأخارقة، بقوة السلاح، أراضي الإمبراطورية الفارسية المشعة، فقد كان على الماعين أن يقرروا فيما إذا كانوا يتوون فرض أنفسهم على السكان المهزومين كجنس سيد، أو أنهم كانوا يرون وجوب العيش والتزاوج مع رفاقهم من غير الأخارقة على قدم المساواة. وقد تقدم أرسطو، معلم الإسكندر سابقاً، بالنظرية العنصرية غير الإنسانية وغير العلمية وهي أن الهلنيين ولدوا ليكونوا أسياداً، وغير الهلنيين يجب أن يكونوا عبيداً، أما الإسكندر نفسه وثيوفراستوس، تلميذا أرسطو، فقد كانا إلى جانب المساواة. وقد كان الإسكندر، قبل وفاته المبكرة، قد بدأ يطبق سياسته الأسخ، وذلك لمصلحة رعاياه الإبرانيين. على أي حال، كان قد احتفل بعيد للتوفيق، وقد دعم وكاناً أولئك الذين تزوجوا زوجاتاً مختلفات - إغريقيا (إرانيا) أو إغريقيا (سوريا). لكن يبدو أنه حتى الإسكندر نفسه كان مطمئناً إلى أن الإطار الحضاري لهذا الزواج العنصري المرتغب سيكون هليينياً، وكان هذا الأساس الذي نفذت بموجبه سياسة الإسكندر على يد سلوقس الأول، الخليفة الذي ضمن لنفسه أكبر جزء من الأرض من أسلاب الإمبراطورية الفارسية. يبدو أن التفرج بين الأخارقة والابريانيين قد نفذ، أوسع ما نفذ، في حوض نهري اكسوس - جاكسانس، تحت حكم الأخارقة المحليين الذين انفصلوا عن الدولة السلوقية، خليفة الإمبراطورية الفارسية، حول سنة ٢٥٠ ق.م. وفي الجهة الثانية فإن الحكام البطالمة في مصر وأهوائهم من الأخارقة تصرفوا وكأنهم جنس سيد، فقد احتفظ بالتاج هنا بكل الوظائف الإدارية، إلا أندها، في أيدي الأخارقة. وجميع الأخارقة الذين كانوا في مصر تعاونوا مع نظام البطالمة لاستغلال أهل مصر.

في سنة ٢٢١ ق.م. كانت هذه السياسة غير الليبرالية التي اتبعتها الأخارقة في مصر لا تزال فعالة، لكن غالبية السكان المصريين لم تقبل أن تعامل على أنها جنس أدنى؛ وفي واقع الأمر فإن المدينة المصرية كانت متفوقة على المدينة الهلنكية على الأقل في أمرين هاميين: كان للمرأة المصرية وضع قانوني أفضل من وضع المرأة الإغريقية، وكان الرق في مصر نادراً. كان الفلاحون المصريون المستقلون رجالاً أحراراً، ومع أن أفراداً من الجماعة الإغريقية الذين كانت أحوالهم جيدة كانوا يملكون العبيد، فإن حكومة البطالمة اتحدت الاحتياط اللازم لمنع استرقاق رعاياها.

إن المهاجرين كان باستطاعتهم أن يحملوا معهم أموالهم المنقولة فقط، سواء في ذلك المهاجرون الذين جازوا كفاشين، مثل الأغارقة الذين ساروا على درب الإسكندر، والمهجرون، مثل اليهود الذين نقلوا أسرى من جنوب فلسطين إلى بابل قبل ذلك بنحو ربع الألف من السنين. وإذا كان للمهاجرين رغبة في الحفاظ على هويتهم الاجتماعية والثقافية في محيطهم الجديد، بين أجناب يقرعونهم عداء، فإن الأموال المنقولة التي يحملونها معهم يجب أن تكون ثمينة، في نظرهم بالذات، بحيث تكون وازعا لهم لتقبلوا على التجربة المرضية التي قد تؤدي إلى التخلي عن العاصر العسيرة الجذور في تربة الأجداد من تراثهم الحضاري. فقد كان على المهاجر اليهودي أن يتخلى عن الطقس الديني الذي لم يكن لهم حكما إلا في الهيكل في القدس؛ والمهاجر الإغريقي كان عليه أن يتخلى عن الولاء للإله الخاص بالمدينة - الدولة الآتي منها. وقد نجح الأغارقة في سنة ٣٣٤ ق.م. وما بعدها في حل هذه المشكلة السيكولوجية، كما فعل اليهود في القرن السادس ق.م.، إن العبيد الممنون كانوا ملك بين المهاجر اليوناني كانوا كسبا اقتصاديا منقولا وكانوا مسؤولة حضارية. وما كان للأغارقة أن يتم على يدهم ما تم لليهود في بلاد التفتت لو أنه لم يكن لهم مكتسبات حضارية يمكن نقلها، وإن هذه كانت ذات لهم سيكولوجية عالية المستوى، على نحو ما كان لليهود.

كان ثمة اثنان من المكتسبات الأثينية الهلينية ثبت أنهما غير قابلين للنقل من أثينا وهما كتابة التمثيلات ومجمعات الأخوة الفلاسفة. كانت الفلسفة الإغريقية قد ظهرت أصلا في أثينا، وكانت قد طوفت إلى إيطاليا قبل أن تستقر في أثينا، إلا أن سقراط والملاطون وأرسطو كانوا قد القوا راسيها في أثينا. أما في التأليف التمثيلي فإن أثينا كادت أن تحسب هذا الفن، مع أنه كان هناك منفرس للهلويات والمضحكات من التمثيل في صقلية وإيطاليا، لكن الفلاسفة والمؤلفين التمثيليين الذين عاشوا وكتبوا في أثينا لم يكونوا بالضرورة أثينيين أصلا.

كان كتاب المأساة الثلاثة والمؤلف الهلزي لوستوفانس، الذين عاشوا في أثينا في القرن الخامس جميعهم من أبناء أثينا. أما بين أشهر أربعة من المؤلفين الهلزين، من أهل المدرسة الأينية «الحديثة»، لم يكن سوى واحد من أبناء أثينا وهو ميتاتر (حوالي ٣٤٢ - ٢٩١ ق.م.). ودبفيلوس (عاش حوالي ٣١٨ - ٢٧٤ ق.م.) جاء أثينا من سيروب؛

وفيليسمون (٣٦١ - ٢٦٢ ق.م.) جاء من ميراقوسة؛ والكسيس (عاش حوالي ٣٧٥ - ٢٧٤ ق.م.) جاء من توري في طرف ٤ أصبح قدم لبطالية ٥.

ومن بين اصحاب المدارس الفلسفية التي احتضنتها اثينا، كان افلاطون الوحيد من ابناء اثينا. مايقور (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م.) كان ابنا لمستوطنين اثينيين كانوا قد استقروا في ساموس، لكنهم كانوا قد أجلوا عنها لما حررت ساموس سنة ٣٣٢ / ١ ق.م. والمدينة التي اقامت فيها الأخوة الايقورية في اثينا كان قد ابتاعها لها، في سنة ٣٠٦ ق.م.، تلاميذه الأعياء الذين كانوا قد تعلموا عليه في لاماسكوس. وكان ارسطو من ابناء سقاجوروس، وقد وجد، في نهاية المطاف، ان اثينا اشد من ان تتحمله. واخوة ارسطو كانت تجتمع في الميسوم في اثينا، وقد انشئت بعد وفاته على يد تلميذه ثيوفراستوس (٣٧٢ - ٢٨٨ / ٧ ق.م.) من ابناء لرسوس في جزيرة لسبوس. اما زينون (حوالي ٣٢٦ - ٢٦٤ ق.م.) وهو مؤسس الأخوة الرواقية، فقد جاء الى اثينا بين سنتي ٣٢٠ و ٣١٤ ق.م. من مدينته الأصلية كيتيوم في قبرص. وكانت كيتيوم مستعمرة فينيقية. وقد وجد فيها، مما يعود الى القرن الرابع ق.م.، نقوش بالكنعانية اكثر من النقوش باليونانية. وخلفاء المؤسسين الأربعة في رئاسة الأخويات المتتالية جازوا من كل انحاء العالم الهلنستي للتوسع، وحتى من خارجه. فعلى سبيل المثال كان هنيبال - كليتوماخوس، الذي رأس اكاديمية افلاطون من ١٢٧ الى ١١٠ ق.م.، كان، مثل زينون، فينيقية مستعمرا؛ وقد جاء من قرطاجة.

يضاف الى ذلك ان التسهيلات التي كانت تؤلف في اثينا كانت تمثل في اماكن اخرى، كما ان الأخويات الفلسفية للشركوة في اثينا كان ينتسب اليها الانباع من كل مكان. وقد كان بين المؤسسات التي حافظت على المقام الهلنستي المنسج اتحاد المصلين المصلين البانهليني (ديونسيو تكتيتي). فقد كان هؤلاء المصلون المصلون يمثلون روايات اتينية حيا كانت ثمة مدينة أغريقية فيها مسرح، وذلك تحت رعاية ديونسيوس، وهو الإله الذي تعود ولادة الدراما الاثينية الى طقوس عبادته في اثينا. وقد حافظت المأساويات التي وضعها يوروليس في القرن الخامس ق.م. على مكانتها جينا الى حب مع الهزليات الاثينية الاورويدية.

كانت الاحوجتان الفلسفتان اللتان ضمتها اثينا في العصر السابق للاسكندر من نوع السخنة وكانتا متعالتين؛ وقيام المدرستين اللتين انتشعا بعد الاسكندر كان استجابة

للحاجات المعكبة والاجتماعية الآتية. فليقوم شجع اتباعه على ان يعتزلوا الحياة العامة، على نحو ما فعل معاصره الفيلسوف التاوستي الصيني تشوانغ تسو. وكان ايضاً يقيم وربما خاصاً بالصدقات الشخصية. وكان زيتون، مثل كوتوشوس، يعلم اتباعه كيف يحتفظون بمسرى فردي عال في تصرفهم في إطار اجتماعي جديد يتحرف به على الفرد أن يعتمد على الدعم الخلقى - ولا على القبول الخلقية - للقيام بواجباته كمواطن في مدينة - دولة ذات سيادة. وكان ثمة فلسفات تقدم بالدعوة لنفسها. وعلى هذا المنوال، وبدرجة اكبر، كانت المدرسة « السنية ». كان مؤسسها أتيشس (حوالي ٤٤٥-٣٦٦ ق.م)، وهو شبه الهني تراقي، قد أقام في اثينا في جمنازيوم سينوساريس. وكان تلميذه، ديوجينيس السينوبي، الذي يرجح أنه توفي في السنة ذاتها التي توفي فيها الإسكندر، يرى أن الحرية الروحية ثمنها التخلي عن كل الممتلكات المادية، على نحو ما ارتأى بوذا من قبل. وقد كان الفلاسفة الستائرون الذين جاؤوا بعد الاسكندر، بهيمون على وجههم، موجهين دعوتهم الى الجمالهر. وقد كانوا ينشرون مذهبهم الفشفي بالعمل وبالقول.

وقد كان ما تيسر نقله من مكاسب الحضارة الهلينية للفترة التي تلت الاسكندر الكويني (الصيغة) العالمية لهجة الأتيكية من اللغة اليونانية. يبدو أن الكويني بدأت تتخذ شكلها الواقعي خلال نصف القرن الذي وجدت فيه الامبراطورية الأتيكية (٤٥٤-٤٠٥ ق.م)، لكن اسمها ارتفعت لا أقربها الملك فيليب الثاني اللغة الرسمية للمملكة المقدونية، مفضلاً ايضاً على اللهجة اليونانية للمقدونية المحلية. ومنذ ذلك الوقت قامت الكويني بخدمات جليلة للعالم الهليني كلغة الدولة والأدب المنفعي والحياة اليومية. لقد كانت لغة حبة وقد امتدت في التطور استجابة للمطالب المتغيرة في الحياة الهلينية. وفي الوقت ذاته انتشرت (اللغة) اليونانية الأتيكية في الصيغة « الجسيلة » التي صنعها للتصدير الادبي اسوقراط (٤٣٦-٣٢٨ ق.م).

كانت الكويني الأتيكية واسطة لنقل الأفكار والاحاسيس؛ واتيكية اسوقراط كانت مادة لقراءة يستخدمها الفنان لايداع الزخارف الأدبية بحيث يخضع المحتوى الفكري لتسويق الكلام. كانت الكويني لغة العلم والبحث العلمي الهلنيين في العترة التالية للاسكندر. ولم يتركز هذا كله في اثينا، بل في الاسكندرية (مصر).

وقد اكتشف المعلم هنا بضعة امور على غاية الأهمية. قاراقوستيس القبريني

(٢٧٦ - ١٩٤ أو ٢٦٤ - ٢٠٢ ق.م)، الذي كان أمين مكتبة المتحف في الاسكندرية، قدر طول محيط الأرض تقديراً يكاد يكون صحيحاً عن طريق الملاحظة البعديّة والقياس؛ ولطرسرخس الساموسي (يربح حوالي سنة ٢٨٠ ق.م) جعل الشمس، بدل الأرض، مركز الكون الشمسي. وعلى كل فقد أعاد هيبارخوس الهليني (حوالي ١٩٠ - ١١٢ ق.م)، الأرض إلى موقعها التقليدي الخاطيء؛ وفي سيراكوس اعتذر ارخميدس عن أسلوبه الخشن في تطبيق النظرية العلمية على التكنولوجيا المدنية والمسكرة.

وقد كانت « الهلينية » التي كان حظها ان تغلب بلاد الإمبراطورية الفارسية المهضمة، ايضاً بحاجة إلى وعاء اجتماعي يمكن نقله، وقد وجد الاسكندر وبعلماءه بشتيم في المؤسسة الرئيسة التي اوجدتها المدينة الهلينية قبل ايام الاسكندر وهي المدينة - الدولة. ان قلة من المدن - الدول الإغريقية التي تعود إلى ايام قبل الاسكندر، استطاعت ان تحافظ على استقلالها وسيادتها. وذلك التي نجحت بشكل غريب هي رودس. في ٣٠٥ - ٣٠٤ ق.م. نجحت رودس، بمساعدة بطليموس الأول سوتر (المتفد)، في صد هجوم شنه عليها ديمتريوس بوليوكريس (الذي يحتل المدن)، وتوسع العالم الهليني شرقاً اتاح لرودس ان تكون مركزاً رئيساً لشبكة المواصلات البحرية. فقد سيطرت رودس على الطرق البحرية التي تصل البحر الإيجي بالاسكندرية، عاصمة البطالسة؛ وبسلوقية البحرية، ميناء انطاكية (على العاصي) التي كانت العاصمة لقريبة لامبراطورية السلوقيين. ومع ان فيليب والاسكندر وخلفائهما جردوا اكثر المدن - الدول الإغريقية القديمة من سيادتها، ذقوا، اسسوا ٣٢٩ مدينة جديدة بحسب احصاء جديد؛ ولم يقتصر الامر عليهم، فان البدو البارثيين الأبرانيين ايضاً، وهم الذين احتلوا بلخيا وغيرها من لراضي الدولة السلوقية، كانوا، في العادة، ينظرون إلى المدن الإغريقية نظرة احترام وتقدير. وقد كان تدمير فيليب لاولطرس (٣٤٨ ق.م)، وتدمير الاسكندر لطية (٣٣٥ ق.م)، من الأعمال الوحشية القليلة. وقد اعاد كلستدر بناء طية (٣١٦ ق.م)، وهو واحد من اكبر القتل من الجبل الثاني من خلعاء الاسكندر. وقد مئت مدن - دول إغريقية اخرى يد العون لتعمير طية. ولما دمر زلزال مدينة رودس (٢٢٧ ق.م)، لرسل الملوك والمدن - الدول في كل احياء العالم الهليني هبات سخية لاستعادتها.

ان المدينة التي لا سيادة لها كانت لغة طيبة لقبول توكيل سلطات ادارية؛ واذا

كانت مدينة مؤسسة حديثاً، دون أن تقع نهب ذكرونها مجد غير من استقلال وسيادة، بل انها تجابهها، عند أبواب المدينة، جماعات غير إغريقية من السكك الخاصيين للدولة - مثل هذه المدينة كان من المحتمل أن يكون ولاؤها لمؤسسا من البيت المالكة مضموها أو شبه مضمون. كانت لول منشأة ملكية هي فيليبس التي أسسها فيليب الثاني، وكانت تقوم على حراسة مناجم الذهب التابعة له. وأشهر ما أنشئ كانت الاسكندرية، في مصر (وهي الأولى، بين كمهرات غيرها، أطلق عليها هذا الاسم). وكان أكثر المؤسسين للمدب الإغريقية الجديدة دژوبا من خلفاء الاسكندر السلوقيين والحكام الأغارقة لحوض اكسوس - باكترياس (سيجون وجيخون) الذين انفصلوا عن السلوقيين والمدن التيهم بهم الأمر إلى احتلال شمال غرب الهند. وكل مدينة إغريقية، القديم منها والحديث، كان لها سوق (أغورا) ومسرح وعلى الأقل دار واحدة للالعاب الرياضية (جمنازيوم). وقد كان المسرح والسوق مكانين للاجتماع لأرب متوعة. واما الجمنازيوم فهو، بالنسبة إلى الأغارقة في بلاد التوسع، كالكنس بالنسبة لليهود. ولما نزع من المدن صفها العسكرية، أصبح الجمنازيوم ناديا للأموور الفكرية وللالعاب الرياضية على السواء. لم تكن المدن القرواء الوحيد الذي استوى « الهلنستية » وبها. فقد كان هناك مستوطنات لقدماء المهاجرين المقدونيين وأحمادهم، وهي التي كان لها دساتير أولية، والجنود والتجار والصاع من الأغارقة وغيرهم كانوا في فترة الانتشار، قد تجمعوا وضموا في جماعات غير مرتبطة بالأرض سميت « بوليتمخ ».

سبب انتشار هذه الأوعية المختلفة التي يمكن نقلها، أصبح للمدينة الهلنستية، لما حلت سنة ٢٢١ ق.م، أن تنتشر في كل البلاد التي كانت تابعة للإمبراطورية الفارسية باستثناء مصر. ذلك بأن البطالة فضلوا، على نحو ما فعل معاصروهم في تشين، سبيل الإدارة المباشرة، فأنشأوا مدينة واحدة جديدة هي بطولماس في منطقة طيبة، إضافة إلى المدينتين اللتين رزوهما وهما الاسكندرية ونوكراتس. في سنة ٣٣٤ ق.م. كانت المستوطنات الإغريقية الوحيدة، داخل حدود الإمبراطورية الفارسية، تكون خطأ من المدن - الدول على الساحل العربي لآسية الصغرى، ورقما على ساحلي آسية الصغرى الشمالي والجنوبي، وهي بركة وموكراتس وهناك بعض الجاليات المهجرة من الأغارقة في الجزء القصي من الشمال الشرقي. أما التوسع الذي تم في القرن التالي فكان ضخما لكنه كان سطحيا ايضا. فالمدن المستعمرات الإغريقية الجديدة، مع انها كانت كبيرة في عددها، فقد كانت جزرا

اغريقية منتشرة في بحر من سكان غير اغريقيين. فرياض هذه المدن ورويفها كان السكان فيها من غير الاغارقة. وقد كان ثمة احياء غير اغريقية حتى داخل اسوار تلك المدن. وقد حقت اللغة (الكويني) الآرامية نجاحا اكبر من نجاح اللغة (الكويني) اليونانية في تفوقها على الكتمانية (العبرية) على انها اللغة اليومية. وقد اتبع للكويني اليونانية او محل اللغة (الكويني) الآرامية موقفا كلفة الادارة في كل مكان. وفي شمال ايران اسمعت الالفباء اليونانية في بعض النقوش باللغة الايرانية المحلية. وعلى كل فقد انتشرت الالفباء الآرامية، في نهاية الأمر، في كل الأراضي التي كانت تابعة للامبراطورية الفارسية، والتي تقع الى الشرق من نهر الفرات.

٣١- الدول المتعاربة في الصين ٥٠٦-٢٢١ ق.م.

بين سنتي ٧٧١ و ٥٠٦ ق.م. كان وجه الصين السياسي قد تبدل بسبب حروب داخلية استمرت قرنين. لقد اشترنا من قبل الى انه قبل ان نذهب المصيبة اسرة تشو في سنة ٧٧١ ق.م. كانت الصين تتألف من نحو ثلاثمئة مقاطعة صغيرة تدين بالولاء لأسرة تشو. وفي سنة ٥٠٦ ق.م. كان هناك نطاق خارجي مكون من سبع دول كبرى تحيط بعدد من الدول الصغيرة، كانت احدها مكونة من رقعة صغيرة من الارض تقع تحت سلطان اسرة تشو مباشرة حول مدينة لوبانغ، وهي المدينة التي اتخذتها اسرة تشو ملجأ لها لما هجرت من حوض الواي بعد سنة ٧٧١ ق.م. وكانت اسرة تشو قد حلت محل اسرة شانغ في القرن الحادي عشر على انها القوة الكبرى في المنطقة. وحري بالذكر ان اربعة من الدول الهامشية السبع وهي: ين الواقعة عند مصب النهر الاصفر وفي وادي هو، وتشو ووز وموه، الواقعة في اودية خوي وهان ويانكنسي على التوالي - هذه الدول الاربع كانت خارج البلاد التي خضعت لاسرة تشو كما ذكر. وثمة دولة كبيرة خامسة وهي تشن كانت (اي في سنة ٥٠٦ ق.م.) تحت الاملاك الاصيلة التي كانت لدولة تشو في وادي الواي. الا ان تشن في سنة ٥٠٦ ق.م.، كانت، مثل تشو قبل القرن الحادي عشر ق.م.، دولة متأخرة حضاريا. ومن بين الدول الهامشية السبع الكبرى كانت دلوفا تشن وتشني داخلتين في النطاق الأصلي للمدينة الصينية الذي انتزعه تشو من شانغ.

كانت كل من الدول السبع الهامشية تتعرض لخطر قد يأتيها من أي منها، وهذا ما حمل حكومة كل من هذه الدول على أن تكون فعالة قوية عسكريا، ومن ثم اداريا واقتصاديا كذلك. ومفتاح الفعالية كان الحكم المطلق. فإذا كانت أي من الدول الكبرى تود ان تجتار محنة المنافسة التي تتعرض لها من جاراتها، يتحتم على صاحب السلطان

فيها ان يشجع الانحلال الى المعجز الذي اصاب اسرة تشو الحاكمة. وحينما كان ذلك ممكنا كان على الحاكم ان يتمتع بسيطرة قوية على رجال البلاد وعلى مواردها. وكان هذا يقتضي تبديلا جذريا في التركيب التقليدي للمجتمع الصيني. ففي هذا المجتمع كان الحكام المحليون، حتى عندما كانوا مستقلون، استقلالاً واقعيًا، عن سيادة اسرة تشو لم يكونوا، في المناطق التي يحكمونها سوى الأوائل بين الأقربان، بالنسبة الى الارستقراطية الموروثة، التي كان أعضاؤها يزاحمون البيت المحلي الحاكم على المناصب العامة والمناصب على نتائج الأرض.

كانت هذه المشكلة الخاصة هي معضلة حكام اسرتي تشي وتشن، حيث كانت البنية الارستقراطية التقليدية للمجتمع الصيني تحتملها الممارسة والعادة. وقد كانت هذه ايضا مشكلة للقوة القائمة في الجنوب، تشو. الا ان المشكلة الكبرى في الجنوب، عند مستتم القرن السادس ق.م، كانت العلانية بين اقوى المحلي في ما بينها. ففي الجنوب كانت عملية الصين تنتشر بسرعة في الاراضي التي كانت هجينة من قبل. فقبل لمط الحياة الصينية حمل معه ازدياداً في القوة العسكرية والسياسية؛ ومن ثم فإن كل دولة جنوبية عندما تنضم الى المجتمع الصيني كانت تتعرض للخطر من الخلف على يد دولة، وتكون هذه ابعد من مركز العالم الصيني، او الصين وتشن بدورها.

وفي سنة ٥٠٦ ق.م. تعرضت تشو - وهي دولة هجينة سابقا لتعددت اواسط حوض نهر يانكسي، والتي كانت ذات نشاط قبلي في النزاع السياسي الصيني منذ أن اخذت اسرة تشو بالاضمحلال - لهجوم قامت به وو واحتلتها. وهي كانت دولة هجينة سابقا، لكنها احدث عهدا وكانت قد قامت في الموضين الأدنى لنهر يانكسي وهواي. وقد هبت يوهو لنصرة تشو، ويوهو كانت دولة حديثة لم تزال في طور التكون في المنطقة الواقعة الى الجنوب من تشو وو. وعندها قرّضت وو سيطرتها على يوهو؛ لكن وو تجارزت امكانياتها اذ هاجمت تشي في سنوات ٤٧٩-٤٨٥ ق.م. كانت وو ترمي الى الهيمنة على العالم الصيني باجمعه، لكن قوتها لم تكن في مستوى طموحها؛ فهاجم وو على تشي بآء بالفشل. وهنا التفتت في طاقة وو اتاح لتشو الفرصة لإعادة بناء نفسها في سنوات ٤٨٨-٤٨١ ق.م. وفي سنة ٤٧٣ ق.م. احتلت يوهو وو صنها وصمتها الى املاكها.

لم تصد تشي هجوم وو فحسب، بل انها تغلبت على نزاع داخلي بين النبلاء

والعرش، وكان العرش هو المتصر في تشي. وفي الجهة الثانية شلّ العرش هي تشن في سنوات ٤٩٧-٤٩٠ ق.م. نتيجة حرب اهلية بين اغراب النبلاء المحليين. وفي حرب اهلية تالية، في ٤٥٥-٤٥٣ ق.م. قضى نهائيا على واحد من البيوت الارستقراطية الاربعة المتصارعة؛ وعندما اقتسمت البيوت الثلاثة الناقية دولة تشن في ما بينها واقعيا، واعترفت بالدول الثلاث التي خلقت تشن، وهي واي وهان وتشاو، فأتونها في سنة ٤٥٣ ق.م.. منذ سنة ٤٥٣ ق.م. كانت كل من الدول التي خلقت تشن تحاول ان تقوم بدور الدولة الكبرى ولحسابها الخاص، الا انها جميعها كانت، مثل وُو في سنوات ٤٨٩-٤٧٣ ق.م، تحاول عملا كانت قواتها دونه بكثير. وقد زاد في ضعف الدول التي خلقت تشن التداخل الجغرافي في تقسيم المملكة. فبعض اجزاء الارض التي ورثتها واي وهان كانت اراض داخلية معزولة جغرافية عن جسم الدولة التي ضمت اليها. وكان الذي افاد من تقسيم تشن، في نهاية الامر، اجارة الشرقية للدول التي خلقت تشن وهي دولة تشان.

ومنذ سنة ٤٥٣ ق.م. كان هناك ثمانى دول كبرى متنافسة. فكيف كان حاكم دولة كبرى يتصرف بحيث يجني اكبر فائدة من امكانات دولته العسكرية؟ كانت احدى الوسائل لزيادة الفعالية العسكرية للدولة ان يستبدل اصحاب المناصب الموروثة برجال البعوا جدارتهم الشخصية، حتى ولو لم يكونوا من البيت لئلا لو الارستقراطية. وكانت الخطوة الثانية، وهي استبقت الاولى، استبدال القطاعات الموروثة بمحافظات (تشون)، وهذه كانت بدورها مقسمة الى وحدات ادارية أصغر (هسين). وكانت هذه المحافظات يديرها موظفو الناج الذي كانت مدة خدماتهم تنتهي بناء على رغبة صاحب العرش.

بعد تقسيم تشن قام حاكم احدى الدول التي خلقت تشن، وهي دولة واي، وكان بعيد الهمة طموحا، (وهو الأمير ون امير واي ٤٤٦-٣٩٧ ق.م.)، بتجربة القصد منها التعويض عن رقعة دولته الصغيرة وقلة سكانها ونزلة مولودها، بان وظف في الادارة رجلا قديرين من اصل اجتماعي وضيق. والزيادة في القدرة العسكرية لدولة واي اغرت الأمير ون بالسعي للهبة، وذلك في سنة ٤١٩ ق.م.. ودولة واي، مثل دولة وُو التي جرت ذلك من قبل في القرن نفسه، فشلت في للوصول الى هذا الهدف. فأوقفت واي عند حبلها جزئيا في سنوات ٤١٩-٣٧٠ ق.م، ثم نهائيا في سنوات ٣٥٤-٣٤٠ ق.م. وكان الراجح من فشل واي جلتها الغربية تشان.

بعد وفاة وده أمير واي، سنة ٣٩٧ ق.م. استأجر ملك تشو أحد موظفي الأمير المتوفى القديسين ليقوم في تشو بالعمل الذي تم في واي. وعلى كل فإن هذا الإصلاح الجذري قلب رأساً على عقب بعد وفاة الملك الذي بدأه واستعادت الأرستقراطية سيطرتها على المناصب العامة في بلاد دولة تشو. ومع ذلك فإن الرأي القبول هو أن تشو كانت أول دولة استبدلت المحافظات والأفندية في البلاد التي ضمتها إليها. وقد ضمت تشو، بين سنتي ٤٧٩ و ٤٤٥ ق.م.، ثلاثاً من الدول الصغرى في مركز العالم الصيني.

كانت أدق التنظيمات الإدارية التي ادخلت في تلك المنطقة تلك التي تمت في دولة لشان أثناء حكم الأمير هيو (٣٨٤ - ٣٦١ ق.م.) وابنه وخليفته الأمير هياو (٣٦١ - ٣٣٨ ق.م.) وقد كان النظم الفعال في تشان شانغ يانغ وهو ضابط من بيت إمارة في واحدة من الدول المركزية الصغرى، وكان قد استخدم أولاً في دولة واي، خليفة تشن. لم انتقل سنة ٣٥٦ إلى خدمة الأمير هياو، وظل يعمل في تشان حتى وفاة الأمير، سنة ٣٣٨ ق.م. في تشان أزال شانغ يانغ بنية المجتمع القائمة على المنزلة الموروثة وفتح المجال أمام القدرة العسكرية للتقدم. وفي سبيل تقوية القدرة العسكرية لدولة تشان صرف عنايته إلى الزراعة؛ وفي سبيل تقوية الزراعة جعل الأرض ملكاً خاصاً بحيث أصبحت سلعة للبيع. وقد اتاحت تجديفات شانغ يانغ الفرصة للفلاحين لأن يصلوا إلى أعلى المناصب في الدولة، إلا أن هذه التجديفات اعضمت الفلاحين للجنود الإجماعيين ولدفع الضرائب، وعرضتهم، مما إذا انحلت بهم ضائقة اقتصادية، إلى خطر بيع أراضيهم. وبذلك أصبح أمام فلاحي تشان بديلان متطرفان: إما أن يثروا أو أن ينفقوا.

كان حكم الأمير هياو وعمل السيد شانغ يانغ في خدمة الأمير هياو في تشان معاصرين لحكم هيلب الثاني في مقدونيا (٣٥٩ - ٣٣٦ ق.م.). كانت تشان في الصين نظيرة مقدونيا في بلاد اليونان. وساسة تقوية للدولة عن طريق اعضاع الفلاحين للخدمة، كان جميعها في الوقت ذاته هيلب وشانغ يانغ. والصلة بين تشان ومقدونيا وبين المجتمع الذي كانت كل منهما ترتبط به كانت متشابهة في الناحيتين الجبرامية والاجتماعية. كانت كلتا الدولتين تجاور منافسها مجاورة تامة، لكنهما محصورتين من الناحية الطبيعية بحلقة من الجبال التي تعجزهما. وكان الشعبان كلاهما متأخرين اجتماعياً، ومن ثم كانا قابليين للتبدل، لا قلبت الحياة فيهما رأساً على عقب، في القرن الرابع ق.م.، بسبب امر حتمي من الحاكم.

عاش ميليب الثاني حتى رأى بلم عينيه ثمرة اصلاحه ممثلا في توحيد بلاد اليونان عسكريا وسياسيا تحت هيمنته. وقد توفي الأمير هيو سنة ٢٢٨ ق.م.، وهي السنة التي انتصر فيها ميليب. ولم تمكن تشان من توحيد العالم الصيني الا في العقد ٢٣٠. ٢٢١ ق.م.. لكن توحيد الصين على يد تشان، على عكس ما تم على يد قليب، كان نهائيا. فالعالم الهليني لم يتم توحيدَه في نهاية الأمر لا على يد مقدونيا ولا على يد الدول الاغريقية الوريثة لمقدونيا ومنافسيها، بل تم ذلك على يد دولة غير اغريقية، لكنها نهلت من وهي روم. وكان على تشان ان تتنافس مع دول صينية اخرى، وبين هذه الدول اثبت واي اولا لم نشأ بينهما الأعداء؛ لكن، في نهاية الأمر، كانت تشان هي التي وحدت الصين، وقد كانت تشان دولة صينية، ولو أنها لم تكن دولة على المستوى الاعلى بالنسبة للحضارة الصينية.

ان التغييرات الجذرية الادارية التي عرفها العالم الصيني في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، صاحبتهما تغيرات اقتصادية واجتماعية، كما رافقتها تديلات تكنولوجية ايضا، عسكرية، ومدنية على السواء. وبعض هذه التغيرات، في المجالات الأخرى للحياة، بدأها المهندسون الاداريون؛ وكان غيرها نتائج جانبية للأعمال التي تمت على ايديهم؛ وثمة غيرها التي تمت (في حدود ما نعرف) كانت معاصرة لها بالمصادفة. وكانت النتيجة التراكمية لهذه التغيرات المتعاصرة ذوبان البنية التقليدية للمجتمع الصيني. وكان هذا قد اصابه الوهن بسبب الدور الأول من الحروب الداخلية التي مرت بالبلاد خلال القرنين المنتهيين بسنة ٥٠٦ ق.م. وقد تم القضاء عليها بسبب الدور الثاني الذي انتهى سنة ٢٢١ ق.م.

ان التبدل الاقتصادي الرئيس قد اشرنا اليه من قبل لمناسبة الكلام عن التجددات الادارية. فقد أصبحت ملكية الأرض قابلة للانتقال، كما أصبحت الأرض سلعة تسوق. ومع ان هذا كانت الغاية الهامة له زيادة الإنتاج لوراعي، فقد أدى الى اتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء وخلق فحة من البروليتاريا التي لا تملك ارضا. والتبدل الاجتماعي الرئيس كان فتح محال العمل في الناحيتين الادارية والعسكرية لاصحاب الكفاءات، دون الالتفات الى الفروق الطبقيّة للورثة. وقد نشأ عن ذلك طبقة اخرى جديدة من المدرسين الذين كانوا على استعداد لتقديم التدريب المهني لأولئك الطامحين في الحصول على مناصب في خدمة الدولة. وقد أصبح كونفوشيوس مدرسا ناجحا بعد ما فشل في

ان يكون اداريا. وهو أول ممثل في الصين، وصلنا عبره، لمهنة كان لها نظيرها في العالم الهليني في القرن السادس قبل الميلاد، وهم السفطاتيون. وكان كونفوشيوس ايضا اول مؤسس لمدرسة فلسفية في الصين.

ان الحكام الاثوكراميين الجدد لم يقوموا عمدا بتشجيع طبقة المدرسين، الا انهم كانوا يتحملونهم وكنائهم على العموم يعاملونهم باحترام. كان الحكام يميلون الى الازدراء بالتجار - وهم طبقة جديدة اخرى ظهرت تلقائيا في العصر نفسه - لكن التجار تمكنوا من الاستمرار في عملهم ومن جمع الثروة على رغم استتكار الحكومة لوجودهم. وبينما أن التجار وجدوا الفرصة السانحة عن طريق تمهدهم بتوفير الحاجات الاجتماعية. فقد كان ثمة حاجة للتجارة في مجتمع كان يتوسع جغرافيا الى مناطق تنتج اصنافا متنوعة من المنتجات الطبيعية والمصنوعات، وكانت هذه كلها تتطلبها الدول المتخاصمة في ما بينها بازدياد؛ ومع أن الحرب بين الدول كانت تجعل التجارة اسرا شديدا لخطورة، فإن الادارة المحلية الفعالة بسرت السبل الآمنة نسبيا للتجارة الداخلية، وبخاصة في الدول الكبرى. فالتجارة والصناعة والمخراج الفلاحون من اراضيهم التي كانت تحصد الاجداد، كل ذلك ادى الى قيام المدن.

كان حفر القنوات وسك النقود المعدنية بين التجديدات التكنولوجية المدنية. وقد ادخل الانسان في القرن الخامس قبل الميلاد، وكانا كلاهما من عمل الدولة، وكانت الدولة الرائدة في حفر القنوات دولة وُو، التي كانت امتلاكها تخففها المجاري الدنيا لنهر يانكسي وهواي. كانت البداية الآتية لحكومة وُو من حفر القناتين لتيسر النقل العسكري، لكن القنوات كان لها نتيجة جانبية وهي توسيع الزراعة وتكثيفها بسبب تجفيف الاراضي المستنقعات ذات الاسكانات الانتاجية - وقد شهد القرن الرابع قبل الميلاد ادخال الخمرات الذي يحبره الشر الى العالم الصيني، واستبدال البرونز بالحديد كمادة تصنع منها الآلات الزراعية والادوات والسلاح. هذه التجديدات التكنولوجية التي تعود الى القرن الرابع قبل الميلاد كانت تخدم، بالتأكيد، اغراض الحكومات الصينية يومها، الا اننا لا نعرف الطرق التي سلكتها للوصول الى الصين من المناطق المتوسطة في اوكيومين العالم القديم، حيث كان الحديد والخمرات كلاهما قد شاع استعمالهما مدة طويلة قبل ذلك.

التجديد التكنولوجي العسكري الرئيس كان اقتباس الاسلحة الخاصة بالفرسان في دولة

تشاو سنة ٣٠٧ ق.م.. وكانت تشاو مجاورة للسهوب الأوراسية فالتقى فرسانها اسلحة البدو ولباسهم؛ كما ضل الفرسان الميدين في ايران قبل ذلك بثلاثة قرون. وبعد محتم القرن الرابع قبل الميلاد كانت حرب المركبات، التي كانت من قبل السلاح الصليبي الرئيس، او لعلها كانت السلاح الوحيد، قد انصبت جانباً، وقد مضى عليها، قوى المشاة الفرصية، التي كانت تجمع بواسطة التجنيد الاجباري. وقد يكون هذا التغير قد بدأ في الدول الجنوبية حيث تعرقل المجازي المائية والمستقعات استعمال الدواب، ولكن التغير انتشر بسرعة - مثلاً في دولة تشان في الطرف المقابل من العالم الصيني.

والدور الثاني من الحروب التي انتهت بتوحيد الصين سياسياً، بدأ سنة ٣٣٣ ق.م.. ففي تلك السنة قضت تشو على يوه وضمت اليها وو، التي كانت يوه قد استحوذت عليها سنة ٤٧٣ ق.م. وعقدت في السنة ذاتها (٣٣٣ ق.م)، معاهدة دفاعية بين الدول الست التي كانت لا تزال قائمة، ضد تشان. والفضل يرجع الى اصلاحات شانغ يانغ في ان تشان كانت قد قامت بدور هائل في حروب ٣٥٤ - ٣٤٠ ق.م، وهي الحروب التي اوقفت محاولة واي في الهيمنة نهائياً. وفي سنة ٣١٨ ق.م. تمكنت تشان بشكل بارز من الانتصار على قوى الدول الست للشركة، مع ان هذه قد قويت بمرزقة من البدو الأوراسيين. وفي سنة ٣١٦ ق.م. توسعت تشان عبر خط المياه الفاصل بين واي، احد روافد النهر الأصفر وحوض نهر يانكتسي، وهو الآن ولاية سينشوان، ثم هاجمت تشو من الجهة الغربية. وفي سنة ٢٧٨ ق.م. احتلت تشان عاصمة تشو؛ وفي سنة ٢٧٢ ق.م. اتحت تشان ضرب الطوق حول ما تبقى من تشو. وفي الوقت ذاته كانت تشان تقوم بهجوم ضد الدول الشمالية. وبدا وكأن تشان كانت على وشك توحيد العالم الصيني عن طريق الفتح، لما كسرتها تشاو سنة ٢٧٠ ق.م.. وقد انتصرت تشاو على تشان ثانية سنة ٢٥٨ ق.م. ثم في سنة ٢٤٧ ق.م. وكان على تشان ان تقبل سلماً مؤقتاً، ان الحروب التي بين سنتي ٢٢٣ و ٢٤٧ ق.م. كانت شرسة وقتالة، لكنها لم تكن فاصلة

وعلى كل ففي السنوات العشر بين ٢٣٠ و ٢٢١ ق.م. هاجمت تشان الدول الست الباقية والمنافسة لها، واحتلتها الواحدة بعد الأخرى. وفي هذه المرة لم تجمع هذه الدول للدفاع عن نفسها؛ وتشاو وحدها هي التي قاومت بتناد

لقد مرضت الوحدة السياسية على الصين سنة ٢٢١ ق.م. بالقوة العسكرية، لكن

ثبت أنها كانت دائمة. إن العمل الذي قام به الموحد الأول كثيرا ما تعرض للحرق خلال ما يقرب من اثنين وعشرين قرنا. فقد عرق أول مرة في السنة التي تلت وفاة الموحد الأول، إلا أن التكتلات الموقفة التي أصابت الصين وادت إلى تصدع وحدتها تم التعلب عليها دوما. إن التوحيد السياسي للصين بالقوة ثبت أنه عملي لأن توحيدها الحضاري الاختياري كان قد أصبح حقيقة واقعة قبل أن تبدأ دولة تشان بعملها العسكري. وإلى هذا يرجع السبب في أن الجناز تشان، أي توحيدها للصين، استمر بعد الزوال السريع لتشان نفسها.

فلم يوقع الأمر كانت المدينة الصينية قد انتشرت، قبل سنة ٢٢١ ق.م، إلى ما وراء حدود المنطقة التي وحدها شيه هوانغ - ني، صاحب تشان، في سنة ٢٢١ ق.م. وما بعدها. فملى سبيل المثال يبدو أن الزراعة والتعليم كانا قد ادخلتا إلى كوريا في القرن الرابع ق.م. كما أدخلت إلى اليابان بعد ذلك بقرن أو نحو ذلك - ولعل بعض ذلك قد تم عن طريق كوريا، كما تم بعضه الآخر مباشرة من حوض نهر يانكتسي الذي كان له تصون قبل ذلك. وكان سكان كوريا واليابان قد ظلوا، قبل ذلك، يعيشون في دور جمع الغذاء وفي مرحلة العصر الحجري المتوسط حضاريا، مع أن في الفخار كان قد عرف في كل من كوريا واليابان قبل وصول الزراعة اليهما. ليس ثمة قرب بين لغتي كوريا واليابان من جهة وبين أسرة اللغات التي تنتمي إليها لغتا الصين - تاي والتبت - برما، إلا أن ثقل كوريا واليابان للمنتبة الصينية أدخلهما في نطاق العالم للتصون في شرق آسيا.

٢٢- الفلسفات المتنافسة في الصين ٥٠٦- ٢٢١ ق.م.

كان عصر الدول المتحاربة في الصين هو عصر «لثة مدرسة» العلمية أيضا. كانت الفلسفات الصينية المتنافسة تخبّرات في الاستجابة العاطفية والعقلية للتجارب العامة المعاصرة التي كانت مؤلمة ومقلقة. وكانت البواعث الاجتماعية للتأملات والحكم الفلسفية هي الحصورات السياسية والعسكرية القاسية والهمجية المتزايدة التي كانت تقوم بين الدول الكبرى وتسيطر بعد الثغالب ومنها الجهد الذي كان الحكام المحليون يبذلونه في سبيل نفوذ نفوذهم عن طريق التخلص من الضوابط التقليدية وبخاصة استعاضتهم بالمقدرة عن المجدد على أنها المقياس الذي يختار على أساسه الموظفون للإشراف على كل الشؤون العامة؛ وسما إن ما كان من قبل اسرا غلصا بالآخلة الأرستقراطية، أي إتاحة الفرصة وانعدام الاستفرا، وسع نطاق تطبيقه بحيث شمل الصفات كلها.

كانت الفلسفة الصينية، على اختلاف مدارسها تختلف عن الفلسفة الهلينية بأنها كانت، منذ البدء، تعنى أصلا بالحياة العملية، وبدرجة ثانوية فقط، كانت تهتم بالعلم والميتافيزيقيات. لقد مر على الفلسفة الهلينية أكثر من قرن وهي تجادل المسائل العلمية والميتافيزيقية قبل أن يوجهها سقراط نهائيا نحو درس الطبيعة البشرية. وحتى سقراط نفسه وعلمائه في اخوات الفلاسفة الهلنيين كانوا يعتنقون بدرس العقل البشري - في نظرية المعرفة، على سبيل المثال - إضافة إلى اهتمامهم بالأخلاق. وكونفوشيوس، الذي كان النظر الصيني لسقراط، لم يوجه الفلسفة الصينية لقد دشنا. وقد كان كونفوشيوس يهتم بالإنسان على أنه مسهم في المجتمع، لا على أنه عقل أو روح.

والتأمل في الطبيعة البشرية والحياة البشرية بمر، بالطبع مشكلة ميتافيزيقية. ففي الهند كان تلاميذ البوذا يقيمون في تجربة التهرب من التعذيب الروحي العنيف الذي فرضه البوذا عليهم، وذلك بالمعص في تأملات ميتافيزيقية، كان هو يستكرها. ومع ذلك فإن البوذا

منه كانت له اراء ميتافيزيقية تثير الجدل. وقد كانت العقول الصينية اقل ميلا من العقول الهندية الى التأملات؛ ومع ذلك فان مدرسة تانغست الفلسفية الصينية كانت تسخر في الميتافيزيقيات. والنظريتان لصينيتان عن التبادل المتكامل بين حال - الين السكونية وحركة - اليانغ الديناميكية، والعناصر الخمسة الدلحلة في تركيب الكون الطبيعي كانتا تأملات ميتافيزيقية وعملية. وعلى كل حال، فحتي الميتافيزيقيات التارسية كانت عنصراً مساعداً لردة الفعل عندهم ضد الاحوال الاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة في الصين في زمنهم.

كانت تأملات اكثر المدارس الفلسفية الصينية تصوب على المستوى الاجتماعي والسياسي لنقضها الانسانية؛ وكل المدارس اتفقت، باطنا ولو ان ذلك لم يكن دوما ظاهرا، على ان شرف المولد (المحدث) لا يمكن ان يستمر، ولا يجوز ايضا ان يستمر، كطريق للحصول على المناصب العامة. والفرق بين اتباع كونفوشيوس والمسيكون بالقانون، كان يدور حول سؤال: ماذا يجب ان تكون المواصفة البديلة لتولي المنصب. ولم يشترك لا المؤهليون ولا التانغستيون في هذه الجدلية، لانهم كانوا يشتهرون بالشكوك حول قيمة المؤسستين الاجتماعيتين الرئيسيتين القائمتين يومها، اي الدول والأسر، كما انهم تحدوا شرعية الحق الذي كان يطالب به بالنيابة عن السلطة الحكومية والابوية.

ان المدرسة القانونية في الفلسفة الصينية كانت ترى ان نوع الكفاءة التي يجب ان تكون الجواز الى المنصب الحكومي، عوضا عن شرف المحدث، هي المقدرة الادارية والمسكربة التي يمكن ان نعلم غارة حكام الدول الصغار - وكان الهدف الذي يرسم اليه كل من هؤلاء الحكام هو زيادة سلطته الى اقصى حد. فبالسبة الى القانونيين كان « القانون » هو المعادل لأمر الحاكم؛ وكانوا يرون ان للحاكم ما يبرر تصرفه في فرض اواصره بالقوة على رعاياه وعلى الذين يساوونه الى اقصى حد تجبزه له سلطته. وليس لضحاياه، على ما كان يراه القانونيون، اي حق مشروع في التذمر؛ ذلك بانهم كانوا (اي القانونيون) يرون ان الطبيعة البشرية هي ذاتيا سيئة، ومن ثم فان الحكم الذي يستطيع ان يفرض سلطانه لا بد ان يكون تمسبا لحالة الطبيعة. فمس المتمدن ان كانت « القانونية » هي الفلسفة التي وضعتها حكومات الدول المتحاربة جمعاء موضع التعميد واقفا، على درجات متفاوتة من الانسجام والقوة.

وطوال الوقت الذي كان فيه العالم الصيني مستمرا في الانقسام السياسي، كان

القانونيون يكادون يحتكرون مجال الوصول إلى النفوذ السياسي. والفلاسفة القانونيون الذين كانوا يتمتعون بالقدرة العملية، كانوا يستخدمون بسرو في بلاطات الحكام كي يعبثوا تنظيم إدارة الدول، ثم كي يسيروها. فقد وصفت دولة تشان التي من مشاهير القانونيين على رأس أدلرتها في الأزمنة، الأمر الذي أصبح منعطفاً في تاريخ تشان وتاريخ الصين بأكمله. فالسيد شانغ يانغ أعاد كل الترتيب الإداري في تشان في السنوات ٣٥٦-٣٢٨ ق.م. ثم دون في كتاب النظرية التي طلقها خلافاً ولي سي (٢٨٠-٢٠٨ ق.م.) كان المستشار الخاص للحاكم الذي هو الملك تشنغ (ملك تشان من ٢٤٧ إلى ٢٢١) والذي أصبح في ما بعد لول. أميرال طور (سيد هونغ - تي) للصين المتحدة من ٢٢١ إلى حين وفاته سنة ٢١٠ ق.م. وقد وضع لي سي حداً لاحتكار المدرسة القانونية للسلطة، وذلك لأنه مكّن سيده، الملك تشنغ من انتهاء الانقسام السياسي، وهو الوضع الذي يعود إليه نجاح المدرسة القانونية.

أثارت نظرية المدرسة القانونية وأعمالها نظريات مضادة. فالمفكرون الذين كانوا ينفقون مع القانونيين بأن المؤهلات للحصول على منصب حكومي لم يعد يصلح أن يكون أساساً شرف المهند، بل أن ذلك لا يجوز أن يستمر، لم يوافقوا القانونيين بأن البديل الصحيح لذلك هو خدمة الحاكم في رغبته في السيطرة. فقد بحثوا عن طريقة (تار) يمكن أن تكون أولى خلقها وإن تكون أساسها الميتافيزيقية أقوى من الخضوع لأوامر حاكم مستبد معني بمصلحته فقط.

ليس من الممكن الاحتذاء إلى طريق السير فيه إذ لم يكن له وجود سابق. لقد وجد كونفوشيوس طريقاً سابقاً في « درب السماء » (تين) وهو حد يبدو أنه كان يعني أصلاً لها فوما شبه إنسان، إلا أنه كان، في إلهام كونفوشيوس، قد تجرد من شطحه. فكما كان كونفوشيوس يرى ذلك، « فدرج السماء » كان حالاً في الصورة الأولى، أي بدائياً، ومن ثم فإنه لا بد أن يكون مطابقاً، بمعنى ما، للطريقة الصينية في الحياة الاجتماعية والسياسية التي كانت تتجسّد سبلها في جيل كونفوشيوس. وقد كان ثمة حاجة من سياسة كونفوشيوس لوقف انحلال المجتمع الصيني تقضي بإحياء الطقس التقليدي (لي) الذي كان حارساً للاحتشام (إ). ولكن ما هو المقياس الذي يمكن أن يقاس به الحكماء وورثوهم؟ وكما كان كونفوشيوس يرى الأمر، فإن الاحتشام الحقيقي لم يكن في السير في شؤون الدولة على قواعد غير خلقية، إن ذلك يتم بالإمادة من

« الإنسانية » (仁) - فالحاكم ووزرائه ورعاياه يتم لهم السير على « درب السماء » سيرا صحيحا، ما دام واحد منهم يتصرف تجاه الآخر باللطف والبر اللذين كان ينتظر من أعضاء الأسرة الواحدة ان يتصرفوا بهما في علاقتهم الواحد بالآخر، بحسب التقاليد.

لقد اشرنا في الفصل الخامس والعشرين الى ان كونفوشيوس اعاد تفسير حد تشون تسو، الذي كان يعني التبذل - اي ابن السيد الكبير، بحيث اصبح يعني الرجل البهيم، بالمعنى الخلقي. وقد استبدلت الدلالة الأصلية بالمجيدة لتزججا على أيدي تلاميذه كونفوشيوس. فشهد منشوس (٣٧١ - ٢٨٩ ق.م) على فضيلة الإنسانية على ما علمها كونفوشيوس. وهسون - تسو (لهه كان نحو ٣١٥ - ٢٣٦ ق.م) شدد على اهتمام كونفوشيوس بموجب الحفاظ على الطمس التقليدي. وكان هسون - تسو يعيش في اشد ادوار النزاع بين الدول المتحاربة ابلاما، ولذلك مال الى نظرية القانونيين بان الطبيعة البشرية شريرة، ومن ثم فانه ليس في مكنتها ان تستغني عن بعض من الضابط الخارجي، نوعا ودرجة. على ان هسون - تسو اظهر انه كان احيلا في تبعيته لكونفوشيوس في استصاليه لكلمة تشون تسو الهامة. ففي كتاباته كانت هذه الكلمة ترد بالمعنى الخلقي الجديده، الا في ما ندر حيث وردت بمعنى النسب.

ان المدرسة الفلسفية الصينية المسماة التاوسية على غير ما يقال، طورت فكرة « الدرب » نظورا ميتافيزيقيا افضل من لفكرة التي طرحها كونفوشيوس. وتلك الفكرة (التاوسية) موضحة في كتابين مشهورين حقا: تلوه تشنغ المعزو الى لاو - تسي والكتاب المعروف باسم مؤلفه تشوانغ - تسو الذي عاش نحو ٣٦٥ - ٢٩٠ ق.م. ومن ثم فقد كان معاصرا لمشيوس وشانغ يانغ. فبالنسبة الى التاوسيين فان « الدرب » هو طريق الحقيقة المطلقة في الكون المجيب وحلته وبمعه وطريق الحقيقة لا جهد فيه ولا مقاومة له وهو نانغ. وهو، في هذه الصفات الثلاث، النقيض لدرب الانسان، الذي ينقص فيه الانسان نفسه بسبب فعاليته المحسومة التي تشوي بالتمف الذي تزيده حدة العبقرية العفلة. وقد كانت التاوسية اقدم فلسفة، في أي مكان من الأويكومين، التي ترحلت الى القول بان الانسان، عندما يتوصل الى الاغتراف للعدنية، قد يؤدي وضعه في الكون، وذلك اذ يخرج نفسه عن الاتساق مع روح الحقيقة المطلقة التي يعيش الانسان بموجبها ويتحرك ويحقق كيانه.

كان التاوسيون يتقصون التقدم في التكنولوجيا وفي التقنية الاجتماعية للإدارة المطلقة

التي عرفتها الصين في القرن الرابع ق.م. (وهو القرون الذي أصبح فيه لكتابي تأريخ تشينغ وتشوانغ - نسو صيغة شبيهة بصيغتهما الخلقية) . وكانت النتيجة العملية للميتافيزيقية التاوسية سياسة الباب المقنوح. فقد صرف التاوسيون النظر عن المثالية الاجتماعية الخلقية، وهي التي وصفها انتاج كوتفوشوس كمعلاج لأمراض المدينة الصينية، على أنها سطحية. وكان العلاج الذي وصفه التاوسيون لدمل الجراح التي خلقها عصر الدول المتحاربة، هو الفصل من المدنية والعودة إلى أسلوب الحياة البشوية التي اتبعتها جماعة العصر الحجري الحديث، التي كانت مكتفية بذاتها. وقد نقلنا، في الفصل الثاني، قطعا من كتاب تأريخ تشينغ، وفيه تتضح روح العصر التاوسية. وهذه الفلسفة الصينية، التي تعود إلى القرن الرابع ق.م.، لا تتناسب مع زمانها ومكانها فحسب، بل لكل الأزمنة والأمكنة وبخاصة إلى الوضع العالمي للبشرية في العقد الثامن الحالي.

لم يكن للتاوسية أي أثر عملي معاصر في صين القرن الرابع ق.م.، وقد وجه إليها النقد من المواقف المتعددة للفلسفات المتنافسة لها من عصر الدول المتحاربة على أساس أنها تنقصها روح المسؤولية اجتماعيا؛ ومع ذلك، وبسبب أنه كانت لها رؤيا، كان لها (للتاوسية) مستقبل في الصين. فقد كان لها مكان، كما كانت لها حاجة، كمقابل للاتجاه العملي الغالب في العقل الصيني، إذ إن الفلسفات التي كانت تعبر عن هذا الموقف الصيني الشائع ترك بعضا من المتحول الصينية غير راضية روحيا.

وعلى كل لم يكن ثمة مكان دائم للفلسفة ذات الرؤيا التي جاء بها مو - تسو (نحو ٤٧٩ - ٣٨٨ ق.م.). كان مو - تسو يرى أن محبة الآخرين لا يجوز أن تكون تدرجية، بل يجب أن تمنح للجميع مساواة. وقد رد منشوس بأن المحبة العامة ليست عملية وبأن المحام مو - تسو على أنه لا يجوز أن ينقص الأمر عن ذلك معناه رفض الفضائل الاجتماعية المسلية للمشاة باحترام الوالدين والولاء السياسي. ولو أن منشوس كان عارفا بالبوذية لكان أشار في هذه المناسبة، إلى أن بوذا تخلى عن زوجته وابنه وابيه، الذي كان ورثا لعرشه، ولكان (منشوس) قارن هذا الانتهاك لحرمة المرحلات الاجتماعية المعترف بها، بالتحالف العميق الذي كان عند (بوذا) لجميع الأحياء الحساسة. وفي الواقع فإن مو - تسو لاء إلى ميادى كوتفوشوس في جماعة تاوست إذ رفض السلطة، وأساء إلى جماعة القانونيين إذ رفض التقليد. كان مو - تسو يختلف عن القانونيين بأنه كان يرغب في استبدال التقليد بالبرهان، لا بالقصر؛ وكان يختلف عن

التأوسيين في شعوره بالاعتناء والمسؤولية نحو جماعته. وقد كان مو - تسو، في هاتين النقطتين، أقرب إلى كونفوشيوس فكريا من اتباع التيرستين الآخرين الذين لم نكون كونفوشييين، إلا أنه لم يكن كونفوشيا بما فيه الكفاية.

إن ظهور هذه المدارس الثلاثة في الفلسفة الصينية، وجمعتها وابتدتها مع الأخرى، أوضح مدى الأوهام المذهبي والمبحث الفكري لعصر الدول المتحاربة.

٣٣- المندوبية الهندية نحو ٦٠٠-٢٠٠ ق.م.

ان معرفتنا عن الشؤون الفنية في الهند للمقرون الأربعة المتبعة نحو سنة ٢٠٠ ق.م. أقل ضالة من معرفتنا للمقرون الأربعة التي سبقت ذلك مباشرة ومع ذلك فإن الأحداث الكبرى في تاريخ الهند التي قامت بين ٦٠٠ و ٢٠٠ ق.م. كتطك التي قامت بين ١٠٠٠ و ٦٠٠ ق.م. كانت على المستوى الفني. وبما ان معرفتنا عن الشؤون الهندية للندية للفترة بين حوالي سنتي ٦٠٠ و ٢٠٠ ق.م. مستقلة من المصادر الهندية، فهي نابعة لأخبار الأحداث الهندية.

كانت الأحداث البارزة على المستوى الفني في الفترة الواقعة بين نحو سني ١٠٠٠ و ٦٠٠ ق.م. هي انتقال الاهتمام من الطقوس إلى التأمل، وقد تم هذا بمبادرة قام بها أعضاء طبقة البراهمة. وزعامة البراهمة في الإقصاء على الهندوية هذا المصطلح الروحي امر غريب في باهه إذا تذكرنا ان البراهمة كانوا يحتكرون الفترة على القيام بالطقوس بفاعلية، وان هذا الاحتكار كان وسيلة لكسب المعج. ويبدو في أهمية الأمر ايضا انه في العصر الذي كانت فيه الديانة الهندية تتجه انماها روحية، كان البراهمة يؤكفون بنجاح دعوهم ضد الكشترية، بأنهم هم أعلى طبقة، على رغم ان فترة المسكرية والسياسة كانت باهدي للكشترية، واستمرت على ذلك.

وفي الفترة بين نحو سني ٦٠٠ و ٢٠٠ ق.م. كانت المندوبية الهندية البارزة هي تأسيس رهبتين هما البوذوية على يد البوذا صعلونا غاوتاما والمجانية على يد الماهاترا فلردهامانا (عاش نحو ٥٠٠ ق.م.). وقد كان كل من هذين المحدثين كشاتريا، ولرسنقراميتاً. كان البوذا ابن ملك وورشا لملكة صغيرة اسمها كابلاناستو، وهي دولة - مدينة كانت تقع داخل حدود مملكة نيبال الحالية وكان الماهاترا (لوجينا وسطاما للصور) ابنا لزعيم قبيلة كشاترية في مدينة فالي عاصمة مملكة فيدها في بهار

الشمالية. لم يلزم أي منهما البراهمة احتكارهم لإتمام الطقوس والآلهة وبظام الطبقات معه. وقد جندوا الرعيان والرملعات والأثنياع العلمانيين من كل الطبقات دون تمييز، ولم يمنع البراهمة أي دور خاص في أسلوب الحياة البوذية والجانية أو دستور الجماعات البوذية والجانية.

لقد كان البودا والملاحانيرا يضعان أمام الناس سبيلا للتخلص من « دورة الولادة الثانية المخزنة » التي كانت، في القرن السادس قبل الميلاد، تعتبر أنها لا نهاية لها، على ما كانت تقول به أكثر المدارس الفكرية في الهند، والفيشاخوريون والأورونيون في العالم الهليني. وقد يكون مصدر هذه العقيدة لأصلي ديانة الشعوب البدوية للرعية الأوراسية التي تفجرت من السهوب وسارت في جهات مختلفة في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد. وفي غروجهم غرباً في ذلك العصر كان البدو قد بلغوا مكاناً قريباً من بلاد اليونان هو الخليج القبري الكبير للسهوب وحوض نهر هيروس (مريكا) الواقع إلى الجنوب من مجرى الدلتوب الأدنى. وفي الهند كانوا قد احتلوا حوض نهر السند.

هذه الغزوة الثانية لحوض نهر السند التي قامت بها شعوب مهاجرة ناطقة باللغة الهندية - الأوروبية هي الحادثة السياسية التي تفصل بين فترة التاريخ الهندي الأول (نحو ١٠٠٠ - ٦٠٠ ق.م)، وفترة التاريخ الهندي الثاني (نحو ٦٠٠ - ٢٠٠ ق.م)، والقسم من الهند الذي استقر فيه الغادسون الجدد كان القسم الأول الذي احتله المهاجسون المبكرون من الهند الذين كانوا يتكلمون اللغة السنسكريتية الأولية. وعلى كل فإنه لم يتجاوز الهامش الشمالي الغربي من شبه القارة. وقد انتشرت الدلية السندية، كما انتشرت غلبتها المدينة الهندوية، التي انشأها المتكلمون باللغة السنسكريتية الأولية، كل منهما بديرها، جنوباً في شرق إلى حوضي نهري جمننا - الكنج. ويبدو أن حوض نهر السند كان لا يزال موطن المتكلمين بالسسكريتية في الزمن الذي كانت تؤلف فيه الفيدا وأن البدو الذين استقروا في القرن السابع قبل الميلاد في حوض نهر السند انتهى بهم الأمر إلى أنهم اتخذوا لغة سكان هذه المنطقة المتكلمين بالسسكريتية، كما اتخذوا أساليب عيشهم. فنحن نجد أن البدو السابقين الذين استقروا هنا يتكلمون لهجات محلية مترعة من السنسكريتية، ويتقبلون الديانة الهندوية والنية الهندوية الاجتماعية المرتبطة بها.

وعلى كل حال، إذ نصل إلى عصر البودا والملاحانيرا نجد أن مركز ثقل المدينة الهندوية

قد انتقل شرقاً في جنوب من البنجاب إلى منطقة تقع حول التقاء أنهار الكنج والفوجرا والصود، كما نجد أن غالبية السكان الهندوية المقيمة في هذه المنطقة والمحاطة دينياً أصبحت الآن تنظر إلى موطن أجدادها في حوض نهر السند نظرة استكوار ومحظار على أنها بلاد شبه هسجية. ويبدو أن هذا الشعور قد تقوى في ذلك العصر، إذ إن استقرار البدو الأوراسيين في حوض نهر السند تبعه ضم ذلك الحوض إلى الامبراطورية الفارسية الأولى. ومن المحتمل أن غورخ الثاني ضم حوض نهر كامبول، وهو رافد من روافد نهر السند، في تاريخ ثال لاحتلاله للامبراطورية الهلينة سنة ٥٣٩ ق.م.، وإن داربوس الأول ضم ما يقلى من حوض السند، حتى دلتا النهر، في تاريخ ثال لقضائه على الثورة الكبرى سنة ٥٢٢ ق.م. التي خلعت في قلب الامبراطورية.

إن الأحوال السياسية في المركز الجديد للقل العالم الهندوي في حوض الكنج، في إيام البوذا والماهافيرا، كانت تشبه الأحوال السياسية في الصين في إيام معاصرها كونفوشيوس. فحوض الكنج كان، على ما كانت عليه الصين، موزعاً سياسياً بين عدد من الدول أهلية ذات السيادة التي كانت تختطف مساحة وقوة. وقد كانت دولة - مدينة البوذا صغيرة، وهي كايلافاستو؛ أما دولة الماهافيرا (وهي الجزء الذي يقع شمالي الكنج من بهار الحالية) فقد كانت أكبر؛ وكانت أكبرها كوسالا، وهي جارة كايلافاستو الجنوبية (في اوتاربرادش الحالية)؛ أما الأخرى لمكانات فهي ماغادلا وهي الجزء من بهار الواقع جنوبي الكنج).

ولقد كانت المنافسة بين الدول الواقعة في المجموعة الهندية في اشتداد في عصر البوذا والماهافيرا. وعلى نحو ما جرى بين الدول المتحاربة في الصين، فإن النزاع الحربي في حوض الكنج انتهى بتوحيد سياسي عن طريق زوال التنافس باجمهم باستثناء الدولة المنتصرة. كانت كايلافاستو ضحية مبكرة. وقد عاش البوذا ليشهد احتلالها على يد كوسالا، وذهب أفراد قبيلته « ساكيا » ومواطنيه. وكما حدث في الصين، فإن المنتصر كان غريباً. ففي الهند لم تنتصر دولة كوسالا التي كانت نسبياً أكبر وأكثر سكاناً، إن التي انتصرت هي ماغادلا.

وفي الهند، أيضاً، لم يؤد الصراع على البقاء بين حكومات الدول إلى تعزيز الوحدة الاجتماعية والمضاربة للمجتمع. كانت غاياه، حيث تلقى البوذا تنوره، هي ماعاداء وحديقة الأبل للخدمة في سلواته، التي كانت الموضع الرئيس للوعظ والإرشاد الذي قام

به البوذا. وقد كانت المدينة مصاحبة للمدينة المقدسة بناروس التي كانت قد أصبحت محجة. ولعل المدينة استدعت لنتباه لبوذا بسبب احتمال العثور في تلك الجهة على مستعمرين يأتون من كل أنحاء العالم الهندي. ولم تكن لا غايا ولا ساتونات في ولاية البوذا الخاصة به، ومع أن البوذا صرف الكثير من وقته في المدينة العامة في ساريات التي كان يتقاعط الزوار إليها كثيراً، فقد كان هو وثلاميذه متنقلين، باستثناء فصل الأمطار الموسمية، إذ كان التنقل صعباً. إن الحدود السياسية كانت حواجز للجيش وكانت عثرات في طريق الجواسيس، لكنها لم تحل دون تنقل الوعاظ الدنيئة، والسالك. إن أصل البوذا الملكي كان يسهل الوصول إلى حاشية الملوك المحليين. لكن ليس ما يدل على أنه كان يفيد من هذا الامتياز بشكل خاص. إن الوعاظ والنسك الهنود كانوا يجتازون الحدود بين الدول المتحاربة بحرية، على نحو ما كان يفعل محاصروهم من السورسطين والفلاسفة الصينيين.

٢٤- التزاحم على السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط

كان القرنان الثامن والسابع ق.م. فترة صمود بالبنية لوجود الأغارقة في حوض البحر المتوسط الغربي. فقد أسسوا لأنفسهم مواطن على الساحل الإيطالي من تراس (تارنتوم)، على الجهة الجنوبية الغربية للقلب (الإيطالي) دورانا (باصابع القدم) وأنهبوا شمالاً على الساحل الغربي إلى جزيرة بتيقوزا (إشفا) وغومي (وهما الدم المستعمرات الأخرى) وابتعدوا، باستثناء مسيليا، التي مشقت إلى الغرب من مضيق أترانتو). وكان الأغارقة قد احتلوا أيضاً السواحل الشرقية والجنوبية لجزيرة صقلية. وهكذا فقد اتبح لهم أن يضمنوا السيطرة على المرور عبر مضيق مسينا، من الحوض الشرقي للمتوسط إلى البحر الثوراني. ونحو سنة ٦٠٠ ق.م. كانوا قد أقاموا مستعمراً صقلية (مرسيليا)، وهي نقطة انطلاق لطريق بحري نهر الرون شمالاً إلى أوروبا القارة ومن ثم، عبر القناة (الأنكليزي) إلى مناجم القصير في كورنوال. وعلى كل فإن أكراس (أغريغنتوم) التي أقيمت على ساحل صقلية الجنوبي سنة ٥٨٠ ق.م. كانت أخطر مستوطنة هامة أقيمت في الغرب. وحتى سنة ٥٠٠ ق.م. كان الأغارقة قد فشلوا في محاولتهم انتزاع الزاوية الشمالية الغربية من جزيرة صقلية من أيدي القرطاجيين وحلفائهم المحليين الإيبسي. وكان القرطاجيون قد سيطروا على مضيق جبل طارق ودفنوه في وجه السفن الإغريقية، كما كان القرطاجيون وبقية الفينيقيين في المستعمرات قد تعاونوا مع الأتراك في مهاجمة دول الأغارقة وربط مستعمراتهم الصقلية والإيطالية بصقليا، وذلك باستيلائهم (القرطاجيين وحلفائهم) على سرديا وكورسيكا.

وفي القرن السابع ق.م. كان الأغارقة الآسيويون الذين أسسوا في التوسع الإغريقي في الحوض الغربي للمتوسط قد أصابهم نكسة مثل النكسة التي لحقت بتماسي الأغارقة أي الميبقيين في سورية منذ سنة ٧٤٥ ق.م. فقد اعتدى على الفينيقيين في بلاد أولاً

الامبراطورية الاشورية ثم خلفاؤها البابليون، وهما دولتان بريتان قويتان. ومهد بحر مئة ٦٦٠ ق م كان الاغارقة الاسويون هدف هجوم واحتلال تدريجي أولاً على أبدي الليديس ثم على أيدي الفرس الذين كانوا قد اجتاحت بلاد الليديين. ومجيء العرس الذي راد في بلية الاغارقة الاسويين، اراح الفتيحيين منذ سنة ٥٣٩ ق.م.. على ان الاغارقة كانوا، في ذلك الوقت، قد ربحوا جوتين ضد خصومهم: التفوق العددي وسيطرتهم الجغرافية على الخطوط الداخلية. فقد كان القرطاجيون مفصولين جغرافياً عن حلفائهم الاتركيين وذلك باستيلاء اليونان على سواحل صقلية وجنوب ايطاليا. ومع ذلك فإن الاغارقة المربين كانوا قد وجدوا انفسهم في موقف الدفاع عن كيانهم نحو سنة ٥٠٠ ق.م. وقد كان احد اسباب ضعفهم الصراع الانتحاري في ما بينهم. فنحو سنة ٥٥٠ ق.م. صحت المستعمرة المدينة - الدولة سيريس من الوجود على ايدي بعض الاغارقة الايطاليين، الذين اعادوا الكرة في ٥١١ - ٥١٠ ق.م. على سيريس ومثلوا فيها الدور ذاته. وقد استعصى عن سيريس بطوري في ٤٤٤ - ٤٤٣ ق.م. واستعصى عن سيريس بهيرافيا في ما بعد، إلا ان الدمار الذي لحقه الاغارقة الغربيون بانفسهم خلال قرن الارمات، القرن السادس ق.م، لم يُغرض تماماً، وقد ظل هؤلاء القوم واحدهم العدو الاكبر تديراً للآخر، حتى انقضت روم واورعتمهم اخيراً على ان يتعايشوا بسلام.

وقد كان من الممكن ان يفرض حكم آخر على الاغارقة الغربيين قبل قرنين من الزمان - لا على ايدي الرومان يومها، ولكن على ايدي الحلفاء القرطاجيين - الاتركيين. لولا ان الاغارقة المقلين نجحوا في الطرف الملائم تماماً، في اقامة لئى سياسة على مستوى مدن - دول ضخمة. وقد تم انجاز ذلك على ايدي حكام مستعدين لجأوا إلى الأساليب الاشورية، أي نفي السكان وذلك لارغاسهم على قبول حكمهم. فقد اقيمت، بين سنتي ٥٠٥ و ٤٩١ ق.م، امارة اغريقية صقلية، في جنوب شرقي صقلية، وعاصمتها سيراقوسة، واستخدمت في ذلك اساليب وحشية كذلك التي استعملها الاسبارطيون في البلوبونيز في القرن الثامن ق.م.. وبين سنتي ٤٨٨ و ٤٨٣ ق.م. امتدت امارة اغريقية صقلية ثانية عبر صقلية من الساحل الجنوبي إلى الساحل الشمالي وذلك بضم هيميرا إلى أكرافاس.

رد القرطاجيون على هذه النقلة الثانية للاغارقة للصقلين في سنة ٤٨٠ ق م. وذلك بالهجوم على صقلية عترة. ليس ثمة دليل ثابت على أن هذه الحملة القرطاجية على

الجزء الأخرى من صقلية وُقِّتت بحيث تجيء في الوقت ذاته الذي قام به العرس بحملتهم على بلاد اليونان الأوروبية الأصلية، إلا أنه من غير المحتمل أن الحملتين لم تكونا مرسومتين. فالقرطاجيون في للمستعمرات كانوا على اتصال وثيق بالعبيثيين في لبنان، وهؤلاء كانوا عالياً قرساً. وقد كان هؤلاء مثل المستعمرين منهم، منافسين تجاريين للأعراق، ومن ثم فقد كان في هزيمة الأعراق نفع لهم. وعلى كل فقد كان انتصار الخلف السيراكوسي - الأخرىختي على القرطاجيين لا يقل روعة عن انتصار الخلف الأسبارطي - الأثيني على الفرس في الستة ذاتها. فقد كان الانتصاران رائعين، هنا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن غالبية الدويلات الأخرىقية. في الغرب كما في بلاد اليونان الأوروبية، لم تحمل السلاح ضد المهاجمين. وفي الواقع فإن الحملة القرطاجية ضد الجزء الأخرى من جزيرة صقلية كان الباحث عليها موقف حاكم حبيرا المستبد المطرود وسيلينوس وريثيون (الدولة الأخرىقية الإيطالية التي كانت تحكم في مضيق مسينا)، إذ أن هؤلاء لم يملأوا حال حرب ضد القرطاجيين.

استمرت الدول الأخرىقية الغربية مدة قرنين وهي تشن حروباً وأحداثها ضد الأخرى - سيراكوسة ضد ريفيون وكروتون، وهاتان ضد لوكري (إزفريان)، التي زج بها كالوئد بينهما. وقد كان للدول الأخرىقية الغربية شركاء في التجارة من الأعراق الشرقيين، فأنحرف هؤلاء الشركاء في النزاعات السياسية على جانبي مضيق أترانتو. فقد تحالفت، قبل سنة ٤٥٠ ق.م. بعض الوقت، دول أخرىقية صقلية والبسنة من خصوم سيراكوسة، مع أثينا، ومرتب على ذلك أن أنحرف الأعراق الأخرىقية، التي الدخول في الحرب الأثينية - البلوبيزية (٤٣١-٤٠٤ ق.م.). وانتهى هذا التدخل بأن شنت أثينا حملة ضد سيراكوسة (٤١٥-٤١٣ ق.م.). وقد ألت المجازفة إلى انكسارها، إلا أنها لم تكن أقل من ذلك أثراً بالنسبة إلى الصقليين للتصميمين. وقد أتاح الأجهاد الذي مني به الأعراق الصقليين الفرصة لملم القرطاجيين للهجوم ثانية على صقلية سنة ٤٠٩ ق.م.، ومسد تلك السنة إلى سنة ٢٧٥ ق.م. كانت الحرب سجالاً بين قرطاجة وسيراكوسة، وكان السجاح والقشل يتعاقبان في تلك المعارك، لكن لم يكتب لأى من الدولتين أن يحصل على نتيجة حاسمة. وعلى سبيل المثال ففي حرب ٣١٢-٣٠٦ ق.م. ضرب القرطاجيون الحصار على سيراكوسة في ٣١١-٣١٠، ثم في سنة ٣٠٩، لكن الحصار فشل، وفي ٣١٠-٣٠٧ هاجم السيراكوسيون بلاد القرطاجيين في

المرينية . وقد كانت حركة جريفة قام بها طاقية سيراقرسة، أغاثوكليس، إلا أنها هي الأخرى انتهت بالقتل. وكان الاغارقة الصقليون قد فشلوا من قبل، تحت قيادة طاقية سابق لسيراقرسة، ان يُقَسِّمُوا القرطاجيين من الزلوة الشمالية الغربية لصقلية سنة ٣٩٨ ق.م. وقد فشلوا في مرة تالية بقيادة بروس في ٢٧٨ - ٢٧٦ ق.م.

كان على الاغارقة الصقليين ان يختاروا بين الوحدة السياسية تحت حكم استبدادي وديمقراطية أو أوليفاركية محلية يكون ثمنها عزق سياسي. وقد كانوا يقبلون بالطغاة عندما كان يدعو لهمهم عظم خضوعهم للقرطاجيين، فلما انحسر الخطر القرطاجي عنهم كانوا يقبلون المطغاة. لقد كان موقع صقلية يجعلها لأن تكون قاعدة لسيطرة بحرية على مياه حوض البحر المتوسط، ولكن، حتى لو نجحت سيراقرسة في توحيد صقلية كلها تحت حكمها، فإن صقلية متحدة وحدها فقط ما كان لها من القوة ما يمكنها من السيطرة على البحر المتوسط كله والبلاد المحيطة به. ان مثل هذا الأمر ما كان ليتم الا لدولة باسكانها ان تجمع بين القيمة الاستراتيجية من السيطرة على صقلية مع الاستيلاء على الموارد البشرية والاقتصادية التي يمكن الحصول عليها اما من إيطاليا أو من شمال غرب إفريقيا.

إن المستوطنين الاغارقة في صقلية لجحوا في توحيد صقلية على المستوى الحضاري من طريق « خَلْقَة » الجزيرة بجمعها، بما في ذلك المقاطعات الصقلية غير الاغريقية، التي كانت، حصصاً سياسياً للاغارقة من الناحية السياسية. وقبل نهاية القرن الخامس ق.م. لم يكن جميع سكان صقلية قد أصبحوا ناطقين باليونانية، بل انهم ليسوا بنظام المدينة - الدولة الاغريقية، بحيث أصبحت مدن - دول صقلية، ليست من اصل اغريقي، تسلك النمود وتفيد الهياكل على الاسلوب الهليني. وفي الجهة الأخرى لم تسكن اللغة اليونانية من الاغشار في البر لصالح للمستوطنات الاغريقية، وحتى هذه المستوطنات بعضها انتهى بها الأمر إلى أن تخلف عليها لغات البلاد. وقد حدث هذا في لكومي وبوريديوتيا (باتيلم) قبل نهاية القرن الخامس ق.م. وفي سنة ٢٨٩ ق.م. تمكن مواطنون من ليرترقة السابقين الجاحين لطاقية سيراقرسة للزول، أغاثوكليس، من الاستيلاء على تشبا، على الساحل الصقلي للمضيق.

القبس نظام المدن - الدول في شمال غرب شبه جزيرة إيطاليا وفي تروريا وألبانيا وفي الساحل الغربي جنوباً بما في ذلك كابرانيا. وقد القبس هذا النظام أيضاً في المنخفضات

الجنوبية الشرقية من « العقب » وحتى « اللهماز » أما في المرتفعات القائمة بينهما، فقد كان السكان المواطنون لا يزالون يتبعون تنظيمات قبلية، مع أنهم لم يهتموا عن قبول الحضارة الهلنسية (فقد قبلوا الأسلوب الاغريقي الغربي من الأكتفاء الفنية). وقد ظلت إيطاليا، في الفترة الممتدة من نحو ٦٠٠ إلى ٢٢٦ ق.م. أكثر تباينا من صقلية على مستويات الحياة جميعها. ومع ذلك، كما حدثت، وجدت رومة إيطالية سياسياً بين نحو ٢٤٠ و ٢٦٤ ق.م. وكان نجاح رومة في توحيد إيطاليا قد فتح أمامها المجال لتوحيد البلاد المحيطة بالبحر المتوسط بأجمعها. وعلى كل فإن رومة لم تكن الدولة الأولى التي حاولت توحيد إيطاليا سياسياً، ومع أن رومة نجحت حيث فشل سابقتها، فإن نجاحها لم يكن سهلاً.

جاءت المحاولة الأولى لتوحيد إيطاليا سياسياً على يد الأترسكيون بين نحو ٤٢٣،٥٥٠ ق.م.. ففي القرن السادس ق.م. استولى الأترسكيون على رأسي جسر، عند فينينا في رومة، على الضفة اليمنى لنهر الكبير الأدنى، ثم استولوا بعد ذلك على المنخفضات، في الجنوب الشرقي، حتى أرض كومي المحلصة. وانتزعوا، في الجهة المعاكسة، من سكان المرتفعات الليغوريين لئسر اللودي من فيسولي إلى فلينا (بولونيا). وقد أسعدوا بتطوير إمكانيات الثروة الزراعية في حوض نهر البو عن طريق تحفيظه، وتعاونوا مع الأخارقة في إقامة ميناء تجاري في سينا، في المستنقعات الواقعة حول مصب نهر البو. وقد ساعدت الأحوال الأترسكيين إذ أنه نحو سنة ٥٠٠ ق.م. على ما أشرنا إلى ذلك قبلًا، قامت اضطرابات في داخل أوروبا القارية أدت إلى تحويل التجارة من وادي الرون إلى حوض نهر البو عبر الممرات الألبية.

وبناءً على نحو سنة ٥٢٥ ق.م. كما لو أن الأترسكيين كانوا على وشك توحيد حوض نهر البو، لا شبه جزيرة إيطاليا قط، وذلك تحت حكمهم. على أنهم حاولوا سنة ٥٢٤ ق.م. أن يحتلوا كومي لكنهم فشلوا. وبين نحو سنة ٥٠٩ وسنة ٤٧٤ ق.م. فقدوا سيطرتهم على لانيوم وعلى رومة وفي سنة ٤٧٤ ق.م. غلبهم السبرالوسيون في معركة بحرية قبالة كومي، وبين نحو سنة ٤٥٠، ٣٥٠ ق.م. عسر الأترسكيون معظم مستوطناتهم في حوض نهر البو وذلك على أيدي برابرة قلتين (غالتين) جازوا من الجهة القصوى لجبال الألب. وفي سنة ٤٢٣ ق.م. انتزع الجلبليون الأوسكان، الذين جازوا من المرتفعات الشمالية لكاسانيا « كابوا » من الأترسكيين ومن ثم في سنة ٤٢١

ق م. انتزعوا هم أنفسهم كومي من الأغارقة. ومن ثم فقد يرجع فشل الأتراكيين سياسياً للسبب نفسه الذي نذى بالأغارة إلى القتل. فالأتراكيون، على عكس البيغيين المستعمرين، لم يقبلوا بأن يضعوا أنفسهم تحت قيادة موحدة. فقد جاء توسعهم نتيجة للأعمال التي قامت بها دول - مدن منفردة أو حتى التي تمت على أيدي قادة مقاتلين مغامرين منفردين. وانتهى الأمر بالدويلات الأترسكية بأن قبلت بأن تقع تحت سيادة رومة، الواحدة تلو الأخرى.

كان الأتراكيون في موقع يمكنهم من توحيد إيطالية جمعاء من جبال الألب إلى أصابع القدم، ولو أنهم تكاتفوا في عملهم لكان النجاح رائدهم. والأغارقة الإطاليون لم ينظروا جدياً إلى توحيد حتى شبه الجزيرة الإيطالية. لقد كانوا فئة صغيرة من حيث العدد، وكانوا بعيدين عن موطنهم، وموق ذلك كله، كانوا يترهبون الفرص لتدمير بعضهم البعض الآخر. (لقد فشل الأتراكيون في التكاتف، إلا أنهم لم يدمروا بعضهم البعض على نحو ما تم على أيدي الدول - المدن الاغريقية).

كانت الدول الاغريقية الإيطالية التي كان موقعها الأكثر صلاحية للقيام بعمل توسعي هي المفسرة الاسبارطية ثراس (تارنتوم) التي انشقت نحو سنة ٧٠٧ ق.م. لكن التارنتيين انكسروا كسرة بشعة على أيدي أهل بلاد المنطقة الجنوبية الشرقية المنخفضة، وذلك سنة ٤٧٣ ق.م.

لقد اشرف الأغارقة على توحيد مقلية وشبه الجزيرة الإيطالية تحت سيادة سيراكوسة، وذلك ابام حكم طاجية سيراكوسة ديونيسيوس الأول (٤١٥ - ٣٦٧ ق.م.). بدأ ديونيسيوس عمله بأن أقام تحصينات حول مدينة سيراكوسة فأحاطها بسور، كان يتوج مرتفع الهضبة إلى الغرب من المنطقة المسكونة، الأمر الذي جعل سيراكوسة أضخم وأوى مدينة مسورة في حوض البحر المتوسط. وثناء الحرب الأولى مع قرطاجية (٣٩٨ - ٣٩٢ ق.م.) حشر ديونيسيوس القرطاجيين وطفانهم الأيلستيين في الزاوية الشمالية الغربية من جزيرة صقلية. ثم عقد اتفاقاً مع دولتين اثريقتين إيطاليتين هما لوكري وقراس ومع رجال القبائل اللوكاين، المقيمين في البلاد المتاخمة لأصابع قدم إيطالية، ومع القبائل القلتية التي كانت يومها تغلب على المستوطنات الأترسكية في حوض نهر اليبو. وقد كانت الهدف الأساسي لديونيسيوس في جنوب إيطالية مدينة كاثيري، أقصى مدينة جنوبية أترسكية تقع على الساحل. ولنا ان نخش ان نهب رومة، وهي حليفة، كاثيري، على أيدي القلتيين

سنة ٣٨٦ ق.م. تم بتشجيع من ديونيسيوس، وثق هذه كانت الخطوة الأولى في حملاته ضد كايري. وقد هزم نهابو رومة من القلتين على أيدي أهل كايري، وتقدمت كايري وسيلبا لاسداء يد المون لرومة. ونحو سنة ٣٨٤ ق.م. جعل ديونيسيوس من البحر الادرياتيكي بحيرة سيراكوسية إذ أقام مراكز بحرية في الأماكن الاستراتيجية على سواحله وفي الأرخبيل الدالاسي. ومكن له هذا من الاتصال المباشر مع القلتين المقيمين شمال شرق جبال ابيون، وتهديد الأكرسكيين من الجهة الادرياتيكية. وفي الوقت ذاته، ونحو سنة ٣٨٤ ق.م. أيضاً قام اسطول ديونيسيوس الموجود في البحر التيراني بنهب بيرجي، التي كانت المياه الرئيس لكايري، والذي كانت رومة تهدد منه أيضاً. كان ديونيسيوس، في ذلك التاريخ، يسير في سبيل بناء امبراطورية صقلية - ايطالية، إلا أنه فشل في أن يبيع هجمته على بيرجي باحتلال مدينتي كايري ورومة.

اجترح ديونيسيوس غلطيند فقد هاجم في سنة ٣٩٠ ق.م. المدن - الدول الاغريقية الإيطالية التي كانت على خصومة معه، ومع أنه نجح أخيراً في احتلال رغبون في سنة ٣٨٧ واستولى على كروتون، فإن هذه الحرب الطاحنة التي شنها بعناد ومرارة كانت تيجتها ارهاق سيراكوسة وفربستها من المدن الاغريقية الإيطالية. وكانت غلطة ديونيسيوس الثانية الحملة الثانية ضد قرطاجة سنة ٣٨٣ ق.م. فقد كُبر في هذه المرة، وكان عليه أن يعقد صلحاً في سنة ٣٧٨ ق.م. كان ثمنه التنازل عن جزء من الأرض. وقد ضحت هاتان الغلطان اللذان اجترحهما ديونيسيوس الميدان الإيطالي امام منافسين آخرين. ولم يكن ابن ديونيسيوس الأول ديونيسيوس الثاني (في سيراكوسة ٣٦٧-٣٥٦)، وفي لوكري ٣٥٦-٣٤٧. ثم في سيراكوسة ثانية ٣٤٧-٣٤٤ ق.م.) كفوا لتحمل العبء الذي ورثه، وقد بدأ انحطاط سيراكوسة في أيامه، وهو الأمر الذي لم توفقه لا زيارتي الغلاطون الثانية والثالثة لسيراكوسة في سنتي ٣٦٧ و ٣٦١ ق.م. ولا عدالة الحكم الذي أقامه ارخيناس في قراس بين ٣٦٧ و ٣٦٠ ق.م. وهو الحكم الذي قام مؤخراً على أساس المثال السياسي الاغلاطوني أي حكم الملك - الفيلسوف.

وكانت قد وصلت حال الاغارة الفريين درجة مؤلة من اليأس في سنة ٣٣٤ ق.م. بحيث اعدوا يستصرخون اقاربهم المقيمين الى الشرق من مضيق لوترانتو. وكان أول المقدس الستة من الاغارة الشرقيين الذين استجابوا لنداء الاستغاثة، بين ٣٣٤ و ٢٨٠ ق.م. هو أكبرهم قدراً وأجملهم. فقد نجح تيمولون، وهو مواطن من كورث، وهي أم

سيراقوسة، مع أن مولوده كانت ضئيلة، في القضاء على ديونيسيوس الثاني وعلى بقية الطغاة المحليين من الأغارقة الصقليين. ثم انتصر على القرطاجيين بعدما وضع نفسه على رأس الأغارقة الصقليين للتحلّين. وفي الفترة التي مرت بين قدومه سنة 311 واستحابه الطوشي سنة 337 ق.م. أقام حكومات ديمقراطية معتدلة في سيراكوسة وبقية الدول الإغريقية الصقلية، وقد ضمها في اتحاد واحد، ووجد بعضاً من اللد - الدول الإغريقية الصقلية مع سيراكوسة، وذلك عن طريق منح وعطاياها للمواطنة السيراكوسية، إضافة إلى مواطنهم الأصلية. وهذه الدول لم تجرّد من حكمها الذاتي المحلي. وقد انتعش نيموليون الأغارقة الشرقيين بإرسال أعداد كبيرة من المستوطنين الجدد، كما انتعش الأغارقة الصقليين بقبولهم. (إن التفجر السكاني الذي بدأ في العالم الهلني في القرن الثامن قبل الميلاد، كان لا يزال يحد على نشاطه في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، بحيث أنه زوّد نيموليون في صقلية بهؤلاء المستوطنين، كما زوّد الاسكندر وخلفاؤه في آسيا بأعداد أكبر). ربما يؤسف له أن عمل نيموليون المستتب البناء لم يكتب له أن يعيش طويلاً بعده.

والخمس الآخرون من الأغارقة الشرقيين الذين جاؤوا « لانقاذ » الأغارقة الغربيين كان نسلهم اسرع. لقد جاؤوا من دولتين: من اسبارطة، التي كانت الأم - الدولة لقراس، ومن إبيروس، التي كانت أقرب دولة إغريقية شرقية لمضيق أقرانتو. لقد كانت موارد كل من اسبارطة وإبيروس ثرية من موارد كوروث في ضائتها بالنسبة إلى إنقاذ الأغارقة الغربيين. ولم يتمكن خلفاء نيموليون (في المحاولة) من اسبارطة وإبيروس من حمل الأغارقة الغربيين على التعاون في سبيل انتفاضة أنفسهم، على نحو ما فعل نيموليون. فملك اسبارطة، أريغنداموس الثالث، الذي وصل سنة 343 ق.م. ليمساعد قراس ضد الحلف السبتي، في البلاد الواقعة خلفها، قتل في معركة سنة 338 ق.م. و « المنفذ » الذي تلاه، الاسكندر الأول ملك إبيروس، وصل نحو سنة 334 ق.م. وقتل سنة 331 ق.م. والحملتان اللتان قادهما اميران اسبارطيين: أكروتاتوس ضد سيراكوسة سنة 315 وراحوه كليسيموس ضد إيطاليا سنة 303 ق.م. - كلتا خاتمتين.

وأخر « للنقد » وأقلهم ضعف أثره، كان بيزوس ملك إبيروس، الذي قاد حملاته ضد الرومان في إيطاليا بدعوة من التارنتيين، ضد القرطاجيين في صقلية بدعوة من الأغارقة الصقليين، واستمرت حملاته من 380 إلى 375 ق.م. وأصاب بعض السجاج

بسبب تقع للفرطاجيين والرومان من مد يد المعونة، الجماعة الواحدة إلى الأخرى، هي الجبال العسكرية والبحري، ضد عدوها المشترك القوي. وكاد بيروس أن يفهم امبراطورية أبيروسيّة، التي كان من المحتمل أن تشمل كل صقلية وكذلك جنوب شرق إيطاليا، وربما تيراسينا في الشمال الغربي. ويعود بعض فشله إلى صلاته موارد أبيروس، وبعضه الآخر سببه تقلبه الشخصي. وهو أمر كان بيروس بسببه دون ثبات بناء الامبراطورية من الرومان الذي كان يحاول احتوائهم. لقد وصل مختاراً رسماً. وفي سنة ٢٧٢ ق.م. دفعت تراس، وإضافة إليها السمنون في جنوب إيطاليا، اللذين كان يتكوّن منهما حللاً لوكانيا وبروتيا، في أيدي رومة. وتم توحيد شبه جزيرة إيطاليا تحت حكم رومة سنة ٢٦٤ ق.م.

كان موقع رومة ممتازاً لتوحيد شبه الجزيرة الإيطالية. فقد كانت تسطر على أدنى جسر على نهر التيبر، أكبر نهر في شبه الجزيرة الإيطالية. ونهر التيبر كان يصب في البحر التيراني في منتصف الأراضي شمال غرب شبه الجزيرة المنخفضة. مع أن فاي، جارة رومة الأترسكية في الداخل، وهي التي احتلتها رومة ودخلتها سنة ٣٩١ ق.م. وجاراتها الأترسكية البحرية كاري، التي ضمتها رومة سنة ٢٧٤ ق.م. كانا في موقع له أيضاً صلاحية موقع رومة لبناء امبراطورية. وقد كانت رومة مدينة في نجاحها إلى الحفكة السياسية التي تتمتع بها بلاؤها، الذين احتفظوا بالسلطة في أيديهم. لكن هذه القدرة الأصلية ما كان لها أن تؤتي أكلها لو لم ينجح لها أن تنضجها التربة الهلينية. فقد تهلّين الرومان بالواسطة أولاً، عن طريق الحكام والمواطنين الأترسكيين ثم مباشرة بعد ذلك عن طريق الاتصال بكموي، وهو الاتصال الذي اتسع تدريجاً حتى شمل بقية العالم الهليني.

كانت رومة من صنع الأترسكيين الذين كانوا قد توطئوا هناك نحو سنة ٥٥٠ ق.م. وانشأوا مجموعة من القرى اللاتينية التي تعتمد الرعية مصحراً للقوت. وقد جعلوا من هذه مدينة - دولة أترسكوية، كثيفة السكان الموزعين في أملاكها الريفية وكانت المدن - الدول وتجمعات المدن - الدول الصيغ الوحيدة المقبولة للتشكيلات السياسية في حوض البحر المتوسط في الألف الأخير السابق للميلاد. وهذه المؤسسة - السورمية الأصل، شاعت عند الفينيقيين والأترسكيين والأغارقة. وأي تشكيل سياسي لم يتسق مع نموذج المدينة - الدولة كان يمتوره نقص شديد. وقد كان هذا أحد الأسباب التي أدت إلى

مثل مقدونية وبيوتلية وسشيوم وإلى نجاح رومة. فاستور رومة التي على فكرة المدينة - الدولة وحضارتها كانتا يتركان قرأ حسناً كما كانتا يجذبان الشعوب التي كانت لا تزال في طور سابق للمدينة - الدولة من حيث تطورها السياسي. وقد كان هذا هبة من رومة اعترت شعوباً كثيرة متأخرة على أن تتقبل الانضمام إلى الكيان السياسي الروماني. وبخاصة فقد كان دستور رومة اللبني على المدينة - الدولة عموماً لرومة في صراعها مع الحلف السخني، إذ أن أكثر أعضائه كانوا يمد في التطور السابق للمدينة - الدولة بين سنتي ٣٤٣ و ٢٧٢ ق.م.، وهي الفترة التي دارت فيها رحى الحرب الرومانية السخنة.

بدأ منذ نحو سنة ٥٥٠ ق.م. كان مصير رومة يتأثر بشكل دقيق بالأحداث التي تجري في العالم غير الروماني المحيط بها. فخضوع رومة للطغاة الأترسكيين من نحو ٥٥٠ إلى ٥٠٩ ق.م. أو لملك إلى نحو سنة ٤٧٤ ق.م. جعل منها مدينة - دولة، وإمبراطورية مصغرة بالنسبة لاتباعها من اللاتين. وكان الشخص الذي دفعه رومة لتخلصها من الحكم الأترسكي هو عمر اللاتين من حكمها. فأصبح هؤلاء اتحاداً من المدن - اندول وهذا انضم إلى دولة - مدينة جمهورية رومة على قدم المساواة. وعلى كل فإن تصفية النظام الأترسكي في رومة لم يفض على الملائات بين رومة وقرطاجة. لذا ندرى في ما إذا كانت المعاهدة الرومانية - القرطاجية المفقودة نحو ٥٠٦. ٥٠١ ق.م. الأولى في سلسلة من المعاهدات، أم أنها عقدت بعد تدشين عهد الجمهورية في رومة أم قبله، إلا أنه قد تكونت عدة معاهدات رومانية - قرطاجية تالية، فقد تكونت لربما، ثم عقدها قبل أن تقع الواقعة بين الدولتين في سنة ٢٦٤ ق.م. وكانت هذه المعاهدات في مصلحة القرطاجين.

إن احتلال رومة لفاي وتدميرها وضم بلادها بين نحو ٣٩٣ و ٣٨٨ ق.م. أدى إلى ازدياد قوتها إلى ضحني ما كانت عليه، الأمر الذي أفاق اللاتين وحمل ديونيسيوس الأول على القيام بحملته ضد رومة وضد حليفتهما كاييري. ونهب رومة على أيدي القلت السيونيين في سنة ٣٨٦ مكن للحلف اللاتيني من فك لوتباطه برومة. وبين سنتي ٣٨٦ و ٣٥٦ ق.م. وفي ما كان ديونيسيوس وابنه يلي واحدهما الآخر في حكم سيراوسة، تعرضت رومة وأرضها لسلسلة من الهجمات القالية التي بدأها ديونيسيوس من قاعدة مي أبوليا. وهذه الحملات منعت رومة من حمل اللاتين على العودة إلى مشاركتها. وقد

حدثت في سنة ٣٤٦ ق.م. غزوة غالية صاحبها انفعال جديد قام به اللاتين، وهي السنة التي عاد فيها ديونيسيوس الثاني إلى سيراقوسة مؤقتاً. وكان ظهور أرخبيلائس الثالث في جنوب إيطاليا من ٣٤٣ إلى ٣٣٨ ق.م. حائزاً للسيويين على عقد صلح نسوية مع رومة، على شرط ترك المدن - الدول في كامبانية تحت هيمنة رومة. وقد بدا واضحاً أن حملات بيروس في الغرب (٢٨٠ - ٢٧٥ ق.م.) أثرت في مصير رومة بطريقة مباشرة وبشكل حيوي.

ومثل أكثر الدول الأخرى في أكثر الأزمنة والأمكنة الأخرى، كانت رومة توسع أملاكها حينما تمنح لها الفرصة وحينما تسر ذلك. والمثل المبرر على ذلك هو هجومها المستمر بشدة على فاي الذي انتهى باحتلال فاي نحو ٣٩٢ - ٣٨٨ ق.م.

واحتلال رومة لما تبقى من شبه الجزيرة الإيطالية واحتلال صقلية الذي تلا ذلك انطلقا من صقلي اعتداء روماني، وقد كان كل منهما مقصوداً ولو أنه من الممكن أن الحكومة الرومانية لم تكن تدرك ذلك، ولعلها لم تتوقع العواقب التي ترتبت على ذلك، في أي من الحالتين. في سنة ٣٤٠ أو ٣٣٩ ق.م. تخلفت رومة شنوم بوضعها المدن - الدول في كامبانيا تحت جناحها. وذلك كان مخالفاً لمعاهدة رومانية - سنية كانت قد عقدت سنة ٣٥٠ ق.م. وفي سنة ٢٩٤ ق.م. تخلفت رومة لفرطاجة بأن وضعت تحت حمايتها الإيطاليين الممارتين الذين كانوا يقيمون في مسينا (وهم مرزقة أفاثوكليس القدامى) وذلك خلافاً لمعاهدة أو على الأقل لفصام بين رومة وفرطاجة.

في سنة ٢٩٤ ق.م. كانت رومة قد تمسكت في مشروع كانت تسبجه فذل الأترسكيين أولاً ثم فشل طاغية سيرلرمة ديونيسيوس الأول. وقد تم لها الآن توحيد شبه الجزيرة الإيطالية تحت حكمها، فما هي الوسائل التي مكنت لها من مثل هذا الإنجاز؟ أشرنا من قبل إلى واحد من أرصدة رومة. ذلك أنها كانت قد نُظمت تنظيمياً معالاً كسدينة - دولة وذلك على يد الطغاة الأترسكيين الذين مروا بها لأملاً. ثانياً كانت روما قد تم لها أن تقيم تنسيقاً سياسياً داخلياً بعد قضائها على النظام المستبد وأن تحافظ على هذا التنسيق. كان المؤلف في المدن - الدول اليونانية، في مثل هذه الحال، أن يعقب ذلك نزاع على السلطة بين الأحزاب التي كانت مصالحها تتعارض. فعلى سبيل المثال هذا ما حدث في أثينا حيث قضى على البزستراتيين في الوقت ذاته تقريباً الذي اتصى فيه التركوتون في رومة. وفي رومة أيضاً تلا إقامة نظام ديمقراطي نزاع أهلي، لكن في

سنة ٣٦٤ ق.م. اتفق الاستقراطيون الرومان مع زعماء أكثرية المواطنين المهملين، وعلى حساب هذه التفتة بالذات. وهذا الاتفاق الشرير دام حتى سنة ١٢٣ ق.م. ولم تعكره سوى هرات علمة قليلة (مثلاً سنة ٣٢٩ وسنة ٢٨٧ ق.م.) وهكذا فإن التعطية على الظلم الاجتماعي والسياسي داخلية مكن لرومة أن تبرز أعلام جبراتها موحدة الجبهة.

كانت سياسة الأوليفاركية الرومانية المنسرة في تسيير شؤون رومة الخارجية هي دهم مناظرهم في الدول الأخرى. ومثل هذه السياسة الرومانية كانت تفري الأوليفاركية الأجنبية - عندما تحس بأن مركزها كان قلقاً، في أن تضحي باستقلال الدولة في مقابل الحصول على دعم من الأوليفاركية الرومانية التابعة للقواعد. والمؤامرة بين الأوليفاركية الكابوية و « المؤسسة » الرومانية هي اشل الكلاسيكي على هذه المنورة الرومانية لجر الدول الأجنبية إلى احتليل رومة.

توثقت اتفاقات المؤسسة الرومانية مع الأوليفاريكات الأجنبية بواسطة الصداقات الأسرية والزيجات المختلطة. وعلى العكس من ذلك فإن مواطني الجماعات التي فرضت رومة عليها أن تكون من حلفائها على شروط رومة بالذات، حول بينها وبين التعاون في ما بينها ضد رومة، وذلك عن طريق منحها أحياناً، من الزواج المختلط ومن التجارة بين هذه الدول. وكان على حلفاء رومة، كما كان على حلفاء إسبارطة من قبل، أن تزود جيوش رومة بمصائل من الجيش. ولم يمكن لهم، على عكس ما كان عليه حلفاء إسبارطة، أي رأي في القرارات السياسية التي كانت تورطهم في حروب رومة. ولم يكن على حلفاء رومة، على نحو ما كان عليه حلفاء إسبارطة، وعلى عكس ما كان عليه حلفاء أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد، أن يدفعوا أية مبرقة نقدية للقوة المسيطرة. لقد استغلوا دون أن يهاتوا.

بعد أن كجز الحلفان اللاتيني والكسياني في سنة ٣٣٥ ق.م. وهما اللذان كانا قد انفصلا عن رومة في ٣٣٧ ق.م. حل الحلفان. وفي سنة ٣٣٤ ق.م. ضم عدد من المدن - الدول اللاتينية والكسيانية إلى الكيان السياسي الروماني، دون أن تجرد من الحكم الذاتي المدني. وقد منح مواطنوها، في بعض الحالات، حقوق المواطنة الرومانية كاملة، إلى جانب الواجبات المرتبطة بها التي لقرت على عاتقهم. وفي حالات أخرى فرضت عليهم الواجبات كلها دون أن يمتنعوا أيها من الحقوق. ولعل هذا النظام الروماني دا « المواطنة المزدوجة »، صيغ على الصلة التي أقامها تيموليون بين سيراكوسة وبعض

المدن - الدول الصقلية بين ٣٤٤ و ٣٣٧ ق.م.. لقد أزعجت سيراقوسة رومة اراجاجاً كبيراً من سنة ٢٨٦ إلى ٣٤٦ ق.م. بحيث أن الحكومة الرومانية كانت ترافق شؤون سيراقوسة بمتى الدقة.

وفي سنة ٣٣٣ ق.م. قامت رومة بتجربة أخرى في « المواطنة المزدوجة »، فقد أنشأت مستعمرة صغيرة في انثيوم لحفر السواحل مكونة من مواطنين رومانيين، وصحتهم دستوراً لحكم مدني ذاتي دون ان تجردهم من مواظتهم الرومانية. وأنشأت هذه وغيرها من مستعمرات حفر السواحل التالية على غرار المستعمرات اللاتينية التي كان اتحاد المدن اللاتينية قد أنشأها، وهو الاتحاد الذي شُئ. ومنحت رومة هذه المستعمرات وضع حلفاء من الدرجة الأولى، وقد زادت عددها مع توسعها في السيطرة على ايطاليا. وأقامت رومة مستعمرات لاتينية جديدة في أماكن استراتيجية مختارة، وعهدت إليها بأن تكون حاميات لضبط البلاد المفتوحة.

كان اكتشاف الجغرافية الاستراتيجية لشبه الجزيرة الايطالية واستغلالها في غاية المهارة. بين ٣١٨ و ٣١٣ ق.م. أحاطت رومة بسميوم وذلك بالاعتداء إلى طريق يجتاز جبال الابنين الوسطى ويمطي رومة موطن، قدم في لبريا. وبين ٣٠٤ و ٢٨٩ ق.م. عزلت جنوب شبه الجزيرة الايطالية عن الدول الايطالية المستقلة في الشمال وذلك عن طريق التغلب على بعض شعوب الجبال وإقامة سلسلة من المستعمرات اللاتينية ومستعمرات رومانية لحفر السواحل ومستوطنات لمواطنين ورومانيين على أراضي مصادرة، دون ان يكون لهذه المستعمرات حكم ذاتي.

كانت سياسة رومة تقوم على أساس التفرد بالحصوم الذين تنوي القضاء عليهم. فبعد طرد ديونسيوس الثاني من سيراقوسة في سنة ٣٥٦ ق.م. لم يبق منافس ذو بال لرومة سوى « الحلف اللاتيني ». ومن ثم فقد ركزت رومة جهودها، منذ سنة ٣٥٠ إلى ما بعد انسحاب يروس من ايطاليا سنة ٢٧٤ ق.م.، على التوسع جويّاً وعقدت مع الدول الأترسكية عدة بعد هدنة (لم تعقد معاهدات دائمة) كي تظل هذه هدنة بل إلى رومة ذهبت إلى حد التزلف إلى الفلطينيين السيونيين، الذين كانوا قد نهوا رومة سنة ٢٨٦ ق.م. والذين كانوا قد استقروا على الساحل الاندرياتيكي لشبه الجزيرة الايطالية تماماً إلى الشمال من مستعمرة انكونا السيراقوسية. في سنة ٢٣٠ ق.م. فتحت رومة السيونيين ان يعقدوا هدنة معها، مدتها ثلاثون سنة، وقد حافظ هؤلاء على وعودهم.

ومن ثم فإنه بعد انسحاب بيروس واستسلام التشنين كان جيران رومة الشماليون تحت رحمتها، إذ أطلق هذان الحادثان يدها لاختضاع آخر ما تبقى من الدول المستقلة في شبه الجزيرة.

وفي الحرب الرومانية القرطاجية، بين ٢٦٤ و ٢٤١ ق.م. تجددت الأساطيل والجيوش على مستوى لم يعرف له مثيل في تاريخ الحرب في حوض البحر المتوسط، كما أن الخسائر في الأرواح كانت مثل ذلك. وهذه الحرب الكبرى انتهت برومة إلى الاستيلاء على كل صقلية باستثناء أملاك سيراقوسة، وعلى كل شبه الجزيرة الإيطالية. وأملاك سيراقوسة كانت في سلم في ما كانت بقية إيطالية منطقة حرب تعاني الأمرين من وبلاات الحرب. وقد أتيح لهذا الجزء من صقلية أن يتجر بنفسه بسبب ما كان يتمتع به هرون من تعقل. وهرون كان الأكثر اعتدلاً في سلسلة طفلة سيراقوسة. فقد غير هرون ولاه في سنة ٢٦٣ ق.م.، ولكنه فعل ذلك بنوع من الرؤيا المستقبلية، ومن ثم فقد قضى السنوات الثماني والأربعين الأخيرة من حكمه، وحتى وفاته سنة ٢١٥ ق.م. وهو عميل رومة الأمين. وقد كانت السنوات من ٢٦٣ إلى ٢١٥ سنوات سعيدة في تاريخ سيراقوسة المضطرب، كما كانت السنوات ٣٤٤-٣٢٧ ق.م.، وقد دام السلام الهيروني سبعة أضعاف المدة التي عرفها حكم ثيموليون.

وبالنسبة إلى رومة فإن نتيجة حربها الأولى مع قرطاجية انتهت بأن أصبحت القوة البحرية المنافسة في الحوض العربي للبحر المتوسط. وفي سنة ٢٣٨ ق.م. في ما كانت لقرطاجية مشغولة الحركة بسبب ثورة قام بها المرتزقة في إيريكية - وهؤلاء المرتزقة هم الذين اضطرت قرطاجية إلى إجلائهم عن صقلية وكانت قرطاجية تحاول التخلص منهم بأسر الشروط - اختبست رومة الفرصة فاستولت على ماردينيا ولوغست قرطاجية على الضلعي عنها لها. وعلى كل فإن ثورة المرتزقة أنهىها هملكار بركة (الصاعقة)، في سنة ٢٣٧ ق.م. وهو يظل الحرب الحديثة مع رومة. وفي السنة نفسها قاد هملكار حملة إلى إسبانية. وفي سنة ٢٢١ ق.م. كان هملكار وصهره وخليفته همدرويل قد أقاما، في شبه جزيرة إيبيريا، إمبراطورية قرطاجية برية جديدة، كانت أوسع وأهم بكثير من الرورس الساحلية التي خسرتها قرطاجية في الجزء لشمالي الغربي من صقلية. وفي سنة ٢٢١ خلف هنييل (هنيال) ابن هملكار، همدرويل في القيادة في إيبيريا. وكان هميل قد اعتزم منذ مدة طويلة أن يتقم لانكسار قرطاجية على يد رومة في حرب ٢٦٤-٢٤١

ق.م. وأصبح الآن في وضع يمكنه من القيام بهذه المحاولة. وهكذا فإن الوضع في سنة ٢٢١ ق.م. كان، هي ما يتعلق بالمحوض الغربي للبحر المتوسط، غير حاسم، على نحو ما كان عليه في المحوض الشرقي للبحر نفسه. وفي الدور التالي لتاريخ التطرف الغربي لايركز على العالم القديم، كان على هاتين النقطتين أن تتحدا في ميدان واحد للحروب.

٢٥- التشين والهان الغربية، العهود الامبراطورية في الصين

٢٢١ ق.م - ٩ م

لم تعرف السنة ٢٢١ ق.م. أية حادثة حاسمة، وذلك في منطقة الأريكومين من العالم القديم، الواقعة الى الغرب من الصين، والممتدة من شبه القارة الهندية إلى مضيق جبل طارق. وعلى العكس من ذلك فإن هذه السنة بالذات كانت منطلق حقبة هامة بالنسبة للصين. فقد تم في هذه السنة توحيد الصين سياسياً، وتاريخ تمام هذا التوحيد هو حد فاصل في التاريخ الصيني. وقبل ٢٢١ ق.م. كانت وحدة حضارية لكنها لم تكن قط وحدة سياسية. ومنذ ذلك الحين كانت الصين تتمتع وحدتها السياسية فتتقسم سياسياً، لكنها، إلى تاريخ وضع هذا الكتاب، كانت تعود دوماً فتوحد سياسياً بعد فترة، قد تطول وقد تقصر، من الانقسام والفوضى.

وقد كان ثمة وحدة بين الصين قبل ٢٢١ ق.م. والصين بعد ٢٢١ ق.م. في أمر واحد. ذلك أنه منذ فجر التاريخ الصيني والعالم الصيني ينسج جغرافياً باستمرار. وفي سنة ٢٢١ ق.م. كان قد اتسع جنوباً، إلى حوض نهر ينجتسي، من موطنه الأصلي في الحوض الأدنى للشهر الأصفر، وفي وادي نهر واي، الذي هو وادئ من روافد النهر الأصفر. ومملك دولة تشين تشنغ، الذي أصبح أول امبراطور (باسم شيه هوانغ - تي) للصين الموحدة سنة ٢٢١ ق.م. ضم، قبل وفاته، إلى امبراطوريته البلاد التي تشمل اليوم كوانغ تونغ وكوانسي وفيتنام الشمالية. وفي سنة ١١١ ق.م. فتح الامبراطور هان وو - تي هذه البلاد الجنوبية من جديد، وهي البلاد التي كانت قد استعادت استقلالها بعد سقوط امبراطورية تشين. وفي سنة ١٠٨ ق.م. قضى هان وو - تي على دولة صينية مستقلة في

كوريا كان قد قد أنشأها مستوطنون صيبون، وضم شمال كوريا، وأنشأ فيها أربع قادات عسكرية صينية.

كان من اليسير ضم كوريا والجنوب في الامبراطورية الصينية لانهما كانا صالحين للاستغلال الزراعي. وإلى شمال حدود العالم الصيني كانت ثمة أراض هاشبية، وهي منعولها الداخلية اليوم، التي كانت تصلح أما لاستغلال زراعي فقير أو لتكون مراعي جيدة. إلا أن السهوب الليوراسية بالذات كانت لرضا تُعجزُ الفلاحين الصينيين والمجرش الصينيين ورجال الإدارة. فهنا كان الاقتصاد الرعوي البدوي والشظم وأساليب الغزال، المرتبطة بالرعاية والبدولة، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبيئة الطبيعية. وكان البدو، في مناطقهم الخاصة بهم، صميين بالنسبة إلى جيرانهم المستقرين. غالبو الهزيونغ - نو (الهون) هزوما المؤسس الثاني للامبراطورية الصينية هان ليويانغ (كاو - تسو) في سنة ٢٠٠ ق.م. والامبراطور نفسه نجما بأعجوبة من مثل المصيبة التي أصابت كوروش الثاني. وكان على الحكومة الامبراطورية الصينية أن تتأول عن بعض الأرض إلى جماعة هزيونغ - نو، وإن تدفع لهم الجزية، وهم الذين هاجموا الصين سنة ١٧٧ ق.م. ثم مرة ثانية سنة ١٥٨ ق.م. ثم بدأ هجوم صيني مضاد سنة ١٢٨ ق.م. لكن الهزيونغ - نو كانوا مراوغين كما كان السكيثيون القهيمون في الطرف الغربي من السهوب، لا هاجم داربوس الأول مرابعهم. ولم يكن من الممكن القضاء على الهزيونغ - نو، كما أنه لم يمكن القضاء على السكيثيون. وكما أن اخضاعهم أو ترحيلهم لم يكونا ممكنين عملياً.

أرسل هان وو - في، كمقدمة للهجوم الصيني المضاد، رسولا اسمه تشانغ تشين (سنة ١٣٩ ق.م.) للاتصال بالبوهيتشين (للمروفيين أيضاً بالطوغخاروي)، وهم شعب بدوي كان الهزيونغ - نو قد اجلوههم عن كانسو غربا. كانت مهمة تشان تشين اقناع البوهيتشين ان يهاوموا مع الصينيين كي يمسكوا بحدودهم المشترك، الهزيونغ - نو في ما بين الفريقين، كما لو كان الفريقان فككي كماشة. في سنة ١٢٨ ق.م. وجد تشانغ - تشين البوهيتشين في بلاد ما وراء النهر، وقد قتل في حملهم على العمل ضد الهزيونغ - نو، لكنه عاد الى الصين في سنة ١٢٥/٦ ق.م. وفي سنة ١١٥ ق.م. بدأ برحلة في مهمة ثانية، هذه المرة كانت الى فرغانة في حوض جيحون وإلى الصفد، في بلاد ما وراء النهر. فاحتل الصينيون فرغانة في سنوات ١٠٤ و ١٠٢ و ٩٢ ق.م. وقد اشعرت رحلات تشانغ تشين الصينيين بوجود مدنيات الى الغرب من الصين، وإلى الأهمية

المحصارية لهذه المدنيات. وكانت الصين، بطبيعة الحال، تتلقى الحوافز والمعرفة من العرب ومن جهات أخرى، الواقعة وراء حدود الصين منذ العصر الحجري الحديث على أقل تعديل ومنذ الربع الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد، أخذت الصين تدرك صلاتها ببقية الأويكرومين في العالم القديم.

إن حركة توسع العالم الصيني لم تتعثر في سنة ٢٢١ ق.م. لكن، كان ثمة أمور أخرى متعددة، حيث تطلعت دولة تشين في مسيرتها عن ماضي الصين منذ سنة ٣٥٦ ق.م. حين بدأ الفيلسوف السياسي الفنونزي، شان يانغ، عمله الثوري في إعادة نظم تشين. بين سنتي ٢٥٦ و ٢٤٩ ق.م. قضى جد تشين شيه هوان - تي على بيت تشو، الذي كان قد حافظ للمجتمع الصيني الزا للوحدة على مستوى الطقس الديني. وفي سنة ٢٢١ ق.م. كان شيه هوان - تي قد قضى على الدول الست المحلية جميعها التي كانت مغالسة لتشين. لكن تشين شيه هوان - تي حكم على مملكته الاسرية بالفناء. وقد كانت نتيجة فعله عكسي ما نواه تماماً، وبما لا شك فيه أنه لم يمكن يحي ما الذي كان يفعله. ومثل آشور قبل ذلك باربصنة سنة ومقدونيا قبل ذلك بمئة سنة، انتهى أمر تشين بسبب بناء امبراطورية. وقد نقص عدد سكانها بسبب خسائر الحرب وبسبب ارسال المحاسيات إلى الخارج. وملئ هذا الفراغ في بلاد تشين الأصلية، على نحو ما تم في آشور، بالمهاجرين من مواطنهم. وبعد ٢٢١ ق.م. أجليت مؤسسات الدول الست المحلية المقهورة الى ١ البلاد الواقعة خلف المرات ٥. إلا أن أنضى صلاح استعصك دولة تشين للاستحار كان في اتغلاها نظاماً لا تحصله ضحاياه.

إن التوحيد السياسي على طريقة تشين شيه هوان - تي كان، في واقع الأمر، لا يمكن تحمله إلى حد أن امبراطورية تشين قضى عليها وتمزقت خلال السنوات الثلاث التي تلت موت مؤسسها في سنة ٢١٠ ق.م. ولكن التوحيد السياسي بمحد ذاته البت أنه يمكن الرجوع عنه فبعد نصفية امبراطورية تشين في سنة ٢٠٧ ق.م. قامت امبراطورية هان سنة ٢٠٢ ق.م. فالقرارات الامبراطورية التي تحت على يد تشين شيه هوان - تي جعلت الامميين، النصفية والقيام من جديد، شيان لا مفر منهما.

لم يقتصر عمل شيه هوان - تي على تدعيم التركيبة السياسية فقط في الدول التي احتلها عن طريق تهجير المؤسسات ٥، بل انه محا أثر الحدود إذ أنه أعاد رسم خارطة العالم الصيني عن طريق تقسيمه إلى قيادات عسكرية. وكانت هذه يديرها موظعون من

تشين تملأهم الروح القانونية. كان التلاحون ينحملون ظلم السخرة والضرائب. وقد حاول لي سي (نحو ٢٨٠ - ٢٠٨ ق.م) - وزير شيه هوان - تي الشفن، أن يعطل المدارس الفلسفية التي تخالفه قانوناً. ففي سنة ٢١٣ ق.م. شجع على « إحقاق الكتب »، واقترح أن يدفن نحو اربعمئة عالم احياء في العام الذي تلاه. وفي الوقت ذاته أرضى شيه هوان - تي بعض أكثر الحاجات الملحة في المجتمع الصيني.

واكبر هذه الحاجات - التوحيد السياسي - أشير اليه من قبل، وكانت الحاجة التالية هي جعل الأمور جميعها على شكل واحد. وقد سوي شيه هوان - تي الكتابة وعطوط سير العربات اذ حمل الصين الأصلية على اتباع نموذج تشين. (على الأرض الناعمة في الصين الأصلية، يجب أن تسير الدواب في أحود، واختلاف المقاييس لما بين الأعدوين المتوازيين كان يعرقل تنقل العربات، كما يحدث بالنسبة للقاطرات وعرباتها، إذ أن اختلاف قياس الحقل الحديدي وحد من حركة القطر في العصر الحديث). وأكبر عمل في النسوية قام به شيه هوان - تي بالنسبة إلى المستوى والتوحيد هو ضم الاسوار المختلفة التي كانت تبني ضد البدو في دولته تشين وفي الدولتين المجاورتين لها في الشمال تشاو وشن، بحيث أصبح سوراً واحداً هو السور الكبير. وقد كان السور الكبير، الذي امتد شيه هوان - تي، يصل إلى الشمال من الانحناء الشمالية الغربية للنهر الأصفر، ومن ثم فانه كان يضم ما يعرف اليوم بمنطقة أوردرس في منغوليا. وقد كان له تأثير عكسي. فإن بناء السور حمل الهزبونغ - نوعاً على الاستجابة لهذا الدليل الموثق على توحيد الصين سياسياً، بأن توحدوا في ما بينهم، الأمر الذي كان له على الصين القاطن المار ذكره.

كانت الغاية من المصيان العام في سنة ٢٠٩ ق.م. إعادة النظام القديم. ونلا نجاح الشائرين في تصفية نظام تشين خلافاً في ما بينهم على الأسلاب. وكان أقوى المطالبين هسيان يو، وهو استرطاطي من دولة تشو السابقة. فاقترح هسيان يو أن يولى حفيد من احفاد الأسرة المالكة لدولة تشو بحيث يكون امبراطوراً اسماً للصين كلها، على أن يكون هسيان يو القوة خلف العرش الامبراطوري. لكن القاتر في الحرب الأهلية كان ليو بانغ (كاو - تسو)، وهو جندي مناصر من لحوض الأدنى لنهر هواي.

كان يترتب على ليو بانغ أن يكافئ عوانه وبقاء السلاح عن طريق منحهم إقطاعات، وكان عليه ان يرضي الشعور العام باحياء بعض الممالك التي صُفيت، إلا أنه

احتفظ بالأراضي القديمة للدولة تشين الواقعة « بين الممرات » تحت حكمه المباشر، واتخذ عاصمة له مي تشينغ - تشاو. وهذه كانت على مقربة من الموقع الذي ستقوم عليه تشانغ - أن، ولكن على ضفة نهر واي القابلة للعاصمة الأخيرة للدولة تشين هين - بانغ. لقد تعلم ليو بانغ درساً من فشل كل من شيه هوان - تي وهسيان - يو لقد أدرك هو وخلفاؤه أنهم يجب أن يوحّدوا الصين توحيداً أكثر فعالية من هسيان - يو، على أن لا يكون في ذلك الاثارة التي ظهرت على يد شيه هوان - تي. ومن ثم فإنهم إذا أعادوا الوحدة الفعالة التي توصل إليها شيه هوان - تي، سلروا بتحمل!

صارت الإقطاعات ضعيفة بسبب الانتقال السريع والثوروث، ثم جُزئت أقساماً صغيرة بتطبيق مرسوم صدر سنة ١٤٤ ق.م. ينص على أنه في المستقبل يتوجب أن تقسم الإقطاعات بين جميع أبناء أصحابها، ولا يجوز أن يرثها الابن الأكبر فقط. وهذه التجزئة المستمرة للوحدات السياسية والأدوية المحلية من جميع الأنواع، كانت الوسيلة الرئيسة التي اتبعتها أسرة هان لتشدّد خناق الحكومة الامبراطورية على هذه الوحدات. لقد بدأت امبراطورية هان كحزمة من القواعد العسكرية يديرها موظفون امبراطوريون وعشر بمالك ذات استقلال ذاتي معترف بها. وفي سنة ١ - ٢٦ كان هناك ثلاث وثمانون قيادة عسكرية وعشرون مملكة. وقد تبدلت النسبة بين نوعي الوحدة المحلية، كما ان الوحدات، من كلا النوعين، قد تضاعفت مساحتها كثيراً. مجسيع الأراضي المنفوخة جعلت قيادات عسكرية، وقامت ثورة قوامها سبعة ملوك محليين مي سنة ١٥٤ ق.م. حملت الحكومة الامبراطورية على توصيل الممالك الى درجة الدمج، فشوعت في سنة ١٢٧ ق.م. بأنه عندما يموت ملك، يتوجب على ابنه الأكبر أن يتنازل عن نصف مملكة الوالد المتوفي، إلى أصغر أخوته.

وبسبب أن الحكومة الامبراطورية أخذت تتولى بنفسها تدريجاً الاشراف المباشر للادارة المحلية لرقعة واسعة، فقد قامت مشكلة تتعلق بكيفية الحصول على موظفين للادارة الامبراطورية. فالعودة إلى الأسلوب الذي كان متبعاً في تشين مستحيل. ذلك بأن موظفي تشين شيه هوان - تي اللقتين كانوا مسؤولين عن قيام عصيان سنة ٢٠٩ ق.م. بسبب سوء نصرتهم، وقد أخذهم العصاة عن بكرة أبيهم. وكان رد الفعل ضد لئونوقراطية شيه هوان - تي عيفاً، وكانت ذكريات النظام القديم قوية، بحيث أن اتجاه ليو بانغ الأول بعد أن أصبح امبراطوراً أن يقيس عملياً (وليو يانغ لم يكن صاحب نظريات) السياسة

الناوبة أي السباسة الحرة. وعلى كل حال، فالرواية تقول أن علماً كورتوشيا أُنقح ليو باع بأن مثل هذا التصرف المضاد لسياسة تشين ليس عملياً. وفي سنة ١٩٦ ق.م. أمر ليو بانغ السلطات في كل قيادة عسكرية وكل مملكة أن تبحث بالطلاب الصالحين للعمل في الإدارة المدنية الإمبراطورية إلى تشنغ - تشاو لاختيار الناسيين بعد امتحان عبر رسمي. وبعد سنة ١٩٦ ق.م. أعاد العلماء الكونغوشيون وضع خمسة كتب كلاسيكية، كان المعروف أن كونفوشيوس نفسه قد حررها وأقرها. وقد رسم الإمبراطور هان وو - ني (حكم ١٤٠ - ٨٧ ق.م.) أنه يتحتم على كل من يرغب في الحصول على منصب في الحكومة أن يتقن الكتابة بأسلوب الكتب الكونغوشية الكلاسيكية، وإن يعرف كيف يفسر فلسفة كونفوشيوس، وأن يجيز ذلك علماء كونفوشيون.

من الناحية النظرية يبدو وو - ني وكأنه فتح باب الوظائف العامة على مصراعيه لأصحاب المواهب العقلية. لكن امتحان الموظفين المدنيين الصيني لم تكن قد وضعت له قواعده الدقيقة بعد، والتفوق العلمي لم يكن قد أصبح الطريق الوحيد للتميين والترقية ولم يصبح كذلك قط، والنفوذ الشخصي لم يفقد تأثيره ومكانته. وعلى كل فقد كان من العسير على أسرة فقيرة أن تتكفل بالتمهات اللازمة لقرية طويلة الأمد في موضوع صعب. بضاف إلى ذلك أن قبول فلسفة كونفوشيوس ودراستها أصبحت يومها أمراً صعباً، وهذه الفلسفة أصبحت تختلف كثيراً عما كانت عليه في أيام كونفوشيوس. فالأمر الذي كان يعتبر عقلانية ليست موحى بها في نظر كونفوشيوس قد داخله تدبّر ولطيف بسبب اختلاطه بتقاليد محلية كثيرة، التي كانت بدورها من مشروبات ثقافية عديدة مختلفة. وقد تم هذا الاختلاط في إمبراطورية صينية كانت تشمل يومها عدداً من الشعوب المتأخرة حضارياً في اطرافها.

كان كونفوشيوس قد جرب الحصول على منصب إداري في واحدة من العول المتحاربة محلياً، وكان هدفه في عمله ك معلم هو المحافظة على التكوين التقليدي للمجتمع الصيني. لم يكن قد تصور التوحيد السياسي للصين، ولعله كان يحرص عليه والسياسيون الذين نجحوا في القيام به لم يكونوا كونفوشيين؛ لقد كانوا مَنَئِينَ. ولعله من المحتمل أن كونفوشيوس ما كان يستطيع أن يتعرف على هذه الصيغة من الكونغوشية التي كانت معروفة في القرن الثاني قبل الميلاد. ومع ذلك فإن عمل الإمبراطور وو - ني في إقامة هذا التفسير الخفيف المختلط للكونغوشية كما كان معروفاً في أيامه، هو انتصار

متأخر للتفسير الكونفوشي لعنى الحد تشن تزو Chun Tzu. وعلى الأقل من الناحية الرسمية فإن الامبراطورية الصينية كان يقع عبء إدولتها من الآن تصاعداً على أكتاف رجال وصلوا الى هذه المناصب لا بحق المولد بل مكافأة على الاجادة الفردية.

كانت النتيجة التي ترتبت على ذلك في غاية المسخوة. ذلك أن الموظف الذي علا منصبه بفضل كونه « تشن تزو » بالمعنى الكونفوشي كانت أمامه الفرصة، التي كثيراً ما كان يفتتها، والتي كان يتحدا له منصبه، في أن يصبح « تشون تزو » بالمعنى الأصلي للكلمة. فقد كان باستطاعته أن يصبح مالكا لأرض وان يورث أملاكه لابه، الذي يصبح بإمكانه عندئذ أن يدره لصح مدوره موظفاً مدنياً كونفوشياً ولم يات الموظفون الكونفوشيون أن أخذوا يشعرون بالولاء لأسرهم ولطبقتهم، وهذا الولاء قد يتصادم، وكثيراً ما تصادم، مع الولاء للامبراطور ومع واجبتهم نحو جمهرة الشعب من رعايا الامبراطورية الذين لا امتيازات لهم. وكان الموظفون الكونفوشيون يحكمونهم نهاية عن الامبراطور.

ولم يكن هذا الانقسام في الولاء مستوجب اللوم، إذ أن منبوس الكونفوشي الكبير، كان يرى، عكس ما كان يرى مو - تزو، ان حب الرجل للفاضل لابناء جنسه يجب أن يتم على درجات. فلقرب الناس إلى الرجل يجب أن يكون أعز الناس إليه أيضاً، وأسرة الموظف وطبقته اقرب اليه من الامبراطور أو جمهرة الشعب. ففي الامبراطورية حيث أكدت السلطة المركزية سيطرتها على رعايها، فإن واجب الموظف نحو الامبراطور هو أن يطبق النظام القانوني القاسي الذي كان قد أُلجئ في دولة تشن في القرن الرابع قبل الميلاد والذي فرضه تشين شيه هوان - تي على بقية الصين بعد سنة ٢٢١ ق.م. وفي واقع الأمر فقد كان ثمة أصل شديد من القانونية تحت القشرة الكونفوشية. لقد كان سكان الصين الموحدة سياسياً يحسون بأن الامبراطورية الصينية تنفق حدودها مع حدود العالم المتمدن، وان الفلسفة الصينية التي يمكن ان تحفز الموظفون للدين المسكونيين على القيام بواجبهم نحو البشرية بصغر وحب هي فلسفة مو - تزو؛ لأن مو - تزو كان يرى بأن الرجل العاقل يجب أن تكون مسؤوليته نحو الأفراد من أبناء جنسه متساوية وعلى كل حال فإن مو - تزو لم يتج له، بل أتيح ذلك لكونفوشوس، كما فسره منبوس، ان مال الجائرة، متأخراً، بأن أصبحت فلسفته هي الرسمية على مستوى مسكوني.

وبالنسبة إلى الموظف الكونفوشي كان حكمه ان أرحب مجالاً وأفضل من حكم

تشين. لقد كان السيد السياسي لرعايا الامبراطور الذين كان يحكمهم، وكان السيد الاقتصادي، كذلك، بالنسبة إلى الفلاحين للقيمين على الأرض التي كان يملكها. وقد كان هو ورملاؤه بإمكانهم أن يصبحوا سادة الأسرة الامبراطورية. لقد وضع توبع تشونغ - شو، المستشار الكونفوشي للامبراطور وو - غي، المبدأ القائل بأن الأسرة، اية أسرة، إنما تحكم على أساس أنها منحت انتداباً من السماء، وإن هذا الانتداب يمكن ان يُلغى، وإن سحبه كان يستل عليه اتهام اضطرابات اجتماعية وحدثت نكبات طهيمة. وترتب على هذا المبدأ، ضمناً، أن الموظف المدني الكونفوشي أصبح هو الذي يقضي في ما إذا كانت علامات الزمان كان معناها أن انتدب أسرة ما قد نضب معنه. وبالنسبة لجمهرة الشعب الذين لا يتمتعون بأية امتيازات أصبح الفرق بين احكم الامبراطوري وتشين وهان يتناقص وضوحاً. كلما أضاف العالم الاداري صاحب الأرض الكونفوشي حقلاً إلى حقل. ومن أول الأمر إلى آخره كان الفلاح الصيني دوماً قريباً من حدود قدرته على الصبر. ذلك أنه بالنسبة إلى الفلاح الصيني كان قيام طبقة جديدة من ملاكي الأرض مسلحة بالسلطة العامة هو القشة الأخيرة.

كانت صيانة الامبراطورية، تحت أي حكم كان، تفرض اعباء ثقيلة على كامل السكان - وهم الأغلبية الساحقة - الذين لم يكونوا ينفدون من الحكم. ففي ظل حكم الهان كان يتوجب على كل فلاح صيني أن يقوم بالخدمة العسكرية لمدة شهر كامل في كل سنة، وقد يجتد ليقدم ستين في الجيش. وإذا اعتبرنا سعة الرقعة التي كانت تشغلها الصين المتحدة فإن الخدمة التي يقوم بها المجند قد تنقله إلى اماكن ابعد كثيراً عن بيت أجداده الذين يجندوا على يد الحكومات المحلية في عصر الدول لتحتلارية. وعطرت الموت كان، ولا ريب، أقل. فالخدمة العسكرية الآن كان معناها للعمل مع حامية على طول السور الكبير بدلاً من الاشباك في معركة مهلكة في قلب العالم الصيني. لكن عطر الدمار الاقتصادي، بالنسبة إلى المجند، كان الآن اكبر، وكائن مما يرهق الفلاح نفسياً الفرصة التي تتاح للملاك الأرض الطموح. فهذه الفرصة كانت اكبر الآن عندما كان الفلاح المجند يحمل لا إلى السور الكبير فحسب، بل إلى اماكن قسوة في السهوب في ما وراء السور خلال حرب لثة سنة التي طرت رحاها بين الامبراطورية الصبية والهيونج - نو (١٢٨ - ٣٦ ق.م.) .

والسخرة كاد من الممكن أن تكون بشكل عمل في مناجم الحديد والمحم

الاسرامطورية أو بناء الطرق أو حفر القني أو صيانة الطرق والقني الموجودة أو نقل احمال الحبوب مع القني أو ضد مجرى النهر وذلك لتزويد البلاط والحكومة في عاصمة اسرة الهان تشنغ - تشاو، في البلاد الواقعة وراء للمرات ، أو لتزويد الحاميات على طول السور الكبير الذي كان يبعد أكثر مما كانت تشنغ - تشاو بالنسبة إلى الحنول الشرقية والجنوبية حيث كان الناس يزورون للقمح والأرز. فلم يكن من الممكن أن تُزوّد حاجة الحاميات من مستوح الحنول الواقعة في جوارهم، لأن الأرض التي كان السور يحتازها كانت قاحلة.

لقد كان التركيب الجغرافي للعالم الصيني يختلف اختلافاً بئناً عن العالم الهليني. إذ لم يكن أرضاً تحيط به بحار داخلية، لقد كان أرضاً صلبة متماسكة. وهذا أدى إلى تساوي أكبر في الحضارة وإلى استمرار طول في الوحدة السياسية باعتبار أن قضية النقل يمكن حلها. لقد كان القسم الأكبر من العالم الهليني في متناول شاطئ البحر، والأنهار الفاصلة للملاحة، باستثناء البلاد المصاحبة للبحر الأسود، والتي لم يكن لها دور هام. والعالم الصيني، كالعالم الهليني، كان يمتد في مواصلاته على الطرق المائية، وكانت فيه أنهار كثيرة، ولكن لم يكن ثمة نهر صيني كبير يجري إما من الجنوب إلى الشمال أو من الشرق إلى الغرب. والمناطق التي تنتج المواد الخشائية في الاسرامطورية كانت تقع إلى الجنوب من السور الكبير وإلى الجنوب الشرقي من العاصمة.

كان من الضروري أن تضاف القنوات إلى الأنهار. ففي الأجزاء الصالحة للاستعمال من الأنهار، كان لا بد من نقل الاحمال صمداً ضد مجرى النهر. والطريق المائي صمداً ضد مجرى النهر الأصفر يصعب السير فيه بشكل خاص عند النقطة التي يتعطف فيها النهر على زاوية قائمة من اتجاه جنوبي إلى شمالي شرقي، إذ يجري عبر سلسلة جبال هي الحد الغربي لسهل الصين الشمالي. فالبضائع المتجهة نحو تشنغ - تشاو كان يجب عليها أن تجابه الصعوبات الطبيعية في هذا الحائق؛ والبضائع المتجهة نحو السور الكبير كان يجب عليها أن تجابه الصعوبات الطبيعية في هذا الحائق؛ والبضائع المتجهة نحو السور الكبير كان يجب أن تحمل برا إلى أجزاء السور التي لم تكن مضافية للنهر الأصفر. فنقل المواد الخشائية لم يكن يرحى منه ارباح بالنسبة للقطاع الخاص، ومن ثم فقد كان السحير هو الذي يعتمد عليه للقيام بهذا العمل العام.

وهكذا فإن امبراطورية الهان لم يكن لديها احتياط غير موظف من الطاقة الاقتصادية. لقد كان عليها ان تبذل أقصى الجهد في ما يتعلق بالتوى الاقتصادية كي تحصل على حاجاتها. وفي هذه الأحوال فإن البيروقراطية الكونفوشية التي جعلت من نفسها طبقة جديدة من ملاك الأرض كانت عبئاً غليظاً في الثقل بالنسبة للاقتصاد الامبراطوري. لقد كان الحكم الهان في الواقع ناجحاً في العمل تدريجاً على تقليص حجم الانقسام الصغرى السياسية والادارية في الامبراطورية وحكمها الذاتي، لكنه فشل في المحلولة دون زيادة اعداد الممتلكات الخاصة الكبيرة واتساع احجامها. ان خطر هذه الأمور على المجتمع والامبراطورية كان قد واه، في حكم هان وو - تي، مستناره الكونفوشي تونغ تشانغ - شو، الذي وضع للبدا القتال « بالانتداب من السماء ». وفي ٦ ق.م. صدر مرسوم امبراطوري وضع بوجبه حد لمساحة الأرض التي يمكن ان يملكها اي فرد. لكن وضع هذا المرسوم موضع التنفيذ كان بيد الاداريين - ملاكي الأرض، الذين كانت مصالحهم الخاصة تتعارض مع واجباتهم العامة. ومن ثم فقد ظل المرسوم حبراً على ورق. وفي سنة ٩٩ سقطت أسرة الهان الغربية.

وقد خلفها امبراطور اسمه وانغ مانغ الذي اعتبر ان انتدابه من السماء كان مهمة لحل مشكلة الأراضي، وهي المشكلة التي منعت البيروقراطية الكونفوشية أسرة الهان الغربية من حلها. وقد نشأت البيروقراطية وانغ مانغ أيضاً. وفي سنة ١٢١٨ قبل وفاة وانغ مانغ سنة ٢٢٣م، قامت ثورة فلاحين في شانونغ التي اعلنت فشل محلولة وانغ مانغ في ابدال الحان إلى الفلاحين وتحسين حالتهم. لكن الفلاحون الثائرين لم يروا الامبراطورية ومشاكلها. ففي سنة ٢٥٠م قام فرع من بيت هان، أسرة هان الشرقية، بانشاء دولته وانغ لوانغ عاصمة له، التي كانت سابقاً مركز الادارة لشو الشرقية. وفي سنة ٣٦٠م كان مؤسس أسرة هان الشرقية، كوانغ - وو قد اعاد ثورة الفلاحين واعاد إلى السلطة البيروقراطية الكونفوشية التي كانت في عهد أسرة هان الغربية المخلوعة.

إن أسرة هان الغربية والفلاحين كليهما كانا ضحيتي البيروقراطي - مالك الأرض الكونفوشي. لقد كانت هذه الطبقة الجديدة ثونة التي تربط الامبراطورية، لكنها كانت ايضاً « شراً على الصين ». ان الثائرين كان انجرم الصحيح الذي كان يجب ان يسحب منه « انتداب السماء ». فالكونفوشي في المنصب أصبح « القاتوني » المتشدد روحاً،

والمصالح التي كان يخدمها بعنف كانت مصلحته الخاصة لا مصلحة المرش. في هذا الوقت كانت الطبقة الجديفة صاحبة الامتيازات قد قوت جذورها. لقد كانت المعصر الوحيد في المجتمع الصيني الامبراطوري الذي نجا من غضب السماء الذي جلبته هذه الطبقة السليمة نفسها على الصين خلال السنوات المساوية من ٩ - ٣٦ م.

٣٦- حوض البحر المتوسط وجنوب غرب آسيا والهند

٢٢١ ق.م - ٤٨ م

عانى الفلاحون الصينيون الكثير من الشدة بين ٢٢١ ق.م. و ٣٦ م.. فالنظام السياسي الشديد الذي أقامه تشين ألفي وحد الدولة دام اثنتي عشرة سنة فقط (٢٢١ - ٢١٠ ق.م.)، ثم تلتها ثمانى سنوات من الفوضى والحروب الأهلية (٢٠٩ - ٢٠٢ ق.م.)، وحكم الهان الغربي الذي جاء في أعقاب ذلك ثلثة ثيرة ملاحين كانت فاشلة (١٨ - ٢٦ م)-. ومع ذلك فإن حالة الفلاحين الصينيين في هذه الفترة لم تبلغ درجة السوء التي كانت عليه في الفترة السابقة من التاريخ الصيني - عصر الدول المتحاربة، ولم تبلغ درجة من السوء تعادل ما كانت عليه حال الفلاحين بين النهرين والخرط الآلاسي خلال السنوات الستة من ٢٢١ ق.م. إلى ٤٨ م.

ففي وسط اويوكومين العالم القديم وفي طرفه الغربي شهد هذا الربع من الألف من السنين انقضاء خمس دول كبرى: الامبراطوريات الماورية والسلوقية والبطلمية والفرطاجية وملكة مقدونيا. ومن بين جميع الدول الكبرى التي كانت تقوم إلى الغرب من الصين في ٢٢١ ق.م. كانت واحدة فقط هي الامبراطورية الرومانية، لا تزال قائمة سنة ٤٨ م.. وفي سنة ٣١ ق.م. كانت هذه الامبراطورية، التي لم تتعد في سنة ٢٢١ ق.م.، ايطالية والجزر المجاورة لها، قد توسعت بحيث شملت حوض البحر المتوسط بكامله، لكنها لم تملأ الفراغ في القوى السياسية الذي كان يقوم إلى الجهة الغربية من الصين بكامله. فالمنطقة الواقعة شرقي نهر الفرات، والتي كانت تضم ارض الرامدين وابران، كانت قد احتلتها جماعات فرثية بدوية حربية جاءت من السهوب الأوراسية،

التي لم تكن، في سنة ٢٢٦ ق.م. قد اعتدت بعد على العالم المحضّر المستقر إلى أية نقطة غربي فرثية (وهي خراسان الحالية). وإلى الشرق من الامبراطورية الفرثية انشأت جماعة حربية أخرى من بدو السهوب الاوراسية، المعروفة بالكوشان، وهم فريق من يوه . تشي (أو تونغلوي)، امبراطورية، وذلك في سنة ٤٨ م. اقتعدت الهندوكوش ووصلت حوضي سيحون وبيجون مع شمال غرب الهند.

إن هذه التبدلات في المراقبة السياسية لاديوكمين العالم القديم الواقع إلى الغرب من الصين كانت نتيجة لتكيفات حربية وثروات والتساحات للشعوب. فالثروة الرومانية ابتلعت كل البلاد التي وقعت في ايدي الرومان، وهجرة اليوه . تشي الولاية الصينية المعروفة اليوم باسم كانسو أحدثت موجة تنقل بين جميع السكان الرعاة الاوراسيين في الغرب. ومن ثم فقد دفعت نحو الجنوب تلك الجماعة منهم التي كان قد مر عليها خمسة قرون وهي تقم في السهوب إلى الشرق من بحر خزوين. وفي الوقت ذاته فقد استمر تطور الهلينة وانتشارها، على المستوى الثقافي، أثناء هذا الظلوان العنصري والحربي والسياسي والاقتصادي.

لم تكن أية من الامبراطوريات الثلاث القائمة في سنة ٤٨ م إلى الغرب من الصين تخضع لحكم الأعراق، وكل منها قامت على انقاض دولة الهيريقية. ومع ذلك فالامبراطوريات الثلاث كانت ه هيلينة البرعة ه بشكل واسع وبشيء من الجبر. وقد تبلّغت كل منها، في لوانهيا، المدينة الهلينة وكانت تعمل على نشرها. فلقد كانت اللغة الاخرية بوميل لغة المدينة من الهيرى الاعلى لنهر يكتا، في شمال غرب الهند، باتجاه غربي حتى طرف صقلية الغربي. وكانت الهلينة تنشر، مفضحة رداء رومانها وبوساطة اللغة اللاتينية، من شبه الجزيرة الايطالية في الفترة الاوروبية إلى خط الزمان والجنوب، وهي شمال غرب فرثية إلى الطرف الشمالي للصحراء الكبرى. وفي سنة ٤٨ م كان قد مر على الهلينة المتبلطة التي كانت تنمى على مواطنها، وبمصر ناجر تلك بهمة. ومع ذلك ففي حله الطويلة المضاربة للتجربة حوماً نحو النصح، ظل الجزء الهليني من القصر للقيمين في كل مكان.

أول اعراض التسلل التي وفق تطور الهلينة ظهرت في الهند فقد بدت هاء على الامبراطورية الشاوية، اسلمت التضمض قبل وفاة الامبراطور اشوكا في سنة ٢٣٢ ق.م. إلا أن الاعصار الذي دمر ثلاثة ارباع الايوكمين من العالم القديم تولد في

الطرف المقابل. كان الرومان والقرطاجيون قد لتفقوا سنة ٢٢٦ ق.م.، على اعتبار نهر ابرو حداً بين سطقتي نفوذ كل من القرطاجين، وقد تم هذا باتفاق بين الحكومة الرومانية ومسدروبال، صهر هنيبل، وسلفه للبشر في زعامة الامبراطورية القرطاجية الجديدة في اسبانية، وهي التي كان قد انشأها حاكمها، والد هنيبل. وفي سنة ٢١٩ ق.م. هاجم هنيبل مدينة ساختيم، الواقعة على ساحل المتوسط في اسبانية، واحتلها، وقد كانت محمية رومانية تقع جنوب نهر ابرو. في سنة ٢١٨ ق.م. سار هنيبل (ومعها الأفيال) من ابرو عبر جبال البرانس ونهر الرون وجبال الألب الى حوض نهر البو، وهو الذي كانت رومة تقوم يومها بضمه إلى املاكها. وقد نظب هنيبل على جيش روماني هناك، واحتاز جبال الأبنيز، ودحر جيشاً رومانياً أُنشِر عند بحيرة تراسيمون في إتروريا (سنة ٢١٧ ق.م.)، ثم كسر جيشاً رومانياً ثانياً، وكان اكبر الجيوش الثلاثة، في كاني في منطقة ابوليا سنة ٢١٦ ق.م..

إن انتصار هنيبل الذي توج حملته كان ايلاداً بوضع استراتيجيته موضع الاعتبار. ففي الحرب الرومانية القرطاجية الأولى (٢٦٤ - ٢٤١ ق.م.) انشغرت رومة من قرطاجة سيطرتها البحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط. وقد تفوقت القوة البشرية الحربية التي حصلت عليها رومة عن طريق الفتح السياسي لشبه الجزيرة الإيطالية على جماع مواطني قرطاجة وحلفائها الليبونين ورجالها الليبين والاسبان. وقد عوّضت قرطاجة عن ضائقة المعدد (في جيشها) بالبحرية والفروح الجماعية في جيشها الصلبر المحترف الذي ورثه هنيبل عن والده وصهره. وعسكرة قرطاجة لقوتها البحرية استلبيض عنها بالعمل التنظيمي الفريد لسوق الجيش الذي قدم به هنيبل بمهاجمته ليطالية برأ عمر اسبانية. كان هنيبل يعرف ان سيطرة رومة لم تكن محببة لدى غالبية الايطاليين، وبخاصة بين اولئك الذين أثقلت كواهلهم واجبات المواطنة الرومانية التي عُرضت عليهم، دون ان يحسوا حقوق المواطن الروماني من الدرجة الاولى. كان هنيبل قد خُشِنَ انه إذا أجز ما تم له إيجازه في الواقع في كاني سنة ٢١٦ ق.م. فإن حلفاء رومة في شبه الجزيرة الإيطالية ومواطني الدرجة الثانية سيفصلونه وإن رومة ستخسر تفوقها في القوة البشرية، وأنها لا بد ان تتسلم ضمن شروط سترتب عليها ان تعود لملاكها وقوتها البشرية الى الحدود المتواضعة التي كانت عليها قبل فترة رومة الاولى الكبيرة في سنة ٢٤٠ ق.م. وقد انفصل اغلب حلفاء رومة الايطاليين في الجنوب الشرقي، بعد الانكسار الثالث

والأسوأ الذي أصاب رومة على يد هنيبل في كاتي، وكذلك انفصل عنها مواطنو الدرجة الثانية في كاسيايا. إلا أن الحكومة الرومانية ظلت تملك لواسط شبه الجزيرة الإيطالية وشمالها، وكان جيش هنيبل المحترف الذي لا يقهر أصغر من أن يتابع سلسلة انتصاراته الباهرة بحيث يقوم بحملة ضد قلب القوة الرومانية. وقد ظهر في هذا صعف استراتيجي هنيبل. فبعد تغلب رومة على نيكيتا في كاتي، أصبح انكسار هنيبل المتبصر امراً وشيك الحدوث. ومن ذلك الحين لم تُنح الحكومة الرومانية لهنيبل الفرصة لأن يتنصر على أي من الجيوش الرومانية في سارك نظامية. لقد جندت الحكومة الرومانية قوتها البحرية التي كانت لا تزال وقيرة، إلى أقصى حد للمحافظة على الجبهة في جنوب شرق إيطاليا ولتزويد الحاميات بكثافة في الجزء الذي كان لا يزال على حاله من مملكات رومة في شبه الجزيرة الإيطالية.

ولم تُنح سيطرة رومة البحرية بأذى بحيث لنها منعت الامدادات المرسلة إلى هنيبل من الوصول إلى إيطاليا إلا في ثغرات قليلة، كما أنها مكّنت رومة من الهجوم على المملكات القرطاجية في إسبانية. وفي سنة ٢٠٦ ق.م. كانت كل إسبانية القرطاجية قد سقطت في أيدي رومة. وفي سنة ٢٠٥ ق.م. هاجم بولبوس كوريليوس شيبو، القائد الروماني المنتصر في إسبانية، البلاد القرطاجية في شمال غرب إفريقيا. وعلى العكس من المحسنيين السابقين اللذين قادهما اغاثوكلبي في ٣١٠-٣٠٦ ق.م. وسلف شيبو الروماني ماركوس اتيليوس ريفولوس في سنة ٢٥٦-٢٢٥ ق.م. فإن حملة شيبو كانت ناجحة. فاستدعى هنيبل من إيطاليا إلى إفريقيا سنة ٢٠٣ ق.م. فلقى هزيمة ساحقة في زُانغوا (٢٠٢ ق.م.) على يد شيبو.

وقبل هذه الخاتمة الحاسمة كانت الحرب الهنيبلية قد انتشرت من إيطاليا، لا إلى إسبانية وإفريقية فحسب، بل حتى إلى صقلية وبلاد اليونان. ففي سنة ٢٢٠ ق.م. كان القتال قد احتدم بين إيجوليا وبين حلف من دول أخرى في بلاد اليونان، تزعمه مقدونيا. وكان الايتوليون يلقون الاسرى من القتال. وفي سنة ٢١٧ ق.م. مكنتهم الأخبار الواردة من إيطاليا من اتساع حصصهم الاغارقة بمقد صلح. وفي سنة ٢١٥ ق.م. عقد حليب الخامس، ملك مقدونيا، معاهدة مع هنيبل، وقد تعرض للرومان لرسله، الذين كان يرافقههم المفروضون القرطاجيون، وقامت رومة بمحاربة مقدونيا. وفي سنة ٢١٢ ق.م. عقدت ايتوليا معاهدة مع رومة. وبذلك وُطئت نفسها ثانية في القتال مع مقدونيا

وحلفائها في بلاد اليونان. وقد خسرت إيتوليا، في هذه الحرب، الكثير من أراضيها في نيباليا لمقدونيا، بحيث أنها عقدت صلحاً منفرداً مع مقدونيا (٢٠٦ ق.م.). وهذا حمل رومة على عقد صلح مع مقدونيا (٢٠٥ ق.م.). ومطالبة السلم كلتاهما كانتا في صالح مقدونيا لفترة قصيرة، لكن الثمن كان قيام حرب انتقامية قريبة، إذ أنه في سنة ٢٠٥ ق.م. كان من الواضح بأن رومة كانت ستحقق نصراً حاسماً ضد فرطاجة.

الحرب الانتقامية التي شنتها فرطاجة ضد رومة كانت قد فشلت. فبدلاً من أن تجمع فرطاجة في قلب نتائج الحرب التي قامت بين ٢١١ و ٢٤٦ ق.م. فقدت فرطاجة مكانتها كدولة كبرى، وأصبحت الآن تحت رحمة رومة وقد كانت خسارته فرطاجة المادية، على كل حال، دون خسارة رومة في حروب هنيجل. فقد حاربت فرطاجة في بلادها ثلاث سنوات فقط (٢٠٥-٢٠٢ ق.م.)، فيما ظل هنيجل يعيش في شبه الجزيرة الإيطالية دماً لمدة خمس عشرة سنة (٢١٧-٢٠٣ ق.م.). والدمار الذي أصاب جنوب إيطاليا وصقلية لم يُزل آثاره، فقد ترك آثاراً اقتصادية واجتماعية وسياسية تكاد تكون انتصاراً متلفراً لهنيجل. وكان هذا أكثر ايلاء لرومة من انتصار هيجل الحربي غير المجددي في كاني سنة ٢١٦ ق.م.

وكان البلى الذي نتج عن الحرب هنيجل هو الذي أصاب الاغارقة في إيطاليا وصقلية. فقد ظل هيرون الثاني ملك سيراكوسة أميناً للمعاملة التي عقدها مع رومة، ولكن بعد وفاته (٢١٥ ق.م.) انفصلت سيراكوسة وترلس (نارثوم) وأكرافاس (أغريغنوم) عن رومة، وترتب على ذلك أن حصلت عليها رومة حملة عاصفة، فنهبت لونتيني أكبر مدينة أغريقية بعد سيراكوسة، في مملكة هيرون. وفي بلاد اليونان تأذت حلقات مقدونيا بسبب شروط المعاهدة بين إيتوليا ورومة. فقد تم الاتفاق على أنه إذا احتل الحلفاء مدينة معادية نال الأيتوليون الأرض والأبنية ونالت رومة الأموال المتبقية بما في ذلك من تبقى من السكان، الذين كان للرومان أن يبيعهم في سوق الرقيق، وقد فعلوا ذلك في الواقع. لقد كان هيليب الخامس ملك مقدونيا قصير النظر، ومعاصره السلوقي الامبراطور انطيوخوس الثالث كان اعشى. بعدما أثار فيليب رومة ومزع جيون إيتوليا، سار شرقاً في سنة ٢٠٢ ق.م. في الوقت الذي كانت فيه رومة على وشك قهر فرطاجة، وبالتالي استعادة حريتها في التصرف. ففي سنة ٢٠٢ ق.م. هاجم فيليب، ومدون أي استشارة، خمس مدن أغريقية واحتلها، وسار على طريقة الرومان في الإيقاع بالمقهورين بأن باع

سكان ثلاث من هذه اللد، الخمس غير المؤذية في سوق الرقيق. أما انطيوخوس فقد شن الحرب السلوقية - البطلمية الرابعة للاستيلاء على جنوب سورية في سنة ٢٢١ ق.م. كما شن الحرب الخامسة في ٢١٩-٢١٧ ق.م. وفي سنة ٢١٧ ق.م. - وهي السنة التي وقعت فيها معركة بحيرة ترسابيتي - كُيّز انطيوخوس الثالث على يد بطليموس الرابع في رافيا (ربح الحامية). وفي ٢١٦-٢١٣ ق.م. كان انطيوخوس مشغولاً في حرب اسية الصغرى، حيث كان يعمل على القضاء على ابن عمه أنطيوخوس. وكان أنطيوخوس هذا قد استرجع، باسم انطيوخوس، الاملاك السلوقية الواقعة إلى شمال غرب جبال طوروس، وذلك من أتالوس الأول ملك بيرغامون. إلا أن أنطيوخوس هذا عاد فانفصل عن انطيوخوس. وبين ٢١٢ و ٢٠٥ ق.م. كان انطيوخوس يقود حملات إلى الشرق من نهر الفرات. ففي سنة ٢٠٦ ق.م. كان في وادي نهر كابل (وهي قرنة من امبراطورية موريا المتزعزعة). وقبل نهاية السنة ذاتها كان يقود حملات في الخليج العربي.

كانت المسافات التي قطعها انطيوخوس قريبة من تلك التي اجتازها الاسكندر، لكن نتائجها السياسية كانت هائلة. لقد حصل انطيوخوس على اعتراف اسمي بسلطته على ارمينية وميديا الشمالية (أفريجيان الحالية) وقرنة وبكتريا (الصغد في ما بعد)، لكن الحكام المحليين استعادوا استقلالهم عملياً حلماً أدلر ظهره. وفي سنة ٢٠٢ ق.م. شن انطيوخوس الثالث الحرب السلوقية - البطلمية السادسة، ولما عُقِدَ الصلح سنة ١٩٨ ق.م. ظل جنوب سورية في يده. وفي ذلك الوقت كان فليب الخامس يتجه نحو عسارة حربه الثانية مع رومة وإيتوليا.

بين سنتي ٢٠٠ و ١٩٨ ق.م. غرقت رومة هيمنتها على سواحل حوض البحر المتوسط الشرقي بأجمعها. في سنة ١٩٧ ق.م. انتصرت رومة على مقدونيا بشكل حاسم في كينوسيفالي في ثيساليا، وبذلك انصت المقدونيون عن كل ممتلكاتهم الاغريقية الواقعة إلى جنوب جبل أولمبوس وفي جنوب غرب آسيا الصغرى. وفي سنة ١٩٥ ق.م. انتزعت حملة رومانية، كانت تعمل في بلاد اليونان، من اسبورة كل سواحلها، وبذلك شُلت عن الحركة. وهكذا عادت اسبورة إلى ما كانت عليه قبل ان توسع رقعتها في النصف الثاني من القرن الثامن ق.م.، أي دولة صغيرة محصورة برا. وفي سنة ١٩٢ ق.م. اتحد انطيوخوس الثالث وإيتوليا في حرب ضد رومة. وقد اضطر انطيوخوس إلى

السليم سنة ١٩٠ ق.م. وابتغيا سنة ١٨٩ ق.م.. وكان على انطيوخوس ان يتخلى عن كل الأراضي السلوقية الواقعة شمال غرب جبال طوروس، وان يدفع تعويضا حرياً كبير القبضة. وفي حرب ثالثة قامت بين مقدونيا ورومة (١٧١ - ١٦٨ ق.م.) شغقت رومة مملكة مقدونيا، وقبضت ممتلكاتها الى أربع ولايات تحت سيطرتها.

كان باستطاعة انطيوخوس ان يتفادى صدامه مع رومة. ففي المفاوضات التي دارت قبل نشوب الحرب، عرضت رومة عليه مجموعتين بدلتين من الشروط في سبيل التعاضل السلمي. وكلاهما كانا مستحيلين. كان بإمكان انطيوخوس ان يقبل لهما منهما بدون صعوبة، وبذلك يصبح التعاضل السلمي ممكناً. ذلك أنه كان لمة مجال للفوزين في العالم الهليني الذي يتسع باستمرار، وكانت تطورتاها الدستورية تسيران في خطين متوازيين. فقد كانت كل من الامبراطورية السلوقية والامبراطورية الرومانية تتطور نحو اتحاد لدول - مدن ذات استقلال ذاتي. لكن الانكسار الشائن الذي جابه انطيوخوس الثالث على نفسه قضى بأن تقسم الامبراطورية السلوقية بين رومة وقرينة.

لقد ضخم الرومان من شأن قوة الامبراطورية السلوقية وذلك بسبب اتساعها، وبسبب اتصالات انطيوخوس الثالث السابقة للحادثة، وبسبب ان منهيج قد وضع نفسه تحت تصرف انطيوخوس في سنة ١٩٥ ق.م.. وكان الرومان قد تعرفوا إلى قوة مقدونيا تعرفا صحيحاً في ٢١٥ - ٢٠٨ ق.م. وفي ٢٠٠ - ١٩٧ ق.م، ومن ثم فقد استصغروا شأنها في سنة ١٧١ - ١٦٨ ق.م. وقد كان مقضباً على مقدونيا ان تخضع لرومة، لأنها لم تندمج في توحيد بلاد اليونان سياسياً تحت سيادتها بشكل دائم، على نحو ما نجحت رومة في توحيد ايطاليا. ثم بسبب الفرق الكبير بين الدولتين في القوى البشرية الحربية. ففي الحرب الثالثة استطاعت مقدونيا ان تُلقي بقواها البشرية جساء في ميدان القتال، اذ ان رومة قد جردتها في الحربيين الرومانية - المقدونية السابقين من الحصون الواقعة في الخارج، حيث كان جزء كبير من القوات المقدونية قد حصرت فيها. ومن ثم فقد اضطر الرومان في هذه المرة، إلى بذل جهد كبير في سبيل التلصق على المقدونيين لأن هؤلاء، مع قههم كانوا دون الرومان عدة وتخطيطاً، كما كانوا دونهم عدداً، فقد كانوا براسل، وكانوا مصممين على ان يحتفظوا بالثجد الذي كان لسجلهم القومي الحربي. وعلى كل فقد كانت هذه هي المرة الوحيدة التي جهدت رومة نفسها في سبيل فرض سلطانها على بلاد المشرق. فكلمة واحدة حملها رسول روماني، نقل بها حير

الانتصار الروماني الخامس على مقدونيا في معركة بَذْنا، كانت كافية في سنة ١٦٨ ق.م. لحمل انطيوخوس الرابع، ابن انطوخوس الثالث وخليفته الثاني، على التحلي عى مصر. وكان انطيوخوس الرابع قد احتلها فيما كان الرومان مشغولين في الحرب التي كلفتهم من الجهد اشده في حروبهم في بلاد اليونان.

لقد استخدمت « المؤسسة » الرومانية الدبلوماسية لمساندة حروبها، واستعمل الرومان الفن الدبلوماسي ذاته في التصود على المشرق الذي استعملوه من قبل بنجاح في التصود على شبه الجزيرة الايطالية. فقد جندوا في الدول اللطيفة طابوراً خطياً، عن طريق تظليل الأقليات الشرقية من السكان على العالمية الفقيرة. وبالنسبة إلى الدول الكبرى التي كانت تنافس رومة، جند الرومان حلفاء لهم بين الجيران الضعفاء للدول الكبرى. ولم يلبثوا ان باغفوا هؤلاء الحلفاء بالتخلي عنهم حاناً كان يتم لهم القضاء على دولة منافسة، الأمر الذي كان يتم بمساعدة هؤلاء الحلفاء، بحيث اظهروا ان مساعدة الحلفاء كانت غير ذات أثر. فقد ادارت رومة ظهرها لايوتوليا بعد تغلبها على مقدونيا (١٩٧ ق.م.)، وأدارت ظهرها لمقدونيا بعد ان اعانتها هذه (١٩٠ - ١٨٩ ق.م.) على التغلب على الأيتوليين. وأدارت ظهرها لبرغامون ورووس، وكنتا قد اعانتا رومة في ان تغلب على انطيوخوس الثالث (١٩٢ - ١٩٠ ق.م.)، ومع ان الايخانيين كانوا حلفاء مخلصين لرومة منذ ان تغلبوا عن حليفتهم القديمة مقدونيا (١٩٨ ق.م.)، وأدارت رومة ظهرها لنوميديا بعد ما تغلبت على قرطاجة في حرب ٢١٨ - ٢٠١ ق.م. وقضت عليها نهائياً في حرب ١٥٠ - ١٤٦ ق.م.، وكان ذلك بمون من نوميديا. وبعد انصهارها الخامس في بلاد اليونان، فعلت رومة ما كان قد فعله ثثن شيه حولان - تي بعد انتصاره الخامس في الصين سنة ٢٢١ ق.م. فقد نقل الرومان إلى ديارهم الخاصة الأعضاء البارزين من « المؤسسات المقدونية والاضاليين وغير ذلك من المدن - القبول الاغريقية القارية. وقد اصاب إيبيري مولوسش، الذين لم يكونوا من المهابرين إلى جانب مقدونيا، والايوتوليين، الذين كانوا حلفاء رومة المعمرين في الحرب المقدونية - الرومانية (١٧١ - ١٦٨ ق.م.) - اصابتهم ضربات بعد ما امن في الأذى. فالولوسسيون نُهبوا واسترقوا، والايوتوليون صُردزت ممتلكاتهم، اضافة الى وجوب تقديم ما تُرَضُّ عليهم من الذهب.

كانت السنوات ٢٢١ - ١٦٨ ق.م. مؤلة بالنسبة إلى سكان حوض البحر المتوسط، اما السنوات ١٦٧ - ١٢١ ق.م. فقد كانت طافحة بالآلم بالنسبة لهم. فمحنة حرب

هنيئيل اورث الرومان الغرب من وجود دولة قوية في مدى يمكن ان تُضرب إمبراطورية منه. ولعلّ الإمبراطورية السلوقية البعيدة هي الوحيدة التي كانت « المؤسسة » الرومانية قد نسج لها بالاستمرار في التعايش مع الإمبراطورية الرومانية لو ان انطيوخوس الثالث كان أكثر حكمة في السنوات الخمسة (١٩٦-١٩٢ ق.م). وعند سنة ١٩٠ ق.م. لم تهمل « المؤسسة » الرومانية أية مناسبة لتقليل قوة الإمبراطورية السلوقية، مع ان نتيجة حرب ١٩٢-١٩٠ ق.م. كانت قد أظهرت للحيان العجز الحربي لهذه الإمبراطورية المضمعة جغرافياً. وحتى قرطاجة، التي أصبحت عاجزة منذ سنة ٢٠١ ق.م. هاجستها رومة بدون مبرر سنة ١٥٠ ق.م. ودمرتها سنة ١٤٦ ق.م. وقد دمرت كورث في السنة ذاتها، تماماً بعد مرور خمسين سنة على لراحة رومة ابائها من الحامية المقدونية التي كانت تحمل قلعتها. وكانت اهداف « المؤسسة » الرومانية سليمة. فكانت ترغب فقط في ضرب اية دولة تُظهر اية إشارة الى وغيثها في تأكيد استقلالها، حتى ولو ان الدولة المزعجة كانت عاجزة عن القيام بمثل ما قام به هنيئيل.

إن عزوف « المؤسسة » الرومانية عن ملء الفراغ السياسي الذي أوجدته هامة، يتناقض مع عمل تشن شيه هوان - ني الذي قام به بعد ما قضى، في سنة ٢٢١ ق.م. على آخر دولة مستقلة باقية في العالم الصيني. فبدلاً من ان يترك تشن شيه هوان - ني أي فراغ سياسي، قام حالاً بضم ممتلكات الدول المتنافسة التي قضى عليها، وبذلك وحد العالم الصيني بأجمعه سياسياً في إمبراطورية مركزية مكثفة كانت تُدار إدارة أوتوقراطية. فبعد سنة ١٦٨ ق.م. وهي السنة التي قضت رومة فيها على الدولة الوحيدة الباقية في إطار وجودها، حملت « المؤسسة » الرومانية عالم البحر المتوسط المحرق على الانتظار قروناً قبل ان تنفذ الخطوة الأولى في سبيل اعادة بنائه. ففي سنة ٦٧ ق.م. شجع سيد من سادات الحرب الروماني، وهو يومي، سلطات دكتاتورية لاعادة القانون والنظام في المشرق، وقد قام بالأمر بمقتولة كبيرة بين سنتي ٦٧ و ٦٢ ق.م.. ولكن احتوله عالم البحر المتوسط في سلطة واحدة لم يتم إلا سنة ٤٦ ق.م.. وقد تم ذلك على يد سيد واحد من سادات الحرب الرومان وهو يوليوس قيصر متفلس يومي الناجح. وعندها أخذ يوليوس قيصر على نفسه أمر القيام بعمل في البحر المتوسط شبيه بما قام به تشن شيه هوان - ني في الصين. فقد أخذ يوليوس قيصر بناء إمبراطورية مركزية أوتوقراطية الإدارة، في الأرض النيباب التي خلفها أسلافه الرومان الجمهوريون خربة خالية. وقد كان على

أهبة السير لتوسيع إمبراطوريته إلى المناطق الواقعة عبر القرات من العالم الهندي لما توقع عمله إذ اعتُبل سنة 14 ق.م.

لقد كان لدى قيصر ستان فقط من السلطة الأوتوقراطية، كان خلالها حراً في التركيز على إعادة بناء عائلته، إذا قورن ذلك بالمدة التي كانت لشيه هولان - ني وهي اثنتا عشرة سنة. وحتى عمل قيصر البناء في سنته تضرر بسبب تحد عسكري ضد دكتاتوريته. بالمقابلة مع شيه هولان - ني كان قيصر رحيماً بخصوصه المكسورين، وقد كان اغتياله ثماً لحلمه النسبي. (كان شيه هولان - ني قد نما من محاولة لاغتياله، قام بها رجل من دولة ين، سنة 224 ق.م.، ولم يكن يومها يمدو كونه الملك تشن لدولة تشين، ولم يكن قد أتم عمله وهو توحيد الصين بأكملها بالقوة). وعلى كل حال ما تلا وفاة شيه هولان - ني بالنسبة للصين، بدل على أن عمل قيصر، مثل عمل معاصره الصيني، ما كان له أثر كبيراً بعد موته حتى لو أنه أتيح له، مثل شيه هولان - ني، مدة اثنتي عشرة سنة للقيام به. ذلك بأن قيصر، ولو أنه كان يختلف عن شيه هولان - ني في أنه كان حليماً مع خصومه، فقد كان يشبهه في قلة صبره وسوء تصرفه. وقد كان عالم البحر المتوسط بحاجة إلى خلف للقيصر يقوم ببناء إمبراطورية قيصر من جديد، وقد وجد ذلك الرجل في أغسطس، كما أن ليو باتاغ اعاد بناء إمبراطورية شيه هولان - ني بصيغة أقل إثارة، ومن ثم كانت أكثر ديمومة.

وفي الوقت ذاته فإن الانتكاس الحربي للإمبراطورية القرطاجية ومقدونيا والإمبراطورية السلوقية على أيدي رومة بين سنتي 218 و 190 ق.م. وانحطاط الإمبراطورية البطالسة والموريان المعاصر له زمنياً، فتح الطريق أمام انتشار الشعوب الآسيوية والأفريقية.

وحتى قبل أن تدخل رومة في شؤون المشرق كان المصريون قد بدؤوا بردة فعل ضد النظام الاغريقي البطالسي المستغل. إن حكومة البطالسة كانت، أثناء الحرب السلوقية - البطالسية الخامسة (219 - 217 ق.م.)، قد سلّحت وفوزت، على الطريقة اللقدونية، فرقة من المشاة من اللواتين المصريين. وهؤلاء الجنود المصريون كانوا قد تعلموا في معركة رفح، على الجنود السلوقيين من المنصر الاغريقي. وهذا الانتصار الحربي المصري، على جنود من الجنس نفسه الذي كان ينتهي إليه سادة المصريين من الأعراق المقدونية، منع المصريين بثقة بالنفس الجديدة. ومنذ سنة 217 ق.م. وما بعدها أصبح هؤلاء يزدادون صحوة في الانقياد « للسلط » الاغريقي، وأخذ الكهنة المصريون - وهم

طائفة قوية - يتحينون الفرصة ليزعموا الامتيازات الملاحقة من الحكومة العربية التي أصبح صممها بادياً للمبادئ. وكان من الطبيعي ان يتزعم الكهنة الحركة الروطية ضد الأغارقة. لكن ثورات الفلاحين كانت اجتماعية أصلاً - فقد كانت ثورات الفقراء ضد الاغنياء. « عالمؤسسة » الدينية المصرية، مثلها مثل المؤسسة لسياسة الإغريقية، كانت هدف هذه الثورات، ووضع الكهنة كان مهماً.

بعد سنة ٢٠١ ق.م. أخذت نوصديا، خليفة رومة في شمال غرب افريقية، تعتمد باستعمار على أراضي قرطاجة. وبعد سنة ١٩٠ ق.م. كان على الحكومة السلوقية أن تعتمد من رعاياها ما يمكنها من دفع تعويض الحرب لرومة. وقد أثار ضغط الحكومة المقاومة، إذ أن اتكسارها أمام الرومان كشف ضعف الامبراطورية الحربية. وكان أكبر ما اختلج من المعدن الثمين في الممتلكات السلوقية كان ما جمع في خزائن الهيكل. وقد قتل انطيوخوس الثالث في سنة ١٨٧ ق.م.، وقتل انطيوخوس الخامس في سنة ١٦٣ ق.م. وكان ذلك في محاولة كل منهما أن يذهب الهيكل في هيلام.

كان الهيكل الذي لقي السلوقيون بسبه أكبر ما أزعجهم هو هيكل يهود اليهودي في القدس. لم تصطدم الجماعة اليهودية في جنوب فلسطين، لا تحت الحكم الفارسي ولا تحت حكم البطالسة الذي تلا ذلك، مع الحكومة الامبراطورية كما انها عاشت ايضا في سلام، ولو انها، منذ ايام عزرا، لم تكن علاقتها مع جيرانها ودية. لكن الجماعة اليهودية في جنوب فلسطين كانت منقسمة، على نحو ما كان الشعب المصري منقسماً، نتيجة لوتر داخلي بين الأقلية الغنية والأكثرية الفقيرة. فالأعياء كانوا يملكون الأرض ويسيطرون على الكنز المخزون في الهيكل في القدس. وكان الفقراء هم الفلاحون وصناع المدن والكتبة الذين يعملون للشرية اليهودية، التي كانت الحكومة السلوقية تعترف بها، كما اعترفت بها حكومة البطالسة قبل ذلك، على أنها صالحة لتنظيم شؤون الجماعة اليهودية في جنوب فلسطين. وفي صميم الجماعة اليهودية في جنوب فلسطين كان ثمة مناصرة أدت إلى انقسام الأقلية الثرية بين أسرتين من النبلاء أسرة طويا وأسرة عونيا، وبين ممثلي هذين البيتين الثقاتين. واثناء الحرب السلوقية - البطالسية السادسة، التي انتهت بانتقال السيادة على جوب سورية بما في ذلك جنوب فلسطين، من البطالسة إلى السلوقيين، اشتبك هذا النزاع المحلي بخصومة يهودية جديدة بين حزبين هما انتصار البطالسة وانتصار السلوقيين. وهذه الخصومة تشابكت، بدورها، بخصومة أمر بين فريقين هما حزب يهودي

عني بدعو إلى المُثَلِّثَة وحزب يهودي فقير هو ضد الهلينة. والمخرب الداعي إلى الهلينة كان يرى وجوب السير إلى أبعد مما ذهبت إليه الجماعة اليهودية التي شأت في الاسكندرية (بمصر) خلال القرن الذي كان فيه جنوب فلسطين تحت حكم البطالسة. واليهود الذين هاجروا من جنوب فلسطين إلى الاسكندرية كانوا قد تحدثوا اللغة اليونانية لغة تخاطب بدل الآرامية، لكنهم لم يتخلوا عن دين الآباء. واليهود المُثَلِّثون في جنوب فلسطين الذين كانوا تحت الحكم السلوقي الذي جاء في أعقاب حكم البطالسة، جدهتهم طريقة الحياة الهلينة بكل نواحيها.

بعد تسليم انطيوخوس الرابع العرض سنة ١٧٥ ق.م. تقدم الفريق اليهودي المُثَلِّث في جنوب فلسطين إلى الامبراطور السلوقي الجديد بطلب العون منه، وقد لبى طلبهم ودعم قيام دولة الهيكل اليهودية، على الطريقة الهلينة، وسببت لظاكية. ولم يكن هذا العمل استثنائياً. وذلك بأن سياسة الأسرة السلوقية كانت، منذ البدء، تقوم على أساس تبديل تركيب الامبراطورية بحيث تصبح، تدريجاً، اتحاداً لدول - مدن هلينة أو مُثَلِّثية، يربط بعضها ببعض الآخر ولاء مشترك للفاج الامبراطوري. وبعد انكسار الامبراطورية على أيدي الرومان سنة ١٩٠ ق.م. كشفت الامبراطورية سياسة المُثَلِّثَة التقليدية. وقد رأت الحكومة الامبراطورية في الهلينة وباطناً حضارياً قد يكون من شأنه أن يوقف التفتت الذي كان يهدد الامبراطورية السلوقية نتيجة نكبتها الشائعة في حرب كبرى.

كان المتنافسون للهلينيين من اليهود يزعمون واحدهم على الآخر للحصول على دعم انطيوخوس الرابع بالرشاوى، التي كان يدفعها للمستولي موقناً على الهيكل وكنوزه من الكهنة المتقدمين. ففي سنة ١٦٩ ق.م. فيما كان انطيوخوس في طريق عودته من حملته الأولى من مصر، نهب هيكل القدس بموافقة من المستولي عليه وقتها. في سنة ١٦٨ ق.م. بعد ما انسحب انطيوخوس من مصر بأمر صدر عن لسان رسول روماني، واحد عصبياً قامت به الاكثوية المضادة للمُثَلِّثَة من يهود جنوب فلسطين. كانت هذه الثورة موجهة ضد الأقلية المُثَلِّثَة من الجماعة اليهودية هناك إلا أن انطيوخوس اعتبرها عصبياً مرححاً صده، ولذلك فقد كان رده صارماً. فبنى حصناً في القدس وأقام حامية هناك، وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٦٧ ق.م. هَلَيْنَ المباد في الهيكل وسع اليهود في حروب فلسطين، من إقامة شحاتر اليهودية بالطريقة التقليدية. ويبدو أن بهوء أسبح الآن

مقابل رمس الاوليبي، ولعله اقيم له تمثال في الهيكل الذي كان من الممكن أن يكون تمثالاً لانتيوخوس نفسه على أنه «الاله الظاهر» (إبيفانوس).

لقد تم هذا كله على يد انتيوخوس بالاتفاق مع اليهود المتخلفين في جنوب فلسطين. ولما كان هؤلاء يهودون وكانهم المسيطرون في جنوب فلسطين، فقد أصيب انتيوخوس بمقاجاة كبيرة لما وجد (١٦٦ ق.م.) أن مقاومة التقليديين من يهود جنوب فلسطين اتخذت شكلاً عسكرياً قوياً بقيادة الأسرة الهشمونية. وقد نعلب التقليديون على المتخلفين، فاحتلوا القدس، باستثناء الحصن، وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٦٤ ق.م. ازالوا الآثار الهلنسية من الهيكل. وفي سنة ١٦١ ق.م. عقدت الحكومة الرومانية معاهدة مع الحاكم القروري ضد السلوقيين في جنوب فلسطين واستلمت حامية الحصن السلوقية سنة ١٤١ ق.م.. وفي السنة فاتها انتزعت بلرني (ويشار اليهم عادة، ولو أنه خطأ، باسم القرثيين)، من الامبراطورية السلوقية ليس مدينا فحسب، بل أيضاً بابل (جنوب العراق) وهو مخزن القوة الاقتصادية للامبراطورية.

في سنة ١٣٩ ق.م. حاول الامبراطور السلوقي ديمتريوس الثاني ان يسترد الأرض التي فقدت، ولكنه فشل. فقد نكح القرثيون، وأبعد أسيراً. ونحو سنة ١٢٢ ق.م. أُرغم أخوه، انتيوخوس السابع سيبتي، القدس على التسليم، وحصلت الحكومة الهشمونية على الاعتراف بسيادته. وفي سنة ١٣٠ ق.م. أُرغم بمثل الأسرة الحاكمة، يوحنا هركانوس، أن يوافق، على رأس فرقة يهودية، في حملة كان يقبل انتيوخوس منها أن يعرض عن فشل أخيه الأسير. وقد استرد انتيوخوس السابع بابل ومدينا في سنة ١٣٠ ق.م. إلا أن جيشه، الذي كان قد تورع في مناطق شتوية في مدينا، قضى عليه القرثيون جماعة بعد الأخرى وقُتل انتيوخوس السابع. إلا أن البارثيين سبحو ليوحنا هركانوس أن يعود الى جنوب فلسطين على رأس فرقة اليهودية دون أن يمضوا بأذى.

بين سنتي ١٢٩ و ٦٣ ق.م. كان جنوب فلسطين دولة مستقلة تحت سيادة الهشمونيين، وقد افتتحت وضمت بضعة أجزاء من سورية الجنوبية، بما في ذلك أكثر المدن الاغريقية أو المتخلفة على الساحل وفي الداخل. وعلى كل حال، ففي ٦٤-٦٣ ق.م. حرر يرمي المدن المحتلة وفرض سيطرة رومة على جنوب فلسطين بالذات.

إن الحركة الوطنية اليهودية كانت، على شاكلة مثيلتها المصرية، موجهة ضد حكومة

امبراطورية اعرفقية، وقد توسعت مملكة نوميديا على حساب قرطاجة السياسي. إلا أنه ليس ان تغلب حكماً سياسياً من أن تقاوم اغراضات مدنية ما. وحتى بعد محو قرطاجة نهائياً، ظلت المدينة السورية، في المدن الليبوقينية الباقية على ساحل شمال غرب افريقية، تسيطر قديماً في نوميديا، وكذلك في جنوب فلسطين، إذ سرعان ما استقر الهشموريون مكان السلوقيين في جنوب فلسطين، وفي الأفضية المصاوبة في جنوب سورية، حتى غضموا للهلينة شأن مغالبيهم في دول وطنه خلفت الامبراطورية السلوقية مثل كوماغيش.

كان الهشموريون قد أصبحوا ملوكاً على اعتبار انهم انصار الصيغة الفقلدية من اليهود، ولذلك فإن سجالتهم اللاحقة للهلينة أدت إلى انشغال بينهم وبين الحاسيديم - مثالي اليهودية الفقلدية الذين كانوا تحت القيادة الهشمونية، قد شنوا حرباً ضد اليهود المثلهلين وضد الحكومة السلوقية، وهي الحرب التي ربحوها. كان الكتبة يدخلون في عداد الحاسيديم، وهم مفسرو الشريعة، وكان هؤلاء قد حملوا السلاح تدفعهم إلى ذلك بواعث متعددة. ليهانسية اليهم لم يكن احياء الشريعة يعني احياء اليهودية في اطارها التنفيذي فقط، بل انه كان يعني ايضاً استعادة مركز الكتبة السابق ومخصصاتهم. إلا أن السلطة قد وصلت لا إلى الكتبة، بل إلى الأسرة الهشمونية - وهم اليهود الذين غلبوا الاعارفة المقدونيين وقد حكموا - كما كان يحكم المقدونيون، على أنهم ملوك مطلقون. وانشاء حكم الملك الهشموني الاسكندر ياقوس (١٠٢ - ٧٦ ق.م)، قامت حرب أهلية بين « المؤسسة » الهشمونية والفرسيين (الانفصاليين) وهو الاسم الذي أصبح يطلق على الحاسيديم اليوم، وقد قُتل منهم ستة آلاف في القدس، داخل اسوار الهيكل، على ايدي سرس الملك الذين كانوا مرتزقة غير يهود.

وحتى البدو السابقون الفرثيون، أو على الأقل حكامهم، الاراسيون، انقبسوا صباغاً من الهلينية إذ أنهم، بعد ما ضموا بلبل (جنوب العراق)، نقلوا عاصمتهم إلى اكنسفر، وهي للضاحية الواقعة على الضفة الشرقية لمدينة سلوقية الدجيلية. وفي المدة الواقعة بين ٢٢١ و ٢٠ ق.م. إذ زالت الدول اليونانية التي خلفت الامبراطورية الفارسية الأولى، أصبح للهلينية أن تسجل نصراً لنفسها إلى الشرق من قرية - في الحوصين الأعلىين لهري سحر و جيحون (بكتريا والصغد) وفي شمال غرب الهند. وهنا، كما حدث في كل مكان آخره استمر الأثر الحضاري للهلينية بعد انتخاتها سياسياً.

لقد كانت المقاومة العسكرية للاسكندر الكبير اعنف، في بكتريا والصغد، منها في

أي جزء آخر من ممتلكات الامبراطورية الفارسية. ومع ذلك فإن أكثر التكاثر ودية بين الأيرانيين والأغارقة كان الذي تم هنا في ما بعد. وهذا الاتفاق الاغريقي - الأيراني المحلي استمر بعد انفصال حاكم الصفد وبكتريا الاغريقي من الامبراطورية السلوقية نحو ٢٥٠ ق.م. (كان هذا التاريخ ذاته تقريباً الذي تم فيه احتلال فرتية على يد بارثي البدو). وقد اعمرى الأغارقة البكتريين على ملء الفراغ في المنطقة الواقعة جنوب هندوكوش امور هي: ضعف الحملة الشرقية (٢١٢ - ٢٠٥ ق.م.) التي قادها امبراطور سلوقية انطيوخوس الثالث، وانكساره الكبير على ايدي الرومن الذي عقب ذلك (١٩٠ ق.م.) وانحطاط امبراطورية قزوين بعد موت آشوكا (٢٣٢ ق.م.)

ويبدو أن أحد الامهرين البكتريين المسمى ديمتريوس قد احتل بعد ٢٠٠ ق.م. الأراضي التي كان سلوقس الأول قد منحها لشنذر غينافزريا، وهي التي تقع في ما هو اليوم جنوب غرب أفغانستان. فقد حكم الملك الاغريقي ميتاشتر (نحو ١٦٠ - ١٣٠ ق.م.) في الهند منطقة تمتد جنوباً في الشرق حتى مصبي السند وتربتا. ولعله في ايام ميتاشتر حدث أن الأغارقة الذين كانوا قد استقروا في الهند وقتاً احتلوا بالتهيراء العاصمة السابقة للأسرة الماورانية المتفرقة. فقد عثر على نقود لثمة وللاثن ملكتاً بكتريا وهنديا اغريقيين والملكتين إغريقيتين. وهي جملة جمال النقود السيراتوسية التي تعود إلى القرن الخامس ق.م.، والنقود السيراتوسية، والكثير من النقوش عليها غاية في الروعة. ولكن عدد الأغارقة الذين حكموا هذه المنطقة في مدة تثل عن قرنين يؤكد ما ورد عنهم في الدلائل المدونة. لقد كانوا يحكمون اجزاء صغيرة، ودمروا بعضهم البعض بواسطة الحروب بين الإخوان، وهي الرذيلة السياسية الاغريقية التي لا انفكاك منها. فهؤلاء الملوك الأغارقة، البكتريون منهم والهنود، كانوا دوماً يتخاصمون في ما بينهم، على غرار ما كان يجري في المدن - الدول الاغريقية قبل ايام ميلب الثاني، وخلفاء الاسكندر. وفي حال الأرائل كانوا يختلفون على اجزاء صغيرة من الأرض على جانبي هندوكوش ولم يحاولوا قط أن ينشعوا جبهة متحدة كي توقف انسياح الشعوب التي غطت عليها من السهوب الأوروبية.

كانت جارتا بكتريا وفرتية المباشرين الى الشمال شعين من السكا (الاسكيثيين) : أحدهما كان يسكن في ما يعرف اليوم باسم كزواخستان الى الشرق من بحر قزوين، والآخر في فرغانة، في الخوض الأعلى لنهر سرداريا. وقد كان كلا الشعين تحت السيادة

المارسية قبل أن تحط الامبراطورية الفارسية الأولى وتسقط. ونحو سنة ١٤٠ ق.م. كان الشبان يضغط عليهما اليو - تشيه للاتحاد جنوباً لأن هؤلاء كانوا يهاجرون جنوباً في عرب ليهربوا امام الهز يونغ - نو. وتد تغلب الشكا على الاغارقة في بكتريا، لكن مرثيه - وكانت قد تقوّت باحتلالها جنوب ارض الرافدين - دفعت الشكا من نحو سنة ١٣٨ إلى ١٢٤ ق.م. وحملتهم على تفجير اتجاههم الى حوض نهر الهندكس الأدي (الذي عرف من وقتها باسم بلاد الشكا، سيستان أو سبستان). ومن هناك دخل السكا وادي السند واحتلوا الامارات الاغريقية في الهند، الواحدة بعد الأخرى. وقد تبعت مجموعة من الفريين الشكا على أعقابهم وفرضت حكمها عليهم. وفي الوقت ذاته، نحو سنة ١٠٠ ق.م، تمكن اليوه - تشي من اجتياز نهر اموداريا الى بكتريا وتغلبوا على رعاياهم من السكا الذين كانوا قد احتلوا بكتريا قبل ذلك. لقد ذكر من قبل أن تشانغ - تشين، رسول الامبراطور الصيني هان وو - تشي، كان قد وجد أن اليوه - تشي كانوا قد استقروا في ما وراء النهر نحو سنة ١٢٨ ق.م. وفي سنة ٤٨م اجتازت الجياعة المتغلبة من اليوه - تشي، وهم الكوشان، جبال هندوكوش إلى حوض السند وفرضوا سلطتهم على الفريين - الشكا هناك، وعلى الشكا المستقلين الذين كان الفريون - الشكا قد اخرجوهم من ديارهم الى الجنوب الشرقي وإلى الجنوب. وهكذا قد وحد الكوشان بكتريا مع شمال غرب الهند في امبراطورية القمذت هندوكوش.

ان البارتي (الفريين) والشكا واليوه - تشي (تو خاروي) كانوا جميعاً بدواً رعاة أصلهم من أوراسية. وكان البارتي والشكا شعباً تتكلم الایرانية، الذين كانوا قد احتلوا بالفرس أولاً ثم بالإغريق قبل ان يخرجوا من السهوب الى مناطق يسكنها قوم زراع مستقرون. أما اليوه - تشي فقد جاؤوا من أرض قاصية، لم تصل اليها لا مدينة الفرس ولا الاغريق ولا الصين، ولغة استعمالهم الهندية - الأوروبية الفوقغارية، لم تكن إيرانية. ومع ذلك هؤلاء الشعوب الثلاثة البدوية المهاجرة قد اقتبست للدين الهلني التي كانت في المنطقة التي احتلواها ولم يكن الكوشان وهم فرع من اليوه - تشي، أقدم اقتباساً لها. فالنقود التي سكوها كانت تقليداً لنقود اسلافهم الاغارقة، ان لم تكن هي بداتها وقد سكبت فوق الشعار السابق. وقد خضع الارساسيون والكوشان للهلبنة بعمر الاستعداد الذي بدا على الهشموتين والرومان.

ان هرمايوس، آخر ملك إغريقي في المنطقة التي هي افغانستان اليوم وزوجة هرمايوس

الملكة كاليبوب، ماتا، ولعل ذلك تم على أيدي الترتشين - الشكا، نحو سنة ٣٠ ق.م. وهو التاريخ الذي انتحرت فيه آخر ملكة إغريقية لحصر، كليبواترة السابعة. وكان آخر مقاومة حرية إغريقية جلادة لرومة هو العصيان اللقونتي (١٤٩ - ١٤٨) وحرب الحلف الإحائي مع رومة في سنة ١٤٦ ق.م. بعد القضاء على العصيان المقدومي، كانت املا ضائفاً أمام الصموديات المحيطة. وبعد ذلك جاءت التحديت لرومة، لا على أيدي أية من الحكومات الأعرقية القائمة، بل على أيدي الصيد الأغرارة أو الهلينين وعلى أيدي حكام ايرانيون، لا أغاروة، كانوا اساد الدول التي خلفت الامبراطورية الفارسية الأولى.

لقد أصبحت الحروب الأهلية (العاتية) التي قامت بين المتنافسين على العرش، بيت سلوقس بدءاً من سنة ٢٤٦ ق.م. وقد كانت الحروب الأهلية أمراً مزمناً في الأملاك السلوقية المنفصلة تدريجاً، وذلك منذ موت الامبراطور انطيوخوس السابع سيد ينس في ميدها، حتى نها آخر شعاع من الامبراطورية السلوقية سنة ٦٤ ق.م. وترتب على ذلك أن أصبحت سورية أرضاً يتطلع اليها تجار الرقيق. قبل سنة ١٦٨ ق.م. كان اسطول رودس يقوم بدور الشرطي في المشرق، لكن بعد تصفية مملكة مقدونيا، خربت رومة رودس إذ منحت أثينا جزيرة ديلوس، شرط أن تكون ميناء حراً، ولم بعد باستطاعة رودس أن تحتفظ باسطولها، ومن ثم فقد كان القراصنة، لمدة قرن من الزمان، يسيطرون على البحار المشرقية، وكانوا يتخذون من كليكيا الغربية (الصعبة) ومن كريت لمركزاً لهم. وتعاون القراصنة مع رجال الأعمال الايطاليين والسوريين، الذين اتخذوا ديلوس مركزاً لهم، على اختطاف ضحايا الحرب الأهلية في سورية وبهمهم في سوق الرقيق. وكان ذلك يتم في ديلوس، حيث ينقلون الى المزارع الابطالية والصقلية. وكان الصيد يعملون فيها بعدما هبط الأرضين لاستخدام انجح الوسائل الممكنة لاستغلال هذه البلاد بعد الخراب الذي اصابها أثناء حروب هينيل.

كان الصيد الذين يقيمون في شبه الجزيرة الايطالية وصقلية يضمون ممثلين من جميع فئات المجتمع. فأى امرىء من أية فئة كان يمكن ان يقع ضحية الخط والتعير في سرب اهلية. فبعض الزعماء الذين قادوا العصيان الذي قام به الصبيد اخيراً، كانوا وهمي التهديد ورجالاً ذرية لعلوية. وحتى في سنة ١٩٨ ق.م. كان ثمة عصيان فاشل لصيد المزراع في سانيا، وهي مستعمرة لاتينية الى جنوب شرقي رومة. إلا أن العصيانات التي قام بها صيد - المزراع بدأت وهي في حال عجز. لقد كانوا يعملون جماعات مقيمة

بالسلاسل، وكانوا يسكنون ليلاً. قليلة جاءت من العبيد - الرعاة. وحيروهم، وقد كان هؤلاء العبيد - الرعاة في مراتعهم الصيفية في الجبال المرتفعة يبعدون عن المراقبة إلى درجة كبيرة. لقد كان لدى العبيد - الرعاة السلاح وحرية الحركة، وكان عبيد - المزارع كثيرين عدداً فلما حمل الرعاة - العبيد السلاح وجرروا عبيد - المزارع تمكن العبيد - الثائرون من العثور على القادة الاكثفاء ومن تجمع جموش كان باستطاعتها ان تقابل الحدود الرومان على ارض المعركة. وهذا يوضح لنا لماذا نجحت حروب العبيد في صقلية (١٣٥-١٣٢ و ١٠٤- نحو ١٠٠ ق.م). ولماذا استطاع العصاة الصمود هذه المدة. وفي سنة ١٣٥ ق.م. وهي السنة التي بدأت فيها حرب العبيد الأولى في صقلية، كان ثمة عصيان للعبيد في ديلوس وفي اتيكيا. ليس ثمة ما يدل على ان ثورات العبيد المتلاحمة زماً والتي قامت في بقاع مختلفة من عالم البحر المتوسط كانت نتيجة عمل مشترك منظم، أو أن أبناء الواحدة منها كانت المثيرة لغيرها، إلا أنه من المحتمل ان تلازمها الزمني لم يكن كله مصادفة. كانت ديلوس، في سنة ١٣٥ ق.م.، مرتبطة سياسياً باثينا، ونجارياً كان ارتباطها بصقلية واطالية. وفي سنة ١٣٢ ق.م. حصل ارستونيكوس، وهو مدع لعروش برغامون، السلاح في أرض المملكة السابقة، التي كان آخر ملوك اسرة برغامون قد اوصى بها للشعب الروماني (١٣٣ ق.م.) وكانت الحكومة الرومانية قد جعلت من المملكة ولاية اسيرية، ولزمت جميع الضرائب في الولاية لرجال اعمال رومانيين. وقد استنجد ارستونيكوس بالعبيد، واعلن انشاء دولة الشمس. لقد عبر ذلك عن الرأي الذي كان يغير زعماء عصيان العبيد في صقلية. فالشمس هي التجسيد الالهى للعقل. انها تعطي الضوء والدفء للعبيد والاحرار والفقراء والاغنياء على السواء. و « المؤسسة » الرومانية كانت تمثل الاغنياء ومالكي - العبيد ونجار العبيد. وكان الثور يحاولون لا إقامة دولة بديلة للدولة الرومانية فقط، بل مجتمع بديل للمجتمع الهليني، الذي كان يومها يمثل عماله يوحشية. وقد كان هذا ايضاً هدف المجاهد الترانى سبارتاكوس الذي هرب من السجن، وجمع جيشاً من العبيد وسيطر على الريف الايطالي من ٧٣ إلى ٧١ ق.م.

كان الحاكم الامبراني الأول الذي تحدى رومة هو متراديس السادس حاكم كابادوكيا البرطية في شمال شرق آسيا الصغرى. ففي سنة ٨٨ ق.م. استولى متراديس على ولاية آسيا الرومانية واحتل ديلوس واستأثر بدعم أثينا، وجعل من نفسه محرراً للأغارقة من

التجبر الروماني، وقد كان ثمة معجزة للتمزي الضراب الإيطاليين وغيرهم من رجال الأعمال الإيطاليين في الأراضي المحررة. وفي سنة ٨٨-٨٩ ق.م. تقدم جيش متراديس في بلاد اليونان إلى الحلد الفني وحصل إليه جيش أكروكسيس في ٤٨٠-٤٧٩ ق.م. وكما عُلب أكروكسيس طلب متراديس، واضطر إلى عقد الصلح سنة ٨٥ ق.م. إلا أنه حمل السلاح مرثين ضد رومة قبل وفاته سنة ٦٢ ق.م.

كان تحدي متراديس الفاشل لرومة أقوى من أي تحد آخر جابهه الرومان منذ الحصان المقدوني الفاشل في ١٤٩-١٤٨ ق.م. وكان ثمة دولة ليرانية أخرى، هي فرثية، التي انزلت برومة، في كاري (حزبان) في ما بين النهرين سنة ٥٢ ق.م. أكبر انكسار حربي منذ انتصار هنيبل في كاني سنة ٢١٦ ق.م. لقد كانت لرض المعركة في كاري سهلاً، والمسافة التي تفصل لرض المعركة في كاري عن اقرب ميناء على البحر المتوسط سببت مشاكل فنية كبيرة للجيش الروماني الذي توغل مسافة شاسعة داخل القارة، وقد ظلت الأرض هناك فترة الأعداد والمعدة واللقن العسكري لشدة الرومان في التغلب. وقد وجد كراسوس نفسه في كاري عاجزاً أمام قوة دونه عدداً من الرماة الفرثيين تدعمها قافلة من الابل تحمل كمية هائلة من السهام. لقد سحق جيش كراسوس بأكملها.

كان هذا أول انهزام ساحق أصاب الرومان. إن لقرطاجيين والدول الإغريقية والمصاة العبيد ومتراديس - جميع هؤلاء خضعوا في النهاية، كل بدوره. لكن أشد اهداء الرومان عليهم، وأكثر الضحايا البائسين في الفترة التي تلت عصر هنيبل لم يكونوا الفرثيين، لقد كانوا الرومان أنفسهم.

إن حروب الرومان في فترة ما بعد هنيبل ضد دول الأغارقة المشافة كانت قصيرة، وتمكنت رومة من ضبط خصومها دون أن تلزم نفسها حالاً بأي أمر حربي أو سياسي دائم. وفي الجهة الثانية فقد اورثت حروب هنيبل رومة التزامات مباشرة في إيطاليا الفارغة إلى الشمال من جبال إينين وفي إسيانية فيما وراء البحار. وقد كانت الخدمة العسكرية الطويلة، بالنسبة إلى الجنود - الفلاحين الرومان في تلك الانحاء السائية مؤدية اقتصادياً، كما كانت الخدمة العسكرية على طول السور الكبير وما وراءه بالنسبة إلى الطبقات المتفائلة والمعاصرة لهم في المصون. كما كانت، بالمقارنة، مرمية امداد منها الطامعون في امتلاك الأرض من الرومان، على نحو ما حدث في المصون. فإن آخر القبائل المستقلة في حوض البو لم يُقضى عليهم حتى سنة ٢٥ ق.م. ولم يتم إخضاع ممالكهم

في إسبانية إلا في سنة ١٩ ق.م.. وفي هاتين السنتين كانت حدود الإمبراطورية الرومانية الحربية قد امتدت في لوروية الغربية القارية إلى نهر الراين، وفي آسيا لمقاربة إلى ممر القرات. أما في لوروية الشرقية حيث تحجّلت رومة بسبب العصيان المقدوني القوي (١٤٩ - ١٤٨ ق.م) على أن تضم مقدونيا حالاً، وعلى أن تتولى بنفسها الدفاع عن الحد الشمالي لمقدونيا، فإن الحد الروماني المحلي، الذي تمّ إنشاؤه، وصل إلى ممر الدانوب سنة ٢٧ ق.م..

وفي الوقت ذاته فإن الدمار الذي أصاب جنوب شرق إيطاليا وصقلية، أثناء حرب هنبعل، والسياسة التي تلت ذلك والتي انتهت بـ « المؤسسة » الرومانية في تخريب ما تبقى من عالم البحر المتوسط، ثم ترك هذا العالم في حال يرثى لها من الدمار، اتاحت الفرصة لاستغلال على مقياس كبير. وهذه الفرصة ترقّب عليها قيام طبقة اجتماعية جديدة من المستعمرين وذلك في إطار الجسم السياسي الروماني. وقد تمكن رجال الأعمال الرومان من جمع رأس مال نقدي، وذلك في الوقت الذي كانت فيه رومة تحفل شبه الجزيرة الإيطالية وتوحدها، على غرار ما حدث في الصين أثناء عصر الدول التجارية. ورجال الأعمال هؤلاء، مع أصحاب الأملاك من « المؤسسة » الرومانية كانوا يملكون، في ما بينهم، حصص الأسد من ثروة الجماعة الرومانية. وكانت غالبية المواطنين الرومان فقراء، وكذلك كانت الدولة الرومانية.

في سنة ٢١٥ ق.م. وهي السنة الرابعة من حرب هنبعل، انفلست الخزينة الرومانية. لكن المتحمدين الذين كانوا يزودون الجيوش الرومانية، في إيطاليا وفي ما وراء البحار، بالمواد الغذائية والثياب والسلاح تمهدوا بأن يستروا بتقديم هذه المواد التي لا غنى عنها، ذبنا طيلة مدة الحرب. وقد تبين أنهم يملكون من رأس المال السائل ما يمكنهم من القيام بذلك من ٢١٥ إلى ٢٠١ ق.م. يضاف إلى ذلك أنه في سنة ٢٠٥ ق.م. تقدم عدد من المدن - الدول في المنطقة التي ظلت حاضرة في شمال غرب شبه الجزيرة الإيطالية - وبعضها كانت مستعمرات بلدية رومانية والبعض الآخر كانت حلفاء رومة - بهدايا ثمينة، طوعاً، إلى رجال الحملة التي كان شيبير يجمعها لهجومه على إفريقية القرطاجية. وفي السنة تلتها تقدّمت الخزينة الرومانية المفلسة ببيع قطع من الأرض التي انتزعتها من المستعمرات البلدية الرومانية في كامبانيا. وهي التي كانت قد انفصلت عن رومة في ٢١٥ ق.م. ثم أخضعت من

جديد سنة ٢١١ ق.م. - وقد تقدم المستورد من بين اولئك الذين كان باستطاعتهم ان يدفعوا الثمن نقداً.

اصبحت الحكومة الرومانية، اعتباراً من ٢١٥ ق.م. تحت رحمة المقيمين الرومان، فكان عليها ان تمنحهم شروطاً تتيح لهم فرصاً ذهبية للفشل. وعندما كان يبدو عشيهم داضلاً كانت السلطات العامة تحاكم المتهربين المحتلين بشيء كثير من التردد، إذ كانت هذه السلطات تخشى ان يُلجأ المجرمون إلى قطع الأرزاء، ومثل هذا العمل يضع رومة في مأزق، إذ قد يعني انكساراً حريماً سريعاً. وفي سنة ٢٠٤ وسنة ٢٠٢ ق.م. قبل ان تنهي الحرب، كان على الخزينة ان تبدأ بتسديد ديونها أنشأها. وفي سنة ٢٠٠ ق.م. كان عليها ان تدفع القسط الأخير، ففعلت ذلك على انفع طريقة للشديين، إذ عرضت الدفع بشكل اراض عامة تقع ضمن نصف قطر لا يتجاوز الخمسين ميلاً من رومة، وهي منطقة كان لا بد فيها لاسمار الأرض من الارتفاع. وبغضاً عن انها دفعت الأرضة على شروط غير ملائمة، فإن الخزينة كانت قد مؤلت نفقات حرب هيبعل بأن فرضت جزية سنوية على الأفراد من دافعي الضرائب، وكان استيفاءون من ذلك خمسة وعشرين ونصفاً من كل أربعة وثلاثين شخصاً. وقد تمكنت الخزينة من ذلك بسبب الأموال التي نالتها الخزينة من حصص الحكومة من الاسلاب التي حصلتها إلى رومة (الحطلة الرومانية التي نهبت آسيا الصغرى في سنة ١٨٨ ق.م.).

لم تكن حصص الحكومة من الاسلاب التي حصلتها الجيوش الرومانية إلى رومة المصدر الوحيد الذي يصر للخزينة الرومانية ان تزود في امولها بين سنتي ١٠١ و ١٦٨ ق.م.. فقد كان هناك تعويضات الحرب - على سبيل المثال تلك التي فرضت على قرطاجة في سنة ٢٠١ ق.م. وعلى الامبراطورية السلوقية سنة ١٥٠ ق.م. - وكان هناك املاك هي رأس مال منتج للضرائب: ومثل ذلك الأرض التي انتزعت من الجماعات التي انفصلت ثم أخضعت من جديد في جنوب شرق ايطالية وكل الأراضي التي كانت تحصى قرطاجة وكورنت والتاجم والفلبات في مقدونيا التي كانت املاك التاجم والتاجم الاسيانية التي كانت ملكاً لحكومة قرطاجة أو للجماعات الاسيانية الوطنية التي كانت قد نُهزت وأُحتلت بلادها. فبعد احتلال مقدونيا في سنة ١٦٨ ق.م. نُقِيت الضرائب المباشرة على المواطنين الرومان المقيمين في ايطالية أو في الجماعات الرومانية البلدية خارج ايطالية التي كانت قد منحت وضعاً مالياً ايطالياً.

وهكذا وافته بدءاً من سنة ٢١٥ ق.م. كانت الأقلية من المواطنين الرومان تزداد ثراء، فيما كانت الأكثرية الفقيرة تزداد فقراً. وانزواء الحرب من رجال الأعمال لم يكونوا منتجين. لم يكن هؤلاء من رجال الصناعة، ولم يكونوا حتى تجاراً في ما عدا تزويد الجيش، وفي الرقيق. لقد جمعوا ثروتهم من التزامهم للرسوم الجمركية وللضرائب التي كان يدفعها رعايا رومة في الولايات. ومن ثم فإن أعضاء « المؤسسة » الذين كانوا يحتكرون تولي الوظائف العامة، والذين كان يجب عليهم ان يحرموا رعايا رومة بحيث لا يسلخ ملتزموا الضرائب الرومان جلودهم، كانوا يعتقدون بأن يؤمنوا لأنفسهم مكاسب غير مشروعة. وكانوا يعملون ذلك إما جريئاً عن طريق الاستثمار في مصالح التزام الضرائب خفية، وإما غالباً، عن طريق استئجار الأراضي أو شرائها في الممتلكات الرومانية التي كانت تتوسع باستمرار في إيطاليا. وكان هذا مجزياً.

ففي جنوب شرق إيطاليا كانت مساحات شاسعة من الأرض أصبحت املاكاً رومانية. وفي الوقت ذاته كانت الاملاك الرومانية العامة تزداد اتساعاً نتيجة النزاع الأرض من الدول الإيطالية، تلك الدول التي كانت قد انفصلت أثناء حرب هيميل. كما أن الأرض التي كانت ملكاً خاصاً في الممتلكات الرومانية كانت تطرح في السوق بسبب إفلاس الفلاحين المالكين للأرض الذين توجب عليهم القيام بالخدمة العسكرية لسنوات متوالية على الجبهات الثمانية. فكان ثمة مجال للحصول على ارباح طائلة من استئجار الأراضي العامة أو من إيجار املاك الفلاحين - الجنود القلبيين.

إن جزءاً كبيراً من مساحة شبه الجزيرة الإيطالية باجمعها يتكون من مرتفعات وعرة لا خير فيها من التسمية الزراعية، لكنها تصلح مراعي صيفية جيدة للأغنام والأبقار إذا امكن العثور على مراعي شتوية في التخفضات لتتسم عملها، وإذا كان ثمة حق مرور مضنون لتفعل المهورات مرتين في السنة. ومنذ أن تم توحيد شبه الجزيرة الإيطالية سياسياً في سنة ٢٦٤ ق.م. أصبح من الممكن أن تظفر طائفة البلاد الرعائية على مقياس واسع. وانتزاع الأراضي بكميات كبيرة وبيع الأرض في الممتلكات الرومانية في إيطاليا بعد حروب هيميل جعل هذا التطوير الاقتصادي الجزئي أمراً عملياً لفئة قليلة من المواطنين الرومان التي كانت تمتلك من المال ما يكفي لاستئجار الأراضي العامة ولشراء الأراضي الخاصة والحيوانات. وقد كانت الاحياء البشرية، على شكل الرعاة - العبيد، أمراً ضرورياً مثل الحيوانات كحي ثقل الأرض الأرباح من صناعة الرعي. ومستأجرو الأرض في المناطق

المختصة أو مشروها كان لهم أن يختاروا أحد ميلين لاستعملها: إما أن يعرسوا فيها الكرم والربيع، أو أن يحولوا الأرض للصلحة للزراعة مراعي شتوية. وقد كانت ثمة سوق جد مربحة للزيت والخمر في مدينة رومة وفي غيرها من المدن الإيطالية، وكذلك في المناطق الأوروبية الواقعة شمالي إيطاليا، حيث كان إنتاج الزيت والخمر غير ممكن إلا بسبب الجو الحار، وإما بسبب لنوع الذي كانت تخرجه الحكومة الرومانية في الممتلكات التي كانت تقع تحت سلطة رومة. إلا أنه في لفترة الفتنة من ٢٢١ إلى ٣١ ق.م. كانت كروم العنب وبساتين الزيتون، مثل الحيوانات، تعطى أرباحاً فقط في حال قيام العمال - العبيد على خدمتها.

حقبة لقد كان العمل الذي يقوم به العبيد بأعلى الثمن نسبياً. إن العبيد كان يجب أن يتأخروا، ثم كان لا بد من إظهارهم وأموالهم على مقلد السنة، والمهد الذي استقرت قواه، والذي لم يكن صلياً للبيع كان عبثاً ثقلاً على المزارع أو صاحب الحيوانات، بينما كان باستطاعته أن يستخدم عمالاً أحراراً مؤقتين في مواسم العمل، دون أن يتحمل مسؤولية دائمة نحو المستخدمين المؤقتين. إلا أن الاحتفاظ بالعمال العبيد بصورة دائمة كان له مبرر حاسم للأمر. إن عمل العبيد كان بجملة تحت تصرف سيده ما دام العبيد قادراً على العمل؛ والخمر المستأجر قد تجنده الحكومة للخدمة العسكرية في أي وقت، ويحتفظ به، كما لو كان عبداً عاماً تماماً، لسنوات طويلة. ولم يكن لمُستأجره الخاص أية ضمانات ضد هذه المجازفة.

وترتب على هذا أنه، بدءاً من انتهاء حرب هينيل، أخذ الاقتصاد الريفي وسكان شبه الجزيرة الإيطالية كلاهما طريقهما نحو تيّدل ثوري. فالأراضي الصغيرة المملوكة حرة، والتي كان يملكها الفلاحون الأحرار والتي كانت تنتج الحبوب لتغذية الملاكين، تحولت تدريجاً إلى مزارع واسعة، مؤلفة من مراعٍ صيفية وشتوية متصلة يجمعها البعض. وفي المناطق المنخفضة أصبحت الأراضي الحرة الصغيرة أيضاً كروماً وبساتين زيتون، وهاتان الوسيلتان المدينتان لاستثمار الأرض كانتا كليهما تعتمدان على عمل العبيد. ولم يبلغ هذا التبدل غايته أبداً. فقد ظلت الأراضي المملوكة حرة قائمة بأعداد كبيرة، ولم تكن كل الحبوب اللازمة لإطعام سكان رومة يُتَزَوَّد بها من الحبوب التي كانت تشحن من صقلية وسردنية على أنها ضريبة. ومع ذلك فلم تحل سنة ١٣٥ ق.م. وهي السنة التي اندلعت فيها حرب العبيد الأولى الصقلية، حتى كانت الثورة الاقتصادية والديموقراطية

(البشرية) قد قطعت شوطاً كبيراً بحيث أنها أحدثت نقصاً في القوى البشرية التي كانت خاضعة قانوناً للتجنيد الاجباري.

إن أعضاء « المؤسسة » الرومانية كانوا لا يبالين في موقعهم من الظلم العاجز والفسوة اللتين تمثلان في نظام الرق، ومن الفقر الذي شمل الأكثرية العاجزة سبباً من رفاق الاوليفلوكوس من المواطنين. لكنهم كانوا يخشون من ازدياد الصعوبة في جمع الجيوش التي لها من القوة ما يمكنها ان تلبي التزامات رومة العسكرية المتزايدة. كما أنهم أخذوا يدركون ان المجندين المتقدمين يكونون جنوداً ضعيفين. وفي سنة ١٣٣ ق.م. بلغ هذا الانحسام بالحفاظ على معالية رومة العسكرية، ولعله كان أكثر من الانحسام بالعدل الاجتماعي للاحرار الذين كانوا مواطنين (روماني)، حداً حمل أحد أعضاء « المؤسسة » الرومانية، وهو طيباريوس سيمبرونيوس غراخوس، على ان يقترح قانوناً يجمع في قراره ومهد بذلك الطريق لتورة في الكياف السياسي الروماني. لقد حدد قانون غراخوس مساحة الأرض التي يجوز للمواطن ان يملكها، وان يوزع ما تبقى من الأرض قطعاً بحيث تكون مساحة القطعة محدودة وان يكون المدين يملكونها خاضعين للتجنيد الاجباري. وقد أثار هذا القانون عاصفة في الطرف الغربي للعالم القديم للأويكرمين ظلت تهدد مدبرة لمدة مئة من السنين - وهو القرن الذي كان الطرف الشرقي للعالم القديم للأويكرمين انشاء تصعب به الحروب المستمرة بين الامبراطورية الصينية والهزبونج - نو.

دفع غراخوس حياته ثناً لقانونه في سنة ١٣٣ ق.م. (نقله رفاقه الارستقراطيون). ثم دفع أخوه غايوس حياته ثناً للقانون في سنة ١٢١ ق.م. وقد أثار هذا القانون نفعة لا في « المؤسسة » الرومانية وحدها، ولكن أيضاً بين المواطنين في الدول التي كانت قد انفصلت قبلاً، إذ أن كثيرين منهم كانوا لا يزالون يقيمون، دون أن يزعجهم أحد، في جزء من الأرض التي كانت قد انتزعها رومة من دولهم. وفي سنة ١١١ ق.م. كانت كل الأراضي الرومانية العلة التي يمكن استعادة ملكيتها قد أعيد توزيعها، ولم يؤد ذلك إلى حل لأي من المشكلتين اللتين كانتا الساعث على التشريع الفرائضي، فلا المشكلة العسكرية ولا المشكلة الاجتماعية حلتا. واعتباراً من سنة ١٠٨ ق.م. بدأ حل المشكلة بشقيها ولكن على أساليب كانت بطبيعتها مضادة لبقاء الحكومة الدستورية في الكيان السياسي الروماني.

في سنة ١٠٧ ق.م. انتخب غايوس مليريوس الذي لم يكن من « المؤسسة »

الوراثية، فضلاً (فقد كان التقصصان اللذان يتحيان سبوا، هما أعلى الموظفين العاميين في الدولة الرومانية). وقد جمع ماريوس جيشاً خاصاً، وذلك عن طريق تجنيد لا دستوري سمح بموجبه للمواطنين الرومان الفقراء أن يلتحقوا بالجيش، ونقل هؤلاء الخدمة برغبة. لم يكونوا يخسرون شيئاً، وكان من الممكن أن يكسبوا الكثير. إذ أنه كان يهيم وبين ماريوس اتفاق ضمني بأنه لن يصرحهم دون أن يؤمن لهم حاجتهم، وإنهم يتعاونون معه لرمي ثقلهم كقوة عسكرية نظامية للضغط سياسياً على « المؤسسة » الرومانية لعرض شروط ترضي مطالب الجند وتحقق مطالبهم. لقد كان ماريوس أول الثوار من سادة الحرب في رومة. وبدعاً من سنة ١٠٨ ق.م. كانت رومة في الواقع يحكمها سادة الحرب - ولم يكن ذلك بصرامة، باستثناء بوليوس قيصر الذي حكم حكماً ملكياً بشكل واضح، وتلك وضع حد له بسرعة وبخف.

وأشكال الحكم الروماني اللادستورية والأتوقراطية والعسكرية لم يحاول أحد سترها بفشاء شفاف من الشرعية المتعمدة حتى بعد ٢١ ق.م... فإلى قبل ذلك التاريخ كُلف النظام (أو على الأصح اعتماد النظام) سكان إيطاليا جوليين من الحرب الأهلية - الأولى من ٩٠ إلى ٨٠ ق.م. والثانية من ٤٩ - ٢١ ق.م. ومن سخيرة القدر أن أبرز مظهر للثورة الرومانية هو أنه في المدة الواقعة بين مقتل طيلاريوس غراغوس سنة ١٢٣ ق.م. إلى انتحار مرقس أنطونيوس سنة ٣٠ ق.م. كانت صراعات جوبيتر تنزل الواحدة بعد الأخرى من أعلى الأشجار في غابة كانت أشجارها في تلافص مستمر. فقد كانت أهداف جوبيتر الثلاثين على مسرح القوى الروماني: الأعوان غراغوس وشنا وسرتوريوس وكاتلين وبرمبي وكراسوس وبوليوس قيصر وسكنوس بومبيوس ومرقس أنطونيوس - وجميع هؤلاء اللاعبين، اللذين استمتموا بهذه اللعبة القتالة، قُتلوا بخف. وقد نجا ماريوس من مثل هذا المصير بعد أن ابتلي بغلب الظروف بؤساً ونعمة. وكان شئ اثنتان آخران من سادة الحرب مانا في فراشهما. والأول من هؤلاء هو (بوسيس كورنيليوس) شلاً، الذي كان أشدهم هولاً، لكنه كان ثعلباً في السياسة. والثاني كان أشهرهم جميعاً، هو (ماريوس بوليوس قيصر) أوكثافيان أغسطس، وهو ابن أخت ليوليوس قيصر، لكن قيصر كان قد نبأه.

ففى أوكثافيان نجبه في فراشه. وقد كان يستحق ذلك. كان قد نجح في وقف الثورة الرومانية التي استمرت مئة سنة. ولكن ذلك لم يتم قبل أن سارت سلسلة من

رجال الحكم الرومان اليائسين المكسورين على حرب الثورة الذي كان قد سبقهم عليه زعماء البروليتاريا للنسيون. فماريوس تبعه ورفيقاه ميتا وسرتوريوس هما الظهيران الرومانيان للأمير البرغامي لوستونيكوس الناعبي إلى المساواة، ولأونوس وسلفيوس الملكيين الرقيقين الصقليين. وسكتوس بومبيوس، وهو ابن بومبي، اتفق مع القرصنة على عمل مشترك، وهم الذين كان أبوه، بومبي المقتول، قد طاردهم وقضى عليهم.

كانت الثورة الرومانية انتقام هيبعل المتأخر من رومة. ولكن إذ وقع نصبه بومبوس القرطاجي على الدولة الرومانية النخرة - وهي المناظر القرمي لدولة تشين - فإنه لث عالم البحر المتوسط المذهب بكامله.

٣٧- الامبراطوريات الصينية والكوشانية والفردية والرومانية

٣١ ق.م - ٢٢٠ م

منذ سنة ٤٨ م وحتى بعد بدء القرن الثالث للميلاد كادت الرقعة بكاملها، التي كانت تقوم فيها مدنات القلمية من اريكومين العالم القديم بان تتجمع سياسياً في أربع امبراطوريات، امتدت أسلاكها في منطقة مستمرة عبر القارة من ساحلها الهادي الى ساحلها الأطلسي.

ومعنى هذا انه في هذه الحقبة من تاريخ العلم كان التوحيد السياسي، على مثل هذا المقياس الجبار، هو القاعدة العامة. إلا انه كان ثمة استثناء بارز في هذه القاعدة العامة وذلك في شبه القارة الهندية. فلإقامة امبراطورية كوشان سنة ٤٨ م أدى الى توحيد شمال غرب الهند، كما انه وحد هذا الجزء من الهند مع بكتريا سياسياً. وقد كان هذا تديلاً كبيراً من حالة الفوضى السياسية التي كانت تشاب الهند منذ السنوات المبكرة للمقرن الثاني ق.م.. إلا أن الهند، في القرن الأول للميلاد، كانت لا تزال مصابة بتصدع سياسي، إذا فوّرت بالهند كما كانت في القرن الثالث قبل الميلاد. فقد كانت يومها شبه القارة الهندية بكاملها، باستثناء طرفها الجنوبي، تحت حكم أسرة ماوريان.

ففي القرن الأول للميلاد كان قلب امبراطورية ماوريان القديمة، وهو في ولايتي بهار وأوتار براداش الهندجيين اليوم، كانت تحكمه أسرة شتفاء التي جاءت في أعقاب الموريان في سنة ١٨٣ ق.م. وأصبحت عاصمة الموريان السابقة بتاليترا، عاصمة الستفا. ومع ان ملكاً اغريبياً كان قد احتل بتاليترا في وقت ما في القرن الثاني ق.م.، فإن امبراطورية كوشان لم تمتد الى هناك في اتجاهها الجنوبي الشرقي. يضاف الى ذلك أن القسم الأكبر

من املاك الموريان في الدكن كانت في هذه الفترة تحت حكم أسرة خليفة ثابتة معروفة باسم اندرا (اوستافاها) (من نحو ٢٣٠ ق.م. - ٢٢٤ م) وكانت لها القدرة نفسها التي كانت للنما. وكان طرف شبه القارة كما كان من قبل، مقسوماً سياسياً بين عدد من الدول المصرية. فيون نحو ٤٠م ونحو ١٥٠م كان السكا (السكيشيون) الذين كان العرون - سكيون قد طردوهم جنوباً في شرق من حوض نهر الهند، يشنون كبايهم في أجيون. وكانوا يشنون في مهاراشترا وجودهم على حساب الاندرا. وأمارتا السكافي اوجين ومهاراشترا كانتا ولايتين تتمتعان باستقلال ذاتي في امبراطورية كوشان، ولكن معظم شبه القارة كان لا يزال خارج إطار امبراطورية كوشان

وكان ثمة جزء آخر من أوكيومين العالم القديم الذي لم تضمه اي من الامبراطوريات الأربع، وهو حوض النيل الأعلى. لقد ذكرنا قبلاً أن الحدود الجنوبية لمصر الفرعونية كانت وصلت جنوباً الى نقطة على النيل فوق الشلال الثاني، وذلك في عصر المملكة المتوسطة. وقد وصلت ثلثي نبتا تحت الشلال الرابع مباشرة في عصر المملكة الحديثة. ولما انهارت المملكة الحديثة في القرن الحادي عشر ق.م. أصبحت نبتا عاصمة لوحدة من الدول الخليفة (كوش)، وهذه الدولة ذاتها، استمر وجودها بعد ان فشلت في توحيد عالم مصر سياسياً وذلك بضم مصر بالذات التي حكم للملكة الكوشية. وفي وقت لا نعرفه توسعت مملكة كوش صعداً مع وادي النيل في ما وراء نبتا الى ميرو على ضفة النيل اليمنى، بين انقضاء النيل بمطهرة والشلال السادس. وقد نُقِلَت العاصمة من نبتا الى ميرو. ولعل ذلك تم في القرن السادس قبل الميلاد.

كانت ميرو تفضل على نبتا في أمور ثلاثة. كانت ميرو تسع يزعمات من المطر، في ما كانت نبتا تعتمد على الري كلبية. وكان ثمة مناجم حديد غنية في ميرو، الأمر الذي أدى الى قيام صناعة معدنية. والأمر الثالث هو أن الدولة التي تكون عاصمتها ميرو تتصل بالمنطقة التي يمكن اجتيازها وسكنهاها (التي غزوها الجفاف سنة ١٩٧٣ م)، الممتدة غرباً بين الصحراء شمالاً ومنطقة العايات للعلوية للمطرة، من ضفة النيل الأبيض الغربية الى سواحل افريقية الأطلسية.

ومع أن مملكة كوش لم تتمكن من احتواء مصر، فانها نجحت في الحفاظ على استقلالها عن الامبراطورية الفارسية الأولى وامبراطورية البطلمسة والامبراطورية الرومانية

على التوالي. ويبدو ان مملكة كوش قضى عليها برايرة لقرقيشون هم الثوبا (النوبيون) في القرن الثالث للميلاد.

وفي الوقت ذاته يبدو ان الطرف الشمالي للهضبة الحبشية كان قد قدمها، في زمن مبكر من القرن السابع ق.م، قوم مهاجرون من اليمن (الزلوة الجنوبية العربية من شبه الجزيرة العربية)، وقد ظلت اليمن ومستعمراتها في افريقية خارج حدود الامبراطوريات الأربع.

وهكذا فإن الامبراطوريات الأربع لم تضم الجزء المتحد من لوهمونين للعالم القديم بكامله؛ ومع ذلك فقد شملت في ما بينها على جزء كبير هام منه.

كانت العلاقات السياسية بين الواحدة والأخرى من هذه الامبراطوريات يتحكم فيها، في الغالب، التنافس التي تبدو في الممارسة السياسية. فالامبراطوريتان الرومانية والفرثية لم يكن بينهما وبين الامبراطورية الصينية حدود مشتركة. وامبراطورية كوشان لم يكن لها حدود مع الامبراطورية الرومانية. ولما كانت الامبراطورية الصينية والامبراطورية الرومانية تقع كل منهما في طرف من الطرفين الأبعدين للبقارة فقد كانت الصلات المباشرة بينهما قليلة. الواقع ان سكان كل من هاتين الامبراطوريتين البعيدتين كانوا يعون وجود الجماعة الأخرى على نحو ضعيف جداً. ومن الجهة الثانية كانت كل من امبراطورية كوشان والامبراطورية الفرثية على اتصال مباشر، نسبياً، بالامبراطوريات الثلاث الأخرى، بما في ذلك الامبراطورية البعيدة التي لم تكن جاورها المباشر. فقد كانت هاتان هما الدولتان الأكثر ان، وكان رجال الأعمال فيما هم الوسطاء في التجارة غير المباشرة عبر القارة بين الامبراطورية الصينية والامبراطورية الرومانية. والامبراطورية الرومانية وامبراطورية كوشان كانت بينهما صلات تجارية وحضارية دون ان تتشعب بينهما حرب قط. وقد كانت العلاقات بين الامبراطورية الصينية والامبراطورية الفرثية ودية أيضاً. ومن الجهة الثانية كانت ثمة حروب بين الرومان والفرثيين وبين القرقيشيين والكوشان وبين الكوشان والصينيين. ولكن هذه الحروب لم تكن مزمنة ولا كانت مدمرة، كما انها لم تؤد الى تبدل رئيسي نظم في الممارسة السياسية.

إن احتلال أسرة الهان الغربية لمتقطع لفرغانة بين ١٠٢ و ٤٠ ق.م. أعيد على أيدي أسرة الهان الشرقية بين ٧٣ و ١٠٦ للميلاد. وفي القرن الثاني للميلاد كانت مرعاة وحوص تاريخ مناطق متفرقة عليها بين امبراطورية الصين وامبراطورية كوشان. وكانت

سجستان منطقة متنازع عليها بين امبراطورية الصين والامبراطورية الفترية، وارمينة بين الامبراطورية الفترية والامبراطورية الرومانية. وقد رثمت الأمور بين سنتي ٦٣ و ٦٦ بأن اعتبر ناج ارمينية كسبا اضافيا للأسرة الارسلية الفترية، لكن اشترط ان الارماسي الراغب في تاج ارمينية يتوجب عليه أن يثبت حقه بزيارة لرومة حيث يصمم عليه الامبراطور الروماني بالتتصب.

ومنذ ان جعل بومبي من سورية ولاية رومانية، سنة ٦٤ ق.م.، لم تحدث تهديدات دائمة في الحدود بين الامبراطورية الفترية والامبراطورية الرومانية، إذ اتحدت الحدود خطا على مجرى نهر الفرات وتحتانته الفرية. لقد هاجم الفريون سورية، لكنهم لم ينجحوا في ان يقيسوا لهم كباتاً دائماً هناك، بعد اتصالهم الكبير على جيش كراتوس في كاري سنة ٥٣ ق.م.. وفي سنة ٣٦ ثم في ٣٤-٣٣ ق.م. هاجم مرفس انطوليوس المنطقة الواقعة شرق الفرات في اتجاه شمال شرقي حتى شمال ميديا (أذربيجان)؛ وفي ١١٤-١١٧ م حاول الامبراطور تراجان ان يضم ارمينية والجزيرة الفراتية وجنوب ارض الرافدين الى الامبراطورية الرومانية. وانتهت محاولة كل من هذين المغامرين الرومانيين بالفشل الذريع. وأعاد هديران، خليفة تراجان، وذلك سنة ١١٧ م حدود الامبراطورية الرومانية الشرقية الى خط نهر الفرات، لكنه احتفظ للامبراطورية الرومانية بمدخل الخليج العربي وهو الذي كان تراجان قد احتله مؤقتا. وقد منح هديران للدولة - الواحدة بالمرأ (تدمر) حكماً ذاتياً وشجع التدمريين على إنشاء مراكز تجارية على أطراف الامبراطورية الفترية الجنوبية الغربية، على أن لا تكون هذه المراكز بادية بشكل واضح. وتوسع الوحيد الى الشرق من نهر الفرات تحت حكم روماني مباشر كان الاستيلاء على الجزء الشمالي الغربي من بلاد الجزيرة بين سنتي ١٩٤ و ١٩٩ م.

كانت ثمة ثلاثة طرق تربط الامبراطوريات الأربع ببعضها البعض. إلا ان المسافرين على هذه الطرق، سواء أكانوا جيوشاً مسلحة أو رسلاً دبلوماسيين لو تجلوا أو مبشرين، ندر أن انتقلوا على أي منها رأساً من الامبراطورية الفسنية الى الامبراطورية الرومانية. فقد حافظت هانان الامبراطوريتان للتياعدتان على الاتصال في ما بينهما عالياً بطريق الوسطاء، الذين كانوا يقومون بنقل للتاجر والرسائل والمعلومات على مراحل - بدأ بيد وكلمة بكلمة

كان الطريق الأبعد شمالاً يجتاز السهوب الأوروبية من التكتات للقائمة على سور

الصين الكبير إلى المستعمرات الأخرى الواقعة على شاطئ البحر الأسود الشمالي، والتي أصبحت محميات رومانية. وكان ثمة طريق أقصر، لكنه أكبر مشاقاً وهو طريق الحرير. كان هذا يبدأ في لويديج، عاصمة أسرة الهان الشرقية الواقعة في سهل الصين الشمالي، ويمر بحوض تاريم وعبر نبال شان إلى الصغد في ولدي زوفشان الواقع بين النهرين العالين لنهر سياردريا وأمو دلوا (سيحون وجيحون). وقد تشعب هذا الطريق من الصغد غرباً شميراً، فالسافرون الذين كانوا يرغبون في تجنب بلاد الفرتين كان باستطاعتهم الوصول إلى البحر الأسود بطريق عدولوزم وبحر قزوين (الخزر) والمختصر الواقع بين سلسلة القفقاس وهضبة أرمينية. أما السافرون الذين كانوا مستعدين لتجابهة موظفي الجمرك والشرطة الفرتين، فقد كان باستطاعتهم أن يقصدوا أياً من الموانئ السورية الواقعة على البحر المتوسط. وقد كانت أقصر الطرق عبر يادنة الشام من « مدينتي القوافل » - تدمر (الباميرا) أو البتراء. وكانت تدمر نقطة التقاء الطريق من فرتية إلى البحر المتوسط مع طريق من الموانئ العربية على الخليج العربي، وكانت البتراء ملتقى طريق من فرتية مع طريق بري من اليمن.

كان الطريق البحري هو الأكثر مصاعباً، لكنه كان الأكثر ربحاً بالنسبة للتجارة. إن القناة التي كانت تصل ميناء السويس (على البحر الأحمر) بالفرع الأبعد شرقاً في دلتا النيل عن طريق وادي كومبيلات قد تكونت، أو لعله قد أعيد العمل بها، على يد بطليموس الثاني (٢٨٢ - ٢٤٥ ق.م.)، وهذه كانت تزود المسافرين بطريق مائي بين البحر المتوسط والبحر الأحمر. وطوال الزمن الذي كانت فيه امبراطورية البطالسة قوة بحرية وعسكرية، كانت تسيطر على البحر الأحمر، وكان لها موانئ أقدم في ما يعرف اليوم بساحل أريتريا. كان هدفها من وجودها هناك هو صيد القنبلات الأثرية لاستعمالها ضد القنبلات الهندية التي كانت تحت تصرف اللاقطة. إلا أن الأغاظة الذين كانوا قد استوطنوا مصر كانوا مستعدين لفك التجارة البحرية بين مصر والهند في أيدي البحارة السائرين اليمنيين. ونحو أواخر القرن الثاني قبل الميلاد اعتصمت حكومة البطالسة بإنشاء سفن مباشرة من الموانئ المصرية على البحر الأحمر إلى دلتا النيل، وبذلك نجسوا السائرين. وقد تمكن ملاح إريتري، مبيشة صوته، في تاريخ لا تؤكد المصادر، من التصرف إلى موسم الرياح الموسمية واتجاهاتها، وذلك بحكم معرفته للبحر الجنوبية (فقد

لا يكون « هيا لوس » الاسم الشخصي للملاح اغريقي تاريخي، بل صفة شعرية للريح التي أناد منها الملاحون الاغريق المجهولون .

إن اكتشاف الأغارقة المصريين لطبيعة الرياح الموسمية مكنتهم من تفسير الرمن الذي كان لازماً لرحلة « ذهب وإياب » بين مصر ودلتا السند . كما أن ذلك مكنتهم من الابحار رأساً من مصيقي باب اللندب إلى الطرف الجنوبي للهند، وحتى من تجنب سيلان والقائمة مركز تجاري في « أريكامندو » على الساحل الشرقي للهند، إلى الجنوب من بندشيري الحالية . وقد كان الاتصال بدخول البلاد بطريق أريكامندو أسهل من الاتصال عن طريق أي ميناء على الساحل الغربي .

ويبدو أن التجارة الاغريقية البحرية بين مصر والهند بلغت ذروتها نحو أواسط القرن الأول للميلاد . أي في الوقت الذي كان فيه داخل شمال غرب الهند قد أصبح مأمون الأسفار للتجارة بسبب فرض « السلم الكوشاني » أيام وُجُود شمال غرب الهند سياسياً مع بكثرتها . وفي القرن ذاته أخذ البحارة الهنود بقلودن الانغلز الاغريق في الابحار رأساً إلى الهند عبر بحر العرب . فقد وصل أولئك البحارة الهنود شبه جزيرة الملايو وذلك بالأبحار من موتهى واقعة على ساحل الهند الشرقي رأساً عبر خليج البنغال . وقد اتجه بعضهم نحو برزخ كراه ثم نقلوا للتاج بره وركبوا البحر ثانية في خليج سيام وبحر الصين . وقام غيرهم بالسفر المستمر الطويل من خليج البنغال إلى بحر الصين، وذلك عبر مضيق ملقا . وكانت الأسفار الهندية عبر خليج بنغال وما بعده، مثل أسفار الاغريق عبر بحر العرب وما بعده، سلمية . لم تكن السفن سفناً حربية، بل كانت تجارية، ولم يكن البحارة فلاحون، بل بحارة .

كان من الضروري أن تُصوّف التجارة الدولية بواسطة لغات وكتابات . في الفترة الواقعة بين ٣٦ ق.م . كان ثمة ثلاث لغات عالمية، ولكل منها كتابتها الخاصة بها، وهي التي كانت شائعة في النصف الغربي من لوكمومين المعظم القديم، من أملاك امبراطورية كوشان إلى الشاطئ الشرقي للمحيط الأطلسي .

كانت الأولى في الميدان اللغة الآرامية وكتابتها الفباء مشتقة، مثل الألفباء الاغريقية، من العينية . فقد كانت هذه الأوسع استعمالاً للرموز الرسمية في الامبراطورية العارسة الأولى . وفي الدول الاغريقية الخليفة للامبراطورية الفارسية الأولى، تحلت

الآرامية عن مكانتها الرسمية « للكويني » الاغريقية. ومع ذلك فإن ثلاثاً من الدول التي خلفت الامبراطورية الفارسية الأولى، عبر الدول الخليفة الاغريقية السلوقية، وهي ثرية ومارس والسعد - أعادت الآرامية الى الاستعمال الرسمي ثم أصبحت هدد اللغة لعة الأدب أبصاً، في صيغ ثلاث للبهلوية بطريقة خلاصتها أن الكلمات الآرامية المدونة بالالفباء الآرامية، اعتبرت « أشكالا » ثم قرئت كما لو كانت كلمات ابرانية بالمعنى ذاته. وفي الوقت ذاته كانت الآرامية، في نهاية القرن الأخير قبل الميلاد، قد حلت محل كل من الكتشانية والأكدية على أنها لغة التخاطب لسكان الهلال الخصيب العاطلين بالسامية، واللغة الأكديّة، التي كانت، في الألف الثاني قبل الميلاد، اللغة الدولية لأسرة الصغرى ومصر، كما كانت في « الهلال الخصيب »، كانت قد اختفت تقريباً. وحتى في بابل (جنوب العراق) كان ثمة بضعة من العلماء الذين كانوا يقرءون الأكديّة المكتوبة بالخط المساري. وقد ظلت اللغة الكتشانية (العبرية) في سورية كلفة للعطوس الدينية فقط (على نحو ما كانت الحال بين الجماعة اليهودية في فلسطين). وقد كانت الكتشانية لعة التخاطب فقط في المستعمرات الفينيقية (دول - المدن) في حوض البحر المتوسط الغربي.

استمر استعمال اللغة الاغريقية رسمياً بعد القضاء على الحكم الاغريقي. فالفرليون والسكا وحكام السكا الذين حملوا الأعرافه سياسياً الى الشرق من نهر الفرات، ساروا على خطوات حكام الأعرافه الكثيرين والأعرافه الهند في سكهم نقوداً مزدوجة اللغة، كان أحد النصفين عليها بالاغريقية. والنقوش الموجودة على نقود الأباطرة الكوشيين مدونة بالالفباء الاغريقية، ولو ان اللغة ليست اغريقية بل هي نوع من السكا الابرائية. وبكثرتها، وهي بلاد كانت للملاقات فيها بين الابرائيين الوطنيين والأعرافه المتدخلين ودية بشكل خاص، استعملت الالفباء الاغريقية لتعطين باللغة الابرائية المحلية. وعلى سبيل المثال كما هو الحال في نقش عثر عليه في معبد بناء الامبراطور الكوشاني كاتيشكا (حكم حوالي ١٢٠ إلى ١٤٤ م)، في للكاد المسى يسرخ كوتال، حيث عثر عليه رجال البحث الأثري.

والى العرب من نهر الفرات، حيث غلب الحكم الروماني على الحكم اليوناني، كانت اللاتينية، التي كانت تكتب بالالفباء اغريقية (رومانية)، هي اللغة الرسمية. إلا أن رجال الحكومة الامبراطورية وبمليها المحليين كانوا يترسلون باللغة الاغريقية مع المواطنين والرعايا

الرومان الذين كانت اللغة الأم لديهم الاغريقية او لاولئك الاغارقة الذين كانت الاغريقية لغة حياتهم الحضارية. وقد حافظت اللغة الاغريقية على منزلتها، كلفة تحاطب، وذلك ضد اللغة اللاتينية، باستثناء جنوب شرق ايطالية. وفي آسيا الصغرى ظلت الاغريقية منتشرة على حساب اللغات غير الاغريقية. ومن الناحية الثانية فقد كانت اللغة اللاتينية هي اللغة الواسطة التي نشرت الحضارة الهلينية في البلاد التي كانت ضاحضة للرومان في محيط البحر المتوسط الغربي (باستثناء صقلية وتامبولي حيث كان السكان يستعملون الاغريقية) وفي اوروبة المقارية في ما وراء جبال الالبين إلى خط الدانوب والراين.

حصلت التجارة واللغة معهما عناصر أخرى حضارية - مثل الديانة، والفن المنظور كان واحد من السبل التي عبرت بها الديانة عن نفسها. إن تاريخ الادب في اويكومين العالم القديم (بين نحو ٣٣٤ ق.م. و ٢٢٠ م) هو موضوع الفصل التالي. اما الآن فالذي نود ملاحظته هو ان الفن المنظور الهليني، وكذلك الفن الهندي المنظور والنظم الاجتماعية، كسبت مناطق جديدة في القرنين الأول والثاني للميلاد. وقد عرفت هذه الفترة الموجة الأولى من الهند Indiazation في كمبوديا وجنوب فيتنام، حاليًا. كما عرفت الفن المنظور الهليني يكسب مجالاً جديداً لنفسه في امبراطورية كوشان، وخصوصاً في عاصمة الامبراطورية تكشيل (تكشاسيل) في قندهار على الطريق بين بكتريا وبهبار. وقد عُلمت تكشيل من جهتين - من بكتريا عبر الهندوكوش، ومن الاسكندرية عبر بحر العرب. والزعم النسبي للمؤثرات الهلينية من هذين المصدرين، والزمن الذي بدأ فيه مجرى الاثرين المزدوج يجب في تلك الجبهات، هما - الآن - امران قيد البحث.

وتسرب الحضارة الهندية إلى جنوب شرق آسيا، وتسرب الحضارة الهلينية إلى قندهار هما مثلال على التسرب السلمي. وثمة تشابه قريب بين اساليب الفن المنظور الهليني في قندهار وفي الامبراطورية الرومانية. ولكن الولايات الرومانية التي نشأت فيها الهلينة في ثوب لاتيني، سارت الهلينية فيها في اعقاب الفتح الرومانية العسكرية.

والامبراطوريات الأربع التي شملت، بين سنة ٤٨ م والمئتين الأولى للقرن الثالث الميلادي، هي ما بينها أكثر لويكومين العالم القديم، كانت تختلف واحداً عن الأخرى بمصيبتها، ومن ثم كانت تختلف في تركيبها.

إن امبراطورية الهان الشرقية في الصين (٢٠٥ - ٢٢٠ م) والامبراطورية الفرثية طيلة

الغربيين المشتهين بسنة ٢٢٤م، كانتا، على التوالي، صورة جديدة لامبراطورية الهان العربية والامبراطورية الفوثية (١٤١- ٣١ ق.م). وقد قامت في كل من المنطقتين، وفي فترات متباعدة، اضطرابات نسبية، إلا أن هذا لم يؤد إلى تبديل دستوري بناء في أي منهما، وفي كلا الحالتين عاد النظام للقديم، بعد انقطاع مؤقت، إلى ما كان عليه. ومن الجهة الثانية فقد كان قيام امبراطورية كوشان (٤٨م)، وانتهاء قرن الثورات والحروب الأهلية في عالم البحر المتوسط، الذي حدث قبلاً، إذ انتصر أوكشاميان (أغسطس) على أنطونوس وكلوديوس في اكتوبر (٣١ ق.م) - كان هناك إحداثان انطلاقاً أصيلاً، يقابل الانطلاق الجديد الذي حدث في الصين لما زالت الدول المتحاربة وقام مكانها حكم تشين الامبراطوري أولاً، ثم حكم الهان الغربي الامبراطوري بعده.

من حيث التركيب السياسي كان ثمة تطابق كبير بين امبراطورية كوشان والامبراطورية الفوثية، وشبه القل بين امبراطورية الهان الشرقية والامبراطورية الرومانية، ففي كل من الامبراطوريتين الوسطيتين (كوشان وفوثية) كان هناك درجة كبيرة من التحول السياسي. فنسبة كبيرة من الممتلكات الامبراطورية كان يحكمها ولاة أو ملوك اصغر حكماً ذاتياً، وكان اعتراف هؤلاء بسيادة الحكومة الامبراطورية، في بعض الأحيان، اعترافاً اسمياً فقط. فضلاً عن ذلك فان سلطة كل من الحكومة الامبراطورية وإدارة امراء الاقطاع كانت مقيدة بسلطة البارونات الذين كان لهم الاشراف المباشر على الفلاحين - بمعنى آخر على مصدر جميع الأجور والضرائب.

وكان حكم الهان الشرقية، نظرياً، مركزياً وبيروقراطياً. أما من الناحية العملية فقد كان البيروقراطيون هم أصحاب الأراضي، وقد تضاربت واجباتهم كموظفين مدلين مع مصالحهم كملاك، فاضعوا واجباتهم لمصالحهم، وكان هذا هو السبب الذي أدّى إلى فشل كل من أسرة الهان الغربية وخليفتها ولتغ ماتغ، كل بدورها، في تنفيذ الإصلاحات الزراعية التي كانت الحاجة ماسة إليها لانقاذ المجتمع الصيني من الانهيار. فالفئة الوحيدة التي كانت تمت تصرف الامبراطور لتنفيذ الإصلاحات اللازمة هي فئة الموظفين - اصحاب الأراضي، وهؤلاء كان لهم مصلحة خاصة في أن يتأكدوا من بقاء الإصلاحات حياً على ورق.

بعد قيام أسرة الهان الشرقية (٢٥ م) وقضائها على ثورة الفلاحين (٣٦ م)، كان الموظفون - الملاكون هم الأقوى، وقد استأثروا استعمال سلطتهم لساعة فاضحة. فقد كان

التعيين في الوظائف يقوم على اساس التسمية لا الكفاية. ولم تكن امتحانات التعيين للوظائف المدنية تُجرى بأمانة. وأجور الأرضين التي كان يدفعها الفلاحون - المستأجرون إلى الملاكين رُفعت إلى مستويات مرتفعة جداً بالنسبة إلى الضرائب التي كان يتوجب على الملاكين أنفسهم دفعها. في شمال الصين، المنطقة التي كانت مهد المدينة الصينية، وهي الأرض الواقعة الآن خلف السور الكبير، نقص عدد المسجلين من دائمي الضرائب، وترتب على ذلك ارتفاع في الضرائب والسخرة والخدمة العسكرية بالنسبة للرؤوس. وهذا النقص في عدد المسجلين لدفع الضرائب لم يكن ناتجاً عن نقص السكان بعد فترة من الفوضى والحرب الأهلية (٩٠ - ٢٦ م)، بل لأن الفلاحين الأحرار هربوا بأعداد كبيرة. فالتجأ بعضهم إلى املاك أصحاب الأراضي، حيث كانوا يعملون عند صاحب الأرض، يتعرضون لضغط اقتصادي أقل من ذلك الذي كانوا يتعرضون له وهم تحت رحمة الحكومة الامبراطورية. والبعض الآخر هاجر إلى الجنوب، حيث كانت رقابة الحكومة الامبراطورية أضعف، وحيث كان ثمة أرض بكر يمكن أن تُشتغل.

تعرضت سلطة البيروقراطيين - الملاكين الصينيين، منذ اواسط القرن الثاني للميلاد، لتحدي على أيدي خصيان البلاط الامبراطوري لولا، ثم من سنة ١٨٤م وما بعدها، لثورتين فلاحين تزعم كلا منهما زعيم ناوشي. وعلى كل فإن المنتصرين لم يكونوا لا الخصيان ولا الفلاحين، بل سادة الحرب، الذين كان اكثريهم من أصحاب الأراضي. وقد مر بالصين في الجزء المتأخر من القرن الثاني للميلاد، ماضٍ بالرومان بعد حرب هيبعل. لقد تناقص عدد الذين يمكن أن يخدموا من الفلاحين، وحلت محلهم جيوش محترفة كانت تجند من الفئران، وأصبحت هذه الجيوش جيوشاً خاصة للقواد العسكريين، وكانت تعطلىح إلى هؤلاء الشغاة لتتال للأكفأة على خدماتها. ففي سنوات ٢٢٠ - ٢٢٢م انقسمت امبراطورية الهان الشرقية، بشكل واضح، إلى ثلاث ممالك، كان يحكمها ثلاثة قواد عسكريين، كانوا قد قسموا الامبراطورية من قبل في ما بينهم في الواقع.

كانت الامبراطورية الرومانية، من حيث المبدأ في الفترة بين ٢١ ق.م. و ٢٣٥م، أقل مشاركة في الأمور العامة مع امبراطورية الهان الشرقية منها مع الامبراطورية الغربية والامبراطورية كوشان المعاصرتين لها. كانت امبراطورية الهان الشرقية، نظرياً، دولة مركزية الادارة وبيروقراطية الصيغة، ولو ان دستورها النظري لم يكن يوضع موضع التنفيذ. وكانت الامبراطورية الرومانية، مثل الامبراطوريتين الوسطيتين، خاضعة للتحويل. : فالمؤسسة :

الرومانية كانت عادة تمحجم عن تحمل المسؤولية المباشرة لإدارة البلاد مما لوجد مراعاة سياسياً لقد جعلتها كذلك لأنها دعت حكومتها السابقة. وقد تمسك اغسطس بهذه القاعدة الرومانية، بقدر ما كانت الأحوال تسمح له في إحياء النظام في عالم البحر المتوسط الذي كانت الحكومة الجمهورية السابقة قد نقلته إلى حالة الفوضى. منذ سنة ٣١ ق.م. جرب اغسطس وخلفاؤه تنظيم الامبراطورية الرومانية على أنها « اتحاد » من المدن - الدول ذات الاستقلال الذاتي. وكانت في ذلك يسرون على الأسس التي استعها السلوقيون لشمسرق، واتبعها يوصي (٦٧-٦٢ ق.م.) وقد حاولت الإدارة الامبراطورية ان تقصر مسؤولياتها بالذات على منع المدن - الدول المكورة للامبراطورية، من شن الحرب واستدتها على الأخرى، وعلى حمايتها من هجمات الاعضاء من خارج حدود الامبراطورية.

كانت الامبراطورية الرومانية، مثل امبراطورية الهان الشرقية، تموزها القوي البشرية. فالنصر السكاثي الذي بدأ في العالم الهليني في القرن الثامن ق.م.، محمد في مقدونيا في القرن الثالث ق.م.، وفي القرن الثاني ق.م. في بقية الاقطار الناطقة بالآفريقية، وفي القرن الأخير قبل الميلاد في إيطاليا. وفي الدور الأول من حياة الامبراطورية الرومانية (٣١ ق.م. - ٢٣٥ م) كان ثمة شعب واحد داخل حدود الامبراطورية، الذي كانت اعداده تزداد بشكل واضح: هو الشعب اليهودي. لا شك ان سكان جنوب فلسطين كانوا قليلين سنة ٥٨٦ ق.م. لما على نبوغنصر الملكة المنبرية، إلا أنه منذ ذلك الحين انتشر اليهود في جره كبير من أرض الملكة المصرية. كما ان شعناً يهودياً كان قد انتشر بعيداً: أولاً في بابل ثم في مصر وفي النهاية في انحاء العالم الهليني. في بابل، وبالنسبة إلى رومة اعتباراً من سنة ٦٣ ق.م.، كانت طلائع الشعثات اليهودي من المنهجرين، لكن اكثر الشعثات اليهودي كان طريحاً. فقد استقر اليهود في الخارج جنوباً مرتزقة أو تجاراً. وإطراد نحو السكان اليهود يبدو أقرب اذا تذكرنا ما كان يصيبهم (وجيرانهم) من عسائر في الأرواح في ثورتهم ضد الحكومة الرومانية الامبراطورية في فلسطين (٦٦ - ٧٠ م و ١٣٢ - ١٣٥ م) وفي قبرص وبرقة (نحو سنة ١١٥ - ١١٧ م). وفي العصيان الأخير (برقة) لم تنجح الجماعة اليهودية في السيطرة المؤقتة على برقة ذاتها بحسب، بل انها اتخذت برقة قاعدة للهجوم على مصر.

لقد ركز اغسطس حدود الامبراطورية الرومانية على خطوط يسهل على جيش صغير

محترف من المتطوعين لأن يحميها. وبذلك يكون هذا الجيش صغيراً إلى الحد الذي يمكن به لامبراطورية بتناقص عدد سكانها أن تزوده بالمعدد اللازم، كما أنه يكون عبثاً جمعياً على عائق دفاعي الضراب.

انقص أغسطس عدد الجنود في الجيوش الضخمة التي كان مناصوه، الذين أزيلوا الآن، قد جثموا إلى الحد الأدنى الذي كانت تقتضيه حماية الحدود. ولم يكن لمة احتياط للدفاع المكثف. فإذا كان لمة حاجة إلى قوة متحركة للقضاء على ثورة يقوم بها رعايا الامبراطورية، أو لشن حرب أهلية، كان يجب أن يجمع الجنود بتخيلة الفئات في القطاع الذي كان يبدو بعيداً عن الخطر. وقد كان هناك حاجة ماسة إلى جيوش رومانية متحركة بسبب الثورات اليهودية الثلاث التي اشرفا عليها وبسبب حربين أهليتين في سنة ٦٩ م وسنة ١٩٣ - ١٩٦ م.

كانت حدود الامبراطورية في الجنوب « حدوداً طبيعية » على أطراف الصحراء الكبرى والصحراء العربية. والمسار الضيق الذي هو مجرى نهر النيل، والواقع بين الصحرائين، لم يكن من المسير تحصيله في بلاد النوبة الدنيا. وفي أوروبا القارية كان بولبوس قيصر، والد أغسطس بالتبني، قد توصل الحد الروماني إلى سهل الراين، وأغسطس أوصله إلى نهر الدانوب كذلك. وقد تولي خلفاؤه انفاذ الفكرة بين مجرى الراين الأعلى ومجرى الدانوب الأعلى بين نحو سنة ٧٠ و ١٣٨ م، ببناء تحصينات صناعية بين الراين فوق كوبلنز والدانوب فوق رختيبرج. ولما فتح الجزء الأكبر من الجزيرة البريطانية وضم إلى الامبراطورية بقيت تحصينات مماثلة هناك، من البحر إلى البحر، على يد الامبراطور هادريان (سنة ١٢٢ م وما بعدها) والامبراطور نيطس انطونينوس بهوس (سنة ١٤٢ م وما بعدها). وهذه التحصينات الرومانية تبدو قصيرة وهشة، إذا قيست بسور الصين الكبير، طولاً وضخامة. فالتحصينات الرومانية لم تكن تعدو سنادات لحدود الطبيعة. هما البحر والنهران الكبيران. إلا أن الناحية الطبيعية في الحدود النهرية أمر متغزّر. مع أن النهرين (الراين والدانوب) كانا تحت حراسة اسطول نهري روماني في الفصل الذي كانا يصلحان فيه للملاحة، فانهما كانا يجتازان بسهولة في جميع العصور، وخاصة عندما كان الجليد يغطيها، عند اشتداد البرد. يضاف إلى ذلك أن خط الراين - الدانوب هو أطول خط يمكن أن يرسم بين البحر الأسود وبحر الشمال.

جرب اغسطس أن يقصر الحد النهري الأوروبي للامبراطورية الرومانية، بنقل الحد من الراين إلى الألب، لكن القوى البشرية في الامبراطورية لم تكن كافية لاتمام مثل هذا العمل، والقوى البشرية كانت قد تضاعفت بسبب الثورات الاقتصادية والسياسية في القربى السابقين. ومثل هذا العمل لو اتيح له ان يتم لأدى إلى تنويع القوى البشرية العسكرية اللازمة لحماية الحدود. وقد حال دون تنفيذ مشروع اغسطس ثورة قام بها (٦ - ٩ م) البانونيون، الذين كانوا قد انخضروا حديثاً، ومنازلهم بين البحر الادرياتيكي ونهر الدانوب، والقضاء على ثلاث فرق رومانية (٩ م) بين الراين والألب على أيدي جرمان كانوا قد أنضموا حديثاً. وقد كشفت استحالة اتمام المشروع بعد هذه الهزائم، ضائلة مصادر القوى البشرية في هذا الوقت (بالقرنة الواضحة مع كثرة هذه القوى قبل حرب هيبيل وثانها). وقد استمر هذا الضعف الديموغرافي. فالامبراطورية الرومانية بدأت بفتح برميثانية وضمها، لكنها عجزت عن السير بذلك إلى النهاية. وقد نجح الامبراطور تراجان، وهو نظير هان وو - تي، في احتلال داسيا (ترانسلفانيا) وضمها في سنة ١٠٦ - ١٠٦م، لكنه فشل في ١١٤ - ١١٧م في توصيل حدود الامبراطورية الشرقية، إلاخرة قصيرة جداً، إلى شواطئ بحر قزوين والمحيط العربي.

كان اكبر انجاز سياسي للامبراطورية الرومانية نقل دعاماتها، تدريجاً، إلى درجة المواطنة الرومانية. لقد دشت هذه السياسة في القرن الرابع قبل الميلاد، وكانت احد الاسباب في نجاح الرومان في ان يضمنوا إلى دولتهم شبه الجزيرة الايطالية أولاً، ثم حوض البحر المتوسط بكامله. ولم تكن هذه السياسة تطبق باستمرار. فقد كان هناك تردد وتوقف. وعلى كل فقد بلغت السياسة ذروة استكمالها سنة ٢١٢م لما منحت المواطنة الرومانية - أو لملها عرضت - على جميع سكان الامبراطورية الذين لم يطالبهم هذا من قبل، وذلك باستثناء اقلية ضئيلة، ظلت خارج الإطار.

وسياسة رومة المهيمنة في منحها المواطنة إلى الاجانب الذين غلبوا في الحروب، تناقص تماماً سياسة ائينا الضيقة في القرن الخامس قبل الميلاد. ولعل هذا التناقص يوضح لنا السبب في ان رومة هي التي وحدت حوض البحر ولم يتح لآسيا انجاز مثل ذلك. وعلى كل فإن المساواة في الوضع السياسي، لا يعوض عن الظلم الاقتصادي والاجتماعي وسياسة رومة الثانية التي كتلت ذات أثر في توسيع املاكها كانت صيانة للمصالح الخاصة للاغنياء ضد مطالب الفقراء. ففي فترة ٣١ ق.م - ٢٣٥م، كان

التوسع في منح المواطنة في الإمبراطورية الرومانية تصاحبه ثغرة بين الأعياء والعقراء كانت تنصع باشمعار. فقد زاد عدد الحالات التي لم يكن فيها مساواة أمام القانون، إضافة إلى تقدم المساواة في الاملاك والدخل وهي مستوى المعيشة، الروحي منها والمادي على حد سواء. ففي هذه الفترة كان الظلم الاجتماعي يتزايد في كل من الإمبراطوريتين اللتين كانتا تتحان في الطرفين الأبعد من أوكومين للعالم القديم.

ذكرنا قبلاً أن الجيروتقراطيين - الملاك - من اتباع كونفوشيوس، في إمبراطورية هان، عجزوا عن انتضاع مصالحهم الخاصة لواجباتهم العامة وإن التنازل الخلفي لهذه المؤسسة، التي كانت ذات جذور عميقة، لزداد حلقاً ووقاحة، حتى أكثر بما كان عليه بما أدى بحكم الهان الغربية السابقة إلى النهاية المحزنة. وعلى كل فإن الخدمة المدنية الكونفوشية في الهان، كانت أقل سوءاً من أية خدمة مدنية كانت قد قامت في أي مكان. فقد كانت تفوق الخدمة المدنية الرومانية، التي وصعها أغسطس بنفس النسبة التي كان السور الكبير يفوق على التحسينات الرومانية في المائة وبريطانية.

لقد بدأت المدينة - الدولة الرومانية مسيرتها التوسعية وكان كل ما عندها فئة من الموظفين الإداريين الضعفاء. ومثل أكثر المدن - الدول - الأترسكية والإغريقية والفينيقية - في حوض البحر المتوسط في الألف الأخير ق.م. - كانت رومة يحكمها فريق صغير من الموظفين العاملين غير المحترفين الذين كانوا يتخفون سوءاً. والمتطلبات الإدارية التي اقتضاها توسع رومة المتوالي لم تقابلها، بشكل محسوس، زيادة الوظائف العامة الانتخابية التي كان يمكن أيضاً أن تطول مدتها. والسبيل الأوحى الذي كان يلجأ إليه، وذلك لتخفيف العبء الإداري، وهو تلزم تزويد الجيوش وجمع الضرائب لشركات كان أصحابها مواطنين أفراداً. وهذه الشركات هي التي تجسدت لديها الخبرة الإدارية للعالم الهليني على ما كان عليه يومها. فقد استعمل الجميع قوى عاملة من العبيد والمحبرين والمعلمين.

وسار أغسطس على خطة آية بالتشي، يوليوس قيصر، فعد من فرص الشركات في أن تجني أرباحاً خاصة، غير مشروعة على حساب حكومة رومة ومواطنيها ورعائها، إلا أنه اقتبس عنها تنظيمها. فقد اتخذ لنفسه « أسرة قيصرية » مكونة من العبيد والمحبرين على نطاق واسع وذلك ليكونوا في خدمته على أنهم المديرون المختصون به، وعوض البلاء الرومان من أعضاء « المؤسسة » السابقة والمتطفلين لللاصقين بها، الذين كانوا قد أثروا عن طريق المقاولات العامة بأن اختار منهم أعلى طبقتين من الموظفين ذوي المرتبات

المجربة. وهذه البيروقراطية الرومانية لم تتمتع بالتمسك الذي تمتعت به نظيرتها البيروقراطية الصينية. وبشكل خاص فإنه لم يربطها بعضها ببعض الآخر تمسكها بفلسفة متوارثة جاءتها بحكم عملها الوظيفي. ومع ذلك فإن هذه الإدارة الرومانية الامبراطورية، المكونة من دئاب تمولت الى كلاب لحراسة القطيع، كانت أفضل بكثير مما كان عند الدولتين الوسطيتين، القرنيتين والكوشان، من إدارة مدنية لامبراطورية بدائية. وقد كان على هذه الإدارة المركزية، في نهاية المطاف، ان تتحمل عبأ لم يكن اغسطس قد خطط له. فقد كان في «نه لا أة» يدبر أمر الإدارة المحلية للمدن - الدول التي كانت الخلافا المؤلف منها الجسم السياسي مباشرة، بل ان يشرف عليها فقط، ومن ثم فقد ظلت اعداد الموظفين في الإدارة الامبراطورية صغيرة أصلاً. ان منشئ «السلام الاعظمي» عجز عن وضع رؤية مستقبلية تتعلق بمواطني المدن - الدول المكونة للامبراطورية، ذلك بأن هؤلاء المواطنين قد يفقدون الاهتمام بالحكومة المحلية لجماعاتهم فيما إذا جردت هذه الجماعات من إمتيازها التاريخي السيادي في أن تشن الحروب ضد الجيران. ففي وقت مبكر من القرن الثاني للميلاد - وهو عصر ذهبي خدادع المظهر بالنسبة إلى عالم البحر المتوسط - كانت الحكومة المحلية قد اتبعتها الفوضى، كما أضعفت الإدارة المركزية للامبراطورية تجد نفسها مرهقة، وبكثير من التردد، على التدخل المباشر في مجال العمل الإداري المتسع النطاق.

وفي القرن الثالث للميلاد أصابت الكارثة كلا من الامبراطوريات التي كانت قد انقسمت، في القرنين السابقين لذلك، للنسب الأكبر من اويكومين العالم القديم.

وقد تحملت الامبراطورية الرومانية نصف قرن من الفوضى (٢٣٥ - ٢٨٤ م)، بل أنها استمرت في الوجود عبره، وهو الذي كانه بالذات، استمراراً عجيباً لشبه المصر الذهبي الذي سبقه (٩٦ - ١٨٠ م). ففي نصف القرن الروماني البائس هذا خلقت قيمة النقد الامبراطوري التي درجة الصفر، وقد تعرضت بلاد الامبراطورية إلى هجمات قام بها معتدون من وراء الحدود، وكانت هجمات مخزية. فقد انتصر القوط على الامبراطور داسيوس وقتلوه سنة ٢٥٠م؛ وفي سنة ٢٦٠م. انتصر الغرس على الامبراطور فاليريان وأسروه، وقضى بقية عمره في الأسر. وتقسمت الامبراطورية سوفناً، كما حدث للامبراطورية الصينية في ٢٢٠ - ٢٣٢م، إلى ثلاث وحدات طبيعية، وبلغ الهبوط بالمالية الامبراطورية الى الأدنى، بحيث لم يدفع للرتبات تم، لبعض الوقت، عياً، وكانت التجارة تتم بالمقايضة. وقد كان هذا تراجعاً اقتصادياً مخيفاً في عالم البحر

المتوسط، إذ أنه في هذا العالم تم اختراع النقد في القرن السابق ق.م. وفيه، حتى قبل ذلك التاريخ، كانت السبائك الذهبية تصنع أساساً للتبادل التجاري وتسيير السلع.

في سنة ٢٢٤م قام في إيران ملك فارسي محلي باغتصاب مفاجيء للسلطة الامبراطورية، الأمر الذي كان إيذاة لانقلاب مشابه تم في سنة ٥٥٠ ق.م. إذا أنه حوالي أواسط القرن السادس ق.م. خلع التابع الفارسي قورش الامبراطور المهدي استياجس وتولى الأمر مكانه. وفي سنة ٢٢٤م خلع تابع فارسي هو اردشهر (ارتاكسر كيمس) الامبراطور الفرتي، لوطليمانوس الخامس، وتولى الأمر مكانه. وقد وسم حكام إيران الامبراطورين الجدد باسم د ملوك الاجزاء والاطراف. ومع ذلك، فإن الامبراطورية الفارسية المتأخرة الساسانية (ورثت التركيب المهيول للامبراطورية الفرتية دون أي تعديل، وهذا كان واقع الحال. وقد كانت اعتدليات الساسانيين ضد جيرانهم أعنف مما قدر عليه الاراسيون في العهد الضعيف للامبراطورية الفرتية في دورها الأخير إلا أن الساسانيين لم يكونوا أكثر نجاحاً في فرض سلطة الحكومة المركزية على الامراء المحليين.

اثارت اعتدليات الساسانيين على الامبراطورية الرومانية ردود فعل عسكرية، بعد ان استعادت هذه قوتها سنة ٢٨٤م. ففي سنة ٢٩٨م أرغمت الحكومة الرومانية الامبراطور الساساني نرسه على إعادة جميع الأراضي الرومانية السابقة التي كان شاهور الأول (حكم ٢٤٢-٢٧٣ م) قد انتزعها منها وضمها إلى ملكه، كما أرغمه على القبول بما قامت به الامبراطورية الرومانية من ضم محصن ولايات أرمينية تقع على الضفة اليسرى لبحر دجلة الأعلى. وقد كان الاعتداء الساساني ناجحاً في الجهة المقابلة. فقد وسع مؤسس الدولة الساسانية، اردشهر، حدود الامبراطورية التي انتزعها من الامبراطور الاراسي ارطليمانوس الخامس، بفتح امبراطورية كوشان أيضاً. ومع ذلك فيبدو أنه قد فرض سيطرته عليها دون أن يصفيهاء إذ أن بقية منها استمرت، أو لعنها عادت الى الظهور، في وادي كابل. وهذه البقية قارمت انسياب الشعوب الهندية في القرنين الخامس والسادس للميلاد، ولم يبقَ عليها نهائياً إلا في القرن الحادي عشر.

بعد انقسام امبراطورية الهان الشرقية إلى ثلاثة أجزاء متحاربة فيما بينها في ٢٢٠-٢٢٢م ظلت الصين مقسمة سياسياً من سنة ٢٢٠ إلى سنة ٥٩٨م، باستثناء مدة قصيرة من ٢٨٠ إلى ٣٠٤م. وعصر التجربة السياسية هذا، الذي بدأ سنة ٢٢٠م كان أطول مدة من نوعها عرفها العالم الصيني منذ أن توحد سياسياً لأول مرة في سنة

٢٢١ ق م. ويبدو، على المستوى السياسي، أن تجمع القسم الأكبر من اويكومين العالم القديم في عدد لا يزيد عن أربع امبراطوريات لمدة قرنين، بدءاً من سنة ٤٨٨ م، إما هو توقع محتمل لتوحيد سياسي للاويكومين بكامه، حول الكثرة. والامبراطوريات الأربع بالذات كانت مؤقّعة بطبيعتها، مع أن كلا منها عادت فيما بعد إلى الظهور على الحارطة في سلسلة من التقمصّات السياسية (تقمصّات الامبراطورية الصينية السياسية كانت الأكثر ثباتاً). وعلى كل فإن الدين كان المستوى الذي طمعت عليه الامبراطوريات الأربع، في حياتها القصيرة، بصماتها في تاريخ البشرية.

٢٨- تفاعل الاديان والفلسفات في لويكوميون العالم القديم

« إن الألم هو نسي التعلم ». جاء هذا القول في تمثيلية وضعها الشاعر الشهير ايليخيلوس وعرضت على المسرح في ٤٥٨ ق.م. في اثينا - وهي السنة التي كانت فيها اثينا تشن حرباً شواء على جبهتين. وهذه التمثيلية كانت نظيراً بقيام « زمن اضطراب ». وقد كانت آلام مثل هذا الزمن، مع ما يرافقها من تنوير، مقدمة لقيام كل من الامبراطوريات الأربع التي تماهت في لويكوميون العالم القديم بين سنتي ٤٤٨ و ٢٢٠ ق.م. « فرمن الاضطراب » في العالم الهليني استمر من ٤٣١ ق.م. الى ٣٢ ق.م.، وفي جنوب غرب اسبانيا وفي مصر استمر من ٣٣٤ ق.م. الى ٣١ ق.م.، و « زمن الاضطراب » في الهند بدأ حوالي سنة ٥٠٠ ق.م. واستمر حتى ٣٢٦ ق.م. وعاد للحرية الثانية، بعد مدة هدوء قصيرة، من حوالي ٢٠٠ ق.م. الى ١٤٨ ق.م. وفي الصين امتد « زمن الاضطراب » من سنة ٥٠٦ ق.م. الى ٢٢١ ق.م.

وقد عرضنا في الفصل الخامس والمشرين بصورة عامة خمسة من اصحاب الطوس الكبيرة التي استجابت أفراداً لتجربة الأكم لعامة، حتى في وقت مبكر في القرن السادس ق.م.

ولد نخلي كل من هؤلاء الخمسة من دين مجتمعه التقليدي. وكان النخلي عبقاً في بعض الحالات، وكان أكثر لياقة في حالات أخرى، إلا أنه كان، في كل حال، ثورياً. فاشعيا الثاني أعلن، بما لا يقبل الجرح، على نحو ما أعلن احتشون قبل ذلك بسبعة قرون، انه يوجد اله واحد فقط. (كان حوزياه ملك جنوب فلسطين، قد مهد السبيل لوقعة اشعيا الثاني هذه بالفتاة جميع الاماكن المقدسة في مملكته، باستثناء هيكل القدس، وبإحراجه، من هذا الهيكل، جميع الالهة والالهات الذين كانوا قد تقاسموه من قبل مع بهو) وقد حفض رولستر رقة جميع الالهة في مجمع الالهة الايراني التقليدي، إلى

درجة الشياطين، باستثناء واحد - الروح الاكبر - أهورا مزدا. وحاول فيثاغورس اصلاح اسلوب الحياة الهلينية بطريقة تحكيمية بحيث أنه أثار ثورة مضادة. وفي الهند نجماي بودا وماهاترا (مؤسس للديانة البانية) كلاهما آلهة المجمع الهندي الآري التقليدي و نظام الطبقات. وأعلن كوتفوشويس - ولعله كان يعتقد ذلك - أنه كان يجيد الروح الاصيلي للمؤسسات الصينية التقليدية؛ ومع ذلك فإنه بتفسيره « شرف المجدد » على أنه خصلة عظمى لا اعتباراً موروثاً، كان يفتح ثورة أخلاقية.

هؤلاء الخمسة أصحاب الرؤى جميعهم تفتوا من الأطار الاجتماعي التقليدي للديانة وأقاموا اتصالاً شخصياً مباشراً مع الحقيقة الروحية القائمة خلف الظواهر، مع ان إنلين فقط منهم، وهما ورواستر واشعيا الثاني، أدركا أن هذه الحقيقة المطلقة هي ذات شخصية شبه - بشرية وهي تختلف عن الآلهة الرفاق الذين أنزلت مرتبتهم أو طرحوا خارجاً في نقطتين هما: إن هذه الشخصية فريدة وإنها قادرة على كل شيء. وفي نطاق اللاهوت الذي علمه زرواستر نجد ان هاتين الصفتين هما بالنسبة إلى أهورا مزدا، إسكانتان، وان تكاملهما يتوقف على اتصاله النهائي في حرية القائمة على قوى الشر التي لم تقهر بعد.

وإذا استمر تألم البشرية في العالم القديم وازداد حدة على مر الزمن، فقد ولّد حاجة لإقامة صلات مع الحقيقة المطلقة بحيث لا يكتفى بأن تكون مباشرة فحسب، بل يجب ان تشبع العاطفة ايضاً. وقد اقتضى هذا الطلب الاحتفاظ بصورة لطيفة الحقيقة الروحية المطلقة، أو باحياء لخل هذا التصور، بحيث تكون (الحقيقة) شبيهة بالإنسان بمعنى ان تكون شخصاً أو إلهاء على الأقل، مظهره شخصي. كان للتعبد يتوق إلى ان يصبح مؤمناً، وأن يعتقد جازماً في غير الحقيقة الروحية المطلقة وقتوتها. وكان هذا التوق يجاريه تحرق إلى حقيقة روحية بحيث يبدو شعور هذه الحقيقة بالمنايا بحاجة للتعبد البشري واضحاً، وان تكون لهذه الحقيقة القدرة على تحليله (أي التقيد) من الشر بشكل لا يشغل الجدل. ومثل هذه المتطلبات العاطفية يمكن تحقيقها فقط عن طريق إقامة علاقة بين شخصيتين - الواحدة بشرية والثانية إلهية!

في الصين وفي الهند وفي العالم الهلاني حيث كان التصور شبه - الانساني لطبيعة الحقيقة المطلقة قد هبط إلى ما هو دون آفاق الفلاسفة، فإن رد الفعل العاطفي للتألم اقتضى احياء الظاهرة التقليدية الشبيهة بالإنسان لشخصية الحقيقة المطلقة، وهي التي

استعظ بها لاهوت الزرولسترية واليهودية. وفي الهند والصين أعلنت الديانات الجديدة التي تمعت، بشكل ضعيف، عن الفلسفات الأقلية للألوهية لمكانتها، وانجحت، مؤقّتا، نحو التوحيد. لكنها لم تصبح توحيدية بما لا يقبل الجدل حسب النموذج اليهودي. وفي حوض البحر المتوسط، عادت إلى الألوهية الحياة على غط توحيدية لكنه كان متسامحا، على نحو ما يظهر في الروع الهندية والصينية، في جميع الديانات الأقلية المتنافسة، باستثناء الدين الذي قدر له الانتصار في النهاية. فالسحبة المنتصرة ورثت عن سابقتها، اليهودية، التوحيد للترت. لكن للسحبة خرجت عن التوحيد اليهودي بأنها ابتداءت وغطت الديانات المنافسة للمهورة، والتي كانت، بأجمعها، ديانات لا يهودية.

شاهد القرن الثالث للميلاد غرق كل من الامبراطوريات الأربع التي كانت، لمدة قرنين تقريباً، قد امتدت عبر العالم القديم في غط جغرافي متجاور. إلا أن الألم الروحي الطويل الأمد للبشرية والذي كان قد سبق فترة الراحة كان، عند حلول القرن الثالث للميلاد، قد انتج نتائج تاريخية. ففي كل من الامبراطوريات الأربع كانت الديانات والفلسفات الأقلية قد انتجت ديانات جديدة ذات طابع مميز. وقد استبظت هذه الديانات الجديدة من القديمة بطريقة الاختيار والنشر والتركيب. والعوامل المساعدة في نشر الديانات الجديدة كانت الشفات (الدياسبورا) وقد كان لوائل المهندسين في الشفات هم المهاجرون، وسارت على غطهم الحاسيات العسكرية التي كان يقصها بناء الامبراطوريات في البلاد المفتوحة، وكان التجار يجمعون هؤلاء. وقد حمل المنتزعون من أرضهم والمقلون إلى بلاد أخرى، سواء كان ذلك ثابتاً أو مؤقّتا، ما يمكن حمله من أساليب حياة الأسلاف. وأصبح هؤلاء المهاجرون، بطريقة اونوماتيكية، ناشرين لهذه الأمور التقليدية، بين الاكثريات الأجنبية في مواطن المهندسين الجديدة. وقد أصبح المهندسون أيضاً ناشرين، واعين ومتصددين، للثروة الروحية التي حصلوها معهم. وأخيراً فإن الكهنة قدموا خدمة كبيرة للديانات الجديدة، كما حصلها للمهندسين إلى مناطق نائية. وكان هؤلاء الكهان والمهندسون محترفين، مع أن دعوتهم للدينية لم تكن بالضرورة عملاً يشغل كل وقتهم.

إن نشر الديانات الأجنبية وتقيلها تم امتزاجها بالديانات المحلية القائمة - كان ذلك كله أبعد مدى في المناطق التي كانت فيها الديانات المحلية عاجزة بشكل واضح عن تلبية حاجات البشرية العامة لديانة يمكنها أن تعين النفوس البشرية في صراعها مع زمن

الاصطراب. وقد كانت المناطق الجبلية روحياً هي الواقعة في الطرفين للبيدين أي في العالم الهليني والصيني.

أما انتشار الديانات الجديدة على تلبية للمطالب الإقليمية وساتل النقل الحديثة التي كانت نتيجة إيجابية للحروب، واقتلاع الناس من أوطانهم والاستعمار والتجارة المسكونية، فقد كان ثمة طرق بحرية وبرية طويلة تصل طرفي لويكوميو العالم القديم الابهدين. كان ثمة أيضاً لغات عامة، مثل الاغريقية الانثكية المعروفة باسم كوزني واللغة الارامية وأشكال ثلاثة من البهلوية واللهجات الهندية والسانسكريتية الجديدة التي نغلت على اللهجات المحلية في القرن الثاني للميلاد في شمال الهند وعلى الدكن في القرن الثالث للميلاد. وثمة كوزني صينية (فيها تسوية لأشكال الحروف واللغة المحكية)، وهي التي سادت في الصين بين الموظفين والتجار بعد توحيد العالم الصيني في سنة ٢٢١ ق.م. وكان ثمة واسطة ثالثة للتواصل وهي الفن التطور. وهذه الوسائل الجديدة الأشكال كانت ذات أثر بالغ لما كانت الامبراطوريات الأربع تتعاضد في تجاور جغرافي واحدها مع الأخرى. وفي هذه المدة التي تعتبر زمن توحيد سياسي وسلام نسبي كان اويكوميو العالم القديم في حالة من التواصل غير عادية.

النماء عملية الاختيار والنشر والتقبل والتركيب التي انتهت بظهور الديانات الجديدة التي نشع المواقف، كانت الوسائل الهلينية فعالة بشكل خاص. فاللغة الاغريقية والفن التطور الاغريقي والفلسفة الاغريقية كانت تمثل بدأ بيد في حوض البحر المتوسط « لتطور » الديانات المختلفة التي كانت تنافس المسيحية هناك ولتطور الدين الذي انتصر في النهاية عليها كلها، أي للمسيحية بالذات.

ان الهلينية لم تُشير بوجودها مباشرة بأية صيغة من الصيغ إلى أبعد من الهند شرقاً، إلا أن البوذية الماهايانية في شمال غرب الهند اتخذت من الفن المنظور الهليني أداة لها، على نحو ما اتخذت المسيحية والديانات التي فشلت في منافستها من ذلك الفن أداة، ولكن في حوض البحر المتوسط. ولما نقلت الماهايانية من شمال غرب الهند إلى شرق آسيا عبر حوض سيحون - جيحون وحوض تاريم، رحلت الاداة نفسها معها. ومن ها، من هذه الصيغة المنظورة، جاء تأثير الهلينية غير المباشر في شرق آسيا. أما في الجهة المضادة فقد استمر الفن الهليني والفلسفة الهلينية في الانتشار في العمق في غرب اوروبا وشمال أفريقية على أساس أنهما (الفن والفلسفة) وسائل تحت تصرف المسيحية.

وهكذا فإن الهلينية كانت الوحيدة، بين المدينيات الإقليمية التي ظهرت قبل المصور الحديثة، التي شعر القوم بوجودها، ولو إلى درجة محدودة، عبر اويكومين العالم القديم من الساحل الشرقي (الهادي) إلى الساحل الغربي (الأطلسي).

إن زس الاضطراب وما تبعه يربطان معاً، للمرة الأولى، لا المناطق الرئيسة لاريكومين العالم القديم محسوب، بل حتى المناطق ثنائية منه. فقبل ذلك كانت المدينيات الإقليمية نشأ منفصلة واحدة من الأخرى، وكانت كل منها تطور أسلوب حياتها على نحوها الخاص، وكانت الديانة جزءاً أصيلاً من هذا. ومع أن النمط العامل لكل من هذه المدينيات الإقليمية كان متميزاً، فإن هذه المدينيات جمعاء كانت قد ورثت، على المستوى الديني، عدداً من « الصور البدائية » التي تعود إلى مرحلة ما قبل المدينة في تاريخ البشرية. وهذا التراث للعقلي المشترك مكن للعنصر الديني في واحدة من المدينيات الإقليمية، عندما ينتزع نفسه من بقية الأجزاء المكونة لتلك المدينة، أن يحكي تطور ديانة مدنية إقليمية أخرى، كما أنه يمكنه أن يتجلى في تلك الديانة الأخرى. وعلى العكس من بعض العناصر المدنية في مدنية إقليمية، نجد أن العناصر الدينية لم تكن غريبة كلياً عن المدينيات الإقليمية الأخرى.

ولعل أقدم هذه الصور البدائية « لمشتركة دينياً، هي الأم، وهي ولا شك أقوى هذه الصور. إنها موضوع لأقدم تمثيل فني منطور للشكل البشري. ولما كانت الأمومة، كما تبدو في هذه الصورة، لا تتعارض مع البكارة، فمن الواضح أن صورة الأم هذه قد اتخذت شكلها قبل اكتشاف الابوة - أي قبل أن يعرف القوم أن المرأة لا يمكن أن تحمل قبل أن تكون لها علاقة جنسية مع ذكر. ولا أنه قد تحرف، منذ فجر الوعي، أن الأمومة كانت تعني ولادة طفل. ولكن التحرف إلى أن الأم لا بد لها من رفيق ذكر، وأن الطفل لا بد أن يكون له أب، ليس أمراً بدائياً. وفي البدء تسلط ظل الأم على الطفل، أما الأب فيما أنه لم يكن له وجود، أو أنه كان، في أكثر الحالات، شخصاً صورياً. وقدرة الأم كبيرة بالنسبة إلى أي ذكر يمكن أن يعاينها، ومن ثم فقد اختار بعض الآلهة الذكور الأقرباء الشكيمة أن يظلوا عزاباً. ويمكن التمثيل على ذلك بذكر آتون وأشور ويهو ومثرا.

ونسبة القدرة عند الأم والطفل والأب تختلف بين واحدة وأخرى من المدينيات الإقليمية وحتى في إطار مدنية واحدة فإنها تختلف بين مرحلة وأخرى في تاريخ تلك

المدنية. وهذا التباين جعل كلا من الصور المختلفة التي وصفت للعائلة المقدسة تجذب إليها من الناس اولئك الذين كانت صور أسلافهم لها مختلفة. فقد تزود مدينة إقليمية ما مظاهر للصورة العامة كانت محرومة منها مدنيتان إقليمية أخرى.

صورة الأم صورة متشكلة. فقد تكون اما لطفل بشري أو لقرية لأي نوع من الاحياء. وقد تكون، في الوقت ذاته، الأرض، التي هي الأم المشتركة للحياة بأجمعها. وفي كل مظهر من هذه المظاهر يعين على الأم عادة أن تربي نسلها وتحبه. لكن، مع أنها تكاد تكون دوماً عصية، فهي ليست سلطنة التصرف دوماً. فالهة الأرض - كوتليكو الهزو - امير كيه، أم الآلهة والبشر، وهيكاتي الآلهة - الأم الهلنية والآلهة - الأم الهندية كالي - كل هذه كان في قدرتها أن تستعمل قوتها تخريباً وإيقاعاً، كما كانت تفعل ذلك ابداعاً وخيراً، وقد قامت بذلك فعلاً. وفي أسية المصرية أوقعت الآلهة - الأم سهيل أذى كبيراً بابنها أو زوجها او لعله كان الابن والزوج مدمجين كليهما في عسير ذكر فرد.

وما دامت حتى الأم يمكن أن تنجر إلى الوحشية، فلا غرابة في أن يكون الطقس، من الناحية الخلقية، قوة متقلبة. ذلك بأن الطقس منقلب بشكل جشع وجشعه يمكن أن ينتهي بانلاف المروعات بالفيضات أو الجفاف، وقد يمكن أن يحملها على إنتاج وفير يمنحها المطر في الفصل المناسب أو منعه عنها نهضاً (ومعنى مناسب هنا ينصرف إلى خدمة أغراض الانسان الفلاح). ومن المعتاد أن يكون اله - الطقس ذكراً، ومن السهر أن يكون الأب. فبالمقارنة برق الأم المادي نحو طفلها فإن حالة الأب، كحالة الطقس، تتفل دون سابق معرفة لأن التصرف غير عقلاني، من الخير إلى الغضب، وتعود ثانية من الغضب إلى الخير.

وبالمقارنة نجد ان مسيرة الشمس اليومية والسنوية منتظمة مقننة، والشمس ذاتها عادلة، إذ انها تمنح نورها ودفعها لجميع الخلائق دون محابلة. فحين نمتد عليها بشقة أكبر من الثقة التي نولها الأم الأرض، ودون أن نذكر الأب الطقس. ولكن بما أن الشمس نسجع وترى كل شيء يصنع على الأرض، فإنها تحتفظ بسجل لجميع الأرباح والخسائر الخلقية لكل كائن بشري.

لا تمسح النجوم الأخرى الثقة ذاتها التي تأتي من الشمس. فالسيارات مدمبة كالطقس، والنجوم الثابتة جامدة، وقد الانسان بقرره أثر النجوم، وقد يكون هذا الأثر سيء العاقبة.

تموت البذرة فصلاً كي تعود إلى الحياة ثانية كغرسه سيتولى الزواج الانسداد حصدها. وهذه القدرة الانبائية هي التي يعيش المؤمنون من البشر بأكل لحمها وشرب دمها. ومن المؤكد ان القدرة على انتاج الطعام هي هبة النفس ضحية للبشرية، وذنب موتها الطوعي يقع على رؤوس البشر الذين يتمتعون بخبرها. والسر الكامن في ان هذه القدرة تموت وتبعث هبة كل سنة، يمنح المؤمنين من البشر الأمل في ان موتهم ستقبله القيامة ايضاً. ولكن البست هذه القدرة الواحة ذاتها هي ايضاً مجرمة؟ الا تلقي بالمؤمنين بها من بني البشر في حالة من الجنون بحيث أنهم يزقون الكائنات الحية إرباً - بما في ذلك الكائنات البشرية - ويتممون بالتهام لحماها نهياً؟

ولمة صورة بدائية أخرى هي صورة المخلص - وهو الذي نحتاجه نحن الكائنات البشرية في كل حين، إلا أننا أكثر حاجة اليه في زمن الاضطراب. وصورة أخرى هي صورة الاله المتجسد كائناً بشرياً. وقد كان الفرعون الهاً متجسداً. كان كل فرعون، على الأكل منذ بدء عهد الأسرة الفرعونية الخامسة، يعتبر أنه ولد لأمه البشرية دون تدخل أب بشري، ودون قيام أية علاقة جنسية عليا. بل ولد نتيجة كلمة أمر الهية ينطق بها. ومن الذي يدري في أي وقت سابق بعيد في تاريخ تطور الإنسان العاقل وتطور الكائنات السابقة للبشرية ظهرت صورة الاله المتجسد؟

والصور البدائية ليست متمايزة بالضرورة. فالإله المتجسد والمخلص والبذرة والابن قد تعافى هوية واحدتها مع هوية الآخر. الأم قد تكون عذراء وانحصابها لا يحتاج شريكاً بشرياً، وطفلها، بالنتيجة، لا أب له. وبدون ذلك ان تكون الأم زوجة متفانية في حبها لزوجها كضايها في حبها لابتها. وليس ثمة تأكيد على جنس صاحب الصورة باشتاء حالة واحدة. فالأم، بطبيعة الحال، لا يمكن ان تكون ذكراً، والطقس نادر ان يكون أنثى، ومع ذلك ففي ديانة مصر الفرعونية كانت الأرض ذكراً، والمساء أنثى. وفي أكثر الديانات مجد الشمس ذكراً إلا أن الشمس منتظم وعادل، وان يكون الرجل غير جشع فأمر به ناقص. ولذلك ثمة منطلق أفضل في الجنس الأنثوي للالهة الشمس في مدينة أرميا الحنية، وعند الهة - الشمس لما تيرازو التي هي الأم الأولى للأسرة الامبراطورية البابائية، وفي اللغة الالمانية (ونضيف هنا اللغة العربية - للترجم).

لقد عرضنا الى الآن المواد الممكنة الافادة منها لنشوء ديانات جديدة قد تعي

بالحاجات الروحية للبشرية في زمن الاضطراب. فلتنتقل الآن الى استعراض النتائج الواقعي. وسيكون عملاً أوضح فيما تتبعنا المرض منطقة منطقة.

ان الديانة الثوروتة « المؤسسة » في الصين كانت قد انتهى أمرها في الواقع قبل ان يحس الناس بالحاجة الى ديانة تمبدية. « فالسما » (تيان) كانت قد فقدت دلالتها الأصلية لشخصيتها قبل أيام كونفوشيوس. ان « سلطة السماء » التي منححت أسرة امبراطورية ما تعتمد عليه بحسب ما قاله الأمراء - الاداريون - العلماء الكونفوشيون، وهم الذين وصلوا الى السلطة والنفوذ أثناء حكم هان وو - تسي، كانت (أي سلطة السماء) في الحقيقة سلطة بشرية تمجدها هذه الطبقة المسيطرة نفسها وتشردها حسب الحاجة. والمادة الوحيدة التي كانت متجربة في الصين لداينة تمبدية كانت عبادات طفسية محلية بدائية حضارياً. وقد فصح توحيد الصين السياسي، في سنة ٢٢١ ق.م، الطريق أمام هذه العبادات الطقسية لأن تلحم بعضها ببعض الآخر وبالفلسفات التي عرختها « المؤسسة ». ان الكونفوشية التي استتھا وو - تسي أساساً لتدلي المناصب العامة لم تكن فلسفة كونفوشيوس ومنشورس. فقد أنسد هذه الفلسفة اختلاطها بديانة عامة اعتباطاً غير متكافئة معها. والاتحاد القابل للطاوية ذهب بهدأ جداً. والفلسفة الطاوية - التي كانت تعرف، بالمرّة، عن المشاركة في القضايا العامة - كان باستطاعتها ان تزدهر في الوقت الذي كانت فيه الكونفوشية في أقول. فعلى سبيل المثال كانت الطاوية في صعود في مطلع حكم هان ليو بانغ، كما أنها تمحمت بزهدها آخر في القرن الثاني للميلاد، إذ أظهرت ثلاثة قرون من التجربة المحزنة ان الكونفوشية اساءت استعمال احتكاكها للسلطة الادارية. إلا أنه مع هذا الانتماش للطاوية على أنها فلسفة متعلقة، فقد أنتجت الطاوية، في الوقت ذاته، ديانة شعبية. وهذه الديانة نظمت بشكل فعال بحيث انها زودت، بالتشجيع والقيادة، ثوروتين قام بهما الفلاحون متحدثين حكم الهان الشرقية سنة ١٨٤ م. هل كان هذا التحول الذي نقل فلسفة صينية أصيلة الى ديانة تطوراً صينياً ذاتياً، أم هل كان مبعثه خارجياً مثل الماهايانا - وهي ديانة تمبدية ذات أصل هندي كانت قد انبعثت من الفلسفة البوذية الثيرافادية؟ لا يمكن استبعاد هذا الاحتمال الأخير، اذا نحن أخذنا بعين الاعتبار، ان الماهايانا كانت، في القرن الثاني للميلاد، قد أحدثت تدخل الصين دحولاً رقيقاً. من المؤكد انه لما كان دخول الماهايانا الى الصين على أشده فيما بعد، أحدثت الديانة الطاوية (وكانت هذه قد استمرت بعد فشل الثوروتين الفلاحيتين

الذين كلاهما) عقيدة الماهايانا وعظمتها وذلك كي توفر للصون مقابلاً أصيلاً معترفاً به لهذه الديانة الهندية القديمة من الخارج.

كان تطور الماهايانا في الهند عملية تدريجية ولم يكن ثمة انقطاع في الاستمرار، على المستويين الاجتماعي والتنظيمي. فتنظام الرهبنة البوذي (سانغا) نقل من البوذية الثيرافادية الى الماهايانا، وهذا ظل الأساس التنظيمي للبوذية في تعدد أوجهها. ومن الجهة الثانية فإن النتيجة التراكمية للتطور، على المستوى العقائدي، كان تميراً داخلياً.

كان على الرهبان البوذي الثيرافادي ان يجاعده بكل مقفوره، كي يتم له الوصول الفردي الى النيرفانا؛ وذلك لأن الكائن، مع أنه يستوحي تعاليم بوذا وقفرته، لا يستطيع ان يطلب من بوذا نفسه العون الروحي، لأن بوذا نفسه، بعد ان وصل الى حالة النيرفانا، لم يعد الوصول اليه ممكناً. لقد ظلت لثرفانا الهدف الأخير للرهبان الماهاياني، لكن الهدف الأول مرتبة لهذا الرهبان كان ان يصبح بوديساتفا، وكان يستطيع ان يطلع الى الحصول على العون، في محاولته بلوغ هذا الهدف، من مجتمع البوديساتفا القاصرين، والذين يمكن ان يقدم اليهم للحصول على هذا العون. فالبوذي الماهاياني كان يأمل في الوصول الى هدفه المباشر، بمساعدة بوديساتفا؛ وهذا لم يكن المقصود منه الوصول الى النيرفانا، بل الوصول الى الإقامة في السماء.

والبوديساتفا هو عامل في التجربة الروحية التي وضع بوذا أسسها. لقد وصل الى عتبة النيرفانا، وأصبح باستطاعته الآن ان يدخل النيرفانا اذا اختار ذلك؛ إلا أنه قد اختار بدلاً من ذلك (كما استمر بوذا نفسه)، وكان اختياره تطوعاً، أن يؤجل دخوله، وذلك كي يقدم المساعدة لزملائه المنتظرين. ولذا نظرنا الى القضية في إطار « الصور البهادية » فالبوديساتفا هو المخلص. وقد غير أحد البوديساتفا، واسمه نيفالوكيتا، جسمه في الصون كي يتم له ان يكون كروان بن، أي روح الرحمة الأنثوي. فقد كان هناك حاجة شديدة للألم في الصون بعد سقوط حكم الهان الشرقي، وعندها تقدمت كروان بن للقيام بهذا الدور المناسب زمنياً. ان العطف الفكري، الذي كان عند البوديساتفا، كان يثير في البوذي الماهاياني استجابة تعبدية وورعية في ان يحاول السير على خطى البوديساتفا. فالماهايانا هي، في واقع الأمر، ديانة تعبدية من النوع الذي يتطلب زمن الاضطراب.

يبدو ان الماهايانا انتضحت معالمها خلال القرنين الأولين للميلاد، وانها تبلورت في شمال غرب الهند، حيث كانت المدرسة السرفاستيفادية المحلية للفلسفة البوذية أكثر

استعداداً من الثيراندين المتمركزين في الجنوب، للتحرك في اتجاه المهابانية. وفي الوقت ذاته كانت الهندوكية تمر بتغير مماثل، وهذا انتهى أخيراً، ولو تدريجياً، إلى حالة جمود. وهنا لم يكن ثمة انقطاع في الاستمرار على المستوى التنظيمي. والملاحظة التنظيمية في هذه الحالة كانت طبقة البراهمة. فالبراهمة احتفظوا بسيطرتهم على الهندوكية بالرغم من التبدلات الحسية في هذه الديانة.

تتمثل الهندوكية الفيدية والديانة الرومانية الأصلية في أن العلاقة بين الآلهة والمفصلين لهم كانت تقوم على تبادل مأكوف. فإذا تمت الطقوس بشكل صحيح، ترتب على الآلهة أن تتجاوب تجاوباً صحيحاً، وكان الأصل للتعهدات المتعددة المتتالية. وفي الصيغة الجديدة للهندوكية، التي كانت في حقيقتها ديانة جديدة، كان الإلهان شيفا وشيشو نظيرين بلوذيستانيا البوذي الماهاياني. ومن المحتمل أن هذين الآلهتين الهندوكيين كانا يبدآن قبل الميلاد بمدة طويلة، ولكن لعلهما كان لهما اسمان آخران. والصفة الجديدة التي بذلت عبادتهما كانت إدخال علاقة عاطفية بينهما وبين المؤمنين بهما. فشيشتو، مثل البلوذيستانيا اسمها، هو المخلص، وهو كذلك الإله الذي يتجسد. وتجسداته الأكثر شعبية هما راما وكريشنا، إلا أنه قد تجسد في بوذا أيضاً. وشيفا كان يملك خلقية تكافؤ الضدين لصورتي الطمس والانبات البدائيين. كان بإمكانه أن يكون مغرباً ومبدعاً ولم يتجسد قط والمفصلون له من البشر هم تحت رحمة جشمه. وشيفا هو الحقيقة الروحية والقدرة القامعان خلف كلية الطبيعة. ليس له صنم خاص بغير الإنسان إلا أن الإنسان يتوجب عليه أن يقبل شيفا كما بهمه، إذ إن الإنسان هو نفسه جزء من الطبيعة التي يشكلها شيفا.

كان توحيد زرواستر العنيف قد انحطاً للرسم في إيران. فقد استولى الفكر الإيرانيون النفلديون أي المجوس على ديانتهم الزورية، كما استولى البراهمة على عبادة شيشو وشيفا الطقسية في الهند. فبعد وفاة زرواستر حدث في إيران مثل ما حدث في مصر عقب وفاة أحماتون، أي أن تعدد الآلهة عاد إلى نشاطه وذلك استجابة للجوع المستمر لذلك. والصعاب الروحية التي كانت لاهورا مرداً آلت إلى الهات تسليوها في العدد، وكل لها كيانها الخاص بها. يضاف إلى ذلك أن اتاهيتا، وهي آلهة - ماء محببة تعود في أصلها إلى ما قبل الزرواسترية، نجحت في استرجاع مكانتها. وقد كانت هذه خطى على طريق

تحول الرواسترية الى ديانة عاطفية؛ إلا أن هذه الخطوات الأولى لم تسر قدماً، حتى ان الرواسترية المصغرة، التي صنعها المجوس، لم تكسب قلوب الايرانيين تماماً.

إن بلاد المشرق، حتى لو ضمنا اليها حوض الرافدين، ليست أوسع وقعة من أي من الهند أو الصين، إلا أنها، في العصر السابق لتوحيدها السياسي مرتين في عهد الامبراطورية الفارسية أولاً ثم في زمن الامبراطورية الرومانية، كانت أقل تنسيقاً على المستوى الثقافي من أي من شبه القارة الهندية والصينية. فهذه المنطقة الصغيرة نسبياً، الواقعة الى الغرب من ايران، نشأ فيها ما لا يقل عن خمس مدنات: السومرية - الأكديّة - المصرية الفرعونية والسورية والاماضولية والهلينية. يضاف الى ذلك ان هذه المدنات، بالرغم من مصانبتها واحداثها للأخرى، لم تكن منفصلة فحسب، لقد كانت الفروق بينها كبيرة في كلا الأمرين - الأسلوب الخارجي والروح الداخلية. ومن ثم فقد كان تفاعلها نشيطاً لما خلق زمن الاضطراب الحاجة الى ديانة تشبع العواطف. وقد قوي هذا التفاعل بسبب الفجر الروحي الواضح الذي كانت تشكو منه واحدة من هذه المدنات الاكليمية الخمس، وهي المدينة الهلينية. صحيح ان العالم الهليني، في عصر ما بعد الاسكندر، لم يكن يعاني نقصاً في المصادر الروحية الأصلية كذلك الذي كانت تشكو منه الصين المعاصرة له. فقد حافظت ديانتان، على الأقل، في العصر الذي لفتحه الاسكندر في المشرق، لما هاجم الامبراطورية الفارسية سنة ٣٣٤ ق.م.، على حيويتهما: الأسرار الالهيونية وعبادة ديونيسوس. فديمترا الاليزونية كانت الأم الأرض؛ وابتها « كوري » وهي فتاة، كانت البذرة التي تموت وتولد، وتمرد الى الحياة ثانية. وقد كان قبول شخص في هذه الأسرار يضمن له نصيباً أبدياً بعد الموت، في جنة الخلد (في العالم الآخر). اما ديونيسوس فقد كان النظير الهليني لشيفا لقد كان أعزاً وشرعاً في طبيعته المتناقضة. وقد لخطت الأسرار الاليزونية الموائم واستمرت في عصر ما بعد الاسكندر من التاريخ الهليني، كما ان عبادة ديونيسوس عادت اليها الحياة بشكل ليجاني.

وفي الوقت ذاته ثبتت الحياة الخاصة حاجاتها ضد متطلبات الخدمة العامة، فكان ان لبست الأسرار الاليزونية وعبادة ديونيسوس حاجات الكائنات البشرية الروحية، بعض الظطر عما اذا كان الطالبون مواطنين أم غرباء، وأشخاصاً أحراراً أم عبيداً، ودكوراً أم إناثاً. لقد كان هناك، بطبيعة الحال، عبدة عامة لديونيسوس في أثينا؛ وقد كانت التشيلية الانيكية جزءاً منها. وقد كانت الأسرار الاليزونية أيضاً تحت جناح المدينة - الدولة

الاثنية؛ إلا أن اليهوديس بالذات لم تكن مدينة - دولة ذات سيادة، على نحو ما كانت عليه أثينا. لقد كانت مدينة مقدسة، وكان وقوعها في بلاد الدولة الاثنية معسدة، وبسبب أنها كانت مقدمة « لا سياسية » فقد كان باستطاعة أي كائن بشري أن يصل إليها أما فيما يتعلق بمعادة ديونيسوس، فإن إحيائها في عصر ما بعد الاسكندر كان عملاً دينياً خاصاً، هدفه تلبية الحاجات الروحية الخاصة. والتمائمات التي أدت إلى انتشار الاحياء الديونيسي في العالم الهليني في عصر ما بعد الاسكندر لم تكن الحكومات، لقد كانت جماعات خاصة (ثياسوي)؛ وقد وضعت شعبية هذه الديانة الهلانية ١٨٥-١٨١ من الحكومات في مأزق، وذلك لما أصبحت العبادة فيها شأنًا خاصاً. ان بطليموس الرابع (حكم ٢٢١-٢٠٣ ق.م)، وهو أبرز اتباع بانخوس سياسياً في عصر ما بعد الاسكندر، طلب من الجماعات (ثياسوي) الهلانية في مملكته أن يسجلوا في الدواوين؛ والحكومة الرومانية قضت على الجماعات (ثياسوي) الهلانية في ايطاليا (١٨٥-١٨١ ق.م).

بعد أن قضى الاسكندر على الامبراطورية الفارسية قام سباق بين الديانات المتنافسة كي تصبح الديانة العالمية للمشرق، ومثل هذا الأمر حدث في حوض البحر المتوسط بأكمله لما توحّد سياسياً تحت حكم الامبراطورية لرومانية. وقد نمت المسيحية في هذه المنافسة وذلك باتباعها سبيلاً كانت له سابقة في اللاهوت المصري الفرعوني، كان المصريون يعتقدون بأن الفرعون، حين وفاته، كانت واحدة من أرواحه، وهي الروح التي يمكن أن تعزل الأرواح الأخرى، تصعد إلى السماء، وهناك كانت تلتهم بقبة الالهة التي كانت القادمة الجديدة تجدها مستقرة هناك. وإذا بلتهم الفرعون هذه الآلهة المنافسة، فإنه يستولي على قوتها. وقد استولت المسيحية على قدرات منافساتها وذلك بتقليد العمل الأسطوري للفرعون الصاعد. فالتهمت المسيحية الآلهة والالهات المصرية والمصرية والاضولية والهلينية، ومن ثم فقد انتقلت قوى هذه الآلهة والالهات إليها وأصبحت قوة لها.

وفي السباق للاستيلاء على دور الأم، كان هناك على الأقل خمس طالبات من اللواتي تقدمن لذلك. وهذه كانت إيزيس المصرية وسبيل الفريجية ولوطيميس الأمية وديمترالابروية وآلهة متجسدة في مريم، زوج لنيطر الجليلي. وقد كسبت مريم السباق إذ اتخذت شخصية إيزيس للتهلّية وصورتها وصفاتها. في سنة ٢٠٤ ق.م خففت

الحكومة الرومانية من حدة الحروب الهيتيكية بأن استوردت سبيل من بسينوس أو لعل ذلك كان من برغاموم، وذلك في شكلها الوطني كحجر أسود يقوم خصبان على حدته. فلما غفت الحدة، عزلت هذه الضيقة الفرجية في رومته وهي التي كانت قد دعيت بشيء من الشهرة بقدر ما كان ذلك ممكناً عملياً. وفي الجهة الثانية كانت إيزيس قد تهللت كنظيرة منسقة لديمقرا قبل أن تصبح مما ينقل بخرأ (بلاجياً). وبهذا الزي اجتاحت إيزيس الإمبراطورية الرومانية تحف بها علامات النصر.

وأما في بيتها، في مصر، فقد كانت إيزيس الزوجة الوفية للألهة لوزيريس الذي كان قد مات وعُثق، لكن زوج الآلهة المصري لم يكن قابلاً للتصدير، وكان لبطلبوسوس الأول مستشاران مشركان للشؤون الدينية، هما متينو الكاهن المصري والكاهن الأثريتي الألوزيني تيموثوس. هذان المستشاران صفا زوجاً لإيزيس قابل للتصدير هو سراسيس - وهو « صم » لاوزيريس مع أسس الإله المصري التجسد في عجل، والفراخ الروحي الذي نشأ عن إزالة زفس (وقد أسماه ما أصاب نيل) أفرح لسراسيس الجمال لأن يدخل مجتبع الآلهة الهليني. إلا أن سراسيس، في هيأته الهلينية المحترمة كان نسخة فضفاضة من اسكليپوس، إله الشفاء الهليني. ولم يكن بإمكان سراسيس أن يحل محل زفس بحيث أنه يشكل الأب في العالم الهليني. وقد انتصر يهود إله اليهود الوطني الحادق، هذا الدور.

لم تكن إيزيس الزوجة الوفية فحسب، بل كانت الأم الحنون أيضاً. وقد ربت إبنها حورس كي يصبح حاكماً ومخلصاً لأوزيريس الذي تعود إليه الحياة. وفي السباق الذي قام في المشرق خارج حدود مصر، للمحمول على دور الأب، لم يكن حورس مجال لهجاري يسوع ابن مريم.

إن أقدم ما وصل إلينا من أخبار يسوع هي الأعمال التي دونها أنبأه المتحمسون الذين كانوا قد قبلوا العقيدة بأن يسوع، مثل الفراعنة، لم يكن له أب إنسان، بل إنه ولد لأمه من إله. وفي حالة يسوع لم يكن الإله رع (المصري) بل الله. (كان واسطة الله روحه؛ ذلك بأن صفات الله، مثل صفات أمورا مزدا، قد أصبحت كلها صميرة كل منها لها شخصيتها الخاصة بها، وذلك لتخفيف التزمتم الروحي للتوحيد). وبحسب ما ورد في الكتب المقدسة للسيحية فقد رفض يسوع نفسه فكرة الألوهية بالنسبة إليه في أي معنى كانت وعلى الأقل في قولين له مدوين برمي يسوع إلى القول بأنه لا يستوي مع الله في الهوية. إلا أنه يمكن أن يكون إلهاً بلفظي الهنلوكي، في كونه إنساناً قصى نهائياً

على ذاته EGO. ومن ثم فقد نزع جانباً النقاب الذي يغطي، في أكثر الرجال، الحقيقة الروحية المطلقة القائمة في الداخل. وبالنسبة إلى المدرسة اللائكية في الفكر اليهودي تكود هذه الحقيقة المطلقة أساساً لجميع المظاهر، وهي تُشيع أنوارها بالشكل والمخبر حينما يُبرع هذا النقاب المزعج الذي يدور حول التمرکز النفسي الفردي. ولعل هذه الرؤية المباشرة للحقيقة الروحية المطلقة، عبر يسوع، هي التي حملت المؤمنين به من غير اليهود على الفسدي له؛ لكن لو أن يسوع ذاته عاش حتى دعي إليها، فصلا لا ريب فيه أنه كان أتكر وصعاً لا يمكنه القبول به. ولعله كان، أسوة بغيره من أحبار اليهود، يدهو نفسه «ابن الله» إلا أنه، من حيث التعبير اليهودي، تصح برونه لله هذه تعبيراً مجازياً المقصد منها التره بهلاقة ود وثقة خاصة به. كان يسوع من مستغبي الرأي، ولذلك فإن ألقه الجغرافي والعنصري كان متجهاً نحو يهود فلسطين. ولما أرسل تلاميذه في حملة تبشيرية، أشار عليهم بأن يحفظوا بعينهم الحراف الضالة.

والتابع يسوع من اليهود لم يتهموه بأنه لم يكن من مستغبي الرأي. ولقد اختلف يسوع مع الفريسيين لأن يسوع نزع الشريعة اليهودية باعتباره صاحب سلطان، دون أن ينتظر بعض الوقت ليحصل على إجماع سبق للأخبار حول نقطة ما. وتكاد تكون أكثر تفسيرات يسوع غير التقليدية التي انفرد بها تنفخ نغماً مع زملائه من الأحبار الذين اتبعوا التقليد المألوف. أما الصدوقيون فقد وافقوا السلطات الرومانية المحلية لما حكمت على يسوع بالموت لأنه سح لليهود القبيين في القدس أن يخاطبوه على أنه «الخلاص» (أي الإنسان المحرر المملوكي للشعب اليهودي). لقد تمسك الصدوقيون بموقفهم وهو أن إعدام يهودي متطرف واحد كان ضماناً شرعياً لمنع قيام مجموعة مخلصية يهودية قد يحتاج إخصامها إلى لزهاق أرواح الكثيرين من اليهود. ولما أن نخس أن يسوع لم يتفرد كثيراً إذ أنه كانت له مشاركات كثيرة مع الفريسيين. والفريسيون، على العكس من الهنصريين وخلفائهم الحمسين، رفضوا أن يحملوا السلاح ضد الحكومات، وطناً كانت أم أجنبية، ما دامت تلك الحكومات تسمح لرعاياها اليهود بأن يمارسوا ديانتهم اليهودية بموجب متطلبات التقليد اليهودي السوي.

يسوع ابن مريم واثق (يهوه) أب يسوع، يظن أن على مريم بالذات بموجب اللاهوت الرسمي للكنيسة المسيحية. وقد يبدو، للوهلة الأولى، كما لو أن إيزيس قد تراجعت عن مكانها إذ اتخذت صورة مريم، لأن إيزيس كانت قد خلقت زوجها وإبناها وراعيها في

مصر لما بدأت رحلتها عبر العالم الهليني. ومع ذلك فصرح (والدة الإله) (ثيونوكوس) هي، هي القسم الأكبر من العالم المسيحي غير الانجيلي (البروتستانتية)، إلهة في كل شيء إلا في الاسم. وفي هذا التفرع حافظت إيزيس على قدرتها التي كانت لها في رسم ما قبل المسيحية.

كان يهوه، مثل زوس، قد بدأ عبده على أنه إله الطقس. ولما كان زوس قد خرج من ميدان السباق، فإن التنافس الوحيد ليهوه للقيام بهذا الدور هو جوبيتر دوليخوس، وهي صيغة مُزوَّنة لإله الطقس لليلة دوليخي (دولخ) التي تحل موقعاً أسترانجيا في شمال سورية. حدد دوليخي يتقاطع الطريق الجنوبي الشمالي الذي يربط مصر بأسية الصغرى مع الطريق الشرقي الغربي الذي يصل انحناءة الفرات العربية بالبحر المتوسط. وترتب على ذلك أن دوليخي كانت محطة لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة للجنود الرومان في تنقلهم من حدود الامبراطورية الشرقية أو إليها أو حتى فيها. وترتب على ذلك أيضاً أن أصبح جوبيتر دوليخوس يتمتع بشعبية كبيرة بين أفراد الجيش الروماني. وجعل عباده الملهون من الحثيين وكوبته ثوراً. فيما كان هو نفسه يقلب بين يديه صاعقة الطقس والبطقة المزدوجة. وقد ألبس الجنود به من الرومان الذي الروماني. ونقل، في هذا الزي، مع الجنود صعداً مع نهر الدنوب، ثم مع نهر الراين نزولاً، ثم جاز البحر إلى التحصينات الهدرمانية في بريطانيا.

كان وضع دوليخوس بفضل وضع يهوه في أمر واحد. فقد كان للأول زوج أنثى كانت تقابله كمتساوية له، وكانت تنف على ظهر أكلّة. وقد كان لزوجات الجنود الرومان، دور إلى جانب أزواجهن في عبادة دوليخوس. ومع ذلك فإن استلاك دوليخوس لب الجنود كان قصير الأمد. لقد بدأ في القرن الثاني للميلاد وانتهى في القرن الثالث. كان لجوبيتر دوليخوس حيوية أقوى من حيوية سرليس، إلا أنه لم يكن، هو أيضاً، كفواً ليهوه.

وفي مجال التنافس على دور البذرة التي تموت وتعود إلى الحياة، خرج اوريريس المصري بسبب تخنيطه، كما خرج أقيس الاناضولي بسبب خصيه لفنسه؛ وتغور السريري - الأكدي كان قد انحدر مع بقية أجزاء مجتمع الآلهة السومري - الأكدي، باستثناء النجميات. وكان ثمة سباق عنيف بين أدونيس السوري وديونيسوس وكوري الالبوزي ومانخوس، ولكن حتى في هذا السباق، كان يسوع هو الخجلي. فقد اعتقد

بعض أتباعه أنهم رؤوه حياً في اليوم الثالث بعد صليبه، ثم ظهر لهم هي عدد من المناسبات التالية. فلما كتب القديس بولس رسالته الأولى إلى أهل كورنتوس كان الطفل الديني المير للجماعة المسيحية قد أصبح أكل جسد المسيح وشرب دمه في بدائل ياتية الشجر والخمر! واستقرت العبقة الفظيعة للطقس الديني. فلا ديونيسيوس أو أدونيس كسب دور الله الميت والمحبي، بل يسوع هو الذي كسب ذلك، وهذا بالإضافة إلى انتصاراته الأخرى.

لقد كان يسوع متفانيون أشد شكبة في دور المخلص، ولكن أصعب جهاد بدله كان في اقتناص دور الإله المتجسد.

كان المخلصان المتناسان يسوع هما غورس الذي انتصر على خاله سيث، ومثرا وهو إله إيراني كان زرواستر قد أنزله إلى منزلة الشياطين، إلا أنه هاجر من إيران إلى آسيا الصغرى، وكهناجر ثقت كرهته متحالفاً مع الشمس والنجوم التي تملك المخطوط. وكان ارتفاع أسهم مثرا، مثل دوليخينوس، يعود إلى اعتناق الجيش الروماني. فقد حمل الجنود مثرا من الثروات إلى نابين وشلوى (في بريطانيا)؛ إلا أن حياته كانت قصيرة. فقد بدأ حظه في القرن الأول للميلاد، وفي القرن الرابع كان مثرا يحارب في معركة خاسرة ضد يسوع.

تنافس مثرا ويسوع في تشدهما في المطالب الأخلاقية التي فرضها على المؤمنين بهما، لكن مثرا كان في وضع أضعف في أمرين حاسمين. فبدل أن يكون مثرا مضحياً وضحية بريئة، كان قاتلاً شراً (إلا لنا كان الثور الذي غلبه مثرا، بالمصادفة، هو شبه لفرأ بالذات). والأمر الثاني هو أن مثرا كان يكره النساء ولم يكفه أنه كان بدون أم وأنه كان أعزب، بل أن عبادته، على خلاف عبادة دوليخينوس وعلى خلاف المسيحية، كانت تقبل الذكور فقط. كان يسوع أعزب مثل مثرا، لكن يسوع كان له أم مثال - إيزيس، وقد كان حتى في أضيق دائرة من أتباعه نساء مقدسات. ومن ثم فقد كان هناك مجال للنساء في حياة الكنيسة المسيحية.

أصبح يسوع، لا مثرا، مخلص شعوب البحر المتوسط. لقد رغبوا في أن يكون المخلص كائناً بشرياً مثلهم، ورغبوا أيضاً في أن يكون هذا المخلص البشري مثلاً للأكثرية البشرية التي لا امتيازات لها، والتي أسهمت إلى درجة قصوى في الآلام التي هي أمر يشترك فيه العموم. والإنسان الذي كسب هذا الدور كان، على ما يبدو، غيلاً لا حول له، لا ملكاً

بإدب القوة. ولما قيل الملك بطليموس الأول لقب « مخلص » الذي أطلقه عليه الروديون، لا شك أنه كان سيدعش لو أن أحداً تبا له أن هذا اللقب سيرثه صانع يمكن أن يكون متحرراً من واحد من رعاياه الآسيويين - وهذا سيتم في وقت تكون فيه أسرة البطالسة قد انتهت أمرها بالثرة.

وكان أشد الأدوار مدعاة للمناقشة ذلك الدور المتعلق بالإله المتجسد. والنموذج السابق للإله المتجسد، هو الفرعون. وقد كان الإمبراطور الروماني فرعياً، إضافة إلى كونه المدير الأول للدولة نهاية عن مجلس الشيوخ والشعب الروماني. وهكذا فإن جميع الأباطرة على التوالي كان كل واحد منهم الوريث الشرعي للإله المتجسد المصري (إلى أن رفض أورليان هذا التبرعات للمصري). وكانت عبادة الإله البشري الإمبراطوري الاستت الذي كان يربط أجزاء الإمبراطورية واحداً بالآخر كما كانت هذه العبادة قد حافظت على ترابط الملكية المصرية المزدوجة، لمدة تزيد على ثلاثة آلاف سنة. وبقدر ما كانت الحكومة الإمبراطورية الرومانية تتسامح مع أي من رعاياها في أن يعبدوا الإمبراطور على أنه إله، فإن الحكومة بتسامحها كانت تعرض للخطر الوحدة السياسية الممزجة عليها - ومعها السلام المميز الذي لا يقدر بشئ - الذي منحه رومة للعالم الهليني.

وقد تسامحت الحكومة الرومانية مع رعاياها اليهود إذ رفضوا أن يقدموا للإمبراطور ما يتطلبه من تكريم إلهي. لكن هذا الاستثناء لليهود كان محدوداً بطبيعة الحال لأن اليهود كانوا جماعة عرقية. ومثل هذا التسامح لو أنه منح للمسيحيين لكان الأمر على درجة كبيرة من المقلوبة؛ ذلك لأن الكنيسة المسيحية لم تكن ممنوعة باعتبارات عرقية؛ فقد كانت غابتها الملقة هي أن تقبل البشرية جمعاء هذا الدين الجديد. وفي مقابل ذلك كان من المستحيل على المسيحيين أن يقوموا بالطقوس المتعلقة بعبادة الإمبراطور دون أن يكون في عملهم هذا رفض ضمني بأن إله المسيحيين ليس هو الإله الحقيقي الوحيد. ومعنى هذا بالتسامح هو رفض لروح المسيحية. ومن ثم فكان لا بد من قيام صدام مباشر بين الحكومة الرومانية والكنيسة المسيحية. وقد كان انتصار المسيحية في هذه المعركة حابة في الصجب.

والديانة المنافسة الوحيدة التي لم يكن باستطاعة المسيحية أن تهضمها كما أنه لم يكن بإمكانها القضاء عليها هي ديانة التنجيم (عبادة النجوم) البابلية.

بين سنتي ٢٢٤ ق.م. و ٢٢٠م شهد أوكيومين العالم القديم قيام ثلاث ديانات تعبدية كبرى: الهندوكية المتعددة الآلهة والبودية الماهيانية والمسيحية. وقد كانت كل من الماهيانية والمسيحية ديانة تبشيرية وكان للزوسون بهما يطعمون في أن ينشروا دينهم بين البشر أجمعين. وفي الجهة الثانية كانت الهندوكية المتعددة الآلهة، مثل الزوراسترية واليهودية، ديانة المجتمع واحد خاص مطلق، وكانت مرتبطة بالؤسسات والجهة الوطنية الخاصة بذلك المجتمع؛ هذا مع العلم بأن الوعاء الاجتماعي الذي ظهرت فيه الهندوكية كان كبيراً بحيث أنه كان مساوياً لعالم كامل في ذاته.

بدأت المسيحية وكأنها واحد من المذاهب العديدة التي قامت داخل اليهودية. والمسيحيون - (اليهود)، القديس كانوا المسيحيين الأصليين، كانوا يعتقدون، ولا شك، بأن يسوع عاد إلى الحياة بعد أن أُنْجِيت. ومهما كانت التجارب التي أدت إلى هذا المعتقد بين أتباع يسوع، فإن المعتقد نفسه كان مخلصاً بما لا يقبل الشك، ولأنه كان مخلصاً كان متعشاً روحياً. وهذا يبرر شفاء المسيحية من خيبة الأمل التي غشيت المسيحيين نتيجة لرد القتل الذي أصابهم من جراء صلب المسيح. والمسيحيون - (اليهود) كان يصعب عليهم أن يصدقوا أن الإنسان - وهو يهودي مثلهم - الذي قام من بين الأموات كان ابن الله إلا بأعز الأسر بالمعنى المجازي. إذ لو أنهم قبلوا هذا الاعتقاد لما أمكنهم أن يظنوا جزءاً من الكيان اليهودي؛ والواقع أنهم ظنوا فيه إلى أن افترضوا.

والنجاح الذي يدهر إلى الدهشة - وقد تم على يد مسيحي يهودي هو القديس بولس - هو النزاع مسيحية لا يهودية من الدين اليهودي، بحيث كان باستضافة شهر اليهود أن يقبلوا بها بحرية دون أن يلتزموا بمراجعة الشريعة اليهودية. وبما يدهر إلى الإعجاب، بشكل مسار للدهشة الأولى، هو أن هذه المسيحية ذات الصيغة اليهودية السابقة، نجحت في النهاية في أن تضم إليها جميع سكان الامبراطورية الرومانية باستثناء اليهود، ومشايبي اليهود من أتباع يهوه الملتزمين أي السمة.

إن المسيحية كما أوضحها القديس بولس نجحت في التغلب على الديانات الإقليمية الماسدة لها، وأن امتصتها، ولو أن ثمن ذلك كان التخفيف قليلاً من الوحدة التي ورثتها عن اليهودية. ففي المسيحية كما شرحها القديس بولس، كما كان الحال في ررواسترية المجوس، وقعت صفات الله الحق الوحيد - في هذه الحال هي كلمة يهوه

روح بهوه - الى درجة التساوي في الظهور مع الإله، فأصبح يسوع الإله المتجسد، بالمعنى ذاته كما كان الفرعون والقيصر وراما وكريشنا. واعتبارها « أم الله » أصبحت أم يسوع الانسانية إلهة في الواقع.

وقد أعادت الكنيسة المسيحية قوة من قطبية تنظيمها. فالديانات الشرقية المتأدبة، مثل نظام الرهبنة اليهودي، لم يكن لها تنظيم مركزي. والجماعات المحلية التي ظلت محتفظة بارتباطها بهذه الديانات الأخرى كانت مستقلة إدارياً واحدها عن الأخرى؛ وكل ما كان مشتركاً بينها هو معتقد وطقوس متشابهة. وقد كان للمسيحية أيضاً جماعاتها المحلية وقد اتسعت هذه من الساحة الجغرافية مع خلايا المدن - الدول القائمة في إطار الامبراطورية الرومانية. إلا ان المسيحية أخذت عن الامبراطورية الرومانية تنظيمها الى حد أنها أنضمت هذه الخلايا المحلية الى تدرج إداري كهنوتي على مستوى إمبراطوري؛ وهذا الانحياز التنظيمي كان فردياً من نوعه. وللامبراطوريات المدنية التي خلقت إمبراطورية الاسكندر على أيدي خلفائه - بطليموس وملوقس وليزماخوس - والتي كانت قد انطقت ذكرها، عادت الى الظهور على أنها بطريركيات كهنوتية مسيحية، فيما اعترف الزعماء الشرقيون لبطريك روما (البابا) بأنه الأول بين أقرانه، مع أنهم لم يقبلوا دعوى البابا بأنه عهد اليه بالأولية وبسلطة اوتوثوقراطية على الكنيسة المسيحية الكاثوليكية بأجمعها خارج الحدود الجغرافية للبطريركية الرومانية.

وتحول فريق يهودي الى كنيسة مسيحية مسكونية أسر يدعو، في واقع الأمر، الى الدهشة؛ ومثل ذلك يقال عن تحول الفلسفة البوذية الترافدية الهندية الى الديانة البوذية الماهايانية المسكونية. وكانت قوة الماهايانية كديانة تبشيرية تكس في استمداد المؤمنين بها الى التعايش بسلام مع الديانات التي كانت قائمة قبلاً في المناطق التي غزاها المبشرون الماهايانيون. ولم يكن في الماهايانية أي كبت قد يأتيها من ماضي البوذية الترافدية بحيث يحول دونها والتسامح او يجعل هدفها ليس الفتح بل التعايش للتكافل. وعلى العكس من ذلك فان الماوسي اليهودي للمسيحية كان عائقاً للاهوتيين والمبشرين المسيحيين. فلم يكن باستطاعة المسيحية ان تعيش وتسمح لغيرها ايضاً بالعيش؛ كان عليها ان تنمسي على منافساتها او ان تتصمها. وكان مثل هذا الامتناع يجب ان يتم بشكل خفي

٢٩- المدينيتان المميزو- اميركية والاندية حول ٤٠٠ ق.م - ٣٠٠ م

ان التقدم الذي انتهى بالحضارة في ميزو - اميركا وفي العالم الاندي إلى الوصول إلى مستوى المدينة تحدثنا عه في الفصل الحادي والعشرين. وقد كان مبدعو المدينة في ميزو - اميركا هم الأولئك؛ وفي العالم الاندي كانوا مخترعي الاسلوب الشافيني في الفن وناسهيه. وقد أظهرت الفحوص الإشعاعية الكربونية، في مكان واحد على الأقل، وهو سان لورنزو في برونخ تيهواتيك في ميزو - اميركا، ان ظهور أول نموذج لمدينة أولمكية معروفة كان حوالي سنة ١٢٥٠ ق.م؛ لما في لانتا وتريز دابوتس، اللذين يقعان اقرب إلى ساحل المحيط الاطلسي، فقد كانت المدينة الأولمكية مزدهرة بين حوالي ٨٠٠ و ٤٠٠ ق.م. كما وانها كانت متعاصرة مع « الافن » الشافيني في العالم الاندي. واثاء العصر الذي تلا ذلك مباشرة أي حول ٤٤٠ ق.م. و ٣٠٠ م. تقدمت المدينة باستمرار بحيث وصلت القمة في المنطقتين في الوقت ذاته، اذا كنا على ان نلاحظ ان أي من الحسابين اللذين يحتلان التوقيت (التاريخ) الاندي. إلا انه ثمة حساب ثالث يؤقت لبلوغ المدينة الاندية القمة قبل ذلك بنحو سبعة سنة، أي حول ٣١٠ م.

إن التوقيت (التاريخ) للمدينة الميزو - اميركية ثابت نسباً. إذ ان هناك نظاماً مستمراً للتاريخ في ميزو - اميركا، لعل اختراعه يعود إلى الأولمك. وقد تكفل نساباً على ايدي المايا في العصر « الكلاسيكي » لتاريخ الميزو - اميركي (حول ٣٠٠ - ٩٠٠ م). وهذا النظام الذي يميزه رجال الآثار المحدثون باسم « الحساب الطويل » قوبل بتاريخ مؤكّد، باعتبار سبي ما قبل الميلاد وما بعده، وضبط، عن طريق الفحوص الإشعاعية الكربونية لأعمار نماذج متعددة من الخشب التي انتزعت من قارور ابواب هياكل المايا وهي الرنيطة بتاريخ من « الحساب الطويل » منقوشة على الآثار الماياوية.

ليس من المعروف عن الشعوب الاندية انه كان لها نظام للتأريخ خاص بها. والاساس الوحيد للتأريخ الاندي، بالإضافة إلى الفحوص الاشعاعية الكربونية، هو دراسة طبقات ما تراكم من الآثار (مثل الأبنية وقطع الفخار) في مواضع المدنية الاندية وقد مصر علماء الآثار هذه الطبقات في مفهوم تأريخي، وذلك باعتبار نحن المخططات، وعدد الشرحات المتتالية التي حفظت في المخططات الطبقة، ودرجة العروق بين الشرحات في التوالي الزمني. إلا أنه تبين ان التأريخ بين حول 1400 ق.م. و 1438 م، تختلف اختلافاً كبيراً بين التوقيتين، وذلك كما احدثت نماذج من محتويات الطبقات وانضمت لفحوص اشعاعية كربونية، ثم استخدمت النتائج المتحصل عليها من هذه الفحوص للتأكد من التأريخ (التوقيت) الفرضي المبني على توالي الطبقات. فعلى سبيل المثال يقع العصر المسمى « الكلاسيكي » أو عصر الأزدهل في التأريخ الاندي، وهو العصر الذي بلغت فيه المدنية الاندية القمة، على اساس الفحوص الاشعاعية الكربونية، بين حوالي 300 ق.م. و 500 م، أما على اساس حساب الطبقات فانه يقع بين حول 400 - 1000 م.

هذا التناقض محير. وليس من سبيل، ونحن على هذه الدرجة الحالية من المعرفة، لاصدار حكم اكيد في أي من التأريخين المتنافسين هو الصحيح. فالحساب الفرضي للطبقات واتخاذ ذلك اساساً للتوقيت هو امر ذاتي. وقد تكون النتيجة غاطلة. وفي الجهة الاخرى فان النماذج التي اتخذ بعضها الاشعاعي الكربوني اساساً للتأريخ الاندي وتوقيته ليست متعددة بما فيه الكفاية. وفحوص الاشعاعية الكربونية، المبني عليها توقيتات موزعة، قد لا تكون اقل تضليلاً من التوقيت الفرضي فالتوقيت الاشعاعي الكربوني لا يمكن الاعتماد عليه كلياً إلا إذا عرفنا زمن الشيء المفحوص. ولنضرب لذلك مثلاً: إذا عثر على جائرة خشبية في بناية، وكانت هذه الخشبة مأخوذة من بناية القدم عهداً، فإذا كان الأمر كذلك فان فحصها لا يعطي تأريخ البناية التي عثر عليها فيها. وللإفادة من التوقيت الاشعاعي الكربوني بشكل مضمون يتوجب تعدد الفحوص حيث تكون النتائج سليمة. وعدد الفحوص الاشعاعية الكربونية الموجودة لدينا إلى تاريخه هو، بالنسبة لتوضيح التأريخ الأندي، عدد ضئيل جداً. ويترتب على ذلك ان خير ما يمكن ان نعمله الآن، بالنسبة إلى الثمانية عشر قرناً ونصف القرن الممتدة حوالي سنة 1438 م، هو ان نقبل مؤقتاً بالتوقيت المبني على الاشعاع الكربوني. على ان نكون

متمحطس عقلياً بأنه عندما يزداد عدد هذه الفحوص، فمن المحتمل ان تكون النتيجة اقرب إلى الحساب المعني على التوالي الطبقات منها إلى الدلائل المضطربة المبينة على فحوص اشعاعية كربونية قليلة، هي التي تمت إلى الآن.

جاء قيام المدينيتين الاندية والميزو - اميركية مستقلاً في الواحدة عنه في الأخرى ومع ان كلا من المدينيتين اثرت في الأخرى تأثيراً مهماً (استند العالم الاندي عن ميزو - اميركية الفترة للصراع، واتحدت ميزو - اميركية التمدن عن العالم الاندي) فليس ثمة سبب معقول يدعو لأن تكون المراحل التالية للمدينيتين متساوية، او، حتى لو كانت المراحل متساوية، ان تكون هذه متعاصرة. وعلى كل حال، فإن المرحلة الأولمكية من التاريخ الميزو - اميركي والمرحلة الشافينية من التاريخ الاندي تكادان في الحقيقة ان تكونا نظريتين كل منهما للأخرى، وتكادان تكونان متعاصرتين. وكذلك الامر فيما يتعلق بالمرحلة الأخيرة من تاريخ الاميركيتين السابق لكرولومبوس، نجد ان توسع دولة الازاتكة في ميزو - اميركية بدأ تقريباً في الوقت ذاته الذي بدأ توسع دولة الانكا في العالم الاندي. وتاريخها الأبتداء هما ١٤٢٨ و ١٤٣٨ م على التوالي. والتاريخ الاندي المبني على التوالي الطبقات، لا على الفحوص الاشعاعية الكربونية، يضع المرحلة « المزدهرة » من التاريخ الاندي معاصرة ربما للمرحلة « الكلاسيكية » النظرية في التاريخ الميزو - اميركي. وبالطبع فليس ثمة أي سبب معقول يحملنا على القول بان المراحل المتساوية للمدينيتين يجب ان تكون متعاصرة الواحدة مع الأخرى، وقد قبلنا الآن القول بان التاريخ المسحيح للمرحلة « المزدهرة » للحضارة الأنديّة هو المدة الواقعة بين حوالي ٣٠٠ ق.م. و ٥٠٠ م، لا من حوالي ٤٠٠ - ١٠٠٠ م.

ان المدينة الأولمكية ظهرت أول ما ظهرت في برزخ ريوغراندي وفي الأرض المجاورة على ساحل المحيط الاطلسي. إلا انه انتشرت من هناك في اتجاه شمالي غربي إلى هضبة المكسيك، وفي اتجاه جنوبي شرقي في سواحل المحيط الهادي. وثمة دلالة اثرية على ان انتشار الأولمك تم بقوة السلاح. وان التدمير المتتالي للامكن الأولمكية في سان لورنزو وفي لاقتا يدل على ان الأولمك لجأوا إلى السحرة للشعوب المقهورة لنقل المواد الثقيلة لاعمال الفن الضخمة التي أقصوها. ومع ذلك ماذا كان الاولمك كانوا مكروهين، فقد كانوا يُقْتَلُونَ ايضاً ان تريز زابوتس، وهي اقصى موضع للاولمك في الشمال الغربي على الساحل الاطلسي، استمرت حتى حوالي بدء التاريخ

المسيحي، وهي موضع اقدم تأريخ معروف إلى الآن، في « الحساب الطويل ٤ ». والتاريخ يعادل سنة ١٣٦٠ ق.م. وإلى الشرق من برونخ تيهواتيتيك، في تشيابا دي كورزو، ثمة تأريخ يعادل ١٣٦٠ ق.م. وفي إل ياول، في مرتفعات (اي الجنوب) غواتيمالا، ثمة تأريخ يعادل ٢٦٠ ق.م. ومعنى هذا ان أهم اختراع للأولمك انتشر في ميزو - اميركية إلى ما وراء حدود الاراضي التي كان من المحتمل ان الأولمك احتلوها.

بين حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م. و ١٥٠٠ ق.م. بلغت اعمال صهارية ضخمة في الجهتين المنخفضتين لمسطحة العايد. والجهة المتوسطة للمايا، بين، هي معطاة الآن بذبابات كريمة مدلية بالاسطر، والجهة الشمالية بوكتان، هي منطقة جافة عارية نسبياً. وتاريخ اقدم نصب ماثوق بتاريخه، في تيكال، المركز الرئيسي للطقوس الدينية في الجهة الماياوية الوسطى هو ٢٩٢ ق.م. وهكذا فان المدينة الميزو - اميركية وصلت الجهات الماياوية الوسطى والشمالية بعد وصوله للجهة الجنوبية (مرتفعات غواتيمالا). ولكنها ما كادت تستقر في الجهة الماياوية الوسطى حتى تطورت فيها بعض الصفات المميزة. واحدها العقد السلي الذي يملوه السقف المشطي الشكل، واخرى هي الجمع بين المذبح والنصب. والشارات الميزو - اميركية الوحيدة التي حلت رمورها إلى يومنا هذا، هي الشارات التي تمن التاربخ (سواء تلك التي تعطينا التواريخ على اساس الحساب الطويل ٤ او تلك التي تعطينا اياه في دورات زمنية متتالية طول الواحدة منها اثنان وخمسون دورة). والسختس هو ان الشارات التي لم تحل رموزها بعد هي كتابة، وانها، فيما اذا كانت كذلك، فانها تكون شبيهة بالسومرية من حيث جمعها بين الصور الفكرية والفونيم. والهيروغليفات الميزو - اميركية و « الحساب الطويل ٤ » ليسا اغراض مياويين، ولكن لما اخذ بهما المايا في جهة يتبين، طوروهما وزادوهما تألقاً.

هذا التطور الجدير بالمعابة للمدينة الميزو - اميركية الذي تم في المنخفضات الماياوية، كان بمثابة تطور محاصر يقوم على حضبة المكسيك. لم تكن تيوتيهواكان، الواقعة في واد جاتيني يطل على حوض البحيرات، مجرد مركز طقسي، ولو ان هرمي الشمس والقمر هناك، هما اضخم الآثار الميزو - اميركية باستثناء جبل شولولا الذي هو من صنع البشر. ان تيوتيهواكان هذه، كانت مدينة حقاً، كما كانت سان لورنزو قبل ذلك بسحو الف سنة. وقد عطلت تيوتيهواكان على شكل مستطيل متقاطع، وكانت كثيفة السكان. وكانت مولدها تأتي جزئياً من استفلال مكثف لمنطقة ريفية قريبة،

والجزء الآخر كان يأتي من صنع أدوات لبيعها إلى شعوب الأراضي المنخفضة على الساحل الاطلسي.

إن المرحلة « الكلاسيكية » للمدنية الميزو - اميركية بدأت في كل من تيوتيهواكان و في المنخفضات، حول سنة ٣٠٠ م. والمرحلة « المزدهرة » للمدنية الاندية تقع اهاضاً في حدود الفصل الحاضر، إذ اننا قبلنا مؤتناً التأريخ الذي اعطى له من حوالي ٣٠٠ م. إلى ٥٠٠ م - والذي تشير إليه الفحوص الاشعاعية الكربونية الفلبية التي تمت إلى يومنا هذا.

إن انتشار الأسلوب الشافيني لم يصل حدود العالم الاندي. إنه لم يصل لا إلى القطاع الجنوبي الشرقي للساحل ولا إلى المرتفعات الجنوبية الشرقية، وحتى في الاماكن التي بلغها فإن انتشاره غريب درجة عالية من الاختلافات المحلية. وقد كان هذا نافعاً من الناحية الحضارية. فالمدنية الاندية بلغت الذروة في هذه المرحلة اللاحقة بالشافينية. وكانت إنجازاتها التقنية البارزة في لفطر والقماش. والجهتان الميزتان في هذه المرحلة كانتا في المنخفضات الساحلية. وهما وادي موخي في الشمال الغربي وشبه جزيرة براكاس و وادي نوكا في الجنوب الشرقي. والفقار الموشي يمكن مقابله بالفقار الانيكبي الذي يعود إلى المرحلة « الكلاسيكية » من التاريخ الهليني، والاقمشة الصوفية التي صنعت في شبه جزيرة براكاس و وادي نوكا اجعل من أي نظير حديث. والاقمشة القطنية المصنوعة في تلك المنطقة بالكاد تفوقت عليها بنغلادش ولا انكشاير الحديثان. وكانت صناعة المعادن معروفة في العالم الاندي في المرحلة الشافينية، واستمر العمل بها في المرحلتين « الاختيارية » و « المزدهرة » إلا أن العمل كان لا يزال محصوراً في الذهب، والمنتجات كانت حلياً لا أدوات ولا اسلحة. وكان الذهب يعالج بالضرب، لا بالصهر، ولم تكن الفضة ولا النحاس قد عرما بعد. وعلى كل فقد كانت المدنية الاندية متقدمة على المدنية الميزو - اميركية. ولم يُحترق التعدين اختراعاً مستقلاً قط في ميزو - اميركية. ولم يُعرف هناك قبل العصر اللاحق (للعصر) الكلاسيكي. وحتى في ذلك الوقت كان ناتجاً عس باعث انتشاري من الاكوادور والبيرو.

• الجناح الغربي لادويكوميون العالم القديم ٢٢٠ - ٣٩٥ م

عالمنا بانقضاء، في الفصل السابع والثلاثين، الامبراطوريات الأربع التي نشرت لواجهات فرق أويكوميون العالم القديم بأجمعه بين سنتي ٤٨ و ٢٢٠ م. وخصصنا الفصل الثامن والثلاثين بالمنافسة التي قامت، فيما بين حوالي ٢٢٤ ق.م. و ٢٢٠ م، بين الأديان المحلية للاستيلاء على القلوب والعقول في المنطقة الواسعة التي دخلتها المشاريع التبشيرية الدينية، والتي كان دخولها بسبب التكتل السياسي للمنطقة فيما لم يزد عن أربع دول عملاقة. وقد كانت النتيجة ظهور ثلاث ديانة جديدة: الهندوكية والبوذية الماهائية (وهي المغارة للبوذية التراندايانية) والمسيحية على ما نعرفها القديس بولس. وهذه الديانات الثلاث كانت تحبه للوحدة منها الأخرى في أنها تعبدية. فالهندوكيون كانوا يؤمنون بالآلهة شيا وفشنو؛ والبوذيون الماهايانيون كانوا مؤمنين بالبوديساتفات الذين لم يكونوا آلهة وسيقاً، بل مرشحين لأن يكونوا بوجدات. وكان المسيحيون يؤمنون بالله ويسوع ((وهر) بالنسبة إلى المسيحيين الهي الطبيعية) رباً مرسع، التي كانت قد أصبحت إلهة تقريباً لما أطلق عليها اسم والدة الآلهة (تيولوجوس)، كانت سبل العبادة تختلف؛ ولكن الروح كانت واحدة.

إن نشوء هذه الديانات التعبدية وتأليه البوديساتفات ويسوع ومريم، كانت أمراضاً تدل على الحاجة إلى لقوم السخند من كلتي بشري علوي (سويرمان). وقد كان ثمة شعور بهذه الحاجة سببه أن الناس قد وقوا حالهم وهو أنهم لم يكونوا سادة للوصح الذي كانوا يجعلون أنفسهم فيه. لقد غرقت من قبل أزمان وأمكنة كان الناس وحكامهم يشعرون فيها أنهم يمكنهم أن يضعوا قوتهم في الآلهة المنجسة الحية - مثلاً في المراجعة الذين حكموا في زمن الاسر الأربع الأولى، وفي الاسكندر وظفة من الأجيال الأولى من خلفائه، وفي يوليوس قيصر وفي أغسطس وخلفاء أغسطس إلى سنة ٢٨٤ م.

وفي تلك السنة قام إله متجسد حي، وهو الامبراطور اورليانوس، بتغيير وصمه ذاته، الأمر الذي كان يعنى أنه هو وعباده اعترفوا بأن إلهاً من هذا النوع لم يعد كمواً للعباد بالعبء ففي هذه السنة، التي كانت السنة الأربعين من رسم ازمة الامبراطورية الرومانية، استعاض عن نفسه بـ « الشمس التي لا تغلب » على أنها إله الامبراطورية وقضى ما تبقى من ايامه في الحكم على أنه الممثل الأعلى على الأرض للاله، لا على أنه إله بلذاته.

في المرحلة التالية لتاريخ أوكومين العالم القديم، أي منذ حوالي ٢٢٠ - ٣٩٥م، أصاب الامبراطوريات الأربع تقلبات مختلفة. اشترنا من قبل (في الفصل السابع والثلاثين) إلى أن الامبراطورية الفرثية الارساسية في إيران والعراق قُبِضَتْ سنة ٢٢٤م وتغلبت عليها الأسرة الساسانية الفارسية، وأن الامبراطورية الكوشانية تغلبت عليها الامبراطورية الساسانية وضمتها إلى سلاطنتها (ولو أن بقية من الامبراطورية الكوشانية عادت إلى الظهور من الامبراطورية الساسانية وعاشت بعدها). أما الامبراطورية الصينية والامبراطورية الرومانية فقد تجزأت كل منهما وعمت كلا منهما الفوضى بعض الوقت - الامبراطورية الصينية لمدة ٣٧٠ سنة (٢٢٠ - ٥٨٩م)، والامبراطورية الرومانية لمسيحين سنة (٢٣٥ - ٢٨٤م). وهكذا خفي العقود الوسطى من القرن الثالث كانت الامبراطورية الامراتية افضل حالاً من الجميع. لقد تغلبت على لبيديس الأسرة الحاكمة، ثم انها توسعت شرقاً والامبراطور الساساني الثاني، شاهبور الأول، تغلب ثلاث مرات على الرومان. وفي المرة الثالثة (سنة ٢٦٠م) أسر جيشاً رومانياً برمته، بما في ذلك الامبراطور فليمران. إلا أن شاهبور عُيِّنَ في حملة مضادة قام بها، نهاية عن الامبراطورية الرومانية، على أذينة أمير تدمر، وهي الدولة التجارية شبه المستقلة القائمة في واحة تقع في الصحراء بين سورية وبلاد الرافدين.

كان زمن ازدهار تدمر اقتصادياً بين سنتي ١١٧ و ٢٢٤م، أي بعد ما عجز تراجان عن ضم العراق إلى الامبراطورية الرومانية، وقبل أن ينتزع الساسانيون العراق وإيران من الدولة الارساسية. وبعد انتصار أذينة على شاهبور حلول، هو أولاً ثم زوجته رموبيا بعد وفاته، جعل تدمر دولة خليفة للامبراطورية الرومانية في المشرق. ولم تكن زبوريا الأولى ولا الأخيرة بين ملكات الواحات العربية من صاحبات المطامح، ولكن تدمر تغلب عليها اورليان سنة ٢٧٤م ودمرها. وكان ثمة مملكة أخرى متوسطة المساحة كانت

أكثر مجالاً وهي لرمينية. فقد انتقلت لرمينية نفسها من أن ترضعها الامبراطورية اليها وذلك بمساعدة دمر تولاً، وبمساعدة من رومة فيما بعد. وقد حافظت على استقلالها بين سنتي ٢٩٨ و ٣٨٧، وكان على رأسها فرع من الاسرة الاززاسية وهي التي كانت قد قامت على الحكم، تحت النفوذ الروماني، منذ سنة ٣٦٦م.

كانت اعادة الوحدة للامبراطورية الرومانية وتأهيلها من جديد عملاً قام به سلسلة من الابطاطرة. المجتود الذين جازوا من منطقة اهلها محاربون، لكنها كانت متأخرة حصارياً، هي الولايات الأثرية الواقعة بين الشاطئ الشمالي الشرقي للبحر الأدرياتيكي والضفة الجنوبية لنهر الدانوب. كان أورليان (حكم ٢٧٠ - ٢٧٥م) أحد هؤلاء، واعطاهم جميعاً كان ديوقليان الذي حكم احدى وعشرين سنة (٢٨٤ - ٣٠٥م) وقسطنطين الأول الذي حكم احدى وثلاثين سنة (٣٠٦ - ٣٣٧م). وفي المدة الواقعة بين ٢٣٥ و ٢٨٤م كانت مدد الحكم للابطاطرة قصيرة، كما ان اكثر الابطاطرة لقوا حتفهم قتلًا. اما ديوقليان وقسطنطين فقد توبا في الفراش، وقد اعدا، فيما بينهما، اسما إلى الامبراطورية الرومانية، وذلك عن طريق تبديل طبيعتها. وقد أتم قسطنطين ما بدأه ديوقليان، ثم انه قام بما عجز عنه ديوقليان من محاولة فرض ديانة واحدة على الامبراطورية، وذلك لما قلب سياسة ديوقليان وزميله الاصغر غاليريوس نحو الكنيسة المسيحية.

بين سنتي ٢٨٤ و ٣٣٧م جند ديوقليان وقسطنطين جيشاً ميدانياً متنقلاً للدفاع عن الامبراطورية في الحق (وكان هذا الجيش يقدم ايضاً قسطنطين في حروبه الاخوية ضد منافسيه). وقد اعدا للنقد احباره (النقد الذهبي الذي كان الجنود يقبضون رواتبهم منه، لا قطع النقد النحاسية الصغيرة التي يستعملها المقراء). وقد اعدا مسح الأراضي وأعاد تقدير الضرائب على أساس المنتوج الزراعي. وجددا عدداً من السهول للقيام بخدمة إجبارية للمصلحة العامة. وأوجدا بيروقراطية منظمة من الموظفين لبلد الفراع الإداري الذي نشأ عن فتت الحكومة المحلية البلدية في المدن - الدول، وهي الحلما التي كان يتكون منها الجسم السياسي الروماني، كما أتيا نقلا موضع عاصمة الامبراطورية.

إن رومة، المدينة للدولة التي كانت قد بنت الامبراطورية، كانت تصلح عاصمة لشيء الجزيرة الإيطالية أو لإمبراطورية تقوم حول البحر المتوسط اساسها القوة البحرية. لكنها

لا تصلح، بحكم موقعها، للدفاع عن حدود تفرم على مجاري الفرات والدانوب والراين؛ كما أنها كانت بعيدة عن المشرق، الذي كان مركز الثقل الاقتصادي للإمبراطورية. وقد نقل ديوقليتيك العاصمة إلى نيقوميديا (إزميت) على مقربة من الزلوية الشمالية الغربية لآسية الصغرى. وشغلها قسطنطين بعدد مسافة قصيرة غرباً إلى بيزنطية، وهو موضع على رأس شبه جزيرة يسهل تحصينها، وله ميناء ممتاز على الطرف الجنوبي للشاطئ، الأوروبي لمضيق البوسفور. وفي بيزنطية (القسطنطينية وهي استانبول اليوم) ينفذ الطريق البحري بين البحر المتوسط وطرف بحر آزوف، والطريق البري الذي يمتد من سيندريوم (بلغراد)، الواقعة عند ملتقى نهري سافا والدانوب، وثلوخ (موتلن جويستر دوليغينوس) الواقعة إلى الغرب من المنعطف الغربي لنهر المرات.

هيمنت الإمبراطورية الرومانية على الحضرة في العقود الوسطى من القرن الثالث للميلاد في حكم خالينوس بن فاليريان (٢٦٠ - ٢٦٨ م). والإمبراطورية الساسانية الفارسية بلغت الذروة الموقفة في حكم شابور الأول (٢٤٢ - ٢٧٣ م). وقد كان أعظم رجلين في الجناح الغربي لأوكيومين العالم القديم في هذا العصر المضطرب الفلوطين، الفيلسوف المصري أبو الأفلاطونية المحدثة (٢٠٥ - ٢٧٠) وهو تابع لغالينوس، ومانتي (حوالي ٢١٦ - ٢٧٦ أو ٢٧٧) وثابع شابور الأول، وهو إيراني، عراقي المولد، ومؤسس لديانة تبشيرية جديدة (التي عرفت فيما بعد باسم المانوية).

كان كل من هذين الحكيمين قد غامر بالانضمام، كمواطن عادي، إلى الجيش رغبة منه في الحصول على المحكمة من بلاد غريبة. وإذا كان كلاهما قد وجد الفرس السانحة في الحرب الرومانية - الفارسية، فمعنى هذا أن الحرب كانت تلك التي دارت رحاها في ٢٤٣ - ٢٤٤ م. وهذا يعني أيضاً أنهما تولجدا، دون أن يعرف الواحد منهما الآخر، على الجبهتين المتقابلتين من الأرض التي تفصل بين الفريقين المتحاربين. وقد اجتهد كل منهما نفسه بالبحث عن المشكلة الدائمة التي أتمت ررواستر وأفلاطون من قبل؛ ما هي العلاقة بين هذا العالم اليميد عن الكمال الذي نجد البشرية مصمها تحبا فيه وبين الحقيقة الأبدية التي تبدو في المظاهر وخلفها وبعها وراها؟ وهل الحقيقة الأبدية حرة، وإن كانت كذلك، مما هو أصل الشر الذي هو واقع مأساوي في التجربة البشرية وفي العمل البشري كذلك؟

لقد كانت المسيحية جزءاً من خلقية كل من الرجلين. كان أفلاطون هليستياً،

ولكن معلمه، لمونيوس، كان مسيحياً من قبل. وكان والد ماني قد اعتنق مذهباً يسمى اتباعاً انفسهم «المعمدانين»، وذلك لما كان في العراق. إلا ان الأسرة كانت قد هاجرت إلى العراق من همدان في ماقي (الآرامية) حيث كانت النحلة المجوسية من الزرواسترية هي الديانة الإقليمية الرئيسة. وكان ماني نفسه يدّعي بأنه خليفة زرواسترا وبوفا ويسوع. كان انطولوجون من اتباع فلسفة افلاطون إلا أنه رفض مذهب اللأدريين (الغنوسية). لكن تلميذه اميليخوس، وهو مؤسس الافلاطونية المستحدثة خصم المسيحية، انفس في هذا المذهب على نحو ما كان عليه ماني، الذي كان يجمع بين اللاادرية (الغنوسية) وزرواجية، كانت تختلف عن الأزواجية الزرواسترية في أنها كانت أزواجية مطلقة. فالمعتقد الزرواستري يرى أنّ الحرب الحالية بين النور والظلام (بين الخير والشر) مؤقتة، وستتهي بالتصالح إلى الخير أمورا عَزَداً نهائياً على خصمه الشرير أنقرة مايتوش. أما بحسب رأي ماني فإن النور، الذي اختلط جزئياً بالظلام، سيتخلص كلياً من الظلام إلا ان الاصلين المتضادين، النور والظلام، كلاهما ابديان، وهما النور والظلام بالمعنى اللفظي لكلمة مانيي. أما بالنسبة لانطولوجين، وكذلك الامر بالنسبة لزرواسترا، فإن النور والظلام سروران عقليتان، تسَلَّان، على التوالي، الخير والشر. وعند انطولوجين أنّ الشرّ، مقارنةً بالخير، لم يكن قوة روحية إيجابية؛ انه كان شيئاً سلبياً: هو غياب الخير، لا ضد الخير.

وأهم حدثين ضخمين تقا في لومكومين للعالم القديم بين حوالي ٢٢٠ و ١٣٩٥، كانا على المستوى الديني، لا السياسي. كان احد الحدثين تغلب كلرير على ماني، وكارير كان كاهناً داعية زرواستريا عتيفاً، وهو الذي صمم في جعل الزرواسترية المجوسية الديانة الرسمية للإمبراطورية الساسانية الفارسية. وكان الحدث الآخر البعيد الأثر هو انتصار المسيحية على جميع الديانات السابقة لها زمناً (بإستثناء عبادة النجوم) أولاً في ارمينية حول ٢٨٥-٢٩٠م ثم في الامبراطورية الرومانية بين ٣١٢ و ٣٩٥م. وتاريخ الأسرة الساسانية يشبه تاريخ الاشعويين. قبل ان يصبحوا امراء، كانوا كهنة. كان الساسانيون كهنة ورائين لهيكل يحصن الآلهة أناميتا في اصطخر، وهي مدينة في فارس. واصطخر هذه كانت قد حُلّت، كمركز طقسي ديني، محل برسبوليس التي كانت تشغل المكانة نفسها في زمن الامبراطورية الفارسية الاولى. وأناميتا، إلهة الماء الآبرانية من قبل ان توجد الزرواسترية، كانت قد جُمِعت إلى امورا عَزَداً في الحلة

المجوسية للزرواسترية. ومن ثم فقد كان على الساسانيين ان يلتزموا جانت الزرواسترية اكثر من اي حكم ايران السابقين، باستثناء حلمي زرواسترا بالذات وهو مناسب (وهذا ليس أبداً لأول، بل كان ملكاً بلاسم فاته، كان يعيش قبل ذلك بسحو جيليس، وكانت مملكته على الراجح في منطقة ما وراء النهر أي في حوض سيحون - جيحون).

كان الحكام الأخمينيون، لباطرة الامبراطورية الفارسية الاولى، قد اعلنوا ولاءهم التام لأهورا مرده الذي كان، بالنسبة إلى زرواسترا الإله الحففي الوحيد، إلا ان هؤلاء الحكام امتنعوا عن الاعتراف بانها الديانة التي اشأها زرواسترا. وكان الأوزاميون مجوساً زرواستريين معتقداً؛ إلا أنهم، مثل الأخمينيين ومثل علماء الأخمينيين من الأغارقة المقدونيين، كانوا متسامحين مع جميع الديانات التي كان لها أتباع بين رعاياهم. فقد وقف شاور الاول مذابح - للآلهة لتتفتح بها نفوس الأشخاص البارزين في حاشيته، إلا أنه لم يحاول أن يفرض ديانة أسرته الفقلينية على غير الزرواستريين. وعلى العكس من ذلك، فإن شاور سمح لساني ان يشر بديانة الجديدة في سلطنة شاور.

كان ماني في الهند - لعل ذلك كان سنة ٢٤١م، وهي السنة التي انتزع فيها شاور، حوض الهند من الكوشانيين. لقد اشرنا من قبل إلى ان ماني رافق، فيما بعد، جيشاً فارسياً كان يهاجم الامبراطورية الرومانية. وهذه الحملات اثارت لساني الفرصة لان يتعرف مباشرة على كل من اليهودية والمسيحية. وقد أعلن عن نفسه أنه هو خليفة زرواسترا وبوذا ويسوع، « خاتم الانبياء »، الذي تلقى « وحياً تاماً ونهائياً »، وال « رسول إلى الحق » في بابل، وأنه هو نفسه كان تجسداً للروح القدس، وأنه كان ينوي لا جذب سكان الإمبراطورية الساسانية الفارسية فحسب إلى دينه، بل الجنس البشري كله. وقد اكتسب ماني إيمان أتباعه بشخصه، وكان عبقرياً في فنونه التنظيمية، واثبت معتقده انه كان جديداً كانت أرض بابل (العراق) قلب لويكومين العالم القديم، وكانت اللغة المحلية، السريانية، وهي الصيغة الجديدة للآرامية، منتشرة في الهلال الخصيب. ومن ثم فقد كان العراق نقطة انطلاق وثيقة للعمل؛ ومن هناك ارسل ماني الدعاة لا إلى الحدود الشمالية الشرقية والشمالية الغربية للامبراطورية الساسانية فحسب بل إلى مصر ايضاً. وقد كان انتشار المانوية أسرع من انتشار المسيحية في أثناء القرنين السابقين.

وعلى كل فإن تصميم ماني في إنشاء ديانة عالمية تركز إلى العراق كان يتناقص مع

دعوة كارثير، التي كانت ترمي إلى جعل الزرواسترية ديانة الإمبراطورية الساسانية الرسمية، أو على الأقل الجزء الإيراني منها، والقضاء هناك على أية عبادة لأية ديانة أخرى وقد بلغ كارثير، الكاهن الزرواستري، القمة في الرتبة في أيام شاپور الأول (٢٧٧ - ٢٩٣ م) الخليفة الثالث ليهرام الثاني. وعُيِّنَ كلونير يومها كاهن الهيكل الديني التقليدي للساسانيين، لانهايتا، في اصطخر، كما جعل كاهناً لمديح - النار هناك. وكانت كلمة كارثير مسموعة لدى بهرام الأول (حكم ٢٧٤ - ٢٧٧ م) الخليفة الثاني لشاپور الأول. وبما على إشارة من كارثير، التي بهرام الأول القمص على ماني ووضعه في السجن، وتوفي ماني شهيداً. وقد كان نجاح المانوية في مصر مدعاة لصدور مرسوم ضد المانوية على يد الإمبراطور الروماني ديوقلتيان سنة ٢٩٧م، وذلك قبيل إعلان ديوقلتيان الحرب على المسيحية بست سنوات. واعتبر ديوقلتيان أنباع المانوية بأنهم « فلبور غساس » فارسي، متجاهلاً الواقع وهو أن الحكومة الفارسية كانت قد قضت على ماني بالموت، وأنهى، في سنة ٢٩٧م، كان قد مر عليها عشرون سنة وهي تضطهد المانويين من رعاياها. وقد كان للاضطهاد الأثر ذاته بالنسبة للمانوية والمسيحية. أنه بدلا من تثبيط الهمة عند أي منهما، أدى إلى إثارة الهمة فيهما.

لقد حاول أربعة من إمبراطور الرومان - ديمسيوس في سنة ٢٥٠م وفاليريان في ٢٥٧ - ٢٦٠م وديوقلتيان وفاليريوس في ٣٠٣ - ٣١١م أن يقضوا على المسيحية. وقد كانت المحاولة اعتزافاً خسيفاً بأن البديل الوحيد لذلك هو أن تقع الإمبراطورية في قبضة الكنيسة المسيحية. وكان خالريوس بالذات، وليس ديوقلتيان، المحرك لذلك في الاضطهاد الكبير في ٣٠٣ - ٣١١م. كان ديوقلتيان متردداً ومع ذلك فقد انتقص حتى هو نفسه من قوة الكنيسة المسيحية. وقد كان كلا هذين الإمبراطورين من الجنود الآثريين؛ وفي الآريا، رئيس الجنود الذين كانوا من أصل آثري، لم تكن المسيحية قد تعدت الأمن اومعاً. فقد كانت قوة الجنود الآثريين الشمس التي لا تغيب (جاءت من اورليان) وجوهر دوليغينوس وشرا والمجتمع (الباتيون) الروماني الأصلي.

كان خصوم المسيحيين في المشرق أقصر على تفهم قوة الكنيسة المسيحية، حيث كان المسيحيون أكثر عدداً منهم في أي رقة أخرى (ولو اتهم، حتى هناك، كانوا لا يزالون أقلية). وقد حاول اميليخوس، تلميذ أفلاطون، أن ينظم « كنيسة - مضادة » أساسها صيغة اعتنوية (لادرية) من الافلاطونية المستحدثة، بحيث تضم جميع الآلهة

والالهات غير المسيحية، من حوض البحر المتوسط، تحت زعامة « الشمس التي لا تغرب » وذلك ضد المعتقد المسيحي. هذا النظر المتوسطي (بحراً) للكعبة الطابوقة في المين كان برعاية امبراطورين هما مكسيموس دانيا (حكم ٣١٠ - ٣١٣ م) وابن انجي قسطنطين يولييان (حكم ٣٦١ - ٣٦٣ م) وهذا كان مسيحياً وارنبد، إلا أنَّ الحركة كان مقدراً لها الفشل. فالكعبة المسيحية كانت قد سقطت « الكعبة - المضادة » الأفلاطونية (المستحدثة) في انها تمثل الألهة المتوسطية (بحراً). كان يسوع قد أصبح من قبل ارفيموس وسرابيوس و « الشمس التي لا تغرب » وكانت مرمم قد أصبحت (إيزيس) والدة الآلهة. اما بالنسبة إلى الفلسفة الأفلاطونية المستحدثة، فإن استخدام اميليخوس الفاشلة لجعليتها، كان يمكن أن يجلبها أفلوطين أكثر من منحه تدمجها التدريجي في لاهوت الكنيسة المسيحية.

في سنة ٣١١ م، إذ كان غاليريوس على فراش الموت لغنى، ولو بتعدد، المراسيم التي صدرت عنه وعن ديونكسيان ضد المسيحية، ومنع جميع سكان الإمبراطورية الرومانية، المسيحيين وغير المسيحيين على السواء حرية العبادة. وفي سنة ٣١٢ م اعتنق قسطنطين الأول المسيحية. وقد جاء اعتناقه لها مفاجأة ومستغرباً - ولعله كان كذلك حتى لقسطنطين نفسه؛ ذلك بأنه في سنة ٣٠٦ م ورث قسطنطين عن ابيه الامبراطور قسطنطينوس الأول لا حكم اقليسي بريطانيا والغال فحسب، بل بالإضافة اعتقاداً راسخاً « بالشمس التي لا تغرب ». وفي سنة ٣١٢ م كان قسطنطين يهاجم ايطالية، التي كانت يومها، مع شمال غرب افريقية، تحت سلطة مكسنتيوس صهر قسطنطين. وقبيل المعركة التي وقعت في ضواحي رومة الشمالية الغربية، والتي حُلِبَ فيها مكسنتيوس وقتل، حلم قسطنطين انه رأى الحرفين الاولين من اسم خريستوس باليونانية (K H) ولوح كلسات برفقة باللاتينية معناها « بهذه العلامة تنتصر ». وقد امر يسوع قسطنطين كما حلم هذا، ان يضع الحرفين على ثيابه وان يرسمهما على ثروس جنته. وقد صنع قسطنطين ما طلب منه ان يقوم به في الحلم، وبعد ذلك كسب المعركة الفاصلة في الحرب الاولى من حروب اهلوية ثلاث، وكان هو الرابع في كل واحدة منها.

اعتناق قسطنطين للمسيحية كان واضحاً وصادقاً، لكن الرجل لم يتخلَّ عن اعتقاده بآله اورليان و قسطنطينوس الاول اي « الشمس التي لا تغرب »، ولو انه، مع الوقت، اعتبر

و الشمس ، هو المسيح - وهو الامر الذي كانت الكنيسة المسيحية قد قبلت به ضمناً ولم يتدخل قسطنطين عن منصب الكاهن الاعلى، وهي كهانة غير مسيحية كان قسطنطين يتولاهم حكماً لانه رئيس لدولة الرومانية. ومن الناحية التقنية الدقيقة كان تولي الكهانة العليا يتمازج مع كون المرء مسيحياً، لكن أتباع قسطنطين في السلطات الكهنوتية المسيحية لم يثيروا هذه القضية، وقسطنطين نفسه لم يصبح رسمياً عضواً في الكنيسة المسيحية إلا حين عُقد وهو على فراش الموت سنة ٣٣٧م. يضاف إلى ذلك أن قسطنطين كان يجهل اسس المعتقد المسيحي - وهذا لم يكن فقط عند اعتناقه المسيحية سنة ٣١٢م بل استمر الأمر فيما تبقى من حياته. ومداخلات قسطنطين في المسائل الكهنوتية المسيحية اظهرت قطعاً انه لم يكن يحسن السباحة في هذه المياه، هذا مع العلم أنه في الشؤون المدنية كان سياسياً ممتكناً.

اتهم قسطنطين لحياناً بأنه كان شكاكاً وساعراً ومدعباً، وإن الباحث على اعتناقه المسيحية كان اسمه النظرة السياسية الملتزمة. ومثل هذا التفسير لاعتناقه المسيحية هو مخالف للواقع؛ إذ لم يكن ثمة مشككون دينيون في عالم البحر المتوسط بعد ما تُلقت مجتمعة في سنة ٢٣٥م. ولم يكن ثمة شخص في الامبراطورية الرومانية يعتقد بأنه يستطيع البقاء دون عون إلهي في ذلك العصر الرهيب.. وقد كان قسطنطين مخلصاً دينياً كما كان عبق الأيمان، وفي ذلك يحفل عصره ومكانه تشيلاً نموذجياً. ومثل ذلك كان أفلوطين وماتي ولبليخوس وديوقليان وغاليوريوس ومكسيمينوس داليا وبوليان - جميعهم كانوا مخلصين دينياً وعقبى الأيمان، كل بطريقته الخاصة. وتذكر قسطنطين لم يكن أقل أسالة من ندين أفلوطين، إلا أن الأول كان يختلف عن الثاني في انه كان عتيقاً. فإله المسيحيين كسب قسطنطين وملك ولائه لأنه أظهر قوة الأمبراطور. وهذا الإله بالذات أنزل المصائب بالإمارة الذين اضطهدوا الكنيسة المسيحية. والفكر الذي اصاب كلا من غاليريوس ومكسيمينوس داليا ولبليخوس يحكي القضية واضحة. وهذا الإله نفسه هو الذي منح قسطنطين نصراً حريياً في حروب لعالية ثلاث. ففي مدة اثنتي عشرة سنة (٣١٢ - ٣٢٤م) حمل إله المسيحيين قسطنطين من نهر الفثير (قرب رومه) إلى مضيق البوسفور وجعله المحاكم الوحيد للأمبراطورية الرومانية بأجمعها، مع أن قسطنطين كان قد بدأ في يورك (انكلترا) سنة ٣٠٦م فقط كحاكم للولايات البعيدة والمتأخرة والواقعة ما وراء جبال الالب وفرنسي.

أثر قسطنطين بالفضل العظيم الذي أغدقه عليه إله المسيحيين إذ كافأه على ولائه بأن صاغ قدره على هذا النحو. لكن هذا المظهر الذي يبرّز قوة الله العظيمة ملائمةً نفس قسطنطين رعباً، كما ملأها عرقاً بالحقنة. وقد تخشى أن يحل به ما حلّ بهاليريوس ومكسيموس داليا وليسيوس إذا لم يتمم واجباته نحو جلوسه الألهي - وعلى سبيل المثال إذا فشل في رتب الفتق في الانشقاقات العينية القائمة في الجسم الكهوتي المسيحي يومها. وقد كان الباعث على اضطهاد المسيحيين على أيدي بعض الأباطرة من الحرد، المحال عند هؤلاء الأباطرة من أن يتفهم سنخ الألفه غير المسيحية كان الباعث لقسطنطين على اعتناق المسيحية أقل فجة من الباعث لأشوكا على اعتناق البوذية. كذلك الباعث عند أشوكا هو التكفير عن ذنب القرفة، وهو شن حرب اعتداء، ولم يعد إلى حمل السلاح بعدها. والباعث لقسطنطين كان الاعتراف بالحقنة على الانتصارات في الحروب الأهلية الثلاث.

اتبع قسطنطين مرسوم غاليريوس بالتسامح مع المسيحيين بأن ضغط على مكسيموس داليا ليرتد عن اضطهاد المسيحية في المشرق، ثم باقناع ليسيوس بالانضمام إلى قسطنطين في التأكيد على التسامح مع المسيحية في مناطق حكمهما. إن قسطنطين لم يضطهد قط رعاياه غير المسيحيين، إلا أنه منح الكنيسة المسيحية امتيازات ذات قيمة خاصة، وأبن انتبه يوليان (الذي كان مسيحياً ثم ارتد) كان يظهر مثل هذا التلح نحو الكنيسة المضادة (المؤسسة على الأفلاطونية المستعذلة). إن التسامح المسترد الذي أنهره الأباطرة الرومان (بعد ٣١١ م) نحو الديانات التي تختلف عن ديانتهم يبدو ضعيفاً إذا قورن بالتسامح الكريم الدين إلهه أشوكا نحو رعاياه من غير البوذيين وجيرانهم، وكذلك إذا قورن بالمعاملة السوية التي عامل بها كانيشكا الهندوكيين البراهمنين والبوذيين، على اختلاف مذاهبهم.

والتسامح المتقلب الذي بُدِيَء في سنة ٣١١ م، لم يطل عهده. فقد رفض الامبراطور ثرقتيان (حكم ٣٦٧-٣٨٣ م) أن يتولى منصب الكاهن الأعلى، وبدأ بتصفية الديانات غير المسيحية في الأباطورية الرومانية، وذلك بإغلاق هياكلها والاستيلاء على وارداتها. وقد تمت التصفية تقريباً على يد ثيودوسيوس الأول (حكم في الشرق ٣٧٩-٣٩٥، وفي المغرب ٣٩٢-٣٩٥ م).

وفي الوقت نفسه استمرت الامبراطوريات الرومانية والفارسية على الصابش جساً إلى

حرب. والحرب الطويلة التي قامت بين ٣٢٧ و ٣٦٠م، لم تنته إلى نتيجة حاسمة. وحسنة بوليان على الامبراطورية الفارسية سنة ٣٦٢م انتهت بمقتله وبكثرة حلت بالرومان سنة ٣٦٣م. وقد تمكن جوفيان، خليفة بوليان، من تخليص جيشه من مصيبة، وذلك بتسليمه نصيبين، وهو حصن روماني مهم في الجزيرة الفراتية (بين النهرين)، وإعادة خمس ولايات لرومية كانت الامبراطورية الرومانية قد حسنتها اليها سنة ٢٩٨م وقد وصفت هذه التنازلات مملكة لومنية تحت رحمة الفرس. وفي سنة ٣٧٨م لقي جيش روماني كسرة عظيمة، على ايدي الفيزيغوت في ادرينابولي، تشبه الانكسارات الفارسية في ألبا وكاثي وكازي (حران). وكان على الرومان ان يوجهوا ما تبقى لهم من قوة حربية للقتال في معركة خاسرة لانقاذ املاكهم في اوروبا، وكانوا يبتاعون السلام في الجبهة الاسبوية عن طريق تنازلات للامبراطورية الفارسية. فقد قضت مملكة لومنية (سنة ٣٨٧) بين الامبراطوريتين بالفارسي، وكان الخط الفاصل بين القسمين يجعل اربعة اقسام المملكة في الحصة الفارسية. وكان هذا بعض الشئ الذي دفعه الامبراطورية الرومانية في مقبل استمرارها في المشرق.

إن التقلبات التي تعرضت لها العلاقات بين الامبراطوريتين تنعكس على ما اصاب الجماعة المسيحية في الامبراطورية الفارسية، وهي جماعة كانت نامية. إن الديانة الزرواسترية لم يحفظها أحد في الامبراطورية الرومانية، ولم يقبل عليها أحد طوعاً في ارمينية. فعلى عكس الديانتين المسيحية والمناوية لم تحاول الزرواسترية تحويل البشرية إليها. وقد ظل هدفها على ما كان عليه أيام كلودير، أي ان لا تكون الزرواسترية الديانة الرسمية للامبراطورية الفارسية بل ديانة للرحيدة للولايات الايرانية. ولكن حتى بالنسبة إلى رعايا الامبراطورية الإيرانية كانت الزرواسترية المسيحية أقل جذبا من أي من المناوية أو المسيحية؛ ومن ثم فقد كان انتشار المسيحية في الامبراطورية الفارسية يدعو كلا من الحكومة الساسانية الامبراطورية والسلطات الزرواسترية الكهنوتية إلى الاستياء الشديد، وقد استمر هذا خلال المئة التي كانت فيها مواقف كل من الامبراطوريتين عدائية نحو الأخرى. إذ إن انتشار المسيحية لم يكن إساءة للديانة الزرواسترية ذات الخط الفكري الواحد؛ بل ان انتشار المسيحية باستمرار، بعدما أصبحت الكنيسة المسيحية (سنة ٣١٢م وما بعدها) الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية، جعل المسيحيين من رعايا الامبراطورية موضع شبهة وأتهموا بأنهم « طابور

حانس ، على نحو ما أنهم به اتباع المانوية في مصر أيام ديوقليان بأنهم ١ طاوور حانس ، في الأمبراطورية الرومانية، وحتى هذا الموقف كان أقل صواباً من ذلك. ففي الامبراطورية الساسانية كان المسيحيون، ولو أنهم كانوا يزددون عدداً في نهر، اما في نصيبين وفي الولايات الأرمنية الحدودية الخمس التي تنازل عنها جوفيان إلى شاپور الاول (٣٦٣ م) فقد كان السكان باجمعهم مسيحيين.

ولهذا السبب أخذ شاپور الثاني (حكم ٣٠٩ - ٣٧٩ م) باضطهاد رعاياه المسيحيين في ٣٣٩ - ٣٤٠ واستمر في اضطهادهم حتى وفاته. لكن خليفته الثاني، شاپور الثالث (حكم ٣٨٣ - ٣٨٨ م) تصدى والأميراطور الروماني ثيودوسيوس الأول، وهذا التوافق في العلاقات بين الدولتين، أدى، لا إلى تقسيم مملكة ارمينية بالتراضي فحسب، ولكن إلى التماسح مع المسيحيين في الأمبراطورية الفارسية. نتيجة المفاوضات الرومانية - الفارسية. وقد توقيف اضطهاد المسيحيين في الأمبراطورية الفارسية، وتوحيقت إدارة الكنيسة المسيحية الفارسية؛ وعندما عُقدَ المجتمع الكنسي الفارسي في سلوقية - على الدجلة (سنة ٤١٠) بُعثَ الامبراطور عزدجرد الاول (حكم ٣٩٩ - ٤٢٠ م) المرسوم القاضي بالتصالح مع المسيحيين والذي كان قد اصلره قبلاً.

١- المتخية الهندية من حوالي ٢٢٤ إلى ٤٩٠ م

كان القضاء على امبراطورية كوشان في سنة ٢٤١ م في عهد الامبراطور الساساني الفارسي اردشير الأول (حكم ٢٢٤ - ٢٤٢ م) قد سبقه انقسام مملكة ساتافاهانا (اندرا) في الهندكن. وقد ترتب على حدوث هذين الانهيارين السياسيين ان وجد في شبه القارة الهندية فراغ سياسي استمر ما يزيد عن القرن. منذ ان حُشنت الدكن إلى امبراطورية مقدنا في القرن الرابع قبل الميلاد، كانت الدكن قد مر عليها نحو من سبعة سة وهي وحدة سياسية، وذلك باتحادها مع شمال الهند أولاً، ثم كوحدة سياسية مستقلة بعد ما التحلت امبراطورية مقدنا بعد وفاة آشوكا سنة ٢٣٢ ق.م. وكانت اكثر المناطق استقراراً، في أثناء هذا الفراغ السياسي الواسع الانتشار، الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة. فالممالك الصغيرة التي كانت هناك، والتي امتع آشوكا من احتلالها، كانت لا تزال قائمة. ومثل ذلك يقال عن واحدة على الأقل من ولايتي ساكاه الواقعة في غرب الهند، واللتين قامتا، في القرن الأول للميلاد، تحت سلطان اباطرة كوشان. والولاية الجنوبية من ولايتي ساكاه هانين، كانت قد استولت على مافرشترا، ولعلها ألغضبت في الحروب التي قامت بينها وبين الساتافاهانيين، التي كانت قد اعتدت على املاكهم. والولاية الأبعد إلى الشمال، التي كانت قد استولت على ملأوا، حول الأربن، استمر وجودها بعد امبراطورية كوشان، ومن ثم قد أصبحت دولة مستقلة في الواقع.

وكان ثمة استمرار اعمق جفواً على مستويات النشاط غير السياسي. فالاسلوب القديماري في الفنون المنظورة استمر بحيث اثر في التطور الفني التعبيري المنظور للبودية الماهايانية في شمال غرب الهند وماتورة، الواقعة في الحوض الأعلى لنهر حشا، والتي كانت قبل ذلك بمدة قصيرة جزءاً من أملاك كوشان. استمرت في احتصاصها لمدرسة فية حيث كان الفن الهندي الاصلي قد تأثر بالفن اليوناني دون ان يقع تحت

مؤد. وقد شهدت القرون الميلادية الثلاثة الأولى، على التسويين اللغوي والأدبي، اختفاء اللهجات (البراكريات) الحية، التي كانت قد انبثقت عن السنسكريتية الأولى، كي تفسح المجال للسنسكريتية الجديدة التي أصبحت اللغة المستعملة في القروش. والقرون الثلاثة داتها شهدت ظهور أدب باللغة التاميلية، في الهند الجنوبية.

فالقروش التي علقها أشوكا كانت جميعها بالبركريت، باستثناء تلك التي نقتت في البلاد التي كانت جزءاً من الدولة الأخمينية (الفارسية الأولى) والتي كان سلوقس الأول (من حوالي 3٠٦ - ٢٨١ ق.م) قد تخلى عنها إلى شانراغودا وليس لغة من ريب في إن الإدارة في إمبراطورية موريا كانت تستعمل فيها اللغة الحية. ولغة بالي التي استعملت في نقوش البوذيين الترتالدين، كانت إحدى البركريات التي ظهرت في العصر المورياي. واللغة السنسكريتية الأولى، التي كانت لغة التعامل للمساكن الهنود الأوروبيين الأصليين الذين هاجموا شبه القارة الهندية، كانت قد انحسر استعمالها كلفة مخاطب، باستثناء استعمالها في ملقوس البراهمين الدينية؛ كما أنه لم تعد لغة مفروضة، إلا بالنسبة إلى الفهديات والأوباشيدات التي كانت، من قبل أن تدون، تنقل رواية من جيل إلى جيل. والسامانية الجديدة كانت لغة مصطنعة، شأنها في ذلك شأن اللاتينية الجديدة (الأفرقية)، التي تم الاصطلاح عليها في الفاربع ذاته. وقد اخذ باللغة السنسكريتية الجديدة لتدوين الكتب الدينية للسانية والفاهشية والبوذية الماهايانية، كما أنها أصبحت كذلك لغة الملحميين الهندجيين لرامايانا والتيهيلاراتا، على النحو الذي استقرنا عليه. ويُعتقد أنه قد تم لهذا الشكل بين حوالي سني ٢٠٠ ق.م. و ٢٠٠ م، مع أن المقولة الأصلية للتتهيلاراتا تدل على أن هذه القصيدة التي بدأت تتخذ هذا الشكل، على أي حال، في زمن لا يتأخر عن القرون الأولى من الألف الأخير السابق للسلاد. والحبورية التي رافقت إحياء السنسكريتية يبدو واضحاً في أثره في الأدب التاميلي الناشئ. واللغات الحية، في الدكن، كفت، ولا تزاله اللغات الترانيدية. ومع ذلك فإن جميع نقوش أشوكا في الدكن هي بالبركريات، أي اللهجات المستمدة من السنسكريتية الأولى. إلا أن اللغة الهندية الأوروبية التي تركت بصمتها في الأدب التاميلي لم تكن واحدة من البركريات؛ لقد كانت السنسكريتية الجديدة.

استمرت المدنية الهندية، في القرنين الثالث والرابع للميلاد، في توسيع مجال انتشارها منخطة حدود شبه القارة. ان انتشارها عبر البحر في اتجاه جنوبي شرقي، إلى

جنوبي شرق اسية، كان قد بدأ في القرن الاول للميلاد. وزداد زخم انتشارها في ذلك الاتجاه في القرن الرابع للميلاد. فاصبح جنوب شرق اسية القلوي جزءاً من المجال الحيوي للمدينة الهندية، باستثناء قسم من شمال فيتنام، الذي كانت المدينة الصينية قد ضمته اليها. وكانت التجارة والمدين، لا الفتح، سبيل انتشار المدينة الهندية، ولم يكن موقف شعوب جنوب شرق اسية من المدينة الهندية موقف قبول مسالم. فقد حلفوا منها لوماً جنوب - شرق اسوي متميز، ولو أنه لم يكن لا - هندياً. وكان يعاصر ذلك انتشار البوذية في الصين من شمال غرب الهند براء عبر حوض سيحون وجيخون وحوض ناريم. وهنا تطلبت الصيغة الماهايانية على الصيغة التروثشتيفادية من البوذية المرافاداة، وكانت السنسكريتية الجديدة هي اللغة التي استعملت في النقوش الماهايانية، التي توجست إلى اللغة الصينية. واسلوب فنلهار الفني اليوناني - الهندي، الذي كان الفن المنظور للماهايانية، احدث أثراً ثورياً في الفن الصيني المنظور، ومن ثم في الفنون الكوري والياباني.

إن الجغرافية الطبيعية لشبه القارة الهندية فرض على الامبراطوريات الهندية ان تعتمد المناطق التي تكون الآن ولايتي بهار وقار برادش في حوض الجسنا - الغانج. فهناك كانت نواة امبراطورية غندا منذ زمن انشائها في القرن الخامس قبل الميلاد إلى تقسمها في القرن الثاني قبل الميلاد. ومن القرن الثاني قبل الميلاد حتى القضاء على امبراطورية كوشان، في القرن الثالث للميلاد، كان حوض السند، لا حوض الجسنا - الغانج مركز الثقل السياسي لشمال الهند. وقد عادت الخريطة السياسية لشمال الهند فجأة إلى الوضع الطبيعي. فقد عاد الوضع إلى ما كان عليه في القرن الخامس قبل الميلاد ثانية، فتوحدت جنوب بهار وشمالها سياسياً - وهذه المرة لم يكن ذلك نتيجة فتح، بل بطريق المصاهرات السلمية - وللمرة الثانية كان ليهار الموحدة من القوة ما مكن لها من التوسع من موضع استراتيجي مؤات لذلك.

كان مؤسس أسرة غُبتا يحمل اسم سلفه الخوري (من القرن الرابع قبل الميلاد) تشاندرا غُبتا. وتشاندرا غُبتا الذي يعود إلى القرن الرابع الميلادي اتخذ ما يعادل سنة ٣٢٠ هـ بدءاً للفترة التاريخية لأسرة غُبتا. ولكن المؤسس الحقيقي لامبراطورية غُبتا كان ابيه سانشرا غُبتا (حكم من حوالي ٢٣٠ إلى ٢٨٠ م). لقد قام سانشرا غُبتا بالاعارة على الدكن بطريقة مثيرة، لكن انتجازه الثابت كان في توسيع املك أسرة غُبتا في

حوص الجُنتا - الفانج. وكانت الخطوة الحاسمة في بناء امبراطورية جُنتا تلك التي قام بها شاندرأ جُنتا الثاني (حكم ٣٨٠ - ٤١٨ م). ففي حوالي سنة ٣٩٥ احتل ولاية سكا التي كانت الأَرزن عاصمتها. ثم اندفع غرباً إلى الساحل، ومن ثم فتح لامبراطورية جُنتا نافذة على بحر العرب.

ولم تتوسع امبراطورية جُنتا، لا جنوباً ولا شمالاً في غرب، إلى الحد الذي بلغته امبراطورية مَوزيا. ففي الجنوب توقفت امبراطورية جُنتا عند سلسلة جبال بُندا أو نهر ناربتا، وفي الجهة الغربية كانت حدود البلاد التي وقعت تحت حكمها مباشرة لهر شمال والمجرى الأعلى لنهر جمنا، ولم يقع تحت سيطرتها سوى الجزء الجنوبي الشرقي من البنجاب. وليس لمة أي شيء يشير إلى وقوع أي اصطدام بين امبراطورية جُنتا والساسانيين. ولعل بقية من امبراطورية كوشان عادت إليها الحياة لتصبح دولة فاصلة بين الامبراطوريتين.

كان افراد اسرة جُنتا انفسهم هندوكيم براهميين، لكنهم كانوا يتسامحون مع الديانات جميعاء على نحو ما كان عليه اباطرة موريا وكوشان. وقد بلغت المدنية الهندية، اثناء حكم جُنتا في القرنين الرابع والخامس للميلاد، القمة في النحت والادب المعمالي (باللغة السنسكريتية الجديدة، وبخاصة في الدراما)، وفي علم الفلك. وقد وصل إلى امبراطورية جُنتا بعض النور الذي كان العالم اليوناني - الروماني يشعه في عصر افول، وكان ذلك عبر النافذة الغربية لامبراطورية جُنتا (على بحر العرب) لكنه لم يعد ان يكون شاعراً، فالائق الذي عرفته المدنية الهندية في عصر جُنتا كان أصلياً وأصيلًا.

مُرُتت امبراطورية جُنتا، وقضي على « العصر الذهبي » للمدنية الهندية على أيدي الرعاة الهون الرحل، الذين تدفقوا على الهند من السهوب الأوراسية. وقد انزل الهون الضربة الأولى بالهند سنة ٤٥٥ م، وتلتها ضربات أخرى. ومع أنَّ الهون ضلُّوا، فانهم لم يُخزجوا من البلاد.

٢٢- خروج الهون من السهوب الأوراسية في القرنين الرابع

والخامس للميلاد

إن البدو الرحاة الذين يطلق عليهم الصينيون اسم « هزونغ - نو » والذين يسميهم ضحاياهم الآخرون المستقرون أبعد إلى الغرب منهم « الهون » هم أوّل شعب، من سكان الطرف الشرقي من السهوب الأوراسية، مدوّنة أنبازة. كانوا مستقرين هناك في القرن الرابع قبل الميلاد، وهو الزمن الذي وصلت فيه دولة تشاو (وهي الأبعد شمالاً من الدول الصينية الثلاث التي كانت تتنافس فيما بينها - تشين وتشاو وين) إلى الطرف الجنوبي للسهوب. ففي سنة ٣٠٧ ق.م. جمع حاكم تشاو قوة من الفرسان على الأسلوب البدوي، وفي نهاية القرن الرابع قبل الميلاد كانت الدول الصينية المحدودة الثلاث تقوم ببناء الأسوار على طول حدودها الجنوبية، دوماً لاضطر البدوي.

إن أسلوب الحياة هو مفرسة يتغرب المملون فيها لا على الغزو والتهب فحسب، بل على التنظيم والحكم. فلولا التخطيط والنظام لما تمكن الإنسان وحيواناته الأليفة من العمل في السهوب. وإذا فلم يكن مما يدعو إلى العجب أنه لما نجح تشين شيه هوانغ - شي من توحيد الصين سياسياً في سنة ٢٢١ ق.م.، وثبتت الأسوار المحدودية في حط دفاع واحد متصل، أن يرد الهزونغ - نو (وهم بدو السهوب الرحاة) على ذلك باقامة امراطورية مقابلة لها في الجهة الأخرى من السور. وقد اتاحت العوصى المنبئة التي عبرت بالصين في فترة قصيرة (٢٠٩ - ٢٠٣ ق.م.)، للهونغ - نو الفرصة لمهاجمة الصين، وفي سنة ١٧٤ ق.م. توسعوا غرباً أيضاً؛ وبذلك أهدلوا موجة من الهجرات بين جيواتهم البدو الغربيين هي التي انتهت بانتقال يوه - تشين إلى حوض

سيحون - جيحون وانتقال السكا إلى الهند. وفي سنة ١٢٨ ق.م. قاد الامبراطور الصيني هان - رو تي حملة انتقامية ضد الهزونغ - نو كان الهدف منها القضاء على الهزونغ - نو على الأقل إخضاعهم نهائياً، إلا ان حرب الحشة سنة الصينية - الهورية (١٢٨ - ٣٦ ق.م.) لم تكن حاسمة. وفي سنة ٥٢ ق.م. اعترف الجرح الاقرب من الهزونغ - نو بسلطان امبراطور الصين عليه. إلا أن هذا النجاح الصيني كان سطحياً وموقفاً، وفي الوقت ذاته تخلصت بقية الهزونغ - نو من السيطرة الصينية نهائياً، بالسر إلى اماكن ابعد غرباً، بحيث اصبحوا ابعد من ان تصلهم الجيوش الصينية التي كانت تهجم حول سور الصين الكبير.

وإلى هذا الوقت لم يكن الهزونغ - نو قد اتروا في أي من الشعوب المستقرة بالإضافة إلى الصينيين. لكن في القرنين الرابع والحامس للميلاد لم يقتصر على الهجوم على الصين للمرة الثانية، بل انتهجوا حوض سيحون - جيحون والهند وبران واروبة كذلك. وكان هذا هو التفجر الخامس لهدو الشعوب الاوراسية. لكن تفجر الهون هذا اختلف عن جميع ما سبقه لأنه انتشر إلى جميع الجهات.

وفي سنة ٣٠٤ هاجم الهزونغ - نو الصين فنهبوا لويانغ في سنة ٣١١ م. ولشنغ - نشار العاصمة الأولى لاسرة الهان المتفرقة سنة ٣١٦ م، وقضوا (٣١٦ م) على اسرة تشن الغربية، التي كانت قد نجحت في إعادة الوحدة السياسية إلى الصين. وهذه الحملة الثانية الناجحة لقبائل الهزونغ - نو ضد الصين افسحت في المجال لحشود من المهاجمين البرابرة، بعضهم من الهزونغ - نو بالذات والبعض الآخر من القتيين أو التونفوس أو السفول. وقد تقسّمت دول بربرية كل شمال الصين. كانت درلاً خليفة لامبراطور تشن الغربية الهشة.

وفي الطرف المقابل من السهوب اغار حشد من الهون (حول سنة ٣٧٥ م) على البدو، المعروفين باسم الان سارماتيان، الذين كانوا يقيمون بين نهري الفولغا والكون، والذين كانوا يتكلمون اللغة الامراتية، وقضى على الامبراطورية التي كان القوط الشرقيون (الستكلمون بلغة تيوتونيو والقادمون من اسكندنافيا اصلاً) قد انشأوها حول نهر الدنيبر. وشرّدوا القوط الغربيين، الذين حاولوا العثور على ملجأ في اطار الاراضي الرومانية الواقعة إلى الجنوب من مجرى الدنيوب الأدنى. وتفجر هؤلاء الهون الغربيين كان السبب الرئيس للنزاع بين القوط الغربيين والرومان، والذي تلقى فيه الرومان ضربة

قاضية في احدى (اهديا نوبولي) في سنة ٣٧٨ م. وقد استمر الهون انفسهم في السير غرباً، ومعهم الآلان والقوط الشرقيون لفنن كانوا قد اختضعوهم مشردين امامهم برابة آخرين من الناطقين باللغة التيوتونية.

وضرب الهون غيامهم في ألقولد الهنغارية - وهي رقعة من السهوب الاراسبية في قلب شبه الجزيرة الاوروبية. كانت الامبراطورية الرومانية قد انقسمت سنة ٣٩٥ م، وكان جزؤها الشرقي اكثر حيوية من الجزء الغربي. لذلك ركز سيد الحرب الهوني، أتيل، هجومه على الامبراطورية الرومانية الغربية، التي كانت اقل نفعاً لكنها قرب مثلاً من حدته الرومانيي. في سنة ٤٥١ هجم أتيل بلاد الغال حيث هزمه (في اورليان) الجيش الروماني الغربي بمعون من القوط الغربيين. ذلك بان هؤلاء كانوا يأملون في ان تأذن لهم حكومة الامبراطورية الغربية في الاستقرار في جنوب غرب بلاد الغال، ومن ثم فقد كانوا معنيين بالحيلولة دون الهون والاستيلاء على ما املوا فيه من غنيمة بلاد رومانية للقوط الغربيين. في سنة ٤٥٢ م اغار أتيل على شمال ايطالية، لكنه انسحب دون ان يهاجم رومه. وفي سنة ٤٥٣ م توفي عندنا ثار لنباعه المترددون من الجرمان والسارماتيين، وتراجعت موجة الهون شرقاً من ألقولد الهنغارية إلى السمنطط الغربي للسهوب الاراسبية الواقع إلى الشمال من البحر الاسود.

اصبحت الامبراطورية الرومانية الغربية الآن الشرة المرحوة، لا للهون، ولكن للقبائل البربرية الناطقة باللغة التيوتونية وهي لما التي نجت من استبعاد الهون لها، أو انها كانت قد استعبدت لكنها ثارت عليهم بعد وفاة أتيل. في سنة ٤٥٦ م اجتازت جماعات من السواف والغندال والآلان والبرغنديين نهر الراين ودخلت لراضي الامبراطورية الرومانية الغربية. في سنة ٤٦٠ م اهترقت الامبراطورية الرومانية الغربية بمجزها عن الدفاع عن بريطانيا، وهجرت كذلك عن تأمين الدفاع عن رومه بالذات، إذ حاجبها مشردون من القوط الغربيين (هربوا امام الهون) فاحتلوها ونهبوها في السنة ذاتها. وهكذا فقد سر الهون الغربيون، لبرابرة آخرين، ان يجمعوا ثروة على حساب الامبراطورية الرومانية الغربية. اما حصّة الهون التي حصلوا عليها في نهاية الامر من لراضي الامبراطورية الرومانية فقد كانت بسيطة. ففي سنة ٦٨١ م تمكنت قبيلة بلعارية، هي من اعقاب الهون الذين كانوا بقيادة أتيل، من الحصول على مقر دائم لها على حدود الامبراطورية الرومانية الشرقية بين مجرى الغتوب الأدنى ومنحدرات سلسلة جبال هاموس (البلقان)

إن قبائل الهون التي انتصرت على إيروز، الإمبراطور الساساني الفارسي، سنة 184م ونقله، كانت قد ظهرت على المسرح التاريخي باعتبارها حليفة للفرس في حملة سنة 359م التي انتهت بأن احتل الفرس الحصن الروماني أميد (ديار بكر) وفي سنة 484م كانت هذه القبيلة من الهون، وهي الأفتاليت (الهَظَل) قد احتلت الجزء الأعلى من حوض سيحون - جيحون. كانت الصفد ويكتريها جزءاً من إمبراطورية كوشان. ويبدو أنهما كانا قد ضما إلى الإمبراطورية الساسانية لما احتل الفرس إمبراطورية كوشان (241م) في حكم الإمبراطور الساساني الأول أردشير الأول. ولما ندرى فيما إذا كانت هاتان الولايتان قد تخلصتا من الحكم الفارسي قبل أن يحتلها الأفتاليت (الهَظَل)، أو أن هؤلاء انتزعوهما من الإمبراطورية الفارسية قبل المواجهة التي انتهت بالنكبة التي تلقتها فارس سنة 484م.

بعد هذه النكبة ترتب على الإمبراطورية الفارسية أن تستمر في دفع جبهة للأفتاليت (الهَظَل) حتى حكم كسرى (الأول) ابن شروان (531 - 579م). وفي أيام كسرى الأول انضمت الإمبراطورية الفارسية لنفسها (حول سنة 558 أو 563 - 567م). فقد عثر كسرى على حلفاء من الترك، القبيلة البدوية التي كانت قد سيطرت على السهوب فيما وراء الهون. فعمل الفرس والترك بيدا واحدة، ففقدوا على إمبراطورية الأفتاليت (الهَظَل) وانقسموها فيما بينهم، وكان نهر سيحون الحد الفاصل بين قسميها. وهكذا فقد نال الإمبراطورية الفارسية جزء من يكتريها، هو الواقع جنوبي نهر سيحون (طورخاوساي وهي اليوم توريكستان الأفغانية). إلا أن جزءاً من إمبراطورية الأفتاليت (الهَظَل) نجا واستمر قائماً في زبولستان (أرخوزيا)، الواقعة جنوبي سلطة جبال هندو كوش.

كان الأفتاليت (الهَظَل) مؤخرة قبيلة الهون التي كانت قد خرجت من السهوب عبر جزء من الحدود الجنوبية للسهوب. وهو الواقع بين هضبة البامير وبحر قزوين. وقد مر بنا أن هذه المقدمة من الهون كانت قد هاجمت الهند سنة 514م، ومع أنهم ردوا أخيراً على أعقابهم سنة 528م، كانوا قد مزقوا إمبراطورية غيتا وأثروا الكثير من الفوضى والتدمير في المدينة الهندية التي كانت يومها تتمتع بمصرها الذهبي، بزعامة إمبراطورية غيتا.

كان الضغط الذي مارسه الهون على الشعوب التي هزموها محنة وضمت هذه

الشعوب امام اختيار مهم. وقد استعجبت الامبراطورية الرومانية الشرقية والامبراطورية الساسانية لهذا التحدي بتجاح كبير. ومع ان الامبراطورية الرومانية الشرقية لم تستطع الدواع عن نفسها ضد هجمات اتيلاء ومع ان الامبراطورية القارسية قد تلقت صربة كبيرة على ابدي الاقاليت (الهطل) فان اياها من هاتين الامبراطوريتين لم بغص عليها؛ فقد ظلنا قائمين وذلك على اساس دفع الجزية. وبقاء الامبراطورية الفارسية يدهو إلى العجب. ذلك لأن ثورة مردك التي قامت في عقب النكة الحربية التي وقعت (على الامبراطورية القارسية) سنة ٤٨٤م. كشفت عن العلة الاجتماعية التي كانت الامبراطورية القارسية تشكو منها في القرن الخامس للميلاد. وكانت الامبراطورية الرومانية الغربية تشكو من العلة ذاتها في القرن نفسه، لكنها، أي الامبراطورية الرومانية في الغرب انهارت وذابت على عكس الامبراطورية القارسية.

وبسبب التحلل الامبراطورية الرومانية الغربية ظلت الامبراطورية الرومانية الشرقية سالمة. وفي واقع الامر فقد رفع عن كاهل الامبراطورية الرومانية الشرقية مسؤولية كبرى. ذلك بان المدنية اليونانية - الرومانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، والبلاد الواقعة خلفه في افريقية واوروبه، لم تستعد نشاطها بعد الفوضى التي عمتها في القرن الثالث للميلاد. والقسم الذي كان يتبع بسجنع سليم من العالم اليوناني - الروماني في دوره الاخير كان هو المشرق.

لم تؤد هجمات الهون على الهند والصين إلى نكة شبيهة بما عرفته الامبراطورية الرومانية الغربية، ولكنها كانت ابعده اقرباً مما اصاب الامبراطوريتين الرومانية الشرقية والفارسية. لم تكن هجمات الهون على الهند والصين زوايع لم تلبث ان انقضت؛ فقد استقر الهون بشكل مستمر في شبيهي الجزيرة. ففي شمال غرب الهند لا يزال بقايا الهون مستلبس إلى الآن بالراجيوت. فقد نهض هؤلاء الهندوكية وتسلطهم « طبقة » الكاشاترئة على نحو ما اصاب المهاجمين الاوراسيين البدو الذين سبقوهم إلى الهند (مثل الساسا والمبهاويين). ومثل ذلك حدث في الصين؛ فالببدو المهاجمون تحللتهم الصين في النهاية. لكن الضربة التي انزلها الهون بالصين كانت عنيفة بشكل خاص. ذلك بان الهون وغيرهم من البرابرة الذين دهموا الصين في القرن الرابع وما تلاه، استلوا منطقة من العالم الصيني شملت حوض نهر واي والحوض الأدنى للنهر الاصفر. وهذه المنطقة كانت مهد الحضارة الصينية. والمقابل فان المنطقة التي عسرتها المدينة

اليونانية الرومانية لما سقطت الامبراطورية في الغرب، لم تعد كونها ملحفاً استعماريًا
 يمكن ان يستغنى عنه. وعلى كل فان الفني نفذ شبه المقارنتين الصينية والهندية كان
 اتساعهما. فقد كان في جنوب كل منهما ملجأً للاجئين الفاروس امام المهاجمين من
 الشمال. فكان عمل الانسان وصنع الطبيعة يحميان جنوب الصين. ذلك بان الحوضين
 الادنيين لنهري هواي وينغتسي اتحت عملهما القنوات التي صنعها الانسان هناك. وهذه
 الشبكة من الطرق المائية كانت عبة كاداء في طريق الفرسان البدو الاوراسيين.

٢٢- الامبراطوريتان الرومانية والفارسية ٣٩٥ - ٦٢٧م

في السنة ٣٨٨م عهد موحد الامبراطورية الرومانية على يد الامبراطور ثيودوسيوس الأول، ولم يكن ذلك للمرة الأولى. إلا ان هذه الامبراطورية قسمت سنة ٣٩٥م (ولم يكن ذلك للمرة الأولى ايضاً) بين ابني ثيودوسيوس، اركاديوس وهونوريوس. ذلك انه بعد الانكسار الكبير الذي لقيه الامبراطورية الرومانية على يد الامبراطور الفارسي شابور سنة ٢٦٠م، والذي انتهى بهمس الامبراطور فاليريان - تعرضت الامبراطورية الرومانية لمناسبات قسمت فيها - طوعاً أو كرهاً - وكانت تعد الى الامبراطورية وحدتها بعد كل من هذه المناسبات. ولم يكن ثمة ما يدعو إلى الحسبان بان الانقسام الذي تم طوعاً سنة ٣٩٥م سيكون دائماً. إلا ان الذي حدث هو ان اتجاهاً كل من القسمين الشرقي والغربي من الامبراطورية، كانت مختلفة بالكلية في الواحد عنها في الآخر.

في سنة ٤٠٦م وما بعدها كانت الشعوب الناطقة بالهندية الأوروبية والارمنية تهرب في اتجاه غربي امام الهون، وكانت الامبراطورية الرومانية الغربية تتعرض للمعز كما كانت تغلب على امورها. وقد نهبت روما بالذات على يد القوط الغربيين سنة ٤١٠م وعلى ايدي الفندال سنة ٤٥٥م. واصبحت حكومة الامبراطورية الرومانية الغربية عاجزة قبل سنة ٤٧٦م بسدة طويلة. وهي السنة التي نزع فيها اوداكر، وهو قائد الجند، السلطة من يد آخر امبراطور روماني في رافنا (وهي العاصمة - الملجأ - التي اتحدتها الامبراطورية الغربية في القرن الخامس للميلاد). وكان المعنى الظاهر لانتزاع السلطة توحيد الامبراطورية تحت سيادة الامبراطور زينو (حكم ٤٧٤ - ٤٩١م). بالمقارنة بزوال الامبراطورية الغربية، كان ثمة استمرار للامبراطورية الرومانية للشرقية. مع ان حدها السحاذاي لمجرى الدانوب الاسفل كان يتعرض لضغط شديد من الشمال، اكثر من تعرض اي جزء من حدود الامبراطورية القارة الأوروبية بين البحر الاسود وبحر الشمال.

يضاف إلى هذا لم تكن جغرافية الامبراطورية الرومانية، على حدودها الشرقية، عصابة من البرابرة المحاربين: لقد كانت الامبراطورية الفارسية التي كانت ندا للامبراطورية الرومانية بوعاً ومقدرة.

يدعو ان الفرق بين ما اصحاب قسيمي الامبراطورية الرومانية بعد ٣٩٥ من تقلبات لم يكن معه اي اختلاف في درجة الضغوط التي تعرضت لها حدودها على التوالي. إن الاسباب الاساسية كانت تكمن في التباين الاجتماعي والاقتصادي فيما بينهما، وحكومة القسطنطينية الرومانية التي نجحت نجاحاً نسبياً في انتقاذ وضعها بسياسة حكيمة جاءت في الوقت المناسب.

لقد ادركت حكومة القسطنطينية بسرعة ان الامبراطورية الرومانية الغربية كانت في الوقت ذاته غير قابلة للانتقاذ كما كانت معرضة للزوال. وكان التدخل النشط الوحيد الذي قامت به الامبراطورية الرومانية الشرقية لمصلحة الامبراطورية الغربية المنهارة الحملة البحرية ضد القنصال (٤٦٨ م) الذين كانوا قد احتلوا شمال افريقية، والتي انتهت بانكسار ماحق. وقد اعترفت حكومة القسطنطينية بالأمر الواقع وهو زوال حكومة الامبراطورية الغربية النهائي ٤٧٦. وفي سنة ٤٨٨ تخلصت من ثيودوريك، قائد القوط الشرقيين المحارب الكبير، الذي كانت جموعه المقاتلة تتناشئ الولايات الشمالية الغربية للامبراطورية الشرقية، وذلك بان وافقت على ان يهاجم ثيودوريك لبطالنية بنية تصفية ادواكر. وقد اقام ثيودوريك نفسه في رافنا على انه نائب عن حكومة القسطنطينية هناك. وكانت هذه القصة في مصلحة الغربيين. في سنة ٥٠٨ انعم الامبراطور انستاسيوس الأول على القائد الفرنجي المحارب كلوفيس، لأنه كسر القوط الغربيين، مع ان العمل الأول في مسيرة كلوفيس كان تصفية آخر ما تبقى من الحكم الروماني في بلاد الغال. وحتى سنة ٥١٨ كانت حكومة الامبراطورية الشرقية تضع الاحتفاظ بسورية ومصر الأولية على الاستيلاء على ايطاليا. وسياستها الخارجية تعكس في سياستها الدينية التي سنعالجها في الفصل التالي.

كان بين الاخطاء الفادحة التي ارتكبتها حكومة الغرب الرومانية انها استخدمت في وظائفها المدنية الكبرى، أصحاب الأملاك الكبيرة، فمكنتهم بذلك من تطوير املاكهم، التي كانت ذات اكتفاء ذاتي اقتصادياً، بحيث اصبحت املاك مستقلة. وهؤلاء الملاكون الرومان للغربيون كانوا على استعداد لانتقاذ جزء من املاكهم لقاء خيانة

الحكومة الامبراطورية التي استخدمتهم. ولم يلتزموا مع قواد البرابرة المحاربين، الذين كانوا يقتطعون دويلات - خليفة لانفسهم وذلك على حساب الامبراطورية العربية. وحكومة الامبراطورية الشرقية، حالت دون اصحاب الاملاك للخطر من سياسياً والوصول إلى وظائف الدولة، وحشدت في وظائف الدولة المدنية، من المحكام البيزنطيين وما دون ذلك، جماعة من محترفي الطبقة الوسطى. وكان الكتشرون منهم من رجال الفقه. وقد يكون المستحقون هؤلاء مرشدين، لكنهم كانوا ذوي شعور وطني من حيث انهم كانوا يرون ان مصالحهم الخاصة كانت تتطلب المحافظة على استمرار الدولة الرومانية الشرقية.

وثمة على الأقل إمبراطوران هما مارشيان (٤٥٠ - ٤٥٧) وانستاسيوس الاول (٤٩١ - ٥١٨) اللذان حاولا الحد من تفشي الرشوة الرسمية وذلك بالتشديد على الادارة المالية الامبراطورية. وبحوالى اواسط القرن الخامس تقلص نفوذ المحكام البيزنطيين بان انتزع منهم حق تولية الموظفين الثابطين لهم. والتشدد في الادارة الذي تم على يد مارشيان وانستاسيوس الاول اعاد إلى مالية الحكومة الرومانية الشرقية عافيتها في الشؤون المالية، التي كانت مفطرة البحرية (٤٦٨ م) الفاشلة قد شلتها. وقد افادت الخزينة، كما افاد الجيود، من توقف اتعاب الذي كان يتم على ايدي المسؤولين الماليين في الجيش. ولعل دافعي الضرائب بالذات لم يفيدوا من الامر الذي اصدره استاسيوس الاول باعفاء اعضاء المجالس البلدية من مسؤوليتهم الجماعية في دفع ما كان يتوجب على جماعتهم من دافعي الضرائب. فقد عين موظفين امباطوريين لجمع الضرائب مباشرة من دافعي الضرائب كافراد. ولكن خطته لم يكسب لها النجاح لأن هذه المناصب اصبح من الممكن الحصول عليها عن طريق المزاد (العلني)، ومن ثم فقد تحول الموظفون دور الرواتب المعينة إلى ملتزمي ضرائب مضايين.

في الامبراطورية الغربية اصبح للقائد العسكري سلطات دكتاتورية لانه احصع جميع مساعديه لسلطانه. اما في الامبراطورية الشرقية فان القائدين (المحافظين) ظلا متساويين في السلطة، الواحد مع الآخر، كما كانا متساويين مع زملاهما الثلاثة في المناطق. ولما اضاف يوستيان الاول (٥٢٨) قائدا رابعا لمنطقة ارمينية، ظل التساوي في السلطة محطاً به. وفي الامبراطورية الشرقية كان الموظفون الاداريون التابعون للقادة العسكريين

قد وضعوا تحت اشراف موظفين مختارين. والحرس الخاص التابع للقادة، مع انه لم يلع، فقد قلص عدده.

يضاف إلى ذلك انه جيش الامبراطورية الشرقية، من القيادات العليا وما دون، ظل خارج نفوذ المرتزقة من البرابرة، وكان افراده يجنّدون من مواطني الامبراطورية الشرقية. في الامبراطورية الشرقية صفى غابرياس القوطي (سنة ٤٠٠) واسبار من الالان (٤٧١)، فالامبراطور ليو الأول (حكم ٤٥٧ - ٥٧٤) كان من يسيما، وكان يتكلم لغة تراقيا؛ وكان حليفه زينو (المولود تراسيكوديسا) جبلي ايزوري من طوروس. ويوسين الأول (حكم ٥١٨ - ٥٢٧) جاء من الاطراف الجنوبية من منطقة شمالية من شبه جزيرة البلقان، كان سكانها قد تعلموا اللغة اللاتينية.

وقد كان تحول الايزوريين من ذئب إلى كلاب رعي اثناء القرن الخامس انجازا ضخماً. ففي سنتي ٤٠٤ و ٤٠٥ كان الايزوريون لا يزالون يغيرون على جيرانهم المتسككين بالثمانون. وقد اتهم ليو البيساني اسبار الالاني ففتح الطريق امام تراسيكوديسا. ولما حاول الايزوريون اساعة استعمال قوتهم، مقلدين بذلك البرابرة الاجانب، وضع انتانيوس الأول ايزوريا بالذات تحت اشراف الحكومة الامبراطورية الثالثة، وكان ذلك في ٤٩١-٤٩٦. ولما استولى يوسينيان الأول، في القرن السادس، على اجزاء من املاك الامبراطورية الرومانية الغربية السابقة في حوض البحر المتوسط الغربي، كانت الفرق العسكرية التي قلدها قد تزود بها من الايزوريين والبسانيين والفلاخ (وهم الجماعات التي قبلت اللغة اللاتينية ولقي كانت مواطنها في شمال شبه جزيرة البلقان).

كان قسطنطين قد بنى سوراً يحيط بالقسطنطينية من جهة البر. وقد بنى ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠) مكانه سوراً آخر. وهذا السور اضاف اليه انتانيوس الأول سوراً طويلاً يدور بالقسطنطينية، في البر للاوروبي، من البحر إلى البحر. وقد أُنشئت انتانيوس الأول حدود الامبراطورية مع الامبراطورية الفارسية. فقد اقام في دارا قلعة كانت افضل من قلعة نصيبين، التي اضطر جوفيان ان يسلمها إلى الامبراطورية الفارسية (٣٦٣). وحصّن انتانيوس الأول كذلك ثيودوسيوبوليس (اروز روم) للدفاع عن الشرحة الرومانية من مملكة ارمينية السابقة.

كانت الامبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس قد تدنّت إلى حد ان امبراطورا

قديرا ونشطاً (مثل مايوريان الذي حكم ٤٥٧-٤٦٦) كان عاجزاً عن تحجيبها قدرها المحتوم. والامبراطورية الشرقية المعاصرة كانت تتمتع بالمقايضة إلى حد ان السقدرة والنشاط والسياسة المحكمة كان لها فيها مجال للعمل. وكانت الامبراطورية الشرقية، بين سنتي ٤١٤ و ٥١٨، محظوظة في حكمها. ولوكاديوس (٣٩٥-٤٠٨) وهو ابن نيودوسوس الأول وخليفته في الشرق بدا حكمه بواقاً بالنسبة إلى اخيه ورميله الغربي هونوريوس (حكم ٣٩٥-٤٢٣). وكان ابن لوكاديوس، نيودوسوس الثاني، الذي تولى العرش لاثنتين ولوميتين سنة (٤٠٨-٤٥٠) اعصى. وعلى كل فقد كان يجلس على العرش دون ان يحكم. وتولت امته الاكبر منه ساء بولكارياد ادارة الامور في سنة ٤١٤. واستمرت على ان تكون القوة الفاعلة خلف العرش معظم الوقت إلى ان توفيت سنة ٤٤٣. وكانت بولكارياد نظيرة حنسنوت وزنوبيا من حيث قوة الشخصية، إلا انها تميزت عنهما في الحنكة السياسية. وكان زوج بولكارياد مارشيان وخليفته نيوزونون على مستوى المسؤولية. كما ان استاسيوس الأول كان حرباً بالمقابلة بأعظم من جلس على العرش الامبراطوري الروماني من سنة انفصال اغسطوس في اكتوبر (٣١٠ ق.م) إلى سنة وفاة قسطنطين الحادي عشر على باب القديس رومانوس في القسطنطينية سنة ١٤٥٣م.

وقد غطى يوستنيان الأول نور استاسيوس الاول في نظر الاجيال اللاحقة. كان يوستنيان مطلقاً ثقافة رفيعة، وهو ابن اخ جوستين الاول، الجندي الفلاح الفلاحي البسيط الذي ارتفع من صفوف الجند إلى العرش. ويبدو ان يوستنيان كان يدير شؤون جوستين حتى قبل ان يصل هذا إلى العرش سنة ٥١٨. وقد تولى يوستنيان الاول الحكم من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥. ومعنى هذا انه كان واقفاً صاحب السلطة لسبع واربعين سنة. ولعلّ تبدل السياسة الخارجية والسياسة الدينية في سنة ٥١٨ كان من صنع يوستنيان اكثر مما كان من عمل جوستين. كان يوستنيان بمفخر بأنه واحد من الاقلية السكائية في الامبراطورية الرومانية الشرقية التي تتجيد اللاتينية، حيث كانت اليونانية اللغة الشائعة. وكان يوستنيان يأمل في ان يعيد توحيد الامبراطورية الرومانية الشرقية مع املاك الامبراطورية القبرية الساجقة، باستثناء بلاد الفل على ما يبدو.

في سنتي ٥٣٣ و ٥٣٤ احتل قائد يوستنيان الاول بليساريوس، التراقي الاصل، شمال غرب افرقية وقضى على دولة الفنل التي خلفت الامبراطورية الغربية هناك

كانت الحملة الأفريقية قصيرة وميسرة، إلا أن توطيد السلام هناك كان عملية بطيئة وعسيرة. واستلزال أملاك القوط الشرقيين في إيطاليا وإيليرية، الذي امتد سنا وعشرين سنة (٥٣٥ - ٥٦١). وهذه الحرب الرومانية - القوطية (الشرقية) امتصت الأموال الاحتياطية التي كان أغسطسوس الأول قد ادخرها، ودمرت اقتصاد الولايات الشرقية الذي كان مزدهرا حتى ذلك الوقت، وذلك بسبب الضرائب الفادحة التي فرضت على تلك الولايات، والتي قصمت ظهرها. ولم يتعلم يوستنيان الأول درساً من حروب مع القوط الشرقيين، لذلك فانه هاجم أملاك القوط الغربيين في إسبانية سنة ٥٥٠، واستطاع أن يحتل موطنه قدم هناك قبل أن أرغم على التوقف سنة ٥٥٤.

فتحت فتوح يوستنيان الأول المجال امام إمبراطورية القسطنطينية الشرقية للسيطرة على حوض البحر المتوسط وما يتصل به من البحار - من مصبات الدون والمعاصي والنيل الى مضيق جبل طارق. إلا أن آثار ذلك، بالنسبة الى الإمبراطورية الرومانية الشرقية، كانت كارثة، على نحو ما كانت اثر حملة بحرية واحدة (سنة ٤٦٨)، ولو أن هذه كانت على درجة أخف. والنتائج التي ترتبت على حكم يوستنيان الأول سؤغت بالحكمة التي نحلى بها أسلافه في الامتناع عن التطيح الا مرة واحدة، للمغامرات في الغرب.

كانت فتوح يوستنيان الأول، في الغرب موفقة. فقد هاجم اللومبارديون إيطاليا سنة ٥٦٨، أي بعد سبع سنوات فقط من سقوط آخر قلعة للقوط الشرقيين فيها. أما إنجازاته الثابتة فكانت في ميداني القانون والمعمار. فبين سنتي ٥٢٩ و ٥٢٣ ضم المشرعون في زمنه، في إطار سهل استمهاله، لا القوانين الرومانية التي اشترعت خلال الألف سنة السابقة لحسب، بل كذلك جماع الأولء القانونية التي كانت قد ابدت خلال الفترة نفسها (مع أن الإطار نفسه لم يكن مريثاً تراثياً مقبولا). ولم يبق يوستنيان، في مجال المعمار، بشيرة، بل انه ثبت وأكد على ما كان قائما وذلك بانتدابه الرياضيين المهندسين، انشيموس (من ترالس) ولينزودور (من ميلتوس) لوضع خطة لأثر فخم وبهاء، وهو كنيسة ايا صوفيا (الحكمة المقدسة) في القسطنطينية.

كان الشكل الاصيل الذي قبله العالم الهليني للبناء هو الميغلرون، وهو البناء المستطيل القائم الزوايا ذو السقف المتحد على الجانبين من نقطة لارتفاع متوسطة. وبعد اضافة زحرفة خارجية له، هي صفوف من الأعمدة تقوم لما امامه او على جوانبه

جميعها، قام هذا البناء بمهمته كهيكل للألوهة والآلهة اليونانية والأثرسكية والرومانية، التي سبقت للمسيحية. ولما نقل المهندسون المحاربون الأعمدة من الخارج إلى الداخل، أصبح هذا البناء في العصر اللاحق بالأسكندي، الباسيليكا. والباسيليكا هذه التي كانت قد صممت للاستعمال المدني، أصبحت النموذج المثالي للكنيسة المسيحية. إلا أن اختراع نوع جديد من الأسمنت في القرن الثاني للميلاد في إيطاليا، سهل للبنايس إقامة بناء مدور تعلوه قبة قليلة الارتفاع. وكان مجمع الآلهة الذي بناه هدرهان (في القرن الثاني للميلاد) في رومه البناء الرائد في هذا الأسلوب. وقد اقام البناون، في كنيسة القديس فيتليس في روما وكنيسة القديسين سرجيوس وباغوس في رومه - وهاتان الكنستان بنيتا في زمن يوستيان الأول وزوجته ثيودورا (في القرن السادس) - القبة فوق بناء مشمن الجدران، وهذا التخطيط يبر في وجه المعمارى مشكلة صعبة. وفي كنيسة إبا صوفيا تقوم القبة على أربع ركائز، وهي النفاط التي تحدد القاعدة المربعة الكبرى.

وكنيسة إبا صوفيا في القسطنطينية تتحدى مجمع الآلهة في اثنا بكل ثقة. وفي كنيسوس (في المجمع) أقل رقة من فن انسيموس ولزيبور (في الكنيسة). فالمهندسون تكون الخطوط الأفقية والمسودة الكاملة، والسطوح الكاملة أيضاً، والأعمدة الكاملة الاستدارة، هي الصفات المسيطرة فيها. لكن الطبيعة لا تعرف إشكالا هندسية كاملة. مثل هذه الأشكال (سواء منها الأصلية والظاهرة) يخلقها العقل البشري وتفرضها الأيدي البشرية على البيئة غير الانسانية للبشر. لما الكنيسة البرنطرية التي اتبع في بنائها أسلوب إبا صوفيا، تكون الصفة المسيطرة فيها هي القباب وأشباه القباب التي نعيد الى الناظر المنحنيات التي تغلفها الأجسام الحية. فثقتان لم يحول في هذه ان يخضع الطبيعة، بل عني بالوصول الى الصافم منها. فحين فيلصق صيني من اتباع طاو، كانت تشرح في رؤيتها كنيسة برنطية أكثر ما تشرح في نظرها الى هيكل هليبي.

إن الاعارقة الهلبيين لم ينظروا إلى الانحناءات الطبيعية شذرا. فقد كانوا اساتذة متفنيين في التمثيل الطبيعي للجسم البشري. والمزهريات الهلبيية، في أساليبها المتلاحقة من السابق للهندسي فيما بعد، تبدو فيها الانحناءة على أنها هي سر جمالها. وقد عرف الاعارقة الهلبيون طريقة ادخال انحناءات دقيقة الصنع في ابنتهم، إلا ان هذه الانحناءات كان المقصود منها ان تظهر وكأنها كاملة الاستقامة، وذلك بسبب خداع

البصر. والمعماريون البيزنطيون ثَمروا مهارتهم في الانحناءات التي كانت ندية من الانحناءات الاميلة عند النحاتين والفخاريين الهلنيين، وليس في ما يبدو خطوطا مستقيمة.

لا نزال آيا صوفيا التي بناها يوستيان قائمة ومدونه القنونية كانت مصدر وحي لقوانين لا تزال سارية المفعول. لكن فتوحه الهشة اضرت بالامبراطورية ضررا بالغاء وذلك بعد وفاته بسبع وثلاثين سنة فقط. ففي سنة ٥٥٠، قبل ان تنتهي حروب يوستيان الاستنزائية مع القوط الغربيين، كان للجند الفلاح المجدون في منطقته، في طريقهم للقيام بالخدمة العسكرية في إيطاليا. إذ اضطروا ان يردوا المغيرين يومها من الضفة الشمالية لللدانوب. وفي السنوات من ٥٧٢ إلى ٥٩١، انشاء الحرب الرومانية الفارسية، فيما كان الجيش الروماني الشرقي يتمركز في اسبه على حد الامبراطورية الشرقي، هاجم الافار والسلاف ولايات الامبراطورية في البلقان دون ان يلقوا مفاومة. والثناء الحرب الرومانية الفارسية (٦٠٤ - ٦٢٨) التي كانت امعن في الاذى من سابقتها، عاد السلاف - وفي هذه المرة استقروا هناك.

لقد حلت بالامبراطورية الساسانية، وهي الدولة المجاورة للامبراطورية الرومانية الشرقية، الولايات التي تجنبها الامبراطورية الرومانية للشرقية لو ظلمتها، فيما كانت هذه الولايات هي زوال الامبراطورية الرومانية للفرجية في القرن الخامس. ففي الامبراطورية الساسانية، كما كان الامر في سابقتها الامبراطورية الارزاسية (البارثية) لم تكن المناصب العليا حكرا على النبلاء فقط، بل كان ثمة مناصب خاصة كانت وراثية لاسر نبيلة معينة. يضاف الى ذلك ان المنظمة الدينية الزرادشتية كانت ذات نفوذ في الامبراطورية الساسانية الفارسية على نحو ما كانت عليه الكنيسة المسيحية في امبراطوريتي قسطنطين وثيودوسيوس الرومانيين. وبخلاف ما كان عليه الحال في العصر الارزاسي (البارثي) السابق كانت المنظمة الدينية الزرادشتية ايضا منظمة بالقومية الايرانية، كما آل اليه الحال في الكنيسة المسيحية الارثوذكسية في المشرق اذ طعمت بالقومية البيرومانية واصبح للقوميات المصرية والسورية والارمنية ما يمثلها ويوصحها لاهوتيا، اد انها اتخذت نفسها يرفض اعمال مجمع خلقيدونية (٥٤١ م).

في سنة ٤٤٠ امر الامبراطور الساساني يزدجرد الثاني جميع وعيائه الذين لم يكونوا من اتباع الزرادشتية ان يحتقوا دين الامبراطورية الرسمي، واضطهد جميع الذين لم يقبلوا

بدلك، واستمر في ذلك حتى وفاته سنة ٤٥٧. كانت المقاومة على أشدها في أرمينية العارسية. (كان الوعي القومي الأرمني قد عنف بسبب اختراع الفناء . للكتابة الأرمنية، حوالي سنة ٤٠٠، ومن ثم يتابع ادب أرمني تبعاً لذلك). وقد فصلي على المعصاة الأرمن سنة ٤٥١، إلا أنهم ثاروا ثانية سنة ٤٨١. وذلك لأن أحد الأفضاليت (الهتل) من الهون يوقعون الهزائم العسكرية بالفرس. واضطرت الحكومة الامبراطورية الساسانية أن تمنح للكنيسة المسيحية الأرمنية ملء الحرية، وذلك بعد انكسار أبرويز ووفاته سنة ٤٨٤. وعندها عين نيل أرمني حاكماً لأرمينية الفارسية.

وفي الوقت ذاته كان سبجو المراق الناطقون باللغة السريانية قد اغادوا من تحريم اللاهوت النسطوري في الامبراطورية الرومانية (٤٣١ م). فالتجأ النساطرة الى نصيبين، وهي مدينة يستصل أهلها السريانية. وكانت تقع (منذ سنة ٣٦٢) في الجهة الفارسية من الحدود الرومانية الفارسية. وقد لقي النساطرة ترحيباً في بلاد الفرس باعتبارهم لاجئين من اضطهاد حكومة الامبراطورية الرومانية. وفي سنة ٤٨٢ أصدر الامبراطور زينون امراً بتوحيد الكنائس (اتوثيكون)، فردت عليه الكنيسة المسيحية في المناطق الناطقة باللغة السريانية داخل حدود الامبراطورية الساسانية بان تقبلوا المذهب النسطوري في الكنيسة. ومنذ ذلك الوقت صار يوجد في الامبراطورية الفارسية كنيسة وطنية كانت تلغزم بلاهوت منافض في الوقت ذاته لكل من الفاتلين بالطبيعة الواحدة والمسيحيين الارثوذكس من رعايا الامبراطورية الرومانية. وهذه الكنيسة المسيحية الوطنية كانت ندا للمنظمة الدينية الزرادشتية التي توجد في المناطق الناطقة باللغة الايرانية من الامبراطورية الفارسية. ومع ان تقبل المسيحيين من رعايا الامبراطورية الفارسية للنسطورية لم ينقلهم من جميع انواع الاضطهاد فيما بعد، إلا ان هذا العمل جعل موقفهم اضعف. اد أنهم بدلوا عن ان يتهموا بانهم « طائير غنيس » روماني.

إن النكبة العسكرية التي اصابته الفرس في سنة ٤٨٤ لم تقف عند حد صبح الرحايا المسيحيين من غير الايوبيين في الدولة الساسانية الحرة فحسب؛ انها فتحت السبل امام ثورة اجتماعية عنيفة في إيران بالذات، حيث كانت ثمة هوة واسعة، والتي كانت ترداد عمقاً، ببس ثروة البلاء وفقر البجاصير. وقد دفع القوم على القيام بالثورة مجاعة وقمت في وقت مبكر من حكم قباذ الاول (اعطى العرش ٤٨٨)، وهو الحليفة الثاني لابرويز. وقد اغتتم مزدك الفرسية، وكان يومها رئيس مذهب من المانوية، انشئ في

الجيل التالي لجيل ماتني نفسه. وهذا المذهب اسمه درست - دن كان يختلف عن المانوية الأصلية في بضع قضايا عقديّة، إلا أنه، في أيام مزدك على كل حال، أصبحت الصفة المميزة لهذا درست - دن المطالبة بالعمل الاجتماعي. وكان المذهب يدعو إلى الاشتراكية في الممتلكات حتى الزوجات (وهي قضية بعيدة، وقد صححهما محصوم مزدك).

وقد تقبل الرأي العام تفسير مزدك لدرست - دن واعتقها الامبراطور قباد الأول. ووضعت الثورة الاجتماعية موضع التنفيذ على حساب النبلاء. وقد كانت المزدكية بغضه اجتماعياً في اعين النبلاء الايرانيين، كما كانت بغضه اجتماعيا وعقديا في نظر رجال الدين الزرادشتيين. ولم يكن الامبراطور الساساني ندا لرجال الدين والنبلاء عندما يتضامن هؤلاء ضده. ولذلك فقد خلع قباد الأول عن العرش وسجن (٤٩٦). إلا أنه هرب من السجن وذهب إلى الاغاثات (الهتل) واعيد إلى العرش على يد جيش من هؤلاء القوم (٤٩٨ أو ٤٩٩). واستمر نفوذ مزدك، في الوقت ذاته، يتصاعد، وظلت أراؤه تنفذ. إلا أن قباد تخلى عن المزدكية (٥٢٨ أو ٥٢٩) وذلك بتمريض من أحد أولاد، المسمى كسرى، الذي كان قد اختاره لخلافته. وقد تعاون كسرى مع الكنيسة البسطورية والمنظمة الدينية الزرادشتية، ففضى على المزدكية. فقتل أعداداً كبيرة من اتباع المذهب، بمن فيهم مزدك نفسه.

كان كسرى، الملقب انو شروان وسماه الخالد، داعية، وكان يتمتع بحرية العمل أكثر من أي من أسلافه، وكان بنعم بتأييد رجال الدين الزرادشتيين، إذ أنه كان القوة المحركة في القضاء على المزدكية في أواخر حكم أبيه، ومن ثم فلم يكن يخشى أن يقوم ضده تحالف بين المنظمة الدينية الزرادشتية والنبلاء، الذين يمكن من توطيد سلطته عليهم. ولما قضى كسرى على تصاعد نفوذ مزدك، كان قد سر على الثورة المزدكية نحو من أربعين سنة وهي ناشطة، وقد خرج النبلاء من هذه الفترة وقد ساءت حالهم وسعتهم.

ومع أن كسرى الأول كان قد قضى على المزدكية، ومع أنه استمر، بعد توليه العرش، في الحد من نفوذ النبلاء، فقد رأى أنه يتحتم عليه أن يقوم بعمل ايجابي يخفف فيه من حدة الظلم الاجتماعي الذي كان عتصرا هاما في إثارة الثورة المزدكية، وأن يصلح المؤسسات التي كانت وراء ما كان للنبلاء من سيطرة على العرش. ويبدو

ان كسرى استرشد بمسيرة التاريخ ارماني فيما بعد ديوقليتان، فاعاد النظر في ضريبة الارض وصربية الجزية. ففرض على الارض ضريبة تتناسب مع منتوجها، وعلى الاشخاص على اساس ما يملكون من وسائل الثراء. وقد كان الدعاقي هم المسؤولون عن جمع الضرائب الرقبة في ايام الخلافة، ابي بعد زوال الدولة الساسانية، ولعل كسرى هو الذي وطف الدعاقيين في هذا الدور. وقد كان الدعاقيين الحلفاء الطبيعيين للامبراطور في صراعه ضد النبلاء لوضع حد لتصرفهم. وانفى كسرى، كذلك، منصب القائد العام واستعاض عنه بتعيين أربعة نواب اقليميين. ويبدو كسرى وكأنه كان يعي واحد من اسباب الهياكل في حظ الامبراطوريتين لرومانيتين الشرقية والغربية.

في سنة ٥٧٢ نشبت حرب بين كسرى الاول والامبراطورية الرومانية الشرقية. وهي الحرب التي استمرت حتى سنة ٥٩٠. وانتهت بخلع ابنه وخطبته هرمز الرابع والمخيلة. وقد اتاحت النكسة الشمية للحرب القرمة امام النبلاء للعودة إلى النفوذ. واختصب العرش نبيل فائر. لكن الامبراطور الروماني الشرقي موريس اعاد كسرى الثاني، وهو ابن هرمز الرابع، الى عرش ابيه. وقد كافأه كسرى على ذلك بان عقد صلحا مع موريس (٥٩١)، وتنازل له عن النصف الغربي من ارمينية الفارسية. وعندما تمكن موريس من نقل جيش الامبراطورية الشرقية الى لوزينة، وشن حرباً هجومية على الافار والسلاف. وقد نجحت حملته الهجومية بحيث ان الرومان عادوا في سنة ٦٠٢، الى الضفة الشمالية للندوب الادني، وكان ذلك لأول مرة بعد انسحابهم من داسيا في القرن الثالث للميلاد. إلا ان موريس امر الجنود بان يشعروا فيسا وراء النوب، فأدى ذلك الى عصيان دنع موريس سنة عرشه وحياته، يرمي الامبراطورية في احضان الفوضى.

في سنة ٦٠١ هاجم كسرى الثاني الامبراطورية الرومانية الشرقية بحجة الانتقام لموريس الذي كان كسرى مدبنا له بالكثير. والحرب التي تلت ذلك كانت اشرس الحروب التي دارت رحاها بين الرومان وجيرانهم الايرانيين منذ ان التقى الفرعان لأول مرة سنة ٥٣ ق.م. وقد وصل الفرس، مرتين على الاقل، إلى الشاطئ الاسيوي لمصيق البوسفور في سنة ٦٢٦ كانوا على وشك ان يلتقوا الافار الذين كانوا يحاصرون القسطنطينية من الجهة الاوروبية لولا ان الاسطول الروماني الشرقي حال دون ذلك، وبكثير من الصعوبة. وقد احتلت الجيوش الفارسية سورية وفلسطين ومصر وبرقة. وكانت هذه اول مرة يصل فيها الفرس إلى هذه النقطة غربا منذ سنة ٣٢١ ق.م. ولما

قام الرومان الشرقيون بهجوم المضاد وصلوا شرقاً إلى إيمد مما وصل أي جيش روماني منذ سنة ١١٧م. وفي سنة ٦٢٨ كاد الإمبراطور الروماني الشرقي هرقل (تولى العرش ٦١٠) ان يصل إلى اسوار المدائن (اكتشفون)؛ ثم انتهت الحرب، كما توقعت حرب السوات ٥٧٢. ٥٩١ بهزاع الإمبراطور الساساني ووفاته.

عقدت الدولتان صلحا سنة ٦٢٨ على أساس الوضع السابق للحرب، واخذت الفوضى العنيفة برقاب الامبراطورية الساسانية، على نحو ما اصاب الامبراطورية الرومانية الشرقية بين سنتي ٦٠٢ و ٦١٠، إلا ان الامبراطورية الفارسية، على عكس الامبراطورية الرومانية الشرقية، لم تنهض من كبوتها.

كانت الدولتان، في سنة ٦٢٨، قد بلغ منهما الجهد غايته. وكانت الدولة الثالثة هي الدولة الإسلامية العربية التي انشأها النبي ﷺ في المدينة المنورة سنة ٦٢٢. وقد كان ظهور النبي ﷺ ودولته سرعاً. ففي سنة ٦٣٣ أرسل خطيبه الاول أبو بكر الجيوش لمهاجمة جاراته المجهدين الواقعتين إلى الشمال في وقت واحد، فسقطت الامبراطورية الفارسية. اما الامبراطورية الرومانية الشرقية فقد استمر وجودها. إلا ان املاكها كانت قد تقلصت تدريجاً بحيث اقتصرحت في النهاية على اسمة الصغرى والقسطنطينية وبعض الجزر وجسور برية على الساحل الآسيوي الشمالي لبحر المتوسط.

٤٤- المسيحية الغربية ٣٩٥-٦٢٤

إن الامبراطورية الرومانية الغربية، من بين دول الإيوكومين القديم التي تعرضت لتفجير الهون وغروجهم من المذهب الأوراسية هي التي منيت بالمشعل الذريع في مواجهتها للجموع المتجهة نحوها. فقد تزاح الهون السارماتيين الجدد والجرمان الشرقيين المستقرين غرباً، فاخترق هؤلاء حدود الامبراطورية الرومانية الغربية في سنة ٤٠٦ وما بعدها، وفي سنة ٤٧٦ كان حتى الحكم الامبراطوري الاسمي قد صني. ولم يكن زوال الامبراطورية الرومانية الغربية ناتجاً عن قوة هجمات البرابرة عليها، بقدر ما كان نتيجة ضعف الامبراطورية للدخلي. وهذا للضعف كان اجتماعياً كما كان ادارياً. فعلة الامبراطورية الرومانية في الغرب كانت على شاكلة العلة التي لودت بحياة امبراطورية الهان (في الصين). فقد هزمت الحكومة الاسيراطورية في صراعها مع كبار الملاكين والقواد العسكريين الكبار. مكبار الملاكين نقلوا فائض الصنوج الزراعي من خزينة الحكومة إلى جيوبهم الخاصة. والقيادة العسكرية العليا جعلت من نفسها دكتاتورية سياسية عن طريق تجميع السلطة العسكرية في يد واحدة.

وقبل سقوط الامبراطورية الغربية ببعض الوقت قام رجلان عظيمان كانا من جيلين مختلفين هما القديس امبروز والقديس لوجسطين. وقد ترك هذان اثرأ كبيراً في المسيحية الغربية؛ وهو اثر استمر بعد زوال الامبراطورية، التي عاشا وعسلا في كنفها. كان القديس امبروز اسقفأ لميلان (٣٧٢-٣٩٧ م)، وقد توفي وذلك قبل تسع سنوات من نقل العاصمة (٤٠٤ م) من ميلان إلى رافنا (التي كانت تكسيها المستنقعات المحيطة بها مناعة ضد الهجوم عليها) وقبل تسع سنوات فقط من احتراق الجرمان الشرقيين، الذين شردهم الهون، حدود الامبراطورية الغربية على نهر الراين. والقديس لوجسطين، الذي كان اسقفأ لهيو (٣٩٥ - ٤٣٠ م). في شمال غرب افريقية، توفي بعد

بعد سنة واحدة من هجوم الفندال على شمال قرطبة. وقد جاز الفندال من اسبانية إلى اربقة سنة ٤٢٩، وذلك بعد ثلاث وعشرين سنة من اجتياهم نهر الراين. وكانوا، في سنة ٤٣٠، يحاصرون هيو، مركز اسقفية القديس اوغسطين.

تحدث رجلا الدين الغربيان من بيتين اجتماعيتين تختلف الواحدة عن الاخرى اختلافاً كبيراً، وكان كل منهما قد اتخذ لنفسه حرية مدنية قبل ان ينضم إلى الكنيسة. فقد كان والد اسبروز يشغل وظيفة ادارية على اعلى المستويات، وكان اسبروز نفسه قد بدأ حياته في السلك الاداري ذاته؛ ولا ريب في انه كان يمكن ان يجد سيرة ابيه، لولا انه وجه إلى مجال للعمل كال يحسب انه يمكنه من صرف قوته بشكل اكثر فعالية، وقد سم له ذلك. وكان اوغسطين ابناً لاسرة متوسطة الحال من تاغستا، وهي بلدة صغيرة في داخل شمال غرب اربقة. وقد بدأ اوغسطين حياته مدرساً للبلاغة في موطنه. ومع ان هذه الصناعة كانت قلما تثير الاهتمام لا عقلياً ولا اجتماعياً، فان اوغسطين تميز في عمله هذا. وقد رقي بسبب ذلك من تاغستا إلى قرطاجة ومنها إلى رومة ومن هذه إلى ميلان. وهناك تخلى عن ثمانوية واعتنق المسيحية (٣٨٨). وهكذا شئ لنفسه طريقاً استطاع فيه ان يجتهد مواهبه في مجال ديني في بلاده.

كان اسبروز يتصف بالشجاعة وقوة الارادة، وقد استخدم هاتين الصفتين في السيطرة على شخصية قوية اخرى، هو الاسبراطور ثيودوسيوس الأول. وقد فرض نفوذه على ثيودوسيوس بامتناعه عن السماح له بتناول الشراكة المقدسة قبل ان يفعل ما طلبه منه اسبروز. وقد تقبل ثيودوسيوس ذلك لانه كان مسيحياً مؤمناً ولانه كان يحب ان يراعي الرأي العام المسيحي (ذلك بان اسبروز كان قد رسم اسقفاً لميلان بناء على الحاح المسيحيين المحليين). وافاد اسبروز من نفوذه على ثيودوسيوس ان حمله على اعلان التوبة عن مذهبتي امر بهما وكان هذا صلاً قاضلاً. إلا انه وضع نفوذه على الاسبراطور موضعاً خاطئاً، أولاً لانه منعه من توقيع العقوبة بأشرف مسيحي كان قد هدم كنيسة لليهود، وثانياً لانه حمله (٣٨٤) على رفض عرضة تقدم بها سيماعوس، رئيس مجلس الشيوخ في رومة، يطلب فيها ان يعيد مذهب الهة النصر إلى قاعة مجلس الشيوخ، وهو المذهب الذي كان قد تقل بناء على امر من غراتيان (٣٨٢) الذي كان سلف ثيودوسيوس في القرب. كان سيماعوس قد قال في عرضته: « ان سرّاً عظيماً مثل هذا لا يمكن الانتظر اليه من طريق واحدة فقط ». والسر الذي كان سيماعوس

بمقصده هو الحقيقة النهائية الكامنة خلف الظاهر، ومن ثم قضية العلاقة بين الحقيقة النهائية والانسان. ولم تلتفت امبروز إلى طلب سيماعوس بإحلال التسامح في القضية فقد كان الهدف الذي رعى اليه امبروز هو القضاء على جميع الديانات غير المسيحية داخل الحكومة الامبراطورية الرومانية، وذلك عن طريق اقتناع الحكومة الامبراطورية في استعمال سلطتها لتحقيق ذلك. وقد طلق ثودوسيوس سماعة امبروز (في ٣٩١ - ٣٩٢). ومن ثم ما ان الديانتين الموحدين اللتين استمرت في الامبراطورية هما عبادة النجوم واليهودية بشكليهما اليهودي والسامري.

ومثل ذلك يقال في اوغسطين - انه لم يكن متسامحاً، وقد بذل الكثير من الجهد والوقت في مجادلة الدوناتيين والبلاجيين. وكان الدوناتيون قد اثبتوا انه لم يمكن لهم اي مسوخ خطفي في تصلبهم ضد زملائهم المسيحيين الذين كانوا قد وقفوا موقفاً مسالماً خلال سنوات الاضطهاد (٣٠٣ - ٣١١). ومع ذلك فانه لم يمكن من الممكن اخضاع الحركة الدونانية لأن اتباعها كانوا قد تمطوا حركة افريقية محلية التي لم تكن دينية بل كانت اجتماعية مسيحية. وبلاجيوس كان يرى ان الارادة البشرية لها بعض الحرية في التصرف، وانه يتوجب على الانسان ان يوظف حريته هذه إلى جانب الخير ضد الشر. وهذا الموقف الذي وقفه هذا اللاهوتي البيريطاني، والذي يشبه التشديد الابرائي على اهمية المسؤولية الخلقية للانسان، هو موقف يشرح القلب، حيثما كان وأينما كان. ولم تكن الحاجة إلى ذلك اشد مما كانت عليه في جيلي بلاجيوس ولوغسطين اذ كان المجتمع في الامبراطورية الرومانية الغربية، في طريق الانهيار. كان اوغسطين يرى ان اهلية الانسان لن تبلغ الدرجة التي تؤدي به إلى نيل الخلاص بجهوده وحده. ولن ينال الانسان « الخلاص » إلا اذا خلسته « نعمة » الله. وفي الجدل الذي قام به مع البلاجيين، وصل اوغسطين إلى رأي قولته ان تحكيم الله القوي في حياة الانسان هو انه حكم على بعض البشر بالخلاص وعلى البعض الآخر باللعنة. كان اوغسطين يرى انه في شبه الامبراطور الروماني الذي اساء استعمال سلطانه، لانه عمل بهذه القوة العارمة التي كانت له.

إن الجزء الاثمن من اراث اوغسطين الأدبي للبشرية هو التزامه غير لاهوتييين. فالاعتراعات، هي ترجمة ذاتية سيكولوجية في أسلوب لاتيني بلرغ. و « مدينة الله »، الكتاب الذي بدأ نشره جديداً، أصبح، بعد توسيعه وتسميقه، تقصياً عن « السر الأكبر »،

وواحداً من السبل التي يُلجأ إليها العقل البشري لفهمه. والجدلية التي انطلقت منها بمرور مدينة الله كانت نتيجة لاستيلاء القوط الغربيين على روم ونيها سنة ٤١٠. كان قسطنطين الكبير قد صرح بأن انتصاراته العسكرية كانت مكافأة له من الله المسيحيين عن اعتناقه المسيحية. وبعد ٤١٠ كان اتباع الديانات غير المسيحية يردون على ذلك بأن سقوط روم سنة ٤١٠ هو عقوبة لوقعتها الآلهة غير المسيحية بسبب وقف التمتع لها في ٣٩١-٣٩٢. وقد نفّر أوغسطس نفسه لرد هذه الدعوى، واضطر إلى محاولة الكشف عن العلاقة بين حياة الإنسان المادية ومشاركته المواردة زمنياً في مملكة السماوات.

في الوقت الذي كان فيه أوغسطس يعمل في مؤلفاته، كان البرابرة يقومون بهجماتهم في الشمال. كانت بعض هذه الهجمات فجائية - على سبيل المثال الحارة القوط الغربيين على روم سنة ٤١٠ وغارة الفندال في سنة ٤٥٥، ومثل تقدم الفندال السابق، مع الألان والسواف، من شاطئ الرأس الشرقي إلى جنوبي جبال البرانس، في السنوات الثلاث (٤٠٦-٤٠٨). وفي مقابل ذلك فإن احتلال بريطانيا الجزري الذي قام به الأنكليز والسكسون والقوط. وغزو للمباردين لإيطالية كانت أمصالاً حربية تدريجية بحيث كان الاحتلال يتم مجزئاً. والحصون التي أنشأها هدرمان في بريطانيا أصبح الدفاع عنها غير مجد اعتباراً من ٣٨٣، ولكن لعل بعض الحاميات الرومانية كانت لا تزال موجودة في بريطانيا بعد ذلك بنحو أربعين سنة. ولعل إقامة المهاجمين العاطلين باللجنة الصهيونية في بريطانيا قد بدأت قبل حوالي سنة ٤٢٠-٤٤٠. وقد احتاجت عملية الاستقرار هنا نحواً من ثرين.

وكانت البلاد التي أصابها الضرر أكثر من غيرها من احتلال البرابرة والسقارمة الرومانية هي إيطاليا. وإيطاليا كانت نواة الامبراطورية الرومانية جساماً، كما كانت امعن بلدان الامبراطورية الرومانية الغربية مدنية. وقد اشرنا من قبل إلى الاجهاد الذي اصاب الامبراطورية الرومانية الشرقية بسبب الحروب الرومانية - القوطية (٥٣٥-٥٦١) وقد قضى على القوط الشرقيين الذين كانوا في إيطاليا في هذه الحرب، لكن اللذين اصابهم الضرر أكثر من غيرهم كانوا سكان إيطاليا بالذات. ومع ان هجمات القوط الغربيين والصدال على إيطاليا في القرن الخامس كانت مثيرة، إلا انها كانت آتية وموقنة. وكان روال الامبراطورية الرومانية في الغرب سنة ٤٧٦ سلباً، وهدموا القوط الغربيين، مثله

مثل القتال الذي كان يتم أثناء انسحاب الشعب الجرمني الذي كان بين سنة وأخرى من البرابرة. وقد ظلت إيطالية موحدة سياسياً إلى سنة ٥٢٥ كما ظلت سالمة اقتصادياً واجتماعياً. وكانت حرب ٥٢٥-٥٦١ نقطة تحول في تاريخ إيطاليا. وقد هجم اللومبارديون على إيطاليا سنة ٥٦٨. وذلك بعد سبع سنوات فقط من انجاز توحيد البلاد تحت حكم الامبراطورية الشرقية. ومنذ السنة ٥٦٨ تقسمت إيطاليا سياسياً للمرة الاولى منذ سنة ٢٦٤ ق.م.، وهي السنة التي تم فيها توحيد شبه جزيرة ايطالية نتيجة للفتح الروماني الاسلي. وقد كان اللومبارديون امنن في اللوحشية من اللقوط الشرقيين، وايطالية، التي كانت حرب ٥٢٥-٥٦١ قد نصبت ظهرها، نالها من المصائب اكثر مما كان قد حل بها، بسبب الاحتلال البطيء لاجزاء من البلاد، الذي كان يتم امام صمود حابيات الامبراطورية الشرقية، حيث تمكنت هذه من التمسك بثلث الاجزاء.

وفي سنة ٤٨٦، اي قبل سنتين من تقدم ثيودوريك القائد اللقوطي الشرقي نحو رومه من ابلهرا، كان قائد محلي من الفرنج، كلوفيس الميروفنجي، بدأ باقامة امبراطورية في بلاد الغال. لم يكن الفرنج قد اعتنقوا ايا من المذاهب المسيحية لما بدأ كلوفيس عمله، لكنه، في وقت ما وهو يقم صرح امبراطوريته، اعتنق المسيحية الكاثوليكية. وقد اختار الكشلكة، ولا شك، لأنها كانت المذهب الذي كان به رعاياه الرومان، ولعلّه اختارها ايضاً لأن منافسيه الجرمان، الذين كانوا يحملون على انشاء امبراطورية في جوارها، كانوا من اتباع الاريوسية. في سنة ٤٨٦ أصبح كلوفيس مجاوراً للقوط الغربيين على نهر اللوار، كما أصبح جاوراً للقوط الشرقيين ايضاً، لما انتصر على الالان (٤٩٦) في الجزء الأعلى من حوض الراين.

كان اعتناق الجرمان الشرقيين للمذهب الاريوسي (المسيحي) مجرد مصادفة للوقت الذي نصروا فيه. إلا أنهم بعد ان احتلوا ارضاً رومانية غربية، وبعد ان اقاموا دولا - خليفة للامبراطورية هناك، سره، كفتاحين، ان يكون لهم مذهب مسيحي خاص بهم يميزهم عن رعاياهم الرومان الكاثوليك. وعلى كل فقد كان ثمن هذا التميز ان اصبحوا غربيين، الامر الذي كان عقبة كأداء للجرمان الاريوسيين، بعد ان قامت دولة الفرنج الكاثوليكية. يضاف إلى ذلك ان الجرمان الاريوسيين انفسهم اسرنتهم، تدريجاً، الكشلكة التي كان رعاياهم الرومان يحتقونها والذين كانوا يتفوقون على سادتهم مدينة، كما كانوا يزيدون عنهم عدداً. ولم يتح للكشلكة الوقت لايقاع الفئدال تحت

تأثير سحرها (الذين كانوا يتميزون بتعصبهم للأريوسية) أو لايقاع القوط الشرقيين. وقد قضى على هذين الشعبين على ايدي الرومان الشرقيين أثناء هجومهم عليهم، وذلك قبل ان تثار قضية تبديل المذهب اللاتيني. إلا ان ريكارد ملك القوط الغربيين في اسبانية نحلى عن الأريوسية واعتنق الكاثوليكية طوعاً (٥٨٦)، وتلاه اللومبارديون فساروا على الخطة ذاتها. إلا ان التبديل عندهم كان فيه تردد كما انه تم تدريجياً خلال القرن السابع.

كان القوط الغربيون قد مرت عليهم ثمانون سنة وهم محصورون في اسبانية. ففي سنة ٥٠٧ هزمهم كلوفيس في قوبه وطردهم من املاكهم الواقعة شمالي البرانس، باستثناء شريحة ساحلية تمتد بين الطرف الشرقي للبرانس ومصب نهر الرون. ومن ثم فان كلوفيس كان، قبل وفاته سنة ٥١١، قد ضم تحت حكمه ما تبقى من بلاد الغال باستثناء بروفنس، التي كان القوط الشرقيون قد انتزعوها من القوط الغربيين. كان كلوفيس قد فرض سلطته من قبل على كل اجزاء الشعب الفرنجي. وفي ٥٣١-٥٣٤ ضم خليفاه تورنغن وبرغنديه، وفرضوا سيطرتهم على بافاريا في سنة ٥٥٢. كان السيرودنجيون يقومون ببناء امبراطورية جديدة، تغطي شمال بلاد الغال مغتلفاً، لتستل الفراغ السياسي الذي خلفه انحلال الامبراطورية الغربية في غرب لوروة. ولعل امبراطورية فرنجية كان مقبضاً لها ان تخلف الامبراطورية الرومانية الغربية قبل نهاية القرن السادس لو ان احفاد كلوفيس لم ينظروا الى املاك الاسرة السيرودنجية كما لو كانت املاكاً خاصة، كان من الممكن تقسيمها واعداد تقسيمها لجيلاً مصالحةً. فهذه التقسيمات، والحروب الاهلية التي تلتها، غرمت بلاد الغال وودت مآذها الفرنجة المتنافرين إلى دور العاجز.

كانت الامبراطورية الرومانية الشرقية لا تزال، عند مغلب القرنين السادس والسابع، تحتفظ بتقوتها البحري في الحوض الغربي، كما في الحوض الشرقي للبحر المتوسط. وكانت لا تزال تخضع لسلطانها جميع جزر البحر المتوسط، لا صقلية فصحب، بل ايضاً شمال غرب افريقية، الذي هو اكبر جزيرة بين جميع الجزر والذي هو جزيرة سي الواقع، اذ ان بحرأ من الرمال هو الصحراء الكبرى، يعزله عن بقية افريقية. وكانت الامبراطورية الرومانية الشرقية لا تزال تحتفظ برأس جسر في شمال غرب ايطالية، بمصد رافنا اضافة إلى الجزر التي تقوم في مستنقع البندقية. اما فيما يختص بالمنطقة التابعة

للالامبراطورية الرومانية، وهي الأرض التي تحيط برومة بالغات، فقد تركتها حكومة القسطنطينية للبابا كي يقوم بحماية هذه البقعة الثابتة ويؤود سكانها بحاجتهم، على حبر ما يستطيع. ودوقية رومة هذه، التي سلمت من انصياب اللومبارديين على ايطالية لم تكن اكبر مساحة من « الأرض الرومانية » على ما كانت عليه في القرن الخامس قبل الميلاد.

يبدو ان جميع اجزاء المسيحية الغربية كانت، في القرنين الخامس والسادس، في حالة يأس شديدة. ومع ذلك، فإن البعض من معنلي الكنيسة المسيحية الكاثوليكية، اظهروا، في اسلك الساعات، روحا عالية. فقد مرك البابا ليو الاول (٤٤٠ - ٤٦١) الرا فعلا في مقررات المجمع المسكوني في خلقدونية (٤٥١)، وفي سنة ٤٥٢ قام بدور قيادي في سفارة رومانية اتحت لثالثا اثيلا (من المهون) بان يتوقف في هجومه على شمال ايطالية. وقد قام القديس باثريك بالتبشير في ايرلندا ليام كان ليو بابا لرومة. لقد كان القديس باثريك بريطانيا رومانيا ينتمي إلى الطبقة الاجتماعية ذاتها التي كان ينتمي اليها الاموري الروماني القديس اوغسطين. كان باثريك قد وقع اسيرا في ايدي لصروس ايرلنديين، واسترق. وقد حرب من الرق في ايرلندا وعاد اليها فيها بعد طوعا كمبشر مسيحي (حوالي ٤٣٢ - ٤٦٦)، وقد امتدت جنود النصرانية في ايرلندا، وفي القرن السادس تبني المسيحيون الارلنديون الرهبنة بنوعها الانفرادي والجماعي.

وفي الوقت نفسه كان القديس بندكت ينشيء رهبته في مونتي كاسينو. وقد بدأ بندكت عمله حوالي سنة ٥٢٩، لما كانت ايطالية لا تزال تمتع بالسلام. وتوفي سنة ٥٤٧، لما كانت ايطالية تنطاشها الحرب الرومانية - القوطية. ومع ذلك فإن الرهبنة البندكتية لم تنشر في الحياة فحسب، بل انها انتشرت. وقد حمل الراهبة البندكتية وعمل في سبيلها البابا غريغوريوس الاول (٥٩٠ - ٦٠٤)، فقد جعل غريغوريوس بيته في رومة ديرا للبندكتيين، واصبح وايها هناك قبل ان يصيغ رسولا بابويا في القسطنطينية اولاً، ثم بابا في رومة.

كان على غريغوريوس، بوصفه بابا، ان يطمع سكان رومة من غلة الاملاك البابوية في صقلية. كما كان عليه ان يتفاوض مع اللومبارديين المعتمدين نيابة عن الامبراطورية الرومانية الشرقية. ومع ذلك فإن غريغوريوس كان له من عزيمته ان يرسل بعثة تبشيرية الى مملكة القوط في كست لدعوتهم الى اعتناق المسيحية، وذلك لما كان اللومبارديون

يقرعون ابواب رومة. وأقيمت هذه البعثة، بعد وفاة غريغوريوس، بعثة أخرى إلى مملكة نورمبريا الانكليزية. وقد تولى المبشر الروماني بولينوس العمل في يورك (٦٢٧ - ٦٣٢)، ولكن في سنة ٦٣٤ خلفه في منصبه المبشر الأيرلندي إيدان من أيرلندا، وهي جزيرة صغيرة تقع في مقابل ساحل اسكتلندا الغربي. وأقام إيدان ديراً في جزيرة لندسمارن (الأرض المقدسة) الواقعة مقابل ساحل نورمبريا.

كانت نتيجة دخول الرعية إلى أيرلندا قيام حركة تبشيرية هارمة. أسس القديس كولومبا الدير الأيرلندي على جزيرة أيرلندا حوالي سنة ٥٦٣. وقد توفي القديس كولومبا في أيرلندا سنة ٥٩٧، وهي السنة ذاتها التي أرسل فيها البابا غريغوريوس بعثة التبشيرية من رومة إلى كنت (في انكلترا). وحوالي السنة ٥٩٠ جاز مبشر أيرلندي آخر، هو القديس كولومبانوس من أيرلندا إلى بريطانيا ومن هذه إلى القارة وأسس ديراً في لوكسبيل (مقاطعة برغندية). ولوكسبيل هذه مركز رئيس لشبكة المواصلات في المستعمرات الفرنجية. وفي سنة ٦١٠ كان القديس كولومبانوس وقد وصل إلى بحيرة كونستانس، واجتاز الألب (٦١٣) وأسس ديراً في بوبو، في شمال غرب إيطاليا. وهناك توفي سنة ٦١٥.

الفراخ الذي تركه في نورمبريا المبشر الروماني بولينوس، الذي شرع في سنة ٦٣٢، ملأه المبشر الأيرلندي إيدان سنة ٦٣٤. وقد التقى الحقلان التبشيريان، الروماني والإيرلندي، في نورمبريا، كما اتفهما تشابكاً. وأصبح، من المحتمل أن تقوم مواجهة هناك بين الكتيعين الروماني والأيرلندي.

٥٥- قيام الكنيسة المسيحية وتقسيمها ٢١٢-٣٥٧

اسم الحدث للكنيسة المسيحية، في السنين ٣١١-٣١٢ بشكل مفاجيء وغريب. فبعد ان كانت قد تحملت لساني سنوات من أشد وأسوأ اضطهاد عرسته على يد الحكومة الرومانية الامبراطورية جاءها أولاً تسامح على يد الامبراطور غاليريوس، وهو على فراش الموت، وان كان تسامحاً منحه الامبراطور على مضض. ثم، وفي غضون ثمانية عشر شهراً، احتلت، على يد الامبراطور المستمر قسطنطين، موضعاً مفصلاً عليها؛ وكان قسطنطين قد وصل الى السيادة الفعلية لنصف الامبراطورية. ومثل هذه التجربة كان مقبضاً لها، في أي زمن من تاريخ الكنيسة كان حدوثها، ان تضع الكنيسة وشخصيتها على المحك؛ ولكن الكنيسة كانت شخصيتها ومنزلها قد تصحفتا في القرن الثالث، بسبب تضخم عدد أتباعها وازدياد ثروتها ونفوذها، وترتب على ذلك ان أصبحت الوظائف الكبرى في الكنيسة تقري طائفي المصالح. فقد وقع في سنة ٢١٧ ثالسي دنيء حول اسقفية رومة. وتعرضت الكنيسة لبعضاً لاضطهادات (في السنوات ٢٥٠ و ٢٥٧-٢٦٠ و ٣٠٣-٣١١) كانت أكثر انتظاماً واعنف من الاضطهادات القصيرة الحادة المحلية التي عرستها في القرنين الأولين من تاريخها. وإذا كانت اسقفية كالستروس الأول لرومة (٢١٧-٢٢٢) تبدو أبعد ما يكون عن الاحترام، فان استنهاد كيريوس، اسقف قرطاجة (٢٥٨)، يزيل تلك الرخصة.

كان الباعث لغاليريوس على اضطهاد الكنيسة، مثل الباعث لقسطنطين في كرمه سحرها. منه ان وضع اورليانوس الامبراطورية تحت نفوذ « الآله الذي لا يقهر » (أي الشمس) في مجمع الآلهة (غير المسيحية) الامبراطورية، أصبح من المعترف به ان وحدة الامبراطورية، بل حتى بقاؤها، لا يمكن ان يتم دون دعم من ديانة رسمية. وكانت الامبراطورية السلطانية قد اختارته قبل نهاية القرن الثالث، المؤسسة الدمية

الزرادشتية ديانة رسمية لها، بما في ذلك تنظيمها الكهنوتي. ومثل ذلك يقال في مملكة أرمينية التي اتخذت الكنيسة المسيحية ديناً رسمياً لها. وبعد أن اعترف غاليريوس بأن الكنيسة المسيحية كانت أقوى منه وبعد أن ثبتت لقسطنطين عياناً قوة الكنيسة المسيحية، وذلك لما انتصر بعد أن رأى الكتابة المشهورة في حلمه، كان لزاماً عليه أن يري في المسيح « الآله الذي لا يتهرأ » (أي الشمس) وأن يتخذ من المسيحية الدين الذي يوحد الامبراطورية الرومانية.

كان من الطبيعي أن ينتظر عن الكنيسة المسيحية عندما تصبح لها المكانة الرسمية، أن تدعم وحدة الامبراطورية الرومانية دعماً قسالياً. فالكنيسة نجحت، إلى سنة ٣١١، نجاحاً كبيراً، في الحفاظ على وحدتها، وهذا امر حري بالاعتبار. ان الكنيسة المسيحية منذ تأسيسها بعد وفاة المسيح، كان يفلوها مهدداً بسبب الانشقاق الداخلي، إلا أن هذا التهديد كان يفتلب عليه باستمرار. فاما أن يُعرض للمشقة، واما أن يُثلب الفريق الاضعف على امره، أو يطرد. في سنة ٣١١ كانت لكنيسة الكاثوليكية (أي الجامعة) وحدة من أورزوني وأرمينية في الشرق إلى برطانية في الغرب، وفي تلك السنة تحررت الكنيسة، على كلى، من الضغط الذي كان يجد حثيل في دوره الاخرى وعندها عجزت وحدة الكنيسة التكريفية عن الصمود لما وضعت على المحك. فالانشقاق السابق الذي عرفه سكان الامبراطورية بين المسيحيين وغير المسيحيين حل مكانه الآن انشقاق في قلب الكنيسة بالذات. والحكومة الرومانية الامبراطورية التي كانت، منذ اعتناق قسطنطين المسيحية، تراءى على أن تدعم وحدة اكنيسة وحدة الامبراطورية، وجدت نفسها عاجزة عن اتقاء للفرقاء المسيحيين المتخاصمين على إحلال السلام فيما بينهم. وقد اربكت الانشقاقات الكنسية الداخلية قسطنطين الأول منذ أن اعتنق المسيحية (٣١٢) إلى حين وفاته سنة ٣٢٧. وكانت لا تزال غريبك كونستانس الثاني (حكم ٣٤١ - ٣٦٨). والخلاف الذي كان قائماً بين حكومة القسطنطينية الامبراطورية والبابوية أيام كونستانس الثاني، حله العرب المسلمون (فتحهم بلاد الشام ومصر) إذ حلصوا الامبراطورية من جميع المسيحيين القتالين بالطبيعة الواحدة للمسيح، وهكذا أخذت الحكومة الامبراطورية من التزامها اللاعقلي وهو التوفيق بين عقبتين مسيحيتين بمنحبل التوفيق بينهما.

ومع ان الانشقاق الكبير في الكنيسة المسيحية الذي جاء في أعقاب ٣١١ - ٣١٢

كان مدعاة للازعاج بالنسبة الى قسطنطين وعقيلته، فانه لم يكن من الممكن نجبه. ذلك انه لما أصبحت المسيحية الدين الرسمي للامبراطورية الرومانية، وكان من نتيجة ذلك ان اصبح المسيحيون اكثرية السكان، لم يكن باستطاعة الحكومة الامبراطورية ان تتحكم بالكنيسة اكثر مما كانت تستطيع التحكم بها في الوضع السابق لذلك، لما كانت اقلية غير مسيحية. وليس في ذلك غرابة، فالمسيحية كانت قد ورثت من سابقتها الكره التقليدي للحلول الوسطي.

بضاف الى ذلك ان المشكلات الدينية أصبحت، في الوضع الجديد، صنوا للمشكلات الاجتماعية والسياسية. فالخصومة بين المسيحيين الكاثوليك والمسيحيين الدونائيين، أصبحت خصومة بين نوميديا وقرطاجنة، كما أصبحت خصومة بين الفلاحين ومالكي الارضين. ولاهوت ثريوس، الذي هزم انتحرا في نطاق الامبراطورية، اصبح الشارة المميزة للبرابرة الدهن كانوا بها جرمون الامبراطورية. وهؤلاء البرابرة اعتنقوا المذهب الاربوسي في وقت كان هذا المذهب في صعود في داخل الامبراطورية. والجدل حول تركيب الثلاثون صارا نزاعاً على السلطة الكهنوتية بين الاسكندرية (عاصمة النبطانية السياسية السابقة) وانطاكية (العاصمة السياسية السابقة للسلاويين). والجدل الذي قام بعد حول العلاقة بين الطبيعة البشرية والطبيعة الالهية للاندرم الثاني (اي الابن) آل ايضاً إلى خصومة بين الحكومة الرومانية الامبراطورية ورعاها الناطقين بالسرمانية (في بلاد الشام) والناطقين بالقبطية (في مصر). فقد تحدى هؤلاء وقها بقوة اللغة اليونانية التي فرضها عليهم الاسكندر الاكبر والتي حافظت على وجودها بسبب السلطة الرومانية، فيما كانت الحكومة الامبراطورية تجهد في الحفاظ على سيطرتها عليهم. وبهذه المناسبة فان المجمعين المسكونيين الثاني والرابع يرا لبطريركة القسطنطينية الفرصة لتثبيت وجودها. فالمجمع الثاني (٤٣١م) اعترف بان كرسي القسطنطينية يعني الثاني بعد الكرسي الروماني. والمجمع الرابع (٤٥١م) منع بطريرك القسطنطينية سلباً قضائياً دينياً على اسية الصغرى (الى الشمال الغربي من سلسلة جبال طوروس) وعلى الطرف الشرقي من شبه جزيرة اليونان.

إن الخلافات الدينية التي عرفها القرنان الرابع والخامس لم تكن مجرد قناع للخصومات المعنوية التي كانت نظيرة لها. إن القضايا الاخلاقية واللاهوتية والقضائية التي انقسم المسيحيون حولها كانت اصلية، والشعور والاحساس اللذان انارتها هذه

القضايا كانوا مخلصين وواسعي الانتشار. لقد كان ثمة سبب عملي كان يدعو إلى ان نشيك المشكلات المسيحية الدينية مع المشكلات المدنية الامبراطورية بعضها بالبعض الآخر. لقد أصبحت الكنيسة المسيحية المؤسسة النافذة في الامبراطورية الرومانية، وترتب على ذلك ان جميع الشعوب والمناطق وبلدان الشعب والاحزاب التي تصمها الامبراطورية كانت مرتبطة مصالحها بما يهم الكنيسة.

كانت القضية الخلقية اول قضية برزت على المسرح أثناء الاضطهاد الذي وقع في سنوات ٣٠٣، ٣١١ وكذلك أثناء الاضطهادين اللذين حصلوا في القرن الثالث. تراجع بعض المسيحيين عن ايمانهم، فيما صمد البعض الآخر ودع الاستشهاد ثناءً لسموده. والسؤال الذي طرح عندها: هل يقبل اولئك الذين تراجعوا من المسيحيين في جماعة المؤمنين الى جانب اولئك الذين صمدوا؟ ام ان المتراجعين يجب ان يوصموا بذلك الى الأبد؟ واغلب الذين ظفوا احياء من اعضاء الكنيسة كان موقفهم يتصف بالكرم النفسي والانسانية والحنكة. فقد كانوا الى جانب التسامح مع اولئك الذين ضعفوا. والمتشددون من ابناء الكنيسة، وهم قلّة في الغالب، غلبوا على امرهم في معظم المناطق. ولكن في شمال غرب افريقية كان خصوم التوفيق مترتبين الى ابد الحدود. فقد خاصموا صانعي السلام الذين لم يخذش سمعتهم، كما خاصموا المتراجعين من المسيحيين، وهم الذين اراد المسالمون ان يتماضوا عن تصرفهم. وقد اشعلت هذه الخصومة في شمال غرب افريقية الى حد حثت قسطنطين على التدخل سنة ٣١٣، وهي السنة التالية لاعتناقه المسيحية. كان قسطنطين يرى ان الخلاف داخل الكنيسة المسيحية امر مكروه امام الله، وانه اذا فشل الامبراطور في وضع حد لهذا الخلاف، فانه يكون، هو والكنيسة، امام احتمال ان يخسر الدعم الالهي. وجرب قسطنطين التوفيق بين المتخالفين الأفارقة، بالاتفاق لولا، ثم بالقوة، لكنه سقط في يده.

إن القضايا اللاهوتية التي دار الجدل حولها بين سنتي ٣١٧ و ٦٥٧، كانت قد بدت اصولها في المعتقدات المتعلقة بالمسيح على ما تضمنته الاناجيل الأولى والثالث والرابع. من الطبيعي ان تكون هذه القضايا قد اثرت قبل سنة ٣١٢؛ وحقبة الامر هو انه منذ القرن الثاني، كان ثمة مسيحيون يستطيعون الجدل اللاهوتي مستخدمين في ذلك الحدود الفلسفية الهلينية، وقد فعلوا ذلك - وعلى سبيل المثال هناك عمل اريتايرس المسمى « ضد البدع »، الذي وضع حوالي سنة ١٨٥. لكن اتحاد الكنيسة

المسيحية على أنها الدين المفضل، نقل الخلافات في اللاهوت المسيحي إلى قضايا إمبراطورية عامة. يضاف إلى ذلك أن النخبة المثقفة ثقافة هيلينية، ظلت، على وجه الخصوص، متحملة تجاه المعتقد المسيحي، إلى أن قدم لها في الحدود الهلينية. وبسبب هذين العاملين، كان قيام جدل واضح ومجهد حول القضايا اللاهوتية أمراً لا مفر منه، وذلك فيما بعد ٣١٢. وبسبب أن المسيحية تكره الحلول الوسطى فإن هذه المجادلات كانت تنصف بالمكابرة والصف.

لما وضعت الانجيل الأول والثالث والرابع كان ثمة جماعة من المسيحيين يعتقدون بالوحدة المسيح. وبموجب ما جاء في الانجيلين الأول والثالث، لم يكن للمسيح أباً فقد حملت به أمه البشرية بروح الله. وبموجب الانجيل الرابع فالمسيح هو كلمة الله المتجسدة. وقد كان لليهود قد توصلوا في هذا الوقت، إلى إضفاء نوع من الاستقلال على « كلمة الله » و « روح الله »، وهو وضع شبيه بما أضفته الزرادشتية على مظاهر أهورامزدا المتنوعة. إلا أن هذا كان الحد الأخير لما يمكن أن تقبل به اليهودية من التقليل لوحدة الله ووحدة الله. ولم يكن باستطاعة المسيحيين - ولا هم رغبوا في ذلك - أن يدبروا ظهورهم للتروحيد الذي ورثوه من اليهودية، لكن اتى لهم أن يوفقوا بين التوحيد وبين اعتقادهم بأن المسيح والله كانا الهين.

لقد نص على أن المسيح تحدث عن نفسه على أنه « ابن الله ». ويمكن تفسير الانجيل الثاني مجازاً بحيث يفهم منه أن الله أعلن للمسيح أنه اعتبره ابنه بالتبني. إلا أن الانجيل الثالثه الأخرى كانت تضمن أن المسيح هو ابن الله بالمعنى الحرفي للكلمة، أي أن الآبوة كانت على نحو ما كانت عليه الحال بالنسبة للفراصة (منذ زمن الأسرة الخاصة) من حيث إضفاء الآبوة الإلهية. وسواء أكان للمسيح لها في واحد من هذين السبعين المحتلين أو الآخر، فالامر الذي لا شبهة فيه هو أنه كان بشراً سوياً. وإذا، فإذا كان ابن الله بالمعنى الحرفي، فهذه الحقيقة أثارت قضيتين: الأولى علاقة الابن بالآب، والثانية العلاقة بين الطبيعتين الإلهية والبشرية للابن نفسه. كما أنها أثارت قضية ثالثة هي منزلة أم المسيح مريم للمؤمنين. فقد كانت بشراً ولم تكن الهة. فهل من الممكن أن يطلق عليها اسم « أم الله » (ثيوتوكوس) باعتبار الطبيعة الإلهية لابنها؟

واللاهوتيون المسيحيون، لما سألوا أنفسهم هذه الأسئلة كانوا يتقنون « الكلمات » إلى مذاق خارجة عن نطاق التجربة البشرية. وقد وصل هؤلاء اللاهوتيون إلى هذه الاتفاق

لأنهم كانوا يتكلمون ويكتبون باليونانية. والناطقون باليونانية كانوا قد أخذوا أنفسهم، منذ قديم نهيأة القرون الخامس قبل الميلاد، يتعاملون مع الكلمات كما لو كانت الكلمات حقائق، حتى عندما تكون الكلمات أموراً ليس لها نظير لا في عالم الفكر ولا في عالم الظواهر. وقد وجد قسطنطين الأول نفسه، في السنة ٣٢٤. وقد خابت آماله في حل الخلاف في شمال غرب أفريقية حول المسيحيين المترجمين هناك - أنه مضطر إلى التدخل في خلاف حول علاقة الأب بالآب. هذا الخلاف كان قد نشب بين أسكندر، أسقف الاسكندرية، وليرس الذي كان راعياً من رعاة أسقفية أسكندر بالذات. وقد كتب قسطنطين إلى كل من المتخاصمين بأن القضية المختلف عليها بينهما لم يكن من الجائز إثارتها بحد. وفي سنة ٦٤٨ مع كونستانس الثاني، منعاً بأن أي نقاش حول القضية اللاهوتية المسبحة التي كانت سائدة في زمنه، وهي لهما إذا كان للمسيح مشيئتان وعملان أم مشيئة واحدة وعمل واحد.

من المحتمل أن الكلمات التي كان الخلاف يدور حولها في سنتي ٣٢٤ و ٦٤٨ (وفيهما بينهما من السنين) قد تحمل معنى لو لا تحمل أي معنى، ولكنها من المؤكد أنها أثارت شعوراً عارماً. وقد ترجم هذا الشعور بشكل عنف جسدي. فلجئ إلى التهديد بين الرهبان المصريين وطلبة الذين من أهل الكهنوت وبين البحارة في المجموع المسكونيين اللذين انتمدا في القسوس في سنتي ٤٣١ و ٤٤٩. وفي المناسبة الثانية أوقع المصريون اضراً جسدياً بطريرك القسطنطينية فلانتيانوس. وقد عجز جميع الإمبراطرة، من قسطنطين الأول إلى كونستانس الثاني، على حمل اللاهوتيين على الصلوات. فقد اضطر قسطنطين الأول على عقد المجمع المسكوني الأول في نيقية (٣٢٥)، وروحه بنفسه وصاغ هو كلمة هوموسيوس (مساوي الجوهر) - وهي كلمة من النوع الذي كان يسمته من قبل. وقد بدأ وكأن ثنائيسوس، خصم أريوس، الذي خلف أسكندر أسقفاً على الاسكندرية (في سنة ٣٢٨) قد ربح الجولة. ومع ذلك فقد اضطر ثيودوسيوس الأول إلى عقد المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية (٣٨١)، ولكن حتى يومها لم تلق القضية التي أثارتها أريوس صحتها النهائية. فقد حمل المبشر القوطي أولفيلاس (حوالي ٣١١ - ٣٨٣) إلى الشعوب الجرمانية الشرقية المسيحية بشكلها الأريوسي. وقد كان الامبراطور قسطنطين الثاني وفالاريوسين. ولما كان أولفيلاس معاصراً لهما فقد حسب أنه كان يشر بالمسيحية بصيغتها الدائمة

علما حاكم الجرماني الشرقيون الامبراطورية، حملوا المسيحية الاربوسية معهم. والامر الذي اصدره كونستانتس الثاني (٦٤٨) بوجوب الامتناع عن البحث في الموضوع، اثار احتجاجاً صاحباً من البابا ملوتين الاول. ولم يخلد البابا الى المصمت إلا لما القي القبض عليه، ولؤديه، ونفي الى شبه جزيرة للقرم.

لم ينف لرهوس ان الابن هو الله. ففي حياته (حوالي ٢٥٠ - ٣٣٦) كانت العقيدة بالوهبة المسيح قد انتشرت في الكنيسة المسيحية. وقد ظل للغاليليين بهذا الرأي وجود في الاماكن ذات المنفعة الطبيعية، في اطراف العالم المسيحي. في الجبال الروانمة بين راندي الثمرات الاعليين وفي جبال الهراتيس وفي استوريا. لكن لرهوس اصر على القول بان الابن خلقه الاب ومن ثم فالابن لا يستوي والاب زمناً، وليس هو كفوا له. ومجمع نيقية (٣٢٥) وضع الاقانيم الثلاثة (الاب والابن والروح القدس) في درجة واحدة مطلقاً. وقد اكد المجمع، في الوقت ذاته، على ان الاقانيم الثلاثة هي الله الواحد. وهذا الدمج بين التوحيد والتثليث هو امر كلامي. فالنتيجة الحقيقية لمجمع نيقية كانت وضع الابن في درجة اله ثلث. واصبحت المسيحية الآن « موحدة » بالاسم فقط.

ونالاه الابن كان انتصاراً لوجهة النظر المصرية، (مع ان لرهوس كان كاهناً في كنيسة الاسكندرية، فان رأيه اللاهوتي كان تطلقياً). وفي مجيئي انفس (٤٣١ و ٤٤٩) سار المصريون خطوة ابعد. ففي سنة ٤٣١ نجحوا في الحكم على نسطوروس، بطريرك القسطنطينية. ونسطوروس كان قد اصر على الناحية البشرية في الابن، بان رفض تسمية العذراء « ام الله ». ومن ثم فقد وصم النساطرة بانهم اصحاب الطبيعة (اي المؤمنون بان الابن كانت له طبيعتان غير متحدتين). وقد كان انكسار نسطوروس انكساراً مهادناً لسفيرة التلاكية اللاهوتية في حدود الامبراطورية الرومانية. والامبراطور انطيموس، القابل بمذهب لطبيعة الواحدة، اتفقت مدونة (دسا اللاهوتية (٤٨٩) وهي التي كانت نسطورية للترعة. لكن اللاهوتيين النساطرة وجدوا متجنباً آسأ في نصيبين التي كانت منذ سنة ٣٦٣، تقع خارج الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية. ومن ثم فان النسطورية، مثل معاصرتها الاكثر راديكالية اي الاربوسية، وجدت مجالاً للبقاء - خارج الامبراطورية الرومانية.

سار المصريون في سنة ٤٤٩ خطوة اخرى ابعد من تلك التي ساروها في سنة ٤٣١

. فقد رفضوا المعتقد القائل بأن الآين له طبيعة واحدة، وهي الطبيعة الإلهية، فيما هو متجسد في جسم بشري. لكن المجمع المنعقد في خلقندونية (٢٥١) للملأ اعمال (قرارات) المجمع المنعقد في افسس سنة ٤٤٩. واعلن بمزمها ان للمسيح طبيعتين - الالهية والبشرية - اتحدتا في شخص واحد. وقد لقي المصريون الآن ما لقيه النساطرة من قبل، فقد وصموا بانهم منشقون.

لقد وصم المصريون بذلك، إلا انه لم يكن من المستطاع لا طردهم ولا ارغامهم. فإذاعة اللاهوتية التي انتهت بالقول بالطبيعة الواحدة كانت في مصر حركة جماهيرية. وهذه الحركة وبحث سورية الى جانبها، وهي الميلاد التي كانت من قبل قد أصرت على الناحية البشرية في طبيعة الآين. والقول بالطبيعة الواحدة اسرت ارمينية أيضاً. فقد اخذت الكنيسة الارمنية بالطبيعة الواحدة سنة ٤٩٦، ولم تجر الحكومة الامبراطورية الرومانية لما ارتدت هذه، في سنة ٥١٨، من الطبيعة الواحدة الى المنصب الخلقندوني. فقد استقر الارمن على صيغة للمسيحية اختلفت عن اللصين الرومانية والفارسية. فاصحاب الطبيعة الواحدة وصموا الخلقندونيين بانهم من اصحاب الطبيعتين الفريين من النساطرة، وملكيين (اي اتباع الحكم الروماني الامبراطوري). ومن سنة ٤٥١ فما بعد كان على الحكومة الامبراطورية ان تحاول ارضاء الفريين من رعاياها - الخلقندونيين واصحاب الطبيعة الواحدة. ولم يكن باستطاعتها ان تنشر اصحاب الطبيعة الواحدة، ذلك بان مصر وسورية (القائلتين بالطبيعة الواحدة) كانتا، من الذحية الاقتصادية، عماد الامبراطورية الرومانية الشرقية.

في سنة ٤٨٢ اصدر الامبراطور زينون قانون الواحدة، الامر الذي ادى الى صدع بين الامبراطورية الشرقية والبابوية. ولما حكس جوسين الاول (٥١٨) سياسة زينون واتسانسوس الاول، وهي السياسة المسالمة للطبيعة الواحدة (ولا ريب في ان جوسين عمل ذلك بالحاح من ابن اخيه وخليفته جستنيان) تأثر اصحاب الطبيعة الواحدة سياسياً بذلك. وقد وجد جستنيان نفسه مضطراً (حوالي سنة ٥٤٣) الى القيام بمحاولة للارضاء لم تكن ذات اثر، وذلك انه وصم لاحقاً المعتقدات الثلاثة التي نال بها لاهوتيو القرن الخامس بالنسبورية.

(في الفترة التي مرت بين ٥٠٨ وسنوات ٦٢٣-٦٤٦) وهذه كانت السنوات التي كان فيها العرب المسلمون يفتحون فلسطين وسورية ومصر) كان رعايا

الامبراطورية الرومانية الشرقية من اصحاب الطبيعة الواحدة في حالة ضيق. إلا ان حظهم بعث لهم بثلاثة مؤنزين لشهداء: سبتروس اليسيدوني الذي كان بطريرك القسطنطينية (٥١٢ - ٥١٨)؛ وزوج جوستيان لامبراطورة ثيودورا (وكان جوستيان قد تزوجها قبل اعتلائه العرش في سنة ٥٢٧ وقد توفيت في سنة ٥٤٨، وكان لها من العمر خمسون سنة)؛ ويعقوب البرديعي، الذي كان احد المقربين من ثيودورا من اصحاب الطبيعة الواحدة. وقد عين يعقوب اسقفاً لاديسا (٥٤٣)، بناء على رغبة ملحة من الحارث، الامير الساساني الذي كان المشرف على المناطق الشرقية للامبراطورية الرومانية. وقد قضى يعقوب ما تبقى من حياته وهو ينتقل من مكان الى آخر فحفظ كنيسة الطبيعة الواحدة حية وذلك بان صام رجال دين من جميع الدرجات من اتباع هذا المذهب.

ولقد اضافت ثيودورا الى كنيسة الطبيعة الواحدة، منطقة جديدة خارج نطاق الامبراطورية الرومانية. فقد استعنت زوجها (حوالي سنة ٥٤٠) بان يبعث التوبين الى المذهب الذي تقبله هي بدل ان يمتنع القوم مذهب زوجها. وكانت مملكة اكسوم، الواقعة الى الجنوب الشرقي من نوبة (وهي اليوم الجزء الشمالي من اليبوس)، قد اعتنقت المسيحية حول منتصف القرن الرابع. وفي القرن السادس تلبثت اكسوم، كما تلبثت نوبيا، مذهب الطبيعة الواحدة، وكان على حكومة الامبراطورية الرومانية الشرقية ان تقبل بذلك. كانت اكسوم تسيطر على الطريق البحري بين مصر والهند، ومن ثم فان حاكمها كان في وضع يمكنه من التدخل في شؤون اليمن لخدمة المصلحة الامبراطورية الرومانية. ومن ثم فان القسطنطينية لم تراه من المصلحة ان تختلف سياسياً مع اكسوم حول قضية لاهوتية.

كانت احدى نتائج الفيلسوف التي مرت بها الكنيسة المسيحية في الامبراطورية الرومانية هي ٣١١ - ٣١٢ هي النفقة من الاستشهاد الى التمسك بالنسبة الى الدور البراق في حياة ابطال الكنيسة. فلم يعد ممكناً ان يستشهد مسيحي على يد غير مسيحي ضمن الامبراطورية. وكان ثمة حاجة الى نوع جديد من الابطال المسيحيين، وقد تقدم الناسك لتحقين هذا المطلب السيكلولوجي. وكان المتسك القديس انطونيوس (حوالي ٢٥١ - ٣٥٦) ابدع شهرة واكثر احراماً من اي مصري في اي عصر فرعونى الا ان المستقبل لم يمتنع امام انطونيوس المتسك بل انتفض امام مصري آخر، هو باخوم

(٢٩٠ - ٣٤٥) الذي أسس في نَيْسِي (في مصر العليا) أول اخوة مسيحية من الرهاد التي عاشت معا كجماعة منتظمة ومنظمة. إن الجماعات البوذية التي كانت تعيش على هذا النمط كانت معروفة في الهند عند ان أسس يونا الشنفا الخاص به، وذلك قبل جيل باخوم بما لا يقل عن ثمانية قرون. ولكن مجموعة الاديرة التي انشأها باخوم كانت حدثا في الطرف الغربي من لويكومين للعالم القديم.

كان لهذه المؤسسة التي انشأها باخوم اثر ثابت في حياة المسيحية جمعاء. ففي القرن الرابع قام القديس باسيل، وهو من كبادوكية (حوالي ٣٢٠ - ٣٧٩) بإنشاء رهبانية جماعية خاصة بالعالم الناطق باليونانية، كانت اقل صرامة من الصيغة التي فرضها باخوم، وهي التي اوحى للقديس باسيل بفكرته. وتأثر القديس بندكت بالقديس باسيل، ولو جزئياً، فظم ديرا في مونت كاسترو، الى الجهة الجنوبية الشرقية من رومة، ووضع له قانوناً، اصبح فيما بعد الاساس للرهبانية التي انتشرت في عالم اللغة اللاتينية، وقد تأصلت جذور الرهبنة، خلال القرن السادس، خارج حدود عالم اللغة اللاتينية، في اورلندا. ولقانونا باسيل وبندكت كلاهما فيها اثر من قانون باخوم. فقد استقى كلاهما من نظيرهما المصري، التشديد على الحياة الجماعية والنظام والعمل.

والتاريخ الروحي لباسيل وبندكت يشبه مثيله عند بوذا. فكل واحد منهم بدأ حياته ناسكا زاهدا قبل ان يقوم بتأسيس رهبانية خاصة به. وتحول باسيل وبندكت من صيغة القديس انطونيوس الى رعية باخوم، كان استعجالية منها للتجربة الروحية، كما كان ذلك شاهداً على حكمة باخوم. ذلك بان خلق باخوم لمنظمة الرهبنة الجماعية كان عملاً فذاً؛ لان المصريين كانوا، على العموم، اكثر انجذاباً نحو أسلوب التسك في الحياة. وفي حقيقة الأمر فان لهذه الطريقة ليوماً تحييا الى الناس هي غير موجودة في الطريقة الأخرى. فلتناسك له قانونه الخاص به، وحرية تجميع له فرصاً لتقوية الروحية، مع العلم بان هذه الحرية قد تؤدي به الى نكسة تواقفه في تعذيب انفس العقوم، او تلقي به في احتضان الاستعراض الذاتي. والمألوف انه حيث قبل الناس التسك اساس للحياة كانت شهرة الناسك متسبة مع درجة للقهو الجسدي الذي يمارسه. والصيغة الجماعية لحيطة للرهبنة اقل ألقاً. ومع ان الاديرة التي تبيت قانون باخوم شهرت في العالم المسيحي، فان نساك الصحراء الغربية (في مصر) كانوا اشد صيتا كان القديس انطونيوس لفتح الناس صيتا في ايامه في الطرف الغربي لويكومين للعالم القديم؛

ومثل ذلك يقال عن القسيس سمعان القامودي بلوره (سمي كفلك لانه عاش اربعين سنة ٤١٢-٤٥٩ على رأس عامود).
 والذي يعيش على رأس عامود يجر الجماهير لكن اثر الراهب الجماعي في المجتمع كان اخص واذكى ثماراً.

٤٦- المدفنية الهندية ٤٩٠-٦٤٧

كان اهتمام الهنود، في الغالب الأعم من فترات تاريخ شبه القارة الهندية، يتجه نحو الدين أكثر من اتجاهه نحو السياسة والاقتصاد. والمعلومات الأصلية لتاريخ شبه القارة الهندية غزيرة المادة بالنسبة للادب الهندي الديني. إلا أن هذا الادب هو، على كل حال، صعب تمهين زمنه. وحتى التسلسل الزمني لأصناف الادب المختلفة لا يمكن التأكد منه في جميع الحالات. والضوء الذي يلقه هذا الادب على الشؤون المدنية لا يعدو كونه مصادفة وفورية. ومعرفةنا عن التاريخ الهندي المدني تعتمد في الغالب على ما دونه اسراقبون الأجانب: الاغارقة والصينيون والمسلمون والأوروبيون. ومدرسة المؤرخين الهنود الذين اهتموا يبحثون في تاريخهم ويبنونونه على الأساليب الغربية الحديثة، هي مدرسة حديثة العهد، لا ترقى إلى أبعد من القرن الماضي. وحتى بالنسبة إلى عصر أسرة غيتا نجد أن الحاج البوذي الصيني ما - هسين، الذي زار الهند من ٤٠١ إلى ٤١٠ مصادره مهم للتاريخ الهندي. ومثل ذلك يقال عن حكم الامبراطور هرشا (٦٠٦ - ٦٤٧)، إذ أن حاجا بوذيا صينيا آخر، هو هزوان - تسانغ، كان في الهند بين سنتي ٦٣٥ و ٦٦٣ فزودنا ببعض المعلومات، ولو أنه توجد أخبار عن حكم هرشا خلفها مؤلف هندي كان من معاصري هرشا كما كان من رعاياه.

كان العامل المؤثر في تاريخ شبه القارة، بدءا من سنة ٤٥٥ وما تلا ذلك، انسياح الهون وغيرهم من الشعوب الأوراسية البدوية، مثل الغوزجاول. جاء هجوم الهون الأول في سنة ٤٥٥، وقد صدده سكانها غيتا، امبراطور عيتا، الذي كان قد تولى العرش حديثاً، لكن هجمات الهون تكررت، وانتهى الأمر بأن تقسمت امبراطورية عيتا تحت ضغط هجماتهم، وذلك بعد وفاة سكانها غيتا (٤٨٠)

رافق الصراع بين الحقيرين والشعوب التي كانت تقيم في شبه القارة نقليات كثيرة.

مقد رُذ الهون (٥٢٨) إلى كشمير. ولكن حوالي سنة ٥٥٨ (او ٥٦٢ - ٥٦٧) نفسي على دولة الهون الأقاليمية (الهطلية) في حوض سيحون - جيحون، وذلك نتيجة عمل مشترك قام به الفرس والأتراك. وقد انقسم المنتصرون املاك الاقاليم (الهطلي) فيما بينهم؛ ولما لم تخش ان الهون الذين كانوا قد اقاموا لهم موطن في الهند قد وصلتهم الآن امدادات من اللاجئين من الاقاليم (الهطلي)، وعلى كل حال ما جرى بعد ذلك يظهر بما لا يقبل الشك بان المهاجمين لشبه القارة من البدو الأوراسيين في هذا الانسحاب السكاتي كانوا كثرة. فنحن نعرف انه لما فتح العرب المسلمون السند والملتان سنة ٧١١، كانت منطقة شمال الهند تقع تحت حكم طبقة مدنية تسمى الراجبوت (اولاد الملوك)، ويبدو هؤلاء وكأنهم احفاد المهاجمين الذين اصبحوا هنودا.

صد المهاجمين مرة ثانية والد الامبراطور حرشا، الذي كان ملك ستانفادا (تاسار) الواقعة في المجرى الأعلى لنهر جينا. وقد نجح حرشا نفسه في توحيد شمال الهند سياسيا، ٦٠٦-٦١٢، ونعم هذا الجزء من الهند بفترة من الهدوء فيما تبقى من حياة حرشا. لكن امبراطورية حرشا بالذات لم تكن سوى مظهر كاذب لامبراطورية غيتا. كانت ميزة حرشا الرئيسية تسامحه الديني. فقد كان هو نفسه سايفا، أي من عباد الشمس، كما كان بوذا.

بعد فترة من الانقسام السياسي في شمال الهند، الذي عقب وفاة الامبراطور اشوكا ماوريا (٣٣٢ ق.م)، وجدت الدكن سياسيا تحت امرة ستافاهانا (اندرا). وبعد تقسم امبراطورية غيتا حوالي سنة ٤٩٠م، بدأ وكأن التفرغ قد يمد نفسه. فقد وجدت الدكن سياسيا (حوالي سنة ٤٥٣ م) على يد أسرة تشالوكيا. وفي سنة ٦٢٠ كسر حرشا على يد هولاكيشين الثاني تشالوكيا، حينما كان حرشا يحاول التوسع في امبراطوريته إلى الجنوب عبر نهر نربادا. وعلى كل فقد جلبت لمررة تشالوكيا نفسها على يد منافستها أسرة بلانا الهندية الجنوبية، التي كانت قد اقامت لنفسها ملكا في كانشي (كونشيفورم) على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة. (لعل أسرة بلانا كانت متحللة من الهلانا أي السكا - الفريشين الذين كانوا قد تحكموا في حوض السند في السنوات المبكرة من القرن الاول للميلاد). وقد ظلت الدكن، خلال القرنين التاليين لسنة ٦٤٢، مزعة بين دول محلية كانت تقوم بينها حروب مزمنة، لكنها لم تكن فاصلة.

والمسطقة الوحيدة التي تمتعت باستقرار سياسي في جنوب الهند بين حول سنة ٤٩٠ و ٦٤٧ كانت مملكة بندا، التي استمر وجودها بسبب عزلتها السية في طرف شبه الجزيرة الجنوبي. والظاهرة الحضارية الوحيدة التي استمرت في الجنوب في الفترة نفسها كانت في تطور الادب المكتوب باللغة التاميلية، وهو الادب الذي بدأ ظهوره في وقت مبكر من التاريخ الميلادي.

إن المحنة السياسية التي أصابت شبه الجزيرة الهندية بعد بدء هجمات الهون (٤٥٥) لم تحل دون انتشار المذنية الهندية خارج الحدود الوطنية لشبه القارة. فالامبراطورية غبنا وانفجرتا تكثيف لنشر الافكار الهندية في جنوب شرق اسية القاري واندونيسيا. وكان ثمة فورة في الهجرة الى تلك المناطق من الهند في القرن الخامس، ولما ان نحسب ان ضغط الهون على الهند كان احد اسباب هذه الهجرة. وظل نفوذ المذنية الصينية في جنوب شرق اسية القاري محصوراً فيما يطلق عليه الآن شمال فيتنام. وتنافست المدينتان الهندية والصينية على النفوذ في التبت في النصف الاول من القرن السابع، وقد تم التفوق للمذنية الهندية.

مع ان التبت تقع على مقربة من مهد كل من المذنتين الصينية والهندية، فانها ظلت معزولة عن كليهما، بسبب العوائق الطبيعية لكبرى، بحيث ان ايا من المذنتين لم تنفذ اليها حتى السنوات المبكرة من القرن السابع للميلاد. وقد توحدت التبت سياسياً للمرة الاولى سنة ٦٠٧، وقامت ذلك كان تقليدا لعودة الوحدة الى الصين سنة ٥٨٩. وفي سنة ٦٤١ تزوج ملكها سرونغ - تانغ، في وقت واحد، اميرة صينية واميرة نيبالية. وفي ذلك التاريخ بالذات كانت الصين في دور التقدم. في ٦٢٩ / ٦٤٠ كان تاي تسولنج، الامبراطور الثاني من اسرة تانغ، قد بدأ حملته لفتح حوض تاريم، البلاد التي تقع الى الشمال من التبت مباشرة. وكان رسول صيني في بلاط هرشا في الوقت الذي توفي فيه هرشا، سنة ٦٤٧. واستولى منتصب على عرش هرشا، واساء معاملته الرسول وحاشيته، وعندها هرب الرسول الصيني الى نيبال، التي كانت يومها تحت سيطرة التبت. ثم هاجم الملك سترنغ - تان غاميو صاحب التبت الهند، بناء على تحريض الرسول الصيني، وقتل على المنتصب واسره ثم ارسله اسير حرب الى الصين وعلى كل حال فقد استحوذت المذنية الهندية على مشاعر التبت وذلك عن طريق ايجاد كتابة للغة التبتية مبنية على الاسلوب الهندي. وكانت هذه الكتابة بالذات، لا الكتابة

الصينية، هي التي استخدمت في ترجمة آحتون السنسكريتية للكتب البوذية الماهايانية إلى اللغة النيبالية. وهذه الترجمات ربطت التبت ثقافياً إلى عجلة المدنية الهندية. ومن ذلك المحزن لم يعد التأثير الثقافي الصيني في التبت ذا تفوق، مع أنه لم يكن غائباً عن المسرح التبتى.

١٧- تمزق الصين السياسي وفتشار البوذية فيها ٢٢٠-٥٨٩

لما جعل الامبراطور هان وو - تي (حكم ١٤٠- ٨٧ ق.م) الوظائف العامة في الامبراطورية الصينية حكراً على العلماء الكونفوشييين، على ان يكون اختيارهم على اساس امتحانات مسبقة، كانت غاية (على ما اشر اليه في الفصل ٣٥) ان يفتح ابواب العمل في الوظائف العامة لاصحاب المواقب الفكرية. وترتب على ذلك ان تمكن هؤلاء العلماء - المديرون الكونفوشيون - من اعادة استعمال سلطتهم بان استولوا على مساحات شاسعة من الاراضي. ففي عصر لدول الصينية المتعارية كانت هناك طبقة الطاعية ارسنقراطية. هذه الطبقة صفاتها مؤسس الامبراطورية الصينية، تشن شبه هوانغ - تي، ومؤسسها الثاني، هان ليو بانغ (كاو - تسو) وذلك لانهما ادركا ان السماح لكبار الملاكين بالاستمرار، فلنهم يواحدون الحكومة الصينية الموحدة الحديثة النشأة، في الاستيلاء على القامص، من غلات الفلاح الصيني. وهذا الفائض هو المصدر الرئيس لضرائب الحكومة في الصين، ما دام اقتصادها يقوم على الزراعة اصلاً. واذا اصبح العلماء - المديرون في امبراطورية هان وو - تي ملاكين كباراً، فلنهم اعادوا الى الحياة من جديد طبقة اجتماعية من السواطين الذين تقربوا بحيث انهم يستطيعون تحدي الحاكم، حتى في دولة صينية موحدة.

كان تجميع القوى في ايدي المديرين - الملاكين (للاراضي) امراً جذباً بالاهتمام. فقد حوّلوا القسم الاكبر من فائض الفلاحين الى جيوبهم باعتباره ايجاراً للارض، عوضاً عن ان يجمعوا للحكومة حصتها الحقيقية، من هذا المصدر، اي ضرائب وسخرة. وانصرف المديرين - الملاكين الى الاهتمام بمصالحهم الخاصة على حساب الواجب العام ادى بالاسرة النهائية الثرية الى نهاية مفاجئة (٩٠ م). فقد حاول وائع مانغ الدفاع عن حقوق الحكومة الامبراطورية والفلاحين، وهي مصالح متفقة، ضد

مصالح المديريين - للملاكين، ولكنه فشل. والذي حدث هو ان الاسرة الهانوية الشرقية اعادت الى الوجود النظام الذي كان اساس غراب الهان الغربية. وقد اتيح لهذا النظام ان يربح بسبب نقص السكان في الصين اثناء المتزاعات الداخلية (١٦٨ - ٣٦٦ م)، الا ان العلة الاجتماعية للمستعمرة في الامبراطورية انتهت باسرة الهان الشرقية الى نهاية منجعة بدورها.

وتقسم الامبراطورية (٢٢٠ - ٢٢٢) الى دول خلافة للهان الشرقية قوى العلة الاجتماعية في الصين. فمشكلتها الزراعية التي لم تحل تعقدت كثيراً بسبب الحرب الأهلية، وقد وحدت الصين ثلاثة في ٢٦٥ - ٢٨٠. فقد احتلت واحدة من الدول المتحاربة الثلاث الدولتين الاخرتين. الا ان الاسرة الامبراطورية الجديدة (تشين) فشلت في حل مشكلة الاراضي على نحو ما فشلت سابقتها. ومن ثم فقد تقسمت اجزاء صغيرة (٢٩٠). وفي ٣٠٤ وما بعدها هاجمت شمال الصين جماعات حربية بربرية جاءت من الاطراف الشرقية للسهوب الاوراسية. ومما يدعو الى الدهشة ان هذه المكبة لم تحل بالصين قبل ذلك.

كانت احوال الصين في القرن الثالث للبلاد شبيهة باحوال العالم اليوناني - الروماني المعاصر له. ففي الصين، كما في حوض البحر المتوسط، كان هناك فراغ روحي. فقد غسرت الكونفوشية مكانتها بسبب ان الموظفين الكونفوشيين اساءوا استعمال سلطتهم. وادى سعيهم وراء الترفع الفاني الى تقسم الامبراطورية مرتين. وفي اواخر القرن الثاني، فيما كانت حكومة الهان الشرقية تعاني سكرات الموت دخلت الاقلية المفكرة عن الكونفوشية الى منافستها الفلسفة الطاوية فيما كانت الجماهير تتحسس سبل الخلاص في ديانة شعبية هي الطاوية اسما. الا ان ثورات الفلاحين التي اشعلتها وفادتها هذه الطاوية الشعبية، قضى عليها مادة الحرب الذين كانوا يقومون جيوشاً خاصة محترفة، وهم الذين اسوا الممالك الثلاث. والطاويون الفلاسفة انعطفت فيحتم لا لانهم اساءوا استعمال السلطة، على ما فعل منافسهم لكونفوشيون، بل لانهم تحاشوا تحصيل المسؤولية. فقد فضلوا ان يتعموا بميلاج الحياة الخاصة. وهم اذ اتخذوا هذا الموقف السليبي، كانوا اميين للتقليد الطاوي. فقد كانت الطاوية، اثناء نشوئها في عصر الدول المتحاربة، تنفص من النشاط العملي، الاقتصادي والسياسي. وكان مثلها الاعلى الساطة لاجتماعية على ما عرفت في عصر ما قبل المدنية.

وهذه الفلسفة السلطية لم تف بحاجات المعكروين الصينيين لا في القرون الرابع قبل الميلاد، ولا في القرن الثالث الميلادي. فالذي كانت الصين بحاجة ماسة إليه، في القرن الثالث الميلادي، هو حل لمشكلة الأراضي. ولذا تعذر ذلك، فعزوع روجي اكثر وماء لحاجاتهم من الطلوة التي لم تنفع المتطلسين. وقد عولجت مشكلة الأراضي في النهاية، في القرون الخامس على يد إحدى الجماعات الحربية البربرية (نو - با) التي هاجمت شمال الصين وإقامت هناك دولة باسم أسرة واي. وفي الوقت ذاته كان الفراغ الروحي في الصين تملأه تدريجاً البوذية الماهانية، كما كان هذا الفراغ في العالم اليوناني الروماني تملأه الحركة الروحية المعاصرة - المسيحية.

لنبدأ القرن الثاني كانت الماهايانا تنسرب إلى شمال غرب الصين من حوض سيجون - جيجون عن طريق وادي تاريم. قالهان الشرقيون كانوا قد عاودوا احتلال حوض تاريم وفرغاته في الحوض الأعلى لنهر جيحون (٧٧٣م). وقد كانت سلطتهم في هذه المستلكات في اسبة الوسطى موضوع نزاع مع امبراطورية كوشان التي قامت سنة ٤٨م وكانت تعتمد هندكوش. وقد استمرت امبراطوريتا الكوشان والهان الشرقيتان في مقابلة مباشرة، لمدة قرن على الأقل، حتى ضعفت الامبراطوريتان كلطاهما في الجزء الاخير من القرن الثاني. ووقع حكم كايشكا، امبراطور كوشان (١٢٠ - ١٤٤م) خلال هذا القرن ضمن المقابلة المذكورة. وكان كايشكا يرعى الماهايانا. ولم تكن المقابلة عدائية طول هذه الفترة. فطريق الحرب الصيني - الكوشاني، كان ايضاً طريق التحرير من الصفد إلى لويانغ. وفي حقيقة الامر فان الصين وما وراء النهر كانت على اتصال يكاد يكون مستمراً، اعتباراً من سنة ١٢٨ ق.م، وهي السنة التي تنبع فيها نشاط تشين، وهو سفير هان وو - تي، أثر اجداد كوشان في ما وراء النهر.

نُصح الطريق الطبيعي امام دخول الماهايانا إلى الصين في القرنين الثاني والثالث للميلاد. وكان المشيرون البوذيين في غاية الحماسة، وكان الصينيون المستعمل قبولهم للعقيدة على استعداد لثلاث بسبب جوعهم الروحي. لكن العامل الذي كان عثرة لم يكن طبيعياً، بل كان عقلياً. فالمقلان الصيني والهندي، بما في ذلك اللغتان والكتابتان (الصينية والهندية) كانا يعيدين كل البعد واحدهما عن الآخر. وفي كل من هذين العالمين كانت العقيدة المدنية المميزة لها مترابطة فيما بينها داخلياً. فقد كانت اللغة الصينية في هذا التاريخ، لغة غير معربة احادية المقطع، وكانت الاشارات، المستعملة

لكتابة هذه اللغة أكثر من مجرد كتابة، لقد كانت تعبيراً صادقاً عن موقف الصيني من الحياة، وكل ما كان يعبر عنه بواسطة هذه الأشعار، كان يبدو جليلاً وواقعياً. والمكر الهندي مجرد واطفائي، واللغة السنسكريتية الحديثة، التي كانت الوعاء الأصلي للكتب الدينية للبوذية الماهايانية، كانت متعلدة المقاطع كما كانت معربة في الإعراب.

يقال إن المترجمين الأولين لهذه الكتب الدينية كانوا قد بذلوا جهداً كبيراً في نقل المتن السنسكريتي إلى التعبير الصيني بحيث إن النتائج لم يمكن التعرف إليه كونه بوذي أصلاً، وفي الوقت نفسه لم يتمكن القارئ الصيني من حل رموزه. وقد كان أحد العاملين في حقن الترجمة (في الجزء الأخير من القرن الثاني) اسماً غربياً، ولكنه معروف لدينا باسمه الصيني وهو إن شيه - كاو. وكان من القادر المترجمين كوما راجيفا (٣٣٤ - ٤١٣). كان يوه هندياً وكانت أمه مواطنة من كوتشا في حوض نارس، حيث كانت اللغة المحلية هندية أوروبية، مثل السنسكريتية. كان كوما راجيفا قد درس الفيلسوفين البوذيين الرئيسيين في كشمير وكشغر وكوتشا قبل أن يقع اسيراً في أيدي فريق صيني (حول ٣٨٦). وقد انتقل من كاتسو إلى تشانغ - ان (٤٠١) حيث عمل هناك ثنائي سنوات في نقل النصوص الدينية بمساعدة جماعة من الاختصاصيين.

كان بعض المترجمين صينيين. ففي القرون الخامس والسادس والسابع زار عدد من الحجاج البوذيين الصينيين الهند، إما بحراً أو برّاً حيث تعلموا السنسكريتية وحفظوا معهم مخطوطات للكتب الماهايانية، التي ترجموها بعد عودتهم إلى بلادهم. وقد شهر حاجان - مترجمان صينيان هما فا - هسين (كان خارج بلاده ٣٩٩ - ٤١٤)، وهزوان - تشانغ (كان خارج بلاده ٦٢٩ - ٦٤٥). [راجع ما ذكر عنهما في الفصل السابق].

وعلى يد المترجمين هؤلاء أصبح البوذيين الصينيين، تدريجياً، نصوص صينية للكتب الماهايانية كان لها نكهة الأصول السنسكريتية. إلا أن الصيغ الماهايانية التي نقلها الجمهور الصيني كانت خلفة جليداً له نوع من التميز الصيني. وكان بينها مدرسة اليد الطاهرة، التي كانت ترى الخلاص في الامتثال. وهناك مدرسة تشان (ديانا السنسكريتية وژن باليابانية) التي كانت تعتمد التأمل سبيلاً للتور. وقد أنشأ هاتين المدرستين صينيون كانوا معاصرين لكوماراجيفا (٣٤٤ - ٤١٣). وأولئك الذين

صنفوا الماهايانية صيغة صينية وكان أثرهم أكبر من أثر الحترجيين الذين عملوا بإخلاص.

والطقوس البوذية كانت طائفة على الصينيين كما كان الفكر البوذي. فلا الاديرة، ولا التناك طبعاً كانت معروفة في الصين قبل وصول البوذية إليها. وكانت الفلسفة الطاوية أقرب النتائج الصيني الوطني إلى البوذية تعبيراً. فالطاويون كانوا يحفرون قدام الحديثة، وكانوا يرفضون عن الوظائف العامة، إلا أن معظم الأعلى لم يكن مرتبطاً بالعالم الآخر. وكل ما دعوا إليه هو العودة من المجتمع لتكنولوجيا المعقد إلى الحياة البسيطة نسبياً، المستقلة في قرية العصر الحجري الحديث الكافية لذاتها. ومع ذلك فإن المترجمين الأول للكتب البوذية استعانوا بالحدود الطاوية إذ لم يكن سواها يمكن أن يعبر تقريباً عن الأفكار البوذية باللغة الصينية. واتخذ الطاويون (فلاسفة وجمهوراً) ينقلون آراء ومؤسست عن البوذية وذلك ليتصكوا من الحفاظ على ما عندهم امام البوذية التي غزت بلادهم وأقامت لنفسها مكاناً في الصين. وقد كانت العلاقة بين الديانين - أو الفلاسفتين - متبادلة. فاتباع كل منهما كانوا يناقشون الفريق منهم الآخر لأنهم كانوا يدركون كنه القرابة بينهما.

من البين أن البوذية ما كانت لتجد مثل هذا القبول في الصين، لولا أن البلاد، في ذلك الوقت، كانت قد بلغت الذروة في فترة طويلة عجزت فيها عن حل مشكلة الأراضي، التي كانت عصبية بالنسبة إلى المجتمع الصيني وحكومته. وقد دفعت البلاد لمن ذلك في تمزيق سياسي وهجمات بربرية. وخلال القرون الثلاثة (بدءاً من ١٨٥ م) كان الصينيون على امتداد طبقاتهم في حالة ترقب. كانوا فيها أكثر استعداداً من عادتهم، لقبول ديانة اجنبية لملأ في تحقيق خلاصهم. إلا أن الطاويين والكونفوشيين الشعبيين (في شمال الصين) كانوا يشككون في الحد من البوذية عندما كانت تبدو في الأني تباشير محسن في الوضعين الاجتماعي والسياسي. وبثأثيرهم وضمت المؤسسات البوذية تحت إشراف الحكومة، غير منظمة من رجال الدين، وأنشئت على عرار الخدمة المدنية الكونفوشية، وقد قلقت محاولات للحد من نشاط البوذية في السنوات ٢٢٨ و ٤٤٦-٤٥٢ و ٥٧٤-٥٧٨.

وفي القرن الرابع بلغت التمزقات السياسية والحروب الداخلية والتدهور الاقتصادي والفرص الاجتماعية في شمال الصين مدى أبعد بكثير مما وصلت إليه الحال في

الولايات العربية من الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس. ومع ذلك كان الدول الحليفة التي اقامها البرابرة في تشين الغربية، مثل تلك التي قامت في الامبراطورية الرومانية الغربية، تدهرت احوالها بقل ما استطاعت ان تتمثل من مدنية رعاياها المتحورين. وفي شمال الصين ظل الفلاحون الصينيون واصحاب الاراضي الصينيون يمسكون بمسكنا قويا بالارض الزراعية، واحتفظوا باستقلالها، مع تغلب البدو الرعاة عليهم، وتغلبت التقاليد الكونفوشية على صفت البوذية، بالرغم من ان هذه التقاليد قد اسيء اليها بسبب سوء التصرف الذي بدأ من المديريين - الملاكين المخلوعين عن السلطة.

اعاد التو - با، توحيد الصين، وهم، فيما يظن، شعب مغولي اقام دولة - خلافة محلية (٣٢٨) لاسرة تشين الغربية، الى الشمال الغربي من المنعطف الكبير للنهر الاصفر.

انطخت الاسرة الملكية للتو - با لقبها هو اسرة الواي الشمالية (٣٨٩). وقد تمكنت الواي من القضاء على جميع الدول البربرية الاخرى في شمال الصين (٤٣٩). وفي غضون اثنى عشر الاول من القرن الخامس هاجمت اسرة واي حوض قاريم خمس مرات. وقد نزل الامبراطور هسيان ون - تي، من الواي الشمالية (حكم ٤٧١ - ٤٩٩) عاصمته من ولاية شانشي في الشمال الى لويانغ (٤٩٣). ثم عكف، في الوقت ذاته، على « نصيين » زعماء قبائله وطبق حالة زعماء القبيلة لكبار الملاكين الصينيين في املاك اسرة واي. ونصيين، المثر - با الاجلري على يد الاسرة المالكة الذي تبعه فشل المحاولات المتتالية التي قامت بها الاسرة لاحلال جنوب الصين، ادى الى القضاء على الاسرة، وتمزق املاكها. وقد توحدت شمال الصين مرة اخرى (٥٧٧)، ثم استولى عليها (٥٨١) سويي مؤسس اسرة سوي ون - تي (حكم ٥٨١ - ٦٠٤) الذي نجح بعد ثلثي سنوات في توحيد الصين باكملها لما اسهل جنوب البلاد.

مع ان اسرة واي مثلت في توحيد الصين، فقد قامت بحل لمشكلة الاراضي، وهو الذي تركه اثرا لاسرفي سويي وتتنف. ذلك بان الامبراطور الكبير هسيان ون - تي صمم (٤٨٥) حدا لدني من الارض لكل فلاح صيني قادر كما انه اتشأ تجمعات للفلاحين اصبحت مسؤولة بالاشتراك عن دفع الضرائب. ولم يجرؤ هسيان ون - تي على فرض حد اعلى قانوني لما يمكن ان يمتلكه كل من كبار الملاكين. لكنه نجح، على الاقل،

في سبع هؤلاء الملاكين من توسيع املاكهم على حساب الفلاحين أو على حساب واردات الحكومة الامبراطورية. وقد قوى خلفاء أسرة واي الشمالية الفلاحين والحكومة معا وذلك بإنشاء ميليشيات مدربة من الفلاحين. وقد كان تأهيل الفلاحين في شمال الصين هذا هو التدخل إلى التوحيد السياسي للصين وإلى انتشار المدينة الصينية.

كانت الصين التي وجدت سنة ٥٨٩ تختلف اختلافاً كبيراً، إن من حيث توزيع السكان الجغرافي أو من حيث مولدها، عن الصين الموحدة التي هاجمها البرابرة الشماليون في ٣٠٤ وما تلاها. فالنواة الأصلية للصينية كانت حوض النهر الأصفر الأدنى ورافده (من الصين) نهر واي. في عصر أسرة شان وأسرة تشو الغربية كانت الصين تشمل الأطراف الشمالية فقط من حوض نهر هواي، ولم تشمل أي جزء من حوض نهر يانكتسي الكبير. ففي العصر الذي تلا، فإن الشعوب القاطنة في حوض نهر هواي، وحوض نهر يانكتسي الأدنى والمرتفعات الواقعة إلى جنوب شرقي حوض يانكتسي الأدنى كانت تنصّب، الواحد بعد الآخر، وفي الوقت ذاته كان كل منها يقوم بدور مهم في السياسة الدولية الصينية. والموحد لساسي الأول للصين، وهو تشن شبه هوانغ - تي، كان قد استولى على جنوب الصين الحالية بأكمله، كما استولى على الجزء الشمالي من فيتنام. وضم هذا الجزء من فيتنام إلى الصين كان قد تأكد أمره سنة ١١١ ق.م، على يد هان وو - تي. ولم يظل مستقلاً سياسياً سوى جيب ساحلي من بورو. وعلى كل، فإن الاملاك السابقة لدولتي تشو ووو ظلت متآخرة ثقافياً، كما ظلت الأراضي الخاضعة الواقعة إلى الجنوب والجنوب الغربي من أراضي حائين الدولتين قليلة السكان، ولم تتقدم زراعياً.

إن الهجمات البربرية التي بدأت سنة ٣٠٤ على شمال الصين، دعت بالمكان إلى هجرات على مقياس لم يعرف قبلاً، بقصد استعمار الجنوب والأفادة منه اقتصادياً. ومع أن الفلاحين وكبار الملاكين الصينيين في الشمال استطاعوا الصمود وتمكنوا من نصيبين البرابرة الظالمين وإن يهجروا إلى الصين كلها وحدتها، فقد كانت ثمة هجرات مكثفة من الشمال إلى الجنوب خلال الفترة من ٣٠٤ إلى ٥٨٩. فقد تمكن فرع من أسرة تشن (تشن الشرقية) من إعادة إمبراطورية تشن في الجنوب، مستعرب خلف المستعمرات والطرق المائية في الحوضين الأدنىين لنهر يانكتسي. وقد اسقط في أيدي البرابرة في محاولة مهاجمتها أكثر مما اسقط في أيدي البرابرة في

المغرب اسم للمستعمرات المعصرة حول وانا او الاغول المائية حول البندقية، وذلك في الطرف المقابل من اويكومين العالم القديم.

حوصا بهري هواي وياتكنسي الاذنيك صالحان لانتاج الارز بكثرة عندما يتم تعهد الارض نصفية وها. والبلاد الواقعة على جانبي خط تقسيم المياه بين حوص بانكنسي ويس السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية للصين الحالية، تتكون من مرتفعات، بعضها جبلي، لكن الجنوب بأكمله تسقط فيه امطار غزيرة. ومن ثم فان سكانه لم يكونوا يعيشون في خوف من القمح الذي قد يسببه الجفاف، وهذا على عكس ما كان يصيب سكان شمال الصين، حتى في لاراضي الخصبة. يضاف الى ذلك ان سكان الجنوب الوطنيين كانوا في غالبيتهم ممن يسهل اخضاعهم وتسلطهم، على عكس جيران اهل شمال الصين من الهندو الرعاة. وقد كان في الولايات الشمالية الغربية من الامبراطورية الرومانية ما يشابه اقتصادها الولايات الجنوبية في الامبراطورية الصينية. فقد كان شمال غرب أوروبا يسكنه ام يزد منطقتة المشرق باحتياطي كبير من الاراضي الخصبة الغنية بالماء. إلا ان هذه المنطقة كان الرومان قد تغلر عليهم احتلالها، وفي النهاية كان اصعب عليهم الدفاع عنها امام غزوات المهاجمين من البرابرة. وقد حاول جستنيان الاول، امبراطور الامبراطورية الرومانية الشرقية ان يبعد الى الامبراطورية الرومانية وحدتها (٥٣٣ - ٥٦١) من نقطة انطلاق عسكرية في المشرق. إلا ان نجاحه كان جزئيا وموقعا، وقد كان ثمن ذلك غراب المشرق، وغراب ايطاليا الى درجة ابعد.

وقد تعاقبت على السلطة في جنوب الصين (٣١٧ - ٥٨٩) خمس اسر امبراطورية. وقد دفعت من ليلاء خطر البرابرة الشماليين، وسيطرت على الجنوب بأكمله حتى بعض اجزاه شمال فيتنام. وتم توحيد الامبراطورية الصينية (٥٨٩) بشن ضلوع. وفي هذه الصين الموحدة كان ثمة انتقال للمراكز الرئيسة، سكانها وزراعيها الى الجنوب. وانتشرت امواض الارز حيث كانت القدة تزوج، كما ان حقول القمح الشمالية أصبحت المعصر الرئيس للورد الفخاقي للعاصمة الامبراطورية للصين الموحدة، بل وفي حقيقة الامر لجميع سكان الصين.

إن فترة الاضطراب والتمزق الطويلة التي مرت بها الصين لم تقلل من قيمة المدنية الصينية، كما انها لم تمنع انتشارها ما وراء حدود الصين بالقات. إن هجوم البرابرة على شمال الصين (بدءا من ٢٠٤ م) فتاح للكوريين القضاء على مواطني الاستعمار

(٢٣١٣ م) التي انقضى الامبراطور هان وو - في بعد الفتح الذي قام بها هناك (١٠٩ - ١٠٨ ق.م) . وفي الزاوية الشمالية الغربية من كوريا ظلت هذه المراكز الصينية قائمة خلال القرون الاربعة القليلة . وقد تفسحت كوريا الان ثلاث دول وطنية ، عدا عن الجسر القائم على الساحل الجنوبي الذي كان تحت سيطرة اليابان . وعلى كل فان دولة من الدول الكورية الوطنية الثلاث ، وهي القائمة في أقصى الشمال (واسيها كوهوريو) اعتنقت البوذية في صيغتها الصينية (٣٧٢) ، كما انها « صحت » نظامها الاداري حول التاريخ نفسه .

كانت الامبراطورية اليابانية ، ومركزها في ياماتو (في الزاوية الجنوبية الغربية للجزيرة الرئيسية هونشو) قائمة ، وكانت قد اتخذت بالتوسع في القرن الثالث الميلادي . نعل آثار المدنية الصينية كانت قد اتخذت بالتسرب الى اليابان منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، وازداد هذا التسرب شدة في القرنين الخامس والسادس للميلاد ، وذلك بسبب هجرة مكثفة الى اليابان قام بها كوريون ادعوا انهم متحدرين من اصل صيني . وسواء أصبحت دعوة هؤلاء في انهم كانوا متحدرين من صيني عصر هان ام لا ، فالسهم انهم حصلوا المدنية الصينية معهم . وكان اليابانيون قد ثمنوا الى لكتابة الصينية منذ القرن الخامس للميلاد ، وفي ذلك القرن كانت المدنية الصينية التي دخلت اليابان بطريق كوريا تضم البوذية ، وقد قبل اليابانيون الصيغة الصينية من السامائيات في شكلها الكوري خلال القرن الستهي في سنة ٥٨٧ م ، ولم يقبل اليابان على التماس الانظمة السياسية الصينية إلا بعد ٥٨٩ م أي بعد إعادة الوحدة السياسية الى الصين . ولما تمت عودة النظام الاداري الذي كان هان وو - في قد أخذ بتفيله في الصين .

٨- المدنيتان الميزو - امريكيتان والاندية حول ٢٠٠-٩٠٠

ان المعرفة الزمنية للمدينة الميزو امريكية لهذه الفترة قد قبلها علماء الآثار، فاصبحت امرا معروفا به. وثمة اجماع حول المسيرة التاريخية النسبية للمراحل المختلفة للمدينة الاندية (مع وجود خلاف حول الفترة المستدة من حول سنة ٤٠٠ ق.م. الى حول سنة ١٤٣٨ م.). وفي هذا الفصل (كما كان الحال في الفصل التاسع والثلاثين) نقبل التاريخ الذي كشفه الاشعاع الكربوني على انه صحيح على وجه التقريب: اي ان المرحلة المشعة من التاريخ الهندي كانت حول سنة ٢٠٠ م على وشك النهاية. وأن الجزء الاكبر من الحق تياموناكو يقع بين سنتي ٥٠٠ و ٩٠٠ للميلاد.

ان عالم ميزو امريكة بلغ عهده الكلاسيكي بين سنتي ٣٠٠ و ٦٠٠ م. ففي فترة القرون الثلاثة كانت مدينة تيوتيهواكان لا تزال مزدهرة، وكانت الصيغة المأهولة لمدينة ميزو امريكة قد ثبتت نفسها لا في منطقة مايا الوسطى فحسب، بل في يوكاتان كذلك. وقد كانت تيوتيهواكان تسيطر ثقافيا (خلال هذه القرون) على مناطق مايا الثلاث - يوكاتان والمنطقة الوسطى والمرتفعات - بحيث انه يظهر ان هذه المدينة كانت تسيطر سياسيا على منطقة مايا بأكملها. فقد انشئ في لوكسكتونك (في غرب يوكاتان) مركز لطقوس مايا الكلاسيكية (قبل سنة ٦٠٠) والاسلوب الذي يرى على الآثار هناك هو من نوع تيوتيهواكان لا من نوع مايا. ومن الناحية الفنية فانه المركز الطقسي في كوبا (في شرق يوكاتان) والذي انشئ ايضا قبل سنة ٦٠٠ كان متأثرا مباشرة بالآثار الكلاسيكية لمنطقة مايا الوسطى.

دمرت تيوتيهواكان فجأة حول سنة ٦٠٠. وقد تم هذا الدمار بعنف. ويبدو ان المنحصر هؤلاء كانوا من البرابرة الذين اقتضوا عليها من صحراء المكسيك. ونجد في شولولا، وهي قرية من تيوتيهواكان، نموذجاً مستقلاً خاصاً بالطبقات ال اثرية هناك (بعد

سنة ٦٠٠). أما في ما تبقى من عالم ميزواميركا فإن أثر ثيوتهواكان يقف حول سنة ٦٠٠. وقد قضى على شولولا حول سنة ٨٠٠، على أيدي بريرة جاعوا من الشمال.

في القرن التاسع نجد أن المواقع الكلاسيكية في مايا الوسطى تهمل واحدها بعد الآخر (مع أن المايا لم يكن لهم علاقة بالعمار الذي حل بالشمال). أننا لا نعرف سببا للتخلي عن هذه المراكز الطقسية التي تعود إلى الفترة الكلاسيكية في منطقة مايا الوسطى. ومن أثار الفترة هي الجدران التي رسمت في مكان إلى الغرب من نهر اوساماسا في القرن التاسع، أي قبل بدء التخلي عن منطقة مايا الوسطى.

والرسوم الجدارية التي أشرنا إليها فيها من الوحشية ما يذكرنا بما كان يفعله الأشوريون في أسرى الحرب. وقد اقترح تفسيران للخراب الذي أصاب منطقة مايا الوسطى. أولهما أن الجماعات هناك قضت على نفسها نتيجة حروب داخلية انتحارية. إلا أن المواقع الكلاسيكية المهجورة لا تزودنا بما يدل على تدمير مقصود، كالذي نجده في الأماكن الأخرى المذكورة. والتفسير الثاني هو أن الفلاحين فقدوا قوتهم في مقدرة المؤسسة على تسير الكون - وبشكل خاص عجز المؤسسة عن اقتناع اله المطر في أن يرسل من الغيث ما يمكنهم من انتاج غلات صالحة. ومعنى هذا أن الفلاحين الذين غابت آمالهم قطعوا عن المؤسسة مولد المواد الغذائية. ولعلهم رفضوا القيام بأعمال السخرة القسرية التي كانت ضرورية لصيانة الأبنية الوارثة الجديدة منها. مع ذلك نأذا صبح أن هذا هو السبب في التخلي عن المواقع الكلاسيكية في منطقة مايا الوسطى، فإنه لا يفسر استمرار صحة على أسلوب مايا من مدينة ميزواميركا استمرت حية في منطقة بوكاتان الصحيرية الجافة - ولو أن هذه المدينة كانت على شكل مدن بالنسبة لما سبق.

وقد استمر العصر المزدهر (المتسع) في المدينة الأنديز بعد سنة ٥٠٠، إذ أنه امتد من حول سنة ٤٠٠ - ١٠٠٠. وكان إذن معاصرا للعصر الكلاسيكي، لمدينة ميزو اميركا.

وقد عرضنا المرحلة المزدهرة من المدينة الأنديز في الفصل التاسع والثلاثين. وها نحن نعرض الآن موجزا لمدينة تياهوآناكو - هولري.

يشبه أفق تياهوآناكو - هولري أفق تشافين القديم في أن كليهما قام أصلا في منطقة مرتفعة. وقد اتسع الأفق فيما بعد من منطقة في المرتفعات إلى أجزاء أخرى من

المرتفعات وكذلك إلى أجزاء من السهل الساحلي. ويتفق هذان الأعتان اللاندلس في أن كلا منهما يتمثل في الفنون المنظورة بما يدل على أنه شعار للديانة نيشيرية. ومع ذلك معتدنا ما يؤكد أن حضارة تاهواناكو قد فرضت على بيرو السطوية بالقوة الأمر الذي لا يجعله في حضارة تشافن.

تقع تاهواناكو على نحو واحد وعشرين كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من الطرف الجنوبي الشرقي لبحيرة تيتيكاكا. ويبدو أنها كانت مركزا طقسيا لكنها لم تتخذ صفة المدينة. البناء الكثيف الضخم القائم فيها أعظم من هولوي المعاصرة لها ومن تشافن القديمة. ويبدو أن أسلوب تاهواناكو وجد في المكان نفسه في عصر الأزدهار، مع أنه لم ينتشر في أجزاء أخرى من البهرو إلا بعد انقضاء عصر الأزدهار. فإذا كانت حضارة تاهواناكو وصلت إلى الساحل عن طريق الفتح، فقد يكون هذا واحدا من الأحداث التي قضت على عصر الأزدهار.

٤٩- محمد النبي والسيامي من حول سنة ٥٧٠ إلى ٦٢٢

كان لعيشة النبي محمد أثر كبير في نقل رسالة ربه إلى قومه! وقد كان تاريخ الجزيرة مرتبطاً بذلك. ذلك بأنه منذ أن دجن الجمل، قبل أيام محمد بنحو ألفي سنة، أصبحت الجزيرة العربية مما يمكن اجتيازها من مكان إلى آخر. واختلت الأرايا والتضاريس تنطلق إلى شبه الجزيرة من الهلال الخصيب الذي يضافها إلى الشمال. وهذا التفاعل كان أثره تراكمياً. وفي عصر النبي كانت الشحنة الروحية المتراكمة في الجزيرة العربية على وشك الانفجار. وجاءت رسالة محمد في الوقت المناسب. إذ تلقى هذه الشحنة فاحسي استمالتها، وذلك بروحه الثيرة وتصميمه وحكمته.

وشبه الجزيرة العربية هو شبه قارة. فمن حيث المساحة هي في حجم شبه جزيرة الهند وأوروبا، ولكن على العكس منها، فهي جافة، باستثناء المرتفعات القائمة في زوايتها الجنوبية الغربية (في اليمن وعسير) التي تفتقر الأمطار الموسمية، والتي هي نموذج مصر لمرتفعات إثيوبيا - إرميا على الساحل العربي للبحر الأحمر. وتقوم مكة، موطن النبي، على جزء أقل ارتفاعاً نسبياً، على المرتفعات التي تطل على الساحل العربي للبحر الأحمر، إلا أنها بعيدة عن متناول الأمطار الموسمية. وليست مكة مهدومة المطر، ذلك بأن أسوارها السكن فيها يعود إلى وجود بئر دائمة فيها. إلا أن ثروتها المائية لم تمكن لسكان مستقرين أن يحصلوا على قوتهم من الزراعة أو حتى من رعي الحيوانات، وهو المصدر الوحيد للعيش الذي ظل حتى قبل فترة قصيرة يعتمد عليه القسم الأكبر من سكان الجزء المعمور منها، البالغ ثلاثة أرباعها. وجماعة مستقرة تقيم حول بئر مكة، يجب أن تعيش على التجارة. وكان من الضروري أن يقوم فيها نوع من التديس الديني بحميها من البدو الذين قد تغريهم الظروف بأن يتقاضوا مزارع كثيرة من قوافل التجار.

كان من اثر تدجين الجمل ان ارتبطت اليمن بفلسطين وسورية بطريق بري وهذا الطريق بجوز بمكة؛ ولما اقيمت الكعبة على مقربة من البشر وتقبل للناس مكانتها، اصبح السكّيون يقيمون السوق السنوية التي كان يؤمها التجار، وهم يحتاج في الوقت ذاته، في فصل من السنة يتفق فيه على ان تخفف النعم لانه فصل الاشهر الحرم مع ان سكان الجزيرة العربية كانوا ولا يزالون، مستشرين في الرقعة الواسعة، فانهم في مجموعهم كانوا دوماً كثيرين، وذلك بسبب الاتساع اولا، وثانياً لأن الهضبة التي تتحدر تدريجاً من المرتفعات الغربية نحو الخليج العربي ووداي الفرات صحبة. وقد تست الطليعة في الجزيرة العربية على الانسان الى ان استخراج النفط. فحتى ذلك الوقت كان سكان الجزيرة العربية، باستثناء اليمن، في جوع دائم، وكان تغفل المدينة العدرجي، الذي كان يتم على الجمل، في الجزيرة العربية يرافقه تفجر سكاني الى خارج الجزيرة.

ان جميع اللغات السامية ظهرت اصلاً في الجزيرة العربية، وقد تم انتشارها خارج الجزيرة على ايدي اتساح المهاجرين من شبه الجزيرة. فقد ادخلت جماعات من البس لغة سينية سامية الى المرتفعات الانيوية - الازيرية في زمن مجهول. كما ادخلت اللغة الاكدية الى حوض دجلة والفرات، واللغة الكنعانية الى فلسطين وسورية وبعد ذلك، على التوالي، اللغتان السوروية والآرامية الى جناحي الهلال الخصيب. وذلك قبل ان يبدأ المهاجرون العرب السير في غطى الشعوب السامية التي سبقهم، والتفجر السكاني العربي الذي لدينا منه اخبار معونة حدث في القرن الثامن قبل الميلاد، وقد صده الاشوريون. وقد فشلت المملكة السلوقية في صد تفجر سكان عربي ثان في القرن الثاني قبل الميلاد، وعندها تمكن العرب من افقة مشروطات دائمة لهم في كل من سورية وبلاد الرافدين، والتفجر للسكاني الكبير الذي جاء في اعقاب وفاة الرسول (٦٣٢ م)، والتفجر الذي جاء فيما بعد في القرن الحادي عشر، ادباً الى تملب الناصر العربي في الهلال الخصيب وشمال افريقية. واليوم نجد ان اللغة السريانية (المتحدثة من اللغة الآرامية) التي كانت سلف اللغة العربية في الهلال الخصيب، تكاد تكون معدومة، واللغة النبطية، المتحدثة من اللغة الفرعونية القديمة، لا وجود لها، الا في الاستعمال الكنسي؛ وفي شمال افريقية نجد ان اللغة البربرية التي كانت لغة

السكان الاصليين، يكاد وجودها يكون منحصرا في صحاب المرتفعات وفي الصحراء، وذلك بسبب التقدم الذي احرزته اللغة العربية هناك.

ولما جاء الرسول كانت مؤسسات ولواء قد وصلت الجزيرة في الحركات المداحلة اليها، وكانت قد بلغت حوجة قوية، ثلاثية الهات التي كانت تعبد في القريس الثاني والثالث للميلاد في الحضرة في شمال شرق بين النهرين، وفي واحة تدمر، الواقعة على الطرف الشمالي الاقصى للصحراء العربية، كانت قد وصلت الى الحجاز (مرتفعات الجزيرة العربية في شمالها الغربي). واليهودية، التي ادخلت الى البلاد لولا على ايدي اللاجئين بسبب الحروب الرومانية اليهودية (٦٦ - ٧٠ م و ١٢٧ - ١٣٥ م) اعتنقها بعض سكان الواحات الحجازية في تماء وخير وقرط (المدينة المنورة)، كما تبناها قبائل يمنية. وقد اعتنق المسيحية ايضا جماعات يمنية. وقد جرت اليمن في القرن السادس الميلادي الى مجال التنافس التجاري والسياسي بين الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) والامبراطورية الفارسية (الساسانية). وقبل سنة ٥٢٣ وبعد ذلك بين حول سنتي ٥٢٨ و ٥٧١ كانت اليمن تابعة لسلطنة اكموم، التي كانت مسيحية، وكانت، من ثم، تدور في فلك الامبراطورية الرومانية الشرقية. وبين سنة ٥٧١ وسنة ٦٣٠ خضعت للحكم الفارسي. وفي سنة تقع في الربع الثالث من القرن السادس حاول حاكم اليمن الاكمومي القيام بحملة عسكرية ضد مكة.

شهدت المنطقة، في حياة محمد (حوالي ٥٧٠ - ٦٣٢) آخر حربين واعنف حربين دارت رحاها بين الرومان (البيزنطيين) والفرس (الساسانيين) وذلك في السنوات ٥٧٢ - ٥٩١ و ٦٠٤ - ٦٢٨. وكانت كل من الامبراطوريتين قد اتخذت لها من العرب المتقيمين على تخومها حشدا لها في مقابلة الامبراطورية المتخاصمة لها. وكانت عاصمة العرب الذين كانوا الى جانب الفرس مدينة الحيرة، التي كانت تقع على مقربة من الموصل الذي مصررت فيه الكوفة فيها بعد. وكانت الاسرة العربية الفسائية تحرس تخوم الامبراطورية الرومانية الشرقية في سورية. وقد قام العرب بالهجرة الى كلتا الامبراطوريتين اثناء الحرب التي دارت بينهما باعتلاهم مقاتلة وعمالا. وترتب على ذلك ان هؤلاء العرب تعلموا بالحرب واساليب القتال. وقد كانوا يتقنون بعض ما يتألمه من اجر في شراء المعدات - ومثال ذلك في شراء اللروع وفي تربية الخيول المقاتلة. والمواد العربي الجيد كان امرا فذا: ففي الجزيرة العربية بالذات كان، ولا يزال، طفيليا

على الجبل، وخرج الجزيرة وبعد وفاة النبي، حمل الجواد العربي الفاتحين العرب إلى نهر اللوار (في فرنسا) ونهر الفولغا (في روسيا) ونهر سيحون (في فولسط آسيا). وهكذا بقي أيام النبي كانت مدنات المشرق وشرق تحيط بمكة من كل صوب، وقد خرج محمد نفسه إلى مقابلة السفينة البيزنطية. وعندما لم يمكن العرب بمؤامرات بالحروب إلى جانب البيزنطيين أو الساسانيين، كانوا يقومون بأعمال تجارية معهم. وقد خرج محمد نفسه في فولغا تجارة من مكة لحساب السيدة خديجة التي أصبحت زوجة فيما بعد. والمرجح أن المرات التي خرج فيها النبي كانت في سنوات السلام (بين الامبراطورين) بين سنتي ٥٩١ - ٦٠٤. وبعد ان بدأ غيروه الثاني الساساني هجومه واحتلاله ما بين النهرين وسورية وفلسطين ومصر، أصبحت التجارة الملكية مع الامبراطورية البيزنطية مضطربة. ولما توفي محمد الوحي لأول مرة (حول سنة ٦١٠) كان قد تزوج خديجة، واتخذ في مكة دار له.

كان جبريل ينقل الوحي إلى محمد، وأصل الرسالة هو التوحيد أي لا إله الا الله. وفكرة التوحيد كانت قائمة في اجواء الجزيرة العربية يومها، كما انها كانت قد انتشرت أصلاً في اتحاء الامبراطورية البيزنطية خلال القرن الرابع، وهو اقرون الذين اعتنق في مطلع الامبراطور قسطنطين الأول المسيحية (٣١٢). وبموجب الرسالة التي حصلها محمد إلى الباعة فان اول ما يطلبه الذين يعتنقون الرسالة هو اسلام النفس لله (وهذا معنى كلمة الاسلام في العربية). وهناك الواجب المترتب على الاغنياء والاقرباء نحو الفقراء والضعفاء - مثلاً نحو الارامل واليتامى.

ولم تقبل مكة رسالة محمد. فقد كانت مكة دولة - واسعة يتحكم في شؤونها اوليائهم يقوم على رأسها قريش، التي كانت تعتمد على التجارة في ثروتها، على نحو ما كانت اوليائهم تدر في القرنين الخامس والسادس للهجرة. وقد كان قريشيون مهرة ولقاء في تنظيم الأعمال الاقتصادية الخاصة. وكانوا يعرفون ان نجاح تجارتهم مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمكانة الكعبة الدينية. وكانوا يخشون ان يؤدي انتشار التوحيد الى زوال قبة الكعبة (وكانت معجماً لآلهة كثر). ومن ثم ان التجارة السكية بالها الضعف بسبب انشغال المكان المقدس المرتبط بها. ولعل بعض زعماء قريش كانوا يضيفون دوماً بمحمد نفسه وبمزمه وابيانه. فلك بان النبي لم تكن امرته مع قتها قريشية في نظر هؤلاء من النخبة بينهم.

ظل محمد ثلاث عشرة سنة في مكة وهو يدعو الناس الى دين الله فيما كان يتعرض للأذى. وقد قيل «دعوتُه نقر ضليل، واصبح هؤلاء عرصة للضرر حتى ان محمدا رغب اليهم في الهجرة الى مملكة اكسوم المسيحية (الحبشة)». وفي سنة ٦٢٢ تبدل الوضع تماما لمصلحة محمد ورسالته. فقد جاءه رسل من الدولة - الواقعة للزراعة يثرب (الحديبية) يطلبون اليه ان ينتقل اليهم ويتولى امورهم. كانت يثرب قد مزقتها الخلافات السياسية التي قتل اهلها في وضع حد لها. وفي سنة ٦٢٢ خرج محمد من مكة مهاجرا وبصحته امر بكر نقتط. وقد نجا الرجلان من الذين لحقوا بهما من مكة. وقام محمد في يثرب بدوره السياسي في غاية البراعة. ويبدو ان اهل يثرب كانوا قد ادركوا حكمه تماما. ومع ان خبرته الادارية لم تكن تتجاوز النظر في امور مذهب ديني اتباعه قلته، فقد اثبت انه حري بالاضطلاع بالمسؤولية الجديدة، وفي هذا المجال الاداري الواسع الذي افتتح امامه بوصفه مدعوا لحكم يثرب، وفق محمد فيما بين التبعيزات البرية، كما انتهى بين اهل يثرب ومسلمي مكة الذين انضموا اليه في يثرب. ويبدو ان سكان يثرب، من غير اليهود، قبلوا عنى اعتناق الاسلام، واصبحت هذه القعدة المشتركة (بين مهاجري مكة واتصال المدينة) حروة وتقى تربط بينهم.

الدول ذات السيادة نشأت بالحروب، ولم يتوان محمد، وقد اصبحت الآن حاكما، عن شن حرب ضد اهله المسلمين. وكان لمة احتمال في ان ينجح: وقد نجح فعلا. وهذا النجاح هو الذي ادخل الدين في السياسة والحرب.

كان محمد، في يثرب، يحتل موقعا استراتيجيا جيدا يحميه في حربه ضد مكة، لان المدينة كانت تعرض للطريق البري الذي يربط مكة بمصرية. وقد اغار محمد على قوافل مكة. واستسلمت مكة سنة ٦٣٠، الا ان النبي منح قبيلة (قريش) شروطا فيها تساهل. ولما اوصى بالحج الى بيت الله الحرام والكمية المشرفة، رأى القرشيون في هذا حداضا على مصالح مكة. ولما انتقل النبي الى الرفيق الاعلى (٦٣٢) كانت سيادة حكومته قد اعترف بها في الجزيرة العربية حتى حدود العراق التي ينتفع منها العرب الذين كانوا يعملون للدولة البيزنطية او للدولة الساسانية. والحروب التي شنها محمد بين ٦٢٢ و ٦٣٢ كانت امرا بسيطا اذ توفرت بالحروب المعاصرة لها التي قامت بين الفرس والرومان (الساسانيين والبيزنطيين). الا ان النتيجة المشتركة للحروب

الكبرى في الشمال والحروب الصغرى في الجنوب، كانت كبيرة بالنسبة لما ترتب عليها من آثار مهمة.

كان اليهود والمسيحيون في نظر الاسلام « أهل كتاب ». وكان القرآن آخر ما انزل على النبي، وقد انزل قرآنا عربيا لأهل الناس يقولون. وقد كان محمد ينتظر من اليهودية في غرب ان يولوه تأييدهم وان يلقوا الي جانب. وقد كان ما يحمله على ذلك هو ان التوحيد هو الحقيقة الرئيسة في الاسلام، كما كان في كتب اليهود والمسيحيين. وعلى كل فان اليهود الذين ثابروا بعتاد على يهوديتهم ولم يقبلوا بالمسيحية بديلا عنها، ما كانوا ليتخلوا من يهوديتهم ويقبلوا بالقرآن، وقد انزل بالعربية.

لم يقبل يهود غرب، كما قبل وثيوها، دعوة محمد الي الاسلام، لكن اليهود تصرفوا تصرفا مشهوراً اشرق دونه ان يكون لذلك داع، فانهم فضلا عن تبليهم من القرآن بالذات، نظموا عصياناً واشتركوا في مؤامرة ضد المسلمين، فحل بهم العقاب، فصودرت املاكهم واجلوا عن المدينة تدرجاً، ثم صودرت الاملاك في عهده.

٥٠ توسع الدولة الإسلامية ٦٣٣ - ٧٥٠

لما انتقل محمد إلى الرميح الأعلى ساور بعض النفوس شك في أن الإسلام أو الدولة الإسلامية يمكن أن تتغلب على الصحاب التي قامت في الطريق. إلا أن هناك من العرب من كان يعتقد بأن النصر الذي ناله النبي في حياته بتأييد من الله لا يمكن لآخه أن يتزعه. ومن ثم فإن الذين قبلوا الإسلام كانوا واثقين من أن الله محمد كان قادراً. لكن بعضهم كان يتضايق من الزكاة ولعل البعض لم يحبوا كثرة الصلاة. ومن ثم فإن وفاة محمد كان لها رد فعل قوي (خارج مكة والمدينة) بحيث اتخذ شكل ثورة واسعة النطاق تولي قيادتها نبيذ أتياه محليون ادعوا أن الله سلبهم وأقوامهم برضاء.

تغلبت قوات المدينة ومكة المشتركة على المرتدين. فهي، أي القوات، بالإضافة إلى ما كان يحدوها من إيمان كانت قوات يترتب تقاتل من أجل أن تظل مدينتهم. وقد أصبحت مدينة الرسول أو المدينة - عاصمة للدولة الجديدة؛ أما السكيون فقد قاتلوا ليحفظوا لمكة بالمرحلة الخاصة التي أصبحت للكعبة بسبب الحج إليها. ومذان إمران كان لهما مكاسب اقتصادية خاصة. وقد غلب المرتدون على أمرهم - غلبتهم قريش بقدراتها. وقد أثبت قريش سنة ٦٣٣ أنها تستطيع أن تتفوق في ميادين جديدة - الحكم والقيادة والدبلوماسية - على نحر ما تفوقت في أعمال السلب والتجربة. وقد كان بين من نصر الإسلام واتفق البلاد من الوضع المعزدي للدولة في سنة ٦٣٣، فئة من أولئك الذين اعتنقوا الإسلام مترددين ومتأخرين: مثل خالد بن الوليد أكبر صباط الدولة الإسلامية مشاطة وحركة ومعاوية بن أبي سفيان. ولعل مما أعان قوات يترتب ومكة على التغلب على أهل الردة، هو السيل الجديد الذي شحه خليفة رسول الله، أبو بكر، أمام هؤلاء المرتدين. ذلك أن الخليفة، بالاتفاق مع أولئك الذين كان يشاورهم في الأمر، وجه همه نحو الدولتين المتناحرتين للجزيرة العربية شمالاً. وكانت الدولتان قد استتھما

الحرب الرومية - الفارسية (٦٠٤ - ٦٢٨)، فكان من المحتمل أن تسقطا تحت هجوم مركز يعتمد على القوات العربية جمعاء. ومع أن الإمبراطوريتين كانتا في نظر رعاياهما، ضعيفتين اقتصادياً، فقد كنتا ثمرتين باتعتين بالنسبة إلى العرب.

وسرعة الفتح التي تمت على أيدي الدولة الإسلامية ومطابها أمران يدعوان إلى الإعجاب. فقد انتزع العرب من الإمبراطورية البيزنطية سورية والجزيرة (العراقية) وفلسطين ومصر إلى سنة ٦٤١. وكان العرب قد افتتحوا العراق (٦٣٧) وإيران بأكملها حتى مرو (إلى سنة ٦٥١). وقد انتهى أمر الإمبراطورية الساسانية في سنة ٦٥١. وفي سنة ٦٥٢ استسلم الأرمن وسكان جورجيا (وكلا الفريقين كان من أتباع الساسانيين والبيزنطيين). وبين سنتي ٦٤٧ و ٦٩٨ انتزع العرب شمال غرب الرهينة من البيزنطيين. وفي سنوات ٧١٠ - ٧١٢ اجتازوا البحر إلى شبه جزيرة أيبيريا وقضوا على مملكة القوط الغربيين، واحتلوا أملاكها حتى الرهينة في جنوب غرب بلاد الغال. وفي الواقع فإنه لم يبق خارج سلطنتهم سوى الزلوية الشمالية الغربية من إسبانيا. وفي الوقت نفسه كان العرب يفتحون (٧١١) حوض السند ومنطقة البنجاب الجنوبية بما في ذلك السكافان.

وبين سنتي ٦٦١ و ٦٧١ فتح العرب طخارستان (شمال غرب أفغانستان) التي كانت جزءاً من الإمبراطورية الساسانية وقد كان لهذا الفتح أهمية استراتيجية - فقد اتاحت للدولة العربية أن تعتمد الطريق البري القوي القابل بين الهند والصين عبر حوض نهرى سيحون وجيحون. وفي السنوات ٧٠٦ - ٧١٥ اتجه العرب نحو ما وراء النهر لفتحها، ومع أنهم متوا بنكسة، فإنهم استمروا في محاولاتهم (على نحو ما فعلوا في شمال غرب الرهينة). وفي السنوات ٧٣٩ - ٧٤١ فتحوا ما وراء النهر بأكملها نهائياً. إلا أن العرب لغوا من أوقفهم عن استمرار الفتح على جبهات أخرى: أولاً أنهم لم يستطيعوا أن يهيروا لهم مراكز ثابتة إلى الشمال من سلسلة جبال طوروس (في سنة ٧٤١ ولقت الفتح العربية عند جبال أمانوس. وقد كان المردة سكان أمانوس يمتدرون عصاة في نظر العرب ومواليين في نظر البيزنطيين. ويبدو أنهم أقاموا لهم مراكز موقفة في جبال لبنان سنة ٦٧٧. وقد نقل العرب حدودهم إلى أبعد من أمانوس فيما بعد). والثانية أنهم لم يستطيعوا احتلال القسطنطينية. فقد تبه معاوية (حكم ٦٦١ - ٦٨٠) مؤسس الدولة الأموية إلى أن القضاء على الإمبراطورية البيزنطية يقتضي احتلال العاصمة. وإن سبيل

ذلك هو انتراع القوة البحرية في البحر المتوسط من ايدي البيزنطيين، فانشأ معاوية اسطولا (٦٦٩) وحاصرت قواته القسطنطينية بحرا وبرا (٦٧٤ - ٦٧٨) الا ان الحصار جرى ضد مصلحة العرب. فالاسطول البيزنطي كان مزودا بالباركليونانية وبالآلة اللازمة لرميها (يظهر ان المخترع كان فنيا سوريا، كان لاجئا في العاصمة البيزنطية). وقد حاصر العرب القسطنطينية ثانية (٧١٧ - ٧١٨). وكان فشلهم ذريعا، كالحفرة الاولى، والثالثة كانت جبهة بلاد الغال. ففي سنة ٧٣٢ ودوا في بلاط الشهداء (بواتيه - تور). والرابعة كانت عجزهم عن فتح امبراطورية البندو الخضر (بين نهري الفولغا والدون) في ٧٣٧ - ٧٣٨.

وهكذا فقد توقفت الفتوح العربية عند حدود معينة. الا انها كانت نفوذا سريرة وواسعة في مجالها، ذلك ان العرب هاجموا الدولة البيزنطية التي كانت قد بلغت حدا كبيرا من الضعف عسكريا، لكنها كانت قد حافظت على طرق مواصلاتها سليمة لمصلحة الفاتحين. وقد أبطلت الفتوح العربية في القرن السابع العمل الذي قام به الاسكندر في شوحه في القرن الرابع قبل الميلاد. فالسلطان الذي كان اليونان قد نشئوا به ٩٦٣ سنة في الشرق، منذ فتح الاسكندر، وضمت الفتح العربية سنة ٩٣٣ حدا له.

وقد كان في موقف المسيحيين الباقية (اي الفاتحين بالبطيعة الواحدة) عون للعرب الفاتحين. ذلك بانهم لم بأسفوا لتغير الحكم. كما ان الرعايا الفاطرة في الامبراطورية الساسانية لم يكونوا يكونون ولاه فعلا لسلطتهم الايرانيين. والايديون الزرادشتيون لنفسهم لم يلبثوا ان تخلوا عن الجهاد للحفاظ على استقلالهم السياسي، مع انهم كانوا شغب الامبراطورية الساسانية نفسها، وكانت الزرادشتية ديانتهم الوطنية. وفي شمال غرب افريقية تأذى البربر مع العرب الذين فتحوا بلاد الامبراطورية البيزنطية في تلك الاصقاع. فالبربر كانوا من اتباع المذهب المونثاني، الذين لم يحملهم اعتناق قسطنطين الاول للمسيحية (٣١٢) على القبول بالحكم الامبراطوري في بلادهم.

وعلى العكس من ذلك كان الوضع في اسية الصغرى حيث كان السكان مواليين للامبراطورية البيزنطية وللمسيحية الحثيقلونية للمسيحية. فان العرب لقوا مقاومة عيمة وصدوا عن البلاد نهائيا وقد صلوا ايضا - ولو ان ذلك كان صيدا مؤقتا - في ما وراء النهر، حيث كان السكان يومها من اتباع البوذية الماهيانية. (وقد لقي الاسكندر ايضا

مقاومة عنيفة في ما وراء النهر). وفي خراسان وطخارستان (فرثيا والصفد) تأخى السكان الآريانيون المحليون مع العرب (كما كان أسلاف الصفديس قد تأخوا مع اليونان بعد فتح الإسكندر للإمبراطورية الفارسية الأولى). إن سكان المناطق المحصورة، المصانق للسهول، الأوراسية، كانوا في الأوتة جميعها، يرون من مصلحتهم انضمام البدو الرعاة عن مناطقهم.

وكان مما اعتاد العرب إن يقرآن نص على إن أهل الكتاب يجب إن يكونوا موضع التسامح والحماية إذا قبلوا بالحكومة الإسلامية ودفعوا الجزية. قد وسع نطاق هذا الوضع بحيث شمل، بالإضافة إلى اليهود والمسيحيين، الزرادشتيين، وفي النهاية الهنوديين. وقد ترك العرب جميع الضرائب المستحقة على غير المسلمين من رعاياهم في أيدي الموظفين الماليين الوطنيين الذين كانوا يقومون بالعمل من قبل. ففي أملاك الساسانيين السابقة كان هؤلاء هم الدعاينة. وقد ظل هؤلاء الموظفون يحتفظون بالسجلات باللغة اليونانية أو باللغة المهلوية حتى حكم الخليفة عبد الملك (٦٨٥ - ٧٠٥). فقد حصلهم عبد الملك على الاستعاضة عن ذلك باستعمال اللغة العربية. كما وضع خليفته الوليد (حكم ٧٠٥ - ٧١٥) حدا لاستعمال الرسمي للغة القبطية في مصر التي كانت تعمل هناك مع اللغة اليونانية. ولكن الموظفين السالين الوطنيين، مع أنهم أرفعوا على استعمال اللغة العربية، فقد ظلوا في وظائفهم، ولم يمين حرب في مكانهم.

والحمايات العربية التي عهد إليها بالحفاظ على البلاد المحتلة كانت تقسم لمي و لمصار : خاصة بها، بعضها كان على الحدود، والبعض الآخر كان في التقوم الواقعة بين الجزيرة العربية والمشارف الجنوبية لللهلال الخصيب. وقد كان أكثر هذه مواقع جديدة - لا في المدن القائمة ولا على مقربة منها. وسع إن هذه : الأمصار : العربية جذبت إليها جملة من غير العرب، فإن الاختلاط الاجتماعي بين الفاتحين والمفتوحين كان ضئيلا جدا في المرحلة الأولى من تاريخ الإمبراطورية الإسلامية. وقد تأخر انتشار الإسلام زمنيا عن التوسع في البلاد المفتوحة. لقد كان اعتناق الإسلام لجاريا في الجزيرة العربية. أما في البلاد المفتوحة فإن اعتناق الإسلام، فضلا عن أنه لم يكن إجباريا، لكنه لم يشجع.

والحمايات العربية الإسلامية في البلاد المفتوحة لم تكن تبشيرة للفرعة. كان أهلها

يشعرون بأن الإسلام يميزهم عن وعائلهم من السكان المسيحيين والزرادشتيين. إن اعتناق الإسلام، بالنسبة لرعايا الدولة الإسلامية، كان شيعاً جديداً من الناحية المالية، إذ أنه كان يمتكهم من الانضمام إلى « المؤسسة » الإسلامية التي كانت ذات وضع مالي منفصل إلا أن الحرية ارتأت، لما كثر اعتناق هؤلاء السكان للإسلام تهرباً من دفع الجزية، إن تجبى الجزية حتى من الذين كانوا يعتنقون الإسلام. والحرب الأهلية (٧٤٧ - ٧٥٠) التي انتهت بزوال الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية (وهذه سيطرت على أراضي الدولة جميعها باستثناء أقصى شمال غرب إفريقيا وإسبانيا) كانت فرصة اتخذها الذين اعتنقوا الإسلام لتأكيد حقهم في أن يكونوا على قدم المساواة مع المسلمين المتحدرين من أصل عربي. وهذه الثورة وضع مخططها في الكوفة (المصير العربي في العراق)، إلا أن المصيان بدأ في غراسان، حيث كان الدين اعتنقوا الإسلام عددهم كبير، وحيث كان انحطاطهم الاجتماعي بالعرب الجند السقوطين قد قطع شوطاً بعيداً جداً. ومع ذلك فإن أوائل الخراسانيين الذين لبوا النداء للثورة لم يكونوا من الإيرانيين المحليين: لقد كانوا جماعة من العرب السقوطين هناك الذين شعروا بأن الدولة الأموية قد استهانت بهم.

إن تدلي الأسرة الحاكمة الذي كان الظفرة الخرجية للحرب الأهلية (٧٤٧ - ٧٥٠) كانت واحدة من الأحداث التي كان أساسها الخلاف على خلافة محمد بوصفه رأس الدولة الإسلامية. إن محمداً لم يعقب ابنه ولم يستخلف أحداً للمنصب، وقد طالب علي، ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة بأن تكون الخلافة له لأنه وزوجه هما أقرب الناس إلى النبي. ولو أن علياً تمكن من تثبيت ذلك، لاصبحت الخلافة أمراً عائلياً، إلا أن الذي حدث أنه بعد وفاة النبي انتقل أمر الإشراف على الدولة العربية الإسلامية إلى لجنة إدارة غير رسمية، وهذه اللجنة، لما اتخذت باختيار خلفاء محمد في أمور السياسة عييت أمل علي ثلاث مرات بتجاوزه. ولما نال علي لخلافة، وقاتل حرب أهلية حول قضية الخلافة، واعتزل علي نتيجة لذلك (٦٦١) استطاع معاوية بن أبي سفيان أن يقتل الأثر السياسي إلى نفسه وبيتته. وأبو سفيان كان أحد خصوم النبي وأعظمهم من القرشيين.

كاد معاوية لقتل قرشي في أيامه. ولم يكن علي نداً له في أمور السياسة، وقد لقي علي وابيه الحسين مصرعهما مقتالين بمتف. ولتأش معاوية أسرة حكمت في دمشق من

٦٦١ إلى ٧٥٠ وفي أسبانية من ٧٥٦ إلى ١٠٣١ إلا أن هذه الأسيرة لم تسجح في أن يقتل بها قانوناً.

وهكذا فإن الكيان السياسي في الدولة الإسلامية أصلاً شرح بسيد وفاة النبي. وهذا الشرح لم ينطق قط. لقد كان أكبر المتحمسين للتوبة المعادية للامويين (٧٤٧- ٧٥٠) مريد علي وورثته. إلا أن العلويين خاب أملهم كما أصاب عليها أثناء خلافته القصيرة (٦٥٦- ٦٦١). وأبو العباس (السفاح) الذي ضمن لنفسه الخلافة في الكوفة سنة ٧٤٩ (بدل آخر خلفاء الامويين الشاميّين مروان بن محمد) كان من أسرة علي (علي خلائف الامويين) ومن أسرة الرسول. إلا أن أبا العباس كان ابناً للعباس عم النبي وعلي. والعباس كان من أخصى الأسلام في وقت متأخر نسباً مثل معاوية بن أبي سفيان.

٥١- احياء الامبراطورية الرومانية الشرقية ٦٢٨-٧٣٦

لما نعدى العرب المسلمون الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) والامبراطورية الفارسية (الساسانية) في وقت واحد، اتروا نوعين من ردة الفعل. فالامبراطورية الرومانية الشرقية قامت وبقيت، مع انها اقتطع منها جزءا اما الامبراطورية الفارسية فقد ضعفت وانتهى امرها. ومع ذلك فقد اصاب الفرس والروم على السواء نوع من الابعاء بسبب هذه الفجوة المؤلمة، ولو انه جاء بأسطرين مختلفين.

لقد كان رعايا العرب من الزرادشتيين اسرع واكثر استعداداً لقبول الاسلام من رعاياهم المسيحيين من اي مذهب كانوا. وقد انتهى الامر بالجماعة الزرادشتية في ايران بان أصبحت اقلية محصورة في شاكى محدودة. وقد حافظ على الزرادشتية مهاجرو الشتات الى غرب الهند. واللمة البهلوية (وهي اللغة الفارسية المتوسطة) كتبت كلماتها بالالفباء السريانية. لكن هذه الالفبائية كانت تستعمل « صوراً فكرية » بالنسبة للكلمات الفارسية المقابلة لها. وقد احتفظ بهذه الطريقة الخفيفة لكتابة اللغة الفارسية في الصلوات الزرادشتية والكتب المقدسة. لما الفرس الذين اعتنقوا الاسلام فقد اخذوا انفسهم باستعمال الالفباء العربية لكتابة الفارسية، مع استطراد كلمات عربية بشكل توي. ان معنقى الاسلام كانوا يصنعون لغة فارسية جديدة لمديري الحكم والشعراء في المستقبل.

احتفظت الامبراطورية الرومانية الشرقية بنفسها في نسبة الصغرى، الى الشمال الغربي من سلسلة جبال طوروس، مع رأس حمر في الجهة المقابلة من مصيق القسطنطينية. وقد حيدت قبرص بعد فشل الحملة على القسطنطينية و ٦٧٤- ٦٧٨. لكن الجزر الأخرى - من كريت الى جزر البليارد - ظلت في حوزة الامبراطورية الشرقية. ومع ان الامبراطورية الرومانية الشرقية لم تتمكن من الاحتفاظ بشمال غرب افريقية، فانها لم

تكن قد عسرت بعد صقلية او جزيرة مستقع الصقلية الكبير. واحتفظت في اروربة
بسلسلة من السواحل الممتدة من سالونيك (سلاتيك) الى رافنا ورومة.
كانت للغة اليونانية قد حلت في صقلية محل كل لغة قبل اليونان عرستها الجزيرة
(العرون الخامس قبل الميلاد) وفي اسية الصغرى قبل نهاية القرون السادس الميلادي.
كان سكان المنطقة الواقعة بين جبال البلقان ومجرى الدانوب الأدنى يتكلمون اللاتينية.
لكن هؤلاء استنزفت الامبراطورية الشرقية نصفهم جنوبا في جيوشها. والباقيون تغلب
عليهم السلاف (للصقلية) القادمون من غلف الدانوب (القرن الثالث الى القرن
الصابع للميلاد) والذين استقروا في نهاية المطاف في شبه جزيرة البلويونيز. اما في
النشال فقد اصبح الفلاح وعمال مائة!

ازاح الصقلية القادمون كثيرون من مواطني الامبراطورية الرومانية الشرقية عن
مواطنهم، لكنهم لم يمرضوا الامبراطورية لخطر حربي؛ فقد اهدتهم اسوار القسطنطينية
وسلاتيك وغيرها من هذه المدن. وعلى كل فان الصقلية الذين استوطنوا الريف لم
يكونوا متحدين سياسيا. فقد تجمعوا في عدد كبير من « المستوطنات » (الصقلية)،
وهذه كانت تحت رحمة الامبراطورية الرومانية الشرقية التي كانت تستطيع ان تخضعهم
عندما تتوغل لها القوات المعاربة. وقد تبدل الوضع ضد مصلحة الامبراطورية لما
هبطت جماعات البلغار لتكلم التركية (من الهون اصلا) في المنطقة الواقعة بين
مجرى الدانوب الأدنى وشاطئ البحر الاسود الغربي (٦٨٠ - ٦٨١) واستقرت هناك.
وقد اضطر هؤلاء القرب المستوطنات الصقلية اليهم واتشوا انهم قادرون على رعاية
البشر فدرتهم على رعاية الماشية. وبدأ عندئذ سياق بين الامبراطورية الشرقية والدولة
البلغارية للسيطرة على المستوطنات الصقلية التي كانت راضية بان يتولى امرها القادر
على ذلك.

ترتب تنقل السكان وتبدل السلطان ان أصبحت اللغة اليونانية اللغة الوطنية
للإمبراطورية الشرقية: اللغة اليونانية الحديثة كلفة حية للامور اليومية، والكوييني الانتيكية
للادارة وللطقوس المسيحية في كل مكان (باستثناء الاراضي للعبي طلب اللاتينية
مستملة فيها. رومه كانت ثنائية اللغة من القرن الثاني قبل الميلاد الى القرن الثالث
الميلادي. وهكذا كانت القسطنطينية لمدة قرنين بعد اتشائها؟ ٣٣٠) لكن في
القرن السادس كانت القسطنطينية قد أصبحت تتكلم اليونانية فقط. وكانت المسيحية

البيزنطية والمسيحية الغربية تترقان بتقيدة واحدة. لكن الحاجز اللغوي كان قد بدأ يفوم بينهما

كان للباباء المسيحيين الذين ظهروا في قسطنطينية في القرن الرابع اثر فعال في حياة الامبراطورية الرومانية الشرقية. فالقدوس باسيل واعود القديس غريغوريوس (نيسا) وصديقهما غريغوريوس (نازيانز) كانوا طلابا في جامعة اثينا (وهناك التقوا جوليان، الذي اصبح امبراطورا فيما بعد). وقد وضع هؤلاء القديسون القبادوقيون اعمالا ادبية مهمة ضخمة مستعملين اللغة الانكليزية الحديثة (من القرن الثاني) على طريقة كبار المحاضرين والكتاب، واصبحت كتابتهم نموذجاً يحذى. وكان الاعجاب بهذه الكتابة ومحاولته تقليدها مما حال دون استعمال اللغة اليونانية الحديثة (التي أصبحت لغة التخاطب في العالم اليوناني في القرن السابع) في الاعمال الادبية.

لقد لطفت سورية عن الامبراطورية الشرقية بسبب الفتح العربي (٦٣٣ - ٦٤٤) لكن منذ ان بدأ اعتناق سكان المشرق للتدريج للمسيحية، كانت المدينة السريانية تؤثر في المدينة اليونانية. ولم يحس المسيحيون الناطقون باليونانية انهم اكثر ثقافة من المسيحيين الناطقين بالسريانية. والواقع ان لولئك كانوا قد افادوا فحاحات حضارية دائمة من هؤلاء قبل ان يبدأ الخلاف بين اليونان والسرمان لاهوتياً وسياسياً بسبب قضية طبيعة المسيح. والاسلوب البيزنطي في الموسيقى والشعر الانجيلي الذي اصبح للملك المشترك لجميع الشعوب الشرقية الارثوذكسية وضمه سوري مسيحي (خلفدوني) هو رومانس الموسيقي (حول ٤٨٠ - ٥٥٠) والذي كتب اشعاره بالكويني الانكليزية القديمة لكن لغاهه واناشيده كانت سورية. وقد كانت هذه الخطوة، بالنسبة الى الموسيقى والشعر اليونانيين منطلقاً جديداً متمشياً.

ان النار اليونانية التي اندثرت الامبراطورية الرومانية الشرقية من الفيلسوف (٦٧٤ - ٦٧٨) كان صانعها سوريا. فليو الثالث (حكم ٧١٧ - ٧٤١) كان سوري الاصل. وقد تسلم دليو العرش في الوقت المناسب ليتخذ القسطنطينية من حصار الحرب الثاني لها (٧١٧ - ٧١٨). ان الامبراطورية الرومانية الشرقية التي اقتطعت اجزاء منها كانت قد أصبحت ماطقة باليونانية. لكنها كانت قد تلقت حيوية جديدة من عناصر هامة عبر يونانية. فقد اثنى ليو الثالث لسرة امبراطورية سورية. كان هرقل (حكم ٦١٠ - ٦٤١) ابن ارميني نائباً للحللك في شمال غرب افريقية وفي السنوات التي تلت حملات العرب

على املاك للدولة البيزنطية الى لجنوب من جبال طوروس. نقص عدد السكان في الامبراطورية مكان سد هذه الثفرة يتم عن طريق هجرات من الأوس والسوريين الى الشمال.

كاد القرن السابع ان يكون فترة اضطراب مستمرة. فقد كادت فتنة ٦٠٢ ومقتل الامبراطور موريس ان يلقيا بالامبراطورية في احضان الفوضى. وفي سنة ٦٠٤ بدأ الفرس هجوماتهم على ولايات الامبراطورية الآسيوية، فيما اغرقت موجات السكان الناشئة عن الصباح الصغالية من شمال مجرى الدانوب الأدنى شبه جزيرة البلقان. ولم تكفد الامبراطورية تنقضي من آخر حرب واشدها مع الفرس (٦٠٤ - ٦٢٨) حتى قام العرب بهجومهم عليها (٦٣٣). وكانت غاية هذا الهجوم حصار الحرب للمقسطنطينية (٦٧٤ - ٦٧٨). وما كادت الامبراطورية تتجاوز هذا الخطر حتى هبط البلغار (من البدو الأوراسيين) واستقروا نهائيا جنوبي الدانوب (٦٨٠ - ٦٨١). ومن النكبات ان نقص السكان في الامبراطورية بسبب التكتيات التي اصابتها، مهد السبل لانعاش اقتصادي.

كان هذا الانعاش شبيها بالانعاش الاقتصادي الذي عرفته الصين في القرن الخامس. فقد صمد الفلاحون الآن أمام كيلو الملاكين والنجاة الامبراطوريين. ففي الصين اتخذ الامبراطور هزهاو ون - تي (من أسرة وي) خطوات لحماية الفلاحين وهي مدونة. وبالنسبة الى الامبراطورية الشرقية في القرن السابع هناك « قانون الفلاحين » الذي يبدو انه وضع حول نهاية القرن. وهنا نجد الفلاحين وقد اعتدوا باستغلال الأرض المهجورة واتشاء السطاحن المائية. ونستدل على ان الضرائب لم تكن قاسية بحيث انها تمنع الفلاحين من توسيع رقعة اراضيهم واستغلالها. ونستدل كذلك ان كبار الملاكين في هذه الفترة لم يكن لهم من القوة ما يسكنهم من الاستيلاء على الأرض المهجورة. ففي الامبراطورية الرومانية الشرقية مثل الصين، لم تخفف الاملاك الواسعة من الوجود. ولكنها تمتع من الاتساع على حساب الاملاك الصغيرة.

كان الفلاحون، في الصين في قرون السادس، قد دربوا وسلحوا ليخدموا كميليشيات. وفي الامبراطورية الرومانية الشرقية، كانت ميليشيا من الفلاحين قد قامت في اواخر القرن السابع واصبحت اساس الجيش الامبراطوري وكانت نفقاتها تأتي من نتاج الاراضي. ونظمت هذه الميليشيات في لربعة جيوش. واسماؤها تدل على انها

كانت قد تركزت في حوضي الدانوب الأدنى والفرات الأعلى، وذلك قبل الهجوم العربي. لقد وضعت القوات في اسمة الصغرى للدفاع عن قلب الامبراطورية هناك، حتى ولو ان المناطق الأبعد من الامبراطورية كانت تعتمد على العون المحلي. وتعلّ وصنع هذه الفرق في اسمة الصغرى كان الخطوة الأولى نحو إعادة السكان إلى تلك المنطقة. وكل قائد فرقة أصبح، تدريجاً المدير المدني للمنطقة التي استقرت فيها قواته. وقد اُهملت التقسيمات الإدارية التي تمت في أيام ديوقلتيان - قسطنطين بالنسبة للإدارة ولكنها ظلت تقسيمات على خارطة الكنيسة وتنظيمها، وأصبحت كلمة ليمانا تعني الفرق العسكرية والمناطق الإدارية المتصلة بها.

تعرضت اسمة الصغرى بدءاً من ٦٤٢ لهجمات عاتية قام بها العرب. لكن هذه الحالة من انهزام الأطمئنان كانت لمصلحة الفلاحين المسلحين والمدربين. فقد كان الفلاح يستطيع ان يحمي اوطه، فيما كانت القوات المستعرة تجعل الأملاك الربنية الكبيرة لا تفي بمطلوع المستعمرين، كما كانت تقضي جباية الضرائب الامبراطوريين عنها. فبالنسبة إلى الفلاح في الامبراطورية الرومانية الشرقية كان شر المغير العربي اقل من شر اي من جنابي الضرائب او المستعمر الذي لعله كان يجد حنقة وغائبة في ضم حقول إلى حقول آخر. وفي اسمة الصغرى، كما كان الحال في الصين دام انعاش المجتمع طوال الفترة التي ظل فيها الفلاحون يقدرون على الدفاع عن كياناتهم.

٥٢- المسيحية الغربية ٦٣٤-٧٥٦

إن الصفه المميزة لتاريخ المسيحية الغربية خلال الفترة من ٦٣٤ إلى ٧٥٦ هو اتجاه مركز ثقافتها الجغرافي في التنقل في اتجاه شمالي غربي. وقد ظهر هذا الاتجاه واضحا على المستوى السياسي في إقامة دولة الفرنك (الفرنج) في بلاد الغال وعلى المستوى الكنسي في اعتناق كلوفيس، باني امبراطورية الفرنك، المسيحية في صيغتها النيقية والمخلطونية، وفي مكاسب الكرسي الروماني في بريطانيا. وقد شهدت هذه الفترة حيوية في المملكة الفرنكية أيام حكم الاسرة الكارولنجية الذين كانوا حماة القصر بالنسبة الى الاسرة الميروفنجية. وهذه الفترة شهدت ايضا تنبص سلطه الباباوية الكنسية في الجزر البريطانية وتوسيعها، ثم في شمال غرب القارة الأوروبية عن طريق المبشرين الانكليز. وفي الفترة نفسها انتقل مركز الثقل في الزراعة في المسيحية الغربية (والزراعة كانت يومها الشكل الرئيس للنشاط الاقتصادي) من شواطئ حوض المتوسط الغربي في اتجاه شمالي.

إن المنطقة التي يسود فيها مناخ مثل مناخ البحر المتوسط لا يمكن ان تكون ملائمة بشكل خاص للزراعة، باستثناء رفع خصبة مثل للسهول الغربية في اودية النيل ودجلة والفرات والسند، او في المناطق البرية الواقعة إلى شمال البحر المتوسط والبحر الاسود. لقد صبح الملاحون القرطاجيون وغلفاؤهم الرومان من بعدهم كل ما يمكن ان يصنع للإفادة من منطقة البحر المتوسط وذلك بتطبيق المبادئ العلمية. والعمل الذي قاموا به لم يحرمه العرب لا في شمال غرب افريقية ولا في اسبانية (بعد فتحهم تلك الاقطار). وفي الناحية الثانية فان الغابات في منطقة البحر المتوسط كانت قد اجثت الكثير من اشجارها بسبب الطلب المستمر الذي يقوم به البناؤون وصانعو السفن وموردو الرقود لتشغيل المحركات. واجتثاث الغابات هذا لم يؤد الى نقص في الخشب فحسب،

بل ادى إلى تعرية التلال والجبال من التربة. فتقصت مساحات الأرض الصالحة للزراعة وحتى للرعي. وكانت أوروبا الشمالية لا تزال فيها الغابات الكثيرة وحتى في حالة قطع الاشجار مان السبخ وطبيعة الأرض الجغرافية تحولان فيها دون التنمية.

ان ضم الامبراطورية الرومانية أولا لحوض البونم الاراضي الأوروبية الواسعة الواقعة ما وراء الألب، ادخل في نطاق المدنية الاغريقية - الرومانية مساحات شاسعة من الاراضي المهيبة الثرية (ذات الامكانيات الزراعية) في ما يقع شمال الحوض العربي للبحر المتوسط. وقبل سقوط الامبراطورية في الغرب كانت قد اتخذت خطوات لتطويع التقنية الصناعية لاستغلال هذه الثروة. والامر الرئيس في هذه التقنية كان اختراع محركات اقوى وانفذ بالنسبة لهذه الثروة المهيبة من المحركات الذي كان يصلح للثروة الاخضر. ولم يكن هذا التطوير قد سار شوطا يكفي لجعل الزراعة اكبر نجاحا في شمال أوروبا منه في منطقة البحر المتوسط. ان الامر الذي جذب البربرية الشماليين (وكان الهون يسبرون في اعقابهم) إلى اسبانية وشمال غرب افريقية (بعد ان نفذوا عبر الحدود الرومانية على الرائن) هو الاثني الاقتصادي الذي منحه حقول القمح وكروم العنب وغابات الزيتون في المتوسط. ولا شك في انهم كانوا (البربرية) يحتلون الاراضي المحروقة والاغنى في مصر والافرق لو ان هذه كانت في متناول يدهم. لكن الامبراطورية الرومانية الشرقية والامبراطورية الفارسية احتفظتا بالسيطرة عليهما على التوالي حتى القرن السابع حين وقع مصدرا القوة الاقتصادية هذان في ايدي الدولة العربية الاسلامية المتوسعة دوما.

وفي الوقت نفسه كانت بلاد الفال، إلى الجنوب من نهر اللور، تجذب الفرنك بشكل خاص بحيث ان كل تقسيم مملكة الفرنك بين افراد الأسرة الميروفنجية (في القرنين السادس والسابع) كان يرافقه الصراع من قبل كل مطالب بان تكون له شريحة من منطقة ميدي (جنوبي اللور) بالإضافة إلى شريحتيه من الشمال - مع انه الشمال كان هو مركز الثقل الاصلي لقوة الفرنك، إذ كان المنطقة الرئيسة لا - تفرامهم. وفي الوقت ذاته فان وضع الثروة المهيبة في شمال الفال وحوض شرق بريطانيا وبواسطها في اطار الاستثمار الروماني، الذي كان قد بدأه الرومان، استمر البربرية التهنون في تلك الاراضي (الاراضي الرومانية السابقة) يقومون به. ولذا كان القنح للعربي او المنح الجرماني لاراضي الفرس او الرومان السابقين قد ادى إلى تأخر في الزراعة، بهذا كان

امرا وقنيا. والاستمرار في ضخ التربة في الشمال لم يكن قد اعطى بعد نتائج باهرة. إلا انه كان من الواضح ان ذلك أت لأن هذه كانت لوزا جديدة واسعة ودات امكانيات انتاجية ضخمة.

ومر كر نقل التوسع الكنسي ونطاق النفوذ الادبي والسياسي لرومة انتقلا كذلك شمالا في غرب في هذه الفترة (٦٢٤ - ٧٥٦). فالفتح العربي الاسلامي لشمال غرب افريقية والجزء الاكبر من شبه جزيرة ايبيريا وساحل القنال بين البرابنيس ومصب الرون جرد الباباوية من سلطانها على رعاياها فكنسين في هذه المناطق. لكن الامر لم ينته عند هذا الحد، بل ان المسيحية في شمال غرب افريقية، مثل الزرداشية في ايران، خسرت الكثيرين من اتباعها (في ظل الحكم الاسلامي) الذين اعتنقوا الاسلام. وقد كان اعتناق هؤلاء للاسلام هناك اسرع مما جرى في اسبانية القوطية او في الهلال الخصيب. على كل حال عقبه انجحت من طريق الاعتراف القام بالسلطة الباباوية - ذلك بان الدوناتييين - الذين كانوا قد اعتنقوا مع الكاثوليك من قبل، انتهى امرهم الآن، ان المسيحية كانت قد انتشرت وامتدت جذورها في شمال غرب افريقية قبل ان تنتشر وتعرف في المناطق الواقعة شمالي البحر المتوسط. ومن ثم فما دامت الكنيسة في شمال غرب افريقية متحدة ونشطة فانها لم تكن على استعداد للاعتراف بالسيادة الكنسية لرومة.

ومن الناحية الثانية فان الحكومة الامبراطورية الشرقية طغت الباباوية طعنة نجلاء لما نقلت (حول ٧٣٢ / ٧٣٣) جنوب ليطالية الاقصى وصقلية وجميع البريا الشرقية من سلطة الباباوية الى سلطة اسقفية القسطنطينية، وحولت الضرائب المستحقة من الاملاك، الموقوفة على القديس بطرس في صقلية من الخزينة الباباوية الى الخزينة الامبراطورية. كان البابا غريغوريوس الثاني (٧١٥ - ٧٣١) قد تحدى الامبراطور ليو الثالث اذ ابد مناولته من رعاياه الغربيين في رفضهم دفع ضريبة اضافية للدفاع عن القسطنطينية ضد الحصار العربي (٧١٧ - ٧١٨)، وفي رفضهم الانصياع الى امر الامبراطور في ان لا يضمروا الصماتيل في الكنتانس. وغريغوريوس الثاني وخليفته غريغوريوس الثالث (٧٣١ - ٧٤١) حرما على التوالي، بطريرك القسطنطينية الوديع الذي اقامه ليو في العاصمة. ومن ثم فقد اظهر هذان الباباوان استقلالهما الكنسي والسياسي. ومع ذلك مان الامبراطور ليو لم يستطع ان يتألهما بأكى (كما كان قد حدث للبابا علوتس الاول من

قبل). ومع ذلك فإن ما خسره الباباوية من الممتلكات التي كانت تابعة للكنيسة وصرائب، كان كبيراً بالنسبة إلى الاستقلال البابوي.

على أن الباباوية كانت قد عرخت عن الخسارة الآتية حتى قبل حدوثها. ففي سنة ٦٣٤ كانت مملكة نوثرمبريا أقصى دولة خليفة في بريطانيا للإمبراطورية الرومانية، قد ربحها المبشرون الأرثوذكسيون لأسقفية روم، وقد كسبت ثانية (٦٦٤). وفي هذه المرة تبع ذلك خضوع الكتائس القلتية في اسكتلندا وويلز وبريتانية واولندا (القرن الثامن). وقام الراهب الأرثوذكسي اليوناني نيوذور الطرسوسي، الذي عينه البابا رئيس أساقفة لكنفري، باصلاح الكنيسة الرومانية في انكترا (٦٦٩ - ٦٩٠). وفي القرن الرابع تجذرت الرهبنة البندكتية. وكان من ثمارها ان يبد الراهب البندكتي وضع كتابه التاريخ الكنسي للشعب الانكليزي (٧٣١).

وفي سنة ٦٩٠ خرج وبليورد - كلمنت الراهب الانكليزي من نورثامبريا الى القارة لتبشير بين سكان فريزيا، وبنه وينفرد - يوتفاس (٧١٦) الراهب الانكليزي، ليقوم بالتبشير في جنوب ألمانيا الحالية. ومع ان يوتفاس، صلح الكنيسة الفرنكية ونظمها على اسي رومة (٧٤٦ - ٧٤٧) فإن المتصرفين في شؤون بلاد الفرنك حرصوا كما حرص اباطرة الامبراطورية الرومانية الشرقية على ان تكون لهم الكلمة الاخيرة في تسير شؤون الكنيسة المسيحية في ممتلكاتهم.

وعلى كل فقد اضبح للأسرة الكارولنجية وللپاباوية ان كلا منهما بحاجة الى التأيد من الآخر. فقد كان الكارولنجيون يحكمون المملكة الفرنكية في الواقع منذ ٦٧٨، فأرادوا ان يكونوا حكامها شرعا (قانونا). فطلب ييبين الثالث (القصر) من البابا (٧٥٠) فتوى حول الموضوع. ولما حصل على النص البابوي (٧٥١ أو ٧٥٢) المؤيد له دعا الشعب الفرنكي الى مؤتمر انتخب فيه ملكا (وعلع آخر البروفنجيين). وفي سنة ٧٥١ انتزع اللومبارديون رافنا (ايطالية) من الامبراطورية الرومانية الشرقية.

ما كان للرومان الشرقيين ان يستعيدوا رافنا - وهم لم يحاولوا. فقد كان واجب القوات المسلحة من الجيش الاصيلي للإمبراطورية هو الدفاع ضد العرب والبلغار وكان من الواضح ان اللومبارديين كان بإمكانهم ان يحتلوا روم ايضا ما لم تجد الباباوية عوضا للبعون العسكري الذي كان يأتي من الامبراطورية الشرقية، والتي اصبحت القسطنطينية عاجزة عن تقديمه. والى ذلك الوقت لم تكن الباباوية قد حاولت

الانفصال عن الامبراطورية الرومانية الشرقية. لكن في ٧٥٣-٧٥٤ قطع الياها اسطنان
الالب ليطلب، من يبين، التدخل عسكريا في ايطاليا . وقد (مسح) توج هو نفسه
بييس وابنيه شارل وكارلومان (٧٥٤) . وقد قطع يبين الالكب (٧٥٥ نم ٧٥٦) ،
وتقلب على اللوميلوديين (اتخذ رومه) وايضا استولى على الممتلكات التي كانت تابعة
للإمبراطورية الرومانية الشرقية حول رافنا واعطاهم لياها (رافنا طلب الامبراطور الشرقي
اعادتها له) .

٥٢- اسية الشرقية ٥٨٩-٧٦٢

استتعت الصين لمدة تزيد عن قرن ونصف القرن، بدءاً من سنة ٥٨٩ فترة وحدة وقوة وإزدهار تختلف تماماً عن الفترة التي سبقت ذلك (بدءاً من انحلال حكم الهان الشرقية سنة ١٨٥) لذا عرفت بالتمزق والخصومة. ففي سنة ٥٨٩ توحدت الصين للمرة الأولى بعد هجوم البرابرة الشماليين (٣٠٤). وهذه الوحدة تبعتها إعادة نظام هان وو - شي الذي كان أساسه اعتبار الموثلفين على أساس امتحان في المسؤوليات الكلاسيكية الكونفوشية. وقد انشئت الصين الموحدة خارج حدودها الأصلية. ويعود السبب في هذه الأعمال الناجحة إلى العهد الذي قطعه الامبراطور وي هزباو ون - شي بان يملك كل فلاح حيا أدنى من الأرض. وقد اتبع خلفاؤه هذا الإصلاح الجذري بإنشاء ميليشيات فلاحية. وبهذه الطريقة احتل سوي ون - شي الجنوب وضعه إلى الشمال (٥٨٩). والميليشيات الفلاحية مكنت لثاني تسونغ (حكم ٦٢٦ - ٦٤٩) من احتلال بعض مناطق اسية الوسطى. وأسرة وي وخلفاؤها لم يستطيعوا أن يضعوا لبوداً للملاكين الكبار. وقد فعلت أسرة سوي ذلك (٥٨٩) فعينت الحد الأقصى للملكية. وكان ذلك يختلف باختلاف الدرجة الاجتماعية للمالك. ولم يحاول لا السوي ولا تانغ نزع الملكية عن الممتلكات الكبيرة. والواقع أن تحديد هذه الملكيات وعدم ضمانة حد أدنى من الملكية للفلاح كان مما يقع في عالم المثال، ولم يمكن تطبيقهما تماماً أبداً. وعلى كل فلاح هو مدون تعرف أنه في أوائل عهد تانغ كان تقريباً أربعة أبناء. أس الامبراطورية كانت تجبي مما هو مقروض على الفلاحين ضريبة رؤوس. ويبدو واضحاً أن المصائب التي حلت بالامبراطورية حول أواسط القرن الثامن، كانت نتيجة فشل الدولة (خلال النصف الأول من القرن ذاته) في تزويد الملاحين بالأرض من نوع الحد الأدنى.

وقد كان لهذا الفشل أسباب عدة. فالسبب الأول كان لزيادة عدد السكان الفلاحين، وذلك بسبب انتشار الأمن والنظام (٦٢٨). ومع أن الجنوب فتح للعمل، ومع أن الشماليين اغتفوا يهاجرون جنوباً، فإن عدد السكان تجاوزوا إمكان مسحهم الحد الأدنى من ملكية الأرض. وثمة سبب ثان وهو إحياء نظام الامتحان لاختيار الموظفين. فقد تصرف الموظفون الجدد كما تصرف اسلافهم، إذ انهم اقتادوا من مناصبهم لتجميع الأرضين في أيديهم. وقد أثار هذا حصوة بين طبقة الموظفين الكونغوشيين الجدد وهم من السديريين - الملاكين في الجنوب الشرقي وبين كبار الملاكين الأقدم والأكبر ثراء في الأوس (في الشمال الغربي). وحاول امبراطور تانغ، هووان تسينغ (حكم ٧١٢ - ٧٥٦) أن يوقف هذه التطورات غير المرغوب فيها. ثم أعدت المصائب تنهال على الامبراطورية في سنة ٧٥٦.

كان عصر لسرة سوي، التي أعادت الوحدة إلى الصين (٥٨٩)، قصيراً. والامبراطور الثاني من هذه الأسرة يانغ - تي (حكم ٦٠٤ - ٦١٨) كان أية في النشاط، فكانت، من ثم، مطالبه من شبه قليلة إلى درجة لا تطلق، بحيث أثلث ثورة أطاحت بالأسرة. وتلا ذلك فترة فوضى وحرب أهلية (٦١٧ - ٦٢٨) قبل أن يعود أسرة تانغ. وقد أعادت هذه الأسرة من إنجازات أسلافه الأوائلين. فأعاد حكمها الوحدة من حيث مادتها أصلاً، لكنهم كانوا ماهرين في تصرفهم، بحيث أنهم لم يشيروا رد فعل عدائنا، وهو الذي دفعت الأسرة السابقة ثمنه غالباً.

كان حفر الآنية بالسفرة انقل الأعياء وأكثرها ابتذالاً في نظر السكان في عصر أسرة سوي. لقد حفرت القناة الكبرى في أيام حكم هذه الأسرة. وبدأت هذه من هانغشو، على الساحل الشرقي، إلى جنوبي اليانكسي. وفي تحطيطها الأصلي كانت تربط نهر يانكسي بالنهر الأصفر على مقربة من لويانغ. وقد أضاف سوي يانغ - تي مرعاً كان يندرج شمالاً لنهر التجود والمؤن والعتاد إلى منطقة القتال في شمال كوريا وكان حفر الطرق المائية الصناعية، قبل أيام السكك الحديدية والطيران، أمراً ضرورياً لربط الشمال بالجنوب ربطاً لحمة. فلأنهار الصين الكبرى تنبع من الغرب إلى الشرق، فكان من الضروري أن تحفر الأقنية كي تنقل المتاجر مائياً من الجنوب إلى الشمال. ومن ثم فإنه لما اتهم بلاط أسرة تانغ والادارة المركزية بالموظفين أصبحت القناة الكبرى (التي

حفرتها اسيرة سوي) طريقاً رئيساً لنقل الارز من الجنوب الى عاصمتهم، تشانغ - ان، وهذه كانت تقوم في حوض وادي احد روافد النهر لافغر، وهي من بناء سوي!
 حدم الفرع الشمالي للقناة الكبرى اسيرة تانغ لاذ نجحت هذه بالقضاء على اقصى شمال كوريا (٦٦٠ و ٦٦٨) وذلك بمساعدة سيللا. الا ان هذا اسرج تانغ من المنطقة، ووحد كوريا تحت سلطانه. وهذه قبلت بهادة صينية اسمية. الا ان توحيدها السياسي كان، في الناحية الاخرى، باعثاً للمدينة الصينية على قبولها مدينة كوريا ومساعد على انتشار البوذية.

في سنة ٥٥٢ اسس الاتراك (تو - تشوه) امبراطورية سهوية على غرار الامبراطورية التي انشأها الهون (للقرن الثاني قبل الميلاد). وبذلك كان الاتراك اسبق في اقامة وحدة بين الشعوب الاوراسية من توحيد الصين. والمهم انه ينقطع النظر عن تقسم الامبراطورية الاوراسية، كان على الصين ان تنظر بحذر (٦٢٧) الى الصينيين والعرب الذين كانوا يقومون بحملات عسكرية.

كانت النتيجة قد توحدت (٦٠٧) وكانت المدينة الهندية قد تطلبت على العناصر المدنية المسيحية هناك. واصبحت النتيجة الآن تنازع المسيحية بسبب سيطرة هذه على حوض فاريم. وفي السنوات ٦٦١ - ٦٧١ ضم العرب طخارستان. وهكذا فان الصين، في عهد اسيرة تانغ، كان توسعها برا نحو الهند وجنوب غرب اسية، موضع تحد وتحديده. ومع ذلك فان حملة فاشلة قامت بها الصين فتحت الطريق امام المدينة الصينية لتتلقى المؤثرات الاثنية من الغرب. واليهودون الصينيون كانوا لا يزالون على اتصال مع البوذيين الهنود برا وبحرا. والزرداشية اقامت لها مستقرات في الصين (حول ٥٢٥). ويبدو ان المانوية وصلت الصين قبل نهاية القرن السابع. وثمة ما يدل على وجود جماعات نيشيرية نسطورية في تشانغ - ان في سنة ٦٣٥. وانتشار الديانات الثلاث التي كانت في الامبراطورية الساسانية (وهي الزرداشية والمسيحية النسطورية والمانوية) شرقا كان قد شجعه ضم خسرو الاول طخارستان (لواسط القرن السادس). ثم شجع ذلك الانتشار قضاء العرب على الامبراطورية الساسانية، الامر الذي حصل الكثيرين على ترك البلاد مهاجرين والاتجاه شرقا.

كان اباطرة سوي وتانغ من هواة البوذية، مع التسامح مع اديان اخرى اجنبية الاصل.

الا ان احياء الدراسات الكونفوشية من اجل الحصول على موظفين للدولة، اناح العرصة لقيام رد فعل كونفوشي ضد جميع الجائحات الاجنبية، بما في ذلك البوذية.

كانت تشانغ - آن، في ليام اسرة تانغ، اكثر نزعة عالمية من غيرها في اويكوميس العالم القديم. وفي هذا الامر تتوقت تشانغ - آن على القسطنطينية المعاصرة لها الا ان الفنون المتطورة والشعر، في العصر الثاني المبكر، كانت صنية بشكل متجهز. واشكال الاجسام الصغيرة من الجبس تزودنا بلمحات حية للحياة اليومية. وكان الشاهران لي يو (٧٠١ - ٧٦٢) وتومو (٧١٢ - ٧٧٠) معاصرين للامبراطور هزوان نسيغ. وقد كانت امبراطورية تانغ والمدينة الصينية موضع اعجاب وتقليد لا في كوريا فحسب، بل حتى في اليابان. فقد ارسلت الامبراطورية اليابانية رسلا الى اسدى الاسر في الصين الجنوبية في القرن الخامس. ومنذ ٦٠٧ كانت سفارات كثيرة ترسل الى تشانغ - آن، وفي سنة ٦٠٨ كانت سفارات كثيرة ترسل الى تشانغ - آن. وفي سنة ٦٠٨ رافق سفير من اسرة سوي السفارة اليابانية في طريق عودتها. وقد ادخلت الحكومة الامبراطورية اليابانية (على الاقل على الورق) نظاما اداريا وتوزعا للأراضي على الفلاحين على غرار ما كان قائما في الصين. وفي سنة ٦٠٧ اتبعت الحكومة نموذجا لنسيغ - آن في تارا. ان تقليد كل من كوريا واليابان للصين دليل على المنزلة التي كانت الصين تحتلها. الا ان الصين لقيت سلسلة من النكبات منذ اواسط القرن الثامن. فقد انتصر العرب على الصين (٧٥١) في معركة نهر طلس (في اواسط اسية اليوم) الى الشمال من فرغانة. وكان هذا آخر النشاط الصيني العسكري الى الغرب من حوض تاريم. وفي السنة نفسها صدرت قوات دولة نان - تشاو (في ولاية يونان الصينية اليوم) هجوما صينيا، ومع ان ولاية نان - تشاو (وهي من الشاي) كانت قد خضعت للحدودية الصينية والنظم الامبراطورية الصينية، فان هذا هو الذي سكن لها من تنظيم امورها وحسد الصين. وفي سنة ٧٥٥ ثار ان لو - شان (وهو قائد تركي) ولم تحصد ثورته إلا في سنة ٧٦٣، وكانت آثارها محزنة كثيرا. والأرقام الموجودة بين ايدينا تدلنا على ان سكان الصين في سنة ٧٦٤ كانوا اقل من ثلث ما كانوا عليه سنة ٧٠٤.

٤- العالم الإسلامي ٧٥٠-٩٤٥

إن ثورة سنة ٧٥٠ غيرت ملامحة الدولة الإسلامية. فقد كانت هذه الدولة، من سنة ٦٣٣ إلى سنة ٧٥٠، فترة « سيادة » لفترة إسلامية عربية ذات امتيازات خاصة بها، وكانت تسيطر على أعداد كبيرة من الرعايا غير المسلمين وإعداد أصغر، لكنها تعزاهد كماً، من الذين اعتنقوا الإسلام من غير العرب. وهذه « السيادة » العربية الإسلامية حل محلها الآن « سيادة » إسلامية، التي كانت لا تزال للبلد عدداً، وكانت لا تزال تتمتع بامتيازات خاصة، إلا أنها أصبحت جماعة من المسلمين بقطع النظر عن العرق أو النومية. وقد كانت هذه « الأمة » من حيث امكاناتها، مسكونية. وكانت تصمم جميع سكان الدولة الإسلامية، بل البشرية جميعاً. ولزاحة « السيادة » العربية (٧٥٠) بُدِئ في سنة ٨١٣، لما استولى المأمون (وقد عهد إليه أبوه الرشيد بالجزء الإيراني من الامبراطورية) على الجزء الذي كان حصه أخيه الأمين (وقد عهد الرشيد به إليه، وهو الذي كان يقم فيه أكثر العرب من مكان الامبراطورية).

والثمن الذي دفعته الدولة الإسلامية لقاء وضع حد لهوية الأمة الإسلامية عربياً، كان تحوّل الحكومة إلى لوتوقراطية من النوع الفارسي الساساني. كان يغلب على العرب الميل إلى الفوضى وكان هذا يصدق لا على العرب البلد الرعاة فحسب، بل على المستقرين من سكان الواحات في الجزيرة العربية، وعلى « الأصهار » التي قام فيها العرب المنتصرون. يدعو المؤرخ اليوناني ثيوفانوس (كتب حوالي سنة ٨١٠-٨١٣) رأس الدولة الإسلامية « رئيس المجلس ». هذا الوصف ينطبق على الحلفاء الراشدين ولم يكن خلفائهم الأمويون وأتوقراطيين في علاقاتهم مع جماعاتهم من العرب، إذ أن قوتهم السياسية والحرية كانت تعتمد على تأييد العرب لهم. ومن الممكن للعرب أن يهزبوا وإن يحسوا بالأذى، لذلك كان على معاوية وخلفائه أن يعاملوا العرب في عاية

الحجر. فانتفاض « السيادة » العربية لروح العباسيين من مثل هذا التقيد في ممارستهم سلطنتهم. والمسلمون من غير العرب تألقوا حظهم من المساواة بالعرب بالقياس إلى غير المسلمين، لكنهم لم يرقوا درجة المحظوة التي كانت للعرب مع الأمويين.

واللغة العربية لم تؤثر فيها ما أصاب الشعب العربي من تدني المرتبة. فقد ظلت اللغة العربية أيام العباسيين لغة الدولة الإسلامية للشؤون الأدبية، كما أنها استمرت لغة الشعر. وهذا الشعر، مثل النحر، أسهم فيه عرب وغير عرب. والمأمون (حكم ٨١٣ - ٨٣٣) اعتمد على الأبرصين مصدراً ثابته سياسياً وحرماً، لكنه شجع ترجمة الأعمال الفلسفية والعلمية اليونانية إلى العربية. وقد نقل بعضها من اليونانية رأساً، ونقل عدة أكبر عن ترجمات سريانية (نقلت عن اليونانية أصلاً). لقد لرغم موقفه للدولة الإسلامية من غير العرب أن يكونوا ثنائي اللغة، وذلك قبل نهاية القرن السابع. ومن هذا الصنف الذي زود المترجمين في القرن التاسع. وكانت حران (الرها) في الجزيرة العربية أحد المسبل الذي تم عليه النقل. ففي هذه المدينة كانت بقايا هيلينية (تعود إلى ما قبل المسيحية وما قبل الإسلام) للديانة البابلية محتفظة هناك بعماليها إلى القرن التاسع. والسبل الآسر هو جند يشاهور في خوزستان (عربستان). أنشأ جند يشاهور الأمراطور الساساني شاهور الأول (حكم ٢٤١ - ٢٧٢) لتكون مسكناً للأسرى الذين حملهم من سورية. لكنها أصبحت فيما بعد مركزاً لمدرسة الطب النسطورية.

ودقق الترجمة من السريانية واليونانية إلى العربية في القرن التاسع يدل على أنه كان هناك قراء مثقفون نسطورن. وتركزت هذه الحركة في بغداد التي كانت تقع على مسافة قصيرة من أكتيفون (السفلن) عاصمة الساسانيين للسياسة السابقة وعاصمة الغريشين قبلهم. وانشئت بغداد سنة ٧٦٢ عاصمة للخلافة العباسية، وأصبحت مدينة « هالمية »، على نحو ما كانت عليه تشانغ - آو (في الصين) في مدة السعة والخمسين سنة السابقة. وتطوير اللغة العربية في المصهر الفكري في بغداد في القرن التاسع جعل منها الآلة التي أصبحت اللغة الحضورية الشائعة للعالم الإسلامي بكامله من حوض سيجون وسيجون الم. المحيط الأطلسي.

أخذت العربية تحل محل لغات أخرى كانت قائمة في الامبراطورية الإسلامية، لتصبح لغة التخاطب. لكن في هذا المجال لم تنجح العربية في أن تحل محل العارسية فالقرس احتفظوا بلهتهم لكنهم كتبوا بالالف باء العربية، وقرأوها بكلمات

اعتدت من العربية. وهذه اللغة الجديدة أصبحت فيما بعد أداة للتعبير عن أدب عظيم وقد كان أبرز على العربية أن تحل مع الزمن محل اختها السامية اللغة السريانية التي كانت لغة التخاطب في الرقة. في الهلال الخصيب أدام الفتح العربي. وانتشرت العربية تدريجاً على حساب اللغة القبطية في مصر، وبسرعة أكبر في شمال غرب إفريقيا على حساب بعض اللهجات البربرية. لقد كان البربر متخلفين نسبياً، ومن ثم فقد قبلوا اللغة العربية والإسلام. وفلاحوا الهلال الخصيب ومصر الذين حافظوا خلال الفترة التي نتحدث عنها الآن (أي من ٧٥٠ إلى ٩٤٥) على المسيحية، لأن انتشار العربية فيما بينهم كان قليلاً نسبياً.

ومما حفز النشاط العقلي في المجتمع الإسلامي الحاجة إلى ترويض الأسلام بالأدوات العقلية التي كانت ملكاً للأديان التي يتبعها غير المسلمين من رعايا الامبراطورية. فقد كان من الواضح أن الأسلام كان بحاجة إلى منظومات قانونية ولاهوتية تتناسب مع الدور القيادي للجماعة في امبراطورية كانت موطناً لعدد من الفلسفات القديمة والناصجة.

كانت الشريعة من نول الأمور اللازمة للمجتمع. وكان لا بد من العمق في درس القرآن الكريم والحديث النبوي لتوضيح الامرين وتصنيف المادة الموجودة فيهما، وملاءم الفراغات الممكنة على قاعدة القياس والافتاد من العرف والعادة المصطلحين، اللذين كانا، في احيان كثيرة (فيما كان جزءاً من الامبراطورية الرومانية) تعديلاً محلها لنماتون الروماني. وفيما بين ٧٥٠ و ٩٠٠ جمع الحديث وصنف وقامت المذاهب الأربعة. وقد كانت هذه كلها مقبولة، ومن ثم فإن اختيار أي من المذاهب الأربعة امر معرّوك للجماعة نفسها.

كان من الطبيعي أن يثار الفكر الاسلامي بما كان في البلاد المستعمرة من لاهوت مسيحي، وبما نقل عن اليونان من فلسفة. لكن وضوح فكرة الوحدانية في الاسلام لم تكن لتسمح للذي حدث في المسيحية من وجوب عقد مجامع مسكونية لصوغ عقيدة أو قانون للامتنان. والفكرة التي أثارت مشكلات لا ارتباطها بالحياة السياسية كانت قصة «خلق القرآن» (في أيام المأمون). أما القضية الفلسفية العامة التي نظر فيها الفيلسوفان اللذان ظهرا في المئة سنة المنتهية بسنة ٩٤٥ هي التوفيق بين الاسلام والمثفة اليونانية. أما الفيلسوفان فهما الكندي (توفي ٨٧٣) والفارابي (توفي ٩٥٠).

إد ثورة ٧٥٠ راقتها إيران: الأول توقف التوسع العربي عن طريق التفتح، والثاني أنها كانت بدءاً لنهاية بالنسبة للوحدة السياسية للدولة. ففي عصر الدولة الأموية، على ما كان بين الرعامة من تناحر، استمر العرب في توسيع رقعة الامبراطورية فتحاً حتى قاربت شمس الدولة على المذهب. لكن العباسيين لم يتسلموا حتى الامبراطورية بمسها كاملة. ففي سنة ٧٥٦ نجح عبد الرحمن الداخل في تكتيل العرب في الأندلس حوله (وكانوا قد رفضوا قبول الدولة العباسية أصلاً) . وبين ٧٥٧ و ٧٨٦ قامت ثلاث دول من الخوارج في بلاد البربر في الجزائر وفي سفوح الأطلس الجنوبية. وفي سنة ٧٨٨ قامت إمارة علوية (الإدلسية) في شمال المغرب (فاس) . وقامت دولة الأغالبة في تونس في سنة ٨٠٠، والتي ظلت تعترف بولاء اسمي للخلافة العباسية حتى حلت الخلافة الفاطمية مكانها (٩٠٩) وهي التي كانت تنكر على العباسيين شرعيتهم (في الخلافة) وأملت أن تحل محلهم في العالم الإسلامي بكامله.

وقد كانت للفتن الدينية والسياسية في الممتلكات الإيرانية أشد أذى على الخلافة العباسية، بسبب أن إيران كانت مصدر قوتها. ان الإيرانيين لم يجدوا في الزرادشتية ما يخفي القليل، فلتحول البعض منهم إلى المانوية والمردكية. وقد كان الإيرانيون، على العموم، أسرع في اعتناق الإسلام من معاصريهم من المسيحيين. وكان أبو مسلم اليد اليمنى للعباسيين في وصولهم إلى السلطة. ويبدو أن باغتيال أبي مسلم على يد المنصور (حكم ٧٥٤ - ٧٧٥) بدت بوادر انحطاط الأيراني، وكانت سلسلة من حوادث العصيان (في السنوات ٧٥٥ / ٧٥٦، و ٧٦٦ - ٧٦٨ و ٧٧٧ و ٧٨٣ / ٤ - ثورة المظفر) . وبهايك الخرمي قاد ثورة في غرب إيران من ٨١٦ إلى ٨٢٨. وكانت ثمة ثورة الزنج (٨٦٩ - ٨٨٣) في الحوض الأدنى للفراتين. وقد انتشر الإسلام الشيعي في إيران بين حبال البرز والساحل الجنوبي لبحر قزوين، مع أن المنطقة لم يفتحها العرب، وحكمها أسرة شيعية (زيدية) من ٨٦٤ حتى ٩٢٨. وفي سنة ٨٢٢ (وما تلاها) تغلب البويهيون (من شمال غرب إيران أصلاً) على غرب إيران، وفي سنة ٩٤٥ احتلوا بغداد واتخذوا من الخلافة العباسية أداة طيعة لأغراضهم.

مذ أن تولى المحتصم الخلافة (حكم ٨٣٣ - ٨٤٢) والعباسيون لدوات طيعة في أيدي الجند الرقيق التركي، وهم الذين خلفوا الختراسانيين الذين يمسروا للعباسيين الوصول إلى الخلافة. (وكان الأتراك بالرغم من زوال دولتهم في السهوب الأوروبية،

لا يزالون يسيطرون على تلك السهوب). والجند الرقيق التركي كان منبأ في مذهبه. والسامانيون (وهم إيرانيون) الذين حكموا طخارستان وما وراء النهر وخراسان كانوا متحدرين من زرادشتيين اعتنقوا الاسلام السني، وكانوا حريصين على ان يحتموا بالسيادة الاسمية للخلافة. اما البوهيون الذين دخلوا بغداد (٩٤٥) فكانوا شيعة، وبذلك اتضح ان سلطة الخلافة لم تمت لتشمل عالم السنة. وكان هذا الامر قد برز عملها لما اعلن عبد الرحمن الناصر الأموي نفسه خليفة في الاندلس (٩٢٩). وهكذا فقد كان في وقت واحد خليفان سنيان وخليفة فاطمي - كل يحكم جزءا من الامبراطورية الاسلامية. في الفترة الممتدة من سنة ٧٥٠ - ٩٤٥ كانت الانتماءات الاسلامية هي من صنع الدويلات الاسلامية في المغرب او من صنع المغامرين (الاستثناء الوحيد هو انتصار العرب على الصينيين في معركة نهر طلس سنة ٧٥١). الدولة الاموية في الاندلس اخذت تقلص مساحة. ففي سنة ٨٠٣ خسرت ما كان يهدا شمال جبال البيرانية وقطولونيا الى جنوب الجبال نفسها. إلا ان بعض مسلمي الاندلس الذين اخرجوا منها بعد ثورة الربض، انتزعوا كريت (٨٢٦ او ٨٢٧) من الامبراطورية الرومانية الشرقية. وفي السنوات ٨٢٧ - ٩٠٢ انفزع الاغلبية مستقلة (باستثناء حصن واحد فيها) من الامبراطورية نفسها. واتحلال امبراطورية شارلمان في القرن التاسع مكّن العرب في اسبانية وصقلية من القيام بحملات بحرية ضد ايطالية. وقد تمكنوا من احتلال اجزاء مختلفة من البلاد.

وفي اواسط اسبة لم يتراجع الاسلام؛ على العكس فقد انتشر. ففي ايام الخليفة المقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢) حين كانت الخلافة العباسية على اضعف ما يكون، بعث بلغار الفولغا (وهم شعب تركي كان يقيم عند ملتقى الفولغا بكما) الى الخليفة يطلبون منه ان يبحث اليهم من يفتهم بالدين الاسلامي. وقد لوسل الخليفة بعثة اليهم (٩٢٢). وقد اعتنق القارلق (وهم اقراق) الاسلام من جيرانهم في ما وراء النهر - وهم السامانيون. وانتشر القارلق الى حوض تايم وحملوا الاسلام معهم. وهكذا فضا كانت الدولة الاسلامية الواحدة تمتد، كان الناس يدخلون في الاسلام المتواجبة - على كل اكثر مما كانوا يعتنقونه ودولته واحدة قوية.

٥٥ مدينة البيزنطيين ٧٣٦ - ٩٢٧ / ٩٢٨

إذما خبست الامبراطورية البيزنطية (التي قاومت حصار العرب لعاصمتها مرقين (٦٧٤- ٦٧٨ و ٧١٧- ٧١٨) بجارتها الجنوبية الامبراطورية العربية الاسلامية او بامبراطورية شارلمان (حكم ٧٦٨- ٨١٤) بدت ذات رقعة صغيرة. وظلت الامبراطورية الكارولنجية جارة البيزنطيين الشمالية الغربية الى انحلال الامبراطورية خلال القرن التاسع. وكانت الدولة البيزنطية حدة في سياستها الخارجية (بين ٧١٩ و ٩٢٥). وقد كانت محاولة الامبراطورة إيريني (٧٨٨) لاصراج الفرنك من لومبارديا فاشلة - وكانت هذه مغامرة لا تتفق مع السياسة الخارجية العامة.

خلال الفترة المذكورة حصرت حكومة الامبراطورية الشرقية همها في تتبع هدفين: اولهما الاحتفاظ بما كانت لا تزال تسيطر عليه من الممتلكات، وثانيهما ضم المستوطنات الصقلية التي قامت داخل البلقان التي كان باستطاعتها انقاذها من البلغاريين. وقد كانت الحروب مع البلغار العبيد الاكبر على مصادر الفخار في الامبراطورية الشرقية. وبعد ان استولى المسلمون على كريت (٨٢٦ او ٨٢٧)، وقامت تحصينات كندا كأنها حصار موجه الى قلب الامبراطورية الرومانية الشرقية، قامت هذه بمحاولات متكررة لاسترداد الجزيرة. كما ان الامبراطورية الشرقية ناهضت احتلال الاغالبة لصقلية (٨٢٧- ٩٠٢) ولكن دون جدوى. ولما احتل المسلمون الصقليين واغزوا اسرع الامبراطور ميسيل (حكم ٨٦٧- ٨٨٦) فضم ابرلبا الى الامبراطورية (٨٦٨- ٨٧٦).

هذه كانت سياسة الدفاع التي انتهجها الامبراطورية الرومانية الشرقية. فقد كان شغل الامبراطورية الشاغل ان تحصل على عزل و يمنع الاتصال بين المسلمين في شمال غرب افرقية وصقلية في الجهة الواحدة وبين البلغار في الجهة الثانية، عبر البحر

الادرياتيكي. وتبدو السياسة الحذرة التي اتبعتها الامبراطورية الشرقية في ان الحملة التي قلد فيها امير ملطية قواته (٨٦٢)، لم تلتها حملة بزنطية، وانما جلت هذه سنة ٩٢٦، اي بعد ثلاث وستين سنة. والحملة الموسعة التي لوسنها الامبراطورية الشرقية في هذه الفترة كانت ضد المسيحيين البرلسين الذين اناسوا لهم حصنا في نمرىكه (دمرهجي)، والذين دامت الحرب بينهم وبين الامبراطورية الشرقية من حوالي سنة ٨٤٣ الى حوالي سنة ٨٧٨.

كانت الحروب البلقانية اشد واكثر جدية. فقد عجز الامبراطور قسطنطين الخامس عن تدبير البلغار في حروب امتدت من ٧٥٥ الى ٧٧٥. وكانت المخصومة تدور حول الاستيلاء على المستوطنات الصقلية. وبعد حروب طويلة حددت الحدود (٩٠٤) لحدود حدود البلغار على مسافة ٢٢ كيلو مترا عن نساوونيك (سلاتنيك) - وهذه كانت مدينة بالغة الاهمية للامبراطورية الشرقية.

سُلبت الامبراطورية الرومانية الشرقية، بين سنة ٧٢٦ وسنة ٨٤٣ بما عرف بمشكلة الايقونات. فمن المعروف ان الخليفة الاموي يزيد (حكم ٧٢٠ - ٧٢٤) امر بتعطيم الايقونات في جميع الكنائس المسيحية في الدولة العربية. وفي سنة ٧٢٦ اصغر لهر الثالث الامبراطور البيزنطي، امرا شيئا بذلك. وذلك بناء على طلب جنود الحاميات في اسية الصغرى. إلا ان الرعايا الناهمين لكنيسة رومه (وهؤلاء كان بينهم يومها سكان جزر الارخبيل وكريت وبعض سكان بلاد اليونان القارية) قاوموا الامر بشدة، فردت حكومة الامبراطورية الشرقية بان نقلت الرعايا اليونان هؤلاء من اسقفية رومه الى اسقفية القسطنطينية.

في سنة ٨٤٣ انتهى هذا النزاع داخل الامبراطورية الرومانية الشرقية الى حل وسط كان في صالح محبي الصور. فقد تقرر ان تحرم التمثيل لانها ثلاثة الالهة ويحفظ بالصور الثمانية الالهة، لا على انها لشيء للعبادة بالذات، بل على انها رموز لما تسئل من اناس او ملائكة او حتى لشخص لله. وقد انتهى هذا الحل المخصومة القائمة بين بطريركيتي القسطنطينية ورومه، إذ ان رعايا البانيا لم يجمعوا على تأييده. وفي سنة ٧٨٧ ابد المجمع المسكوني السابع (المنعقد في نيقية) موقف الامبراطورية الرومانية الشرقية، كما ان البانيا وافق على مقرراته. لكن مجعما شغل اساقفة الامبراطورية الكارولنجية انعقد في فرانكفورت (٧٩٤) تد بالقرارات المذكورة.

وقد تلا انتهاء الصراع الداخلي في المسيحية الأرثوذكسية الشرقية، نهضة ثقافية كان محركها الروحي غوتنبرغ (بطويك القسطنطينية ٨٥٨-٨٦٧ و ٨٧٧-٨٨٦) وقد وسع نطاق الإشعاع البيزنطي العمل الذي قام به المبشران الاخوان: قسطنطين - سيريل واحوه ميثوديوس. وكانت البعثة الأولى التي قام بها قسطنطين الى الحزر. وهم شعب تركي كان من وعابا دولة تركية قامت في السهوب، التي كانت اكثر دولة مستعدة ظهرت في الطرف الغربي للسهوب الأوروبية منذ زوال امبراطورية السكيثين (في القرن الثالث قبل الميلاد). وقد كان الحزر حلفاء قدماء للامبراطورية الرومانية الشرقية في حروبها ضد الفرس والعرب. وفي سنة ٨٦٠ (وهي السنة التي وصل فيها قسطنطين الى عازاريا) تعرض الحلفاء القدماء (اي الامبراطورية الرومانية الشرقية) لهجوم اسويجي، اذ هاجمت عشيرة بحرية القسطنطينية جاراتها من روسيا. ومع ذلك فان بعثة قسطنطين الى الحزر كانت فاشلة. ففي سنة ٨٦٠ كانت اسرة خاقان الحزر قد انضمت باليهودية (وقد اعتنقوا هذه الديانة لأنها لم تورطهم في عظيم السياسة الذي كان يسكن ان يخصصوا فيه فيما لو اعتنقوا الدين الذي كان قائماً لما في الامبراطورية الرومانية الشرقية - المسيحية - او في الخلافة العباسية - الاسلام). وفي سنة ٨٦٣ لبى الاخوان، قسطنطين - سيريل وميثوديوس، دعوة حاكم مودانيا الكبير الصقليسي (في تشكوسلوفاكيا وبلغاريا الحاليين) دعيا الى هذا البلد الصقليسي الثاني، حاملين معهما الف باء كان قسطنطين - سيريل قد وضعها لتدوين اللهجة الصقليسية في البلاد الواقعة خلف تسالونيك.

كانت مودانيا الكبرى تابعة، بما لا يخلو للشك، لاسقفية روم. وقد كان الاخوان ايضا موالين للبابوية، وقد وافقت البابوية على عملهما. لكن الكنيسة الفرنكية كانت مخافسة لهذا العمل اذ انها فسرت على انه عمل سياسي المقصد من ورائه الاعتراف على املاك امبراطورية الفرنك من قبل الامبراطورية الرومانية الشرقية. وفي هذا التاريخ كانت الامبراطورية الفرنكية في دور الانحلال، لكن الكنيسة الفرنكية لم تكن كذلك، وكانت تتبع سياسة خاصة بهاء كانت تصطدم مع سياسة اسقفية روم. وقد نجحت الكنيسة الفرنكية (سنة ٨٨٥) في للقضاء على عمل البعثة الصقليسية المودانية، بحيث اصبح بقية رجال الدين منها لاجئين. (كان قسطنطين سيريل قد توفي سنة ٨٦٩ وتوفي

أخوه سنة ٨٨٥). وقد وصل بعض هؤلاء اللاجئين في بلغاريا، وعثروا هنا على مجال للعمل الشيرى.

في سنة ٨٦٣ تبدل الموقف في الحروب التي كانت تدور رحاها على الحدود العربية - البرنطية في قسمة الصغرى، وذلك لمصلحة البيزنطيين. وتبع ذلك (٨٦٤) اعتناق البلغار للمسيحية الأرثوذكسية الشرقية. وفي سنة ٨٧٠ أكد خان البلغار يوريس ميخائيل ولاءه لاستغية القسطنطينية، بعد أن جرب بها إذا كان ولاؤه لاستغية روم كان يسيء إلى استقلال بلغاريا سياسياً. ولما كان بطريرك القسطنطينية من رعايا الامبراطورية الرومانية الشرقية سياسياً، فقد بنى الولاء لسيادة هذا البطريرك كنسياً، على أنه قبول بالسيادة السياسية للامبراطورية. وإذا رجع يوريس (٨٨٥) برجال الدين الصقلية المبول، تمكن من بناء كنيسة بلغارية وطنية دون أن يؤذي رجال دين من الأجانب - أما من الناطقين باليونانية أو من الناطقين باللاتينية.

أصبحت اللغة الصقلية الآن لغة بلغاريا الوطنية إذ أن توسع بلغاريا جنوباً في غرب زاد عدد السكان المتكلمين باللغة الصقلية (تحت حكم مؤسسي بلغاريا الأوائل وهم من الأتراك). وبعد سنة ٨٨٥ وضعت الف بناء جديدة (تعرف خطأ باسم الألف بناء السيريلية) كانت أبسط من الألف بناء التي وضعها قسطنطين - سيريل. والملاحظة الصقلية (التي استعملت في الاجراء الصقلية داخلياً لسلونيكيا) أصبحت لغة الطقوس الديني لا عند البلغار فحسب، بل عند الصقليين الذين اعتنقوا المسيحية الأرثوذكسية الشرقية فيما بعد، وحتى لبعض الصقليين الذين اعتنقوا المسيحية الرومانية في دلماشيا. إن اعتناق بلغاريا للمسيحية أدى إلى تأثير موقت في العلاقات بين القسطنطينية وروم. لكن وصول الكهنة اللاجئين من مورافيا الكبرى إلى بلغاريا (٨٨٥) دعم على ولاء بلغاريا للأرثوذكسية الشرقية على الصيغة الخلقيدونية.

سنة ٨٦٣ التي عرفت القضاء على حملة أمير طليطية على يد الاسراطور ميخائيل الثالث والتي وصل فيها قسطنطين - سيريل وميثوديوس مورافيا الكبرى، شهدت احماء جامعة القسطنطينية. فالابن الثاني لخان يوريس خان ميمون (الخليفة الثاني) كان قد تلقى علومه في القسطنطينية. وقد أسرته الثقافة اليونانية البيزنطية. وحاول أن يضم بلغاريا والامبراطورية الرومانية الشرقية تحت حكمه (لأن لعرش الامبراطوري تولاه ولد سنة ٩١٣) لكنه فشل في الوصول إلى ذلك بالاسلوب الدبلوماسي لولا، وعن طريق حرب

استمرت من سنة ٩١٢ إلى سنة ٩٣٧ (السنة التي توفي فيها سيمون)، وظلت اسية
 مصرى بمدينة عنه، ولم ينجح في الاستيلاء على اي من المدن الساحلية.
 سويت الامور بين رومانوس (امبراطور القسطنطينية) وخلفاء سيمون. وفي سنة
 ٩٢٦ بدأ حملته ضد العرب في بلاد الشام. لكن الشتاء القاسي (٩٢٦ / ٩٢٧)
 قلب موازين القوى في السياسة الفاعلية - في الامبراطورية الرومانية الشرقية - بين
 الفلاحين وكبار الملاكين والحكومة الامبراطورية. إن السنوات ٩٢٦ - ٩٢٩ كانت
 ضرة لها اثرها في الامبراطورية.

٥٦- المسيحية الغربية ٧٥٦-٩١١

كان المستقبل يبدو باسمًا بالنسبة إلى مملكة الفرنك في سنة ٧٥٦. فقد كان الملك، بيبين الثالث، حصل على اعتراف بأنه الملك الشرعي بدلاً عن الملك المهروفنجي المخلوع. وفي السنة فاتها كان بيبين قد قاد حملتين مظفرتين ضد لومبارديا وحصل ملكها على قبول شروطه لإحلال السلم. وفي تلك السنة أيضاً أقام عبد الرحمن الداخل إمارة أسوية في الأندلس مستقلة عن الدولة العربية الإسلامية. وفي سنة ٧٦٨ خلف ابنه بيبين شارل وكارولمان والدعما على العرش، ولكن الثاني توفي سنة ٧٧١، فأصبح شارلمان سيد المملكة مع حرية التصرف.

في ٧٧٣-٧٧٤ ضم شارلمان لومبارديا إلى ممتلكاته، ووضع منطقة رافنا، التي احتلت باسم البابوية، تحت إشرافه. وقد قبل الإيطاليون الشماليون الوحدة السياسية مع الفرنك (٧٧٣-٧٧٤). فالفرنك واللومبارديون هم أبناء عم، وكان الأولون قد أصبحوا كاثوليكاً (خلال القرن السابع) وبذلك توحد الفريقان مذهبياً. ورعاها اللومبارديين من الذين كانوا رعيا الرومان هم أبناء عم لرعايا الفرنك المشاككين لهم من حيث التبعة السابقة للرومان. ومع أن السكسون، جيران الفرنك إلى الشمال، كانوا أبناء عم للفرنك، فقد قاوموا احتلال الفرنك لبلادهم. وصرف شارلمان نحو ثلث قرن (٧٧٢-٨٠٤) حتى فتح سكسونيا. على أن المهم هو أن شارلمان أثقل كاهل الشعب والبلاد بسبب الحروب التي شنها والتي كانت على جبهات أربع: ضد سكسونيا وضد العرب في إسبانيا وضد الباسك والبيريثون (في المنطقة بين مرسية وإسبانية) وضد الأفار في سهوب هتقاريا (هنا كان يلتحق حلفاء شارلمان في القضاء على الأفار). وقد فتح سكسونيا نهائياً وكذلك أرغمها على اعتناق المسيحية. إلا أن شارلمان كان يثير الجيران الأبعدين في محاولاته احتلال بلاد الأقربين. فاحتلال

سكسوبا، مثلاً، آثار حفيظة الدثيمركيين، ولعله كان أحد الدوافع للانفجار السكاني الإسكندنافي (راجع الفصل التالي).

وس أهم الأحداث في حياة شارلمان كان أن توجه البابا ليو الثالث إلى اسباطورا لرومان في ذلك في كنديرية القدس بطرس في رومة يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠. ليس ثمة ما يبين تماماً فيما إذا كان هذا العمل قد تم بمعرفة مسبقة من شارلمان، ولكن من المؤكد أن تقبل شارلمان للقب الامبراطوري وضع على كاهله عبئاً دبلوماسياً ضخماً. لمزنته كانت معرضة دوماً للخطر ما دام اسباطور القسطنطينية الروماني لا يعرف به اسباطوراً. وامبراطور القسطنطينية كان لا ترقى رتبة إلى حقه في المنصب. وقد كان ثمن هذا الاعتراف حل جميع القضايا المتعلقة بين الدولتين، وعلى شروط الامبراطورية الشرقية. وقد تمت المفاوضات في ٨١١ - ٨١٢، ووقعت عليها سنة ٨١٤، بعد وفاة شارلمان.

كان احياء اسم الامبراطورية الرومانية الغربية (وهي مؤسسة كان قد انتهى امرها) امراً سهلاً بكثير من احيائها في الواقع. ولم يكن عند شارلمان من المستعصم، واصحاب الخبرة ما يكفي لاتارة امبراطوريته الواسعة. وشرافه الرئيس على اسباطوريته جاء من مؤسسة المفتشين المنتقبي الذين كانوا يطلعونه على الشؤون المحلية فيها ولكن هذا كان صالحاً ما دامت الامبراطورية قائمة تحت اشراف سياسي موحد وبإدارة رجل نشيط محترم. وقد جاء شارلمان من نورثمبريا رجل من رجال الكنيسة هو الكرون. والكرون كان من اهل العلم والخبرة والمقدرة. وكان شارلمان محظوظاً لأن اباه وجدته من قبل كانا حاكمين قديمين (وكانت وفاة اخيه كارلومان ثمة سياسة للرجل)، لكن ابنه وخليفته، لويس الثاني، عجزاً عن ضبط الامور. وكان الكارولنجيون قد ورثوا عن الميرونجيين الترتيب الخطر وهو قسمة الامبراطورية بين أبناء الملك بعد وفاته، كما لو كانت ملكاً شخصياً. ففي سنة ٨٤٣ قسمت الامبراطورية بين أبناء لويس الثاني الثلاثة. ومع أن توحيدها اعيد في أيام شارل السمين (٨٨١ - ٨٨٨)، إلا أن هذا لم يكن ناجحاً. وقد امتدحت الأسرة الكارولنجية في فرانسيا الغربية (أي فرنسا) حتى سنة ٩٨٧ إلا أن هؤلاء الملوك لم يكونوا افضل من الملوك الميرونجيين.

فيل أن ينتهي القرن التاسع كان الموظفون المحليون الذين كان مفتشوا شارلمان

يراقبهم قد أصبحوا في الواقع حكاما بالورثة، كما عادت إلى ألبانيا سلطته على الاملاك البابوية في إيطاليا. ولم يتمكن لا الحكام المحليون ولا لسيادهم الكارولنجيون من صد الهجمات البحرية الاسكندنافية، التي كانت قد اخذت شارلمان نفسه وفي القرن التاسع كان ثمة تنافس بين المهاجمين البحرين الاسكندنافيين ولولئك القدامين من شمال غرب ايريقية في مهاجمة سواحل الامبراطورية الكارولنجية المستنسخة. وقد فشل المهاجمون من ايريقية مرتين (٨٤٦ و ٨٤٩) في احتلال روم (على نحو ما فعل الفندال سنة ٤٥٥). ومع ان لوثر كان الامبراطور المشرف على روم اسيا (بحسب تقسيم سنة ٨٤٣) فان ألبانيا لم يلمح هو الذي اتقد روم اذ حصن (٨٤٩) ارباضها للدفاع عن المدينة.

ظهر، بعد سنة ٨٩٦، منافس جديد للهجمات البحرية الاسكندنافية والاسلامية . هم البحر، الذين كانوا سادة الفرس في هجومهم. (وكان البحر قد ملأوا الفراغ الذي احدثه القضاء على الافار في سهوب هغباريا).

كانت الغزوات البرية الشمالية التي جاءت لوروة في القرنين التاسع والعاشر اكبر اثرًا بالنسبة إلى المسيحية الغربية، من تلك التي جاءت في القرنين الخامس والسادس. إن احياء شارلمان للامبراطورية الغربية اكسبها طريقا خلب لب هؤلاء البرابرة، فانقضوا عليها. وفي سنة ٩١١ اضطر شارل البسيط، ملك فرنسا، إلى السماح لجماعة من اهل البحر الاسكندنافيين ان يستقروا نهائياً في المنطقة المعروفة اليوم باسم نورماندي، على شريطة ان يعتنقوا المسيحية. ويبدو ان العمل الحضاري الذي قام به شارلمان كان اثبت على الزمن من محاولته بناء لبراطورية. فقد اسرت المدينة التي هبط الاسكندنافيون في ارضها لسراء هؤلاء القدامين الجدد، فاعذوا انفسهم بتعلم اللغة والتدرب على العادات والآداب المحلية، وتبلوا المسيحية - كل ذلك فعلوه بجماع.

في سنة ٩١٠ انشئ دير في كلوني في برغنديا. وهي منطقة تكون نقطة جغرافية مهمته بالنسبة لشبكة المواصلات التي كانت تربط اجزاء العالم المسيحي الغربي. كان انشاء دير كلوني على يد احد خلفاء الكارولنجيين لمحليين. (وفي هذه البقعة كان القديس كولومباتوس الارلندي قد انشأ ديرا في لوكسل قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون). كان الانتاج في كل من نورماندي وكلوني بطيئا. ولم يكن ثمة من يمكن ان يرى،

في الوقت الذي تم فيه قيامها، إن ذلك كان نقطة تحول بالنسبة إلى المسيحية العربية. فقد كانت هذه المسيحية في النصف الأول من القرن العاشر في أدنى ما وصلت إليه. وخلال المئة سنة التي تلت أخذ النورمان والكلونيون يظهرون أن المسيحية الغربية كانت تنهض من الوضع الذي أوصفتها إليه سيماء شارلمان الطموحة.

٥٧- الاسكندنافيون ٢٩٢-١٠٠٠

جاء النصر السكاني الاسكندنافي (٧٩٢ م) مفاجئا وعينا وكانت اسبابه مما يمكن نفسه. وقد كانت المسألة المباشرة لذلك حربا كبرى خارج حدود هؤلاء البرابرة. وقد خلقت المتقاتلين مضيق، ومن ثم اصبحوا قربة مغربة لمهاجريهم، كما كان الباعث الخفي هو الصراع الدائم بين الهجيرة والمدنية.

كانت اسكندنافيا قد استوطن فيها الانسان منذ نهاية العصر الجليدي. فقد بيع قناصر العصر الحجري المتأخر تراجم الجليد حتى استقروا في البلاد الاسكندنافية. وقبل ان تغرب شمس الألف الثالث قبل الميلاد كان ظهور الثورة الزراعية في الشمال الغربي من اوربوة قد أخذوا يستغلون الثروة الخصبة في الفلنبرك وفي جنوب السويد. ولما بدأ تفجر الفيكنغ في التاريخ المذكور، كان جنوب اسكندنافيا قد مرت عليه ثلاثة الاف سنة على الأقل وهو موطن سكان زراعيين مستقرين. ومع انه كانت ثمة هجرات من اسكندنافيا خلال القرنين الأخيرين قبل الميلاد، فان هذا النصر السابق، مظه مثل تفجر ٩٧٢-١٠٦٦، كان فضلا استغاثيا في التاريخ الاسكندنافي. وفي الوقت نفسه كان تأثير اسباب موجات من الحضارة الأرفع من الجنوب الى اسكندنافيا تراكبيا. وكانت التفجرات في علاقات الشعوب الاسكندنافية مع مدنات الجنوب مزعجة ميكولوجيا بالنسبة الى الاسكندنافيين. وقد بلغت هذه الحالة حدما بسبب تغلب شارسان على السكون المستقرين في القارة. ووضع هذا الفتح الحدود الشمالية للمسيحية الغربية في حالة تماس مباشر مع اسكندنافيا.

ومع ان اغسطوس تخلى (١٤٤ م) عن ممتلكاته لايصال حدود الامبراطورية الرومانية الى خط نهر رايه، فان المدنية اليونانية - الرومانية اثرت جديا في الاسكندنافيين خلال القرون الثلاثة الاولى للميلاد. وقد تعطل هذا الاتصال الثقافي في القرن الخامس لما

نقضى انسياب الشعوب الجرمانية الشرقية والمفترق على الامبراطورية الرومانية في الغرب. وعندها عزل الكسون الاسكندنافيين عن الدول الجرمانية المسيحية التي خلعت الامبراطورية في الغرب، وجموعهم منها. ولكن لما غلب الفرنك الكسون، وفرصوا عليهم المسيحية وجد الاسكندنافيون انفسهم ضيقة على اتصال مباشر مع مدينة جبرية، وكانت هذه القرب اليهم من ذي قبل. ويبدو التأثير الذي تركه شخص شارلمان على عقول الاسكندنافيين في شيوخ استعمار ماغنوس (ومعناها الكبير) كاسم للرجال في تلك الديار.

كان رد الفعل الاسكندنافي لهذه التجربة المثقلة عدولاً، وابتدأ اعتدائهم الى منطقة واسعة. ففي سنة ٨٨٠ وصل الغزاة السويديون الزلوية الجنوبية الشرقية لبحر قزوين، بعد ان جازوا بحر البلطيق وصعدوا في نهر نيفا وانتقلوا عبر خط تقسيم المياه ليسيروا مع نهر الفولغا. وبين حول ٩٨٧ و ١٠٢٥ تمكن المستوطنون الاسكندنافيون من الاستيلاء على موطن قدم على الساحل الشمالي الشرقي لأمريكا الشمالية. وقد هبطوا المكان من غرينلاند، حيث كانوا قد استولوا الساحل الغربي للجزيرة (٩٨٥ - ٩٨٦) آبن من اسلاند، وهذه كان قد استقر فيها النورسبون حوالي ٨٧٤. وسكان فنلاند وغرينلاند من الاسكندنافيين هم، على التأكيد. اول الجماعات البشرية المعروفة التي وصلت امريكا من العالم القديم عبر المحيط الاطلسي.

كانت نهائيات المتجولين الاسكندنافيين في عصر الفايكنج مختلفة. فقد كان ثمة غزاة لم يرموا الى الاستيطان في مكان ما. وكان اثر هؤلاء سلبياً بالنسبة الى الذين هاجمهم. لكن الغزاة انفسهم تأثروا بالشجرة التي غامروا فيها، وبالفهم الاقتصادية والظافة لما حصلوه من الاسلاب. فقد اصابت التكية، اول ما اصابت، الاديرة المسيحية التي كانت تقوم على سواحل امبراطورية شارلمان وسواحل بريطانيا. وكان ثمة مستوطنون في الاراضي المسيحية الغريبة الذين سمح لهم بالاقامة في مقابل قبولهم بالمسيحية - مثل الاستيطان في نورماندي (٩١١). وكان الاستيطان في انكلترا (داس لو) قد تم في سنة ٨٧٨، وذلك بالاتفاق مع الملك القرد. وقد فرص المستوطنون الاسكندنافيون انفسهم على سواحل اولندا دون قيد او شرط، لكنهم انتهوا بان قبلوا المسيحية. واستوطن اسكندنافيون غير اولئك في مناطق كانت مأهولة بالسكان، لكن السكان كانوا لا يزالون على الوثنية. وكان لهم مجموعة من هؤلاء هم الذين استقروا

في روسيا. فقد تمثلهم لغويًا وعلميًا الناطقون باللغة السلافية، وقبلوا المسيحية الأرثوذكسية الشرقية على أيدي الذين فُهِروهم من أهل الإمبراطورية الشرقية. وأخيراً كان هناك الذين استقروا في لوزن - غريتلاند. أما هولندا فقد سبّغهم إليها وهابا أيرلنديون مسيحيون. وأما في فنلندا فقد لقوا سكان البلاد الأصليين الذين يبدو أنهم أُخرجوا من البلاد قسراً.

ولم يكن لا المسيحيون ولا المسلمون في العالم القديم اندفاعاً عسكرياً لمهاجمتهم. فقد قيل « الفرد » ان يسمح للمهاجمين ان يستقروا على شروط قبلها شارل البسيط بعد ذلك بثلاث وثلاثين سنة. وكانت خطة المسيحيين ان يروا الاسكندانيين عن طريق نشر المسيحية بينهم. والمسيحيون المسيحيون كانوا جاهزين وشجعانا ونشيطين.

كانت اقدم غزوة مدونة للفيكنج على ساحل امبراطورية شارلمان في سنة ٧٩٩. وقد عُقد الملك هارالد، المطالب بعرش الدانيمرك سنة ٨٢٦، واتخذ معه ميثرا عمل في نشر المسيحية في الدانيمرك مستعين، اذ اخرج هارالد، وذهب البشر (القديس أنسكر) الى السويد، وسنة ٨٣١ أصبح رئيس اساقفة هسبورغ. ولما نهب الفيكنج هسبورغ (٨٤٥) نقلت رئاسة الاسقفية الى برهمن، واصبحت اسكندنافيا تابعة لاسقفية هسبورغ - برهمن.

كان رد فعل الكنيسة في الامبراطورية الشرقية على غزوات الفيكنج يتسم بطابع المفاخرة مثل عمل الفرانك. فقد هاجم الفيكنج الروس القسطنطينية سنة ٨٦٠، فكان جواب الامبراطورية الشرقية تعيين اسقف ارثوذكسي شرقي (٨٦٧) في كييف وجعله رئيس اساقفة (٨٧٤). وكييف كانت نقطة انطلاق عمليات المهاجمين ضد الامبراطورية. وقد زارت اميرة كييف، اولغا، القسطنطينية (٩٥٧). ومع ان ابنها رفض الدين الجديد، فان الجماعة المسيحية في كييف استمرت. ولما اعتنق فلاديمير المسيحية الأرثوذكسية (٩٨٩) تزوج ابنت الامبراطور البيزنطي.

ملك الدانيمرك اعتنق الكاثوليكية الرومانية (٩٧٤) لما اتفق الصلح به وبين الامبراطور (الجرماني) اوتو الثاني. والملك اولاف (حكم ٩٩٥ - ١٠٠٠) مرض بالمسيحية الكاثوليكية الرومانية على الترويج. وقد لقيت المحاولة مقاومة عنيفة، كما حدث لما فرضت المسيحية ذاتها في السويد. ومع ذلك فان الایسلانديس اعتنقوا

المسيحية جماعة (١٠٠٠) وذلك رغبة منهم في تحقيق وحدة سياسية لجمهوريتهم الفتية.

وكانت الجماعة الأيسلندية، بين الجماعات الأكثندية التي افادت لعمسها سرطحات في الخارج، في عصر الفيكينغ، أبرزها ثقافة واحفظها لها. فهي التي حامت على دهبان الشعر الأكثندي لما قبل المسيحية. وبطال الملاحم وبطالاتها، يهودون الى ما قبل المسيحية، في الى الجول الذي تقبل الدين الجديد. على ان هذا الادب وصلنا على ما دونه كتاب مسيحيون (من القرنين الثاني عشر والثالث عشر). وقد ظهر في النروج اسلوب شعري جديد. وكان الأيسلنديون والنرويجيون أبرز الشعوب الأكثندية ثقافة في عصر الفيكينغ. ومن الناحية السياسية فقد كان للسويد اثر اعلى والبت على الزمن بالنسبة لتاريخ العالم. فالسويد - الروس الذين استقروا في كيبف ونوفورود هم الذين صنعوا روسيا. ولما قبلت روسيا المسيحية الأرثوذكسية (٩٨٩)، اصبحت المسيحية الغربية محدودة بالنسبة الى المسيحية الأرثوذكسية الشرقية. وهذه انتشر حولها الاسلام لما اعتنقه بلغاريو الفولغا (قبل ٩٦٦). إلا ان روسيا كانت انقل وزنا، ومن ثم فان امساقها المسيحية الشرقية الأرثوذكسية فتح امام هذه الطريق الى شواطئ المحيط المتجمد الشمالي والى سواحل المحيط الهادي.

٥٨- الهند وجنوب شرق اسية ٦٤٧- ١٢٠٢

في سنة ٦٤٧، وهي تاريخ وفاة الامبراطور هرشا، كانت المدينة الهندية قد اظهرت مقدرة رائعة في تمثلها الاجانب القادمين الى البلاد. فالآريون انفسهم الذين هاجموا البلاد والذين فرضوا انفسهم ولشتمهم على الشمال، والذين عملوا منذ الالف الثاني قبل الميلاد، على نشر مؤسساتهم عبر شبه القارة لم يطمحوا من الاسر الفقاري الذي كان للمتغلبين عليهم من قبلهم. ومثل هذا القدر كان نصيب الفاتحين المتأخرين الذين جاءوا الهند من الشمال الغربي - مثل اليونان الذين تغلبوا على امبراطورية ماوريا المضطربة، والهنود المعاة الذين قضوا على امبراطورية سيبا. فقد كاد يونانيون قد امضوا البوذية والديانة الهندوية. والهنود قد دمجوا في المجتمع الهندي الا قبلوا في « طبقة » الكشاثريه. وفي السياق بين المدينتين الهندية والصينية للسيطرة الثقافية على جنوب شرق اسية القاري اندونيسيا اسرت المدينة الهندية الرقعة الواسعة باكملها باسثناء ما هو اليوم شمال بشتام. وفي التنافس بين المدينتين للاستيلاء على الغيت لقائياً (محلال النصف الاول من القرن السابع للميلاد) كانت المدينة الهندية هي الرابعة مرة ثانية. وقد كان اكبر اتصال ثقافي للمدينة الهندية كان نشر ديانة هندية، هي البوذية الماهايانية، في الصين بالذات، وبعبر الصين، في كوريا وفي اليابان.

وقد كان المسلمون هم اول جماعة من الجماعات غتني هاجست الهند، التي لم تتمكن المدينة الهندية من تمثلها. فقد اعتنق بوذيون وهنديون الاسلام، لكن لم يكن ثمة مسلمون ممن اعتنقوا البوذية او الهندوية. وقد ثبت الاسلام اقتداه في شبه القارة كمعصر مسطر سياسياً، وظل غريباً عن البلاد، لانه لم يكن مما يمكن تمثله حضارياً. وهذه المسيرة الحثيثة لهجوم اجنبي كسر طوق الوحدة الدينية والثقافية لحياة الهند، وهذا الكسر غير صائق للتاريخ الهندي. صحيح ان الهندوية اظهرت قدرة على البقاء

أكبر مما كان للزرادشتية والمسيحية. ودخول الجماعات في الإسلام اقتصر على مناطق تملب عليها طبقات معينة من السكان الهنديين. وقد وجد الفاتحون المسلمون أنه من المناسب أن يعملوا الهنديين الذين لم يقبلوا الإسلام كأنهم « أهل كتاب » مع أن الهنديين كانوا مشركين، ولهذا لم يكونوا مشركين فهم على الأقل من الأحديس. ومن ثم الهنديون لم يكن لهم أن يعملوا بالتسامح، إذا طبقت الشريعة تماماً. ولكن في هذه الحالة كان لا بد من التسامح لأن السكان الهنديين كانوا كثرة ومفسدين ولا يمكن الاستغناء عنهم.

ثم للمسلمين فتح حوض جمنا - الكنج والبنغال في مدة انصافها عشر سنوات (١١٩٢ - ١٢٠٢). وقد كانت مسيرة الفتح هنا أسرع منها في جنوب غرب آسيا في القرن السابع. ومع ذلك فإن الضربة التي أصابت الهند في أواخر القرن الثاني عشر لم تكن مستفزة. إن الأكثر غرابة في الأمر هو أن القسم الأكبر من شبه القارة لم يفتح المسلمون من قبل. وفي الفترة بين ٦٤٧ و ١١٩٢ كانت الهند، ومعها الجزء الأكبر من جنوب شرق آسيا الفاري والهندوسية أيضاً، ظلت يتقاسمها عدد كبير من الدول الصغيرة، كانت تضع جهودها سدى في اقتتال مستمر لا ينتهي إلى نصر قط، وكان يؤدي دوماً إلى تردي الوحدة السياسية وانتشار الفوضى في العالم الهندي. وحتى محاولات التوفيق صفا واحداً أمام هجوم المسلمين (٩٩١ و ١٠٠١ و ١١٩١ - ١١٩٢) كانت تضر في اللحظة الأخيرة، فلا تقوى على تجنب الانكسار. والدول الهندية لم تستجب للاحتلال الإسلامي المستمر للأراضي الهندية بإقامة اتحاد سياسي ولا حتى في إطار تقليبي. ومع ذلك فإن الفتوحات الإسلامية كانت هبة بشكل واضح.

في سنة ٧١١ كان حوض السند الأدنى، بما في ذلك الملتان قد احتلته الدولة الأموية. وكان من الصعب الاحتفاظ بهذا الجزء المنزول، على الأرض الهندية، أمام هجمة هندية جديدة؛ ومع ذلك فإن المسلمين لم يخرجوا منه. وقد استولى سبكتيجين، أمير غزنة، على مركز قرب بشاوره فيما وراء السخرج الشرقي لعمر تخير، إذ انتصر (٩٩١) على اتحاد موقت لسلاطين هندوس. وجاء خليفته محمود فانتصر (١٠٠١) ووسع الحدود إلى لاهور. وضم محمود أيضاً الجزء الإسلامي الذي كان قد احتل من قبل في حوض السند من الملتان جنوباً إلى السجل. ثم قام بحملات في حوض

جنتا - الكنج وفي غوجرات (١١٠١ - ١١٢٤). وكان هذا مقدمة لفتح ما تبقى من شمال الهند الذي قام به الغوريون (الذين انتزعوا الأمر من الغزنويين) وهؤلاء هم قبائل من أفغانستان الحالية كانوا قد أسلموا سنة ١٠١٠ على يد محمود الغزنوي لما احتل بلادهم.

سهل فتح الأراضي الهندية تدريجاً على أيدي المسلمين ما كان بين حصومهم الهندو من نزاع. ففي الشمال كانت قبائل راجبوت واسرة بالا تقتل باستمرار إلى أن قضى المسلمون عليها. ومع أن التشلوا، في الدكن، كانوا على وشك توحيد العالم الهندي سياسياً (٩٨٣ - ١٠٢٥)، إذ أنهم وضعوا تحت نفوذهم جنوب شرق الهند وضربوا كائفاً وتوسعوا في سيلان (سري لانكا) وجزر الملديف واندمان ونيكوبار وفي جزء من سومطرا وشبه جزيرة الملايو، إلا أن هذه الإمبراطورية انهالت (١٢١٦) وأصبحت الأجزاء الجنوبية من الهند، بعد ذلك، حيدفا مفتوحاً أمام المسلمين الذين أصبحوا (اعتباراً من ١٢٠٢) سادة الجزء الشمالي بأكمله.

وفي أندونيسيا حول بين، إمبراطورية سريهجايا وتوحيد البلاد سياسياً بسبب قيام أسر محلية في أنحاء الجزر.

وكان جنوب شرق آسيا القاري قد تعرض منذ القرن الثاني للميلاد لغزو حضاري، ديني وفني، من الغرب وغزو عسكري من الشمال. وكان هؤلاء الغزاة قد وقعوا أسرى لغزو حضاري من الهند. أما شمال فيتنام فقد وقعت تحت نفوذ الصين الحضاري.

والداريخ السيلسي والعسكري للسندية الهندية هو قصة مرعبة. لكننا عندما ننقل إلى المستوى الديني لهندية الهند في هذه الفترة نجد أمناً تاريخياً حرياً بالعتابة، والظاهرة الواضحة هي تراجع البوذية في حدود شبه القارة. وكانت مملكة بالا في البندال الموقع الحصين للبوذية. لكن لما احتل الغوريون المسلمون البندال كان في ذلك نهاية البوذية هناك (١١٩٩ أو ١٢٠٢). ولأن البوذية كانت تسيطر دور تأخر خلال قرون ستة أو سبعة، ومن ثم فإنها لم تستطع الصمود، فدمرت أديرتها، أما الجاهلية فقد ظلت قائمة في الهند، لكنها كانت دوماً محدودة الانتشار. وظلت لبوذية متمركزة في سيلان على أيدي رهيان من اتباع البوذية الترافدية. وقد تم للأقلية المسلمة الغريبة عن البلاد (مع أن عدد المسلمين زاد بسبب اعتناق بعض الهندو للإسلام) أن تحكم الهند. وهكذا فقد حدث لأول مرة في تاريخ الهند أن البلاد والمجتمع عجزا عن تحمل هؤلاء

القادمين حضارها. وتم للحكام ولرعايا الدول المحلية المتحاربة، استجار الكثير من السعويين الهندي والفني في الهند وفي جنوب شرق آسيا.

مملكة بالا نشرت السلالة في التبت (القرن السابع) فحسب، مل مي جاوة (القرن الثامن). ومع ان السلالة لا تقوم لها قائمة في جاوة الآن، عانها خلفت آثاراً ثابتة لوجودها السابق، وبشكل خاص في الحياة الفنية (اساطير ودنيا)، وذلك في بوروبودور بشكل خاص. ومملكة كمبوديا (من القرن السادس حتى سبعمئات القرن الحالي) تركت آثاراً ضخمة في البناء. فالهيكل الذي بناه الملك سوريفارما الثاني (١١١٣ - ١١٤٥) يمكنه ان يقارن بالبارثون الذي انتم في اثينا (القرن الخامس قبل الميلاد). وفي جنوب الهند صنع الجاين ما صنعه البوذيون في اواسط جاوة (في بوروبودور). ففي سراقانا يملأون تنقب اهل الفن حتى على الطبيعة. فقد ازبلت قمة جبل لاظهار تثال لبطل روحي (في سراقانا يملأون). والتثال هو جزء من الجيل. وهذا الاثر هو الجبال، منه، الا ان الاثر الذي يتركه في نفس الزائر لا يصاحبه اثر آخر. واسرة تشولا حرصت على ان تبلغ المنظمة الفنية لبناء الهياكل مدداها.

والشخصيات الاظم اراء، وقد عاشوا في الهند، كانوا من الفلاسفة. فشنكرا (حوالي ٧٨٨ - ٨٣٨) ورامانوجا (ولد حول ١٠٢٨) كانوا من اهل الجنوب. فالاول جاء من كارالا، والثاني كان من التاميل، الا ان مجال عملهما كان شبه القارة بأكملها. ومع انه في ايامهما كانت ثمة حواجز اجتماعية بين الطبقات، فانه لم يكن ثمة حواجز جغرافية تحد من نشاط الحكماء والفلسفين، كما ان الحواجز اللغوية لم تحصرهما في نطاق محدود.

وقد اهتم الرجلان بمسائل مهم (كان السؤال قد طرح في شمال الهند في القرن السادس قبل الميلاد) : ما هي طبيعة الحقيقة الروحية في الحضارة التي نفع عليها العرس وفي ما وراهما؟ وما هي العلاقة بين هذه الحقيقة والانسان ؟ لقد كان شنكرا من الغالبيين بالأحقة دون هوانة. كان يقول بان الكائن البشري مطابق تماماً للحقيقة المطلقة، وان العالم الظاهر هو خداع. فلذا كانت الحقيقة هي فعلا كما يراها القائل بالأحقة، وان الفردية، ومن ثم الشخصية يجب اعتبارها من الظواهر الخداعة. فالحقيقة الاحدية الكاملة لا تتسع لا لاله شخصي، ولا لتابع مؤمن لاله شخصي. وقد انتقد

رامانوجا فلسفة شكريه اذ انه كان يقبل فكرة احدى معئلة بحيث تسمح للمكانس
البشري المسمى والناجيا ان يشعر باليمان شخصي للاله فشتو.

فلسفة شكرا تقبل الماورائية (للطبيعة) التي ارتاعا البرهمن السامهاتيون وكان معها
نجد لبردا الذي رفض التأمل الماورائي (للطبيعة) . ومع وجود خلاف بين الفيلسوفين
فانهما كانا يتفقان في انهما كانا يمثلان رد فعل هندوياً ضد اليهودية. الا ان اياً من
هذين الفيلسوفين اليهوديين كان باستطاعته ان يمتن حراً ضد اليهودية، لولا ان البرهنة
هذه قد زودتهما بالفريضة المطلقة لمحاربتها.

٥٩- شرق اسبانيا ٧٦٢-١١١٦

ان المدينة المصيبة، وحتى اسرة تانغ، تفعلت على فترة الغوضي الخائفة التي مرت بها الصين بين سنتي ٧٥٥ و ٧٦٢. وكان للخدمة المدنية التي اعتمدت الامتحان في الكلاسيكيات الكونفوشية اساسا لاختيار الموظفين، دور كبير في ذلك. وقد اعادت اسرة سوي مؤسسة الخدمة المدنية الى ما كانت عليه من قبل. وهذه المؤسسة بما كان لافرادها من الحفاظ على روح الجماعة وطموح هؤلاء الافراد فؤادها تأسس اكااديمية هان - ليو. فالخدمة المدنية منحت المجتمع الصيني وكان ثم ذلك ان اصبح هذا المجتمع متمسكا على الاسراع والانحلال على السواء.

كان احد اسباب سقوط حكم تانغ انهيار نظام الضرائب الذي كان قائما منذ القرن الخامس. فبسبب هذا النظام منحت الحكومة الامبراطورية قطعا من الارض للفلاحين وفرضت عليهم مقابل ذلك، ضرائب شخصية واعمال شاقة. الا انه بدءا من سنة ٧٨٠ اصبحت الضريبة تفرض على الارض لا على الشخص. وقد عجزت الحكومة عن حماية ارض الفلاح من ان تنقل الى كبار الملاكين. وقد ساءت حال الفلاحين الاقتصادية فاصبحوا مستأجرين، ولكن الحكومة لم تخسر حصتها من الضرائب.

كانت الارض التي يملكها الملاكون صغيرة المساحة في مدينتها، ومن ثم فان الحكومة استطاعت ان ترضيهم على دفع ما يطلب منهم. والملاكون اصبحوا الآن هم انفسهم الموظفين الكونفوشيين، وكنوا يعتمدون على الميراث التي يتقاصونها من العمل الحكومي. ومن هنا جاءت سيطرة الحكومة على الملاك - المديريين.

كان الموظفين الكونفوشيون والطاويون، والجماعات كائنا من المتمسكين بالمسيحية، يرون من مصلحتهم اضعاف القوة والثروة اللتين كانتا قد اجتمعتا في ايدي الاديرة البوذية في الصين منذ فترة الهجمات البربرية والتمرد السياسي (٣٠٤ - ٥٨٩).

ولم تكن الكونفوشية الصينية، فيما سبق العهد اليوزي، كفؤا للبوذية الماهايانية عقلياً، لكن الحيل الذي عقب نكبة ٧٥٥-٧٦٣ أنتج أول ممثلين للفلسفة الكوموشية الجديدة: هان يو (٧٦٨-٨٢٤) وماسره في او (توفي حوالي ٨٤٤). وهناك، مثل معاصريها الهندوي شنكرا، كانا شبه يوزيين. لقد اتشبا الكونفوشية بتلقيحها بدور ماهايانية مستمرة من كتاب منشور وفصل من كتاب الطقوس. وبذلك احدث الصين تستغل روحها عن المؤسسات البوذية. وفي السنوات ٨٤٦-٨٤٥ احدثت الحكومة الامبراطورية بوجهة نظر النقد الذي تقدم به الكونفوشيون والطاويون لظلك المؤسسات على اسس اقتصادية واجتماعية. وقد جرد رجال الدين ونساقه من اليهودين من لهابهم الكهنوتية باعداد كبيرة، واصبحوا اشخاصاً عاديين يخوجب عليهم دفع الضرائب الحكومية، كما صودرت املاك الاديرة البوذية.

لكن هذا الاضطهاد لم يقض على البوذية في الصين. ذلك بان البوذية ارتبطت تماماً بالكونفوشية والطاوية لا على المستوى المالي فحسب، بل على المستوى الشخصي - بل انها كانت هنا اقوى ارتباطاً. وظلت، وهي في ثوبها الكونفوشي والطاوي، ذات نفوذ روحي وفكري كبير في المجتمع الصيني. وبهذه المناسبة فان الاضطهاد الذي وقع بالبوذية (في الصين) لم يقتصر عليها - فان المانوية والزرادشتية والمسيحية النسطورية تعرضت لسخطه، ولم تنقلب عليه، بل قضى عليها. وعلى كل، فان اثر ذلك في المجتمع الصيني، اقتصادياً واجتماعياً، كان ضئيلاً، لان اتباع هذه الديانات كانوا قلة واملاكها كانت قليلة الأهمية.

كان للمانوية حرمة في الصين بسبب انها الديانة التي اعتنقها الترك اليوغور، الذين كانوا قد امنوا اسرة تانغ في ماحتها (٧٧٥-٧٦٣). الا ان اليوغور اخرجهم الكرخيز من اراضيهم في السهوب الأوروبية فالتصوا الى الصين وحوض تاريم (٨٤٠). وفي سنة ٨٤٢ اخذت الحكومة الامبراطورية الصينية باضطهاد المانوية.

دام زمن اضطراب اسرة تانغ من ٧٦٣ الى ٨٧٤. وقد خلف الشاعر الصيني بو تشو - اي (٧٧٢-٨٤٦) والسائح الياباني (زر الصين ٨٢٨-٨٤٧) وصفا للاضطهاد الذي مني به البوذيون وغيرهم، ولكنهما، مع ذلك، يتحدثان عن حكم قدير انساني في الصين. لكن الاصلاحات التي كانت رد عمل لنكبة ٧٧٥-٧٦٣، لم تحل دون انحلال اسرة تانغ. ومع ان اسرة تانغ انتهت سنة ٩٠٩، واسرة سو (خليفةها) لم

تسلم الحكم الا سنة ٩٦٠، فان فترة تسلط الحكم امتدت من ٨٧٤ الى ٩٧٩. ولما اعيدت الى الامبراطورية وحدتها، كانت قد خسرت بعض الاطراف.

فقد انتزع منها شعب الخيطان الحفولي (من شعوب السهوب الارواسية) الذي كان قد اقام له دولة سبلا (في كوريا) ست عشرة ولاية حدودية جنوبي شرقي سرور الصين الكبير (١٠٠٤). وفي سنة ١٠٢٨ اقتزع التانغوت (وهم تبتيون) بعض الولايات ايضا. كما انفصلت عن الصين (٩٢٩) فيتنام الشمالية.

كان موحدو الصين من أسرة سونغ في حيرة من امرهم. كان عليهم ان يحصوا البلاد من نفوذ كبار الملاكين واطماعهم، وقد نجحوا في ذلك لكنهم اضعفوا قوة الصين الحربية امام جيرانهم من البرابرة. والاصلاح الذي كانت البلاد بحاجة ماسة اليه جاءها على يد موظف هو وانغ ان - شيه (١٠٢١ - ١٠٨٦) الذي ادخل (١٠٦٩ - ١١٧٦) اصلاحات جديرة هي التي حافظت على الدولة للنساء حكم الامبراطور شن تسونغ (١٠٦٧ - ١٠٨٥). ولكن لما توفي الامبراطور انفتحت اصلاحات وانغ باجمعها، مع انها كانت العلاج الشافي لعلل الصين الاجتماعية.

كان السبب الرئيسي لفشل وانغ ان - شيه انه كان صاحب فكر حر ناقب، وكانت الجماعة التي يعمل بينها محافظا، فتأثت من افكاره ونفرت من حرية فكره. لكن يبدو ان تصرف وانغ ان - شيه نفسه كان فيه ما يشير. فالوزير الذي قلبي قوائمه كان المؤرخ سوما - كوانغ، وهو، على وصته وعليه، اثارته تصرفات وانغ.

كان وانغ ان - شيه يرى ان التعليم السخند على الكلاسيكيات الكونفوشية (التي كان التلميذ يحفظها ليرضي لمفاهيم الرسي) لا قيمة له في تهيئة الموظف للعمل الذي يقوم به. وكان وانغ يرى ضرورة وضع تفسير جديد للكلاسيكيات واصلاح نظام الامتحان. ولو ان الامبراطور شن تسونغ عاش مدة اطول لعل اصلاحات وانغ كان يمكن ان تنجح. وعلى كل فقد كان على وانغ ان يعمل مع زملاء هم من نتاج الفلسفة القديمة، ومع ذلك فقد نجح في تنفيذ بعض خططه. فقد وثب للفلاحين قروصا من الحكومة بفائدة اقل بكثير مما كان يتقاضاها المرابون. ومنع للسخرة ودفع لهؤلاء العمال اجرا حصله من الملاكين من ضرائب فرضت على اساس المحصول لا المساحة. وحلل كبار الملاكين قسماً كبيراً من الاجر المطلوب للعمال. هذه الترتيبات

كانت احياء لما قامت به اسرة تانغ بعد ٧٦٢، والقائمة المباشية الفلاحية كان اسماء لعمل قامت به اسرة شوي لما وحدت الصين.

جاءت اصلاحات وانغ ان - شيه في وقتها، وكان الفوزا على اسس شخصية ضارا بالصين وظهر اثره خلال اربعين سنة، اد عسرت الامبراطورية سونغ القسم الشمالي من الصين الواقع شمالي حوض يانكسي.

كان تاريخ الصين الحربي والسياسي بين ٧٥٠ و ١١٢٦ قصة مصائب لم تنفذ البلاد لا اصلاحات ٧٨٠ الكونفوشية الجديدة ولا ١-٦٩-٧٦ (وانغ ان - شيه)، اما على المستوى الحضاري فان تاريخ الصين في حد العصر هو قصة انتجازات. ان برايرة القرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر اسرهم المدنية الصينية، فاقبلوا عليها يفسونها وينشرونها في البلاد الواقعة تحت نفوذهم وهم الذين لم يدخلوا، اطار الامبراطورية الصينية قط. وهكذا فلا تقلص الامبراطورية الصينية عائله انتشار المدنية الصينية - ولم يتم هذا في الدول - الخليفة المصائب للصين فحسب، بل في كوريا واليابان ايضاً.

كانت المدنية الصينية في هذا العصر متعددة الابداء والواحي، ولذلك كانت اكثر جاذبة. فالفلسفة الكونفوشية الجديدة قام بنشرها الاخوان تشنغ - هلو (١٠٣٦ - ٨٥) وتشنغ يي (١٠٣٣ - ١١٠٨) وكثما معاصرين لوانغ ان - شيه.

تشنغ - يي انزل الكلاسيكيات القديمة من مكانها (باستثناء فصلين من كتاب الطقوس هما العلم الكبير و ه معتقد الوسط) وجعل مكنها بالاضافة الى الفصلين، كتاب منشوس و ه الاجابة ه. وهذه اصبت الاساس للاعطانات لاعتبار موظفي الحكومة. ومع ان الجيافيزيقية فيها اعطت الكونفوشية بعداً جديداً، ظاهراً لم تعط لا الطلاب ولا الفاضلين ولا المدينين الفرصة للتفكير الحر.

ولم يكن حينئذ عصر تانغ وسونغ اسرى ماضيهم في القنود. فقد ثيل الصينيون انفس المنظور البرناتي - الهندي الذي جاء البلاد مع السامانيات، وحملوا منه نأ صجاً ميراً، ولطرورا اصنافاً خاصة بهم. فقد وصل رسم المناظر الطبيعية (الارض وما عليها) القصة في عصر سونغ، والخزف الملون والقيشاني لماً بلنا الغاية، وكثا فنين وطيس اصليين. وطبع الكتب على قوالب كان من انتجازات عصر تانغ. ولعل اعمال بوتشو - إي السقرة طبعت (٨٠٠ - ٨١٠) في ايامه. وقد كن ما شجع على طبع الكتب مر

الطلب الكبير على الكتب اسفدسة عند البوذيين الماهايانيين - طلب من العامة ومن الرهبان - والكتب المكتوشة اللازمة للامتحانات الرسمية. وقد نشرت اكااديمية هان - لين نسخة مطبوعة من الكلاسيكيات المكتوشة مع شروحها في ١٣٠ مجلداً بين ٩٣٢ و ٩٥٣، وهو زمن كانت الصين تعاني فيه اضطراباً سياسياً كبيراً. والكتب الدسرة للمهاباية والفلووية نشرت في طبعات شملت بضعة الاف من المجلدات او اللغات، وقد تم طبعها في السنوات الستون الاولى من عصر اسرة سونغ. وشذرت مجموعات من هذه الى كوريا وإلى اليابان.

إن البارود الذي اخترع في القرن السادس لاستعماله في الالاباب النارية، اصبح في القرن الثاني عشر، يستعمل في الحروب. وكانت الخطوة الاولى في الملاحة والتجارة البحرية تمت على ايدي الهود والعرب. ولما قام التوار الصينيون بنهب كتون (٨٧٩) كان فيها جماعة كبيرة من رجال الاعمال الاجانب الذين عسروا من جراء ذلك، عسارة كبيرة. ومع ذلك فالتجارة مع العالمين الهندي والاسلامي توقفت مؤقتاً. وقد كان للصينيين دور متزايد النشاط في ذلك. واصبح ساحل جنوب الصين باب الصين الامامي، وحل محل قاصص (ما ضمت الصين هذا الجزء الى امبراطوريتها كانت تسمه آخر الدنيا). واصبح المحيط اكبر افراء بالتجارة من السهوب الاوراسية على ما كان فيها من افراء، وحل مكانها طريق يصل الصين بأويكومين للعالم القديم.

عمت الفوضى سيلاً، الدولة الكورية التابعة للصين، لكن مدتها كانت القصر منها في الصين (٨٨٩ - ٩٣٦) وعادت الى كوريا وحدتها السياسية على يد اسرة كوريو (قامت ٩١٨)

اما اليابان فقد نسخت النظم الصيني من اسرة تانغ، لكن اليابان لم يكن فيها العدد الكافي من المتعلمين للحصول على الموظفين اللازمين للادارة، ولذلك اصبح حكام الولايات تقريباً امراء وراثيين على نحو ما آل اليه الامر في امبراطورية شارلمان المعاصرة لها.

وعلى كل فقد تمتعت اليابان بحقبة من السلم دامت نحو قرمين ونصف القرن بعد سنة ٦٤٦، ثم خلالها للمدنية الصينية ان تتجذر في اليابان يوذيتها الماهاباية التي وان كان اليابانيون قد عجزوا عن قولها كما هي، فاتهم قولوها بحيث اصبحت شيئاً يابانياً، كما فعل الصينيون بالبوذية التي كانوا قد استوردوها من الهند.

ومما سمى في هذه الفترة نشوء اشارات كتابية يابانية من نوع الفونيم، منقولة عن الاشارات الصينية (الفكرية). ومع ان الاولى استعملت، فان الاشارات الصينية استمر استعمالها، في كتابة اليابانية، لانها كانت اوضح دلالة، صوتا ومعنى، بالنسبة الى الكلمات التي استعارتها اليابانية من الصينية. ومع ما كان في هذا النوع من الكتابة من تقليد فقد دونت فيه في القرن الحادي عشر آداب يابانية رائعة لعل اجملها قصة غنجي (من وضع السيدة موراساكي شيكيبوا).

وهكذا فلم نهل سنة ١١٢٦ حتى كانت الصين قد اصبحت المملكة المتوسطة، لنصف العالم تقريباً، وكانت تحيط بها دولة تابعة كانت كل منها قد فيست المدينة الصينية، لكن جعلت منها « نوعاً » متميزاً يناسبها، ولو انها ظلت في الاطار العام للحضارة الصينية في شرق آسية. (كان الصينيون يعتقدون قديماً ان العالم ليس فيه سوى مدنيهم). يضاف الى ذلك ان شرق آسية اصبحت الآن على اتصال باجزاء اخرى من اوكومين العالم القديم، واتخذ يتفاعل معها. فديانة هندية الاصل، مثل البوذية الماهايانية، انتشرت عبر الصين الى اليابان وكوريا وشمال فيتنام، واصبحت اقطار شرق آسية اجمعها على اتصال بجنوب شرق آسية والهند والعالم الاسلامي برا وبحرا.

٦٠- مهنيت ميزو اميركا والاندرز حوالي ٩٠٠-١٢٨

ثمة اتفاق بين علماء الآثار فيما يتعلق بتاريخ الاحداث الميزو - امريكية على اساس سنوات التاريخ الميلادي، واختلاف فيما يخص تأريخ الاحداث في الاندرز. وليس ثمة شك فيما يتعلق بتوالي مراحل التاريخ في الاندرز، لكن تأريخ الاحداث بالذات (بين حوالي ٤٠٠ ق.م. وحوالي ١٤٣٨ م) يختلف حوله الباحثون من حيث الاعتماد على اختبار الاشعاع الكربوني او الاعتماد على توالي الطبقات الاثرية. وقد اخذنا في هذا الكتاب بالقياس الكربوني، لذلك فالتنا عالجنا (فصل ٤٨) العصر المزدهر من ايام الاندرز على انه انتهى حوالي سنة ٥٠٠ للسيلاد، وان اثن تاهوانكو، كان متروكاً على النهاية حوالي ٩٠٠ م (بحسب التأريخ الطبقي الاثري فان اثن تاهوانكو كله يقع بين سنتي ١٠٠٠ و ١٣٠٠ م)

انتهى العصر الكلاسيكي (حوالي ٣٠٠ - ٩٠٠) في عالم ميزو - امريكية بالانهيار اذ هاجمت جماعات بربرية من الصحراء هضبة المكسيك واستولت اولاً على تيوتيهواكان (حوالي ٦٠٠) ثم على شلولا (حوالي ٨٠٠) وهدمتهمسا. والسندنية الميزو - امريكية التي قامت في منطقة مايا وبلغت الاوج، تخلى اصحابها عنها خلال القرن التاسع، وفي القرن العاشر جاء البرابرة الى المنطقة، لكنهم لم يكونوا مدرسين مثل الآخرين فقط، بل انهم اقتبسوا من السندنية الميزو - امريكية ما مكنتهم من صنع نوع خاص بهم من هذه السندنية. وقد كانت عاصمتهم تيولا تحتوي ابنية وتماثيل متقنة، ولو ان المدينة لم تصل الى مستوى تيوتيهواكان.

كان هؤلاء البرابرة (وهم التليك) وخلفائهم رجال حرب وقتل (في الفترة التابعة للعصر الكلاسيكي)، ولم يكونوا اول اهل حرب في للعالم الميزو - امريكي. فقد سبقهم الى ذلك الأتلك والمايا (للقرن التاسع)، لكن الروح العسكرية في الفترة التابعة

للمصر الكلاسيكي سيطرت على الحياة في موز - ميركا. وقد شهد الزمن التابع للمصر الكلاسيكي دخول الصمدون من عالم الأنز. ووصل هذا إلى غرب المكسيك بحراً (لعله من الأكوادور). وكان التحاس، ومن المحتمل البرونو أيضاً، يستعمل لصنع الأسلحة في عالم الأنز. لكن تلاميذهم في العالم الميزو - ميركي لم يقلدوهم؛ بل انصرفوا إلى صنع الحلبي الذهبية من الذهب والفضة. إن الأثرية لما فاهلوا الأسباب في القرن السادس عشر كانوا يستعملون أسلحة مصنوعة من الحجارة والخشب. إنه من العجب العجائب أن شعباً كانت له مثل هذه الروح العسكرية كالآثرية لم يصنع مصولا للبروف ولا رؤوساً للرماح من المعدن تقليداً لجيرانه وخصومه التراسكان.

دمرت تولا (في النصف الثاني من القرن الثاني عشر) على نحو ما أصاب سابقتها تُولولا ونوتيهواكان ولانتا وسان لورنزو بطريقة العنف. وكانت حولة في يوكاتان (حوالي ٩٨٧) واستمرت حتى حوالي ١٢٢٤. وفي هذه الدولة كان ثمة مزيج مما عند الكالوك والمايا في من المساواة والقانون المنظورة والديانة والمعتقدات والأخلاق. وروح اللطيف كان يسيطر عليها تقديم الضحايا البشرية، وكانت عاصمة هذه الدولة الجديدة هي تشيخن. لكن لما قضى امر بها هذه الدولة وعاصمتها استولت عليها جماعة الأثرا (من المايا) وأنشأ زعيمهم (حوالي ١٢٨٣) دولة اتخذ لها عاصمة جديدة هي مايايان، وهي أقدم مدينة مسورة في منطقة المايا. وقد ظلت عاصمة للدولة حتى حوالي ١٤٦١ إذ تخلى عنها أصحابها بعد خرابها في حرب أهلية.

وكما حدث في عصر التللك فإن مرحلة الأثرا كانت أيضاً زمن تطوّر نماذج المايا الحضارية مع عناصر مدنية من الهضبة المكسيكية. وهذه المرحلة من تاريخ الأنز ومدنها تقع في المرحلة الزمنية ١٠٠٠ - ١٤٣٠. ولم يكن عالم الأنز في تلك الأثناء وحدة سياسية أو وحدة حضارية. وكان الساحل مقسماً سياسياً إلى ثلاث دول قط، إما كان كل واحد، في الفترة السابقة، مركزاً لدولة.

ونحن إذا أردنا مقابلة تاريخ الأنز بالتاريخ الهليني وجفنا أن عصر الأزدهار، في تاريخ الأنز يقابل لدرجة ترون من التاريخ الهليني تنهي سنة ٣٣٤ ق.م. حيث كانت المدينة - الدولة هي القاعدة السياسية الأساسية في العالم الهليني. وفي عصر الأزدهار في الأنز بلغت الفنون المدونة في الجودة، على نحو ما تم في الفترة الكلاسيكية في التاريخ الهليني. والدول الساحلية في الأنز التي قامت بعد عصر تياهوواتاكو، شبيهة

بالدول التي خلفت الامبراطورية التي اقامها المقدونيون بعد القضاء على الامبراطورية الفارسية

ومدن ساحل الاندز كانت عواصم امبراطوريات ضمت في كل منها اودية متعددة واحدها الى الآخر. وقد تمركز السكان في العاصمة، واعيد تنظيم الري، واداليه، وحولت المياه من الاودية المتعددة لري الارض القريبة من المدن الآهلة بالسكان. وقد سمي علماء الآثار هذه الفترة بعصر بناء المدن (بسبب ضخامة ششنان، عاصمة شيمو). ولو ان الفخار المصنوع في هذه الفترة كان دون سابقه انقائاً؛ إلا ان مهارة العصر الفخية كانت تشغل في صنع الادوات المعدنية.

ششنان كانت صفا من اماكن الإقامة المربعة الشكل بدور بكل منها سور من اللبن. وقد كانت اكبر مدينة في عالم الاندز في عصر بناء المدن (لو حتى قبل ذلك وبعدده حتى قامت مدينة ليما الحديثة). لكن لقدس مكان تعبدى يعود الى ذلك العصر كان في باشاكامك (كوزيماتكو) على اسم الاله الذي كان يعبد هناك. لقد كان باشاكامك الها مسكوناً، وكان يته يزوره الناس من جميع المناطق.

٦١- العالم الإسلامي ٩٤٥-١١١٠

إن احتلال حكام بني بويه لحداد (٩٤٥)، وهم مؤسسو واحدة من الدول الخليفة بالنسبة للخلافة العباسية، كان دليلاً واضحاً على أن تفككت الامبراطورية العباسية، الذي كان قد بدأ في القرن التاسع، لا مهيبل إلى وقفه. ولم تكن الأسرة البويهية الأولى بين الأسر التي سيطرت، وانتهاء على جزء من أملاك الخلافة، دون أن تستأذن الخليفة في ذلك، لكنها كانت الأولى التي احتلت ولاية الدولة الأولى - العراق - والتي سيطرت مباشرة على الخلافة بالذات. كان البويهيون إيرانيين من جيلان (الديلم)، وكان تسلطهم على الخلافة العباسية نهاية للعمل المستمر الذي قام به الإيرانيون للوصول إلى هذه السيطرة السياسية في الدولة الإسلامية على حساب العرب. لقد أظهرت هذه النزعة نفسها في ثورة ٧٤٧- ٧٥٠ التي مكنت العباسيين من الوصول إلى الخلافة، ثم في انقصار المأمون على الأمين (٨١٣). وعلى كفي فإن البويهيين، فضلاً عن كونهم إيرانيين، كانوا شيعة، ويبدو وكأن دخولهم بغداد كان نقضاً لعمل الثورة (٧٤٧- ٧٥٠) لا اكتمالاً لها، من ناحية المدينة. لذا عمل الشيعة للثورة كانوا بأملون في أن يحلوا محل الأمويين في الخلافة. لقد غاب فكلهم يومها. والآن، وبعد قرنين من الزمان، فإن آمالهم المؤجلة بدت وكأنها على طريق التحقيق.

في سنة ٩٠٩ قضى على الدولة الأغلبية في شمال غرب إفريقيا؛ وقد تم ذلك على يد أسرة متحددة من علي وقاطمة. كان الأغلبية عرباً وسنيين وكانوا يعتبرون للعباسيين بالسيادة اسماً. وكان القاطميون عرباً أيضاً، لكن بنودهم كانوا من بربر كتامة. وكان القاطميون يطمحون في أن يحلوا محل العباسيين وقد كانت اتصالاتهم انتصاراً للبربر وللإسماعيلية (الإمامية السبعية) من الفريق الشيعي. وقد جربوا (٩١٤) أن يحتلوا مصر إلا أنهم فشلوا، لكنهم نجحوا في ٩٦٩. وخلال ذلك حاول القرامطة (٨٩٠)

وهم جماعة شيعية تتبع الاسماعيلية، ان يقيموا لانفسهم دولة في العراق. وقد اخرجهم الميسايون من الهلال الخصيب لكن القرامطة وجدوا لهم قاعدة آمنة للمسلات في ساحل الجزيرة، في الحسا والبحرين، وقاموا من هنا بالهجوم لا على العراق فحسب بل على مكة المكرمة، وحملوا الحجر الاسود من الكعبة (٩٣٠). وكان الرميديون، وهم ايضا فرقة شيعية، الذين حكموا ساحل بحر قزوين في ايران بين ٨٦٤ و ٩٢٨، قد افادوا لهم دولة ثانية في اليمن (٨٩٧). ووضع الشيعة الاسماعيليون الحملات تحت نفوذهم (٩٧٧) وحكموا اليهم جزءاً من السند (٩٨٥). وبدا حوالي سنة ٩٨٥، ان الانقسام ذات الاهمية التي ظلت تحت سلطان سني قوي هي الدولة السامانية الايرانية في ما وراء النهر وخراسان والخلافة الاموية في شبه جزيرة ايبيريا. وبدا يومها وكأن العالم الاسلامي على وشك ان يقسم بين الايرانيين والبربر، وانه في حالة توحيد من جنده، فان الذين سيقومون بذلك هم الفاطميون - من الشيعة الاسماعيلية.

يضاف الى ذلك ان الشيعة الاسماعيلية والايرانيين كانوا يومها في دور الصعود على المستوى الثقافي والسياسي. فانشار الملحمي الفروسي (٩٣٤ - ١٠٢٠) والفيلسوف ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) والعالم النبي البيروني (٩٧٣ - ١٠٤٨) كانوا ايرانيين. ومنذ حوالي سنة ٩٧٠ كان الخوارج انصافاً، وهم فئة اسماعيلية كانت تقيم في البصرة، قد اتخذوا انفسهم بوضع موسوعة (رسائل اخوان الصفا). وفي ٩٧٣ انشأ الفاطميون الاسماعيليون كلية دينية في جامع الازهر في عاصمتهم الجديدة القاهرة. فمن النظرة العامة كان تمزق الامبراطورية لمباسة سلباً ذا فائدة للادب والفن؛ فتمدد البلاطات المحلية زاد عدد الذين يرجعون هذه الامور.

والصيغة الايرانية للحضارة الاسلامية خلدت وجودها في ادب فارسي جديد (فارسي). ولكن قبل ان ينتهي القرن الحادي عشر نميت الامل التي بدت معقولة حول سنة ٩٨٥ بالعش. ففي سنة ١٠٨٥ كانت الحكومات السنية صاحبة السلطة في جميع انحاء العالم الاسلامي، باستثناء مصر؛ ومع ان مصر كانت لا تزال تحت حكم فاطمي شيعي، فان رعايا الفاطميين من سكان مصر السنة لم يتقبلوا صيغة الحكم. في سنة ١٠٨٥ كانت الاسرة المميسية لا تزال تتولى الخلافة في بغداد. إلا انه اعتزلوا من سنة ١٠٥٥ لم يعد سادتها البرهمن الايرانيين الشيعة، بل اصبحوا الآن الاثريك السلاجقة الس. لقد

حل الأتراك مكان الأيرانيين كسادة في كل مكان من الجزء الآسيوي من العالم الإسلامي تقريباً، باستثناء الجزيرة العربية.

لقد مثل الشيعة في اصفهان الفرس في ٦٥٦-٦٦٦ وفي ٧٤٧-٧٥٠ وفي ٩٩٩-١٠٥٥ فشلوا أيضاً. ولم يمانع الفاطميون والقرمطة معاً. فمع ان الفرقين كانا شعبة اسماعيلية ككل القرمطة معنيين بتحقيق العدالة الاجتماعية، بينما كان اهتمام الفاطميين الرئيس الدفاع عن حقهم الموروث. فلم يكن بين الفريقين تألف. اما البرهمنون فلم يتعمروا على كليهما. فقد كان البرهمنون شعبة من غير فئة الاسماعيلية. وقد فضلوا ان يكونوا سادة المهاسبين على ان يصبحوا تابعين للفاطميين. والشيعة من غير الاسماعيليين اتفقوا فيما بينهم، ومع اكرية السنة من الامة الاسلامية، في ان يرفضوا حكم الاسماعيلية. واذا امتنع الاسماعيليون من عجزهم عن الوصول الى السيطرة على العالم الاسلامي ردوا على ذلك بان انتشأوا (حوالي ١٠٩٠) جمعيمة سرية - الحشاشون. وقد كان من ثلول ضحاياهم نظام الملك، الوزير الايراني للسلاجقة الأتراك الذين حلوا محل البرهمنين.

كان القرنان الثامن والحادي عشر فترة محنة وبلاء بالنسبة لسكان العالم الاسلامي، لضعف الدولة الاسلامية الواحدة جاء عقبه تحلل في امور النظام والقانون. وقد حشن حكم البرهمنين في بغداد والحكم السلجوقي الذي حل محله الامور بعض الشيء، إلا ان هذا كان محلها وموقفاً. وقد تعرض العالم الاسلامي لهجوم فئات مسيحية، وشر من ذلك انه تعرض لهجوم برابرة بدو رعاة كانوا قد اعتنقوا الاسلام اسباً.

فقد استولت الاسبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) على كريت (٩٦١) وطرشوس (٩٦٥) وانطاكية (٩٦٩)، وهي السنة التي احتل فيها الفاطميون مصر، ودارت المنافسة بين الرومان الشرقيين (البيزنطيين) والفاطميين لامتلاك سورية لمدة عدة سنة، دون ان تنال الواحدة لو الاخرى منهما وطرها وانحراً اخرج كلاهما منها على يد السلاجقة الأتراك أولاً ثم (١٠٩٨ - ٩٩) على يد الصليبيين. وبين ١٠٦٠ و ١٠٩٠ احتل الزرمان صفية. كما استولى القشتاليون على طليطلة (توليدو) سنة ١٠٨٥

على ان التدمير الأكبر والمصائب الأعم جاءت على ايدي اليندو - الأتراك والعرب والبربر - الذين انطلقوا من عقابهم. ففي سنة ٩٩٩ تقسمت دولة السامانيين، وهي واحدة من الدول التي خلفت العباسيين، بين أسرة تركية قامت في غزنة (في افغانستان

الحالية) سنة ٩٦٢ والأتراك القارلق الذين كانوا قد قبلوا الاسلام في سنة ٩٦٠ (ركان الحد بهر سيحون). وكان الأتراك يحملون افرادا الى العالم الاسلامي ليقيموا جنوداً - رقيقاً، وكانوا قد تعلموا فن النبل من اسلافهم. ففي سنة ٩٩٩ جاءت لأول مرة قبيلة تركية بدوية، هي القارلق، واستمرت بقضها وقضيضها في بلاد اسلامية ونوع هؤلاء الغز الذين دفعهم القبتشاق غربا وهم الذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام السني، وكانوا بقيادة آل سنجوق، فتغلبوا على الغزنويين (١٠٤٠) واحتلوا خراسان. وكان مطمح السلاجقة ان يستولوا على الامبراطورية لانفسهم، وهو ما تحقق مؤقتا لما حلوا محل البويهيين كساد للعباسيين في بغداد (١٠٥٥). وقد كان اتباع السلاجقة من البدو يرغبون في الحصول على المراعي والفتنالك. فاتفق السلاجقة مع العرب والبرانيين الذين وقعوا تحت سلطانهم، على ان يسمحوا لهؤلاء الاتباع (التركمان) ان يجتازوا الى ارمينية (١٠٤٦) ومن ثم الى اسية الصغرى (بعد ١٠٧١). إلا ان هؤلاء البدو كانوا قد اوقعوا الخراب بالران وهم في طريقهم الى تلك الاقطار المسيحية.

واطلق الفاطميون قبيلتين من العرب على شمال غرب افريقية كأدبياً لثالبهم هناك الذي اعلن الانفصال (١٠٤٧). وفي شمال غرب افريقية كانت غابات الرهون، التي كانت عماد ثروة المنطقة في العصرين القرطاجي والروماني، قد استمرت في نتاجها خلال الاحتلال القنطاري والفتح العربي. لكن الدمار الذي اصابها خلال هذا الهجوم لم يمكن تعويضه. فهذا لم يكن عملية حربية - لقد كان زحفا بدوياً جماعياً. وهؤلاء الزاحلون لم يصلوا المحيط الأطلسي، فقد وقف بدو الصحراء من البربر في طريقهم، وكانوا بقيادة المرابطين، الذين كانوا سنة اصوليين. وقد جاز هؤلاء المرابطون مصبل جبل طارق الى اسبانية (١٠٨٦ و ١٠٩٠) ولزاحوا وارثي الامويين الاسبان عن السلطة لانهم حجزوا عن وقف تقدم القشتاليين. عندها اكتشف الحكام العرب المسلمون في الأندلس ان مجيء المرابطين لم يحمل لهم الخير.

وقد كان المهاجمون المسيحيون يزعمون حدود الاسلام في حوض المتوسط العربي وفي بلاد الشام. وفي الوقت ذاته كان هذا الحد يتقدم في الهند وهي اسية الصغرى. فالأتراك العربون استولوا ببلاداً جديدة لم تكن تابعة للسامانيين او للعباسيين قط. فقد استولى محمود الغزنوي على حوض السند بكامله وجعله جزءاً من الاسلام السني (قد صمى الحكيم الشيعي الاسماعيلي في الملتان والسند وشن حرباً على الهدويين)

والسلاجقة، الذين كان حكمهم في إيران والعراق عابراً، انتشروا في اسية الصغرى التي كانت قلب الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) دولة اسلامية سنية دامت ٢٣٦ سنة (١٠٧٧ - ١٢٠٨).

دخل الاتراك العالم الاسلامي عبر ايران، ولم يدخلوه جماعات كبيرة إلا بعد ان قامت مدينة اسلامية بلغة ذات صبغة ايرانية. وقد حافظ الاتراك على لغتهم الوطنية لكنهم تعلموا المدنية الاسلامية في صيغتها الايرانية. وهذا هو الاسلام الذي بشر جنوباً في شرق الى الهند، وشمالاً في غرب في بلاد المسيحية الشرقية الارثوذكسية. وانتشار الاسلام على حساب هاتين المدينتين المجاورتين له خلال القرن الحادي عشر وبعدده، كان ابعد مدى من عمارته الدائمة في العرب، وعملته الموقنة في بلاد الشام (على اهدي الصليبيين).

وهكذا فان حدود الاسلام كانت تتسع بشكل بين في الوقت الذي كانت الدولة الاسلامية الواحدة تنمق. ومن الناحية النظرية فان الدولة الواحدة اطلر ضروري للدين؛ إلا ان النظرية اطلقتها التجربة. فقد اثبتت هذه ان الاسلام بقي وانتشر دون ان تسنده الحكومة الواحدة. ودخول غير المسلمين، من رعاية النول التي خلقت الدولة الاسلامية الواحدة السابقة، في الاسلام انقضاء، يبدو انه مرتبط بهذه الأوضاع.

والباحث السياسي لهذا الاعتراف الجساعي للاسلام ظاهراً للميمان. إن الاغلبية غير المسلمة التي كانت رعية الدولة الاسلامية الواحدة، كانت تعيش في حمى المسم الاسلامي. فلما تمزقت الدولة الاسلامية الواحدة، اتخذ رعاياها - المسلمون منهم وغير المسلمين على السواء - يبحثون عن ملجأ آخر. وقد ادرك الجميع ان الاسلام كان اكبر قوة وقدره على الحياة والاستمرار من الدولة الاسلامية، وهذا ما حصل رعايا الدولة المنحلة من غير المسلمين على اعتناق دين حكامهم اسبقين. فان يكون السوء مسلماً أصبح الآن يزود الفرد بضمانة اكبر من ان يكون رعية سابقة لدولة لم تستطع ان تغطي الصدمة الكبيرة في زمن المحنة. فالباعث على الدخول في الاسلام أصبح الآن شيئاً اكثر من مجرد الحصول على مساواة مالية وسياسية - لقد أصبح اهتماماً صميمياً مرتبطاً بالبقاء.

إن الصيغة الاسلامية التي ظهرت قدرتها على الاستمرار هي الاسلام السني وحتى البوهميون الشيعة اعترفوا بان السنة هي التي تقبلها الجماعات لما تورعوا عن تصفية

الخلافة العباسية. فمع ان هذه الخلافة قد فقدت قوتها على ان تكون حكومة فعالة في دولة اسلامية سية واحدة، فقد ظلت الرمز المؤسسية للضامن البيكولوجي والاجتماعي للامة الاسلامية السنية. يضاف الى ذلك ان السنة، اذا ما قوتت بالبيعة الاسماعيليه، اصبحت أكثر استجابة للحاجات الانسانية. وكان العصر مملوفاً بحركات صوفية، لعلها كانت بينها وبين السنة شيء من الخلاف. وفي خضم هذه الاتجاهات السنية والصوفية ورغبة المسلم المعادي في ان يجد في الله ملجأه الاول والاخير، وضع ابو حامد الغزالي ما يصح ان يشار اليه بأنه المنظومة الاسلامية للصوفية.

كان الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١) استاذاً ناجحاً في المدرسة النظامية ببغداد، ثم تخلى عن عمله واعتزل العالم إحدى عشرة سنة (١٠٩٥ - ١١٠٦) ليتعرف الى التصوف وتجربة واختباراً من حيث صلة المتصوف بالله. والذي خلص اليه الغزالي هو انه اعاد التصوف الي حظيرة السنة. وبذلك اصابته هذه نفحة صوفية. وقد فعل الغزالي ذلك لانه رفض الشيعة الاسماعيليه والفلسفة العقلية، فاصبح مقبولا لدى المسلمين السنة. فالاسماعيليون كانوا يتجنبون بسبب ثورتهم العرية والتمهدة وكان الفلاسفة غير محبوبين لان القوم كانوا يرون في حرية الفكر التي كانوا يدعون اليها، امراً غير مرغوب فيه في ذلك العصر المحفوف بالمخاطر. وهكذا برفضه هذين الشيعين انقذ الغزالي التصوف اذ ادخله حظيرة السنة وفسر السنة تفسيراً فيه روحية جديدة.

٦٢- عالم ميونطية ٩٢٧ / ١٠٧١

أهم حدثين في هذه الفترة من التاريخ البيزنطي هما اعتناق الروس المسيحية (٩٨٩) على الصيغة الأرثوذكسية الشرقية، وانكسار الامبراطورية الرومانية الشرقية عسكرياً (١٠٧١). وسقوط الامبراطورية كان كارثة بالنسبة لليونان. فالامبراطورية مع احتفاظها بالصيغة « الرومانية » فهي قد أصبحت، في الواقع، يونانية منذ القرن السابع، ومن لم فإن النكبات التي حلت بها في ١٠٧١ وما بعدها، كانت نكبات للشعب اليوناني أيضاً. وعلى كل فانه لما حلت سنة ١٠٧١ لم تعد الحديثة البيزنطية تعتمد كلياً على الشعب اليوناني وعلى الامبراطورية الرومانية الشرقية. فعند ذلك التاريخ كان المجتمع البيزنطي قد ضم اليه - بالإضافة الى اليونان - ثلاثة شعوب سلافية اللغة هي: البلغار والصرب، والروس - وكذلك الجورجيون والآلان في القفقاس.

إن التقلبات التي عرفها التاريخ الحربي للامبراطورية الرومانية الشرقية في هذه الفترة تبدو متناقضة اذا نظر اليها معزولة عن غيرها من الشؤون، لكنها يمكن تفهمها اذا نظرت بالنسبة الى الوضامين الاقتصادي والاجتماعي. إن التاريخ العسكري للامبراطورية الرومانية الشرقية كان، بين ٩٢٦ و ١٠٤٥، هو سجل لاتصلوات متتالية، ولو انها لم تكن دوماً سهلة. ولكن تحول المجري في العقد الخامس من القرن الحادي عشر، وانكسارات الامبراطورية المذلة (سنة ١٠٧١) على جبهتيها الارمنية والابولية (في ايطالية) يمكن تفسيرها على اساس انها نتيجة فشل سلسلة للتطبيقات التي صدرت عن الامبراطور لاصلاح الاراضي بدءاً من سنة ٩٢٩ (او لعلمها سنة ٩٢٢)، والتي كان آخرها (١٠٢٨)، والعصيان الذي قامت به جماعة الامبراطورية من ارستقراطية الرتبة، في اسية الصغرى (في ٩٦٣ و ٩٧٠ و ٩٧٦-٩ و ٩٨٧-٩ و ١٠٥٧) يمكن ان يطر اليها على انها مقدمة لاحتلال رجال الحرب من الاتراك السلاجقة والدانيشمند واتباعهم من البدو، لمناطق في قلب اسية الصغرى كانت اصلاً مما كان ارستقراطية

الامبراطورية الرومانية الشرقية قد استولوا عليه على حساب اعضاء الميليشيا الفلاحية في الامبراطورية الرومانية الشرقية.

هذه الميليشيا الفلاحية خلقت عن اسية الصغرى محتاج ضد هجمات العرب، في الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية الشرقية تقف موقف الدفاع. فالفلاحون المسلحون كانوا، في الحقيقة، أداة فعالة في الحروب الدفاعية. إذ انهم كانوا يدفعون عن ارض متعجبة، كانت املاكهم الخاصة، ومن ثم فقد كان لهم ما يحصلهم على القيام بواجبهم العسكري بفعالية. وقد كانت نفقات الخزينة الامبراطورية ضئيلة، لأن الفلاحين كانوا ينتجون ما يقوم باودهم من ارضهم، وقد كانوا يدفعون من الضرائب اكثر مما كانوا يقبضونه من مرتبات. لكن هذه الميليشيا الفلاحية لم تكن بالمثل أداة صالحة لحرب هجومية، متى كان الغرض منها الفتح والاستقرار الدائم لبلاد تقع خارج حدود الامبراطورية.

وعلى خلال القرون الثلاثة: المستهبة سنة ٩٢٦، التي كانت العمليات الحربية من النوع الدفاعي الذي كانت فيه الميليشيا الفلاحية تدافع عن املاكها الخاصة، لم يكن من اليسر حمل المقاتلين من الميليشيا على ان يخصصوا الوقت اللازم للخدمة الفعالة والتدريب. فقد كانت عبائة المقاتل الاولى هي استئصال ارضه والاخصام بجهواته بحيث يحسنه ان يدفع، من دخله، ما يتوجب عليه من الضرائب، وإن يتناع سلاحه وإن يوزر الفداء الضروري لاسرته. فقد كانت الضرائب عالية، وكان ضبط الضرائب يتعاملون مع الفلاحين بعشوة دائماً. تنصرفهم جملة الفلاحين يشعرون بالذين يلحقهم من الحكومة الامبراطورية. وقد كان احد الاسباب التي قعدت بالعرب عن فتح اسية الصغرى في القرن السابع هو ان السكان المحليين كانوا مستعدين للقتال في سبل بلادهم. ولكن في سنة ١٠٧١ وما بعدها كان الفلاحون في اسية الصغرى على استعداد لتحمل مهاجم اجنبي أو حتى للترحيب به، على نحو ما كان الفلاحون في بلاد الشام ومصر على استعداد لقتل ذلك الصل في ٦٦٣ وما بعدها.

كانت العلاقات بين الفلاحين والارستقراطيين من ملاك الارض الناشئين في شرق اسية الصغرى معقدة والمتناقضات. فبمسالة الفلاحين الحربية هي التي أصبحت في المجال امام عو الثروة الكبيرة عند هؤلاء الملاكين. ومع ان هجمات المسلمين، برا وبحرا، على بلاد الامبراطورية الشرقية لم تتوقف حتى احتلت الامبراطورية الشرقية

كريت (٩٦٦) وطرسوس (٩٦٢)، فإن الرياح سارت لمصلحة الامبراطور سنة ٨٦٢
 فقد نحس الوضع الامني في اسية الصغرى باستمرار، واصبحت الارض مجالا جديداً
 للاستثمار، وكانت الصائفة المحلية التي حلت بالفلاحين هي القنصة الثلاثة الملاك
 مضطط الضرائب فرض على الفلاح ان يبيع مع ان الارض التي كانت تحت تصرفه
 مقابل الخدمة العسكرية لم يكن التدخل عنها جائزا قانونا. والضغط الذي كان تضيقه
 شاة غاس فوق المادة (٩٢٧ / ٨) يشر للاغنياء لامتياز الاراضي باسماء تدعو الى
 السفيرة. إلا ان هذه الازمة الموقوفة ما كان لها ان تستغل الى هذا الحد لولا ان
 الفلاحين كانوا قد وقعوا في ضائقة مالية شديدة بسبب الضرائب الباهظة.

وقد كانت مضيقه الاستغلال لازمة ٩٢٧ / ٨ بشدة بحيث ان التشريع الامبراطوري
 لاصلاح الارضين عاد الى الصلوة، وهو الذي قُتل نهائيا سنة ١٠٢٨. ذلك بأنه كان
 لثمة خصومة بين حكومة الامبراطورية الرومانية الشرقية وكبار الملاكين حول الاستيلاء
 على « فائض » الانتاج عند الفلاحين. كان القسم الاكبر من الدخل القومي للامبراطورية
 الرومانية الشرقية مصدره انتاج الفلاحين. وكانت القضية تتلخص في هل يذهب هذا
 « الفائض السنوي » للحكومة ضرائب، لم يستولي عليه كبار الملاكين ايجاباً. وقد كان
 كل من الضباوين شرا بالنسبة الى الفلاح. فالفلاح كانت الضرائب الملقة على عاتقه
 ثقيلة باعتباره « ملاكا حرا »، وبوصفه فلاحا مستأجرا عند ملاك كبير كان يتقل مهمة
 التعامل مع موظفي الضرائب الامبراطوريين الى مالك الارض، ولكن ثمن هذا كان ان
 يضع الفلاح نفسه تحت رحمة ملاك الارض.

كانت الحكومة ترمي الى حمل كبار الملاكين على التحلي فصبيا عن الارض التي
 اسفلوا عليها دون حق، وحتى بطريقة غير قانونية احيانا منذ ٩٢٧ / ٨. وقد بلغ النزاع
 غايته في عهد باسيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥). فقد حمل ببلاء اسية (الصغرى)
 السلاح ضده في ٩٧٦ - ٩ ثم في ٩٨٧ - ٩. وكان رده على ذلك عنيفا، ففي
 ١٠٠٣ / ١ اصدر امره بان الضرائب التي فرضت على اساس المناطق، يجب ان يقوم
 بدفعها الاغنياء من دفعي الضرائب مجتمعين، وان يعفى الفقراء منها كلها. وقد اعني
 هذا الامر سنة ١٠٢٨ وذلك بضغط شديد من كبار الملاكين على خليفة باسيل اخيه
 قسطنطين الثامن. وجاء الضغط عن طريق موظفي الدولة الذين كانت مصالحهم

الشخصية نقف دوماً عائقاً في سبيل الإصلاح. وهذا يشبه ما حدث لإصلاحات رابع
 ان - شبه في الصين ٨٥-١٠٦ (راجع الفصل التاسع والخمسين).

كان باسيل الثاني في معركة مع النبلاء والموظفين - وقد حاول، ان يحيي الفلاسيف
 من المريفين، ولو ان هذه الاول كان تقوية مصلحة الدولة. وكان الموظفون في معركة
 مع النبلاء الاسويوس لأن الموظفين كانوا هم الذين يحكمون الدولة عندما يتولي العرش
 امبراطور ضعيف (دون باسيل الثاني مقفوة)، فما كان النبلاء يحاولون انتزاع العرش،
 او الخروج على الدولة. وكان النبلاء والفلاحون يكرهون موظفي خرائب الدولة. الاولون
 لانهم كانوا يرون في الشدة على الفلاحين في جميع الضرائب اضحافاً للميليشيا
 الفلاحية، فيما كانت قوة النبيل الارستقراطي تعتمد على هؤلاء الميليشيات لتوطيد
 سلطته، التي كانت تعادل حكم الولاية. والفلاحون كانوا يمارضون تصرف النبلاء في
 الاستيلاء على الارض، لكنهم كانوا عمتين لهم لانهم كانوا يدفعون عنهم اذى موظفي
 الضرائب. ومن ثم فقد كان الفلاحون يسبون في ركاب النبيل لا في حروبه للذئاع
 عن الامبراطورية فحسب، بل حتى في عصبانه على الدولة. والمصانعات الخمسة التي
 قامت في اسرة الصفري (من ٩٦٣ ر ١٠٥٧) ما كان لها ان تكون بهذه القوة لولا
 العون الذي قدمه الفلاحون لها. وقد تقبل الفلاحون هذه المصانعات على انها موجبة
 ضد موظفي الضرائب. وعصيان ٩٦٣ انتهى بتولي نبيل هو نقفور الثاني (فوكاس)
 العرش. وعصيان ١٠٥٧ حمل اسحق الاول (كولستينوس) الى العرش، وفشلت
 عصيانات ثلاثة منها اثنان في ايام باسيل الثاني، لكنه اضطر الى استخدام المرتزقة
 للقضاء عليهما (المرة الاولى من جورجيا والثانية من روسيا).

وقد كان استخدام المرتزقة سوما من اهل البلاد لم من الخارج، فكان جيش الاسرطورية الرومانية
 الفلاحين احد اسباب سقوط الاسرطورية (١٠٧١). كان جيش الاسرطورية الرومانية
 الشرقية يحتوي دوماً على جماعة من الجند السحرفين الذين كانوا يعطون كامل وقتهم
 للخدمة العسكرية وكانوا يقبضون مرتبات بديل ذلك. لكن عددهم كان صغيراً، وذلك
 بسبب النفقات الكبيرة اللازمة لذلك. فلما تولى العرش لباطرة ثلاثة معاربون وراعيون
 في تومسيع رقعة المملكة (نقفور الثاني ٩٦٣-٩٦٦ ويوحنا ٩٦٦-٩٧٦ وباسيل الثاني
 ٩٧٦-١٠٢٥) تغير الوضع. كانت ثمة رغبة في ان يعود الفلاحون الى الارض
 ليخدموها كل الوقت، ويصبحوا دافعي ضرائب. وكانت ثمة رغبة اصيلة (نقفور)

للمحافظ على حياة الفلاحين القائمة. وهناك اعتماد في وقف النبلاء عند حدهم. والرعية في ان يكون للامبراطور جيش محترف كانت قائمة عند البعض (تقومور مثلا). والذي حدث سنة ١٠٧١ هو ان الامبراطور المعني المحظ روباتوس الرابع (ديوجينيس) قابل للملازمة وكان جيشه مرتزقا، وكان هم الجنود الاكبر ان يحصلوا على مرتباتهم. انتزع تقومور الثاني كرميت وجزءا من كمليكيا من العرب وكان ذلك لمصلحة الامبراطورية. وبوحنا وباسيل الثاني شنا حروبا ضد بلغاريا دامت من ٩٧١-١٠١٨ انتهت باحتلالها. ولكن الحرب الطويلة لوقعت الامبراطورية في خائفة مالية واقتصادية وازمة اجتماعية حادة لم تشف منها قط. وكان من اعراضها تخفيض قيمة اللند البرنطي الذهبي (نوميزما) الذي كان قد احتفظ بقيمته عند ان اعاد اليه دبرقليان وقسطنطين الاول مكانته. وقد تم تخفيض القيمة بين ١٠٤٢ و ١٠٥٥ في ايام قسطنطين التاسع. تعتبر سنة ١٠٧١ حدا فاصلا في تاريخ الامبراطورية البيزنطية في اكثر من ناحية واحدة. فمن ذلك ان الامبراطورية استعادت سيرالوس (١٠٤٠) ولكن الثورمان احتلوا امالفي في ابوليا (١٠٤١). وفي ١٠٤٥ اتست الامبراطورية احتلال لرمبية تقريبا. لكن السلاجقة اغعدوا بالهجوم على لرمبية (١٠٤٦). وفي سنة ١٠٧١ اقم الثورمان احتلال ابوليا وكالابريا (احتلوا بلوي). ولكن الامبراطورية الرومانية الشرقية اهدت البلغار على عصيانهم (١٠٤١) بحيث انهم بعد ١٠٧١ كانوا مع الصرب، شعاسمين للامبراطورية الشرقية. إلا ان الضربة الكبرى التي تلقتها الامبراطورية الرومانية الشرقية سنة ١٠٧١ كانت في انكسار جيوشها في مذكركرت (ملازكرد) على ايدي الب ارسلان (١٠٦٣-١٠٧٢) الذي اسر الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس. فالامبراطورية الشرقية، في تلك السنة، كانت تحكم جزءا من اسية الصغرى فقط، لكن السكان اليه كانوا يونانيين. لما في اوروبا فقد كانت الامبراطورية تحكم جزءا من بلاد البلقان وبلاد الصرب والبلغار.

إلا ان الامبراطورية الشرقية كان لها، ومن ثم لسدنيستها، امتداد آخر ولو انه غير عسكري. في سنة ٩٨٩ اعتنق فلاديمير امير كيف المسيحية الأرثوذكسية الشرقية، التي كانت قد عرفتها هناك قليلة في روسيا. وتزوج فلاديمير اخت ياسيل الثاني (آنا). والمدنية البيزنطية التي دخلت روسيا وصلت اليها عن طريقين - بلفلوي ويوناني ومع ان الامبراطورية الرومانية الشرقية كانت النبع الاصلي للمدنية البيزنطية، فان البلمار كانت

لننتهم ذات اثر اكبر. فان الدولة البلغارية يعود انتشارها الى الهون وهم شعب تركي اللغة) وروسيا اسمها السويديون (الذين كانوا يتكلمون الفونونية). إلا ان اكثريه السكان في البلديس كانت تتكلم لغة صقلية الاصل، وهي اللغة التي كانت قد سادت في كلا البلدين لما وصلت المسيحية اليهما. فلما اعتنقت روسيا المسيحية استقدم امرارها فنانيس وبنائين يونانيين، لكن الروس اتبعوا اللهجة الصقلية (المقدونية) واستعملوها في الطقوس الدينية وفي الادب، وكانت الكتابة التي حوت بها هذه اللغة هي الالفباء الكيريلية البلغارية الاصل، اذ كانت امسر استعمالا من الالفباء الكيريلية (القسطنطينية المنسأة) المعمقة. وبهذه الوسيلة نقل الكثير مما كان قد وضع باليونانية اصلا الى الروس في صيغته البلغارية. ومع ان روسيا كانت في سنة ١٠٧٦ تهمزق سياسيا فانها كانت تصح جغرافيا. وكان هذا الاتساع يحصل معه المدينة البيزنطية نحو شواطئ البحر الابيض الروسي (الشمالي). والمسيحية التي انتشرت في روسيا لم تأثر بحركتين مرطوتين قلنا في ترانها وبلغاريا في القرن العاشر.

وعلال ثرة القرن ونصف القرن التي مرت على الامبراطورية الرومانية الشرقية قبل ١٠٧١، وهي السنة التي احتل بها النورمان ابولية وانقصر السلاطنة على الامبراطورية، كانت البنية الاقتصادية والاجتماعية في الامبراطورية تسير سيرا مضطربا. وهذا يبدو واضحا في فشل حكومة الامبراطورية في سياسة اصلاح الارض. إلا ان الفترة نفسها شهدت احياء التصوف وازدهار الفنون المنظورة في الامبراطورية. فقد كان لسيمون - اللاهوتي الجديد ٤ - (٩٤٩ - ١٠٢٢) اثر في الحياة البيزنطية اكبر من اثر معاصره الامبراطور باسيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥). والفنون المنظورة التي كانت آخذة في الازدهار لم تأثر بالنكبات الحربية التي وقعت سنة ١٠٧١. فقد برز الفنانون البيزنطيون في الفنون والاحصال الدقيقة والصغرى: مثل التقييساء والحفر على النماج والمعدن. والاسلوب كان هلبيا في جرحه وهو الاسلوب الذي ملك على اليونان عقولهم في العصر البيزنطي. إلا ان الفن البيزنطي المنظور الذي صنع في القرنين العاشر والحادي عشر لم يكن تقليدا للمجدور الهلينية. لقد اوحى الفن الهليني الى الفنانين البيزنطيين ان يصنعوا شيئا هو ما يمكن ان يسمروا به. ولما انتقل هذا الفن من القسطنطينية الى كيف ونوفورود اعتمد نهجا حديدا في هذه البلاد الجديدة. ففي سنة ١٠٧١ كانت روسيا قد أصبحت ارض الميعاد بالنسبة الى المدينة البيزنطية والكنيسة الارثوذكسية الشرقية.

٦٣- المسيحية الغربية ٩١١-١٠٩٩

كانت التغيرات التي شهدتها المسيحية الغربية في هذا العصر على الصعيد الحربي على عكس ما خبرته الامبراطورية الرومانية الشرقية في الفترة ذاتها. فالمسيحية الغربية كانت قد بدأت تعرض لهجوم بحري من الاسكندنافيين حتى قبل موت شارلمان (٨١٤)، وقد ظلت في موقف الدفاع حتى انتصر اوبو الأول على المجر (٩٥٥). وقد بلغت الامة المسيحية الغربية، على ايدي المهجمين الغرباء، حدتها الاقصى (٨٩٦- ٩٥٥). ذلك لان الفرسان المجر اصابوا المناطق الداخلية التي كانت قد نالها من غزوات المسلمين والاسكندنافيين اقل من غيرها. وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر سار الحظ في وكاب المسيحية الغربية، في الوقت الذي سار فيه معاكسا للامبراطورية الرومانية الشرقية.

والتبدل التجماعي على الصعيد الحربي يوضح في الحالتين عندما تأخذ بعين الاعتبار التبدلات الاجتماعية والثقافية التي كانت تسير تسريجا قبل ذلك - مثل قبول الاسكندنافيين الذين سكنوا في انكلترا (في الدينلو) وفي فرنسا (في نورماندي) ومثل انتشار الر دهر كلوني في اسلوب اتباع قوانين بندكت في الرهبنة وتمثل المستوطنين الاسكندنافيين كان معناه ان طريقة الحياة التي تزودها المسيحية الغربية لانباهاها اصبحت جذابة للبرابرة (الذين لم يكونوا قد قبلوا ديننا سملوبا الى يومها). والاصلاح الكلوني للرهبنة الغربية يظهر لنا لماذا اصبحت المسيحية الغربية جذابة. ان هذا الاصلاح كان دليلا، على الصعيد الديني، على وجود حيوية في المجتمع المسيحي الغربي كانت تظهر في مجالات اخرى من النشاط ايضا.

انتشرت المسيحية في يوهيميا ايام بعثة الاخوين نسطلطين (كيريل) وميثوديوس (٨٦٣- ٨٥) ومووافيا الكبرى وقد ظل، لمدة قرنين من الزمان تقريبا، طقسا

يستعملان جنباً إلى جنب في يوهيميا - الراحد كان باللاتينية والآخر بالصقلية وقد تغلب الاول على يوهيميا في النهاية، فيما أدى الطقس الصقلي الى انتشار المسيحية في بولندا، على نحو ما حدث في روسيا. وقد قبلت بولندا المسيحية العربية سنة ٩٦٦، والمجر قبلوها بين ٩٧٠ و ١٠٠٠ والدنيمرك اعتمدها سنة ٩٧٤ وبنيمة البلاد الاسكندنافية حول منقلب القرن العاشر الى القرن الحادي عشر. ولقي اعتناق المسيحية مقاومة في بعض تلك الاقطار - مثل النرويج والسويد والمجر. لكن المقاومة انتهت الى الفشل وذلك لان منزلة المذبة المسيحية الغربية كانت، الى ذلك الحين، قد ارتفعت في اعين جيرانها الوثنيين.

ثم للمسيحية الغربية القيام بفتوح خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وذلك على حساب المسيحية الشرقية والاسلام. عيّن سنتي ١٠٤١ و ١٠٧١ احتل النورمان الصغارون ايطاليا وكالابريا، من الامبراطورية الرومانية الشرقية وبين سنتي ١٠٦٠ و ١٠٩٠ احتلوا صقلية من المسلمين. كان سكان ايطاليا ايطاليين تابعين للبابوية دينياً، ومن ثم فإن الفتح النورماني لم يكن غربياً تماماً عليهم. أما اليونان من اتباع الكنيسة الارثوذكسية الشرقية المقيمون في كالابريا وصقلية والمانا-رون في صقلية فقد امعروا الاحتلال النورماني بسيادة اجنبية. وفي سنة ١٠٨٥ احتل الفشتاليون، الذين جاءوا من شمال غرب اسبانيا، طلمطلة (وهي توليدو التي كانت عاصمة القوط الغربيين ومن الفتح العربي لاسبانيا). وفي ١٠٩٨ - ٩ قامت حملة عسكرية من الغرب المسيحي باحتلال انطاكية والرها (ادسا) من السلاجقة، والقدس من الفاطميين.

كانت هذه الحملة - وهي الحملة الصليبية الاولى - محاولة عجبية من الناحية المالية والصوبية والاستراتيجية. فقد نجح فريق من مغتربي الغرب المسيحي في اجتياز ما عجز عنه اباطرة القسطنطينية (باسيل الثاني وبوحنا) مع ما كان لديهم من وسائل الامبراطورية الرومانية للشرقية وثرواتهم. والفتح النورماني لا تكلفوا (١٠٦٦) كان اجتازا عسكرياً بضاهي الحملة السابقة، (ولو انه لم يضاف الى وقعة المسيحية الغربية لان انكثرتا كانت جرباً منها حتى قبل لاحتلال). الا ان هذه الحملة اظهرت ان مرسة (مرسية الغربية) كانت قد سبقت غيرها من مناطق المسيحية الغربية السالفة. وقد كانت البسالة العسكرية واحداً من مظاهر التفوق الفرنسي علماً.

والنصف الثاني من القرن الحادي عشر في تاريخ المسيحية الغربية اشتهت فيه مدينة

بعد ما رقدت عدة طويلة. (وفي ذلك تشبه هذه اليفظة ما اصاب المدينة الهلينة في النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد). وفي هذا العصر اظهرت المدينة للمسيحية الغربية نشاطها وورغيتها في ان تنقل عن المدنيات الاغنى منها والمعاصرة لها وان تحيي ماضيها اليوناني - الروماني.

وفي الواقع فان مدونة جستنيان القانونية اكتشفت في سنة ١٠٨٨ واصبحت موضوع درس جدي وحاسي في بولونيا، المدينة الايطالية التي ظلت تحت سيادة الامبراطورية الرومانية الشرقية حتى سنة ٧٥١. وقبل نهاية القرن العاشر كانت الترجمة اللاتينية لاهمال ارسطو في المنطق التي تمت على يد بونيفس تفرس وتفسر في الغرب على يد جريوت من اوربلاك، بعد ما قامت نحو ٤٥٠ سنة. وطواحين الماء، التي انتشرت في الهلال الخصيب، كانت تنقل على شفاف السواقي المستحثة في غرب أوروبا ما وراء الالب. ويبدو ان استخدام حصال النقل عن طريق امتصال النهر والرسن انتقلت الى المسيحية الغربية في القرن العاشر، وذلك من مكان اختراعها اصلا - لما في الصين او في السهوب الاوراسية. وقد كان بين اسلحة الحملة الصليبية القوس التي كان الصينيون قد اسلموها في حروبهم (٥٠٦ - ٢٢١ ق. م)، وكانت قد نقلت الى الغرب.

في القرن الحادي عشر تغلى الغرب عن اداة الحرب التي ورثها قلعرو الامبراطورية الغربية من البرابرة، واستماضوا عنها بالادلة السرماتية للاكثر فعالية، والتي كان الالان قد حملوها معهم الى بلاد الغال في القرن الخامس. الا ان غربيي القرن الحادي عشر ادخلوا تفهيرا عليها (كان الاول من كثرة). فقد استماضوا عن الفرع السرماتي المستدير الصغير، بدع له شكل طائر يشبه طائرة الورق، اذ انه كان يزود الفارس بوقاء فعال وعلى اذني حد من المساحة والوزن. وقد عرف هؤلاء « الفرسان » اسميتهم الى حد انهم اضاروا اخويات علمانية (مدنية) كانوا يدخلون فيها السجدين ويدبروهم على فنون الفروسية (اواسط القرن الحادي عشر).

بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية اشهر لشعر يكتب باللاتينية على الاوزان الرومانية الكلاسيكية، التي كان العروض فيها قائما على التقسيمات الطويلة والقصيرة. الا ان هذا كان من شأنه ان يحد من نشاط اللغة اللاتينية الشعري. وقد اُطلق كتاب الترانيم الروحية (الدينية) المسيحيون اللغة اللاتينية من هذا العقال، اذ صنعوا شعرا لاتينا، بحيث انه حول منقلب القرنين الحادي عشر والثاني عشر نظمت ملحمة بلغة رومانسية

حية، هي «تشودة رولان». فخرجت من تحت القشرة اللاتينية التي ظلت الى ذلك الوقت تحمي تحتها نشوء لغات هي بلات اللغة اللاتينية.

على المستوى السياسي شهد القرن العاشر احياء لامبراطورية شارلمان، على ان سكسونيا، لا بلاد الفرنج، كانت نواتها. فقد توج اوتوا الأول، ملك فرنسا الشرقية السكسوني، امبراطوراً في رومة سنة ٩٦٢ (وهو الذي كان قد انتصر على المجر سنة ٩٥٥). وقد ضم برغندية وابطالية الي املاكه الجرمانية، لكن فرنسية الغربية حافظت على استقلالها، وقامت هنا اسرة جديدة في القرن العاشر وحلت محل الكارولنجيين الذين فقدوا قواهم. وقد ادخل النورمان ادارة ملكية فعالة في دول كانت على صعيد اصغر من مملكتي فرنسا والمملكة. ونجاح النورمان في احتلال انكلترا وابواليا وصقلية، لم يلق سوى نجاحهم الكبير في تنظيم هذه الممتلكات الجديدة وادارتها.

كانت مملكة صقلية النورمانية تدلر ادارة اوتوراطية، وهي دولة غطت الامبراطورية الرومانية الشرقية والخلافة الاسلامية. وكان قيامها ضربة للمدن - الدول الناشئة في جنوب ايطالية. لكن البندقية (في شمال ايطالية) استقلت واقعاء عن الامبراطورية الرومانية الشرقية قبل نهاية القرن الحادي عشر. ومدد لومبارديا، التي كانت لا تزال في مطلع القرن تحت حكم اولئك الامراء الذين ورنوا حكام شارلمان او تحت حكم الاساقفة المحليين، اصبحت لها استقلال ذاتي خلال السنوات الستة التالية. وقد كانت حكومة هذه المدن - الدول اوليغاركية، الا انها كانت جمهورية. وقد اشتركت المدن من المدن الدول اللومباردية البحرية، كدولتين مستقلتين، في الحملات التي شنتها المسيحية الغربية في حوض البحر المتوسط في النصف الثاني من القرن الحادي عشر.

ومن ثم فقد كان هناك خلال القرن الحادي عشر، صيغتان للتركيب السياسية تنافسان في الغرب: صيغة جمهورية على مقياس المدينة - الدولة، وصيغة ملكية على مقياس المملكة - الدولة. وحول سنة ١١٠٠ كانت كلاهما قد برزتا على انهما اكثر معالية من اي نظام سياسي آخر قام في تلك المنطقة منذ سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب.

وعبيدة المدينة - الدولة السياسية التي ظهرت في شمال ايطالية في القرن الحادي عشر، ظهرت ايضا في فلاندر في القرن ذاته. فقد عرفت المنطقتان تعجراً سكانيا في زمن واحد، ورائق هذا نمو في التجارة والصناعة. فحتى في سنة ٩٩٢ منح باسيل الثاني

الصادقة امتيازات تجلوية في طول الامبراطورية الرومانية الشرقية وعرضها، لقاء الخدمات البحرية التي قدموها له. وعندما اخذ البندقة ينفلون التجارة من اليونان الى ايديهم حتى في المياه اليونانية. وبعد انشاء الامارات الصليبية على الساحل السوري، حصلت المدن - الدول للبحرية من شمال ايطالية على امتيازات في ذلك الساحل ايضاً فالتقط التي اقامها العرب المسيحي « عبر البحار » كانت تعتمد على سفن جنوى وبيزا والبندقية في اتصالها بأوروبا. فقد كان الغرب الآن هو الرايح بالنسبة الى الاسلام والمسيحية الشرقية الارثوذكسية، ولكن في اطار الغرب نفسه كان الرايح الاول هو الايطاليون الشماليون.

وعلى الصعيد اللدني بدت نقطة المسيحية القبرية في سلسلة من المحاولات لادخال اصلاحات بدأت سنة ٩١٠ واستمرت حتى ١٠٩٩. كانت نقطة انطلاقها انشاء دير كلوني في برغنديا وهو نموذج جديد للدير البندكتي. وقد انتشرت حركة الاصلاح الكلونية في الغرب المسيحي، والاديرة التي التبت الصيغة الكلونية للقوانين البندكتية انضمت في جمعية تحت هيمنة كلوني نفسه. ولكن عند نهاية القرن للحادي عشر اصبح النظام الكلوني نفسه عاجزاً عن توفير الحيوية اللازمة. وفي سنة ١٠٩٨ انشأ نموذج جديد في سيمو في برغنديا ايضاً. كان التقديس بندكت نفسه (على نحو ما رمى اليه باخوم المصري ابو نظام الرعيّة) لواء ان يقيم توازناً بين التمدد والنشاط الاقتصادي للرهبان في دهره. والحركة الكلونية عنيت بالتفريد والطقوس في حياة الدير البندكتي. ومن ثم اصبحت الاديرة التي قبلت النظام الكلوني مبعاً على الفلاحين المقيمين في املاك الدير، لا يمثل في ثقله من العبء الذي يفرضه الجيران من كهنة السلاكين المدنيين. اما اتباع دير سيمو (وهم الستريون) فقد كان هدفهم ان تكون لهم حياة روحية متشفة اعين وانتاج مادي اكبر. فقد استصلحوا الارض البرية لكنهم استخدموا عمالاً هم رهبان عاميون، اي اعضاء في المنظمة لكنهم من الدرجة الثانية. (الرهبان المصريون لم يستخدموا عمالاً غيرهم في استصلاح الارض). وقد استخرج الستريون الكثير من الصوف من البرية. وهم، اذ قلوا بهذا الانجاز الاقتصادي، رجعوا بدور النظام الرأسمالي في الانتاج.

ان الاصلاحات الدينية في القرن الحادي عشر في الغرب المسيحي ادخلت ثلاثة امور مستحدثة هناك. لقد فرضت العزوبة على كاهن الرعية (اي رجل الدين الذي لم

يمكن راعيا) وحاولت منع شراء المناصب الدينية وتنصيب اصحاب المناصب الدينية على ايدي السلطات المدنية. وقد نجحت القضية الاولى، مع انه لم يكن لها سابقة لا في الغرب المسيحي ولا في اي كنيسة قديمة. وقضية تنصيب رجال الدين على ايدي السلطات المدنية تم الاتفاق بشأنها (١١٢٢) على شكل مرصعي، لأن الشخصيات الدينية كانت غالبا ما تتولى المناصب المدنية والدينية. واجتباغ المناصب الدينية من اصحاب السلطة المدنية المحليين، نقض لمصلحة الباباوية، التي تولت امر تعيين رجال الدين في مناصبهم، ولم تكن تفعل ذلك مجانا. وكانت نتيجة هذه الاصلاحات الدينية في مجملها ان جعلت من رجال الدين فئة ذات امتيازات خاصة داخل المجتمع المسيحي الغربي. وكان ضمن ذلك انخضاعهم للباباوية بدل ان يكونوا تحت رحمة البلاء المدنيين.

تولت الباباوية، التي نالها الاصلاح ايضا، قيادة هذه الحركات الثلاث. لقد كانت الباباوية اهم مؤسسة في المسيحية الغربية. وجاء اصلاحها في اواسط القرن العاشر عشر، مفاجئا ومدويا، لما كاتجه فقد اختلف فيها، كما انه رافقه شيء من التمزق. كان المركز الجغرافي للغرب المسيحي هو مرغنديا، حيث تقرب يتابع انهار السون والسين والنوئل بعضها من البعض الآخر، وحيث تقرب جميعها من زاوية الراين الجنوبية الغربية. وغرب أوروبا ما وراء الألب كان هذا هو مركز المواصلات له، وفي هذه المنطقة انشأ دير القديس كيرلسيانوس والسلاج الجديدة لاديرة كلوني وسينو وبعد ذلك دير كلونفو. في مقابل ذلك كانت رومة، وهي مركز الكرسي البابوي، تقع على الطرف الجنوبي الشرقي للغرب المسيحي. يضاف الى ذلك ان توسع المسيحية وانتشارها كاتا اتجاهان، في نصف القرن الذي تلا سنة ٩٩٩، شمالا في شرق وشمالا. ومن ثم فان الاشراف على الادارة الدينية للمسيحية الغربية من هذا المكان الواقع في واحدة من ابعد زواياها، كان امرا في غاية الصعوبة والدقة.

كانت رومة، بالنسبة الى المسيحية الغربية، الهيكل والموسى والمصحف لكن رومة كان عليها، منذ ان دخل اللومبارديون ايطالية (٥٦٨)، ان تدفع الاذى عن نفسها بنفسها (باستثناء فترتين تدخل فيهما بين الثالث وشرلمان من بلاد ما وراء الألب). ومن ثم فان بلاء رومة كانوا يرون ان قديمة رومة ومنزلة الباباوية كانتا حقا مشروعا

لهم، اما بقية المسيحية الغربية فكانت تحبب استغلال هؤلاء البلاء فلمدية والبابوية امرأ
إذاً.

وكان المجرمان الذين تولوا العرش، الامبراطوري، المحدث، اول من تولي وجهة نظر
المسيحية الغربية. لقد عزل كل من فوتو الاول وفوتو الثالث وهنري الثالث البابا الروماني
الاحمل وحين مكانه وجلا من اختياره من البلاء الواقعة وراء الباب. وقد اختار فوتو
الثالث العلامة الفرنسي جبروت (من اورلاك) الذي تولي باسم البابا ملطسفر الثاني
(٩٩٩ - ١٠٠٣). واختار هنري الثالث ابن عمه الالزي بروسو (البابا ليو التاسع
١٠٤٨ - ١٠٥٤). وقد حشد ليو رجال دين مشهورين في الكوربا البابوية الذين لم
يكونوا يميلون لنبلاء الرومان، بل « مؤسسة » المسيحية الغربية فاطبة. لكن هؤلاء
السادة الجدد في الكوربا كان رأيهم انهم هم، لا الامبراطور، الذين يجب ان تكون
لهم الكلمة الاخيرة في شؤون البابوية.

كان هلدبراند، الذي اصبح البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٦)، هو الذي
ثار الحرب بالنهاية عن الكوربا البابوية المصلحة، على جبهتين - ضد الامبراطور وضد
النبلاء الرومان. ومع انه كان رومانيا، نشأة لا ولادة، فانه لم يكن صديقا لهؤلاء النبلاء.
اعتبارا من سنة ١٠٥٧ لم يكن تعيين البابا بيد النبلاء، لو الامبراطور الروماني الغربي. لقد
اصبح ينتخب - والهيئة الانتخابية هي مجمع الكرادلة الذين كانوا يقوسون بذلك
كممثلين للمسيحية الغربية كليا. (هذه السلطة لمجمع الكرادلة لم تقرر نهائيا الا في
سنة ١١٧٩). والكوربا البابوية تم قيامها اذلة فعالة للحكم بين سنتي ١٠٥٧ و ١٠٩٩
(السنة التي توفي فيها اوربان الثاني). الا ان الكوربا البابوية المصلحة كانت تحقق مع
النبلاء الرومان ومع الابطاطرة الرومان الجدد في ان الغاية (عند الجميع) كانت السلطة.
وفي سبيل ذلك قطعت العلاقة مع بطريرك القسطنطينية ميشيل (١٠٥٤) ومع
الامبراطور هنري الرابع (١٠٧٥). ان اصلاح البابوية والكنيسة الغربية كان غاية نبيلة،
وقد كان المصلحون انفسهم مخلصين، لكن النتيجة كانت مأسوية فهذا الاصلاح لم
يزد الى السلام، بل الى السيف.

٦٤- العالم الاسلامي ١١١٠-١٢٩١

تطلب الاسلام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر على الصعوبات؛ ليس ذلك فقط، بل انه استمر في الانتشار. وقد كان هذا انتصارا رائعا، لذا نحن اعطينا بهمين الاعتبار ان العالم الاسلامي كان ممزقا سياسيا، وانه كان يتعرض لهجوم عنيف في حوض البحر المتوسط اولا، على ايدي المسيحيين الغربيين، وفي اسية ايضا على ايدي المغول. والربيع السياسي الثابت الذي ناله المسيحيون الغربيون كان في شبه جزيرة ايبيريا وفي صقلية، وفي هاتين المنطقتين استمر وجود السكان المسلمين تحت حكم مسيحي. اما فيما يتعلق بالمغول فقد عجزوا عن احتلال بلاد الشام ومصر. وحكام اتاهم البدو في الدول الثلاث الغربية التي تفرعت عن بيت جنكيزخان، اعتنقوا الاسلام: اللبلة الذهبية، في النصف الغربي من السهوب الاوراسية، في سنة ١٢٥٧ (ثم نهائيا سنة ١٣١٣)، والايلاخانيدون في ايران والعراق في ١٢٩٥؛ ولشاهناييون في ما وراء النهر وحوض تاريم وما جاوره من منطقة السهوب في ١٣٢٦ (ولو ان ذلك لم يكن بالاجماع). وقبل فتح المغول للنصف الغربي من السهوب الاوراسية، كان السكان هناك من بذر الانراك الكبتشاك وتيبين. فيما كان بلغار الفولغا جماعة مسلمة معزولة. في ١٢٣٧ هب المغول بلغار الفولغا في طريقهم الى روسيا والى لوروية. ولكن الذي ترتب على ذلك هو ان الاسلام لم يقض عليه هناك، بل على العكس من ذلك انتشر انتشارا واسعا. وقد اشرنا من قبل الى احتلال المسلمين لشمال الهند (من مصر خير الى البنغال) بين ٩٩٢ و ١٢٠٢. وفي الغرب قتل المسلمون في استرجاع طليطلة التي كان المسيحيون قد احتلوها في ١١٠٨٥؛ لكن المرابطين ضموا للاسلام (١٠٨٦) مرتكزا جرمي الصحراء في ما هو اليوم شمال نيجيريا. كانت اقامة جسور للغرب المسيحي على الساحل السوري (١٠٩٨ - ١٠٩٩)

مع موقع متقدم إلى الشرق من دهر الفرات في الرها (لهما نو لوفنا) امرا بالغ الخطورة من حيث تهديده للعالم الاسلامي. والمتفكرون الذين اسهموا في الحملة الصليبية الاولى كان عددهم طبيلا (لعلهم كانوا اقل من ٢٠٠٠٠ رجل) . وبعد احتلال القدس (١٠٩٩) بقي الاقلون في البلاد التي فتحوها ليدافعوا عنها. ومع ذلك فقد نجحوا في تثبيت ما امتلكوه. وطرابلس، التي صعدت امام هجمات الامبراطورين الرومانيين الشرقيين نفوذ الثاني وبوينا في القرن العاشر، سلمت للفرنجة (١١٠٩) . ولما احتل بلدوين الاول ملك القدس الفرنسي العقبة (١١١٦) وجزيرة غراي في الخليج نفسه، قطع الاتصال البري بين القسمين الاقربى والاسبغ من العالم الاسلامي.

انفذ الموفق، بالنسبة للعالم الاسلامي، ضابط تركي كان في خدمة السلاجقة، هو عباد الدين زنكي، الذي عين حاكما على الموصل (١١٢٧) . وفي سنة ١١٤٤ كان زنكي قد ضم حلب وحمص والسوق الصليبي في الرها. وفي سنة ١١٥٤ احتل ابنه نور الدين دمشق. وفي ١١٦١ - ١١٧٠ نجح في التغلب على ملك القدس اموري اذ سبقه الى السيطرة على مصر الفاطمية. في سنة ١١٧١ صلى صلاح الدين، وهو قائد كردي من قواد نور الدين الاسرة الفاطمية، واعاد مصر في حظيرة السنة. وقد تقسمت دولة نور الدين عند وفاته (١١٧٤) إلا أن صلاح الدين استولى عليها لنفسه، وبارك له الخليفة في ذلك. وتغلب صلاح الدين على الفرسة في معركة حطين (شمال فلسطين) واحتل القدس (١١٨٧) . ولم تستطع الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ - ٩٢) ان توحز صلاح الدين مع ان لوردريك الاول وملكي فرنسا واكتفوا كانوا فيها (لكن لوردريك غرق في الطريق) . وقد عاشت امبراطورية صلاح الدين بعد وفاته (١١٩٣) وحتى بعد القضاء على اسرته (١٢٥٠) . وفي السنة التي مثل فيها للفرسج للمرة الثالثة في تقليد الملك اموري في مشروعه لاحتلال مصر. واصبحت مصر الآن نعمة الاسلام ودور صلاحه.

إن الفريق التركي الحربي الذي كان يعيش في كنف اسرة صلاح الدين تولوا هو - مشتركا - لرت صلاح الدين (١٢٥٠) ، واصبح الاستخلاص الآن لا يتنقل من اب الى ابن، بل من حاكم مملوك سابق الى مملوك آخر. وكان قد انشء حكم على هذه الشاكلة في دلهي (١٢٠٦) . فمحمود الفوري، الذي احتل شمال الهند الى

الجبوب من التجلب، عين مملوكا - نائبا عنه، والخليفة المملوك الثاني لهذا الحاكم تولى الحكم لما مضى أمير خوارزم الأسرة الغورية (١٢١٥).

إن ما ووله النهر وخراسان، اللتين ازدهرتا تحت حكم العباسيين والسامانيين الإيرانيين خلفاء الأولين، أصابهما الضرر (في العقود الأولى من القرن الحادي عشر) إذ اكتسبها الهو التركمان، بقيادة آل سلجوق. في سنة ١١٤١ احتل السلطان فرط من مهجري الخطوط (القراخاني) الذين كانوا قد أجلوا عن شمال الصين ومنشوريا على يد الحورشيده. ولم يكن القراخاني قد اعتنقوا الاسلام، لكنهم كانوا جماعة متحضرة. وكان تأذي ما وراء النهر من وجودهم اقل من تأذيها من الحكام الخوارزميين المسلمين الذين انزعجوا القراخاني من تلك المنطقة (١٢١٠). وقد تعرض الربع الشمالي الشرقي من العالم الإسلامي للخراب ونقص السكان بسبب هجوم المغول بقيادة الزعيم الحربي جنكيزخان، الذين استولوا على املاك الخوارزميين (١٢٢١ - ١٢٢٠).

انقل تدخل جنكيزخان المراق من شر حملة كانت تهدد العراق على يد خوارزمشاه، والتي كان من الممكن ان تكون مثل حملته وحملة جنكيزخان في لغريهما لما وراء النهر. ولما قضى خوارزمشاه على الفرع الشرقي من اسباطه السلاجقة (١١٩٤) علا الامر للخليفة الناصر (حكم ١١٨٠ - ١٢٢٥) فاستقل بالامر، وقد اباد من حربه فوظفها في محاولة استعادة املاك في جنوب غربي ايران وفي تأييد صلاح الدين وخلفائه وفي جعله القوة نظاما فروسيا تحت اشراف الخليفة العباسي.

والقوة كانت واحدا من عدد من المظلمات الاسلامية الجديدة التي مكنت للاسلام من الصمود امام المتح الصغولي. وكذلك اسهمت في الصمود مجموعة من الطرق الصوفية، وادمنها القادرية التي انشأها عبد القادر الجيلاني (القرن الثاني عشر). وقد جاء اكثر مؤسسي هذه الطرق الصوفية من الربع الشمالي الشرقي من العالم الإسلامي. وكان في تعبدهم ما يشير للوجد. وقد ربحوا التركمان الذين اعتنقوا الاسلام الى جانبهم. وكان أبرز الذين اسما طريقه هو جلال الدين (الرومي) مؤسس الطريقة المولوية. فقد ولد في بلخ (في طاجكستان) سنة ١٢٠٧. قبل هبوب العاصفة الخوارزمية والمغولية على هذه المنطقة (وقضى معظم حياته ١٢٠٧ - ٧٣) في قوتية، عاصمة سلاجقة الروم، وما كتب شعره الصوفي (المحتوى وغيره) باللغة الفارسية الحديثة. وثمة شاعر فارسي آخر هو سعدني الشيرازي (حول ١١٨٤ - ١٢٩١) الذي كان دائم التفتل بسبب اضطراب

حبل الامن. وقد تغطى المئة من العمر في قرن من اشد القرون اعصارا وعواصف في تاريخ الاسلام.

كانت سلطنة سلاجقة الروم (في اسية الصغرى) تقهر على البقاء من الامبراطورية الام شرقية القنرات. فقد تغلبت على الحملة الصليبية الاولى. وفي سنة ١١٧٦ ردت حملة بزنطية جاءت متأخرة لاستردادها. وتغلبت حتى على انتصار المغول عليها ١٢٤٣ مع انها خضعت لسلطة مغولية شديدة. وقد انتشأت هذه السلطنة (في اسية الصغرى) مجتمعا تركيا تغرب المدينة الاسلامية في صيفتها الابوتانية. وارسل سلاطين الروم الى الحدود جماعات من التركمان الذين حصلهم السلاجقة معهم وكذلك القبائل التي جاءت في القرن الثالث عشر حاربة امام المغول. وقد تغلب المغول لاحقا على سلطنة الروم السلجوقية (ولكنهم لم يتغلبوا على ساليك مصر والشام) وخضعت لسلطانهم. ولكنها ظلت ملجأ للاسلام في هذه الازمة في التاريخ الاسلامي.

وهكذا فانه لما انتدب الخان الكبير للمغول (موكة) انهاء هولاء لاقام الفوج التي بدأها جنكيز في العالم الاسلامي، استطاع الاسلام ان يتغلب على تغرب العراق وسقوط بغداد وتدميرها وتصفية الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨.

في سنة ١٢٦١ اثبت الساليك، علفاء اسرة صلاح الدين، ان المغول لهوا شها لا يغلب لما قضوا على مقدمة جيش هولاء المنتصر قبلاه وذلك في معركة عين جالوت في شمال فلسطين. فقد قتل القائد المغولي في المعركة (وكان مسيحيا نسطوريا) وكان الى جانبه في المعركة ملك لومبية (في كيليكية) المسيحي، واسير الطائفة المسيحية. لكن الفرع في حكا منحوا الجيش السلوكي حق المرور. وقد صد الساليك ثلاث غزوات مغولية بقيادة الالخانيين (من العراق وايران) من سورية وفي سنة ١٢٩١ استولوا على حكا آخر مركز مسيحي غربي على الساحل السوري.

كان المسيحيون الغربيون والمسيحيون النساطرة يؤمنون في ان يمتد السكان في المنطقة الالخانوية المسيحية. ووصل وصل البابوية وفرنسة الى عاصمة الخان المغولي الكبير في قراقورم، قرب النهاية الشرقية للسهب الأوراسية. ولكن لم يته الامر الى شيء. وحكام الدولات الغربية في السهب الأوراسية اعتزلوا الاسلام لا المسيحية. وبعد ما اعتنق الالخان غازان الاسلام (١٢٩٥) قام اتباعه من المسلمين بايذاء المسيحيين. وفي المنطقة الاسيوية من العالم الاسلامي نجد ان اعتناق امواج من

المسيحيين للإسلام الذي بدأ في القرن الحادي عشر مع اتساح التركمان بقيادة السلاجقة، نشط الآن والجماعات المسيحية من الساطرة واليهودية الذين كانوا أكثرية السكان في الهلال الخصيب تناقص عددها بحيث أصبح المسيحيون أقلية ضئيلة. وقد تناقص عدد المسلمين في الطرف المقابل من العالم الإسلامي في المناطق التي احتلها المسيحيون الغربيون، ثم زالوا بالمرّة. ولم يتمكن لا البربر المرابطون القادمون من الصحراء ولا البربر الموحدون القادمون من الأطلس من وقف التقدم العسكري المسيحي في شبه جزيرة إيبيريا فسقطت قرطبة سنة ١٢٤٦ واشبيلية ١٢٤٨. وقد اقتصر الحكم الإسلامي بعد ذلك على حصن طنجي حول غرناطة. وعلى كل فقد نجح الموحدون في انصراج النورمان الصقليين من الأماكن التي احتلوها على ساحل إفريقية بعد سقوط المرابطين في الأربعينات من القرن الثاني عشر. وفي هذه المرحلة لم يقع أي جزء من إفريقية تحت حكم المسيحيين الغربيين إلا مؤقتاً.

وعلى كل فإن المنطقة التي ازدهرت فيها المدينة الإسلامية بعد ارتداد الموجة في القرن الحادي عشر على الصعيد العسكري لم تكن إفريقية - لقد كانت شبه جزيرة إيبيريا. فقد نشأ عن تيمون الخلافة الأموية في قرطبة الأثر الحضاري نفسه الذي نشأ عن تمزق الخلافة العباسية في بغداد على إيران، إذ كان الأمران باعثين على التقدم. وفي شبه الجزيرة كان لقيام الميلاط الكثرة الأثر ذاته من حيث زيادة عدد من يرمي الفنون والآداب. فقد ازدهر الشعر في الدويلات التي نشأت عن زوال الخلافة. وفي الوقت القريب السابق للفتح المسيحي للأندلس نفخت شبه الجزيرة الإسلام بالفيلسوف ابن رشد (١١٢٦ - ٩٨) الذي كان صنيعة ابن سينا، وبالفيلسوف ابن عربي (١١٦٥ - ١٢٤٨) الذي كان يرى رأي الغزالي في جعل الصوف عناصر من عناصر الإسلام السني. وقد كان فضل شبه الجزيرة على الحضارة الإسلامية شبيهاً بما قدّمته إفريقية للثقافة المسيحية الغربية. لقد دلتنا كاتناهما بعد لقطاع الجزء الذي لما فيه كل منهما واتبعت ثماره.

٦٥- عالم بزنطية ١٠٧١-١٢٤٠

خلال السنوات العشر التي سرت بين انكسار الامبراطور رومانوس واسره على يد القائد السلجوقي الب ارسلان وتسلم الكسيوس الاول كوسيوس، الامبراطور الاوثونراطي الاسيوي الاصلي، عرش الامبراطورية الرومانية الشرقية اعدت هذه المؤسسة، للاثراك في اسية الصغرى قلب الامبراطورية الذي دافع عنه الاسلاف نحو ثلاثة قرون ضد هجمات العرب. ففي سنة ١٠٨١ كان الاتراك السلاجقة قد تغلبوا على الامبراطورية من الشرق والورمان من الغرب والبيشنيغ (البشناق) والغز من الشمال، (والغز كانوا قد ازبحوا عن مواطنهم في السهوب الغربية على يد التتاشاق الى مجاري الغانوب الدنيا).

حكم الكسيوس الاول (١٠٨١- ١١١٨) وكان حربيا بان يكون خليفة ديوقليان وهرقل، وقد انقذ الامبراطورية من الخراب مطلقها. كما ان يوحنا الثاني (حكم ١١١٨- ٤٣) وماتوبل الاول (حكم ١١٤٣- ٨٠) كانا حريصين بان يكونا خليفتين لألكسيوس ولكن لم يتمكن اي من هؤلاء الابطرة الثلاثة من الحد من ازدياد قوة النبلاء السلاكين الانفصالية والمسيحية، ولا من السلاجقة والتتاشيد الاتراك من اسية الصغرى. لقد كان البدو التركمان يحسون التهريب. وكان الفلاحون اليونان المسيحيون يحسون بلمرة بالنسبة الى الامبراطورية، ولقي الفلاحون لاذى للكثير على ايدي البدو. ولكن حين كان حكام سلطنة الروم السلجوقية يتسكنون من حماية الفلاحين من البدو الغابيين للسلاجقة، كان الفلاحون يجدون ان نير السلطان المسلم اضعف من نير حكومة الامبراطورية الرومانية للشرقية.

كان على الكسيوس ان يعالج الحملة الصليبية الاولى. كان العالم الاسلامي قد نحلص من التركمان بان قذف بهم الى ارمينية واسية الصغرى من املاك الامبراطورية الشرقية. فرد الكسيوس على ذلك بان قذف بالصليبيين الغربيين الى بلاد الشام. لكن

الكسوس والصلبيين كانوا على خلاف في الرأي. كان الكسوس يحب ان يستخدم الصليبيين مرتزقة لاختراج الاثراك من اسية الصغرى، لكن هدف الصليبيين كان القدس، ولم يكونوا يرضون في ان يكونوا لملوك الامبراطور الشرقي ولا لاتباعه. وفي النهاية مثل المريفاد في الوصول الى الهدف. فالامبراطورية الرومانية الشرقية لم تستعد داخل اسية الصغرى قط، والصلبيون، مع انهم استولوا على القدس، لم ينجحوا في احتلال داخل بلاد الشام. ومن ثم فان المواطنين الساحلية التي استولوا عليها ظلت بدون حدود داخلية يمكن الدفاع عنها امام خطر الاسلامي الواسع. وقد نجح السلاجقة في اقامة سلطنة في اسية الصغرى لها سكان مستقرون، فيما تمكن نور الدين زنكي وصلاح الدين من الاطاحة بالممتلكات الفرنجية على الساحل السوري واختراج الفرنجة من القدس.

ان مانويل الاول بعد جهوده وبغير مولد الامبراطورية الرومانية الشرقية المتضائلة بان اتبع سياسة توسع كانت أكثر طموحا من تلك التي تبناها تقفور الثاني ويوحنا الاول وباسيل الثاني - اذ ان تلك المقامع لم تستطع الامبراطورية تحقيقها في الوقت الذي كان قلب اسية الصغرى بعد سلبها. ولم تكن الحكومة قد هزمت في نزاعها مع كبار الملاكين للسيطرة على الفلاحين. ولم يتمكن مانويل من السيطرة على صربيا. ومع ذلك فقد شن حربا على هنغاريا (المجر) وحاول استرجاع ابوليا بان تدخل في الحرب القائمة بين فردريك الاول (بربروشا) واللمند - الدول في شمال ايطاليا. وقد تلا وفاة مانويل (١١٨٠) انهيار انتهى بكنية هائلة.

كانت العلاقات بين مانويل والمسيحيين الغربيين ودية، لكن مووله الفرنجية لم تشاركه فيها اكثرية مواطنيه. ان الامتيازات الاقتصادية التي دفعتها الحكومة الرومانية الشرقية لللمند - الدول الايطالية البحرية خلال القرنين السابقين مقابل مساعدتها البحرية للامبراطورية، مكنت الايطاليين من انتزاع تجارة الامبراطورية للرومانية الشرقية الداخلية من ايدي اليونان. فحدثت في القسطنطينية (١١٨٢) مذبحه قتل فيها رجال احمال غربيون. فرد النورمان الصقليون على ذلك بان دخلوا سلاتينك (١١٨٦) ونهبوها. في سنة ١١٨٠ نفص صربيا عن كاهلها سيادة الامبراطورية الرومانية الشرقية في سنة ١١٨٥ ثار البلغار (الذين كانوا رعايا الامبراطورية الرومانية الشرقية منذ ١٠١٨) على الامبراطورية ولسوا دولة مستقلة. وثورة البلغار هذه لم يقض عليها كما حدثت في سنة ١٠٤١. في سنة ١١٨٥ خرجت قبرص عن الامبراطورية (لكنها وقعت

سنة ١١٩١ تحت سلطة الملك الصليبي المغربي ريتشارد الأول ملك انكلترا، الذي ادهاه الى غاي دي لوزيان (١١٩٢) ملك القدس الفرنجي، الذي كان صلاح الدين قد اخرجه من القدس (١١٨٧) والذي لم تستطع الحملة الصليبية الثالثة ان تمده الى عرشه، وذلك تطبيقاً لخاطره).

والمصيبة الكبرى حلت بالامبراطورية الرومانية الشرقية في ١٢٠٣ - ٤. فقد هوجمت القسطنطينية واحتلت مرتين من قبل قوة مشتركة من البولندة والصليبيين الفرنسيين. في المرة الاولى قام المهاجمون بذلك لحساب مدع للعرش الامبراطوري الروماني الشرقي، وفي المرة الثانية كان العمل لحساب المهاجمين انفسهم. وكانت هذه هي المرة الاولى التي تمكن فيها اعداء من مهاجمة القسطنطينية واحتلالها منذ انشائها سنة ٣٣٣. وقد نهبت المدينة بمتهى الوحشية والفق المهاجمون على اقسام الامبراطورية فيما بينهم. لكنهم اتفقوا انهم عاجزون عن القيام بالمهمة كاملة، ونالت البندقية اكبر نجاح. فقد اختارت حصنها من الاسلاب: كريت وجزرا اخرى غيرها، ومواطىء على السواحل ذات قيمة استراتيجية. وقد قامت دولة مستقلة هي وريثة للامبراطورية الرومانية الشرقية وذلك في شمال غرب اسية الصغرى، وفي الطرف الشرقي في ساحل اسية الصغرى الشمالي وحول طرابزون وفي ليروس، وعهد الى صليبي فرنسي امر القسطنطينية، فانخذل نفسه لقب امبراطور.

وقد ظهر نتيجة لذلك ان امتلاك القسطنطينية هو صعب ثقيل، وليس كسبا. لكن الناحية العسكرية كانت قلعة لا ترام بين ٣٣٠ و ١٢٠٤، الا انها أصبحت ايضا كابوسا اجتماعيا واقتصاديا منذ خسارة سورية وفلسطين ومصر (٦٣٣ - ٤٢). وقد كانت منذ ذلك الحين عاصمة اكبر بكثير مما يلزم لمساحة الامبراطورية الصغيرة. وقد زاد العبء ضغطا منذ خسارة قلب اسية الصغرى في سنة ١٠٧١ وما تلاها. واجزاء الامبراطورية التي وصلت اليها يد الامبراطور الفرنسي (١٢٠٤) كانت عاجزة بالمرة عن الحفاظ على القسطنطينية. ومن سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٦١ كانت هذه المدينة غرضا من الشوك للامباطرة الفرنسيين الذين جلسوا هناك في تلك المدة - من اولها الى آخرها.

وفي مقابل ذلك ظهرت الدول اليونانية المحلية الوريثة للامبراطورية حيوية اكبر من الحيوية التي اظهرتها الامبراطورية بالذات منذ وفاة باسيل الثاني (١٠٢٥). والدولتان

اليونانيات في شمال غرب اسية الصغرى وفي البيروس كانتا في منافسة فيما بينهما. وكذلك مع الفرنجة. وكانت الدولة الاسيوية هي الراجحة ضد منافسيها من الفرنجة واليونان على المراء. (والامبراطورية البيزنطية في طرابزون لم تدخل حلبة الصراع). كانت دعوى الدولة اليونانية في غرب اسية الصغرى لها هي الوريثة الشرعية للامبراطورية الرومانية الشرقية، واتخذ حاكمها القلب الامبراطوري، واعترف له بالشرعية بطريك القسطنطينية الارثوذكسي، الذي اتخذ نيقية مركزا موقا له، والتي كانت عاصمة الامبراطور اللاجي. والامبراطورية الرومانية الشرقية النقية (اي التي كانت نيقية عاصمة لها) كانت اكثر نجاحا في مجابهة سلطة السلاجقة الرومية من الامبراطورية الرومانية الشرقية القسطنطينية بين سنتي ١٠٩١ و ١١٨٠. فقد وسعت امبراطورية نيقية حدودها شرقا وجنوبا على حساب سلطة الروم. وتزدهرت اقتصاديا وميزت نفسها في ميداني الادب والفن المنظور. وفي سنة ١٢٢٠ احتل امبراطور نيقية يوحنا الثالث (فانتارس) مركزا في اوروية بالانقراض موقا سدقيا في حلبولي. في سنة ١٢٢٤ عقد يوحنا محالفة مع البلغار. وفي سنة ١٢٣٠ حاصر يولتير نيقية بالاشتراك مع البلغار القسطنطينية من جهة البر. ومنذ تلك السنة أصبحت امبراطورية القسطنطينية الفرعية تحتط بها امبراطورية نيقية اليونانية، واصبح طريق المواصلات الوحيد بين القسطنطينية الفرنجية والمسيحية الغربية هو الطريق البحري. والذين يمكن ان يهبوا لمساعدتها من الفرنجة كان عليهم ان يجابهوا الدردنيل (وكان شاطئه الآن في ايدي اليونان النقيين).

لما حلت سنة ١٢٣٧ كانت بلاد الارثوذكسية الشرقية في جنوب شرق اوروية في دور التقدّم. فالامبراطورية البلغارية المجتدة وامبراطورية نيقية اليونانية، كانتا قد البتتا اليهما اكبر من مجرد قوة مسائلة للامبراطورية الغربية في القسطنطينية. وصرىا التي كانت من قبل على هامش المسيحية الشرقية الارثوذكسية، وكانت - في المجال الديني - تتابوها الكنيسة الشرقية الارثوذكسية والرومانية، اختفارت الآن الارثوذكسية الشرقية هائلا. والحكومة الامبراطورية اليونانية في نيقية اعترفت بطريكية بلغاريا المجتدة وانتشأت رئاسة اسقفية مع سيادة ذاتية لصربيا. ومع ذلك فان جماع الدول الارثوذكسية في جنوب شرق اوروية مع تلك القائمة في القفقاس كانت ووسيا تتجاوزها مساحة رحبهم سكان. واصبح اليونان والبلغار والكروج (الجورجيون) تحتلهم روسيا حتى في ميادين العمارة والفن المتطور والادب.

ان ناربيخ وروسيا العيني (من الناحية الادارية) للفترة التي تمتد خمسين سنة بعد اعتناقها المسيحية خامض. وثمة خلاف حول تفسير الدلالة التاريخية. لكن يبدو انه اعتبارا من سنة ١٠٣٩، على اي حال، كانت روسية مطرانية (اسقفية) تابعة للكرسي البطريركي في القسطنطينية. وضم روسيا الى الكرسي القسطنطيني وسع منطقة نفوذه بشكل كبير. فروسيا كانت واسعة، وكانت تتوسع شمالا في شرق. وفي سنة ١١٦٩ نقلت عاصمة لير روسيا من كييف (القائمة على النهر) الى فلاديمير الواقعة على كياسا، واخذ من روائد القولنا.

كان الكرج (الجورجيون) والانغاز والالان من اتباع الكنيسة الارثوذكسية الشرقية. لكنهم حافظوا على استقلالهم لما اتصع انهاء دينهم من اليونان جبرائهم الارمن من الهامة الكرجيين في النصف الاول من القرن الحادي عشر. ولم تشترك جورجيا في سكة الامبراطورية الرومانية الشرقية سنة ١٠٧١، وقد سجلت لهجمات السلاجقة. وفي القرن الثاني عشر انقسمت ارمينيا مع الدول التي كانت وريثة الامبراطورية السلجوقية العابرة. وفي حكم السلطنة تيمور (١١٨٤ - ١٢١٢) كانت المستلكات الخاضعة لجورجيا - مباشرة او غير مباشرة - تمتد من ساحل البحر الاسود الى ساحل بحر قزوين القفقاسي.

وقد كان لخروج المغول من السهوب الاوراسية آثارا مختلفة على الاجزاء المتباعدة من عالم بزنطية. وكانت جورجيا اول بلد ارثوذكسي شرقي يلحق به الضرر. فقد انزل بها الدمار الامير الخولوزمي الثاني جلال الدين (١٢٢٥) والمغول انفسهم (١٢٣٦)، وفرض هؤلاء سلطتهم عليها. وسر التخریب المغولي بروسيا (١٢٣٧) اثناء سير المغول بطريق بلغار القولنا الى اوروبا. ثم ثانية لما نهبوا كييف (١٢٤٠). وقد فرضت السيطرة المغولية على الولايات الروسية الشرقية القصوى. لكن غاليسيا (في الجنوب الغربي) وبسكوف ونومفورد في الشمال الغربي حافظت على استقلالها، وبدأت بومفورد تدور حول الامبراطورية وممتلكاتها لروسية اذ اعدت تتوسع شمالها، الى الشرق عبر جبال اورال. وقد اقلعت ليمبراطورية نيقية اليونانية بسبب اتصالات المعول على سلطة الروم السلجوقية (١٢٤٣) وانضمامها لحكمهم.

ان نكبات الامبراطورية الرومانية الشرقية (١١٨٠ - ١٢٠٤) وسكة روسيا (١٢٣٧ - ٤٠) لم تنكب المغنية البزنطية عن التمدد ولم تمنعها من الانتشار. فقد

ربطت صربيا نفسها بالمسيحية الشرقية الأرثوذكسية عن طريق بناء كنائسها على الأسلوب البيزنطي، وكذلك كانت رسومها الجدارية. والكنائس التي بنيت في فلاديمير وسزدال في القرن الثاني عشر كانت فيها خصائص لرمزية وكرجية (جيورجية) الى جانب الخصائص اليونانية. وكان نيكيتاس كونياتس، الذي خلف وصفه الحي لنهب القسطنطينية (١٢٠٤) أثار حلقه في سلسلة المؤرخين الذين دونوا بشكل مستمر، التاريخ الروماني الشرقي من ٩٥٩-١٢٠٤. والفيلسوف ميخائيل بيسيلوس (٩٧٦-١٠٧٧) كان يدون حقائقه وتواريخه بشيء من التهاون أكثر من سلفه ليو دياكولوس، لكنه كان دقيقا في تحليله للشخصية. وقد كان هؤلاء اليونان البيزنطيون يكتبون بالكويني الايكية، لكن تاريخ المسيحية الشرقية الأرثوذكسية لم يدون باللغة اليونانية وحدها خلال تلك السنين. فالاعتبار الرئيس الروسي دون بالصقلية المقدونية في وقت مبكر من القرن الثاني عشر، لما كانت هذه بعد لغة حية.

٦٦- المسيحية الغربية ١٠٩٩-١٣٦١

إن براعم المذبة المسيحية الغربية تفتحت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وتفتقت عن طائفة وحيوية متعاطفتين خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. لكنها أصابها بعض التوقف في الربع الأول من القرن الرابع عشر. فالتصحر السكاني الذي بدأ في المسيحية الغربية في القرن الحادي عشر توقف ثم تراجع أمام نكبة الموت الأسود (١٣٤٨). واستعادة اليونان للقسطنطينية (١٢٦١) واسترجاع العرب المسلمين لعمكا (١٢٩١) وضعاً حاداً للمحاولة التي قامت بها المسيحية الغربية للتدخل في أمور المشرق بالقوة، وهي التي بدأت في الحملة الصليبية الأولى. وسيادة البابا على المسيحية الغربية التي كان البابا غريغوريوس السابع قد نزع لها الباب، نضي عليها، ولو مؤقتة، لما اعتدى عصلاء الفاج الفرنسي على البابا بونيفاس الثامن (١٣٠٣).

تميز عصر ازدهار المسيحية الغربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بأعمال ضخمة، منها السبي والحسب. فبدأ التدخل في عداد الجرائم العامة الغربية احتلال ونهب القسطنطينية الأرثوذكسية الشرقية (١٢٠٤) ولَنْفَمُوك (١٢٠٨ - ١٢٩١) واحتلال وتسلط بلاد الصغالية على شواطئ البلطيق اجنوبية، الأمر الذي تم خلال القرن الثاني عشر؛ ومنها حروب البابوية المبروة ضد فرديريك الثاني وعقبائه. ومع ذلك فإن هذين القرنين بالذات سمحت فيهما حياة لربعة من أعظم الرجال: فديس هو فرميسيس الأسيري (١١٨٢ - ١٢٢٦)، وعيلسوف هو توما الأكويني (حول ١٢٢٥ - ١٢٧٤)، وشاعر هو هاني الأثري في فاورنسا (١٢٦٨ - ١٣٢١)، ورسام هو جوتو بوندوني من ديف فلورنسا (١٢٦٧ - ١٣٣٧). وكان هؤلاء الأربعة إيطاليين. ولكن التفتح الغربي يبلغ ذروة الانتقال في قرنة في القرون الثالث عشر، وأسلوب البناء الغربي المعروف بالقوطي نماذجه للخمسة لا تزال قائمة على جانبي جبال

الألب، وهي التي تعبر أحسن تمثيل عن المثل المسيحية الغربية أحسن تمثيل. وهذا الأسلوب في العمارة جاء الغرب في القرن الثاني عشر عن سلاجقة الروم في اسبانيا الصغرى.

والعاب من أجل ما بني على الأسلوب القوطي - وهي كاتدرائيات محططة على الخان السلجوقي - موجود شمالي الألب. وليس في الأمر غرابة. فإن إيطالية، رغم ما مر بها من البلاء في القرن السادس، لم تعرض إلى انقطاع عن ماضيها اليوناني - الروماني، على نحو ما أصاب أجزاء أخرى من المسيحية الغربية. ومن ثم فإن أسلوب البناء الرومانسي كان عمق جذوره ولم يكن التخلي عنه أمرا سهرا. يضاف إلى ذلك أنه كان، في رافنا وفي البندقية، اللتين كانتا من قبل مراكز حديثة للإمبراطورية الرومانية الشرقية، كنائس بناها مهندسون على الأسلوب البيزنطي. فكنيسة القديس مرقس الحالية، التي انتهى العمل فيها سنة ١٠٧١، مصممة على غرار كنيسة الرسل الأندلسيين في القسطنطينية. وأنه مما يدعو إلى الدهشة أن قصر الدوج المجاور لها قد أعيد بناؤه على الأسلوب القوطي. وما يدعو إلى الاستعجاب أيضا هو أن يقطع جيوتو صلته بالتقليد البيزنطي، ويصبح أب الأسلوب الطليقي في الرسم في الغرب الحديث.

كان اعتماد دائتي على الوزن الشعري التوسفاني بدل الوزن اللاتيني في كتابة «الكوميديا الإلهية» حدثا هاما بالنسبة إلى ما لوحى به من الشعر وكتابه في الملفات المحكية في العالم الغربي. كان دائتي يمي أنه في عمله هذا كان يسير في خطى شعراء سابقين من شمالي الألب. إلا أنه بالنسبة إلى توسفاني بالذات (أي دائتي) فإن التحرر من قيود اللغة والأدب اللاتينيين كان أصعب منه لدى شعراء ولدوا أصلا في فرنسا أو في جرمانية. كان من الممكن أن يظل الأيتاليون، من أهل القرون الوسطى، أسرى في جرمانية. كان من الممكن أن يهدوا إلى حل وسط فيكتبون الشعر اللاتينية لغة الأجداد. ولعله كان من الممكن أن يهدوا إلى حل وسط فيكتبون الشعر اللاتيني الجدي بأوزان الشعر الشعبي المعاصر وأسلوبه. ولكن إيطاليي القرون الوسطى، بتحررهم من استرقاق لغوي للماضي اليوناني - الروماني بلغوا من النجاح حدا يوق معاصريهم الهولندي (في الإمبراطورية الشرقية) وجرأتهم هذه اتاحت لقدرة الخلافة على العمل الحر. وقد خلقت إيطالية، في عصر دائتي، صيغة إقليمية مبكرة للمدينة الغربية. واحتاجت المسيحية الغربية، في بقية أجزائها، قرنين من الزمان قبل الوصول إلى المستوى الحضاري الذي بلغته إيطالية سنة ١٢٠٠.

وخلال القرنين المنتهيين سنة ١٣٠٠ كانت المسيحية الغربية باجمعتها تتقدم اقتصاديا. معدد السكان ازدياد، والانتاج غنا والتكنولوجيا زادت فطانتها.

ودلائل ازدياد السكان في الغرب ماثلة في ترميع رقعة الأرض المستنقعة زراعبا، وفي ازدياد عدد المدن واتساعها وفي استثمار البلاد. وتوليف نفاذ الاسوار دليل على اتساع رقعة المدن. ففي حالات كثيرة نجد ان السور الذي بني حول سنة ١١٠٠ بني آخر بدلا منه، بين حول ١٢٥٠ و ١٣٥٠، وكان يدور برقعة اوسع. وكانت شمال ايطاليا ولاندر اكثر المناطق مدفا على وجه البسطة.

ولقد سارت فلاندر قدما في صناعة الأقمشة الصوفية خلال القرن الثاني عشر، ولم تستطع فلورنسة من مجاراتها الا حول نهاية القرن الثالث عشر. وكان لفلاندر حظ الحصول على السواد الخام من الجيران - في الأراضي المنخفضة نفسها وفي انكلترا. والمدن الايطالية، وخاصة المدن الساحلية، كانت لها فرصة القيام بالتجارة البحرية بين المسيحية الغربية والشرق. وكان اصحاب الاعمال، من ايطالية وغلاندر، يلتفون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، في الأسواق الموبة الأربع التي كانت تقام في قرنسة.

وازداد عدد السكان كان، مع قيام المدن واستعمار شواطئ البلطيق، عاملا في تبدل التركيبة الاجتماعية للحياة الريفية. ففي القرنين طناع والماشر كان اتعلم الامن سببا في نحو الاملاك الواسعة على حساب الممتلكات الصغيرة. وكان ثمة نقص في عدد السكان، ولذلك كانت « القلعة » تستغل من طريق تأجير اجزاء منها على شرط ان يقضي المستأجرون اياها محبة في الاسرع على « أرض السيد » وهي الأرض التي كانت ملهها للسيد نفسه. وما دام ثمة نقص في الأيدي العاملة فان هذه الطريقة كانت الأفضل لضمان استغلال الأرض. الا ان هذا النظام كان غير فعال اقتصاديا ومجحفا احتماها.

فالقرن او القرن يقوم بالعمل على المعد الأدنى اذا قورن بالعامل المأجور، ومن ثم فانه لما ازدد عدد السكان شو سادة التطلعات، لانهم اصبحوا يستحقون عمالا مأجورين بدل العمال الحادين (على الأرض). كما ان الاقنان وجدوا ان العمال باجر اكرم من العمل المسخرة. يضاف الى ذلك ان الاقنان الذين لم تبدل خدماتهم، كان بإمكانهم الهرب الى مدينة حيث كانوا يحصلون على عمل صناعي، او كانوا يهربون الى المناطق

المعدة للاستغلال شرقي نهر الآليه (كانت هذه اصلا ارضا تمتلك حرة، مع ،بها
اصبحت، فيما بعد، آخر قلعة لوروية للاقطاع ونظام الاقنان).
واستعمار منطقة البلطيق كلها، رهنياً ومدنياً في آن واحد. كانت اول مدينة ألمانية
على شاطئه البلطيق هي لوبك التي أسست في ١١٤٣. وأسست دانزغ حول ١٢٠٠
وربما ١٢٠١ ورغفال ١٢١٩. وقد أصبح البلطيق بحراً ألمانيا وخليفته التجارية هي
اسكتلندا وروسيا. وفي القرن الثالث عشر أصبحت الشعوب الاسكتلندية، التي كانت
مصدر دخر للمسيحية الغربية، فرسة للمدن - الدول البحرية الألمانية، على نحو ما كانت
المدن الإيطالية عنصر لزعاج للمسلمين واليونان. وكان البلطيق في طريقه لأن يكون
الجزء المقابل للبحر المتوسط ولكن على مقياس اصغر. وفي مدى القرن (بين
١٢٥٠ و ١٣٥٠) كانت مدن فلامنر تستورد حبوبها من حوض البلطيق بدلا من
الحانة وفرنسة.

وقد خفف من ضغط السكان على الأرض القديم في التكنولوجيا. فمع ان اتساع
الاراضي المستغلة زواها ادى الى نقص في الزبل - السباد، فان تنظيم الدورة الزراعية
جعل الانتاج عن طريق تعاقب المحروحات المفضل، كما انه قلل المساحة التي كانت
تترك بورا، وجعل مواعيد الحرث والزرع اضبط، والمحراث الذي يجره الحصان كان
قد اتقن صنعا في ١٢٠٠ وزاد عدد الطواحين المائية في الغرب المسيحي في القرنين
الثاني عشر والثالث عشر كما انه بدى بتركيب الطواحين الهوائية هناك بين حول
١١٦٢ و ١١٨٠.

ان المعدن، على العكس من انهواء والساء وقوة المضلات، هي مواد لا يمكن ان
تعوض. وقد استهلك المصدر الواحد للمعدن بعد الآخر منذ ان عرف الانسان التعدين
في الالف الرابع قبل الميلاد. في القرن العاشر للميلاد أصبحت ألمانية ويوهيا المصدر
الرئيس للمعدن بالنسبة للمسيحية الغربية، ولكن في القرن الرابع عشر كانت الطبقات
السطحية والسناجم القريبة من السطح قد استنزفت، واصبح من الضروري ان يلجأ الى
وسائل أكثر تعقدا واساليب اكبر نفقة ولفة للوصول الى الطبقات الاعلى من المناجم.
إن الحياة السياسية في المسيحية الغربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر طغى
عليها عودة النزاع بين البابوية والأميراطورية. في الجولة الأولى من هذا النزاع التي
انتهت سنة ١١٢٢، بالاتفاق حول قضية التنصيب، غطيت سياسة القوة بالمبادئ

المغلبية. وفي الجولة الثانية (١١٥٨ - ١٢٦٨) ظهرت سياسة القوة عارية تماما وبدأت منافسة بين البابوية والإمبراطورية القبرية التي بحثت من جديد - وكانت المنافسة حول السيطرة على إيطاليا، التي أصبحت الآن المنطقة - المفتاح للمسيحية الغربية، والراعيان كانوا المدد الإيطالية وفرنسة. والإمبراطورية والبابوية كلتا كفتاهما خاسرتين.

إن الإمبراطور فردريك الأول (من أسرة هوهنشتاوفن) جرب أن يفرض حكما أوتوقراطيا على المدن - الدول اللومبارديا، وقسطنطين (١١٥٨ - ٨٣). وقد ناصرت البابوية المدن - الدول ضد الإمبراطورية في صراعها للاستقلال، لأن المدن - الدول كانت السائر القوي للبابوية ضد السلطة الإمبراطورية في شمال الألب. ومن ثم فقد تسامحت البابوية مع المدن - الدول في حكمها الذاتي، لا في لومبارديا وثوسقانيا فحسب، بل وفي المستلكات الإيطالية التي كانت تحت للبابوية على يد بييين الثالث وشارلمان. وكان الهدف الأبعد للبابوية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر هو المهينة المسكونية على المسيحية جمعاء، وقد جعل هذا المطمح البابوي فوق كل دعاوى البابوية في السلطة المحلية. ولذلك فإن البابوية لم تتسامح في الحكم الذاتي للمدن - الدول في منطقة رافنا (التي كانت تابعة للإمبراطورية الشرقية) فحسب، ولكن حتى في «دوقية روم»، بما في ذلك رومة بالذات. يضاف إلى ذلك أن البابوية شاركت بعض المدن - الدول الإيطالية ماليا وسياسيا. وكانت مصارف فلورنسة (١٢٥٠ - ١٣٠٠) تقوم بجمع الضرائب البابوية نيابة عن المؤسسة نفسها.

كان للبابوية حليف آخر هو فرنسا، التي كانت مصلحتها تقضي بأن تضعف سلطة الإمبراطورية. وفي فترة النزاع بين البابوية والإمبراطورية كان البابا الواحد بعد الآخر يحدد ملجأ في فرنسا، من لودويك الثاني (١٠٨٨ - ٩٩) إلى انوسنت الرابع (١٢٤٣ - ٥٤). كان فردريك الأول قد فشل في السيطرة على المدن - الدول الإيطالية فجاء ابنه وعظيمته هنري السادس يعرض عن ذلك باستتالته على سلطة الصقليين. وبهذا تسكنت أسرة هوهنشتاوفن بأن تمحصر البابوية والمدن - الدول في شمال إيطاليا بين الحماية ومملكة الصقليين. وقد كان إيس فردريك الثاني عتيقة: إذ أنه كان يقيم على الأسهم في الحضارة القبرية واليونانية، التي كانت في مملكة الصقليين، كما كان يشارك في الصبيحة الإيطالية للثقافة القبرية. لكن عتيقة ابن فردريك تحطمت على صخرة العداء الذي أثاره وفاته المبكرة.

وكان رد البابوية على عمل فردريك للاستيلاء على إيطاليا أن شنت حرب إبادة ضد أسرة هوهنشتاوف، وسجّع لودفيك الرابع (١٢٦١ - ٤) وكلتس الرابع (١٢٦٥ - ٨) في ذلك. وقد نجحاً لأنهما التقيا امبراً فرنسيا - هو شارل العجو - بانتراع مملكة الصقليتين من خلفاء هنري السادس. ولكن البابوية إذ قضت على قوة رمزية واحدة، وصعدت نفسها تحت رحمة قوة زمنية أخرى. ففي سنة ١٣٠٣ وضع الناج الفرنسي حدا للهيسنة البابوية على المسيحية الغربية، كما قضت البابوية من قبل على مكانة الامبراطورية مسيطرة على ذلك بفرنسة.

اضاعت الامبراطورية، بسبب هذا التزاع الطويل الخاسر للسيطرة على إيطاليا، سلطتها على السانة، التي كانت مرحلن الامبراطورية. ففي القرنين العاشر والحادي عشر كانت سلطة الناج الجرمانتي أكثر فاعلية بين رعياه من سلطة الناج الافرنسي بين رعياه، وفي سنة ١٣٠٣ كان فيليب الرابع في وضع يمكنه من الحصول على تأييد السلاء في مملكته، الثدنيين والمدنيين على السواء في رفضه حجة البابوية في رفضها في الهيمنة، التي كان يقول بها بومباس القامن. وكان لبلاء السانة في ذلك الوقت لد اصحبوا حكاما ذوي سيادة وكانوا يرفضون الخضوع للامبراطور.

ومؤسنة الاقطاع وتلويغها الاقلبي تظهر مدى تقدم سلطة الناج في فرنسة وتدهورها في السانة. فالقطاع، مثل الفنية (نسبة الى الفن)، هو صلة اجتماعية اساسها ان منح استغلال الأرض يدفع بدفع خدمة شخصية (فالخدمات القطاعية عسكرية، اما خدمة الفن فهي اقتصادية). فمع التصرف القطاعي معناه ان السلطان ينقص حقه في السيادة لأنه يعقد اتفاقية مع لحد رعياه، بدل الحصول على حقوق السلطان كاملة. وإذا أصبح التصرف القطاعي وراثيا، تعمل عسكرة السلطان حدها الانقسي. وقد ظهرت الانقطاعات الوراثية في فرنسة (فرنسية الغربية) منذ القرن التاسع، لكن منذ نهاية القرن العاشر اعد الناج الفرنسي مسترجع سلطته. فما في فرنسية الشرقية (السانة) فقد تأخر الاقطاع الوراثي في الظهور، لكن في القرن الثالث عشر كانت العملية تسير بخطى مسرعة. وكان السبب هو لصرار الناج الاتاني، ولكن دون نجاح، في ان يعرض سلطته على مملكة إيطاليا. وإذا سار نحو هدف كان يعا عليه، خسر الناج الاتاني سيطرته على موطن الامبراطورية. لقد كان الناج الامبراطوري عفا لشبابه، وكان هذا كايوسا لم يدع الناج الفرنسي الى الاضطلاع به.

وقد حسم الفرعان المتزعمان الامبراطورية والبابوية، السلطة. وكانت خسارة الامبراطورية سيئة؛ واما خسارة البابوية فكانت ابدية - إلا ان هذه الخسارة الادبية رافقتها خسارة سياسية ايضا. ذلك بان البابوية منذ ايام فريغوريوس السابع، جربت ان تنفذ الى السلطة السياسية بطريقة غير مباشرة، اعتماداً على مكانتها الادبية التي اعطت من جديد. وهذا الخلل الادبي في مثالية الهمنة البابوية على المسيحية القبرية بدا واضحاً في الطريقة التي قادت البابوية بها حملتها ضد الامبراطورية.

كانت البابوية بحاجة الى المال لمحاربة الامبراطورية، وقد اوجدت وسائل مختلفة لجميع المال. فقد اقامت جهازاً ادارياً فعالاً لفرض الضرائب على رجال الدين في المسيحية القبرية باجمعها. وكان هذا المصدر دواً للارباح بحيث ان اصحاب النفوذ من السلاطين المدنيين انقطعوا لهم حصة من هذه الارباح، فيما وجد اصحاب المصارف الايطاليون ان الامر مربح بحيث اصبحوا وكلاء البابوية الماليين. وكان لمة مصدر آخر للضرائب البابوية وهو الرسوم التي كانت الكوربا تحقهاها بوصفها المحكمة الاستئنافية العليا، وكذلك بوصفها محكمة من الدرجة الاولى في القضايا التي كان المحامون الكسيون ينقلونها اليها. واكتشفت مدونة جستين الاول (القانونية، ادى الى وضع ما يهايلها من مجموعة للقوانين الكنيسة. ولما امر فردريك الاول على حقوقه الملكية بوصفه خليفة لجستين، فلومه اثنان من الجاهلات هما اسكندر الثالث (١١٥٩ - ٨١) ولويسوس الثالث (١١٨١ - ٥)، وكلاهما بدأ حياته كمحام كنسي.

اذهل لهم البابوية للسلطة، واستغفها المال والقانون وسيلتين لتحقيق هدفها، اصفى ارواح عرفها المسيحية القبرية. فالنفس برنارد رئيس دير كليرمو احتج ضد تزمت البابوية القانوني وضد جشعها. ولم يكن برنارد نفسه خالياً من العيوب. فقد كان يضحك دوماً بالتحير الديني حيث كان - لا فرق في ذلك بين الفيلسوف ابلارد وسالك لانمدوك رصقالية الباطن او مسلمي الشرق. وقد ووط نفسه بين المتعصبين على البابوية، إلا انه لم يطلب لنفسه وظيفة دينية، ولم يكن ثمة شك في اصلاحه. وقد كان سبيل المحدث إلا انه تخلص عن ذلك كله ليتضم الى فرقة الرهبان السريين، وصحى شخصياً في سبيل مبادئه. ومن اجل ذلك كان الأكثر احتراماً والابعد نفوذاً من ابناء

جبله في المسيحية القرية. فكان انتقاده للبابوية بسبب خروجها عن السبيل الذي منه مبادئها المعلقة، كان له سلطان وكان مؤذيا لها.

كان القديس برنارد يتقيد بالأداء الكنسية الصحيحة (الصحيحة بالنسبة للعرب لا بالنسبة للارثوذكسية الشرقية). وقد كان ثمة نقاد آخرون للبابوية، هي القرنين الثاني عشر والثالث عشر، من الذين تبعوا نماذج من المسيحية أو حتى نماذج غير مسيحية. وزعماء هذه الحركات، المحتجة ضد البابوية، تضامنتوا فيما بينهم على التطوع نحو الفقر - وهو عمل تطوعي لأن هؤلاء لم يكونوا فقراء المولد. فهم، مثل القديس برنارد، كانوا يضحون شخصيا للاحتجاج على مادية البابوية واهتمامها بالمرور الدنيا، واحتجاجا على « مؤسسة رجال الدين، المسيحيين اجمالا ».

فالقديس فرنسيس الأسيري، وهو ابن تاجر القماش كبير ناجح، تحدى أباه والتزم بالفقر. وعاش كما عاش السيد المسيح، على ما جاء في الانجيل. ولما طلب منه تعليمه برنارد (كوثقال) ان ينضم اليه ويعيش مثله، سر بذلك. إلا ان فرنسيس كان متواضعا بالإضافة الى التزامه بالفقر، ولم يكن فرنسيس يفكر في انتقاد البابوية أو نزعم حركة ضدها. كل همه كان ان يسر سيرة المسيح. على ان هذا لم ينقذه من ان يُنقذ مع خصوصية، لأن التزامه بالفقر كأي نقاد عمليا للبابوية. وقد تنبه البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) والبابا غريغوريوس التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) إلى الوضع المشين الذين وجدت الكوربا (البابوية) نفسها فيه بسبب تصرف فرنسيس. وقد احسوا، والالهم يحزن في نفسيهما، بالصوت الكبير الذي كان ينتقد الكوربا في اتجاه المسيحية. لذلك ارادوا ان يلهبوا من القديس فرنسيس بدل ان يقضيا عليه. وكان عملهما يدل على ذكاء، لكن الباعث عليه لم يكن خاليا من الدافع الشخصي المصلحي.

لعل القديس فرنسيس كان يفضل ان يشهد في جويلته الأولى مع الكوربا، ولا يرى الرهبنة الفرنسيسكانية تصاغ (على يد غريغوريوس، وهو كردهال بعد، والاخ الياس) على شكل لم يعد كما لولاده المؤسس. وعلى كل فان فرنسيس كان ملتزما بالفقر والذوايع والالام النفسي والجسدي، ولذلك فان هذه الرهبنة لا تزال قائمة الى الآن ولا تزال المنظمة تعمل بروح فرنسيس.

والواقع ان اخفاء التنظيم (أي جعل الشيء « مؤسسة ») هو ثمن الاستمرار والقاء. واصحاء « المؤسسة » على شيء له قيمة روحية عظيمة للأجيال التالية أقل شرا من

خسارة الروحانية فيه. وقد فهم غروغوريوس والياس ذلك وتحملوا المسؤولية وبذلك اتفقا كثر فرمسي.

وكانت طريق القديس دومينيك (١١٧٠ - ١٢٢١)، معاصر فرمسي ومؤسس الرهبنة الدومينيكانية، أسهل. فقد التزم بالفقر، إذ أنه كان يحارب الطمع مثل فرمسي. إلا أن روح القديس دومينيك كانت أسرع قبولاً لشكل « المؤسسة ». وقد اعتنت المدن الناشئة في المسيحية الغربية روحها بأبناء الأديرة الفرنسيسكانية والدومينيكانية والمكبات وقاعات المحاضرات، ولو أن القديس فرمسي كان يرى في كل هذا ما يعوق المسير على طريق المسيح. ومع أن الأخ الياس احتفظ ببعض الثقة في همن فرمسي، فإنه كان يكون له موقف آخر منه لو أن القديس كان رأى الأخ يجمع أموالاً لبني بها كنيسة تكريماً للقديس فرمسي.

القديس فرمسي أدرك ما الذي يتوجب على مسيحي غربي أن يفعله. وغريغوريوس والياس عرفا ما الذي يجب أن يفعل بالرهبنة الفرنسيسكانية. ولكن في الجيل السابق للقديس فرمسي نشأ بواكيم الفيروي (١١٥٤ - ١٢٠٢) (وهو زاهد أرميني إلى الرهبنة) بأن السنة ١٢٦٠ ستكون حداً فاصلاً في التاريخ. فعصر الابن خلف عصر الأب لما ولد المسيح؛ والآن جاء دور عصر الروح القدس ليخلف عصر الابن. ومع أن تلك السنة كانت هامة في التاريخ إذ اندرست البابوية أنها لم تستطع النزاع مملكة الصليبيين من خلفاء فردريك الثاني بدون عون عسكري من فرنسا، لكن عصر الروح القدس لم يهتق فجراً.

وقد أحدث قيام المدن والثراء غربة في الإنسان حولته الأرض، وهاتان العلتان اعتدلتا تنشران في المسيحية الغربية أيام القديس فرمسي. والجيال التالية له كانت مذهبة له لا لأنه التزم بالفقر فحسب، بل لأنه كان يشعر داخلياً بالحب لكل مخلوق حي، للنبات والحيوان والطيور. وقد بدأ هذا في تصرفه، كما بدأ قيماً خلف من تراث!

٩٧- تسمية الشرقية ١١٢٦-١٢٨١

كان سقوط امبراطورية سونغ العسكري (١١٢٦) شائنا. فقد احتل الجورشيده حوض النهر الاصفر (وهو مهد المدنية الصينية) واستولوا على العاصمة (كايونغ). وقد انقذ ما تبقى من الامبراطورية مجاري الماء المتعددة في المجاري الدنيا لنهرى هواي ويانكتسي والجبال الموعرة خلف ذلك. والعاصمة الجديدة لين - أن كانت ملجأ مؤقتا لكنها ظلت عاصمة ما تبقى من امبراطورية سونغ.

وفي الجزء الجنوبي من الامبراطورية، الذي حفظته اسرة سونغ من ١١٢٧ إلى ١٢٧٩ أصبحت لين - أن احدى اكبر واحصل ما وقع في النفس من الازيمكرس، وكانت بقية الامبراطورية تفتتح بازدياد في السكان وزيادة في الانتاج الزراعي وتوسيع المدن والتجارة (الخارجية والداخلية) والتسهيلات المالية. وقد استخدم النقد الورقي في السوق - اولا على ايدى الخاصة، ثم من قبل الحكومة نفسها. وقد اشرنا الى تقدم الفنون والصناعات الصينية امام اسرة سونغ (الفصل ٥٩). وكانت هذه الامبراطورية المجزوءة، خلال السدة من ١١٢٧ الى ١٢٧٩، اكثر عدد سكانا، واكبر لراة، من امبراطورتي الهان وتانغ، لما كانت الامبراطورية في اكبر اتساع وقوتها العسكرية على اشدها. الا ان وضع المركة تأخر في لواخر عصر سونغ، فوضع رجل البنت في قالب من المعدن، بدأ في ذلك الوقت.

ولم تولف نكبة ١١٢٦ تقدم الفلسفة الكونفوشية الحديثة. وكان على الكوموشيين الحديثين، اذا رغبوا في ان يكونوا مدلا عن الماهياتية، ان يخلوا عالم ما وراء الطبيعة، وهنا اهتموا الاخوان تشنغ. وتشنغ لي كان يرى ان الطبيعة البشرية هي ظاهرة واحدة من الظواهر الثورية للحقيقة النهائية. وتشنغ هاو كان يرى ان الطبيعة البشرية والحقيقة النهائية هما توأمان. وقد تبنى تشو هسي (١١٣٠ - ١٢٠٠) تشنغ بي ونظم

مدنيه، وبسبب هذا التظيم أصبح الصيغة الرسمية للكونفوشية باقية إلى طلاب الوظائف والممتهنين- وتولي ليو تشيو- يوان (١١٣٩ - ٩٢) مدعب تشنغ هو. وهذا المنهج ظل له مثله. أما ما اتفق عليه ثكوفوشيون تجديدون مكنز بالغ الأهمية: كانوا جميعاً خصوماً للطاوية والبوذية؛ وشعر الجميع أن الاغلاي أكبر أهمية من ما وراء الطبيعة. والكل انتقدوا انسحاب عقلاء البوذية من المجتمع.

شهدت اليابان (٩٢٥ - ١١٨٥) انتقالاً مستمراً في السلطة والثروة من البلاط الإمبراطوري الفخم في كيوتو إلى النبلاء الأقلين والانتقال من السلم الداخلي إلى حروب واضطرابات أهلية. وحتى العاصمة نفسها كانت تزعمها هجرات مسلحة يقوم بها الرهبان البوذيون. وقد انتهت حرب أهلية هناك في قيام دكتاتورية (١١٨٥) على البلاد باجمعها. وعلى كل فالفترة بأكملها كانت، من الناحية السياسية خرة اضطراب وفورات وحروب. لكن قيام الدكتاتورية (١١٨٥) أدى إلى حكم فعال ناجح، استمر إلى ١٢٨٤، فزاد دخلها القومي، ولو أن توزيعه ظل بعيداً عن المساواة. وقد هاجم المغول اليابان (١٢٧٤) وثانية (١٢٨٩) بعدما قضا على إمبراطورية سونغ. وفي المرتين رد اليابانيون، بمساعدة العواصف، الهجوم المغولي.

وقد قدمت هذه الحكومات الدكتاتورية لليابان خدمات مدنية جليلة في الميثاقين الديني والفكري. فقدت البوذية إلى اليابانيين (في القرنين الثاني عشر والثالث عشر) بشكل مبسط واضح. ومنها بوذية « زُن » التي أعجب بها الجنود. وقد كان نهله المذاهب المبسطة اتباع في اليابان حتى في سميات القرى النحلي.

٦٨- المغول وخلفائهم

كان المغول شعباً من البدو للرعاة يقيمون أصلاً في الزاوية القصوى شمالاً في شرق من السهوب الأوروبية. وفي القرن الثالث عشر خرجوا فجأة من السهوب. في ١٢٤١ وصلت جيوشهم غرباً إلى نهر الأودو وشاطئ الأدرستوكي الشمالي الشرقي. وفي ١٢٦٠ هاجموا سورية وفي ١٢٧٤ احتلوا بورما العليا. وهذه الفتوح التي حملتهم إلى هذه الأصقاع النائية، خططت ونفذت تحت قيادة واحدة منذ أن تولّى تيموشين ١١٦٢-١٢٢٧ (الذي صار اسمه جنكيزخان اعتباراً من ١٢٠٦) السلطة حاكماً مستقلاً، إلى وفاة حفيده وخليفته الثالث خانبك (١٢٥٩).

كان هناك المغول الكبير يحكمه سنة ١٢٥٩، رأساً أو بالفويض من عاصمته في قرطروم منطقة تمتد من شاطئ المحيط الهادي الشمالي الغربي إلى منابع الفولغا ومجرى الدانوب الأدنى، ومن صحرة بايكال إلى شمال فيتنام. وقد ضمت إمبراطورية المغول فيما بعد ما تبقى من الصين خارج نفوذها.

ظلت الوحدة السياسية مدة قصيرة (١٢٤١-١٢٥٩)، ولكن لادارتها كانت قوة في تلك المدة. وفي هذه الفترة جمعت الإمبراطورية بين مدنات الخليفة كانت تتطور كل لوحدها من قبل، دون أن تعرف الواحدة بوجود الأخرى.

ومع أن شعوباً من المهن، بدءاً من القرن الرابع للميلاد، كانت قد خرجت من السهوب وانشأت دولاً هنا وهناك، فإن إمبراطورية المغول كانت المحاولة الوحيدة للمهن التي ملكت هذه الموقعة الواسعة، التي كانت سهوباً تحيط بها، من جميع الجهات، بلاد متحضرة. وطوال هذه المدة (١٢٤١-٥٩) كانت تنظم شؤون هذه الإمبراطورية منظمة دقيقة هي البريد.

كان الممرس الأول من تنظيم البريد تسهيل حضور زعماء المغول إلى

العاصمة - قراقورم - على جناح السرعة. إلا أن هذا التنظيم نفسه كان ييسر لأمراء والرعايا وأسرى الحروب والسفارين المتطوعين، للحصول على عمل أو وظيفة، والتجار أن يتنقلوا في الإمبراطورية. فملك كيليكا (في لومبة) زار قراقورم (١٢٠٤) وكان أخوه قد سبقه إليها (١٢٤٧ - ٨). وعلى هذه الطرق سار القزوينسكاني جوفاني دي كاريبي من ليون إلى قراقورم ذهاباً وإياباً (١٢٤٥ - ٧) مثلاً للبابا النوست الرابع. كما سار عليها وليام روبروك (١٢٥٣ - ٥) من عكا إلى العاصمة المغولية مثلاً للويس التاسع ملك فرنسا. وكانت الفكرة من هاتين البعثتين احتمال قيام تحالف مغولي أوروبي مع إمكانية احتراق المغول المسيحية. لكن لم يكن لهذه المحاولات نتائج لمي أي من القاضيتين (وفي نهاية المطاف احتل المغول الإسلام).

وكان ثمة نتائج ثقافية لهذه الطرق التي كانت محرومة تماماً. يصف وليام روبروك اجتماع المسيحيين في قراقورم في عيد الفصح (١٢٥٤)، وقد جاءوا من أصقاع مختلفة، وكانوا من كنائس متنوعة.

في سنة ١٢٧٩ أتم فوبلاي خان (حفيد جنكيز خان وخليفته الرابع) احتلال إمبراطورية سونغ الصينية. والمغول لم يحكموا الصين بواسطة الموظفين الكونفوشييين، بل استعملوا المسيحيين والمسلمين في أعمالهم. فمن ذلك أن عملاء فوبلاي خان في بدء لفحه للصين (١٢٥٣) كانوا مسلمين من أوسط آسيا. وفي ١٢٧٤ كان نحو ثلاثين ألفاً من الآلان، وهم مسيحيون لوثودكس، يصلون في جيش فوبلاي خان. وقد عمل ماركوبولو مديراً في الصين لفوبلاي خان (حول ١٢٧٥ - ٩٢) كما عمل السيد « أنجل »، من ١٢٧٤ إلى ١٢٧٩، إذ نظم ولاية يونان الجديدة. وقد وصل الإسلام إلى يونان وشمال غرب الصين وبقي هناك. والفن الصيني أثر في الفن الأيراني، لما فتح المغول إيران (١٢٢٠ - ٥٧).

كان جنود فوبلاي خان، المسيحيون والمسلمون على السواء قد جيء بهم من أماكن نائية. لكن المغول كانوا يستخدمون القلاع من المناطق الأقرب. ذلك بأن البدر الرعاة في الأطراف الشرقية للهوب الأوراسية كانوا على اتصال بالمدينة الصينية التي انتقلت إليهم عبر التبت والخيتان. وكانت القبائل الفاعلة في الهوب وجوارها تزحم الواحدة الأخرى فتلقفها إلى الهجرة القريبة أو البعيدة. وما قيام دولة الجورشيدي بقيادة تيموتشين (١٢٠٣) إلا مثلاً على ذلك. وتيموتشين، كما عرفنا من قبل، هو

جكيكرخان. وانتصارات جكيكرخان كان يراقبها الأتقاة من أصحاب المراهب مثل مسه المسيحيين الساطرة (بعد انتصاره عليهم) إلى حظيرة ملكه. كما انه لغد من التجار المسلمين الذين كانوا في بلاده. وكان جكيكرخان يقبل النصيحة ويستشير دوماً. كان الأوغور شعباً تركياً انتقل من القبالة إلى الأسفل. وقد كان بهم مانيويون (منذ ٧٦٣) وساطرة ويوديون. وكانوا يستعملون الألفبا السريانية، التي كتبوا بها لغتهم التركية ودوروا بها الطقوس الدينية السانوية والمسيحية النسطورية. وقد عهد جكيكرخان إلى حامل اختامه الأوغوري بأن يقتبس الكتابة السريانية للغة المغولية، وذلك لتدوين القانون الممولي العرفي (الياسا).

أهان جكيكرخان في أدلته مهارة مستشاريه من الأوغور والختيان والمسلمين، والمضائل العسكرية التي كان الجندي المغولي يتمتع بها، وشخصيته الطاغية ومقدرته الدقيقة في اختيار الرجال المحيطين به - للحرب والسلام. وكان حرصه الخاص (وبذلك يشبه حرس الاسكندر) نوعاً من كلية للضباط بحيث كان يحظر منهم من شربه وعرفه شخصياً. فالتجّاح السياسي والحربي الذي حققه جكيكرخان هو نتيجة شخصيته ومقدرته على التنظيم مع استعداد المغول للقتال والمصفاة المدنية التي قدّمها من اعتكاسهم بالجيران.

الحروب المغولية كان منها احتلال بغداد وسقوط الخلافة العباسية (١٢٥٨). والرهايا البدو الذين وقعوا تحت حكم المغولي لم يصعب ضرر لا في انفسهم ولا مراعيهم. كل ما شعروا به هو تبدل في القيادة. لكن يد المغول على الجماعات المستقرة والمتحضرة كانت قوية، والمغراب والقتل اللذان تما أثناء حروبهم لا مثيل لهما. وشربها تم في حملات جكيكرخان في دولة غولوزمشاه (١٢٢٠ - ٢١) وحملات باتو في الغرب (١٢٣١ - ٤١) وحملات هولاكو في العراق (١٢٥٨). هجر المغول عن احتلال اليابان (١٢٤٧ و ١٢٨١) وتحطت سفهم لما حاولوا احتلال صاوى (١٢٩٢) كما تغلب عليهم المماليك في عين جالوت بعلمطيس (١٢٦٠) كما صدوهم عن سورية ثلاث مرات أخرى (١٢٨١ و ١٢٩٩ و ١٣٠٠) وقامت حروب اهلية بين شعوبهم (بين الأيملخانات في ايران والعراق والقبيلة الذهبية). وقد تحالفت القبيلة الذهبية مع المماليك، وعندها صار التجار البنادقة يصدرون إلى مصر الرقيق المتجمع من ممتلكات القبيلة الذهبية. على ان الحروب

والحلاقات بين الشعوب المغولية كانت كثيرة. وقد حكم المغول الصين منذ اتسام الاحتلال (١٢٧٩) حتى ١٣٦٨ - وقد نقل قوبلاي خان عاصمته من قراقوروم الى بكين ١٢٦٠ - ٧ (وبعد ذلك اتخذ لاسوقه لقباً صينياً هو يُوآن) . ولكن المغول لم يفيدوا^{١٢} برأ من السدية الصينية على عكس الخيتان. فلما سقطت اسرة يُوآن الصينية - المغولية (١٣٦٨) اجلعت الفرق فاجتازت سور الصين الكبير مبعثة عنه، الى مراعي الاجداد، دون ان تحمل معها مدينة صينية. اما الخيتان فانهم لما اصبحوا لاجئين في اواسط اسية حملوا معهم المدينة الصينية والامرو هناك حكماً اسلامياً دام نحو قرن من الزمان.

تم في ايام المغول عمل بناء ضخم في الصين. فقد اتم قوبلاي خان (١٢٨٩) حفر القناة الكبرى الى الشمال من هانغشو (لين - ان) الى بكين. واثناء الحكم المغولي للصين اهتم الادب الكونفوشي الى حد ان نشأت ثقافات ادبية جديدة، في القصة والمغفلة، واستعملت فيها اللغة الحية المعاصرة. ومع ان الادب الكونفوشي عاد الى سابق مجده بعد اخراج المغول، فان التوعين الجديدين من الادب ظلا قائمين. ان حكام الصين من المغول لم ترق لهم لا مدنية الصين ولا الصيغة الروسية للمدينة المسيحية الشرقية. اما المغول الذين اصبحوا سادة العراق وايران وزعماء القبيلة الذهبية (التركية اللغة) فقد اسرهم الاسلام - وهذا نوع من انتصار مدينة المغلوب المستقر على الغالب البدوي.

في النصف الثاني من القرن الرابع عشر تسكن وعلماء القبيلة الذهبية وشاغلاناي من استعادة سلطانهم ضد حكامهم المغول. فاعرج المغول من الصين (١٣٦٨) سبقه القضاء على الایلخانين في العراق وايران (١٣٣٥) والقضاء على احفاد باتو. وقد اقام زومان الذين هاجروا من خنلوا ولايتي ولاخيا وملدانيا، بعد ان اراحوا حد القبيلة الذهبية الجنوبي الغربي من مجرى القاتوب الأدنى الى الضفة الغربية لنهر الدسهر. وقد وصل لتوايون من غابات البلطيق الى ساحل البحر الاسود الشمالي مؤثقا. وفي سنة ١٣٨٦ اعتنقت لتوانيا المسيحية الغربية واتحدت مع يولاتقا. ولكن هذه الدولة العربية الجديدة كانت مشغولة بوقف تمديدات الفرسان التيونون، لذلك لم تخلف القبيلة الذهبية

في سنة ١٣٧١ جازف الامراء الروس وامتنعوا عن دفع الضرائب لخان القبيلة الذهبية

والخضوع له، وكانت عاصمته في ساراي على القوقاز. وفي سنة ١٢٨٠ تملك أمير موسكو على الخان، لكان الخان الجديد رد الكيل كيلين (١٢٨١) ونهب موسكو. ولذلك خان الروس لم يتمكنوا من تحرير أنفسهم.

لكن الذين خلف القبيلة الذهبية وخانات تشاغاتاي كان تيمور التركي الذي كان يرعى السكان المتحضرين في ما وراء النهر من رعاه القبيلة الذهبية. حرر تيمور ما وراء النهر من خانات تشاغاتاي (١٢٦٢ - ٧) وفي ١٣٦٩ - ٨٠ ثم في ١٣٨٣ - ٤ اغار تيمور على الهند والمقاتلين مع خانات تشاغاتاي وعاليهم، وفي سنة ١٣٨٠ كان قد حرر بخارايزم. وفي سنة ١٣٩١ ثم في ١٣٩٥ هاجم تيمور سهوب القيشاق. وفي الحملة الثانية هاجم روسيا. وكان تيمور أول زعيم لاقوام متحضرة مستقرة يهاجم النصف الغربي من السهوب الأوروبية في اطمئنان الظافر.

توفي تيمور سنة ١٤٠٥ وهو في طريقه إلى الصين. ولو ان تيمور لم يصرف جل طاقته في حروبه، صحتها قسوة على النموذج المغولي، لكان بإمكانه، في الغالب، ان يجمع اجزاء الامبراطورية المغولية ويحكمها من سمرقند. وفي القرن الخامس عشر هرب احفاد تيمور ان يعوضوا عن قسوة تيمور بان رعوا اهل القلم والفلكيين، الا انهم كانوا ضعيفين، حربا وعسكرا. ويبدو واضحا ان خلافة المغول في اديلاكهم في قلب اويكومن العالم القديم، لم تقرر لا على يد تيمور ولا على خلفائه.

٦٩- العالم الاسلامي ١٢٩١-١٥٥٥

في السنة ١٥٥٥ كان العالم الاسلامي لوسع رقعة عما كان عليه في ١٢٩١، والقسم الاكبر منه كان الآن مقسما بين ثلاث امبراطوريات كبيرة: الدولة العثمانية (التركية) في المشرق، والامبراطورية الصفوية في ايران، والامبراطورية النمساوية (النمساوية) في الهند. وهذا، ولا شك، امر حري بالاحتمام اذا اعتبرنا المسحن التي مرت بالعالم الاسلامي بين ١٢٢٠ (السنة التي هاجم فيها جنكيزخان ما وراء النهر) و ١٤٠٥ (وهي السنة التي توفي فيها تيمور).

كان حكام شمال الهند المسلمون قد بدأوا يحتلون اماكن سنة ١٢٩٤، وفي سنة ١٥٥٥ كانت كلها تحت حكم اسلامي. وفي الوقت «انه كان جنوب شرق اوروبا، باستثناء جزء من هنغاريا، تحت حكم المسلمين. وهذا شجعان لما حربا. ولم تعتق اهلوية السكان في المنطقتين الاسلام. اما في قلب العالم الاسلامي فقد كان الاقبال على الاسلام كبيرا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بحيث اصبح غير المسلمين في هذه المنطقة اقلية. وقد انتشر الاسلام في جهات اخرى عن طريق القبول به دينا، لا عن طريق الفتح.

فالسوية، مثلا، التي كانت سنة ١٢٩١ قد مر عليها نحو ثمانية قرون وهي لتبع الهابطة (الفاتحين بالطبيعة الواحدة للمسيح) اعتنقت الاسلام تدريجا بسبب تورب القبائل العربية من مصر اليها في القرن الرابع عشر وما تلاه. وحتى ان النوبيين الذين احتفظوا بلغتهم، اعتنقوا الاسلام. وكان الاسلام يقبل عليه الناس في السودان العربي منذ القرن الحادي عشر. وانتشر الاسلام في الملايو واندونيسيا، في القرن الخامس عشر، سلما على نحو ما انتشرت الهندوكية والبوذية من قبل. وفي هذه المنطقة لم يحل الاسلام محل الحضارة الهندية تأثيرا، وهي التي كان لها حضور هناك منذ نحو الف

سنة. لقد جاء الاسلام بمتنصر حضاري جديد. والجماعات الاسلامية في يربان وفانصور في الصين، انشعرت بعد زوال الحكم المموني الفايو الذي قامت في اقامه.
كانت تقدم الامبراطوريات التي توافقت زمتا سنة ١٥٥٥ الامبراطورية العثمانية فقد كانت مواليها موجودة في ١٢٠٠، وفي ١٢٥٢ ثبتت اقدامها في اوروية وفي سنة ١٤٠٢ كانت اكثر انمام الامبراطورية الرومانية الشرقية (قبل ١٠٧١) قد اصبحت تحت حكم الدولة الناشئة، مباشرة او بالواسطة. ومع ان تيمور انزل بالعثمانيين هزيمة مشكوة (١٤٠٢) فانه السلطان محمد الأول (حكم ١٤٠٢ - ٢١) اهاد تجميع الاملاك الاروروبية والاسيوية، تحت حكمه. وقد ترك الرا جسيلا في بروسة هو الجامع الاخير، ومحمد الفاتح (حكم ١٤٥١ - ٨١) وضع الامبراطورية ونظمها الى اسس ثابتة. وغير سلهم الأول (حكم ١٥١٢ - ٢٠) صالهم الامبراطورية لما اتجه في فتوحه شرقا وجنوبا في شرق. فقد جعل من الامبراطورية العثمانية وريثة للممالك والامبراطورية الرومانية الشرقية. وفي سنة ١٥٥٥، ايام سليمان القانوني، وصلت الامبراطورية اوجها، وكانت لا تزال فيه.

وكان قيام الامبراطورية الصفوية (١٥٠٠ - ١٢) كالشهاب، وقد وصلت حدها الأقصى في الشمال الشرقي (١٥١٢) مقابل البلد الأرميني الذين انزعروا ما وراء النهر من التيموريين خلال القرن الخامس عشر. كانت الامبراطورية الصفوية تحطرا على العثمانيين (١٥١١ - ١٤)، بحيث لا مؤسسا الشاه اسماعيل انذر العثمانيين بمركة مثل مركة تيمور. لكن لما حصلت مركة شلغران (١٥١٤) كسر الفرس الى حد انهم كانوا (الى سنة ١٥٥٥) لا يزالون يحصون بالضربة. واحتل العثمانيون ديار بكر (١٥١٦) والموقي (١٥٣٤ - ٦).

في السنة ١٥٥٥ احتل حواميون مملكة دلهي للمرة الثانية، التي كان ابوه بابور قد احتلها من قبل (١٥٢٦)، وكان قد حجز عن احتلال ما وراء النهر. كان بابور قد حالف اسماعيل (١٥١٢ - ١٢) لكن سليم الأول العثماني كان مصدر خوف لاسماعيل شاه، لذلك انحسب بابور الى كابل وانتظر فرصة لاحتلال الهند وكان قيام كل من هذه الامبراطوريات الثلاث شيئا غير عادي. فالدولة لا تنرم بدون زراع وصناع وتجار يدفعون لها الضرائب ولا بدون جيش مدرب موالي لها. لكن العالم الاسلامي، منذ اواسط القرن الحادي عشر، وهو يتعرض لهجوم تلو الآخر يقوم به بدو

رعاء. لشمال غرب القوقاز والأنطس غزاعها بدو عرب وبربر والعراق والجزيرة العراقية دخلتهما قبائل عربية أيضاً. والتركمان دخلوا ما وراء النهر وأبرام ولرمسية واسية المصرية. (وقد جماع التركمان في موجتين الأولى مع السلاجقة في القرون الحادي عشر، والثانية هربا من المغول في القرون الثالث عشر). وقد صحف الانتاج عند الجماعات المستقرة المتحضرة، كما نقص دفع الضرائب بسبب وجود هذه الجماعات البدوية؛ ونقص الأمان بسبب المصائب التي حلت بالعالم الإسلامي على أيدي المغول ثم على أيدي تیمور.

ولم يكن تیمور ولا جنوده بدوا رحلاء، بل كانوا جماعة مستقرة، لكن تیمور نصرف بوحشية شبيهة بوحشية المغول. وجميع ضحاياه (باستثناء حيلته على روسيا ١٣٩٥) كانوا من المسلمين: تشاغلاي والقيية الذهبية وبناد (١٣٩٣) ودلوي (١٣٩٨ - ٩) وحلب ودمشق (١٤٠١) والمستملكات الاسيوية العثمانية (١٤٠٢). كانت اعمال تیمور مطربة وسلبية. وبعد وفاته (١٤٠٥) اخفت امپراطوريته بالفولان تقريبا، وكان على الأيدي البناية ان تعيد بناء العالم الإسلامي.

حتى مطلع القرن الخامس عشر كانت دولتان مسلمتان فقط : سائرئين ٢ في الطريق - سلطنة المماليك في مصر والشام، والسلطنة البهائية في الدكن. والعراق لم يكن قد صعد بعد من ضربة المغول (١٢٥٨). وحتى ذلك الوقت كان العراق على مستوى مصر في انتاج المواد الغذائية في لويكومين العالم القديم. لكن نظام الري في العراق تلف يومها، ولم يُعَدَّ إلى سائر عهده.

وقد لجأ شمال الهند من المغول، كما نجت مصر، لكن شمال الهند لم ينج من حملة تسمر المطرية. وقبل ذلك كانت سلطنة دلهي قد تضمضت. فبعد احتلال المسلمين للدكن، الذي كان قد بدأ سنة ١٢٩٤، جرب محمد بن ظفلق (سلطان دلهي) ان ينقل العاصمة من دلهي إلى الدكن، لكنه فشل (١٣٢٧ - ٩). وبعد ذلك تقسمت مملكته. وفي سنة ١٣٤٧ أصبحت المستملكات الإسلامية في الدكن تحت حكم الياهمانيين. وبين ١٤٨٢ و ١٥١٢ انقسمت هذه المملكة إلى خمس دول متخاصمة.

في العقود الأخيرة من القرن السادس عشر كانت إيتانوكية، قد انحطت تحتها على المستوى السياسي في كل مكان في شبه القارة، أما على المستويات الأخرى فقد ظلت

في عافية؛ فاستجابت بطريقة خلاقة للإسلام. فكبير انظر في شعره بالهندي، الحقيقة النهائية كما فهمها الإسلام والهندوكية. وجاء بعده نانك (١٤٦٩ - ١٥٣٩)، مؤسس ديانة السيخ وجماعتها. والاميراطور المغولي اكبر (حكم ١٥٥٦ - ١٦٠٥) بطم ثلثي داس و فرامانا بالهندي، وهي لغة اكثرية سكان شمال الهند.

كانت دولة المماليك لا تزال سالمة سنة ١٤٠٥، فمع ان المغول وتيمور وصلوا بلاد الشام، قلعة مصر، فانهم لم يتجاوزوها الى مصر بالذات. فظل نظام الري في مصر سليما عاملا. وكانت البلاد آمنة بسكان متجهين وقادرين على دفع الضرائب. وكانت مصر بحميتها جيش منظم مدرب قوامه الجنود المماليك الذين كانوا اتراكاً أولاً ثم شركسة. وكان السكان يقولون على اعتناق الاسلام تفرجها، حتى اصبح المسيحيون اقلية. ولكن المسيحيين المصريين استمروا في عصر المماليك كما كانوا يفعلون في العصور السابقة، يقومون بدور هام في الشؤون العامة كمحصلي ضرائب.

كانت المشكلة في الجزء الاسيوي من العالم الاسلامي (خارج سلطان المماليك والحكام الهنود المسلمين) في سنة ١٢٠٠ وما بعدها هي: كيف يمكن العودة الى بتيان سياسي مستقر مع وجود ابدو للتركمان في المنطقة. فاولئك المحتمل قيامهم بانشاء دول هم زعماء البدو انفسهم. وشجاعة القبائل في القتال هي اساس قوة الزعماء. وهؤلاء لا بد ان يعتمدوا على القبائل حتى يجدوا عوضا مناسباً لها. والى ان يحسن ذلك كان يتوجب على الزعماء ان يطوعوا اتباعهم، او يفودوهم الى اماكن اخرى او باقاعهم اخيراً بان يخلوا عن تقاليدهم القبلية والاستقرار رراما وعمالا.

حل سلاجقة الروم هذه المشكلة جزئياً في القرن الثاني عشر. ذلك بانهم استكنوا اتباعهم بين سلطنتهم وبقايا الامبراطورية الرومانية الشرقية، حيث كانوا يقومون بالجهاد ضد طبر المسلمين. والجماعة المستقرة في داخل سلطنتهم كانت تتكون من الفلاحين الذين كانوا مسيحيين وكانوا يتكلمون اليونانية وكانت بينهم فئات هاسرت من ايران. لكن سقوط القسطنطينية باليدي الصليبيين (١٢٠٤) حمل امبراطورية بقية البيروانية على النمط على سلطة الروم السلجوقية. وهجمات المغول الوحشية على السلطنة اصعبها. ولما عادت القسطنطينية الى اصحابها (١٢٦١) خف الضغط على املاكهم في اسية الصغرى. وعاد التركمان الى السيطرة على تلك المناطق. ولندكر ان دولة الايلخانات انتهى امرها سنة ١٣٢٥.

وهكذا فقد اتخذ عدد من زعماء التركمان بطمخ في ان يخلف سلطنة الروم السلجوقية والایلخانات. وكانت الجماعة التي كتب لها النجاح هي العشمايون. فقد اسكنهم سلاجقة الروم (حول لواخر القرن الثالث عشر) مقابل المدد اليونانية الثلاث الهامة بيوكومبديا (ازميت) نيقية (قزنك) وبروصه (بروصه) فاحتل العشمايون بروصه (١٢٢٦) وقزنك (١٢٣١) واظميت (١٢٣٢). وهذه فتحت الطريق امام العشمايين للتوسع. فلما استولوا على موطنهم قدم على الشاطيء الاوروبي في غيبيرلي (١٣٥٣) كانوا يسرون في خطى الباطرة نيقية اليونانية. ولما احتل العشمايون ادرنه (ادرينوبول) في سنة ١٣٦١ احكموا الطرق حول القسطنطينية.

كانت قوة العشمايين تركز على تطويع التركمانيين وعلى جماعة من الذين اعتنقوا الاسلام وعلى جماعات من المسيحيين المحتجين عمالا ودافعي ضرائب الذين كانوا يقطنون في المناطق التي اتزعموها من المسيحية. وهؤلاء الرعايا المسيحيون المستقرون كانوا من حيث العدد، يشبهون الرعايا الهندوكيين المستقرين الذين كانوا في الدولة الاسلامية في الهند. ومثل هذا الوضع لم يكن غائبا في الدول الأخرى التي قامت في اسية الصغرى ولا حتى في الدولة الصفوية.

ان ترويض التركمان جاء عن طريق اصحاب العرق الصفوية، لكن مثل هذا الامر كان خطرا بالنسبة الى المذنبين من بنات الامبراطوريات المسلمين. فالتصوفة كانوا في نظر السنة، يعدون بعض الشيء عن الاسلام السني، ومثل ذلك يقال في « المؤسسة » الصفوية. وفي بعض الاحيان كان اثر التصوفة بين التركمان اثارهم بدل ترويضهم. فقد حدث، على سبيل المثال، مثل هذا في ايام محمد الاول، الذي لم يكفد يتم تنظيم الدولة بعد انتصار تيمور الساقط عليها، حتى قام بدر الدين، وهو عالم أصلا، وصوفي ليسا بعد، ودعا الجميع للثورة على العشمايين. وقد افصح ان اكثر العصاة في سنة ١٤١٦ كانوا من التركمان الناقمين. ووضع حد لثورتهم، لكن منظمتهم استمرت الى القرن السابع عشر.

وكان من التركمان من لم يتم الى العشمايين؛ وهؤلاء لم يرضوا عن حصصهم ثانية للعشمايين بعد ان حرروهم تيمور. وقد قام التركمان الشيعة (الامامية) بثورة عارمة (١٥١١) كادت ان تعصف بالامبراطورية العثمانية لولا ان قضى عليها سليم الاول في ١٥١٢-١٣ بمقسوة وشلة. وقد كان جيش اسماعيل شاه مكونا من التركمان

الشيعة، ولكن بعد وفاته (١٥٢٤) أصبح هؤلاء وعلى رأسهم زعماء من المنتصرة، عنصر ازعاج للإمبراطورية المصغرة.

ان الدولة العثمانية لم تجتمع على القتال التركمانية - حتى ولا التي هي منها - أصيلا. لقد كان هؤلاء يشجعون على الانسحاب في الممتلكات العثمانية في أوروبا. لكن للمحافظة على مستطقاتهم والحصول على الرجال اللازمين لجيوشهم، كان العثمانيون يعتمدون على مصادر أخرى للملك. لقد كان لديهم فرق من الفرسان الاقطاعيين ينفق عليها من ولادات الاقطاعيات التي لا تورث. وكان للمستأجرين الذين يدفعون الضرائب والفرسان الذين ينفق عليهم منها حقوق معروفة تشرف الدولة على تطبيقها. ثم كان عند العثمانيين نظام يقضي بان يكون ثمة جيش من الرقيق. وقد كان هؤلاء أصيلا يعاونون من الخارج أو يؤخضون من اسرى الحرب. لكن قبل ان ينتهي القرن الرابع عشر كان العثمانيون قد اعتدوا في سهل تأمين حدود السلطان بنظام الذخيرة، أي اسد صغار الصبيان (من الصرب والكرواتين والاكبان) وتدريبهم على فنون القتال وتعليمهم الاسلام وعلمونه. وكان هذا النظام، الذي طوره مراد الثاني (حكم ١٤٤٦ - ٥١)، فعالا على ما قد يتصف به من قوة.

كان هؤلاء يستخدمون أولا في الجيش، وكانوا معروفون باسم بني تشاري (ومنها الانكشارية - للكلمة العربية)، الا انهم بعد مدة اسدوا، أو بعضهم على الاقل، بنظام تعليمي اوسع من الاول واعمق، وذلك كي يتاح للسلطان ان يختار منهم موظفين ومديرين لسلطنته. وقد جاء وقت على الدولة كان فيه العثمانيون الاحرار لا حظ لهم في الحصول على منصب اداري، لان هذه كانت حكرا على عبيد الامبراطور. وهذا النظام بكامله كان اسد عوامل نجاح العثمانيين.

كان الجد الاعلى للأسرة الصفوية هو الشيخ صفي الدين اسحق (١٢٥٢ - ١٣٣٤) من اردبيل في اذربيجان. وقد اسس طريقة صوفية وكان الاول بين احفاده وعطفائه الذي تشيع هو حبيبه الخواصه علي، وكان لناميا (كان المعتشرون من الاسماعيلية قد قصي عليهم حولاكم ١٢٥٧). وكان لول من عني بالسياسة والحرب من عده الاسرة الشيخ جنيد (جد شاه اسماعيل)، فتولى سنة ١٤٤٧، وكانت امبراطورية تيمور تتمزق، وتزوج الشيخ جنيد اميرة تركمانية من عطفائه تيمور في اذربيجان ودار بكر. ولما تولى شاه اسماعيل (حكم ١٥٠٢ - ٢٤) فرض الشيعة على الايرانيين الذين قبلوها بسهولة

مع انهم الى ايامه كانوا سنة. والشعراء الاربعة الكبار في الادب الفارسي الحديث - الفردوسي وسعدي وحافظ وجميع - كانوا سنة. (الواقع قبل ايام شاه اسماعيل كان وجود الشيعة مقصرا على العراق وجبل عفر في جنوب لبنان).

في سنة ١٥٥٥ كان عبد القصر السلطاني يدير الامراتورية. في ايران كان شاه اسماعيل الثاني تحت رحمة الجنود التركمان. وكان هومايون « السغولي » قد دفع شمال الهند لثنية وكان جيشه من المتطهرين من الحاء متحدة من العالم الاسلامي. لقد كان هومايون وابوه بآبوري سنيين لكن كلا منهما استعان بدور بالصفويين الشيعة. ان اصحاب السلطة ومن حولهم من المصطنعين في الهند كانوا القلة قليلة لذلك لم يكن في صالحهم ان تقوم نزاعات دينية اسلامية، ومن ثم كانوا يقبلون العون الاسلامي من أي جهة جاء.

ان قيام دولة شيعية في ايران (١٥٠٠ - ١٥١٢) عزل سني المشرق عن سني اواسط اسية. وقد استولى العثمانيون على المولوية الجنوبية في شبه جزيرة القرم (١٤٧٥) ونقلت دولة التتار هناك سلطة العثمانيين. لكن امبراطور روسيا ايفان الرابع (الرقيب) استولى على قازان (١٥٥٢) واسترغمان (١٥٥٦) وبذلك فصل بين العثمانيين وغانات اترك (ما وراء النهر). وفي ١٥١٦ - ١٧ استولى العثمانيون على مصر وقضوا على دولة المماليك، لكن البرتغاليين كانوا قد سيطروا بين ١٤٩٨ و ١٥١٥، على القيادة البحرية للمحيط الهندي، وقد فشل الاتراك كما فشل المماليك من قبل (١٥٠٨ - ١٧) في انتزاع القوة البحرية من ايدي البرتغاليين، مع انهم كانوا يركزون الى الخطوط الداخلية في حروبهم. وقد تغلب العثمانيون اعتبارا عن المحاولة (١٥٥١).

وانقل جنود برتغاليون وجنود عثمانيون (١٥٤٢) في الحبشة، دفاعا عن سيجين وسلمين صليبيين. ان الحبشة لم تلعب دورا في السيادة الخارجية منذ قرون. ولما احتل العرب مصر، عزل المسيحيون (العونوفزيون) في الحبشة والنوبة عن بقية العالم المسيحي. ولكن لما اعتنقت النوبة الاسلام، في القرن الرابع عشر وما بعده مالت الحبشة الى النصرانية. وقد انتشرت اللغة السامية الحبشية في جهات مختلفة من البلاد وانتشرت المسيحية معها، لكن المسيحية كان لها منافس هي اليهودية. ومع ان المملكة المسيحية سيطرت على اليهود، فان الاسلام انتشر حول الهضبة. وقد استولى

المسلمون (من الجنوب الشرقي) على قسم كبير من الحيشة (١٥٢٩ - ١٤٢) . وفي المعركة التي دارت رحاها سنة ١٥٤٢ بين الجنود العثمانيين والجنود البرتغاليين قاتل الاولون الى جانب المسلمين والآخرين الى جانب المملكة الحيشية . وقد انتصر الاولون ، لكن العثمانيين انسحبوا من الميدان ، وفي السنة التالية (١٥٤٣) انتصرت جيوش المملكة بمساعدة الجنود البرتغاليين الموجودين . وقد خرجت الحيشة من القتال وقد اساءها الدمار ونقص سكانها ، ثم انتشر فيها الفلاح المساحون من الجنوب والجنوب الشرقي الى الهضبة .

في سنة ١٥٥٥ كانت الامبراطوريات الاسلامية الثلاث تسطر على الجزء المتوسط الرئيس من اويكوميس العالم القديم - من الجزائر الى شمال الهند . كانت الامبراطورية العثمانية اقدمها وامتتها تركيا . لكنها لم تتمكن من انقاذ مملكة غرناطة ، آخر معقل مسلم في ايبيريا من ان يحتلها الاتحاد المسيحي القشتالي الاسباني (١٤٩٢) . ولم يتمكن العثمانيون من الاستيلاء على المغرب . وبذل من ان يحمي العثمانيون تقدم البرتغاليين في المحيط الاطلسي ، فقبلوهم وكسروا على ايديهم في مقابل ساحل غوجيرات . وفشل العثمانيون في ان يسبقوا لفرانس الى احتلال سبى الفولغا من قازان الى بحر قزوين ، فلم يتح لهم ان يتصلوا بالسف في ما وراء النهر .

ومع ذلك فالعالم الاسلامي نجح في تخطي الصعوبات المغولية . وهذا النجاح لم يكن في المجال السياسي فحسب . ففي الفترة من ١٣٠٠ الى ١٥٥٥ ظهر في ايران اخر شاعرين من الشعراء الفارسيين الاربعة الكبار - حافظ (تو ١٣٨٩) وجامع (١٤١٤ - ٩٢) . وشمال غرب افريقية انتج مفكرا ممتازا بحث تركيب التاريخ البشري هو ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) . ومع العلم ان شمال غرب افريقية كان في ايامه في حالة فوضى سياسية . ولنذكر اخيرا انه لم يكن بين هؤلاء الثلاثة الذين يصح اعتبارهم ممثلين للثقافة الاسلامية عثماني واحد ! وان الشعراء الآخرين من ايران (حافظ وجامع) عاشا وتوفيا قبل ان يستولي الصفويون على ايران ويحملوها على التشيع .

٧٠. المسيحية الشرقية الأرثوذكسية ١٧٤٠-١٨٥٦

إن الجائحة المصولة التي أصابت روسيا (١٢٣٧- ٤٠) وأحرقت سلطنة الروم السلجوقية (١٢٤٣) لم تعصب لا امبراطورية نيقية اليونانية ولا دولتي اليونان والصرب الأرثوذكسين في البلقان. والبلغار هم الشعب الوحيد الذي لحق به الهجوم. لكن في سنة ١٥٥٦ كان الامر عكس ذلك تماماً بالنسبة الى جناحي المسيحية الأرثوذكسية الشرقية. فلقد أصبح العثمانيون سادة على جميع الشعوب الأرثوذكسية في الجنوب بما في ذلك الرومان الذين انشأوا امواتي فلاحيا ومردانيا. اما في الجهة المقابلة فان روسيا (في نصفها الشمالي الشرقي) لم تكن حرة فحسب بل ان حاكم موسكو الذي كان قد أصبح الدوق الكبير لفلاديمير، قد ضم إليه في ١٥٥٦ املارات شرق روسيا، وفي سنة ١٥٤٧ تلقب بالقصر، واستولى على قازان (١٥٥٢) واستراخان (١٥٥٦). كانت امبراطورية نيقية اليونانية، في سنة ١٢٤٠، في دور تقدم. فقد استولت على موطنه قدم في اوروبا (١٢٣٥) وانتصرت (١٢٥٩) على دولتين يونانييتين متحالفتين في مقدونية وامارة فرنسية في الموره وسلطنة الصقليين. واسترجعت نيقية القسطنطينية من آخر امبراطور فرنسي (١٢٦١). ولكن بعد ذلك بدأ الانحلال. فانزعت صربيا نصف مقدونية من امبراطورية نيقية اليونانية (١٢٨٢- ٩٩). وبعد ان وسع امبرها، اسطفان دوشان، رقعة امارته فوج نفسه (١٣٤٥) اسرطاطور الصرب والرومان. وكان ضمن استعادة يونانيي نيقية القسطنطينية (١٢٦١) ان يحسروا املاكهم في اسية الصغرى الى التبتائل التركمانية التي كان العثمانيون اشدها خطراً. وقد حكم على مستقبل الامبراطورية الرومانية الشرقية المحدقة في سنة ١٣٤٦. وكان السؤال من يحلفها - الصربيون ام العثمانيون.

ان التدهور الذي اصاب الامبراطورية الرومانية الشرقية لم يقض على حيوية العن

البيزنطي والتجار البيزنطية الدينية. فالنفساء التي تعود إلى أوائل القرن الرابع عشر في كنيسة خورا (وهي الآن جامع قلعري) في استانبول جديرة بالمقابلة مع رسوم الصان المعاصر جوتو دي فلورنسي. وفي الوقت نفسه كانت حركة لحياء للتصوف، في جبل آتوس، اندي، كان يرمي إلى الوصول إلى الاتحاد بالخالق. وقد اذارت هذه الحركة المعروفة باسم « اسبخيا » خلافاً كبيراً، بينما الأرثوذكسيته مجتمع شرقي (١٣٥١) هاجمها الغرب المسيحي (حول ١٣٤٧).

نشبت حرب أهلية في الإمبراطورية الرومانية الشرقية (١٣٤١ - ٤٧) رافقتها ثورة اجتماعية وجدل لاهوتي. فقد بلغت سعة الاملاك الريفية درجة كبيرة كما سابت حالة الفلاحين إلى حد المأساة، وذلك في عهد أسرة بليانوي (١٢٥٩ - ١٤٥٣). ولقي كبار الملاكين الامرين في انحاء مختلفة من الإمبراطورية.

والشعور المضاد للغرب، الذي ظهر واضحا في القرن الرابع عشر في الخلاف حول « الاسخيا »، كان قد بدأ ظهوره امام الحملة الصليبية الاولى. وقد احسب احتلال الغرب المسيحي للقسطنطينية ونهبها (١٢٠٤) وزاد في حدته الاستيلاء الشرقي للجمهوريات الايطالية البحرية على التجار المحلية في البحار اليونانية الداخلية. وقد ادرك الاسباطور النيقيني ميخائيل الثامن، الذي استرجع القسطنطينية، ان الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي احياها لا يمكن ان تعيش بدون نظرة ثقة ومساعدة خارجية من المسيحية الغربية. كما ادرك ان النسن الذي سيطلب مقابل ذلك هو اعتراف الكنائس الارثوذكسية الشرقية بحق السيادة الكهنوتية الدينية للبابوية. وقد فعل ذلك ميخائيل الثامن نفسه فاعترف بالسيادة البابوية (١٢٧٤) وهكذا فعل يوحنا الخامس (١٣٦٩) ويوحنا الثامن في مجمع فلورنسة (١٤٣٩). وقد توفي قسطنطين التاسع (١٤٥٣) آخر الأباطرة الشرقيين وهو متحد مع رومه.

ورفع وثيقة الوحدة، في فلورنسة (١٤٣٩)، بالإضافة إلى الإمبراطور، أعضاء الوفد الأرثوذكسي الشرقي الكهنوتي (باستثناء عضوه واحد). لكن المهم هو ان أي اتفاق مع رومه كان يتأهل بفرض الجمهور الأرثوذكسي الشرقي، كهنه وشعبا. وبعد ما احتل العثمانيون ادرنة (١٣٦١)، عزلت القسطنطينية ولم يعد يوصلها بالعالم الخارجي سوى طريق الدردنيل الذي كان معرضا للخطر. لما من ناحية أير فقد كانت المدينة محاصرة باستمرار، واصبح سقوط القسطنطينية بأيدي العثمانيين أمراً محتوماً ما لم يتقدما

الغرب المسيحي ولكن على شروطه هو. ويبدو ان القويان احتلواهم وهم واعون، ان يعرضوا انفسهم للسيادة السياسية العثمانية، اذ حسبوا انها لن تفر من خضوعهم دينيا للبابا وتجاوزا لجنوده والتندقية.

ان الحكومات الاسلامية - ائمة، بحسب تعاليم القرآن، بان تسمع للرعايا المسيحيين المسالمين ان يمارسوا شعائر دينهم. ولم يكن من الممكن الوثوق الي ان الدول المسيحية الغربية - باستثناء الهندية - لن تلجأ الى الضغط على رعاياها من الارثوذكس الشرقيين، كي يعترفوا بسيادة البابوية. واليونان الذين لم يفعلوا بعد تحت حكم الغربيين، لم يكونوا على استعداد لدفع مثل هذا الثمن كي يتجنبوا السيادة الاسلامية. وقد كان اليونان ايضا يشكون في ان المسيحية الغربية يمكن ان تقدم اللون الحربي اللازم. ولوق ككل ذلك، فقد كان اليونان يمتعضون من ان الغربيين، وهم في نظرهم دونهم حضارة كما انهم ايضا منشقون، قد قنوا اليونان ثروة وقوة.

كان بين الذين وقوا وثيقة الوحدة في فلورنسة (١٤٣٩) ايزيدور اسقف الكنيسة الارثوذكسية الشرقية في روسيا. وقد كوفي، على ذلك بان جعل كوردينلا (رومانيا)، واسقفية روسيا كانت لا تزال تتبع بطريركية القسطنطينية، وكان ايزيدور نفسه يونانيا. وقد انفضى الاساقفة الروس على ايزيدور ورفضوه واعتزلوا (١٤٤٨) شخصا روسيا اسقفا لروسية - دون ان يحصلوا على موافقة مسقة من بطريرك القسطنطينية - وذلك بناء على مبادرة من الدوق الكبير لفلاديمير امير موسكو، وبموافقة دوق لثرانيا الكبير والتابع له امير كييف. والمؤسسة الروسية الرسمية لم تختلف مع بطريركية القسطنطينية حول سيادتها على اسقفية روسيا الارثوذكسية الشرقية. وهكذا فقد ظلت روسيا باجمعها، يقطع النظر عن الاوضاع السياسية للامارات الروسية المحلية، خاضعة لسلطة البطريرك الدينية.

كانت القبيلة الذهبية المغولية قد عهدت الى امارة موسكو ان تعاقب القبائل او الامارات التي تنحدر عليها، ومنها امارة تفر (١٣٢٧). وقد كافأ السمرق امير موسكو باد جعله دوق فلاديمير الكبير، الذي ظل يقيم في موسكو، وكان اسقف الكنيسة الارثوذكسية الشرقية في روسيا يقيم هناك ايضا. والدوق الكبير اخذ يضم الواحدة بعد الاخرى من الامارات الروسية (اعتباراً من ١٣٢٨) موسعا بذلك سلطانه، الذي كان اوتوفاطيا، اذا قورن بالنظم المعروفة في امارات روسية اخرى.

خلال القرن الخامس عشر احتلت دولة القبيلة الذهبية وبذلك تحررت روسيا من الولايع. وبحول أواسط القرن تقسمت هذه القبيلة إلى أربعة أقسام: ضمت ثلاثة منها تحت حكم روسيا (كالاموف، ١٤٥٢ وغاران، ١٥٥٢ واسفراخان ١٥٥٦، والرابع، القرم، وقع تحت نفوذ العثمانيين).

ظلت بسكوف وتوفورود الروسيتان مستقلتين، وانضمت الأخيرة إلى حلف من الهنساء وسيطرت على منطقة واسعة إلى شمالها الشرقي، كانت تمتد حتى المحيط المتجمد الشمالي، من طرف التروج الشرقي تحت مهر لوب. وقد ضمت موسكو تولفورود (١٤٧٨) وبسكوف (١٥١٠).

كان اللوثاريون قد افادوا من تركيع المفلول لروسيا أثناء هجومهم الساحق (١٢٣٧-٤٠) وغرضوا سلطانهم على ولايتها الغربية (باستثناء غاليسيا التي ضمت إلى بولندا). وقد ترك اللوثاريون للأروس استقلالهم الذاتي، ولم يتدخلوا في دين رعاياهم من الأرثوذكس الشرقيين، واتخذوا فلنا، المدينة الأرثوذكسية الشرقية، عاصمة لهم. ومن ثم فإن الحكم اللوثاري الوثني لم يتضابق مع الروس الغربيين، وكانوا يفضلونه على سيطرة القبيلة الذهبية. لكن الوضع تغير لما انتصر الأمير اللوثاري الوثني ملكا لبولندا (١٣٨٦). وهنا اعتنق المسيحية الكاثوليكية الغربية. وعلى كل فإن النبلاء الروس الواقفين تحت حكم اللوثاريين والبولنديين اصبحتهم الحرية التي تمنحوا بها تحت هذا الحكم، بالمقابلة مع الحكم الذي يمكن ان يفرضوا تحت في روسيا الموسكوبية.

ومع ان قيصريه روسيا الموسكوبية لم تكن في ١٥٥٦ تحكم غربي روسيا، فإنها كانت قد أصبحت دولة قوية، وكانت تستطيع ان تتوسع شرقا. وبالمقارنة كان اليونان في مأزق خطير يومها. فالقسطنطينية كانت قد سقطت (١٤٥٣). ولما استولى العثمانيون على اسباطورية طرابزون ١٤٦١ أصبحت بلاد اليونان جمدا اما تحت حكم العثمانيين او تحت حكم المسيحية الغربية. وعلى كل فإن فرض الحكم العثماني الماد اليونان على المصحين الديني والاقتصادي.

إن الباد شاه محمد الثاني (الفاتح) نظم رعاياه من غير المسلمين على اساس الملل: ملعة للأرثوذكس الشرقيين وملعة للأرمن الغربيين وملعة لليهود. وكان يرأس كل ملعة رجل دين محترم الذي هو في الوقت ذاته تابع عثماني. وكان يعتبر مسؤولا امام الدولة العثمانية عن اتباع دينه. وكانت منطقة نفوذه تتفق مع حدود الدولة ذاتها.

وكان بطريرك القسطنطينية، بحكم منصبه، رأساً لجميع ملة الأرثوذكس الشرقيين العثمانيين (ملة الروم كما كانت تسمى). وترتب على ذلك أنه لما احتل سليم الأول بلاد الشام ومصر (١٥١٦ - ١٥١٧)، فبطريرك القسطنطينية، بوصفه رئيس ملة - عثمانية، كان الرئيس المدني لا لاتباع بطريركيته فقط، بل للبطريركيات الأرثوذكسية الأخرى - انطاكية والقدس والاسكندرية. وقد كان لبطريرك القسطنطينية اتباع أرثوذكس من غير الرعايا العثمانيين - في جيورجيا الشرقية وألتيا وروسيا. والقسم الروسي الذي كان يتبع بطريرك القسطنطينية كان كبيراً، وكان يتبع باستمرار. يضاف إلى هذا أن الرابط الوحيد بين الروس المقسمين سياسياً كان هو ولائهم لبطريرك القسطنطينية الأرثوذكسي، ومن ثم فقد كان بطريرك القسطنطينية وفهر المسكوبية قوة هامة في المسيحية الأرثوذكسية الشرقية في ١٥٥٦، مع أن البطريرك كان، سياسياً، من رعايا سلطان مسلم.

وفي الوقت ذاته سارت الريح في مصلحة اليونان اقتصادياً في المنافسة بينهم وبين الإيطاليين الشماليين. فبعد نهاية القرن العاشر إلى مطلع القرن الخامس عشر كان الإيطاليون يشتون أقدامهم اقتصادياً في المشرق على حساب اليونان، ولكن الإيطاليين خسروا اقتصادياً وسياسياً كذلك بسبب ضم العثمانيين لمستعمرات الجنوبية في ١٤٥٣، وبسبب الحرب البندقية التركية (١٤٦٣ - ٧٩) وفي القرن (١٤٧٥). وكان الراهب اليونان العثمانيين بالرغم من منافسة اليهود اللاجئين من اسبانية. وقد تعاونت الطبقة الجديدة الناجحة من رجال الأعمال اليونان العثمانيين مع بطريرك القسطنطينية و مؤسسته. وكان وضع هذين الفرعيتين اليونانيتين مزعزعا، لكنهما، بتعاونهما، أصبحت لهما قوة لا يستهان بها.

٧١- المسيحية الغربية ١٢٢١-١٥٦٢

بين حول ١٠٥٠ و ١٢٠٠ حافظت المسيحية الغربية على وحدتها الدينية والثقافية كما تقدمت اقتصاديا - فقد زاد سكانها وزاد انتاجها. وفي وقت مبكر من القرن الرابع عشر، تآخرت ثروتها المادية، ثم جاء الموت الأسود (في ١٣٤٨ وما بعدها) الذي ازاح العديد من السكان وقلم المساحة المستغلة من الأرض. ومن الجهة الأخرى فإن المسيحية الغربية كانت، في ١٥٦٢، قد حصلت على قيادة عالمية للقوة البحرية) لكن في الوقت نفسه كان حدها البري الجنوبي الشرقي قد ارتد عن الخط الذي كان يجاريه في ١٢٠٠. يضاف إلى هذا أن المسيحية الغربية كانت قد أصبحت (١٥٦٢) يثا مقسما على نفسه، على المستويين الديني والسياسي. وقد قوى هذا الخلاف كون الخطوط الفاصلة بين المستويين كانت متفقة إلى درجة كبيرة. وقد أقر حكام الدول (الملكيات والأمارات والممّن - الدول) التي كانت قد توزعت المسيحية الغربية، على أنه كان من حق الحاكم على وعليه ولائهم الديني والسياسي على السواء.

لقد كان ثمة تراجع اقتصادي في المسيحية الغربية قبل ١٣٤٨- إلا أن الموت الأسود حول التأثير إلى كثرة. فقد دخل الطاعون إلى المسيحية الغربية في مرشليا بهرا من المراكز التجارية الجنوبية في القرم. وقد ظهر أصلا في السهوب الأوراسية أو في مكان أبعد من ذلك بكثير. ولم يكن مرضا محليا في الانقراض المسيحية الغربية، فغل ثلث السكان على اقل تقدير في هجمته الأولى، وعاد مرات وكان يصيب الدين عاصوا مه قبل أن يكسبوا المناعة ضده. ومن المحتمل أن سكان المسيحية الغربية والأرض المستغلة لم تعد إلى ما كانت عليه حول ١٢٠٠ إلا حول مطلع القرن السادس عشر. وكانت النتائج الاقتصادية المترتبة على ذلك ثورية. لقد افتاد الفلاحون لأن اليد العاملة أصبحت نادرة ولو أن ذلك لم يكن كما أملوا تماما، وحتى هذا لم يكن دائما.

والنقص في اليد العاملة الزراعية جاء مع انتشار صناعة الأقمشة الصوفية من فلاندر الى انكلترا وفلورنسة، الامر الذي ادى الى اختلال التوازن بين اراضي الرعي والراعي الزراعية، لمصلحة الأولى.

وقد شهد القرن الرابع عشر تطوراً في التكنولوجيا فكان ان دخلت الاسلحة النارية المسيحية العربية. وبين حوالي ١٤٤٠ و ١٤٩٠ كانت ثورة تتعلق ببناء السفن الغربية وميكانيكاها. وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر كانت الطباعة قد تطلبت جميع الاقطار الغربية. والبلود والطباعة هما اختراعا صينيان. وقد استعمل المغول البارود في حروبهم لاحتلال امبراطورية سونغ في القرن الثالث عشر. وقد كانت الطباعة مستعملة في الصين منذ القرن التاسع.

إن الطباعين الصينيين سبقوا الغربيين في استعمال الطباعة المتحركة، لكن كثرة الاشارات « الصينية الكتابية جعلت الطبع الثابت انساب لغات الصينيين. ومع ذلك فان الطباعة المتحركة بدأت في كوريا على مقياس واسع في ١٤٠٣، وقد اتخذ الكوريون رسماً كتابة صوتية، فيها عدد صغير من الاشارات لكتابة لغتهم في ١٤٤٦. لكن هذا الاختراع الذي كان يحمل في طياته الأمل الكبير ولد ميتاً. فقد عطلته المكافحة التقليدية التي كانت للغة الصينية وكتابتها المعقدة. اما الطباعون الغربيون في القرن الخامس عشر فلم يكن يحتم مثل هذا الكابوس على صدورهم. فبالغة اللاتينية واللغات المحكية المختلفة كانت تستعمل الالفباء اللاتينية لكتابتها، وهي تبلغ ستة وعشرين حرفاً فقط، والحروف المستعملة كان من اليسر على لطباع ان يستعملها، ولم يلبث الغربيون ان أصبحوا يطبعون كتباً باليونانية والعربية والعبرية. ولما بدري فيما اذا كان غوتنبرغ قد اخترع الطباعة مستقلاً، لم ان الفكرة جياته من الصين اعيراً. فالسهب موصلة. فقد نقلت الى اوروبا، في القرن الرابع عشر جراثيم الصوت الأسود. فمن الممكن ان تكون قد اوصلت فكرة الطباعة بعد ذلك بنحو مئة سنة.

إن اتفاق الغربيين للطباعة كان امراً محلياً. اما اتفقهم لاستعمال الاسلحة النارية واختراعاتهم لنوع جديد من السفن كانا قضيتين عالميتين. (موضوع البحث عن صنع سحر الغرب العالمي في القرن الخامس عشر هو الفصل الخامس والسبعون). فامتلاك الاسلحة النارية وضع المتخارمين الغربيين في مركز متفوق قطعاً بالنسبة الى الشعوب غير العربية التي كانت في متناول هؤلاء الغربيين من البحر، وهي الشعوب التي لم يكن

عندما اسلحة ثارية لو لم تحصل عليها في الوقت المناسب. الصييون كانوا يمتلكون الأسلحة الثارية؛ وقد حصل عليها العثمانيون والموسكوبيون والبيموريون (المعمول) الدين فتحوا شمال الهند في الوقت المناسب. أما الأتاتكة والأتكا فقد سموا (لاهم لم يعرفوا الأسلحة الثارية).

إن استعمال المطبعة في المسيحية الغربية في القرن الخامس عشر دفع بالارداهار الثقافي الذي كان قد بدأ في شمال إيطاليا في القرن الرابع عشر، إلى الأمام، وهو الذي انتشر في بقية المسيحية الغربية في القرن السادس عشر. إن شمال إيطاليا تستع، بين ١٢٦٦ و ١٤٩٤، بفترة استراحة من الغزوات الأجنبية التي استمرت نحو ألف سنة منتهية بسنة ١٢٦٦. وقد لوجد شمال إيطاليا، في هذه الفترة (١٢٦٦ - ١٤٩٤) حضارة إقليمية خاصة به في إطار المسيحية الغربية. وقد عرفت المسيحية الغربية ثلاث موجات من التقدم الحضاري: الأولى في القرن الثامن جاءت من نورلهمبريا (في بريطانيا) والثانية جلمت في القرن الثاني عشر من فرنسا. وفي القرن الرابع عشر كانت القيادة لإيطالية، وهذه هي الموجة الثالثة.

ومن المسكن المعروف على الهوة التي كانت بين الحضارة الإيطالية وحضارة شمالي الألب، عند منقلب القرن الخامس عشر إلى السادس عشر، من كنيسة الملك هنري السابع في دير وستمنستر. فلذا تبيننا إلى الفرق بين حفر الفنان الفلورنسي توريجيانو (١٤٧٢ - ١٥٢٢) والفن المحلي في المعنود والتمائيل المتحونة فوقها، وجدنا أن الفنانين (أو المدرسين) على مستوى رفيع ضياء لكنهم، مع كونهم معاصرين، يحدان عن بعض كثيراً في الروح.

والفرق المنطوق في ذلك يعود إلى إحياء الأسلوب اليوناني الروماني في القرن الرابع عشر. ولم يكن هذا الإحياء في الحفر والبناء فحسب، بل حتى في الرسم والأدب. فالتحاريون والرسامون والسماريون قولوا أصالهم على ما كان بانبا من صنع المدينة اليونانية - الرومانية. والكتاب باللاتينية جربوا أن يقطفوا لغة شيشرون، لا لغة الفديس حيروم أو لغة نوما الأكويتي. وفي القرن الرابع عشر أخذ الإيطاليون الشماليون أنفسهم باتقان اللغة اليونانية والأدب اليوناني على ما كانا في العصر الهليني، الذي كان قد ابروى في الغرب بين القرنين الثالث والسادس للميلاد. فيتراك (١٢٠٤ - ٧٤) روكاشير (١٣١٣ - ٧٥) تعلموا اليونانية ولكن دون أن يتقنوها. لكن لما جاء ومد

يوناني إلى فلورنسة (١٤٣٩) لحضور مجمع ديني، لقي أعضاء علماء من شمال إيطاليا الذين كانوا يعرفون اللغة اليونانية إلى حد أنهم ناقشوا في الأدب اليوناني والفلسفة اليونانية المعالدين إلى قبل الميلاد. ومن هنا فإن لودفيك الحصار الإيطالية سمي في القرن السادس عشر « الأنبيات »، إذ كان معنى ذلك « الولادة الثانية » للمدنية اليونانية - الرومانية، وكان العاملون فيها يسمون « الأناسيون » لأنهم كانوا من المعجبيين بالمدنية اليونانية - الرومانية السابقة للميلاد، بالمقارنة لأولئك الذين كانوا طلابا ومعجبين باللاهوت المسيحي الغربي.

ومع ذلك فإن هذه التسمية - الأنبيات - خاطئة. ذلك بأن الحياة الأسلوب اليوناني الروماني لم يكن سوى امر ملازم ونتيجة لازدهار حضاري ثالث، يختلف عن ذلك الذي عرف في القرن الحادي عشر. فالازدهار الثاني سم ببداً لما كتب أرازمس (١٤٦٦ - ١٥٣٩) ما كتبه بأسلوب شيروني لا تشوبه شائبة، أما بدأ لما قرر دافني (١٢٦٥ - ١٣٢١) أن يكتب الكوميديا الإلهية، بلغة الفثوغرافية التي استعملها لاشماره من قبل. كان دافني يسير في خطى أسلافه في شتاتي الالب الذين كتبوا باللغة المحكية.

إن الصلة بين الغربيين المحدثين المبكرين والمدنية اليونانية - الرومانية صلة ذات وجهين. فإذا أثار النموذج اليوناني الروماني « المحدثين » فاضموا شيئاً حقيقياً، هو انهجاز بالنسبة إلى أسلوب الحياة الغربية المعاصرة، فإن الصلة تكون دافعا إلى الأمام. ولكن المدنية اليونانية - الرومانية نفسها، متى حصلت « المحدثين » على مجرد تقليد « القداسي » تكون عندها موهنة للهمس. فإن فيليو برونلشي (١٣٧٧ - ١٤٤٦) بنى لبته في فلورنسة (١٤٢٠ - ١٤٤٠) بعد أن درس الفقه الموجودة في مجمع هنريان برومة، وكان أثر ذلك أنه اضاف ثروة فنية إلى عالمه. (لكنه لم يتمكن من دراسة الجامع الاخير في بروصه). ومثل ذلك حدث على يد ألفريدو بلاديو (١٥١٨ - ٨٠) إذ اضاف ثروة جديدة للعالم الحديث لما اوجد أسلوباً كلاسيكياً خاصاً به بعد ما درس آثار روم وكتاب فثروفيوس عن فن العمارة. وفي مقابل ذلك فإن بيوتشموند مالانستا (١٤١٧ - ١٤٨٠) حول كنيسة في (ريميني) إلى مدخل لهيكل يوناني - وكان ذلك خطأ فاحشاً. ونيكولو ميكافلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) درس ليفي المؤرخ اللاتيني وولد من ذلك في وضع دليل لادارة شؤون السياسة والحرب في عالمه. ولأرامس

استخدم لغة شجرون اللاتينية كما كتب لقرائه (باللاتينية) عن القضايا الرئيسية الحلقية والاجتماعية والسياسية والفكرية، وكلاهما - مكيفلي ولورنس اغنيا الفكر والحياة. اما اولئك « الانسانيون » الذين كتبوا بلاتينية متقنة وكانوا يفتقرون إلى عبقرية ارازمس، فهم سخرية الادب والادباء.

ان مفكري الغرب في العصور الوسطى كانوا يتصرفون تصرفاً جيداً، فانهم لم يتأخروا قط في وضع الكلمات الجديدة لارتقائهم، وفي هذا كانوا يجمعون شجرون نفسه ولورنس، الشاعر اللاتيني وعصم « الانسانيين » كان اقرب إلى ذاتي (وثرلوك وبوكاشيو) منه إلى ارازمس « الانساني » (الشمشروني)، لذا خاطب (لور) بلدة محكية جمهوراً اكبر من أي جمهور وصل إليه لورنس -. وترجمة لور للكتاب المقدس إلى الألمانية كان بالنسبة إلى الأدهار الحضاري الغربي الحديث عملاً مثل الذي قام به ذاتي لما كتب الكوميديا الإلهية باللغة التوسقانية.

حتى أواسط القرن الخامس عشر كانت بؤرة الانبعاث (الرنسانس) الأوروبية الحديث شمال إيطاليا، وهنا توسقانية، وفي هذه فلورنسة. وجوها يشبه دور إلينا ١٤٨٠ ق.م. فمن أهل الفكر والفن للفنلورسين هناك ذاتي وثرلوك وديرونلستي وفيشنر ولور نزو دي مديشي ١٤٤٩-١٤٩٢ (صاحب مصر، طاعبة، راع للفن والعلماء) ومكيفلي ونوريجانو. اما الآخرون الذين لمعوا في فلورنسة فهم: بوكاشيو (فلورنسي وفرنسي الأصل) ولبوناردو (١٤٥٢-١٥١٩ ولد في بلدة كانت قد ضمت إلى فلورنسة قبل ذلك بقرن). وبرايشوليني الاثري من ليزو التي كانت قد ضمت إلى فلورنسة. ومثلها مكان ولادة ميكل انجلو (١٤٧٥-١٥٦٤)، وقد استقرب لورنزو إلى فلورنسة عدداً من العلماء من أماكن مختلفة. والوحيد بين هؤلاء المظماء الذين لم يكن فلورنسا هو واثيل (١٤٨٣-١٥٢٠).

ومع ذلك فلا فلورنسة ولا حتى شمال إيطاليا كان للبؤرة الوحيدة للازدهار الحضاري الغربي الحديث. فقد كان لفلاندر دور لا يقل عن دور تلك - حضارياً واقتصادياً معاً إلك (١٣٩٠-١٤٤١) كان نفا لانجيليكو الايطالي، ورازمس كان بدا لأي ايطالي كتب باللاتينية. وبين ايطالية والأراضي المتخضعة كانت ثمة محطات مثل مدرسة البندقية في الرسم فروبوشي (١٥١٨-٩٤) ويولس الفيروبسيزي

(١٥٢٨ - ٨٨) كان لهما ندمين في فلاندر. وفي نوونبرغ كان البيرت دورد (١٤٧٩ - ١٥٢٨) ندا لأي فان ليطالي بستان الصاغة الأربعة.

كانت المدن - الدول في بلاد شمالي الألب، كما في ليطالية، هي مهد الأزدهار الحضاري العربي الحديث. لكن في سنة ١٥٦٣ كانت شعوب الدول - الممالك أضحت بالمساهمة الثامنة في هذه الحركة. ولزيادة عند الجامعات بعطها فكرة عن ذلك. فبين ١٣٥٠ و ١٥٠٠ زاد عدد الجامعات في المسيحية الغربية أكثر من المضعف. وفي هذه الفترة نشأت ثلاث وعشرون جامعة في أوروبا الوسطى (وأقدم الجامعات الثلاث والعشرين هي جامعة براغ التي أنشئت ١٣٤٧).

كان فردريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠) ملك الصقليين بطمح إلى الاستلاء على ايطالية باجمعها وبعد ذلك (امتثالاً) البلاد الواقعة شمالي الألب. وقد فشل فردريك في ذلك، لكن طموحه جعل كثرين على القيام بحجيرة ولو على مقياس أصغر. وخلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر قامت امارات يحكمها حكام مستبدون بدل المدن - الدول. وحتى البندقية التي ظلت جمهورية، انشأت امبراطورية بان ضمت اليها مدنا كانت من قبل مستقلة. ولذلك فقد ندم عدد الدول المستقلة في ايطالية وزاد معدل مساحتها. ومع ذلك فإن الدول الايطالية التي استمرت في نهاية القرن الخامس عشر (مثل ميلان والبندقية وفلورنسة والدولة البابوية) كانت صغيرة وضعيفة بالنسبة إلى الممالك - الدول التي كانت تزين الخريطة السياسية (خراج ايطالية) في سنة ١٥٦٣. وهذه كانت تشمل مملكتي فرنسا وانكلترا (قامعا في القرن الماشر) ومملكة شتالة وارغون المتحدة (١٤٧٤ - ١٤٧٩) ومملكة هابسبورغ (ظهرت سنة ١٥٢٦ بانحداد املاك هابسبورغ النمساوية مع تاجي هنغاريا وبوهيميا). وهذه الممالك الغربية كانت تعرف امارات شمال ايطالية وجمهوريات. ان الممالك المذكورة عرفت سياسيين من نوع لويس الحادي عشر الفرنسي، حكم ١٤٦١ - ٨٢. ومردساند وثرابالا - حكما ١٤٧٩ - ١٥٠٤. وهنري السابع - حكم ١٤٨٥ - ١٥٠٩.

ولكن الدول الجمهورية لم تكن قد انتصت من الخلطة السياسية الأوروبية سنة ١٥٦٣. فقد كانت البندقية لا تزال دولة ذات سيادة، ولها امبراطورية في ألب الايطالي وفي المشرق. وجنوى كانت تحكم الريفيرا الايطالية وكورسيكا. وكانت سويسرا انحاداً من جمهوريات. والمدن الدول الالمانية كانت ذات سيادة إلا بالاسم، وكانت

اثنان منهم، مونبرغ ولوغسبورغ مركزين عالميين للتجارة والمال. فدولة هابسبورغ اعانتها اوغسبورغ ماليًا، وقد ساعدت البروتستانتية في الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية مدينتان المانيتان هما اوغسبورغ وشتوتغارت وثلاث مدن - دول سويسرية هي زوريخ وبن وبازل، ومدينة جنيف التي كانت حليفة للاتحاد السويسري.

وفي مقابل ذلك فإن قيام اتحاد الدول الاسكندنافية (١٣٩٧) كرد فعل على سيطرة اتحاد مدن الهنسا، اتحد بالانفصال السويد (١٥١٢ - ٢٣) واتحاد لنواليا مع بولندا (بدأ ١٣٨٦ ثم قوّي ١٥٠١ و ١٥٦٩). وقد اتضح خلال القرن الرابع عشر ان الشكل السائد على الدولة في الغرب هو المملكة - الدولة، لا المدينة - الدولة ولا اتحاد المدن بقطع النظر عن شكل الاتحاد.

والذي يجب ان يذكر دائماً انه اصبح (منذ القرن الخامس عشر) من المستبعد ان يوحد الغرب المسيحي سياسياً. فالمعامل المحلية كانت تحول دون ذلك. وشارل الخامس (حكم ١٥١٩ - ٥٦) الذي كان يسيطر على القسم الاكبر من اوروبا الغربية باعباره امبراطوراً للإمبراطورية الرومانية (بكل اناسها) وملكا لاسبانيا، اعتزل العرش ١٥٥٦ يائساً من تحقيق الوحدة.

ولم يكن تحقيق هذه الوحدة منتظراً في سنة ١٥٦٣. فالدول الأوروبية، كبرها وصغيرها، كانت تحول دون ذلك، إذ ان كلا منها كانت تمنع الاخرى من العمل. وهذه الدول الطمعية هي التي كانت تقرر امور المسيحية الغربية منذ سنة ١٣٠٣، وهي السنة التي اذل فيها فيليب الرابع، ملك فرنسا، البابا بونيفاس الثامن.

ان الباباوات انقسموا في انفييون (١٣٠٩ - ١٣٧٨) لان التاج الفرنسي اراد ان يكون البابا عند مدخل فرنسا، ومن ثم يكون تحت سلطانها. وخلال الانقسام الكبير (١٣٧٨ - ١٤١٧) لم تكن القضية اخلاقية او عقائدية: ان الخلاف كان فيما اذا كانت البابوية يجب ان تظل في بيضة الفيلان الفرنسي ثم تعود الى القباب الايطالي. ان السلطات المدنية والبابوية كنّت طماعاً، على السواء، في للحصول على اموال الضرائب. وقد نظمت الكوربا البابوية، منذ القرن الثالث عشر، اساليب مرض الضرائب. وفي الوقت ذاته احدثت الحكومات المدنية تحجيز حصص متزايدة القيمة من الضرائب البابوية التي تفرض في ممتلكاتها على ان هذا كان شرطاً - يسمح بموجبه للكوربا بان تأخذ الباقي.

ان مصيعة الانقسام الكبير أدت الى عقد مجسمين في كونستانس (١٤١٤ - ١٤١٨) وفي بازل (١٤٣١ - ١٤٤٩) . وقد حاول المجسمان ، لكنهما فشلوا في ان يطوروا اياوية من ملكية مطلقة الى ملكية دستورية تكون فيها الكتلة الاميرة للاساقفة (ومساعدتهم) والاديرة وسبيلي الجامعات . ولان القوى المدنية المحلية لم تؤيدها ، فشلت المحاولة . ذلك بان اكثر هذه القوى شعرت ان مثل هذا التطوير قد يقوي سلطة البابوية ، وبعضها كان قد انتزع من البابوية كل ما يفيده ، والبعض الآخر كان يحسب ان ينتفع من الوضع القائم ، لان القوة الحقيقية في الدول أصبحت ، منذ ١٢٠٣ ، في ايديهم .

وبين ١٣٠٣ و ١٣٦٣ مرت المسيحية الغربية بتطور اساسي من ناحية تركز السلطة السياسية ، اذ ان السلطة مع الضرائب انتقلت من البابوية ومن المؤسسات الكنسية الغربية الاخرى (كالاديرة) الى الحكومات المدنية المحلية . فقد تفصلت البابوية الى واحدة من الامارات الصغيرة في العالم الغربي ، وبعد ان كانت تسيطر عليه وتنظمه . وفي قتالها المستمر مع الامارات الاخرى ضدت حقها في السيادة الروحية . وقد حاصر فترة نفي البابوات الى افيينيون ثلاثة من الذين طاحسوا البابوية : جون وكليد - (١٣٢٩ - ٨٤) ووليام اوكلم (١٣٠٣ - ٤٩) ومارسيلو بادوا (١٢٩٠ - ١٣٤٣) . اما جون هس (١٣٦٩ - ١٤١٥) فكان محاصرا للانقسام الكبير .

واسماء لوتس (١٤٨٣ - ١٥٤٦) وزينسلي (١٤٨٤ - ١٥٣١) وكلفن (١٥٠٦ - ٦٤) تذكرنا بان الامراء المحليين كانوا من العوامل التي مكنت للثورات الدينية ان تقوم بحمايتهم لها . فقد كان هؤلاء « ارفا » ولولا تأييد الشعب ، وكذلك تأييد الامراء والمعلمة (الاوليفاريين) لكأنت حركاتهم قد فشلت . ولما تحدى فيليب الرابع ، ملك فرنسا ، وهنري الثامن ، ملك انكلترا ، البابوية ، كان كل منهما سيد دولة محلية قوية وكان قد حظي بتأييد الشعب وحتى رجال الدين المحليين . وكان لا بد لفرد ما من الشجاعة الشيء الكثير ، كي يتحدى البابوية ، وهذا ما اظهره لوتر في جامعة تسيرخ (١٥١٧) لولا ، (وكان عمر الجامعة خمس عشرة سنة فقط) ، ثم امام مجسم رمز (١٥٢١) ثانيا - وكان لذلك فعل الكبرياء في النفوس . وسر النجاح في هذا الوضع هو ان الوسائل التي لوسل فيها « المتفصلون » تياراتهم كانت موصلة . فحماة هس كانوا ضد البابوية وضد الامانة . وجامعة لوتر الامانة اتبعوا لانهم كانوا خصوما للبابوية . وانتشرت الثورة حتى داخل ممتلكات هابسبورغ قبل ان يرتد التيار

بتأثير حركة الإصلاح الرومانية الكاثوليكية. والوطنية المدنية في روبرخ وستراسبرغ وجيف هي التي ضمت المجال امام زونفلي ويوسر (١٤٩١ - ١٥٥١) وكلنف كان لوتر التراث، ولو لم يمر في الملكية كان من المحتمل ان لا يقوم رملازه بالانفصال الثام عن البافوية. والبروتستانتية توزعت مناطق اوروبية على الشكل التالي. اللوثرية ظلت في المانية واسكتندنافيا، والكلفنية (التي لم تنجح في فرنسا) انتشرت في منطقة واسعة من جنيف، وبعد اتحادها مع الزونفلية (روبرخ) انتشرت شرقا الى هغاريا وبولندا والى هولندا وغرب المانية شمالا في غرب. الا ان حركة الإصلاح الكاثوليكية انتشرت عليها في هغاريا وفي بولندا - لاتفيا، وبقيت في الاماكن الاخرى. جاءت الثورة البروتستانتية امنية بعدد من الثورات. فقد اكدت، وبقيت، الاستقلال ذا السيادة للامراء المحليين والمدن - الدول في المانية (ولو ان هذه كانت، رسميا تابعة للامبراطورية الرومانية للشعب المجرماني)، ولكن لم ترافقها ثورة اجتماعية. لقد قامت ثورات مجهزة في المسيحية الغربية بعد وفاة الموت الأسود (١٣٤٨)، ثار الفلاحون في فرنسا وانكلترا والسال الصناعيون في مدن فلاندر ومدن الراين وقامت ثورة فلاحية في المانية. وقد كان لوتر ضد هذه الثورات متفقا في ذلك مع السلطات المدنية السياسية، البروتستانتية والكاثوليكية على السواء. وقد اعلن (١٥٢٥) انه ينفذ الى جانب الامراء ضد الفلاحين.

كان لوتر يرى، مبدئيا، ان الكنيسة اللوثرية يجب ان تمتنع عن التدخل في السياسة، اد ان هذه عمل السلطات المدنية في الدول اللوثرية. فيما كان رأي كلنف، بالمقارنة، من حيث العلاقة بين الكنيسة والدولة اقرب الى رأي غريغوريوس السابع او حتى بوليفاس الثامن. كان موقف كلنف هو ان حكومة المدينة - الدولة جنيف بتوجب عليها ان تفتح الكنيسة الكلفنية بان الحكومة تتبع القواعد الكنسية في ادارتها. وقد جرب ذلك صنفين مبني على اثرهما كلنف من جنيف (١٥٣٨) - الا انه اعيد بعد ثلاث سنوات مفعرا، وكان له ما شاء في لدارة جنيف حتى وفاته (١٥٦٤).

في ١٤٩٤ - طلب الحكم الجمهوري في فلورنسة من سافونارولا، الراهب الدومينيكي، ان يصلح اعتلاق الناس في البلد. فعمل، ولكن سنة ١٤٩٨ احرق على السفود. ومع ان شمال ايطالية في القرن الخامس عشر كان مبكرا في سيره فان مهنة سافونارولا كانت سابقة لوانتها. وكان العقاب عليها وحشيا. وعلى كل فقبل ان يعل

لوثر مساوىء البابوية (١٥١٧) قامت قوة من رجال الدين والمدنيين الايطاليين بقيادة المطران كرافا بقصد اصلاح الكنيسة البابوية من الداخل. ولم يكن هؤلاء ثوريين، ولا اصبروا حقد البابوية ضدهم. وفي الواقع لقد انتخب كرافا بابا (بولس الرابع، ١٥٥٥ - ١٦) .

ان آباء الكنيسة البروتستانتية كانوا ثوريين في الحملة على البابوية ومعارضتها وفي الانفصال عن الكنيسة البابوية، لكنهم، مثل سابقيهم من لرومان الكاثوليك، كانوا يحبون السلطة ولم يكونوا متسامحين. وقد تصرفوا اقزبا بمقتضى حكمتهم وتبعا لضربهم في موقفهم ضد البابوية، فانهم لم يكونوا اكثر تسامحاً من الكاثوليك في السماح للأفراد بان يسبوا بمقتضى ضمائرهم وحرمتهم في الدول التي قبل حكامها البروتستانتية. لقد اعلن الثوار ان الكتاب المقدس فوق ارادة البابا، والمجماع. (وقد ترجم لوثر الكتاب المقدس الى الألمانية كي يتمكن كل ألماني من قراءته). كان لكل مسيحي ان يفسر ما جاء في الكتاب المقدس لنفسه، ولوثر وزوجلي وكلفن فعلوا ذلك في صياغتهم لأرائهم اللاهوتية. إلا أنهم لم يسمحوا لأتباعهم مثل هذه الحرية في التفسير.

في القرن السادس عشر اطلق رجال الدين والحكومات البروتستانت والكاثوليك على السواء، على انه من حق الحكومة المحلية ان تفرض على رعاياها المذهب الذي تختار. والسخطون عليهم ان يهاجروا، او انهم قد يتعرضون لخطر الموت. الدولتان الغربيتان الوحيدتان في القرن السادس عشر اللتان كانتا تسمحان للرعايا باتباع الدين الذي يريدون هما البندنية وبولندا - لاتفيا. وكان مسيحيو هنغاريا (تحت الحكم العثماني) يتبعون كذلك بالتسامح، وترانسلفانيا.

ان الحرب السريية بين البابوية وفردريك الثاني وعلاقته ادت الى تغرب الكثيرين من المسيحيين في الغرب عن المؤسسة البابوية الدينية. وقد حول بعض المسيحيين الغربيين، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر في نشاطاتهم الروحية من مجال المشاركة في الدين المتطلب الى العلاقة بين الله والفرد.

كان اسم هؤلاء المصوفة (الميسنيك) الدوميكاني الألماني إكهارت (حول ١٢٦٠ - ١٣٢٧) الذي رأى في نفسه الحقيقة الروحية النهائية. وقد افقعه هذا في مشاكل مع السلطات الدينية الغربية. والحركة الايسخية (في جيل تومس) المعاصرة لغيت الصمت على ايدي اللاهوتيين الغربيين (مع انها اقراها مجمع ارنودوكسي شرقي

١٣٥١). وكان من هؤلاء في العرب اتباع غروت الهولاندي (١٣٤٠ - ٨٤) ومن رجالهم فيما بعد توما كيسي (١٣٧٩ - ١٤٧١) مؤلف « التشبه بالمسيح » .
كان المسيحيون القبريون في القرن السادس عشر يركبهم هاجس الموت، وكانوا معجبين بالآلَمَ الجمائلي الذي بدا في المسيح على الصليب. حراسوا العرب وحفاروه وبقاشوه المعاصرون . وبخاصة شمالي الألب - بدلوا جهدهم الفني ليظهروا هذه الأفكار الواقعية قاسية. وهذا الجو المقيم هو الذي حمل لوثر على الرغوف عند شعوره بالخطيئة وعند يأسة من التغلب عليها بجهده الخاص. فنجأ إلى الإيمان بالقوة الخلاصية القائمة في تضحية المسيح لله الأب. ففشل المسؤولية الروحية للخلاص عن عائق الفرد والقالها على عائق المسيح فظهر لوثر شيئا مبتزله خصمه اللومبكاني، الذي كان يرفع المسؤولية عن عائق الفرد ويعتمها على عائق البابا . لكن الباحث على ذلك كان طمعا مائلا. كلاهما ترك التشبه بالمسيح إلى لقاء الله على عائق المسيح، وذلك في سبيل الخلاص.

فيلب الرابع ملك فرنسا استولى على ادلاك فرقة الهيكلين في مملكته واضطهد اعضاءها بفسوسة (١٣٠٧ - ١٤١٤) وادارلد، ملك انكلترا تبعه. (وقد منحت الصور والصاليل في المسيحية الارثوذكسية الشرقية في القرنين الثامن والتاسع). ونظام المروزة الذي فرضته الكنيسة القبرية على كهنة الرعايا في القرن الحادي عشر اعفى منه (١٤٣٩) في مجمع فلورنسة لكهنة الرعايا في الكنائس المنظمة إلى الباباوية، إذ كان كهنتهم من قبل لا يتقيدون بالمروزة. واختلف زعماء البروتستانتية على قضية جسد المسيح ودمه بالنسبة إلى القربان.

وكان ثمة خلاف بين لوثر (والذين قبلوا وأبه من البروتستانت) و « الانسانيين » حول القول بالجبرية. فلارنمس والفديس توماس مور لم يقبلوا بلاء لوثر. وكان كثيرون يرون ان آرايه فيها رجعية بالنسبة إلى لارنمس وتوما الاكوييني. ولكن، باستثناء لوثر، مان اباء البروتستانتية كانوا من علماء الكلاسيكية. ومع ذلك فإن لوثر تغلبت اولؤه في النهاية وقبل لاهوته على اساس الجبرية. وترك لوثر على كل، اثرا خالدا في ترجمته الكتاب المقدس إلى الألمانية.

والدين اسهموا في الحركة الاصلاحية الكاثوليكية كانوا ممن قبل « الانسانيات » بكل حساسة: اغناطيوس ليولا (١٤٩١ - ١٥٥٦) دخل الجامعة ليعد نفسه لعلمه،

وجمعيته اليسوعيين (التي نظمها سنة ١٥٤٠) كانت تؤمن بالتعليمه ولا تزال وعلى كل فليولا كان جنديا في مطلع حياته، ولذلك فإن حب النظام هو الغالب على الجمعية. كما أنها وضعت نفسها في خدمة البابوية. وفي القرن السادس عشر (كما حدث في القرنين الثالث عشر والحادى عشر من قبل) نفذ رجل عظيم البابوية من عثراتها. القديس فرنسيس كان يختلف عن غريغوريوس السابع وليولا طبعاً وتصرفاً (لهذا أصبح ان يقال انه كان عكسهما تماماً). ولكن البابوية اعادت من هؤلاء الثلاثة (غريغوريوس السابع في القرن الحادى عشر والقديس فرنسيس في القرن الثالث عشر واغناطيوس ليولا في القرن السادس عشر) لأن الولاء لسلطان المؤمنين كان الصفة البارزة لهؤلاء الثلاثة. كان مجمع ترنت متعقداً، ولو بصورة منقطعة، من ١٥٤٥ الى ١٥٦٣. وهذا المجمع منح البابا حكماً ملكياً على ما تبقى من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، كما انه صحح بعض الاعطاء الكنسية. من الممكن لو ان هذه الاصلاحات ادخلت بين ١٤١٤ و ١٥١٧، لما كان ثمة مجال لأن يقوم لبثر بخطوته الهائلة ضد البابوية.

٧٢- جنوب شرق آسية ١١٩٠- ١٥١١

شهد جنوب شرق آسية، خلال القرون الثلاثة (بين ١١٩٠ و ١٥١١)، تبديلاً سياسياً وانها (عرقياً) ودينياً كبيراً: فشل الهجوم المغولي؛ وانتشار شعوب تنكلم لغات جنوب آسيوية قارية أحادية المقطع واستقرلها وسيطرنها - خصوصاً الثاني؛ وانتشار اليهودية الشرافادية (المسيلانية) والاسلام؛ ووصول الملاحين من المسيحية الغربية - البرتغاليين.

محاولات المغول البيرة والبحرية، بالنسبة الى جنوب شرق آسية، باءت بالفشل (١٢٥٧ و ١٢٨٥ و ١٢٨٧)، وحتى الجزء الذي احتلوه من بورما (١٢٨٧) اضطروا الى اخلائه في ١٣٠٣. والواقع ان المغول هنا، كان وضعهم مثل وضعهم في سورية (١٢٦١ - ١٣٠٣) - كانوا يمينيين عن قاعدتهم في الأجزاء القصوى من السهوب الأوراسية، يضاف الى هذا انهم قوبلوا باصرار على المقاومة في الميدانين. (حملة المغول البحرية على جاوه ١٢٩٢ انتهت بانكسار مثل هجومهم على اليابان ١٢٧٤ و ١٢٨١).

في العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر كانت تقوم في اندونيسيا امبراطورية في سومطرة واخرى في جاوه. وحوالي سنة ١٢٩٥ دخل الاسلام اندونيسيا (في الجزء الشمالي الغربي من سومطرة).

في سنة ١٤٠٣ انشأ امير سومعري (تيلمسقارا) دولة ملقا على البر القاري للمصيق الذي يحمل الاسم نفسه. في سنة ١٤١٤ كان برامسقارا قد اسلم وتسمى محمد امسكندر شاه. ومن هنا اخذ الاسلام ينتشر في اندونيسيا. وكانت الصين، واماكن على الطريق، قد اعتادت منذ القرن الثامن على التجار العرب والايرائيين الذين كانوا يتاجرون بين الخليج العربي وما اليه والصين. لكن انشاء دولة ملقا كان باعثاً هاماً على نشر

الاسلام في اندونيسيا. والذي يجب ان يذكر ان الاسلام انتشر في جنوب شرق اسية لأن الحكام المحليين كانوا يعتقدونه طبعاً، لا بقوة السيف. وقد قبل الاندوميون الاسلام واستمعوا بالثقافة الهندية التي كان قد مر عليها نحو الف سنة وهي تتجدد هناك.

دخلت البوذية القرفاذية (السيلانية) الى بورما سنة ١١٩٠، ومنها انتشرت في المنطقة وامتزجت بالثقافات الموجودة. وقد ظلت مناطق واسعة، مع ذلك، في تلك الحضارة الهندية.

في العقود المبكرة من القرن السادس عشر كانت منطقة جوب شرق اسية قد تغيرت اثناً (عرقياً). فالهيريون نقلوا على حوض ايروادي الاسفل، والفيتاميون تغفلوا في شمال فيتنام الى حوالي ١٠٠٠ ثم اتجهوا جنوب ابشاً، الى دلتا نهر ميكونغ. وفي هذه الفترة، وبخاصة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، انتشرت البوذية (القرافادية) بين الفاتحين، كما انتشر الاسلام في بورنا الصينية وفي بعض دلتا ميكونغ وفي الملايو.

ومكثا لما استولى البرتغاليون (١٥١١) على الملاقا كان جنوب شرق اسية قد توزعته اربع ديانات - منها اثنتان حديثتان البوذية والاسلام، على ما ذكرنا. وفي جزيرة بالي كان الدين الهندوكي هو المنتشر. وفي بورنو كان الناس مسلمين على الساحل، لكنهم وثيون في الداخل.

٧٢- شرق اسية ١٢٨١-١٦٤٤

لأول مرة في تاريخها وقعت الصين بأكملها تحت حكم اجنبي (١٢٧٩)، والولاية الوحيدة التي ظلت فيها مبنية صينية هي شمال فيتنام، الا ان هذه كانت قد احتطت لنفسها سبيلا خاصا. فالصين (١٢٧٩) والهند (١٥٦٥) كانتا في وضع متشابه - كل عسرت استقلالها. الا ان احتلال المغول للصين جاء دفعة واحدة (١٢٠٥ - ٧٩) وكان كاملا، اما احتلال المسلمين للهند فقد طال امده حتى تم (١٢٠٢ - ١٥٦٥)

اليابان صدت الهجوم المغولي (برا وبحرا) في ١٢٨١. الا انها عانت فوضى ١٢٨١- ١٦١٤ لم تعرف لها مثيلا في تاريخها. اما احتلال المغول للصين (١٢٧٩) فاعطاها وحدة سياسية استمرت حتى سنة ١٩١١، ولو ان الحكم فيها كان وطنيا من حول سنة ١٣٨٢ إلى حول سنة ١٦٣١ في الواقع. وتوحيد الصين سياسيا تحت الحكم المغولي جعل منها مركز الثقل للامبراطورية المغولية الواسعة. فوبلاي خان (حكم ١٢٦٠- ٩٤) نقل عاصمته من قراقورم إلى بكين (١٢٦٧) واثم القناة الكبرى (١٢٨٩). وعندما أصبح من الممكن ان نحصل حاجة بكين من الارر من الجنوب بطريق نهري.

كانت اسرة الايلخانات في العراق وايران في الغرب الأقرب إلى الصين، وعدا يفسر الاثر الغابت والمستمر للفن الصيني على الفن الايراني المتطور والفقار. في ما قبل المغول ارسلت الصين صناعة الورق إلى الغرب، حتى وصلت المسيحية الغربية. والمصر المحلي بعث بالطباعة والبرود إلى الغرب اللذين قبالا هناك حالاً.

وظل الحكام المغول ورعاياهم الصينيون على شيء من الجفاء. والمغول استخدموا المسلمين والمسيحيين في الاعمال الادلرية، والعلماء الكوثوشيون المعاطلون عن العمل

نمحو الادب الصيني بالتمثيلية والقصة. ولم يكن ثمة مجال لتواصل ثقافي بين الصينيين المعمولي والصيني. ومن ثم فإن حكم المغول للصين كان عابرا. وقامت ثورات ضد المغول بدءاً من أربعينيات القرن الرابع عشر. وكان الاكبر نجاشا تشو يوان - تشانغ (١٣٢٨ - ١٣٩٨) الذي وحد الصين وليس أسرة مينغ (١٣٦٨) وتسمى الامبراطور هونغ - وو. وفي سنة ١٣٨٢ كان قد اخرج المغول من الصين وقضى على جميع منافسيه، واحتفظ بالعاصمة في نانكين، لكن احد عطفه اعادها الى بكين، في الشمال، لانه اراد ان يكون على استعداد لدفع المغول فيما لو عادوا ثانية.

ذلك ان المغول كانوا لا يزالون في السهوب، ومن الممكن ان مهاجموا الصين ثانية. ولذلك قام الامارة منغ بالهجوم على السهوب، لكنهم لم يظفروا بالمغول، حتى كسرهم هؤلاء كسرة شنيعة (١٤٤٩)، لكنها لم تكن بالغة الخطورة بالنسبة الى البلاد جمعاء.

عاد الى الكلاسيكيات الكونفوشية دورها اد انتظر حكام منغ موظفيهم على اساس الامتحانات في هذه الآداب. (يعود هذا النظام اصلا الى القرن الاول ق.م. واعيد اليه له. اراه في القرن السادس الميلادي). والنظام الذي عاد الى الحياة في ايام منغ ظل قائما في البلاد الى ١٩١١، سنة إلغاء الامتحانات العامة. والموظفون الرئيسيون كانوا يختارون على هذا الاساس. اما في الولايات فقد كان الكتاب من غير المتعلمين على غير النظام الكونفوشي، وكانوا يقومون بعملهم مجاناً، يحصلون من اصحاب الاملاك.

والواقع ان لاجتياز الامتحان العام، والحصول على الشهادة الكونفوشية، كان يضع الناجح في منزلة اجتماعية مرموقة، ويجعله ملزماً بأن يقوم بخدمة عامة، بالاجر او بالسجاء.

كانت أسرة منغ اكثر وعياً لساكني الصين الثنائي من الذين سبقوها. في سنة ١٤٠٣ - ٧ رعى الامبراطور يونغ - لو تأليف موسوعة كانت تحتوي (في سبحتها المنقحة) ٢٢٠٨٧٧ كتاباً (في ١١٠٠٩٥ مجلداً) وستين كتاباً هي فهرس المحتويات. وهذه الموسوعة طلب مخطوطة. فعلى الصين لم يكن باستطاعتها ان تطبعها، لا تكنولوجيا ولا مالياً.

ومع ان الموسوعة كانت تعنى بالماضي، فان الفلسفة والادب الصينيين كانا لا يزالان حيين في عصر منغ. ولكن كان ثمة مجال للاختلاف الجزئي الذي كان قد بدأ

في القرن الحادي عشر. كلال وانغ يانغ - منغ (١٤٧٢ - ١٥٢٩) يرى ان عقل الكائن البشري وحصيلته الحقيقية الذهنية متوان. ولكن المدرسة الاخرى، مثل مدرسة وانغ، كانت متأثرة بالبوذية الى درجة ما. والخلاف كان حول قضايا ميتافيزيقية ويمكن القول اجمالاً ان الفلاسفة الصينيين كانوا في جميع فترات التاريخ، يعمون بالاحلاق والعمل اكثر من عنايتهم بالميتافيزيقيات والتأملات - هذا باستثناء الطاويين. وقد كان وانغ آخر فيلسوف صيني كبير الذي تأثرت لرأيه بالبوذية فقط وليس بالفلسفة الغربية. وقد وصل الهرتفاليون الاوائل الى الصين سنة ١٥١٤، اي قبل وفاة وانغ بخمس عشرة سنة.

بين الاجانب الذين استولوا الصين كان المقول ابعد ما يمكن، والمنشو القرب ما يمكن، لاسلوب الحياة الكونفوشي. ومن ثم فالاولون لم يتقبلوا الموظفين الصينيين العلماء، والآخرون تقبلوهم سرور. وقد ضم يونغ - لو (حكم ١٤٠٣ - ٢٤) منشوريا الى الصين.

اخذ المنشو يتقبلون المدينة الصينية منذ اواخر القرن السادس عشر. فقد انقضى دورها شي (١٥٥٩ - ١٦٢٦) صيغة معولية من العباء سريانية لكتابه لده يومه (المنشوية)، وترجمت بعد ذلك الكلاسيكيات الصينية الى المنشوية.

في سنة ١٦٤٤ حاصر لائر صيني اخر لباطرة منغ في العاصمة، فانسحق الامبراطور. وفي السنة نفسها احتل المنشو بكين ثم استولوا على الصين.

ذكرنا ان اليابان مرت بعصر فوضى سياسية عنيفة بين ١٢٨١ و ١٦١٤. (وبخاصة بين ١٣٣٨ و ١٥٧٣). ولكنه كان يرافقها حيوية اقتصادية وفنية كبيرة. ومع ان الحكومة الصينية كانت قد فرغت حدودا ممتدة لحجم التجارة الصينية اليابانية (في القرن الخامس عشر) فان التجار - القرصان اليابانيين نجحوا في ذلك، واعانهم بعض الصينيين. وقد شهدت اليابان، داخلياً، ازدياداً في النشاط الاقتصادي وارتفاعاً في مستوى المعيشة وتقوى دور المشاة في الحروب الأهلية (الامر الذي اضعب احتكار العره من قبل) وقيام انحدادات (طوائف) صناعية وتجارية ونشوء الممد الحرة. (وظهرت ايضا طبقة من المينوفين).

ولم يكن ثمة اعتمام بالزّن (وهي صيغة بوذية ملاحمانية) فحسب، بل ظهرت طقسية الشاي «، وهي عادة اجتماعية للتخفيف من الحدة التي كان المتقاتلون

يبدو أنها ولزدهر رسم الطبيعة على الأسلوب الصيني، والعناية بالحقائق (وهو من ياباني محير). ولحمة استجاز ثقافي اعم هو خلق صنف من التمثيلية اسمه « نو » (حول ١٣٥٠ - ١٤٥٠). وقد اتخذ كل شيء فيها اسلوبا معيناً تاجاً: الالبس والتمثيل والكلام والعلى والفناء والموسيقى، وتصح مقارنته بالتمثيلية اليونانية اليونانية الانكية في القرن الرابع ق.م.)

اخذت احوال اليابان تتحسن قليلا بعد ١٥٤٣، اذ قلت الحروب الاهلية وحل التوحيد السياسي محلها. وفي ١٥٤٦ (او ١٥٤٣) ادخل البرتغاليون الأسلحة النارية الى اليابان، وفي غضون عشرين سنة كان استعمالها قد شاع. كان الرجل الذي انتهت اليه مقاليد الامور هو « ليازو » (١٥٤٣ - ١٦١٦)، الذي حكم فعلا في ظل امبراطور مسري كان يقيم في كيوتو. اما ليازو فقد اتخذ ابدو عاصمة لادارته - وهي طوكيو الحالية.

٧٤- العنيفة في ميزو امركة والانتز ١٤٢٨-١٥١٩

في القرن الخامس عشر، وفي الوقت ذاته تقريباً، انشأ مجتمعا ميزو - اميركة والاندز، كل في محيطه، امبراطورية شملت القسم الاكبر من المنطقة. فلانازاتكة (وهم المكسيكيون) كانوا اول من انشأ امبراطورية في عالم ميزو - اميركة وكان الانكا، على الأرجح، هم ايضا الاوائل.

وقد اعان الأزانكة على بناء امبراطوريتهم وجرد عدد من المدن - الدول المستقلة في منطقة البحيرات في المكسيك، كانت نتيجة، انهيار امبراطورية تولا (القرن الثاني عشر) واستقرار جماعات مختلفة في تلك المنطقة. وكان يربط بين هذه المدن - الدول لغة واحدة هي ناغواتل. وكان الأزانكة يراة حطوا منطقة البحيرات في وقت لم يكن لهم فيها مكان، فاستقروا في جزر في بحيرة توكسيكوكو، وجعلوا من المنطقة جنة زراعية بسبب حاجتهم ومهارتهم. كما انهم مهروا في تخطيط المدن وفي التجارة والحرب. وجمع الأزانكة بين معتقداتهم الدينية وما حصلوا عليه من الجيران واعتقدوا بان « الزمن » هو ثعالب « فترت » طويلة السدى الزماني. واخترعوا كتاباً صورية وفونيمية وكتبوا شعرا لطيفا. لكنهم ظلوا محتفظين بتقديهم الضحايا البشرية. فلما وصل الاسبان الى تلك البلاد واحتلواها لوقتوا هذا الفصل الوحشي. الا ان هؤلاء الاسبان عذبوا اسرى الحرب من الأزانكة والانكا، لما وصلوا الى بلادهم، كي يحصلوا منهم على المعلومات المفيدة لهم للوصول الى الكنوز المخفية.

في سنة ١٢٤٨ استولى الأتاتكة على امبراطورية تيبالك في منطقة البحيرات، وهي الامبراطورية التي عمل الأتاتكة من قبل كمرتزة لانشائها، وكان تلاكال هو معذ الفكرة. وجمع السلطة بيده مكنت الأتاتكة من انشاء امبراطورية كانت تمتد عبر ميزو - اميركا من المحيط الهادي الى المحيط الاطلسي، وضمت ايضا ساحل المحيط

الهادي الى الحد الحالي بين مكسيكو وغواتيمالا وقد بلغت هذه السنة في سنة ١٥١٩، وهي السنة التي وصل فيها كورتيس الى فيلاد. ولكن تلاكال تركه داخل هذه الامبراطورية، للمدينة - الدولة تلاكسكالا مستقلة عمداً ليحصل منها، من الحروب التي كانت تدور وحدها على الحاجة من الاسرى لتقديم الضحايا البشرية للارادة.

وقد حافظت امبراطورية الازتك على وجودها بان اقامت حامية عسكرية بين الشعوب التي استولت على بلادها كما لجأت الى الرعب والخوف بشكل خاص. ففرضت على تلك الشعوب ضرائب باهظة بالعبث. وكان الاولاد والبنات، الذين يقدمون ضحايا للآلهة، جزءاً من الضريبة، كما غرض على الشعب ضريبة من المواد الغذائية والملابس والحجارة والمعادن الثمينة وغيرها من السلع. وكان لشجار الازتك مخبرين للدولة، كما كان مطور الامبراطورية هم جامعو الضرائب.

وبعد ثدشين امبراطورية الازتك بحد عشر سنين لنش الانكا بانشاء امبراطوريتهم في الاندز. وقد امتدت امبراطورية الانكا، حول لواتر القرن الخامس عشر، بحيث شملت اكثر عالم الاندز. ومع انها كانت اوسع من امبراطورية الازتك، فانها كانت اقل سكاناً من هذه. ولم يكن عند الانكا وسائل نقل على القابل، وكل ما كان لديهم هو حيوان اللاما. كما ان الانكا لم يعرفوا الكتابة. وكل ما كان لديهم هو المعروف « بالكويس » وهي خيوط تعقد فيها عقد، والخيوط نفسها كانت لها ألوان مختلفة. والالوان والعقد كانت الأساس الذي استعمل لادارة البلاد وتنظيم مصادر الثروة في هذه الامبراطورية الواسعة التي كانت في حجم الامبراطورية الفارسية الاولى او في حجم الامبراطورية الرومانية.

كان التنقل في انحاء الامبراطورية منتظماً وجيداً. فالطرق كانت تحتفظ الادوية على جسور مصنوعة من حبال مجدولة من نسيج نباتية. وكان على الطرق، وخاصة في المناطق الصحراوية او الشبه صحراوية، بيوت للراحة مشحونة بالمواد الغذائية. وكانت البضائع والرسائل ينقلها رجال مخصصون لذلك. وكان هناك طريقان متوازيان الواحد في الجبال، وكان عملاً هندسياً كبيراً والثاني على الساحل. وكانت طرق عريضة تسير مع الارضية المتحدرة من الجبال الى الساحل.

كانت الطبقة الحاكمة في الانكا تزود عدداً بمنح اعضاء الشعوب الاجنبية وضع الانكا، وبذلك كانت الحكومة تحصل على المدبرين اللازمين لها. وكانت الحكومة

تلقأ إلى نقل السكان من مكان إلى آخر، كي يظلوا تحت سيطرتها. ومن الوسائل التي لجأت إليها الحكومة لضبط الأمور هي أن تنقل ألقمة الشعوب المغلوبة إلى العاصمة، على أن يقوم بالطقوس اللازمة لها كهنة من تلك الشعوب نفسها. كما كانت الحكومة تبني هياكل محلية في بلاد الشعوب المغلوبة لاله - الشمس (اله أنكا).

كانت الضرائب في إمبراطورية الأنكا أخف منها في إمبراطورية الأزتك، لكنهما كانتا تحسبان حساب الأطفال والبالغ في الذي تأخذانه. فكان أولاد النبلاء في البلاد المغلوبة يحملون إلى العاصمة (كوزكو) ليعلموا إلى جانب أولاد نبلاء الأنكا. أما البنات فكان يحملن قهراً كجزء من الضرائب، ليتخذن زوجات للإمبراطور وحاشيته، أو لادعائهن إلى الأديرة. ومع أن هؤلاء الرعايات كن يصفحن أحياناً، فإن الضحايا البشرية لم تكن جماعية عند الأنكا كما كانت عند الأزتك. فهذا كن جميعهم يقدم ضحايا. وأبناء النبلاء من غير الأنكا كانوا يحملون إلى العاصمة ويعلمون فيها، وكانوا يجبرون على الخدمة العسكرية.

كانت لغة الأنكا، كوتشوا هي اللغة المستعملة في هذه الإمبراطورية المتنوعة الشعوب. كما كانت لغة أخرى، هملاء اللغة المستعملة في المنطقة الجنوبية الشرقية من الإمبراطورية.

وقد كانت اللغتان ونقل السكان والطرق الإمبراطورية وسائل فعالة لربط أجزاء الإمبراطورية واندماجها بالآخر. ومع ذلك فإن المحافظة على إمبراطورية بطلب السمة كان أمراً صعباً. ومن ثم فإن حرباً محلية فُتت في البلاد، لما توفي هرنان كابلان (١٥٢٥)، بين الشمال والجنوب، انتصر فيها الشماليون، لأنهم كانوا قد تفرسوا بالحروب أكثر من الجنوبيين. وفي ذلك الوقت وصل بيزارو الأسباني، ونزل على شاطئ المحيط الهادي للمرة الثالثة.

٧٥- اندماج الاويكوميين ١٤٠٥-١٦٥٢

خلال الفترة الممتدة من حوالي ١٤٠٠ الى ١٥٥٠ تبدلت الصورة العقلية لمواطن الانسان على الأرض ومكانته في الكون. فالشعوب التي كانت تتصل بشواطئ الاوليانوس، رأيت ان رقعة الاويكوميين اتسعت فجأة. والنسبة الى قبة صغيرة، كانت تتسع دواما، وهي التي قبلت للرأي الثوري الذي جاء به الفيلسوف الهولندي كوبرنيكوس، فان رقعة الاويكوميين تقلصت فجأة بالنسبة الى مساحة الكون.

منذ ان ظهرت المدنات الاقليمية الاولى، قبل ٤٥٠٠ سنة من ايام كوبرنيكوس كان للرأي المقبول هو ان الأرض هي مركز الكون، وكانت لكل مدينة مكانها المختار ليكون مركز الأرض. ففي نظر شعوب شرق اسيه كانت الصين هي «المملكة المتوسطة» المركزية. وكان الهنود يرون ان وسط الأرض يقع حيث توجد ولايتا اثار بادش وبهار اليوم، وكانت مكة مركز الأرض عند المسلمين كما كانت القدس عند المسيحيين واليهود. وكان للمدنات المتدفقة مراكز كغلك - دلفي بالنسبة الى اليونان، ورأس الدلفا بالنسبة الى مصر الفرعونية ومدينة نيور عند السومريين.

ان المدنات الاقليمية المتجاورة قامت بينها صلات، سلمية او عدائية. والامبراطورية السلولية الواسعة، ولكن العائقة، اقامت احتكاكا مباشرا بين شرق اسيه والمسيحية الغربية مؤثرا عبر الشعوب الاوراسية. وقد دار بحارة بافريقية من الشرق الى الغرب في القرن السابع ق م. وعند منقلب القرن العاشر الى الحادي عشر وصل البورمان الى ساحل غرب غرينلاندا واستوطنوا هناك، دون ان يعرفوا انهم كانوا على حية عالم جديد. ولكن من المؤكد انه لم يعبر المحيط الاطلسي بحار قبل كليمبوس ١٤٩٢ على خطوط العرض الدنيا، في ابي من الاتجاهيين. ولما تدرى فيما اذا كان الانسان قد اجتاز المحيط الهادي بتعمد. وكان فاسكو دي غاما اول بحار حول افريقية من الغرب

(١٤٩٨)، وإن السفينة فكتوريا (وهي التي سلمت من اسطول مجلان) كانت اول سفينة دأبت حول الأرض (١٥١٩ - ٢٢) .

في القرن الثالث ق.م. كان الجغرافي اليوناني - الفيلسوف إراتوستينس قاس محيط الأرض قبلها قريباً جداً من الصواب، وهذا ما أوضحته سفينة فكتوريا لكن تقدير كولمبوس كان خاطئاً، وهذا ما شجعه على المغامرة في المحيط الأطلسي. وكان الفلكي اليوناني أرسطوخوس (القرن الثالث ق.م.) قد ادّعى أن الأرض سيار حول الشمس، وإنما بالاضافة الى أنها تدور حول الشمس مرة في السنة، فإنها تدور حول نفسها مرة كل أربع وعشرين ساعة. لكن علقائه في القرن التالي من اليونان رفضوا رأيه، لكن يقولوا كوبرنيكوس (١٤٧٢ - ١٥٤٣) كان قد عرف الحقيقة (١٥١٢) . اكتشف كوبرنيكوس وسهرة السفينة فكتوريا جعل مسكن الإنسان اكبر واصغر، فالأوكومينات التي كانت من قبل تتركز في بكين وبئارس ومكة والقدس وكوزكو اندمجت في لويكومين واحد.

في سنة ١٤٩٣ قسم البابا اسكندر السادس الأرض (خارج المسيحية الغربية) بين اسبانية والبرتغال بحيث كان الحد القائل خطاً طولياً. وفي السنة التالية انفتحت اسبانية والبرتغال على حد جديد (١٤٩٤)، وأخيراً عقدت معاهدة بين الدولتين (١٥٢٩) كانت في مصلحة البرتغال في المحيط الهادي. المثلث للبرتغال والفلبين لاسبانية.

مع ذلك فإن الأوكومين المنتمج كان، ولا يزال، هو الفضل جزء من المحيط الحيوي. الأرض تابعة للشمس، والشمس كوكب ثابت بعيد عن جلوه اهد من الأرض عن الشمس. وفي هذا الكون المنزع أصبحت الأرض مجرد ذرة من الفلأرا لقد اندمج الأوكومين فجأة. وجاءت معه تطورات مستعجلة. لقد كان ذلك ضربة قاضية بالنسبة الى الأرائكة والأتكا وإلى سكان غرب إفريقيا الذين كانوا في متناول تجار الرقيق الأوروبيين. لقد سر الأرائكة والأتكا أولاً حين تحرروا، لكنهم سرعان ما اكتشفوا أن القضية كانت تبذل سيد بسيد.

وبالنسبة الى المسيحية الغربية كانت السيطرة على المحيط في مصلحة البلاد الواقعة على المحيط الأطلسي وسواحل بحر الشمال، لكنها جذبت ضارة بمصالح سواحل بحر البلطيق والبحر المتوسط. فالاستلاء على كوز لهاطرة الأتكا وسهرها وسكها نفودا كان لها تأثير كبير وأرسلها الى أوروبا لدى التي ارتفاع في الأسعار (تضخم) . وقد تأثرت

بدلك احوال الطليقات المختلفة في جميع دول اوروبو الغربية، باشكال متعددة. وكان البرتغاليون والاسبان اول من تأثر واشد من تضرر. لكن قبل نهاية القرن السادس عشر كان التضخم الجديد قد تجاوز حدود المسيحية الغربية، واتخذ يؤثر في اقتصاد الامبراطورية العثمانية. ومن ثم قلبي من الغرب ان تفرق ذات وتفقر جماعات ويعتد التوازن الاقتصادي الاجتماعي في المسيحية الغربية وغيرها. وليس ثمة عربة في ان يقع المعر على حوادث مؤلمة، كانت ترتكب باسم الدين والدولة، وهما هما بهذا!

بعث الامبراطور الصيني يونغ - لو اول اسطول صيني غربا في سنة ١٤٠٥. وفي سنة ١٤١٧ نقلت سمكة الرنكة مكان بعضها وتفقره من البلطيق الى البحر الشمالي (١٤١٧). وارسل هنري الملاح بعثة البحرية الاولى جنوبا سنة ١٤٢٠. هذه هي البحركات البحرية الرئيسة في مطلع القرن الخامس عشر.

كان أمير البحر عند يونغ - لي تشنغ هو، وهو عصي مسلم من بربان! وقد قام بسبع رحلات بحرية بين ١٤٠٥ و ١٤٣٣. فوصل هرمز وعدن ومقاعلي البحر الاحمر، كما وصلت سفن منفردة من اسطوله الى شرق الفريفة. وقد كانت ابحار السفن الصينية، وبعدها في كل اسطول، والقوة التي كانت تطلقها مجموعة السفن اكبر بكثير من مقابلها من اساطيل البرتغاليين. ففي الحملة الصينية الاولى، التي وصلت الهند (١٤٠٥ - ٧)، كان هناك ٦٢ سفينة تحمل ٢٨٠٠٠ رجل. وكانت السفن مزودة بالبرصلة البحرية (وهي اختراع صيني) وحجر لا تصل اليها المياه. وكانت اكبر سفينة يبلغ طولها نحو ١٢٢ مترا.

طلت السفن الصينية تفرى سفن في العالم الى ان بنى البرتغاليون سفنهم الجديدة في وقت متأخر من القرن الخامس عشر. وقد اوقعت الحرب في غلوب سكان الاساكز التي وصلت اليها. وقد كان باستطاعة الصينيين، لو انهم تأثروا على سيرهم ان يصلوا هرمز قبل البرتغاليين، وان يدوروا حول رأس الرجاء الصالح قبلهم.

كان الامبراطور يونغ - لو يعني بحدود بلاده الشمالية، وقاد بنفسه خمس حملات ضد السهوب الاوراسية. لكن الصين الموحدة يومها كذ لها من مولدها ما يحكمها من السير برا (الى الشمال) وبحرا (الى الشرق الاوسط) في وقت واحد لكن يبدو ان ثراه الصينيين في تلك الازمنة هو الذي حملها على المزوف عن الاستمرار في الحملات البحرية بعد ١٤٣٣. (وقد ذكر احد لاهطرة الصين لرسول يريطاني زار بلاده

سنة ١٧٩٣، بعد أن كانت الثورة الصناعية في بلاده قد قطعت شوطاً لا يستهان به، ان الصين كانت مكتفية ذاتياً من الناحية الاقتصادية). أما الدول الأوروبية فقد دعمها فقرها إلى تشجيع المحاولات البحرية وتأييدها. وكان تجار الصين (في القرن الخامس عشر) على درجة من النشاط والفعالية يعادل معاصريهم من الأوروبيين الغربيين. لكنهم لم يسمح لهم بالتفرد المماثل من الحرية في النشاط التجاري، لأنهم كانوا يخصصون لدولة تقوم على الموظفين الذين كانوا يرون أن العقيلة التجارية هي دون قيمتهم الاجتماعية. فالإمبراطورية الصينية الحديثة (يومها) كان لشعبها مثلاً كان لشعب الإمبراطورية الرومانية الشرقية في العصور الوسطى، ميل واتجاه طبيعي للتجارة، لكنهم كانوا بحاجة إلى دولة لها عطف وتقدير للصقيرة الوطنية.

وقد ثابر البرتغاليون. فقد دار دياز حول رأس الرجاء الصالح (١٤٨٧) وألقى لاسكو دي غاما مراسيه على ساحل الهند الغربي (١٤٩٨)، ووضع البوكيرك المحيط الهندي تحت نفوذ البرتغال لما احتل غوا (١٥١٠) وملقا (١٥١١) وهرمز (١٥١٥). وكانت استراتيجة البوكيرك البحرية شبيهة باستراتيجية المغول البرية في القرن الثالث عشر في مداها الجغرافي. وقد وصلت السفن البرتغالية كتفون (١٥١٤) ووصلت أحداهما اليابان (١٥٤٢). وكان الأخراج الذي وقعت فيه الدول الإسلامية بسبب مواجهة البرتغاليين (بين ١٥٠٣-١٥٥١) في النفوذ في المحيط الهندي كبيراً.

كان نجاح البرتغاليين الكبير نتيجة شجاعتهم وتفنتهم. فقد بنوا (بين حول ١٤٤٠ و ١٤٩٠) سفناً قوية استطاعت أن تسيطر على البحار مدة طويلة. وقد حسن الهولنديون الاختراع البرتغالي في القرن السابع عشر، فأدخلت المدافع في السفن في القرن السادس عشر. وكانت القوة المعركة للسفن هي الرياح. وهي بذلك كانت أكثر على البقاء في البحر مدة أطول، من السفن الميكانيكية التي حلت محلها في القرن التاسع عشر.

وقد ثابر الأسبان أيضاً. فقد ألقى كولمبس مراسيه في العالم الجديد في ١٤٩٢. ووصل بلبار إلى المحيط الهادي (عبر برزخ بنما) سنة ١٥١٣. وانشئت مدينة بنما الإسبانية سنة ١٥١٩. واستولى كورتيز على إمبراطورية الأزتك سنة ١٥١٩. كما قضى بيزارو على إمبراطورية الإنكا ١٥٣٢-٥. وكانت الإمبراطوريتان اللتان قضى

عليهما الاسبان تحكمهما حكومتان حريتان وفيهما شعبان يتقن فيهما الناس بانفسهم. لكنهما كانتا قليلتي الحظ. فقد كان في تبوءة الازتكاة ان حلفا سيق لهم في الوقت الذي هوجمت فيه بلادهم. فكان الامر استسلاما اكر مما كان انكسارا. اما يزارو فقد دخل البلاد بعد حرب اهلية عنيفة

اداد الاسبان من العلاقات القائمة في المناطق التي احتزموا فيها. فقد كان الازتكاة والانكا مكروهين من رعاياهم. كما كان الانكا يختصمون فيما بينهم. فالفائدة في خصومة ونزاع. والعاصمة، كوزكو، كانت تنعم على كثير من المدينة الجديدة لجاسها. وقد استغل الاسبان ذلك بسرعة. فوجد كورتيس نريفا عند الآخر في بلاد الازتكاة، وفعل يزارو الشيء نفسه في بلاد الانكا.

على ان عناصر النجاح عند الاسبان كانت تكمن في استعمالهم وقوتهم وهجيتهم. فالسكان، بعد ان اتفقوا من هول العدمية، قاوموا ببطولة. لكن بطولة المقاومين في العالم الجديد لم تستطع ان تقف امام البارود والفلوذا والخيول التي لم تكن معروفة لديهم. (مع العلم بان الحصان كان قد تطور في اميركا الشمالية قبل وصول البسر من شمال شرق اسية). وانشأ الاسبان مدنا مستقلة انظريا في نقاط استراتيجية وزودوها بالمحاربين القدماء واعوانهم. وكان الانفعال على الخيل فيه من السرعة ما يحجز عنه الآخرون.

كان الروس، قبل نهاية القرن السادس عشر، يقومون في شمال اسية بشئ ما قام به الاسبان في الاميركتين. لقد فشل المشايون (١٥٦٨ - ٩) في احتلال استراخان، وحفر قناة بين نهري الدون والفلوفا. ولم ينجحوا في اختراق الحاجز الروسي الذي كان يفصلهم عن المسلمين في ما وراء النهر. وقد نفوى هذا الحاجز على يد القوزاق، الذين قامت جماعة منهم (١٥٧١) بالاستقرار حول نهر الدون، كما تركزت مجسدة اخرى، حوالي الوقت ذاته، على نهر لورال. وكان القوزاق من اتباع الكنيسة الارثوذكسية الشرقية.

في سنة ١٥٨١ اجتاز مغامر قوزاقي روسي جبال الاورال شرقا وغربا، لانه كان يملك الاسلحة النارية (مثل الاسبان)، على دولة يبير. وتمكن خلفاء هذا المعامر في ١٦٢٧ (او ١٦٢٨) من الوصول الى لونغتشك، على شاطئ المحيط الهادي الشمالي الغربي، متجنين المغول المقيمين حول بحيرة بيكبال، وغلب الروس عليهم

وانشأوا مدينة لوكسك (١٦٥١). وكان الروس، حول الوقت نفسه، قد هاجموا حوض نهر أمور (١٦٤٣) ووصلوا إلى منشوريا. وكان المنشو يملكون الأسلحة الثائرة، مردوهم على اعتاقهم غربا (١٦٥٨). وقد وقعت معاهدة (١٦٨٩) حددت فيها منطقة الروس هناك. وفي هذه الفترة كان المغول الشرقيون قد اهدوا بالسوية الساحلية (حول ١٥٧٦ - ٧). ثم تبعهم المغول الغربيون. وكان هؤلاء يقتعدون المنطقة بين جبال التاي وتيان شان.

قبل نهاية القرن السابع عشر اختلط الأسبان والبرتغاليون. ففي سنة ١٥٧٨ أصابت البرتغاليين نكبة عسكرية في المغرب (معركة وادي المخازن أو الملوك الثلاثة). وفي ١٥٨٠ التحدت إسبانية مع البرتغال تحت حكم فيليب الثاني (١٥٢٧ - ٩٨). وفي سنة ١٥٨٨ انكسر فيليب في معركة الأرمادا، في محاولته احتلال إنكلترا. وبعد ذلك هجرت قوى البلدين (إسبانية والبرتغال) عن حماية الإمبراطوريتين البحريتين (الإسبانية والبرتغالية) من تدخل قوى شمال غرب أوروبا الفنية - هولندا وفرنسا وإنكلترا.

وقد قام قرصنة هذه الشعوب باحتلال بعض الجزر في البحر الكاريبي. كما أن الانكليز استقروا في فرجينيا (١٦١٠). والفرنسيون نزلوا في أكاديا وانشأوا كوكبك (١٦٠٨). وأسس الهولنديون نيو امستردام (نيويورك الحالية). إن إسبانية خسرت، نسبيا قليلا من املاكها في الأمريكتين. وكانت عسكرة البرتغاليين في إمبراطوريتهم أكبر من عسكرة الأسبان. فقد انتزع منهم الهولنديون ملقا (١٦٤١) وسيلان الساحلية (١٦٥٨). وبين ١٦٠٩ و ١٦٢٣ تغلب الهولنديون على الانكليز في المسابقة لانتراع اندونيسيا من البرتغاليين.

وكان شر ما أصعب به البرتغاليون لمراجهم من أسية وأفريقية على أيدي الدول الأسبانية والأفريقية. فالشاه عباس الصفوي (حكم ١٥٨٨ - ١٦٢٩) انتزع هرمز (١٦٢٢) وفي ١٦٣٢ انزعج الأحباش (الأثيوبيون) البرتغاليين ومعهم اليسوعيين (من جميع الجنسيات الأوروبية) بدون مساعدة أجنبية. وفي الوقت ذاته تقريبا فعل اليابانيون الشيء نفسه. فقد أمر هيدوشي باخراج جميع الميسرين المسيحيين من البلاد (١٥٨٧). وفي سنة ١٦١٤ منعت مملكة المسيحية في البلاد. واصطهد المسيحيون بضراوة في اليابان (١٦٢٢ - ٢٨) فقامت ثورة مسيحية يابانية (١٦٣٧ - ٨) قضت عليها (بمساعدة الهولنديين). وتلا ذلك انزعاج جميع التجار

البرتغاليين من اليابان. وكان قد صدر امر قبل ذلك (١٦٣٦) بمنع اليابانيين من السفر الى الخارج. والتجار الهولنديون الذين سمح لهم بالدخول الى اليابان (١٦٠٣) سمح لهم بالبقاء. لكنهم حصروا في جزيرة في ميناء ناغازاكي.

وقد كان موقف الانبيوسين واليابانيين من البرتغاليين واحدا تفرقة. فالبرتغاليون، الذين كانوا كاثوليكاً متعصبين في انتمائهم للكنيسة، كانوا معنيين بنشر المسيحية الى جانب اهتمامهم بالكسب من التجارة. وقد ثارت ثائرة الانبيوسين على البرتغاليين بسبب محاولة هؤلاء فرض الكنيسة والبابوية عليهم. اما في اليابان فقد عشي هيدويشي وخلفاؤه ان يستغل (الاجانب) اليابانيين الذين اعتنقوا المسيحية لمصلحتهم. وكان سبب هذا الخوف احتلال اسبانية للفلبين (١٥٧١) ونوحيد الناجين الاسباني والبرتغالي (١٥٨٠). وهكذا تجنب اليابانيون والانبيوسيون لخطر المحتمل بالتصرف المسبق على ما مر بنا. وبذلك عزل الشيطان نفسيهما عن بقية الاوبكومن.

اما الهولنديون والانكليز البروتستانت، وحتى الفرنسيون الكاثوليك، نجحوا القيام باعمال تبشيرية. ولو ان الفرنسيين كانوا يرغبون في استغلال المزارعين كاموان ساموين.

ومعنى هذا انه كان ثمة خلاف في الصيغ التي صدرت بها المدينة الغربية في موجات متلاحقة من الغربيين - تجاراً وبناء امبراطوريات. فالموجة الاسبانية - البرتغالية الاولى جربت ان تصدر المدينة الغربية بكاملها، بما في ذلك الدين، وهو، في اية مدينة، مفتاح تلك المدينة بكاملها. وقد قاومت هذه المحولة جميع الشعوب غير الأوروبية، حيث وجدت القوة للاستعصامة. ومن ثم فان الموجة الثانية، الهولندية - الفرنسية - الانكليزية، صدرت صيغة مهينة من المدينة الغربية، والتجار الامراء والسلطات العامة عند الهولنديين والانكليز لزوت بالنشاط التبشيري. ولكن العصر الاول من هذه المدينة الأوروبية المعقدة الذي انتشر في الاوبكومن في القرن السابع عشر لم يكن الدين؛ لقد كان التكنولوجيا، وبشكل خاص تكنولوجيا الحرب.

ظلت بقية من المسيحية الكاثوليكية الرومانية تقيم سرّاً في بعض الجزر اليابانية، الى سنة ١٨٧٣، حين ألغى القانون الذي كان يعاقب بالموت هؤلاء المسيحيين المنعزلين. في ذلك الوقت كانت الكنيسة قد امتزجت بمعتقدات وممارسات يابانية شعبية، وكذلك

حدث في الممتلكات الأسبانية فيما وراء البحار حيث كان الشعب المنهزم قد فرس عليه قبول الدين الجديد، لذلك فانه قبله اسماً.

وبناء الامبراطوريات من جميع لجنسيات الاوروبية (الغربية) استملوا اولئك الذين وقعوا تحت ايدىهم، اولتهم قضوا عليهم والقاتلون الاسبان، جازهم ماسرهم في طمعهم وتسونهم، وان لم يتخلو عليهم. الا ان الاسبان واجهوا مشكلة جديدة لأن المفلوبين على امرهم في المناطق الاسبانية وجدوا منذ سنة ١٥١٤، في الراهب الدومبيكاني باترولوسيو، مدافعاً عنهم ضد الظلم. وقد نجح في حمل الحكومة الاسبانية على سن قانون يمنع التصرفات الباغية السوء، وقد قاوم الفاتحون تطبيق هذا القانون اسبانيا بقوة السلاح. والاسبان والبرتغاليون عتفوا من حدة الامور لانهم تزوجوا من نساء البلاد المفتوحة. وقد ادى هذا الى نوع من المزج الاجتماعي، يتجلى في زي علماء غوادلوب، التي هي رمز العبادة الأسبانية هناك.

بدأ البرتغاليون يسترقون سود افريقية لما وصلوا الى ساحل افريقية جنوب الصحراء، وسار جميع بناء الامبراطوريات الاوروبية (الغربيون) على مثالهم. ولما استولى الاوروبيون على بلاد فيما وراء البحار، نقلوا الرقيق الافريقي اليها، الذي كان يلقى عليه القبض في افريقية، ليستعمل في السخرة. وقد كانت الوفيات بين هؤلاء كبيرة، وأرباح تجار الرقيق كانت تناسب مع ذلك. والافارقة السود كانت حيوتهم كبيرة بحيث انهم خلفوا ذرية كبيرة في الامريكيتين هي التي تشارك البيض في انتاج العالم الجديد.

والمجبال الحيوي لم يكن ثقتهم باندماج الايوبيين مقصوداً على الانسان، هجرة وتزواجاً. فقد كانت ثمة خيرات من الحيوان والنبات نقلت من نصف الكرة الواحد الى النصف الآخر. وكان هناك انتشار البكتيريا والفيروس. فجراثيم الجدري نقلت غرباً الى الامريكيتين. وبالعكس من ذلك انتقل الفلس الى اوروبا بعد وصول كولومبوس بثلاث سنوات - فقد عرفت اول حالاته في لوروة سنة ١٤٩٥. وكان لارتفاع الاسعار المحيف الذي عرفته اوروبا الغربية بدءاً من سنة ١٥١٩، كان سببه نقل المعادن الثمينة التي نهبها الاسبان من الازتانة والانكا، والذي استخرجه الاسبان من المناجم مستخدمين العامل الاميركي سخرة. وهكذا قال زولوا ثلاثة - الجدري والفلس والتضخم المالي - من نتيجة اندماج الايوبيين، كانت لها امبراطورية لا تغيب عنها الشمس.

٧٦- المندنية الغربية ١٥٦٣-١٧٦٣

ان المندنية الغربية مرت بها، بين ١٥٦٣ و ١٧٦٣، ثورة عقلية وروحية اكبر من اي ثورة مر بها هذا المجتمع منذ ان ظهر بين انتفاض الاسباطورية الرومانية. ان المفكرين الغربيين الآن (اي في الفترة المذكورة) ابوا ان يتقبلوا ارث الاجنداء على انه امر مؤثوق به، لقد قرروا انهم، من الآن وصاعدا، سيضعون عقائدهم الصورثة على المحك، وذلك عن طريق فحص الظاهرة فحسا مستقلا، وانهم سيتبعون تفكيرهم الخاص. كما انهم تواضعوا على الميث بسلام مع الاقلية اصحاب البدع. ولم يعودوا يشعرون بانهم ملزمون او مرحون منهم ان يرضوا عقيدة الاكثرية او طقوسها بالقوة، ولم تكن اية من هاتين الثورتين آتيتين. فقد كان في كل منهما وقفات ونكسات. في سنة ١٦٨٦ نشر فوننتل كتابه ٥ ناملات في مندنية المراسم ٥، وهو فكرة كملت دفع جوردانو برونو حيلته ثمنها سنة ١٦٠٠. ومع ذلك فقد عاش فوننتل مئة عام، ومات في فراشه (١٧٥٧). وقد نشر نيوتن (١٦٤٢- ١٧٢٧) كتابه الاصول دون ان ترغمه السلطات الدينية على التراجع، على نحو ما فعلت بتاليلير (١٦٣٣). ومع ذلك فان مرسوم نانت الذي سحح للاقلية البروتستانتية بان يتساهل بشأنها، العام لويس الرابع عشر ١٦٨٥.

ان استرقاق الغربيين للسلطة، كلنا ما كان نوعها، تميم عهدا (وهي التي تحرروا منها الآن). ان جميع الديانات غير المسيحية قضت عليها حكومة الرومان الاسباطورية بالقرعة قبل نهاية القرون الخامس. وقد اوعم لاهوتيو وفلاسفة المسيحية الحرية على قبول مقولات ارسطو منذ القرن الثالث عشر. كما فرض اسلوب الكتاب اللاتين من عصر شبرون وعصر اغسطوس على الكتاب اللاتين المحذيين منذ القرن الخامس عشر ان البروتستانت، في ثورتهم ضد الحكومة الباباوية، فرضوا سلطان الكتاب المقدس

بدل سلطة البابوية. وقد كان الامراء البيوتانت متحيزين بشأن الامراء الكاثوليك، في عرضهم الصيغة التي اختاروها من المسيحية الغربية على اتباعهم. والانقسام الذي حدث في صميم المسيحية الغربية حمل الفريقين المتنازعين على تصرف أكثر تعصباً مما كان. «أما الحال في زمن اسلافهم الكاثوليك المتدينين».

كان نضله الكتاب الكلاسيكيين اقرب الى البحث من تحكم ارسطو في المفكرين المسيحيين الغربيين. ومن الجهة الثانية فإن طبع الاعمال الرياضية والعلمية اليونانية في الغرب، اثار التفكير المستقل. ذلك بان هذه التفسيرات القديمة للظواهر الطبيعية قد رفضت، فيما بعد، بسبب الاختراعات التكنولوجية والاستكشافات الجغرافية. وفي هذه الحالة كان «احياء» المعارف «القديمة» السبل الى منطلقات جديدة.

وقد تمثل تحرير الغرب لنفسه من الطغيان الفكري لاسلافه اليونانيين - الرومانيين في عمل فونتل الذي تناول فيه القدماء والمحدثين (١٦٨٨) وعمل وليام وويلن تأملات في العلم القديم والحديث (١٦٩٤)، لكن المحطة كان قد بدأها جان بودان (١٥٣٠ - ٩٦) وكان قد تابعها فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) وروبنه ديكرات (١٥٩٦ - ١٦٥٠)، بل ان بريج المسندون مكرتهم الفاصلة. ومع ذلك فقد كان على هؤلاء الفائزين ان يعترفوا بان شعراء بلاط لويس الرابع عشر لم يكونوا شعراء افضل من هوميرس، ولم يوافقوا على (ومن ثم لم يشيروا) بالدعوى المسيحية بان المدنية المسيحية كانت خيراً من المدنية السابقة للمسيحية. والمجالات التي تفوق فيها حياة المنجزات الغربية الجديدة كانت في العلم الطبيعي والتكنولوجيا والفلسفة.

ان الحروب الدينية الغربية (١٥٣٤ - ١٦٤٨ مع وقفات) اثرت على منزلة المسيحية. فقد كانت حروباً فيها تعصب وفيها دعوى كلابية. كانت اهداف الامراء المتقاتلين سياسية، ولكن لفرده قناع ديني كان مناسباً لهم، والعداء بين السنتاليس زادتها عنفاً حامية ورجال الدين التي كانت اصيلة، ولو انها سلمة. انشئت الجمعية الملكية (لتقدم العلوم) في انكلترا سنة ١٦٦٠ وأسسها فئة من المهتمين بالعلوم الطبيعية، الذين لم يكونوا مهتمون بهدم المسيحية، بل بتأجيلها عالياً. وكانت سياسة المؤسسين تحويل افكار معاصريهم وشعورهم من المباحكات اللاهوتية التي لم تكن مجدية كما انها لم تؤد الى قول فصل، ولقت انتباههم الى القضايا المتعلقة بالظواهر

الطبيعية التي كان من الممكن ان تبحث بأثرة دين عاطفة، ومن المحتمل ان توجد لهذه القضايا اجوبة صحيحة عن طريق الملاحظة او التجربة.

وسجد، في الوقت ذاته، نقادا وحكاما آخرين للحروب القديمة، الذين جربوا ان يصنعوا سلطة المسيحية في قلوب الغربيين. وقد كان هؤلاء يعملون في الخفاء، لان اللعبة كانت لا تزال خطيرة. فقد ضمن فوتتلي كلمات للذكرى عن الموتى، لم تكن قط متفقة مع المسيحية. لما نشر تاريخ المواسي (١٦٨٨) كان اكثر جرأة. وفي سنة ١٦٩٥ - ٧ نشر بيل (١٦٤٧ - ١٧٠٦) وهو بروتستانتي عرسي كاث لايتا في شمال هولاندا، القاموس التاريخي والنقدي (شكل سابق لموسوعة ديدرو الفرنسي التي نشرت في فرنسة ١٧٥١ - ٦٥). المتن فيه مريح، لكن هوامشه وملاحظاته هي، في بعض الاحيان، تحريية.

وادوارد غيبون المؤرخ نشر كتابه انحطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها (١٧٧٦ - ٨٨). وقد هوا اعتناق الامبراطورية الرومانية للمسيحية الى عوامل مهمة من الاعاجيب. فلم يسلم من النقد اللاذع. كانت انكلترا واثلة في قبول التسامح الديني، ولكنها كانت تسير ببطء نحو قبول ما هو مخالف للمسيحية من عقيدة او شعور. ولما بدأ جون وزلي عمله (١٧٣٩) كان غيبون (١٧٣٧ - ٧٨) لا يزال طفلا. وقد كان معاصرو غيبون من الفرنسيين، مثل فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) والموسوعيين اكثر صراحة مع شيء من السلطة. ومع ذلك فان فولتير رأى من المناسب ان يسكن في الجهة السويسرية من الحدود الفرنسية - السويسرية.

في القرن السابع عشر، نجد ان باسكال (١٦٢٣ - ٦٢) الفرنسي يجمع بين العقيدة العلمية والايهان بالمسيحية، كما نجد ان الاسقف بوسو (١٦٢٧ - ١٧٠٤) وضع تاريخا للعالم وقد كبه كما كتب لوزيوس (حوالي ١٦٤ - ٢٤٠) التاريخ. انه عمل له واحد قادر على كل شيء، ورد عليه فولتير بان وضع تاريخا ثقافيا واجتماعيا للعالم أعطى فيه المكان الاول للمسيحيين الذين قد عرفت مدنيته في الغرب عن طريق المبشرين اليسوعيين.

ومعالم تاريخ التسامح الديني في الغرب يدخل في عناده رسالة في التسامح لجون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ومقاله في الحكومة المدنية (١٦٩٠). اما في الخطوات العملية فهناك اعمال ليوبولد الاول ملك هتغاريا من آل - هابسبورغ، وهو كاثوليكي.

وفي سنة ١٦٩٠ منح جميع المسيحيين الحرية الدينية، وفي ١٦٩٠-٩٥ رجب بجساعة حرية مسيحية أرثوذكسية شرقية لجأت إلى بلاده.

ومع ذلك فإن للتسامح الديني، مثل الاستقلال الفكري، تطور بطيئاً في العرب. وفي العصر مثلاً مجمع الميشرنوس السومريون لأنهم لم يملأوا في أن يحتفظ المسيحيون بطقوس احترام الموتى، باعتباره أن هذا أمر مدني لا ديني. لكن السلطات الكاثوليكية اعترضت على هذا، وعلى ترجمة لكلمة الله، فنشأ عن ذلك خلاف مع الحكومة الصينية انتهى (١٧٢٣) بحظر المسيحية في الصين بالحرية.

وقد شهد القرن السابع عشر في أوروبا نهاية العقيدة التشاؤمية بأن ظهور مذنب هو حدث عجائبي يقصد به الله أن ينشر البشرية بأنها مقبلة على غطاب جسيم. مذنب ١٦٨٠ أزعج الناس. ولما ظهر مذنب (١٦٨٢) قال الفلكي هالي بأنه شبه بالمذنبات التي ظهرت في ١٤٥٦ و ١٥٣٦ و ١٦٠٧ وقاس فلكه وسرعته ومواعيد ظهوره (وكان قد فعل الشيء نفسه لمذنب ١٦٨٠) وكان ثمة إيمان بالسحر والشعوذة في أوروبا. وقد قتل آلاف من الناس الأبرياء بتهمة الشعوذة والسحر. وكان آخر مقتل لساحرة سنة ١٧٦٢

وقد كان رفض السلطة العليا والتعصب (الديني) والطيرة نصراً عقلياً وروحياً. لكن ظل هناك فجوات في البنية الثقافية والاجتماعية للمجتمع الغربي. وهذه الفجوات سدت تدريجاً في أوقات مختلفة وبأساليب مختلفة.

فالسجل الديني الذي قد أثار المذنب (مثل مذبحه سان برنولمو في باريس ١٥٧٢) استمضى عنه بالانتماء بالرياضيات والعلوم الطبيعية، على أمل أن يزيد هذا في إفادة العالم إحساناً. (هذه الفكرة المبكرة دعا إليها ليوناردو دافنشي، ورعاها فرسيس بيكون، وهي التي أنشأ تلاميذ بيكون الجمعية الملكية على اسمها). وتوالى ظهور العلماء الذين اتجهوا نحو نفع البشرية مثل هارفي الأنكليزي في الطب، وبويل الذي يعتبر مؤسساً لعلم الكيمياء، ونيوتن الذي طور الفيزياء والفلك ثورياً، واينوس الذي نظم فصائل النبات وعائلات الحيوان، وبافون الذي وجد أن الطبيعة وصلت إلى ما وصلت إليه عبر عملية طويلة الأمد. (وقد عاش هؤلاء بين ١٥٧٨ و ١٧٨٨).

ورفض أرسطو، فلسفياً، لم يحل محله قبول لواء افلاطون. ففكرو أوروبا في القرن السابع عشر وألوا أن يمسحوا اللوح ويملأوا من جديد. وديكارت، الذي وضع مسجده

(١٦٣٧)، ظل معلمة في الحياة الفلسفية لمدة طويلة. ولوك نظر إلى المسئلة العلمية نظرة تجريبية. وجرب سبينوزا (١٦٣٢ - ٧٧) وليبيتر (١٦٤٦ - ١٧١٦) ان يقيما اسبا جديدة للنيكيتائيزيقيا. وهويو (١٥٨٨ - ١٦٧٩) احمد نظريته في العقد الاجتماعي اسبا سيكولوجية. وفيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤) شق طريقاً جديدة في البحث التاريخي، وكان عمله جديداً الى حد ان معاصره لم يفهموه. ومع ان الابعاء جاء الي فيكو من الحضارة الهلينية، فقد كان هو يجمع بين حضارتين، اليونانية والمسيحية. وكان عمله الخطوة الاولى في الغرب لدراسة مقارنة للمذاهب.

كانت المسيحية الغربية في العصور الوسطى يرمط اجزاءها الواحد بالآخر باهوية ترأس على الجمهورية المسيحية، ولغة لأكينة كانت لغة للدبلوماسية والعلم وحتى للشعر (الى جانب الشعر المكتوب باللغات المحلية). وقد بدأ لولامس بالاستعاضة عن الجمهورية المسيحية الدينية بجمهورية الادب والعلم، وزودها ميل بدورية (١٦٨٤). وبسبب تنظيم خدمات البريد سهل لتواصل بين اهل العلم واهل القلم، والمراسلات الخاصة ادت الى انشاء الصحف. ولوا، مشرة دورية مطبوعة ظهرت في اوروبا سنة ١٦٠٩، واول صحيفة يومية بدأت بالظهور سنة ١٧٠٢. وقد كان معظم الجامعات، في القرن السابع عشر، قد توقفت حيوتها ونشاطاتها التي عرفتھا القرون الوسطى باستثناء جامعة بادوا والجامعات الاسكتلاندية. والفراغ الذي نشأ عن ذلك سدته الاكاديميات التي انشأتها، او على الأقل اعاتتها، حكومات الدول المحلية. وساعدت صالونات الادب الفرنسية في القرن الثامن عشر على سد الفراغ ايضا.

والاسر المالكة واسر النبلاء ولرباطاتها عرفت عن الجمهورية المسيحية الباهوية. فقد ارتبطت هذه الاسر التي كانت في اعلى سلم الطبقات الاجتماعية بمصاهرات كثيراً ما تخطت الامور الدينية. وقد كان تغيير المنصب، من أجل المصلحة العامة، امرا مقبولا. ونشابت الاسر المالكة واسر النبلاء في هذه المصاهرات بشكل عجيب، الا انه كان احيانا نافعا.

كانت اللغات المحكية قد اوجدت لنفسها مكانا في الحاج الادبي والشعري خاصة، من القرن الثاني عشر، وذلك الى جانب اللغة اللاتينية. فلما بلغت اللغات المحكية النضرة في نجاحها، تغيرت عقریات ادبية كثيرة في الشر (مثل رابليه ١٤٩٤ - ١٥٥٣) رمي الشعر (مثل شكسبير ١٥٦٤ - ١٦١٦). وهكذا فن عصر الحروب الدينية في

الغرب كان أيضا عصر الشعر المظلم. وقد تخلى الناس عن السيطرة والاضطهاد فكان ثمن ذلك التهبوط من الشعر في النثر - من حيث أنه اصناف جديدة تعبر عن نفسها باللغة المحكية.

إن الشعراء الغربيين في شمالي الألب في القرن السادس عشر كانوا واقفين تحت سحر النماذج الكلاسيكية، اليونانية والرومانية. فبين الفرنسيين عندنا دو بلاي ورونتار ويحاصرونهم من الإنكليز ويقات وهورد، ويسير في كتابهم لفييف من شعراء عصر اليصابات وخلفائهم حتى إعادة الملكية في إنكلترا وسكوتلاندا (١٦٦٠)،

وقد بهت نور عدد كبير من الشعراء والكتاب بسبب النور الساطع الذي انبثق من شكسبير وملتون (١٦٠٨ - ٧٤). وبعد انهيار فجر التنوير، ضعف أسلوب الشعراء الغربيين، مثل كوني ومولير وباسين، وتأثروا بالنماذج الشربة التي اصطنعها باسكال.

وانظر الفرنسي الذي طوّر خلال القرن السابع عشر كان بسيطا رائقا دقيقا، وكان انسب من أي أسلوب كلاسيكي، يوناني أم لاتيني، للغات الهندية الأوروبية. فخلص من أمور كثيرة لغوية نحوية وما إلى ذلك، كما تخلص من أشباه الجمل المتداخلة في الجملة الأصلية. فالكتاب كان حرا، والفارسي كان يستطيع أن يتابع المنطق عند الكاتب. وهذه الثورة الأسلوبية في اللغة الفرنسية لمنعت الكتاب الإنكليز على حين غرة، وكان التعديل حادا وشعوريا، وبطل دويدن هذه الحالة.

صعدت فرنسة ثقافيا في المعالم الغربي بسبب تصدير أسلوبها الأدبي وأرسالها اليروتسنتات الفرنسيين - إلا في الموسيقى. فقد انتزعت الحانية القيادة في هذا من إيطاليا. واسرة باخ، انفي برزت بعد حرب الثلاثين سنة، ادمعت الامراء الذين كانوا يرهونها. وقد كان يوهان باخ (١٦٨٥ - ١٧٥٠) وهاندل (١٦٨٥ - ١٧٥٩) أبرز الألمان في عصرهم. وبني فريدريك الكبير (حكم ١٧٤٠ - ٨٦) داراً للافرا في برلين.

بمس ١٤٩٤ و ١٦٤٨ مرت على أوروبا الغربية حروب مريرة، بدءا بالقتال بين فرنسة ودولة هابسبورغ، وهما دولتان كاثوليكيان، ثم تلها حروب أهلية عليها طابع ديني. ودلرت رحلتها على الفرواني في الساقية وفرنسة وهولاندا وإنكلترا.

وقد أدى قيام هذه الحروب إلى تدخل اجنبي، كان اقله في الحروب الاسكليزية، واكبره في حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ - ٤٨)، إذ اشترك في هذه الحروب الحانية

ومرسية والسويد. وقد كانت قيادة دقة السفينة السياسية الفرنسية بيد اثنين من الكرادلة - وقشليو (١٥٨٥ - ١٦٤٢) ومازلوان (١٦٠٤ - ١٦٠) وكان خلفاً مباشراً للاول.

وفي حساب حرب الثلاثين سنة كانت فرنسا الرابع الاول، وجاءت بعدها دولة هابسبورغ. وقد اجتهدت السويد في حرب فوق امكانها ومعدة عن قاعدتها. واسبانية انهارت. مع انها اتحدت مع البرتغال سنة ١٥٨٨، فان ذلك جاء واسبانية قد اصابت الجهد والضعف. وهولندا اقلات في تقوية مركزها المستقل.

ومع ان اسبانية خسرت قوتها البحرية، فقد ظلت امبراطوريتها على حالها، وجدير بالذكر ان الدول الأوروبية اخذت تقاتل بعض معاركها الآن خارج أوروبا. ففرنسة وانكلترا وهولاندا، فضلا عن اسبانية والبرتغال، كانت لها مستلكات ومصالح تجارية تقتضي الاستيلاء على نقاط استراتيجية والحفاظ على قدر معقول من القوة البحرية. وفي هذه الحروب قضا وواء البحار خسرت فرنسا (بين ١٧٤٠ و ١٧٦٣) في حربها مع بريطانيا السيطرة على اميركا الشمالية والهند. ولكن فرنسا ظلت دولة عظمى حتى بعد ذلك بقرن من الزمان.

ومن الطريف ان انتقال الغرب (في اواسط القرن السابع عشر) من حروب دينية الى حروب القصد منها الحصول على سلطة سلبية ومنازع اقتصادية، رافقه تقليل من وحشية الحروب. ان الحروب اصبحت الآن عنيفة معقولة بين دول تستعمل جهودا منتظمة ومنظمة. والنهب والسلب لم يعودا اصول القتال، والسكان اصبحوا يشرحون بانهم بحاجة الى التأمين على انفسهم، وبخاصة السكان الذين كانوا قد اجلوا عن بلادهم.

لم تراع الحكومات الغربية هذه القاعدة الانسانية يوما. فالحرب اصلا عمل صهي، والحل الوحيد الفاعلها. ففي سنة ١٦٧٤ و ١٦٨٨ اعلنت فرنسا لائحة الراس قاعا صنفنا، عاصمة متعمدة والمدنية التي كانت تفتح عنوة بعد ان ترفض حاجتها الدعوة الى التسليم، تعتبر وسكانها موضوعا للنهب وهتك الحرمات. وعلى كل حال الحرب خفضت الى ادنى درجات البربرية في الغرب، بين ١٦٨٨ و ١٧٩٢.

٧٧- المسيحية الأرثوذكسية الشرقية ١٥٥٦-١٧٦٨

منذ أواخر القرن العاشر، لما احتضت روسيا المسيحية الأرثوذكسية الشرقية، أصبحت المسيحية الأرثوذكسية الشرقية تتكون من كتلتين - الكتلة القديمة في جنوب شرق أوروبا وآسية الصغرى والقفقاس، والكتلة الروسية المعزولة عن القديمة، لكن الكتلة الجديدة - روسيا - كانت ترتبط بالأولى دينياً وكانت تعقل المدنية الهزلية، يونانها وبلغارياً. وروسيا كانت مستقلة، وكانت تتوسع باستمرار، دون أن يحول دونها عائق لا من العثمانيين ولا من غيرهم.

أما الجزء الجنوبي (الأصلي) من المسيحية الأرثوذكسية الشرقية فقد كان تابعاً أما للعثمانيين أو للمسيحيين الغربيين. وكانت الامبراطورية العثمانية تتوسع على حساب امبراطوريات الغرب المسيحية القائمة في المشرق. فقد احتلت جزر الأرشipel (١٥٦٦ و ١٦٤٥-٦٩). ومع أن جبهة صغيرة من اليونان العثمانيين سمح لها بحكم ذاتي، لأن الباليين كانوا رعايا.

ومع أن روسيا كانت تنزع شرقاً عبر الأرض الواقعة خلف السهوب، فقد كانت معرضة لهجمات بدوية عبر الطرف الغربي من السهوب. وكانت دولة التتار في القرم موجودة وهؤلاء احرقوا موسكو (١٦٧١). ولما لمه السكوب كانت محصورة داخلية. فالساحل الوحيد لها هو شاطئ بحر قزوين، وهو بحر داخلي. وحتى التدخل اليه لم يكن دوماً متيسراً بسبب أن العثمانيين كانوا يملكون حصن ازوف. وفي سنة ١٦١٨ كانت الأمور بين روسيا وبلغاريا كما يلي: خسرت روسيا (أيام ايمان الرهيب ١٥٥٨-٨٣) ساحل البلقان، وكانت لتوانيا، بولندا، قد اقترنت حدودها من موسكو. بين ٩٨٩ و ١٥٨٩ كانت روسيا المسيحية الأرثوذكسية تابعة لبطريرك القسطنطينية وهي اكبر جزء من بطريركية ولواته منذ سنة ١٤٥٣ كان قد أصبح من رعايا الدولة

العثمانية. وفي سنة ١٥٨٩ جعلت اسقفية موسكو دنيا من درجة بطريركية مستقلة عندما اوعمت دولة بولندا - لثوانيا الأرثوذكس الحقيقيين فيها بالاتحاد مع البابوية، وقد تم لها ما لم يحدث بالنسبة للأكثوية.

حافظت الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية على علاقتها للغرب، حتى البروتستانت الغربيون رفضت التقرب منهم، مع أنهم كانوا لا يقبلون سلطة البابا. وبطريركية القسطنطينية لم تتعاون مع البروتستانت البولنديين، وقد استمر هذا إلى القرن الثامن عشر. فمورفارس (١٧١٦ - ١٨٠٦) وهو مرب يوناني، اضطره السلطة اليونانية الكنسية لانه تعلم في المانية، ولانه كان عارفا بالفلسفة الغربية.

ظلت البطريركية متنفذا لليونان العثمانيين بعد زوال الامبراطورية الرومانية الشرقية. وكان ادخال المنصر الغربي في روسيا بالفت على يد بطرس الأكبر مظهر صداقة نحو الغرب. وكان في هذا الوقت، يعني رجال الاعمال من الاثراك العثمانيين الارباح من اتجارهم مع الغرب. فالتجارة اليونانية العثمانية البحرية في البحر المتوسط، زادت فمات بها بالتجارة البرية مع اواسط اوروبا، لما عززت الدولة العثمانية من احتلال فينا (الحصار الثاني ١٥٨٣)، واصلت دولة هابسبورغ تنسج شرقا على حساب الدولة العثمانية.

والهونك الدين احتكوا تجاريا او سياسيا مع الغرب، اصعبتهم مدينة الغرب. وقد درس يونان عثمانيون ويونان بنادقة في جامعة بادوا. ووضع الكتاب الكريستون كتب باللغة اليونانية العلمية معين الاسلوب الغربي.

وقد افاد اليونان العثمانيون من اتصالاتهم بالغرب سياسيا لما بدأ التيار يهب عكس الاتجاه العثماني، بسبب حروب الدولة العثمانية المستمرة مع الدول الغربية المسيحية. واحتاجت الدولة العثمانية الآن إلى الدبلوماسيين القادرين على المفاوضة مع الغربيين، مانشي (١٦٦٩) منصب ترجمان الباب العالي (وهو منصب يعادل رتبة وزير الخارجية) وذلك من اجل اليونان الذين درسوا في الغرب. وقد كان حكم الملاح وملنديا من اليونان العثمانيين.

وقد أصبح اليونان العثمانيون الفلاسون في الغرب « المؤسسة » الصغرى بالنسبة إلى المؤسسة العثمانية الكبرى.

(والحادثة الكبرى في القرنين السابع عشر والثامن عشر التي أتمت بالمسيحية

الأرثوذكسية كانت قانوناً ١٦٨٢-١٧٢٥، وفي الواقع ١٦٩٤-١٧٢٥). فبطرس الأكبر لم يكن يعمل بتأثير غربي دخل إلى بلاده عن طريق ميناء لركنجل (على البحر الابيض) وعن طريق الأركرايوس عندما بدل بطيركية موسكو من بزنتلية تقليديه إلى النموذج الغربي المعاصر، ذلك بأنه استبدل الأسقف (لما خلت الأسقفية من صاحبها، ولم يفتر بطرس بديلاً له) بمجلس كان، في الواقع، إدارة من إدارات الدولة.

الدولة الروسية هي إمام بطرس الأكبر كانت واسعة، لكنها لم تكن لها شواطئ. فحصل بطرس على ساحل في البلطيق. وكان يعتقد أن الانتصار على أية دولة غربية، حتى السويد على صغرها، كان بحاجة إلى تبدل تام في الاستراتيجية والتكتيك، «سأسمه ثقل ما عند الغرب من تنظيم عسكري وبحري وما عندهم من تكنولوجيا. وهذا كله لا يتم إلا بالتبديل الإداري الشامل، وبالتفكير في القطاع الصناعي من الاقتصاد الروسي.

كان بطرس مغرماً بالتكنولوجيا، وكان يفهمها. في الجيل السابق للفترة التي هي موضوع حديثنا، كان مؤسس الجمعية الملكية يدركون تماماً مدى ما يمكن أن يتعلمه التقنيون ورجال العلم من بعضهم البعض. وقد كان بطرس تفانيا متحمساً، وكان يعمل بجدية. كان هذا يشبه السلطان العثماني الذي تدرب على العمل وهو صغير. لكن من كان يحسب أن سلطان روسيا المطلق القوي يعمل شيئاً من ذلك؟

جاء بطرس في الوقت المناسب. فقد ولد في الجيل الأول الذي أصبح فيه من الممكن للغرب أن ينقل الخبرة والتكنولوجيا الفريدة، دون أن يرغم على بلع المداوية الغريبة بكاملها - بما في ذلك الدين! القرن السابق كان مسكناً أن يؤدي إلى شيء يشبه بما تم في اليابان والمجيشة - كره شديد للغرب. ورد فعل عند الغرب، لذلك فإن ظهور شخصية بطرس في الوقت والسكان اللذين برزت فيهما، كان له أثر ضخم على مسيرة تاريخ البشرية.

٧٨- العالم الإسلامي ١٥٥٥-١٧١٨

بين سنتي ١٥٥٥ و ١٧٠٧ كان ثمة ثلاث إمبراطوريات إسلامية متنافسة وكانت تشمل القسم الأكبر من العالم الإسلامي وهي: العثمانية والصغوية والمغولية (في الهند). كانت الإمبراطورية العثمانية تقدم من الصفوية بنحو مئتي سنة، وسحر مغربي وخمسين سنة أقدم من الصفولية، لذا اعتبرنا أن قيام هذه ثم سنة ١٥٥٥ (لما دخل هوبابون ثانية إلى دلهي). ففي سنة ١٥٥٥ كانت الإمبراطورية العثمانية قد بلغت الذروة وقد بدأت دور الانحطاط. والإمبراطورية الصفوية بلغت الذروة أيام أكبر (١٥٥٦ - ١٦٠٥) وجانشينيه (١٦٠٥ - ١٦٢٧). وكان حكم الشاه عباس (١٥٨٨ - ١٦٢٩) الذروة في حياة الإمبراطورية الصفوية.

انحطاط الإمبراطورية العثمانية كان سببه أمرين متلازمين زما . التضخم النقدي والتضخم في العاملين في خدمة السلطان. فالتضخم المالي أحدث أزمة اقتصادية، وترتب على ذلك انتشار الفوضى بين الموظفين العاملين الذين وجدوا أن قوة الشراء لمربائهم كانت تتناقص. وهذا التشويش الاقتصادي والاجتماعي كان ناكجا عن وصول كميات من الفضة إلى أويكوميين العالم لتقديم من مناجم الإمبراطورية الأسبانية في الأمريكتين، ولم يكن باستطاعة الدولة العثمانية أن تتحكم في دخول الفضة. وعلى كل فلهل كان من الممكن تجنب الفوضى لو أن رجال القصر (المرشد) لم يملئهم التسامح التدريجي معهم، من حيث تطبيق القوانين الأصلية عليهم. فالأصل أن أبناء هؤلاء الجنود الانكشارية لم يكن يجوز لهم أن يدخلوا الجيش إلى جانب أولئك الذين يؤمنون بهم من البلاد المسيحية.

كان يستثنى من هذا القانون أبناء الفرسان، لكن سليمان القانوني (حكم ١٥٢٠ - ١٦٦) بدأ بالسماح لأبناء الانكشارية بدخول الجيش. وأكد سليم الثاني (الأمير)

سنة ١٥٦٦، ثم سمح مراد الثالث (حكم ١٥٧٤ - ٩٥) لجميع المسلمين ان يدخلوا الجيش. وكان من جراء ذلك ان عدد الانكشارية الذين كانوا مسجلين في القيد ارتفع من ١٢,٠٠٠ إلى ١٠١,٦٠٠ بين سنتي ١٥٦٦ و ١٥٩٨. هذا مع العلم بأنه كان هناك نحو ١٥٠,٠٠٠ طالب لذلك ولم يكونوا يتقاضون مرتبات. ولم يعد الانكشارية قوة محاربة فعالة واصبحت فئة مدنية مشاغفة. اما المسيحيون فلم يعد السلاطين يستعدونهم او يحملونهم حتى على اعتناق الاسلام، بل كانوا يوظفونهم في المناصب الكبيرة مستفيدين من كفاءتهم، تاركين لهم حرية المعتقد.

ومع ذلك فان القوة العسكرية العثمانية لم تنهر حالاً. لقد استعاد مراد الرابع (١٦٢٣ - ٤٠) بغداد من الصفويين (١٦٢٨). وحاصر العثمانيون فيها للمرة الثانية (١٦٨٢ - ٣). وقد ادى فشلهم في اخذ المدينة الى مهاجمة آل هابسبورغ للإمبراطورية (١٦٨٩) وانتهى الامر بالعثمانيين الى التنازل عن هنغاريا وكرواتيا لمملكة هابسبورغ، وعن البلويوز للبنديّة (١٦٩٩) وعن لزوف لروسيا (١٧١٠). ومع ذلك فان الامبراطورية العثمانية استعادت المنطقتين الأخيرتين في اوائل القرن الثامن عشر. وفي واقع الامر فان الامبراطورية العثمانية كانت وكأنها تجاري سابقها الامبراطورية الرومانية الشرقية في تخطي الكولت.

وظل للامبراطورية العثمانية نشاطها المعماري الخلاق، الذي لم يطمسه انحطاطها العسكري والاداري. فجامع السلطان احمد الاول في استانبول (بني ١٦٠٩ - ١٨) يستمع بعظمة خاصة به، ولا يغال منها مقارنته باما صوفيا. ومع ذلك، فاذا استثنينا الجامع الاخضر في بورصة (جامع محمد الأول) فليس ثمة بناء عام عثماني تسكن مقارنته بمسجد شاه الذي بناه الشاه عباس في اصفهان (بني ١٦١٢ - ٣٧) او بناج محل في اغرا الذي بناه شاه جهان بين ١٦٣٢ - ٥٣. وليس مسجد شاه جميلا في ذاته فحسب، ولكنه يمتص انشاقا فريدا مع الابنية الجميلة والاقدم منه. وثمة ابية جميلة في مدينة اكبر الجديدة سكري، لكنها ابنية جميلة منفردة، دون ان تنسق بعضها مع البعض الآخر.

تفوقت الامبراطوريتان الصفوية والمغولية على العثمانية لا في العمارة فحسب، بل بشخصية الشاه عباس الاول وشخصية اكبر اللتين كان لهما من الرؤية ما لم نتح لامبراطور عثماني معاصر.

فقد أدرك أكبر أن الحكم الإسلامي في الهند لا يمكن أن يستمر إلا إذا كسب موافقة الرعايا الهندوكيين. لذلك ألغى الزكاة (١٥٦٤) عن غير المسلمين، وأظهر قوته في التغلب على الراجبوتيين (١٥٦٧ - ٨) فانتظم الأمر له في إمبراطوريته. على أكبر سار إلى أبعد من ذلك؛ فقد كان في ميته أن يربط الحوارج بين الديانات التاريخية المميزة. لذلك فاته نظم مناقشات ومناظرات دينية بين ممثلين عن الإسلام والزرادشتية والهندوكية والمسيحية الكاثوليكية، وفي سنة ١٥٨٢ أعلن عن عقيدة جديدة سماها « دين الله » الذي أثبت أن يؤدي إلى توحيد العباد جميعهم.

وقد ورث أكبر الدولة منتظمة عن السلطان البنغالي شاه سور ١٥٤٠ - ٥ ونفذ منها في الدولة إمبراطوريته.

أما الشاه عباس فكان عليه أن يعيد بناء الإمبراطورية الصفوية من الأساس. وكان في إمبراطوريته سكان مديون ورمينيون من أصل فارسي لكنهم لوغموا على التشيع كما كان ثمة جند تركماني، كان قد لجأ إلى الصفويين من العثمانيين وانضم اليك بسبب تشيعه. فطرح بعض هؤلاء واقتشأ جيشاً من المبيد على غرار الجيش العثماني له جند مدربين على الأسلحة النارية والفروسية. ومع أن هذا الجيش كان دون الجيش العثماني مقدرة أصلاً، فإن ضعف الإمبراطورية العثمانية يسر للشاه عباس أن يسترد ما أخذه العثمانيون من أسلافه، كما أنه انتزع هرمز (١٦٢٢) من البرتغاليين واستعاض عنها بمجناء جديد - بندر عباس.

واتخذ الشاه عباس لدولته عاصمة جديدة هي إصفهان، التي كانت قريبة من الأفغان الجبلبيين الصحاريين. وقد احتلت جماعة من المصاة الأفغان إصفهان سنة ١٧٢٢، وانحلت الإمبراطورية الصفوية واحترمت جارتها، الإمبراطورية العثمانية والأسرطورية الروسية، انقسام ولايتها الغربية (١٧٢٤)، لكن نادر قولي، التركماني الحراساني طرد الأفغانيين واسترجع جميع الأراضي التي كانت تحت حكم الصفويين والتي كان العثمانيون والروس قد استولوا عليها. وفي سنة ١٧٢٩ نهب نادر دلهي. وفي ١٧٤٠ استولى على بعض أزمكستان. وقد توج نفسه شاهاً (١٧٢٦) وحاول العودة بإيران إلى السنة. لكن لا العثمانيين السنة قبلوا شروطه للاتحاد ولا رعيته الشعبية وضت أن تحلى عن الإمامية. وقد اغتيل (١٧٤٧)، وأصبحت إيران حجة وغرقت في فوضى سياسية.

كانت دولة المغول الهندية قد اعتقت بالسياب الانحطاط أيضاً. فقد تخلى شاه

جهان (حكم ١٦٢٨ - ٥٨) عن سياسة اكبر في كسب ثقة الهنوكيين، كما هاجم دول الدكن الاسلامية. وعطا عليفته لورنتزوب (حكم ١٦٥٩ - ١٧٠٧) وراد في اسطارته للراجبوتيين، الذين حملوا السلاح ضده ١٦٨٠ - ٨١ . وفي النزاع الذي دار بين لورنتزوب وزعيم الفات شيفاجي (١٦٢٧ - ٨٠)، الذي نوج نفسه ملكاً مستقلاً (١٦٧٤)، كانت الحرب سجالاً. لكن بعد وفاة لورنتزوب (١٧٠٧) تدهورت الامبراطورية المغولية بسرعة ونهت دثي ثلاث مرات (١٧٣٧ و ١٧٣٩ و ١٧٥٧) .

كان البريطانيون في طريقهم الى ان يخلطوا الامبراطورية المغولية، وبين ١٧٥٧ و ١٧٦٣ عرج الفرنسيون من الهند، واصبحت شركة الهند الشرقية التجارية (الانكليزية) السيدة الفعلية في الهندال وبمهدر ولوريسا (كانت الشركة تقوم بخدمة امبراطور المغول) . وخلقت الحكومة البريطانية الشركة التجارية فيما بعد.

وفي الجهة المقابلة من العالم الاسلامي نجح المغرب في المحافظة على استقلاله من هجمات المشائين والاسبان. وقد قضى المغاربة (١٥٧٨) على جيش برتغالي ضخم. وفي سنة ١٥٩١ اجتازت حملة مغربية الصحراء الكبرى واستولت على السودان الغربي. وكانت هذه الحملة ادعى للاهتمام من اجتياز القوزاق لجنال لورال في الوقت ذاته.

كان استعمال الاسلحة النارية سببا في نجاح المغاربة، اذ ان خصومهم لم يعرفوها. واستعمال الاسلحة النارية - المنبر منها والكبير مثل المدافع - هو سبب تفوق العثمانيين على الصفويين. ومهارة المغاربة العسكرية (في السودان) والحكام القلة الذين كانوا يديرون شؤون الجزائر وتونس وطرابلس كان سببها ان هؤلاء كانوا دوما يزودون بالخبراء والجنود الماهرين والفنيين الذين كانوا يردون الى البلاد من الغرب المسيحي: المسلمون الذين خرجوا واخرجوا من اسبانية والاسرى المسيحيون، سواء في ذلك الدير اسلموا ام الذين احتفظوا بدينهم، والمغامرون الاوروبيون الذين تركوا ، لان مثل هذه الخطوة كانت تفتح امامهم مجالات من النجاح لا مثيل لها في بلادهم.

ومع ان التكنولوجيا النارية كانت قد قطعت شوطاً جيداً في التقدم، الا انها لم تكن تستطيع التغلب على الاعداء الذين تحميهم لوضهم. فالمناطق المغولية، التي كان يدير امرها مرتزة اوروبيون، لم تستطع التغلب على بلاد الفات. والعمانيون الذين قاوموا

الجيوش العربية والروسية والاميرانية، لم يتمكنوا من منع الدولة السعودية الاولى في نجد، وذلك بعد عودة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٢) وانفاقه، على العمل في سبيل الدعوة الاصلاحية، مع محمد بن سرور (١٧٤٥).

٧٩- شرق اسية ١٦٤٤-١٨٢٩

كانت مدنيتان شرقي آسيا آخر المدن التي تعرضت لزعم المدن الغربية الحديثة، بحيث يحدث ذلك نتيجة ثورية على مسيرة تاريخ المدينة المهاجمة. ان اليابان عزلت نفسها (بين ١٦٦٢ و ١٦٤١) عزلاً تاماً. فلم يسمح لليابانيين بالخروج من البلاد، والأجانب من التجار كانوا يدخلون ميناء واحداً فقط. ومع ان الصين استمرت بالسماح للتجار بالتعامل والأقامة في مكاو، فانها هي أيضاً منعهم (١٧٦٠) من الدخول إلا إلى مكان واحد. وقد منعت اليابان (١٦١٢) والصين (١٧٢٣) رعاياها من اعتناق المسيحية أو التمس بشارها. وكان المنع في اليابان ادق.

كانت تجارة الصين مع الغرب خلال السنوات ١٦٤٤-١٨٢٩ اكبر من تجارة اليابان، اطلاقاً ونسبياً، إلا ان الصين كانت حاجتها إلى هذه التجارة اقل من حاجة اليابان، لان الصين كانت لا تزال مكتفية ذاتياً اقتصادياً، ولم تزد التسهيلات التجارية للغربيين في الصين إلا بعد الحرب الانكليزية - الصينية ١٨٢٩-٤٢. وقد ازداد الدخل القومي لليابان خلال فترة العزلة الاقتصادية (١٦٤١-١٨٥٣).

والصين في عصر اسرة تشنغ (المانشوية) استمرت نظرتها إلى الامور داخلية وخلفية، كما كانت ايام اسرة منغ. ولكن الذي حدث ليام اسرة منغ كان رد فعل على الاحتلال المغولي. اما المانشو فقد تقبلوا المدنية الصينية بكاملها. وقد اسمر برعا الادب عبر التقليدين في عصر تشنغ وهما القصة والتمثيلية.

اوصل العلماء الكونفوشيون في عصر تشنغ المحافظة إلى الغاية. فقد رفضوا صبح الكونفوشية الجديدة. وكانت غايتهم العودة بالكونفوشية إلى النوع الذي كانت عليه في عصر هان وو - تي. وقد كان علماء عصر تشنغ ماهرين في معالجتهم القديمة للنصوص والوثائق التي بين ايديهم.

اما في اليابان فان ليازو وخلفاءه كانوا يروجون لصيغة من صيغتي الكوموشية الجديدة. لكن اليهودية لم يضيّق عليها. بل ان ييمتسو (١٦٦٣ - ٥١) مرض على كل مواطن ياباني ان يسجل في واحد من الهياكل اليديّة، يوصفه علمياً، وذلك كي يتأكد من انه ليس مسيحياً. وكان ثمة حياة للعناية بالشر، باعتبارها ديناً وطنياً لم يأت من الخارج - من الصين او الهند الصينية.

وقد جمع الامبراطوران (من اسرة تشنغ) كانغ - هسي (حكم ١٦٧٢ - ١٧٢٢) وتشين - لينغ (حكم ١٧٣٦ - ٩٦) الادب الصيني الموجود من المحصور باجمعها. وطُبعت المجموعة الاولى في ٥٠٠٠ مجلد في سنة ١٧٢٨، اما ما جمعه الثاني فقد بلغ ٣٦,٠٠٠ مجلد. وقد اكتفي بنسخ سبع نسخ منها ولم تضيع! وقد منع تشين - لونغ الكتب التي لم تعجبه. اما كانغ - هسي فقد صنف قاموساً. كما وضع تشين - لونغ سلسلة كتب توضح اراءه السياسية.

من الناحية العسكرية انجزت اسرة تشنغ ثلاثة اشياء: الاول القضاء على حركات المقاومة ضد المنشور في الجنوب والثاني وقف التقدم الروسي في حوض امور والثالث القضاء على المغول الغربيين.

فالمغول الغربيون كانوا قد اعتنقوا اليودية الساهانية الغيبية (الربع ثالث من القرن السادس عشر)، واقامت احدى قبائلهم (١٦٤١ - ٢) الدلاي لاما حاكماً في لاسا. وقد هاجم غلخان من قبيلة من المغول الغربيين، منغوليا الشرقية التي كانت تحت سلطان اسرة منشو، فأبّد المغول الغربيون غلخان في معتقله، فاثار هذا الامر المتألمة للسيطرة على الدلاي لاما، وبيع المنشوريون السابق (١٧٥٠).

في القرن الثامن عشر طرأ على المغول ما ازلهم من المجال القتالي الذي شغلوه نحو اربعة الاف سنة. فقد هاجم تشين لونغ (حكم ١٧٣٦ - ٩٦) بقية من المغول الغربيين (دزونكار) في عمر دلوهم، فغلب عليهم واستولى على منطقة ولاية سيكيانغ الحالية حيث كانت توجد جالية اسلامية تتبع الدزونكار. وتغلب تشين - لونغ عليهم كان فيه القضاء على آخر امبراطورية سهوية اوراسية متفجرة (١٧٥٨ - ٩). والواقع هو ان الهداوة الاوراسية جاء لاجلها سنة ١٦٥٢ لما تصادمت قوتان مستقرتان في حوض مهر امور هما اسرة تشنغ والامبراطورية الروسية، وكانت كل منهما تستعمل الاسلحة النارية.

في سنة ١٧٧٤ عقدت معاهدة كوجيك كنارجه (كوتشوك كمانشنه) بين العثمانيين والروس، وبموجبها نقلت دولة القرم (وهي آخر واحدة من الدول التي خلفت القبيلة الذهبية) من العثمانيين إلى الروس. وفي ١٧٨٣ ضمت الامبراطورية الروسية القرم اليها. وفي الوقت ذاته كان انتشار البوذية بين المغول سببا في التقليل من شأن القتال والحرب بينهم، كما ان ضغط السكان اخذ يتناقص بسبب الاقبال على الرهبنة (البوذية). وهذا التبدل في لوضاع البدو الرعاة الأوراسيين قادهم الى الحياة الهادئة. وهكذا فان عنصر دينا ميكيها خرج من حياة اريكميين العالم القديم، بعد ان عاش دينا ميكيه نحو اربعة الاف سنة.

ومنذ ١٧٥٧ تخلصت الصين من خطر البدو البرابرة الأوراسيين الذي كان يحيق بها لمدة ثرب من القوي سنة. فاندفع تشين - لونغ في هجوم نحو الجنوب ضد بورما (١٧٦٦ - ٧٠) وضد فيتنام (١٧٨٨ - ٩) وضد نيبال (١٧٩٠ - ٢). الا ان هذه الحملات التي قادها تشين - لونغ كانت، مثل حروب اورانغزيب، تخفي وراءها ضحفا فاعليا اجتماعيا واقتصاديا في الامبراطورية.

كان الاكثر جدية في تولسي الضعف هو الازدياد المذهل في عدد السكان خلال المئة سنة المنتهية في ١٨٣٩. وقد لا تكون الازكام المدونة كلها صحيحة، لكن الواقع هو ان عدد السكان ازداد اكثر بكثير من قدرة البلاد على انتاج المواد الغذائية، الامر الذي تم الجازه في القرن السابق. والبيئات التي استوردت من العالم الجديد لزروع في مناطق غير الصالحة لزراعة الارز، ادت الى تهمرة الثرية بعد اجتثاث الغابات. وقد بدأ دخل الفرد من الفلاحين الصينيين بالهبوط قبل نهاية حكم تشين - لونغ.

في اليابان ازداد عدد السكان. فقد بلغ في سنة ١٧٢١ نحو ثلاثين مليوناً، وظل العدد على حاله الى العقدين السادس والسابع من القرن التاسع عشر، مع ان الانتاج الزراعي استمر في نموه، واستمر القطاعان الصناعي والتجاري في الاقتصاد الياباني في التوسع. ولكن بسبب التوزيع غير المتكافئ للثروة، من حيث الحصول عليها ومن حيث انفاقها، لم يزد عدد السكان. فالنحاح الفقير الذي هجر الارض ليعمل اجيرا في المدينة او الريف لم يكن بإمكانه الزواج وانجاب الاسرة بسهولة. والامعاء من الملاكين كانوا يحملون على قضاء بعض السنة في العاصمة بحيث ينفقون فوق طاقتهم، ليكونوا تحت نظر الامبراطور. والاغنياء الحقيقيون كانوا اصحاب الاعمال،

الذين كانوا يزورون من دفع الضرائب، وكانوا مكروهين، لكنهم كانوا اصحاب ثراء. ومثل على ذلك شركة متزوي (لا تزال الى اليوم احدى اكبر المؤسسات المالية في العالم) التي وصلت سنة ١٦٩١ (وكان عمرها نحو سبعين سنة) ان تكون المحول لدولة الوقت ثم لئلا الامبراطوري بعد ذلك.

في سنة ١٧٩٣ سلم محفل جورج الثالث، ملك بريطانيا، رسالة الى تشين - لونغ، صيغ رد الامبراطور عليه بطريقة تظهر ان الصين لا تزال البلد الكافي لغاته، والذي لا يطلب، والمملكة المتوسطة (للارض) السبعة. ولم يكن الامبراطور يعرف ان التوازن في القوى البحرية قد تبدل لمصلحة الغرب منذ خمسة قرون. لكن كان لي اليابان شخص واحد هو هياشي شيهاي (١٧٣٨ - ٩٣) الذي كان عتفه نوع من الحسن بهذا التبدل. فقد نشر (١٧٨٦) كتابا بعنوان « بحث في المشكلات البحرية لبلد بحري ». فقد ارجعته نشاطات الروس البحرية في شمال المحيط الهادي. ان الروس كانوا قد اصبحوا غربيين بالتخي. والبريطانيون والفرنسيون والاميركان القريهون من الهولنديين، لم يكونوا ظهوروا على النق اليابان الجنوبي.

٨٠- المجال الحيوي ١٧٦٢-١٨٧١

ان القرن العلمي بمطامير الامور، من ١٧٦٢ الى ١٨٧١، شهد اهم حدث وهو التوسع المناجمي، في سلطة الانسان على الكائنات البشرية بالذات وعلى الطبيعة غير البشرية. وهذه الزيادة في السلطة البشرية تمت عن طريق ضم التجديد الاجتماعي مع التكنولوجيا. فعالية الجنود والعمال الصناعيين زادت عن طريق اعضائهم لنظام صارم، وتدريبهم على العمل بالآلات واسلحة لم يسبق لقوتها مثل، وعن طريق تنظيم عملهم بفعالية. فقد بدأ إنشاء الجيوش المحترفة النظامية في الغرب لواخر القرن السابع عشر. وفي العقود المتأخرة من القرن الثامن عشر، كان التنظيم الذي كان يطبق في المصانع الحربية العسكرية أصبح يراعى في المصانع المدنية، والتقنية التي كانت قد استعملت لشطب انبوهة المدفع استُخدمت في تركيب مكابس الآلات البخارية. واداً نظرنا الى القضية خارج المجال العسكري، فإن المناجاة في ازدياد السلطة البشرية يبرر تسميتها ثورة، مع العلم بان تعيين نقطة لبدء ثورة تكنولوجية واقتصادية بالدقة المطلوبة، اكثر صعوبة من تعيين وقت انطلاق ثورة سياسية او حرب.

ان الثورة التكنولوجية والاقتصادية التي بدأت في بريطانيا خلال الربع الثالث من القرن الثامن عشر، بدأت الزراعة وتربية المواشي والصناعة تبديلاً تاماً. وفي سنة ١٨٧١ كانت هذه الثورة قد انتشرت خارج بريطانيا الى القارة الأوروبية، وكانت تبدأ في اميركا الشمالية واليابان. ولا تزال هذه المسيرة تقوى في العقد الثامن من هذا القرن. وليس شمة ما يدل على ان نهايتها قريبة؛ الا انه قد أصبح واضحاً الآن ان الثورة الصناعية عكست اتجاه العلاقة بين الانسان والمجال الحيوي.

وقد مهر الانسان، بطبيعة الحال، المجال الحيوي بطابعه، ولكن، حتى تلك الساعة، كان الانسان، مثل بقية العناصر الحية في المجال الحيوي، مضطراً ان يقع في حجر

كان المجال الحيوي قد سمح له بالانظمة فيه. وكل نوع تعدى الحدود المقبولة عرض نفسه، في الماضي، لخطر القضاء. وفي الحقيقة فإن الأنواع جمعاء بما فيها الانسان، كانت تعيش الى يومها تحت رحمة المجال الحيوي. وقد عرّضت الثورة الصناعية المجال الحيوي لاحتمال القضاء عليه على يد الانسان. ولما كانت جذور الانسان عميقة في المجال الحيوي، وما كان لها ان تعيش بدونه، فإن حصول الانسان على القوة التي تجعل المجال الحيوي غير صالح للعيش فيه هو عهد يظلفه الانسان على الانسان منذرا امامه بان استمراره مهدد.

ان ازدياد السيطرة البشرية في العقود الاخيرة من القرن الثامن عشر كان اصلا انجازا بريطانيا محليا، لكن هذا الانجاز البريطاني كان قد نل في اقطار غربية اخرى الى سنة ١٨٧١، وهذا يسر للغرب كليا ان يتفوق، موثقا، على بقية الاوركومين. وهذه السيطرة الغربية على العالم كانت الحدث الثاني البالغ الاهمية في القرن (١٧٦٣ - ١٨٧١). والحدث الثالث في هذا القرن كان ردة الفعل في اقطار غربية ضد الضغوط الغربية. والمكانة الرابعة، اذا عدنا الاحداث بالنسبة الى اهميتها، تحتلها مشكلات الغرب الداخلية. والثورة الصناعية لا يمكن اعتبارها واحدة من هذه المشكلات. ذلك بان هذه مع انها بدأت في قطر غربي، فانها من حيث السدى تخص «المجال الحيوي».

كانت غاية الفهم صنمو الثورتين الزراعية والصناعية من البريطانيين ان يصلوا الى الحد الاقصى من انتاج الثروة المادية. وقد جاء هذا في وقته: اذ ان سكان بريطانيا والبعض الآخر من الاقطار الغربية كانوا قد بدأوا، في الجيل السابق مباشرة، يزدادون بشكل متسارع. وعلى كل فان المجددين لوسائل لانتاج لم يفخوا نفع الجماعة. انهم كانوا يقصدون الافادة الفردية. انهم دفعوا الانتاج الاجمالي الوطني الى درجة دراماتيكية، لكنهم، في الوقت ذاته، زادوا في عدم المساواة في توزيع حصص هذا الانتاج وعدم المساواة في ملكية الارض والمصانع التي كانت اداة الانتاج.

ان بعض طرق الانتاج التقليدية والتي كانت نسبيا ضيقة - مثل الزراعة على مقاس صغير، وقيام هذه الى جانب صناعات ايضا على مقاييس صغير مثل العزل والنسيج - قصي عليها. واصبح الانتاج، في شكله الزراعي والصناعي، يُنظم الآن تنظيما دقيقا ومكلفا من حيث وحداته الكبيرة. وهذه التغيرات المتلازمة أدت الى انتقال السكان باعداد كبيرة من الريف الى المدن الصناعية الجديدة. ومعظم هؤلاء المهاجرين جردوا حتى من ظل

لاستغلال اقتصادي لمثلهم كانوا يتصورون به قبلا. وبين السكان المتزايدين بسرعة كانت النسبة المتدنية للمستخدمين (يفتح الدال) الذين كانوا يتعيشون من بيع خدماتهم مرتفعة جدًا بالمقارنة مع نسبة المتدنية للمستخدمين (بكسر الدال) أو الذين يعملون لحسابهم الخاص.

والنغيرات في الأحوال المعيشية والعمل وفي توزيع الدخل والملكية زادت الدخل العام وكان القس للظلم والألم. وليس من الممكن معرفة مساحات الأرض التي نقلت إلى الملكيات الخاصة (بقواتر صدرت عن البرلمان)، والحصص الممنوعة بالنسبة إلى الموردين والمستخدمين (يفتح الدال) في أرباح الصناعة هي موضع خلاف. ولكن المهم هو أن نقل الأراضي إلى الملكيات الكبيرة حال دون الفلاح والعمل الزراعي الصغير الكافي لمعيشته، وإن هذا الفلاح لما انتقل إلى المدينة صانعا كان الأجر الذي يحصل عليه ضئيلا، يكاد لا يكتفي.

هذه كانت نتائج فيها تناقض وتمازج بشرية جاءت في أعقاب الزيادة في إنتاج الثروة المادية. وكائن الباحث على ذلك الطمع، وقد خرج هذا الطمع الآن عن طولي القانون والعادة والصور. في سنة ١٧٧٦ نشر آدم سميث كتابه « بحث في طبيعة ثروته الأمم » وأسبابها «، وقد جاهر فيه برأيه خلاصته أنه لو أن كل فرد سمح له أن يتبع رغبته الاقتصادية الشخصية، لكان في ذلك خير نتيجة للمجتمع بأكمله. وقد نجاهل الناس المحاذير التي أهدأها سيث نصه، والفكرة بالذات لم تكن مقنعة. والحرية التي تمتع بها الإنتاج والتي شجعت الطمع اضيف إليها فوضى اللئاسة وعسارتها. وقد كان للمنافسة الاقتصادية غير المنقذة ضحايا أكثر مما كان فيها منتصرون.

أصبح العمال الصناعيون طبقة اجتماعية جديدة غريبة عن المجتمع الذي كان السبب في قيامها. وكان السلاح للوحيد في أيدي العمال الصناعيين هو المساومة الصناعية مع المستخدمين. وكان من الضروري أن يقوم تضامن وثيق بين العمال كي يجتهدوا في المساومة. ومن ثم فقد تخضع العمال أنفسهم إلى طغيان من صنهم، كي يقاوموا طغيان أرباب العمل الذي فرض عليهم. وقد منعت هذه التضامنيات قانونا (١٧٩٩) لكنها اعتبرت قانونية فيما بعد (١٨٢٤ - ٥). وهكذا فحرب الطبقات قد بدأت، وانتشرت، مع الثورة الصناعية من بريطانيا إلى أقطار أخرى.

إن المستخدمين وخصوص العمال كانوا على العموم، قلة، ولكنهم كانوا أذكاء

جريئين لا يُقهرُونَ. فهناك نموذج لوكركليت (١٧٣٢ - ٩٢) الذي سجل باسمه عددا كبيرا من الاختراعات لم تكن من صنعه. وهناك جيمز واط (١٧٣٦ - ١٨١٩) الذي ساعده الحظ في ان عثر على من يدعوه ويسمح له بان يفيد من اختراعه. واكثر المخترعين وقموا فريسة المستثمرين. وهناك من المخترعين من وصلوا الى اختراعاتهم بطريق التجربة. واط كان شيئا مستثنى. فقد كان العلم والتكنولوجيا يؤمنان مفيدتين عنده. والوحى الذي جاءه في جامعة غلاسكو المر في مصنع بولطن في برمنغهام. ان واط لم يخلق نعلها جامعا، لكنه كان حذيقا للاك (١٧٢٨ - ٩٩) الذي كان اساقفا للكيمياء. وفي القرن التاسع عشر اخذ الكيميائيون الاكاديميون، وخاصة في الجامعات الألمانية، اعادوا بالاستفادة من علمهم في الامور الصناعية مباشرة وبانتظام.

والتحسينات التي ادخلها واط على الآلة البخارية جعلتها صالحة للانتاج الصناعي وللجهد، وللضخ كذلك. واول سفينة بخارية سارت سنة ١٨٠٧ ولول فاطرة بخارية سارت على سكة حديد سنة ١٨٢٩. والآلة البخارية هي ماكينة واستعمال الآلات هو الصفة التكنولوجية السميكة للثورة الصناعية. ان الادوات قديمة قدم الانسان، وتحسينها يزيد في القوة المضنية للانسان لكنها لا تحل محل هذه القوة. اما الآلة فانها تريح الانسان من القيام بأي عمل عضلي قطعا، وتقوم باحمل على مستوى ونطاق وسرعة تفوق مقدرة الانسان الطبيعية. وهذا ينطبق على جميع اصناف الآلات - القارب والسفينة الشراعية والمدفع.

كان استعمال الآلات، بالمقابلة مع استعمال الادوات، نادرا حتى الثورة الصناعية. اما عند قيام الثورة الصناعية فقد اصبح استعمال الآلة امرا عاديا. ولم تظل الطاقة الطبيعية المستعملة في الآلات مقتصرة على الريح والماء الجاري والمفرقات والبخار. ففي سنة ١٨٤٤ استعملت الكهرباء بنجاح لنقل رسالة تلفرافيا. ان اختراع الادوات المعدنية خلق الحداد. واختراع الآلات التي ينفقها البخار خلق المهندس. قوة الريح وقوة الماء نظيفة، لكن البخار يحتاج الى حرق وقود، ومن ثم فان ذلك يلوّث الجو. على ان هذا الخطر لم تدركه البشرية الا بعد مرور قرنين على الثورة الصناعية. عندها اتضح ان المجال الحيوي اصبح ملوثا، فضلا عن ان الانسان اخذ يستهلك المواد التي لا تتولد ثانية، والتي لا بد منها لتأمين معيشته.

نبل الثورة الصناعية لتلف الانسان اجزاء محفوظة من المجال الحيوي، فتمت التربة،

بسبب إنبثاش الأشجار، واستهلكت المعادن بسبب التعدين في منجم. لكن كان البر والبحر لا يزالان وحيين وخييين.

وكانت الشعوب القرية قد مبعوث على بقية البشرية قبل الثورة الصناعية، منذ القرن السادس عشر. وهذه العملية استمرت حتى ١٨٥٣. ومع انه كان ثمة بعض صدمات لقيتها المحاولات القرية (ومعها روسيا) في محاولتها السيطرة على العالم، فانه في سنة ١٨٧١ (أو بعد ذلك بقليل) كانت الدول القرية وروسيا تسيطر على العالم.

وكانت ثمة محاولات، في بعض الأقطار، لتقليد أوروبا عسكرياً أي تقليد المدنية القرية، على اعتبار ان انتصار الغرب على بقية العالم كان عسكرياً أصلاً. فهناك محاولة العثمانيين إمام محمود الثاني (حكم ١٨٠٨ - ٣٩) ومحمد علي باشا في مصر (١٨٠٥ - ٤٩) وبالي تونس (١٨٤٠ وما بعدها) وملك نابالند واليابان.

ومع ان المحاولات الذي ذكرت لتقليد المدنية القرية كانت ناجحة، فان في اليابان كان نجاحها بغيرها. لما في الدولة العثمانية (محمود الثاني) وفي مصر (محمد علي باشا) فقد كان السار أصعب، وكأن لا بد من التخلص من الممالك المصرية (ثم ذلك لمحمد علي سنة ١٨١١) والانكشافية في الدولة العثمانية (فعل ذلك محمود الثاني ١٨٢٦). والجيشان النظاميان اللذان حلا محلهماء وخاصة الجيش المصري البت عن جدولة في أعماله العسكرية ان لحساب الدولة (في نجد وفي اليونان) أو ضدها (في سورية). وكذلك ثبت الجيش العثماني عقبرته في الحرب التركية - الروسية (١٨٢٨ - ٢٩).

ولم يكن يمكن الحكم (غير القري) ان يتأخر عددا من المستشارين والمدبرين الغربيين للقيام بالعمل، كان لا بد له ان ينشئ الفرقاء المصريين من أهل البلاد كي يقوموا بالعمل. وقد وجدت الدولة العثمانية، في وقت مبكر، جماعة من اليونان العثمانيين الذين كانوا حلقمة الوصل المتنامية. اما بطرس الأكبر ومحمد علي باشا وغيرهما فكانوا لا بد لهم من ان يوجدوا هذه القوة. وقد قتل الكثيرون من هؤلاء الحكام ما فعله محمد علي باشا - أرسلوا من أبناء البلاد طلاباً إلى الغرب لتعلموا.

وهؤلاء الذين تعلموا في الغرب كانوا يعيشون في عالمين. والعيش في عالمين تصعبه محنة. والمحنة الروحية التي يلي بها الروس في القرن التاسع عشر، أثارت في بعض المتفكرين لديها وألماً يعبر عن هذه المحنة. وقد تعطل ذلك بشكل خاص في

فصل نورجنيف (١٨١٨ - ٨٣) ودوستوفسكي (١٨٢١ - ٨١) وتولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠) هذا الأدب الذي أصبح كترًا عالميًا مشتركًا.

وفي الغرب، في القرن التاسع عشر، كان للاثلا دور كبير: كالث (١٧٢٤ - ١٨٠٤) كان اكبر فلاسفة الغرب وغوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) كان اكبر شعراء العصر. وهذا النجم الألماني المساطع بن الشهادة الإنكليزيين شلي (١٧٩٢ - ١٨٢٢) وكبش (١٧٩٥ - ١٨٢١). وقد بلغت الموسيقى الغربية الذروة على أيدي موزارت (١٧٥٦ - ٩١) وبيتهوفن (١٧٧٠ - ١٨٢٧). وهذا النجم المتقطع المنظر للثقافة الألمانية كان يمسك حاليها الاقتصادية والسياسية.

كان في عالم العلم رجلا لهما علاقة بالمرض: فانلورد جتر (١٧٤٩ - ١٨٢٣) اهتدى (١٧٩٨) إلى أنه يمكن اكتساب المناعة ضد الجفري بالتطعيم، وفي سنة ١٨٥٧ اكتشف باستور (١٨٢٢ - ٩٥) وجود البكتريا. وقد كانت خطرة الحياة عند الإنسان وعند الحيوانات الأليفة، بسبب جهل هذين المتخصصين الفتانين، أكبر من الخسارة على أيدي الحيوانات المفترسة. ولما اكتشفت البكتريا، أصبح من الممكن مقاومتها بتطعيم، ولم يبق حذر فالك في المجال الحيوي بالنسبة للإنسان سوى الإنسان نفسه. وقد كان تطبيق العلوم على التكنولوجيا يقوي الإنسان وتطبيق العلوم في مجال الطب الوقائي كان يؤدي إلى ازدياد مصلح في عدد سكان المجال الحيوي، بسبب تخفيض نسبة الوفيات أكثر مما كان ضبط النسل ينقص السكان. وقد نشر الاقتصادي ت. ر. مالتوس كتابه « مقالة في السكان » (١٧٩٨)؛ وهو الكتاب الذي أوحى إلى تشارلز داروين (١٨٠٩ - ٨٢) فكرة « بقاء الأنسب »، وهي الكلمات التي تظهر عنوانًا ثانيًا في كتابه « أصل الأنواع » الذي نشره (١٨٥٩).

بين أواسط القرن الثامن عشر ونشر كتاب أصل الأنواع ظهرت بعض الأفكار الجديدة حول الخليفة. فبارون خرج على التقليد الثوري القائل بأن الخليفة كنها تمت مرة واحدة، ولوناني بأن هذه التغيرات الخلقية كانت نتيجة تبدلات خلال العصور الطويلة. وقد جاء بعد ثيل (١٧٩٧ - ١٨٧٥) الذي وضع « مبدأي: الجيولوجيا » (١٨٣٠ - ٣) والذي قرأه داروين أيضًا. وقد اقتضت نظرية داروين مضاجع المسيحيين المؤمنين. إذ أنه أحل الطبيعة المتخورة محل الآلهة المخترع للوصول إلى بقاء الإنسان الأقوى والأنسب.

واهم من نظرية داروين عن ميكانيكية التبدل الحياتي، كانت نظrote الى ان الحياة في المجال الحيوي هي ديناميكية وليست ستياتيكية (قارة) . وثمة شبه بين ما فعل داروين في حقل علم الاحياء وما فعله هيفل (١٧٧٠ - ١٨٣١) للفلسفة من حيث « ماها فخرية ومقابلها وتركيبها، وجاء مندل (١٨٢٢ - ١٨٤) الذي وضع قواعد الوراثة، والذي نشر تحقيقاته، في ١٨٦٤ - ١٩٠٠، لكن هذه ظلت مجهولة الى سنة ١٩٠٠ .

وشهد هذا القرن، بالنسبة للاحداث الحربية والسياسية، ثورة الولايات المتحدة واستقلالها (١٧٧٦ - ١٨٣)؛ ولستعادة وحدتها بعد الحرب الاهلية (١٨٦١ - ١٩٠٠)، وتوسعها عبر اميركا الشمالية من الساحل الواحد الى الساحل الآخر (١٧٨٣ - ١٨٥٣) . وقد شهد القرن نفسه محاولة فرنسة الثانية (١٧٩٧ - ١٨١٥) لتوحيد العالم الغربي سياسياً تحت سيطرتها، وذلك في محاولة نابليون، الذي اعاد تجربة لويس الرابع عشر في حروبه (١٦٦٧ - ١٧١٣) . وقد قامت، في اعقاب فشل نابليون، دولة وطنية في ايطاليا (١٨٥٩ - ٧٠) ودولة وطنية ثانية (١٨٦٦ - ٧١) . وهكذا فان الترتيب السياسي للجزء الغربي من العالم نجح، خلال هذا القرن، في قيام مجسومة من الدول الوطنية المستقلة ذات السيادة، واصب محاولة توحيد الغرب سياسياً نكسة اخرى .

على ان العالم الغربي الذي عرفه نابليون كان اوسع من العالم الغربي في ايام لويس الرابع عشر . ذلك بانه في الفترة التي مرت بين الرجلين كانت روسيا والهند وشمال اميركا قد دخلت منطقة النفوذ الغربي . فروسيا كانت امكاناتها العسكرية غير محدودة؛ واملاك الغرب فيما وراء البحار كانت تحت النفوذ البريطاني بسبب تفرد الاسطول البريطاني بالسيادة البحرية، وكانت قيمتها الاقتصادية ذات قيمة كبيرة في اي نزاع . وقد وجدت الممتلكات البريطانية السابقة في اميركا الشمالية انها، بعد استقلالها السياسي، بحاجة الى الاتجار مع بريطانيا . وكفلك اميركا اللاتينية التي كانت تابعة لاسبانية (والتي كانت تابعة للبرتغال وهي البرازيل)، والتي كانت قد استقلت في سنة ١٨٢١ . إلا ان الولايات المتحدة وهذه الدول الجديدة كانت على العموم، اسواقاً للمستورجات البريطانية . وهذه المولود للمادية الآتية من وراء البحار كانت العصب الحيوي في الخصومة البريطانية الفرنسية كما جاءت نتيجة الانتصار البريطاني .

في سنة ١٨٢٣ اعلن رئيس الولايات المتحدة يومها، مونرو، مذهبه السياسي القاصي

بان لا تتدخل الدول الأوروبية في اميركا اللاتينية سوسيا، وان تحمي الولايات المتحدة استقلال هذه البلاد. وقد افادت بريطانيا من هذا الاعلان، لانها كانت تهتم باقتصاديات البلاد لا بالتدخل السياسي فيها.

مرت بالعالم العربي خلال القرن المذكور (١٧٦٣ - ١٨٧١) ثورات متعددة، لكنها كانت مختلفة، من حيث النوع، واجدتها عن الاخرى. فالثورة الصناعية في بريطانيا كانت تكنولوجيا اقتصادية واجتماعية، ولم تكن سياسية، ولو انه كانت لها نتائج سياسية كما سن نرى قانوناً سنة ١٨٣٢ كان نقطة لبدء لنقل السلطة السياسية من ملاكي الريف الى الطبقة المتوسطة في المدن. والثورة التي قامت في اميركا الشمالية وانتهت باستقلال الولايات المتحدة لم تكن تكنولوجيا ولا اقتصادية ولا اجتماعية، بل سياسية محضة. والثورة الفرنسية (١٧٨٩) كانت سياسية واقتصادية واجتماعية. فقد نقلت السلطة من التاج الى الطبقة المتوسطة المدنية، ونقلت ملكية الاراضي الريفية من الارستقراطية الى الفلاحين. في بريطانيا كان صغار الملاكين في الريف اصبحوا يملكون فلاحين بالاجرة او انهم كانوا يدفع بهم نحو المدينة ليكسبوا عمالاً مأجورين. على العكس من ذلك فان الملاكين الاحرار في الريف صمدوا، بل وزاد عددهم لانهم رحلوا الى اراضي بكر في الغرب، حيث لحق بهم المهاجرون من اوروبا. والولايات المتحدة ظلت امة من المواطنين الذين يملكون مصدر رزقهم، وكذلك اصبحت فرنسا. هذا باستثناء الافارقة السود الذين حملوا رقباً الى الولايات المتحدة واستوطن اكرهم الجنوب.

كان استرقاق الافارقة ونقلهم الى اميركا لا يقل وحشية عن القضاء على سكان البلاد الذين كانوا فيها قبل كولمبوس. وقد انقضى الرق قانوناً في اكثر البلاد الاميركية في القرن المذكور، بدءاً من سنة ١٧٦٣. وسواء اُقيم الكفء اما بالثورة (هاشي عشر سنوات ١٧٩٣ - ١٨٠٣) او بالحرب الاهلية (لولايات المتحدة ١٨٦١ - ٥) او سلماً، فقد حلف ورايه عاهات اقتصادية واجتماعية. فالعمال الصناعيون في الولايات المتحدة ورمسة وبريطانيا ظلوا يشعرون بالبعد يائسة الى « مؤسسة » الطبقة المتوسطة فقد ظلوا قلة في المجتمع في كل من هذه الدول الثلاث، سواء منهم الذين اقاموا في المراكز الاقتصادية الجديدة ام الذين هاجروا الى المدن الصناعية (بريطانيا).

إن صانعي الثورة للفرنسية من الطبقة المتوسطة (١٧٨٩) استغلوا تدمير العمال

المدينين، لكنهم لم يفعلوا شيئا لتحسين اوضاع هؤلاء. بل انهم تصرفوا مثل بظرائهم في بريطانيا. وقد ازيلت الطبقة المتوسطة في فرنسا القيود التقليدية على الحرية الاقتصادية الفردية، ولكن لم يكن ثمة بديل لذلك. ومحاولات البروليتاريا الباريسية ان تحول الثورة السياسية الى ثورة اجتماعية في ١٧٩٥ و ١٨٤٨ و ١٨٧١ فضي عليها بالقوة. وفي بريطانيا حمل العمال (الصناعيون) بالاتحادات العمالية. وقد نالت بريطانيا دفعة ثانية في الميدان السياسي بالنسبة لهؤلاء المواطنين بين ١٨٦٧ و ١٨٧٢ (كانت الدفعة الاولى سنة ١٨٣٢)، لكن هذا كله لم يحسن اوضاع العمال الصناعيين لا هنا ولا هناك.

اثارت مصائب العمال الصناعيين وموافقة الطبقة المتوسطة عليها موجة كارل ماركس (١٨١٨- ٨٣)، ناعلن عن ديانته الجديدة، واساسها « الحتمية التاريخية » التي تحل محل الاله الخالق. وقد لواء ماركس ان يحزى البروليتاريا عن مصيبتها القائمة باعلانه انه من المهم ان تقوم في النهاية « ثورة خير » فتزول الخصومة بين البروليتاريا والطبقة المتوسطة ويقوم مجتمع « لا طبقات فيه ».

لم يعمر ماركس بحيث يرى ان الظلم الاجتماعي زال ضرره. لكن هنري دونان (١٨٢٨- ١٩١٠) نجح في سنة ١٨٦٤ على التوقيع على « اتفاق جنيف » الاول القاضي بانشاء « اللجنة الدولية للصليب الاحمر » لتخفيف وبلاات المصابين في الحروب من الجحود.

كان دور بريطانيا خلال القرن المذكور قياديا - في خيره وشره، لا في الغرب فمعصب ولكن في العالم باجمعه. فقد انتصرت على فرنسا (قبيل هذا مباشرة) في الهند والاميركتين ووحدت الهند لأول مرة في تاريخها، وهذا يستر للمستعمرات البريطانية في امبركا الخسالية ان تستقل عنها. وظلت شركة الهند الشرقية التجارية (الانكليزية) تتحكم في شؤون الهند حتى سنة ١٨٥٧. (وبمدها انتقلت السلطة الى الحكومة البريطانية بالذات). وبريطانيا ساهمت مع روسيا واسبانيا في هزيمة نابليون، ومن ثم فقد ظل الغرب مقسما بين دول محلية مستقلة ذات سيادة، في عصر اخذت الثورة الصناعية تزود كلا من تلك الدول بسلح لم يسبق لفتكه مثيل. وقد اصابت بريطانيا مقتلا من الصين لما حاجتها واتصرت عليها (١٨٣٩- ٤٢).

كانت هذه اعمالا ضخمة. لكن اضخم عمل قامت به بريطانيا كان دفع الثورة

الصناعية. ففي عملها هذا وجمعت كفة تولزن القوى بين المجال الحيوي والانسان الى جهة الانسان، وهذا ما انتهى الى ان الانسان اصبح في قدرته ان يفسد المجال الحيوي بحيث لا يملح للميش فيه لجميع المخلوقات، بما فيها البشرية بالذات.

٨١- المجال الحيوي ١٨٧١-١٨٧٢

بداهة في سحنات القرن الحالي، ان المجال الحيوي يحقق به الخطر الكبير بسبب الفلوت، بحيث انه قد لا يبرد صالحاً للعيش لاي شكل من اشكال الحياة، وذلك بفعل واحد من خليفة هذا المجال الحيوي وزينته، وهو الانسان. وكانت تتضح للناظر نظرية تاريخية بان سيطرة الانسان على المجال الحيوي كانت تتزايد باستمرار. واذ بلغ الانسان مبلغ البشرية كان قد تجرد من جميع الادوات والأسلحة الطبيعية التي تحمي بها، الا انه كان قد زُوِدَ بمقل واع كان قادراً على التفكير والتخطيط. كما انه كان له عضوان طبيعيان - دماغه ويدا - اللذان كانا الادتين الساعدين لتفكيره وتنظيمه ومحاولاته لتحقيق اهدافه بالفعل.

ان الادوات كانت ملازمة للوعي البشري. ومقدرة الانسان على استعمال الادوات ممكن له من الحفاظ على كيانه في حقل التنافس في المجال الحيوي خلال العصر الحجري القديم المتأخر، وهو الفترة التي تشغل اطلاقاً اطول مدة من التاريخ البشري حتى اليوم. فمنذ بدء العصر الحجري القديم المبكر والانسان - قبل ٧٠ - ٤٠ الف سنة، يقف موقف المهجوم من بقية المجال الحيوي. ولكن سيطرة الانسان الهائلة لم تتم فصولاً الا منذ بدء الثورة الصناعية وهي مدة لا تزيد عن قرنين من الزمان. فقد زاد الانسان في قوته المادية بحيث انه اصبح خطراً حتى على مجرد بقاء المجال الحيوي. لكنه لم يزد امكاناته الروحية. والفجوة بين هذه وبين قوته المادية كانت، نتيجة لذلك، تسمح تدريجياً. وهذا النمو في الفرق هو مزعج حقاً. والتفسير الوحيد المعقول في تركيب المجال الحيوي الذي يمكن ان يتخذ هذا المجال هو زيادة القدرة الروحية للانسان. بذلك يمكن ان يحال دون تدمير المجال الحيوي - ومعه تدمير الانسان نفسه. والتدمير

هذا - اذا تم - سيكون سببه الطمع المصلح بقدره تؤدي الى القضاء على الاهداف المستغاة اصلا.

وثمة اعراض عديدة تغلنا على الأثر المخففة المترتبة على ضغط الانسان على المجال الحيوي، كما تبدو في سبعينات القرن الحالي. فسكان المجال الحيوي يتزايدون بسرعة متناهية، وهذا العدد الضخم من السكان يتركز في مدن جبلة، ولما كانت اقلية سكان الأرض لا يزالون معوزين، فان هذه المدن لا تخرج عن كونها امتداد لبلدان أكوام، طفيلية ملحقة بالاصل، يقطعها العاطلون عن العمل او غير الصالحين للعمل والمهاجرون من الريف حيث كانت اكثرية البشرية تعيش وتعمل منذ ان اخترعت الزراعة في العصر الحجري الحديث. والمدن تدور حول الأرض خطافات على شكل طرق - السرعة للسيارات او مدارج للطائرات. والاقلة من السكان المنتجة للمسلح الصناعية والمواد الغذائية والمواد الخام العضوية - وهذه الاقلية تلجأ، في هذا الانتاج الى عمليات والآلات معقدة وميكانيكية بالآت ضخمة - هي (اي الاقلية المنتجة) التي تلوث الغلاف السائي والغلاف الهوائي في المجال الحيوي بما تفرزه لهذه العمليات السلمية. انها تلوث المجال الحيوي حتى عندما لا تسقط نفايات النبات ولا تقتل الحيوانات (البشري وغير البشري على السواء) عمدا عن طريق العمليات الحربية المدمرة.

في سنة ١٨٧١، وحتى الى سنة ١٩٤٤، لم قبل ان تعظم الفرة، كان يبدو من غير الممقول ان المحيط والجو في المجال الحيوي يمكن ان يلوأ بكاملهما الى درجة السم بصنع شيء ضعيف هو الانسان، الذي هو بالذات منتوج من منتوجات المجال الحيوي. وتبدو مقننة للانسان في جمال المجال الحيوي بكامله غير صالح للمعيش في افناء بعض اصناف الحيوانات البرية - ولكن الانسان نفسه وحيواناته الأليفة لا تستمع بالصناعة ضد الفناء. وبعض هذه - اي الحيوانات الأليفة - تصاب بالتسمم دون ان تكون النشاطات البشرية موجهة نحوها عمدا.

ان النمو الطبيعي للمدن كان عظيما في حدود عمر اولئك الذين ولدوا سنة ١٨٨٩ (مثل مؤلف هذا الكتاب). فقد شهدوا انقرة واينا تنتقلان من مدينتين صغيرتين الى مدينتين عملاقتين منذ سنة ١٩٢٢.

ومنذ ١٩٢٩ اختفى الريف الياباني قرب مضيق شيمونودوكي تحت عبء الشوارع

والسناؤل. والحج الذي ولدت فيه ونشأت فيه في لندن، قد تبدل منذ الحرب العالمية الثانية، مثل بعض الأحياء البلجيكية، إلى حد لا يمكن معه التعرف عليه. فبعد أن هُدمت القنابل الألمانية البيوت في هذا الحي، قامت فيه الأبنية الإنكليزية طويلاً مرتعاً تسر فيه السيارات وغيرها.

إن ابن لندن المولود سنة ١٨٨٩، في أسرة من الطبقة المتوسطة، احس بال ١٤ آب (أغسطس) سنة ١٩١٤ كان وقفة مذهلة في القرن ١٨٧١-١٩٧٣. فبالمقارنة مع السنوات ١٨٧١-١٩١٣، تبدو السنوات ١٩١٤-١٩٧٣ كأنها زمن محن أوقعت البشرية بكاملها نفسها فيها. فقد كانت هناك حربان عالميتان كانت الحرب في كل منهما (والحرب في حد ذاتها جريمة) سفاكة ومدمرة على شكل لم يعرف من قبل. لقد كان ثمة سفك دماء في تركيا وفي ألمانيا وفي الهند. ووقع عرب فلسطين ضحايا. وأصاب النجباء والأكثريّة الأفريقية الوطنية في جنوب إفريقيا المحن. ولا تزال واحدة من «الحروب الدينية» قائمة في نيرلندا بوحشية. والطبقة المتوسطة في الغرب انخفض مستوى معيشتها انخفاضاً واضحاً نسبياً كما أصاب المهاجرين، من غير الغربيين، من الرف إلى البلدان الأكوخ (الملحقة بالمدن الضخمة). وبالمقارنة مع السنوات الأخيرة ١٩١٤-٧٣، فإن سنوات ١٨٧١ و ١٩١٣ تبدو وكأنها عصر ذهبي لمي ذكريات الغربيين من الطبقة المتوسطة الذين كانوا قد بلغوا أشدهم سنة ١٩١٤، والذين امتد بهم العمر إلى السبعينات الحديثة. ومع ذلك فعندما يلقي إلى القرن ١٨٧١-١٩٧٣ بكامله بنظرة إلى ماضيه، يتضح أن الأمل الذي كان الحال السائد بين ١٨٧١ و ١٩١٣، لم يكن له ما يبرره.

فالإنكليزي من الطبقة المتوسطة الذي ولد سنة ١٨٨٩ كان يظن (من السن التي أصبح يمي فيها العالم المحيط به حتى سنة ١٩١٤) أن اللجنة الأرضية في مشاغل يده. فالعمال المناهضون سيعطون حصتهم الحقيقية من إنتاج البشرية العام، وإقامة حكومة برلمانية مسؤولة سيتم في ألمانيا ويستحق في روسيا، وسينعم المسيحيون الذين هم تحت الحكم العثماني بحريتهم، وعندما يصل الناس إلى تحقيق الآمال النهائية للحياة على الأرض.

لم ينتظر الغربيون أن يروا القتل للحروب. وبعض الغربيين - مثل البعض في ألمانيا والبعض الآخر في دول البلقان - لم يكونوا ينتظرون عودة الحروب فحسب، بل كانوا

ينتظرونها حتماً. لكن حتى أكثر المياليين إلى الحروب من الألمان مثلاً كانوا يتصورون حروباً قصيرة مثل حروب بسمارك ولم يتصوروا حروباً تقابل حروب نابليون أو حروب الثلاثين سنة (١٦١٨ - ٤٨) في الممانيّة أو الحروب الأهلية في امبركا الشمالية (١٨٦١ - ٥) .

والحروب التي قُلت بين ١٨٩٤ و ١٩٠٥ كانت حروباً قصيرة أو إقليمية، ولم تمسّ العالم (الحرب الصينية - اليابانية، ١٨٩٤ - ٥ ، والحرب الأسبانية - الأمريكية ١٨٩٩ - ١٩٠٢ ، وحروب البلقان ١٩١٢ - ١٣ ، والحرب الروسية - التركية ١٨٧٧ - ٨ ، والحرب الروسية - اليابانية ١٩٠٤ - ٥) .

وبالنسبة إلى طفل إنكليزي من جيل مؤلف هذا الكتاب كانت الأمور تبدو سنة ١٨٩٧ (وهي السنة التي احتفل فيها البريطانيون باليوبيل الماسي للملكة فكتوريا التي تولت العرش سنة ١٨٣٧) وكأنّ العالم الذي ولد فيه قد تخطى التاريخ. إذ إن التاريخ كان معناه، بحتى الساذجة، صفحة سابقة من الظلم والفساد والألم التي تركتها الأمم المتعددة خلفها، إلى لا عودة. كانت الحمية الغربية مدنية، وكانت فريدة، وكان قياها وسيطرتها على العالم بمثابة مكانتين حقيقيتين لخصائصها، و « المدنية » جاءت لطبي، ولذلك أصبح التاريخ الآن امرأ عتيماً.

إن الأجهزة التي قام عليها هذا الأمل كانت عظيمة. ولكن كلا من هذه الأجهزة كان ناقصاً، وكان يحمل في طياته بذور الأزعاج المستقبلية. وفي السبعينات بدت النقائص واضحة للعالم. لكن بين ١٨٧١ و ١٩١٤ لم يكن من السير شيئاً.

على سبيل المثال، تحرير الأفغان في روسيا (١٨٦١) ولفاء الرق في الولايات المتحدة (١٨٦٣) والبدء بلفاء الرق في البرازيل (بدءاً من ١٨٧١) ظهرت كأنها معالم ساطعة على طريق الجنة الأرضية. لكن لأفغان الروس لم يحصلوا على الأرض، والسود في الولايات المتحدة لم يتخلصوا من المنهجية والحق والفرقة. وبالنسبة إلى العمال الصناعيين في البلاد الغربية فإن وضعهم الاقتصادي تحسن، لكنهم، بسبب التقدم التكنولوجي في تنظيم الصناعات - مثل الرناد الناقل وخط التجميع - أصبح العمال رجالاً ونساء مرتبين علمياً للقيام بأعمالهم. وبذلك ظلوا غريباء روحياً عن المجتمع الذي أوجد هذه الطبقة الاجتماعية.

وقيام الوحدة الإيطالية والوحدة الألمانية (١٨٧٠ - ٧١) اعتبر عاملاً استقراراً في

تركيب الأوكومين السياسي، إذ إن الدولة الوطنية المستقلة ذات السيادة أصبحت هي الوحدة السياسية القياسية.

ومنذ سنة ١٨٧١ لم تلم حرب (سوى الحرب الروسية - اليابانية ١٩٠٤ - ١٩٠٥) اشتركت فيها دولة أو أكثر من الدول الكبرى. (وبريطانية، مثلاً، لم تشارك في حرب روسيا مع تركيا أو مع اليابان). واحتلال روسيا للمناطق الوسطى في آسيا لم يؤد إلى حرب بينها وبين بريطانيا. وبين ١٨٨١ و ١٩١٢ انقسمت الدول الغربية (بريطانية وفرنسا وألمانيا وبلجيكا والبرتغال وإيطاليا وروسيا) تقريباً شرق آسيا والصين خاصة، دون أن تقع بينهم حرب قط.

وكان ثمة ما يدل على أن السلم سحافظ عليه الدول الكبرى، وسحافظ على النظام أيضاً حتى بعد أن عزل وليام الثاني إمبراطور ألمانيا بسمارك (١٨٩٠). وقد كان يومها ثمان دول - وثلاث منها فقط، روسيا والولايات المتحدة واليابان، كانت خارج أوروبا. ومع أن الدول الأوروبية كانت ذات سيادة، فقد وجد المؤلف الحالي أنه في سنة ١٩١١ لم يحتج إلى جولة سفر إلا في تركيا ورومانيا، وأنه كان يبدل الجنه الانكليزي، أو الليرة الفرنسية الذهب في قرية يونانية بتقد قضي قد يكون فرنسا أو إيطاليا أو بلجيكا كما يمكن أن يكون بوليا. فالحدود السياسية لم تكن قد أصبحت حواجز نقدية أو عوائق في طريق الأتراك.

ومع ذلك فقد كان ثمة ما يفر بالشر. ففرنسا لم تقبل بمسألة الألزاس والمورين الألمانية (١٨٧١)، ولم يقبل السوابسون هناك بأن يكونوا رعايا الرايخ الألماني الثاني. كان بسمارك يحول دون عقد تحالفات. وبعد سقوطه قامت هذه التحالفات: اتفاق فرنسي روسي (مع ملحق عسكري) ١٨٩٢ - ٣، فرنسا وبريطانية الأنفاق الودي ١٩٠٤، واتفاق بين بريطانيا وروسيا ١٩٠٧، وبدأت ألمانيا تنافس بريطانيا كدولة بحرية (١٨٩٨). هذه الدول كانت تخطط للتصبة وللعمليات العسكرية.

ومع أن الدولة الوطنية أصبحت منذ توحيد إيطاليا وألمانيا (١٨٧٠ - ٧١) هي الوحدة الطبيعية العادية والحقة سياسياً، فإن مناطق شرق أوروبا لم تحصل على هذا الحق. فبولاندا كانت مقسمة بين روسيا وبروسيا والنمسا. واليونان والبلغار والعرب ورومانيا كانت لا تزال تنتظر اليوم الذي تحصل فيه على أراضي تابعة لها لا تزال تحت حكم العثمانيين أو أسرة هابسبورغ. ومثل ذلك يقال عن إيطاليا.

وهكذا فإن البنية السياسية للاروكومين كانت، قبل الحرب العالمية الاولى، متوترة بسبب نشأتها في ان توجد في شرق اوروبا ما تم عليه الترتيب في غرب اوروبا واصبح الامر المعادي. ولكن حتى لو ان الاراضي المفتوحة المذكورة جميعها، ولو ان الاراضي المحتلة من بينها، حولت الى دول وطنية، لظل التوتر قائما. وذلك بسبب النزاع الذي لم يحل بين المطالب السياسية والحاجات الاقتصادية للبشرية.

كانت الدولة الوطنية المحلية المثال السياسي للشعوب الأوروبية ولعدد متزايد باسمرار من الشعوب الأخرى، التي اعتنقت بالمؤسسات الغربية. وقد ظهر تعلق الشعوب الأوروبية بالوطنية في مقاومتهم الناجحة للمحاولات التي قام شارل الخامس وفيليب الثاني ولويس الرابع عشر وناپليون على التوالي لاعادة المسيحية الغربية الى الوحدة السياسية أمام هودوسوس وشارلمان. ومع ذلك فإن الوحدة السياسية كانت غفائي زعفا مع الحياة الاقتصادية، منذ ان اندمج الاروكومين بسبب سيطرة الصينيين والبرتغاليين والاسبان على تقنية الملاحة في المحيط في القرن الخامس عشر. والدمج الاقتصادي للاروكومين الذي بدأه البرتغاليون والاسبان كان قد قطع شوطا ابعد بسبب الثورة الصناعية في بريطانيا.

فالي وقت الثورة كانت أكثر السلع التي تبادلها التجارة العالمية من الكماليات. ولكن بسبب الثورة الصناعية صارت السلع المتبادلة تزيد فيها كميات الاشياء الضرورية للحياة. والمستثمرون البريطانيون الذين بدأوا الثورة الصناعية ربحوا طائلا على الاموال الطائلة التي انفقوها في الآلات، إذ صارت بريطانيا مصنع العالم. ومنذ ذلك الوقت أصبحت بريطانيا تصير المصنوعات وتصدر المواد الخام والمواد الغذائية، على مقياس عالمي. وقد حافظت التجارة العالمية على هذه الأبعاد التي تحيط بالكرة الأرضية لها، بعد سنة ١٨٧١، انتزعت الساتية والولايات المتحدة وغيرها من البلاد من بريطانيا احتكارها لهذه التجارة، إذ صارت سيرتها.

كانت نقطة البدء في دمج الاروكومين اقتصاديا اختراع البرتغاليين للسفينة الشراعية التي تبحر عاب المحيط. ونمت هذا الدمج كانت في تدشين الاتحاد العالمي للتعرف (١٨٦٤) وتدشين الاتحاد العالمي للخدمات البريدية (١٨٧٥). كانت البشرية يومها قد اتخذت بالاعتماد على التوحيد العالمي على المستوى الاقتصادي، لكنها ظلت ترفض التخلي عن العزلة الوطنية، على المستوى السياسي، وهذا الانحراف لا يزال

مستمراً بالرغم من الدمار الذي سببه منذ سنة ١٩١٤. والتضخم الذي نتج عن ذلك من القضايا البشرية قد بلغ إلى حد أنه يهدد بشل المجتمع البشري بكامله بأشياء أقلية من الفلاحين والصيادين وجنسي الطعام التي لا تزال تعيش على ما تنتج أو تجمع لمسها، دون أن تأمرها السوق العالمية.

بلغت السفينة الشراعية الغربية الحديثة القفوة في تطورها خلال الفترة بين ١٨٤٠ و ١٨٩٠، إذ كانت تقاتل معركة عنيفة مع السفينة البخارية المتنافسة لها، والتي انتجتها الثورة الصناعية. وقد كان هذا أيضاً العصر الأخير للموسيقى الغربية الكلاسيكية الأسلوب، التي وصلت القفوة عند منقلب القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر في أعمال بينهوفن (بينهوفن). والأسلوب الغربي الحديث في الرسم كان قد تجاوز قمته لما انتقلت الأولوية من الإيطاليين والفلاطريين إلى الأسبان والهولنديين، حول السنة ١٦٠٠. والسفينة الشراعية الكلاسيكية حلت محلها السفينة البخارية لما أضاف إليها وط الحسب المهيمن. وقد جمعد الأسلوب الطبيعي في الرسم لما اخترع فن التصوير (الفوتوغرافيا). وخلال السنوات التي مرت بين ١٨٧١ و ١٩١٣، وهي فترة سلم درعاه في الظاهر، كان المراسلون ومؤلفو الموسيقى يدخلون مسداً عن تقليد طويل الأمد، وكانوا يبحثون عن صيغ للتعبير مختلفة اختلافات جديداً. من المؤكد أنهم أحسوا أن الأسلوب الكلاسيكي، لفنونهم قد استنفد، كما لو كان منجماً للفهم استخرج كل ما فيه. وبدأ في السبعينات، في نظرة عقلية، كأن الفنانين الغربيين أدركوا بالحس المسبق، وهم يتمتعون بفترة من الجو الهادي، بالعاصفة التي ضربت المجتمع الأوروبي في الجيل اللاحق. إن الفنانين لهم هوياتيات بسبكية التي تحبس، مسبقاً، بالأحداث الغربية الصعبة.

وإذا نحن أردنا أن نضع لائحة موازنة لتجارب البشرية وأعمالها بين ١٨٧١ و ١٩٧٣، لوجدنا أن أول ما يبطئنا هو هذا العدد الضخم من الاكتشافات والاختراعات. كان الإنسان الغربي قد توصل إلى اكتشافات واختراعات ذات بال خلال القرون الثلاثة التي سبقت ذلك، لكنه في القرن الذي ينتهي في ١٩٧٣ تخطى الأسان إنجازاته السابقة في هذه الميادين. فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) نقل التصرف في المستويات عبر الواعية من البسيكية البشرية إلى المستوى الواعي. وأينشتين أعطى الفيزياء مجالاً أوسع إذ اعتبر أن الملاحظة هي تفاعل. فالناظر (الملاحظ) هو نفسه

جزء من العالم الطبيعي الذي يقوم بملاحظته خلال الزمان والمكان. واكتشاف وجود الالكترونات وطبيعتها (كشف ج.ج. تومسون 1897) برهن على ان كلمة الجوهـر الفرد (اتم) هو تسمية خاطئة. لقد ثبت ان « الجوهـر الفرد » ليس وحدة لا تقبل الكسر . لقد كانت عالما شحيا قلما يذكه. وقد نتج بذلك ديفردي (1871 - 1937) في سنة 1904 فقد تعرف الى ماهية النواة، وتجمع في تحطيمها (1919). وقد تم اكتشاف تركيب النواة لما تعرف تشادويك الى وجود النيوترون وطبيعتها (1932). وهذه الاكتشافات في مجال الفيزياء قادت العلماء الفيزيائيين، بدءاً بما قام به نيلزبور (1885 - 1927) الى الاعتراف بحقيقة اسلوبية المعرفة واسسها وهي : ان حادثة معينة معروفة يمكن التعرف اليها بطريقتين لا تختلفان فحسب، ولكنهما لا يمكن ان تلغيا ولا يمكن ان تسمى التجربة بهما في الوقت ذاته. ومع ذلك فان الطريقتين صحيحتان ولا يستلني عنهما.

ومع ان المفاهيم (الكوتشوك) كان قد ادى ميزر - اميركا يستعملونه لصنع الطائرات، وكان النفط يستعمل في النار اليونانية في الامبراطورية الرومانية الشرقية، فان هاتين المادتين شهدتهما الفترة بين 1871 و 1973، نستعملان للدواب ووقود للاحراق الداخلي في الآلات. ومن هنا يمكن صنع السيارات والطائرات. وهذا منح الانسان عن طريق الطيران، مكانا في الجو كان خاصا بالحيشرات والطيور والخفافيش.

وقد كانت ثمة احداث دراسية في مجال الاكتشاف الجغرافي والتاريخي - فاكشف الانسان القطبين ووصل الى القمر، ونقب عن ثمار المدهبات السابقة من السند الى كريت.

وابرز الاكتشافات والاختراعات التي توصل اليها الانسان خلال السنوات المئة الاخيرة، هي التي جاءت في ميدان الطب والجراحة. فاكشف المخدر (البنج) بسر للجراحين القيام بعمليات جراحية قد لا تتخيل. وعرفنا ان البعوضة تنقل حمى الملاريا والحمى الصفراء، بسر محطرتها ومحاربة المرضين معها.

لكن اختراعات الانسان واكتشافاته كان لها اثارها السيئة في المجتمع. فالطيران والبارود مكنا الانسان من لقاء القنابل من الجو، بحيث كانت تصيب المقاتلين والامنيين على السواء. وفي غضون اقل من نصف قرن من اكتشاف وجود الالكترونات

(١٨٩٧) ألغيت القيود على هيروشيا ونغواكي. وفي سنة ١٩٧٣ كان الغاز الذي تنفثه السيارات قميئا بأن يجعل هواء المجال الحربي غير صالح للتنفس. وتقليل نسبة الرقبات له نواحيه المختلفة. فهناك زيادة في عدد السكان. وهناك اعادة الحياة لأشخاص مشكوك في ذم انذاتهم هم من اطلاق حياتهم كانت وظيفة الحكومة، قبل الثورة الصناعية، تتكون في حفظ القانون والنظام، ورض الحروب عند الحاجة. ولكن بعد قيام طبقة العمال الصناعيين، بسبب الثورة الصناعية، حتم على الحكومة ان تعنى بالمجتمع صحيا واجتماعيا وتعليميا وما الى ذلك. في البلاد التي لا يزال للمقطاع الخاص في اقتصادها الطيبة والتي لها حكومة ديمقراطية (أي برلمانية)، فإن التشريع الاجتماعي للبرلماني وعمل الاتحادات العمال ممكن للاغلبية من العمال الصناعيين من متجعي الحرارة والضوء الى منظمي امواض الموائى، والشوارع، ان يحصلوا على مزيد من النفع مقابل ما تحصل عليه الطبقة المتوسطة، وبخاصة اصحاب المهن الحرة كالمعلمين ومن الهم. واصحاب المهن التي تتحمل المساومة لا يحدون ان تدخل الحكومة في امور المهنة او التجارة او الصناعة، لأن ذلك يعطيهم المجال لبل اكثر ما يمكن من الربح الخاص لا النفع الجماعي فقط.

اتحادات العمال تنجح في مساوماتها وفي الحصول على المنافع لأفرادها في الدول الديمقراطية البرلمانية، اما في الاتحاد السوفيتي والدول التي تشبهه فإن العمال، صناعيين كانوا ام زراعيين، سيرون بحكم قوانين صارمة تصدر عن حكومة تسلطية. والحكومة السوفيتية تحقق ايدولوجية ماركسية. لكنها تدبر البلاد على الطريقة التي كان يتبعها القيصر الروسي من قبل. وقد لهد الفلاحون الروس ثورة أكتوبر (١٩١٧) املا في ان تحسن احوالهم ويمتلكون بعض الارضين على نحو ما اصاب فلاحي فرنسا بسبب الثورة الفرنسية (١٧٨٩). لكن كل شيء في روسيا أفسد - الارض ومصادر الثروة والمصانع. والمعامل هو الآخر يعمل تحت تنظيم بيروقراطي دقيق.

الا ان الاتحاد السوفيتي هو، مثل المملكة المتحدة، حكومة رعاية اجتماعية، على طريقته الخاصة، وذلك لاذ قورن روسيا القيصرية. فقد نشر التعليم ووزعت الثروة توزيعا افضل من ذي قبل. لكن الدول جميعها، بقطم النظر عن ايدولوجيتها، ظلت دولا مستعدة لشن الحروب. والحروب هي عمجية دوما، والحريان اللتان عرفهما القرن

العشرون اشتهرتا بالاضافة الى هجبة الحرب بالذات، بما قل فيها من المدنيين. ولعلّ الحداثين اللذين يمكن ان ينظر اليهما بشيء من التعطف في حربي القرن العشرين هما: مقاومة الشعب التركي (١٩١٩ - ٢٢) للدول الخارجة منتصرة من الحرب العالمية الاولى، ومقاومة الشعب البريطاني (١٩٤٠ - ١) للامانة التي كانت تحسب نفسها منتصرة، وكان ذلك موتاً. وقد كان من حسن حظ الشعب التركي ان يجد مصطفى كمال (أتاتورك) يومها، كما ان الحظ خدم الشعب البريطاني اذ سر له تشرشل.

وفي الهند شهد القرن الحالي قيام غاندي (١٨٩٦ - ١٩٤٨) الذي كان يختلف عن لينين ومصطفى كمال، في انه لجأ الى سياسة اللاعنف واللاتعاون (مع السلطة)، وكان غاندي يحسب ان يقطع الصلات الاقتصادية بين الهند والغرب، كي يجنب الهند الدخول في مجال العالم المتكّن.

وقد انتهى الاستعمار البريطاني لشبه القارة الهندية سنة ١٩٤٧، وذلك بقسمة البلاد الى الهند وباكستان، لا على قواعد غاندي (قتل غاندي سنة ١٩٤٨)، وقد رافق هذا الاستقلال والتقسيم عناب وهجرات وقتل وتشريد.

ومثل هذا الذي حدث في الهند حدث في أماكن كثيرة. وهذا الحد جنوب افريقية المسفل. ان اقلية اوروبية الاصل تحكم الغلبية حكماً فيه غلبة وفهر لان الاغلبية الافريقية هذه سوداء. وهذه فلسطين - شرد لاهلها العرب وسفلى اليهود المهاجرون على يوتهم واملاكهم.

لقد اشرنا من قبل الى التناقض بين التقسيم السياسي للادويكومين الى دول وطنية ذات سيادة والوحدة التي يمتنع بها الادويكومين على المستويين التكنولوجي والاقتصادي. فالحاجة ملته الآن الى قيام تنظيم سياسي حكومي يشمل الكرة الارضية بكاملها، ليحفظ هذه الدول من اعتماداتها المتكورة، ولاعادة التوازن بين الانسان والمجال الحيوي، اذ ان هذا التوازن قد اضطرب بسبب ما جمع الانسان من قوة مادية ناشئة عن الثورة الصناعية.

ان البشرية تأخذ بخطاها لزمة خائفة، وهي لا تقل في شرها عن الحريين العالميتين، والمستقبل مزعج لان البشرية تستطيع ان تستمر في العرش في هذا المجال الحيوي حتى مليون سنة اخرى، هذا اذا لم يؤد عمل الانسان الى جعل المجال الحيوي هذا غير

صالح للعيش في وقت قبل ذلك. لكن الإنسان الآن يستطيع ان يجعل المجال الحيوي عبر صالح للعيش في المستقبل القريب، ومن ثم فانه من المحتمل ان الثامن الاحياء قد تقمص اعمارهم فجأة عن طريق تكتية من صنع الانسان، يمكنها ان تدمر المجال الحيوي وتقضي على البشرية جمعاء، مع ما هناك من اشكال اخرى للحياة. عايناهما احتمالان - لكنهما ليسا الخيارين الوحيدين.

ان المستقبل لا يمكن تخرجه، لانه لم يصلنا بعد. وامكانيات المستقبل غير محدودة، ومن ثم فليس من الممكن ان نتنبأ عنه من اعتبارات الماضي. كل ما حدث في الماضي، قد يحدث ثانية، ولا شك، اذا ظلت الاحوال على ما هي عليه. لكن حادثة سابقة ليس من الضروري ان تحدث ثانية؛ انها واحدة من عدد من الاحتمالات. وبعض هذه الاحتمالات لا يمكن تظلمها، لانها ليس لها سوابق معروفة. وليس ثمة من سابقة لهذه القوة التي تسيطر بها الانسان على المجال الحيوي على النحو الذي تم خلال القرنين من ١٧٦٣ الى ١٩٧٣. وفي هذه الاحوال السخيفة ثمة نبوءة واحدة يمكن ان يقدمها الواحد وهو متأكد منها انه الانسان، وهو لبن الام الارض، لن يعيش بعد جريمة قتل الام ان هو اتقنها. فالقلب هو القضاء على النفس!

٨٢- نظرة الى الماضي - ١٩٧٢

إن المستقبل ليس موجوداً بعد، والماضي انتهى امره، ومن ثم فإن احداث الماضي لا يمكن تبديلها. وعلى كل فان هذا الماضي الذي لا يمكن تبديله لا يُعطينا المظهر نفسه دوماً وفي كل مكان. ننظرنا الى علاقة احداث الماضي الواحدة بالآخرى، والى الاهمية النسبية لكل منها، والرها - كل هذ يتغير بتغير المكان والزمان اللذين تنظر منهما الى حادثة معينة - فالشخص نفسه الذي يعود بنظره سنة ١٨٩٧ الى حادثة قديمة يراها بشكل آخر اذا نظر اليها سنة ١٩٧٢. اما اذا كان الناظر يتفحص القضية الماضية نفسها في العامين سنة ٢٠٧٢ او في نجربا سنة ٢١٧٢، فان الرؤى تختلف.

منذ ان اصبح أبائنا بشرا عاشت البشرية حياتها (باستثناء القسم الاخير منها وهو جزء من سنة عشر جزءاً منها) في العصر الحجري القديم المبكر. وفي هذه الحالة فان الجماعة التي تعيش على جمع الغذاء كانت صغيرة عدداً وكانت تسكن رقعة واسعة. فالتجمع كان معناه الانتحار.

كانت التكنولوجيا في ذلك العصر ثابتة، لكن قبل ٤٠,٠٠٠ سنة (او على أي حال ليس قبل اكثر من ٧٠,٠٠٠ سنة) كان ثمة تقدم سريع مفاجيء في التكنولوجيا. فقد استبدلت الادوات القديمة بانوات افضل. ومنذ ذلك الوقت والتكنولوجيا تتقدم، لكن تقدمها لم يكن مستمرا. كانت تهر بالبرية ثورات اختراعات تكنولوجية، وهناك وقفات تمرضها. والثروات الرئيسة الى اليوم هي: العصر الحجري القديم المتأخر (تحسن في الادوات وتنجيس الكلب)، والعصر الحجري الحديث (تحسن في الادوات وتنجيس حيوانات اخرى ونباتات واختراع الغزل والنسيج وصنع للفخار)، ونورة الالف الخامس ق.م. (اختراع الشارع والدولاب والتدين والكتابة)، والثورة الصناعية (توسع كبير في المكنة). وتقدم التكنولوجيا لم يكن مستمرا، لكنه كان تراكميا.

والتكنولوجيا هي المجال الوحيد الذي تقدم فيه الإنسان، أما « الاجتماعية » البشرية فلم تتقدم على النحو ذاته.

وكان أهم ما نتج فيه الإنسان تكنولوجيا هو تدجين الحيوانات واختراع الزراعة (في العصر الحجري الحديث). فقد ظل هذا أساس ما تبقى من تقدمه التكنولوجي حتى في عصر الثورة الصناعية، كما كان أساس المدن التي قامت ثم انقرضت. إن جماعة القرية في العصر الحجري الحديث كانت كبيرة بالنسبة إلى ما سبقها، لكنها لم تبلغ من الحجم ما يمنع أفرادها من الاتصال والمعارف، ولم تكن تتطلب بعد اختصاصات معينة، إلا أنها كانت بمعزل عن غيرها من القرى الأخرى. لكن « الاجتماعية » البشرية (في القرية هنا) كانت أساس العلاقة بين الناس وبين الجماعات.

وقد يبدو شريفا أن الملاحين الذين كانوا يعيشون (سنة ١٩٧٣) جماعات قروية من أسلوب العصر الحجري الحديث كانوا أكثرية البشرية، لكنهم كانوا يسافرون بسرعة من الريف إلى المدن - الأكواخ المحيطة بالمدن، فيما كانت السكنى التي وجدت أصلاً لتنظيم أمور الأشياء غير الحية صناعياً، أصبحت تستخدم في الزراعة وتربية المواشي. يضاف إلى هذا أن فلاحى الأويكرميس قد مرت عليهم، إلى الآن، خمسة آلاف سنة وهم يحملون أعباء مدنية مركبة معقدة. وقد حدث هذا لأنه في الألف الرابع ق.م. انتج التقدم التكنولوجي فائضاً اقتصادياً: استخدم بعضه في الحروب، وورع بعضه لوزعها غير عادل، بحيث استولت أقلية على أكثره. والتقدم التكنولوجي في الألف الرابع انتهى قيام اختصاصيين (مدنيين وحملين ومخططين ومنظمين للأعمال العامة مثل الري وتصريف المياه الخ)، وكان ثمة توزيع للثروة الناشئة عن الحياة الاقتصادية الجديدة، ولكنه توزيع غير عادل، فضلاً عن أنه أصبح لربها. والظلم الاجتماعي والحرب هما ثمن هذا الثراء الجماعي، وهما العنطان الاجتماعيتان اللتان جاءتا من المدنية ولا تزالان تعصفان بالبشرية اليوم.

وقد كان الإنسان منذ فجر المدنية، يبدو عليه تناقض في سيره التكنولوجي وتصرفه الاجتماعي. والتقدم التكنولوجي الذي مر على الإنسان، وبخاصة بين ١٧٧٣ و ١٩٧٣، زاد في قوته وكرمه. والفجوة الخلقية بين قوة الإنسان الطبيعية على صنع الشر ومقدرته

الروحانية لتصرف هذه القوة قد اتسعت اشداتها. وهذا هو الذي غرض على البشرية ان ترفع نفسها في مصالب كبيرة خلال الخمسة الاف سنة الماضية.

وتقدم الانسان الاجتماعي حده عجز الانسان روحيا. وهذا الامر انعكس على التقدم التكنولوجي. فقد تعددت التكنولوجيات بحيث انها اقتطعت تعاونا كبيرا بين المستعبد، لكن الممكنة الحديثة التي زادت الثروة والانتاج، جعلت العمل بمحد ذاته اقل ارضاء (للعامل) نفسها، ومن ثم خلق عاملا قلقا، فانحط مستوى الانتاج.

في فجر المدنية زيد الانتاج في مجاري دجلة والفرات الدنيا عن طريق تصريف المياه من المستنقعات وحفر الآقية للري. اذ ان الجماعات القروية الفائقة هناك لم تكن كافية للأمور التكنولوجية اللازمة، فكان لا بد من حشد جماعات جديدة، لا رابطة اجتماعية بينها. وهذه الجماعات الجديدة انشئت لها مؤسسات خاصة لاستيعابها. لكن هذه المؤسسات كانت مصطنعة، وكانت سريعة البطء، لذلك كان بين مؤسسيها رغبة في ان يلجأوا الى القسر لضمان استمرارها طمعا في الحصول على التعاون اللازم من السكان.

وقد كانت المؤسسة «الرئيسية» التي صنعها الانسان من فجر المدنية هي الدولة. فمثل ذلك الحين والدول تتجاوز وتتعاون. وفخائل - وهذه السروب ينحها هي من عامات المدنية. وكان النموذج النماذج للدولة هو دولة محلية ذات سيادة تحيط بها او تتجاوزها دول اخرى من نوعها. يوجد اليوم في الاويكومين نحو ١٧٠ دولة. وخطوط الاويكومين السياسي اليوم هي الخطوط نفسها التي كانت في ايام السومريين في الالف الثالث ق.م.

والدول ذات السيادة المحلية مؤسسة غريبة. فحتى المدينة - الدولة، ولندع اية صيغة اخرى جانبا، هي وحدة اكبر مما يمكن ان تكون العلاقات الاجتماعية فيها شخصية. وفي الجبهة الاخرى فان اكبر الدول المحلية لا تزيد عن كونها واحدة من عدد من الدول. انها تستطيع ان تقوم بحرب، لكنها لا تستطيع ان تزود الناس بالسلام.

ومجموعة الدول المحلية ذات السياسية التي تضر الأرض لا تقدر على الحفاظ على السلام، ولا هي قادرة على انفاذ المجال الحيوي من التلوث الذي صنعه الانسان او الحفاظ على المواد الطبيعية التي لا يمكن تعويضها. وهذه الفوضى المسكونة على المستوى السياسي لا يمكن ان تستمر لمدة اطول كثيرا في اويكومين اصبح وحدة

على المستويين التكنولوجي والاقتصادي. فالذي يحتاج اليه العالم هو جسم سياسي على سعة الكرة، مكون من خلايا صغيرة (نسبياً) بحيث يحس الواحد بالدفء في العلاقات الشخصية والمواطنة العالمية في دولة - العالم. وعلى كل فان الاويكومين الآن لا يمكن توحيدهم بالاساليب التقليدية البربرية المخربة القائمة على الفتح العسكري. فالاسلوب هذا اذا اعتمد في توحيد الاويكومين انتهى الامر به الى القضاء عليه.

وبعد، من استقصاء تاريخ الدول السومرية والهلينية والصينية والابطالية، ان العالم اليوم لا يمكن ان يوجد إلا تطوعاً، وانه لن يُقْبَلَ على هذا التطوع إلا شبه مكره على ذلك، ولذلك يبدو من الممكن ان مثل هذه الخطوة ستأخر الى ان توقع البشرية نفسها في كوارث ترغمها في النهاية على قبول الوحدة السياسية.

وقد يبدو لنا، في هذه المرحلة من تاريخنا، نحن الكائنات البشرية، ان نبط الحشرات الاجتماعية. ومع ذلك فيظل الانسان، بالإضافة الى انه طبيعة وجسم، يتمتع بروح. وهذه الروح تملك الوعي. ومن ثم فان الانسان يمكنه ان يختار - اما الخير او الشر.

والذي يتوجب على الانسان ان يتجه نحوه، في علاقاته وخياراته، هو المحبة. ففي الاويكومين، في عصر الثورة الصناعية يجب ان يوسع نطاق المحبة البشرية بحيث تشمل جميع العناصر التي يتكون منها المجال الحيوي، الحي منها والذي لا حياة فيه. هذا ما كان يفكر به (سنة ١٩٧٣) بريطاني مولود سنة ١٨٨٩.

لعلّ فئة من الناس يدركون ان مؤسسة الدولة قد فشلت، المرة بعد الأخرى، خلال ٥٠٠٠ سنة، في ان تحقق حاجات البشرية السياسية، وان مثل هذه المؤسسة لا بد من ان تكون، في مجتمع يشمل الكرة الأرضية، عابرة اليوم أيضاً، وهذه المرة أكثر من أي زمن مضى. ان عدد دول الاويكومين المستقلة قد تضاعف منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك فان هذه البشرية المجزأة سياسياً يزداد اعتمادها على بعضها تكنولوجيا واقتصادياً يوماً بعد يوم.

فهل تنفصل البشرية الأرض - الأم او ان الانسان يتقدها. انه يستطيع ان يتغلبها بماهة استعمال قوته التكنولوجية المتزايدة. والخيار الآخر هو ان الانسان يستطيع اتقاها بالطلب على الطمع العدواني الانتحاري الذي كان الثمن الذي حصلت عليه الأرض - الأم لقاء هبتها الحياة للكائنات الحية بما فيها الانسان.

يؤرخ المؤرخ البريطاني الكبير أرنولد توينبي في هذا الكتاب للأحداث التي صنعت تاريخنا منذ القرن الثالث حتى أيامنا الحاضرة. وفيه يدرس الحضارات الأولى في ما بين النهرين من سومرية وبابلية وفي بلاد الشام وبلاد فارس وفي معسر القديمة وبلاد الإغريق. ثم ينتقل إلى الحضارة الميزواميركية، الرومانية، المسيحية الغربية، البيزنطية، الإسلامية، الفارسية، الصينية، الهندية، وقيام الحركات القومية في أوروبا. وفي الأقسام الأخيرة من الكتاب يبرز توينبي بوضوح «فلسفته التاريخية» ومفهومه «لاويكومين» العالم الجديد المندمج بفضل انفتاح الحضارات بعضها على بعض وتمازجها وتقاربها.